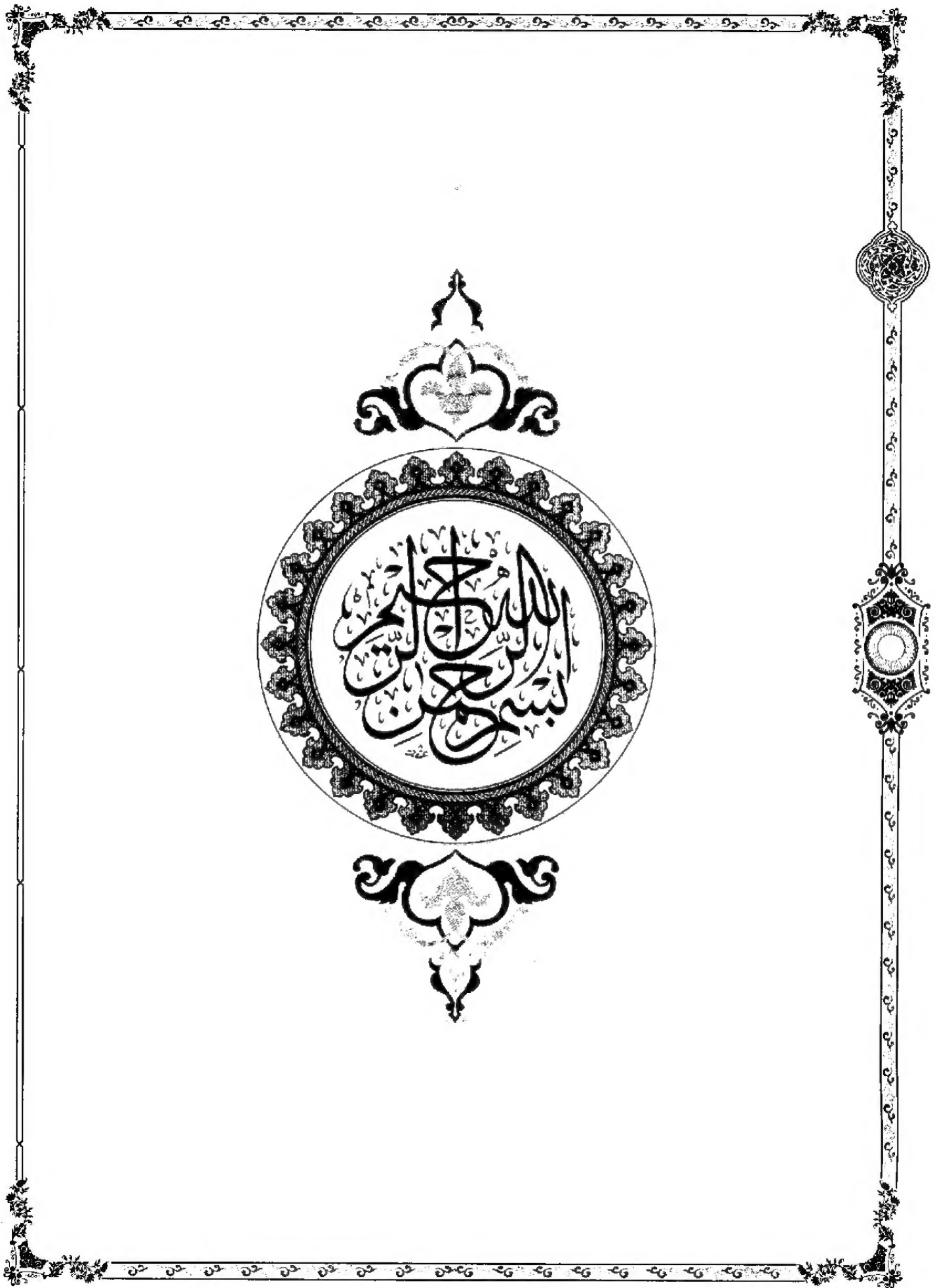


طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام القرطبي

١١١١ - ٢٠١١ م

إحياء علوم الدين



أَحْيَاءُ عُلَمَاءِ الدِّينِ

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطبراني الشافعي
رضي الله عنه

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) - (١٠٥٨ - ١١١١ م)

رُبْعُ الْمُهْلَكَاتِ / الْقِسْمُ الثَّانِي

كتاب

ذِمَّ الدُّنْيَا - ذِمَّ الْمَالِ وَالْبُخْلِ - ذِمَّ الْجَاهِ وَالرِّيَاءِ
ذِمَّ الْكِبَرِ وَالْعُجْبِ - ذِمَّ الْغُرُورِ

المجلد السادس

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
جميع الحقوق محفوظة للناسر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَدِيرٌ ؕ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَامًا يَذْكُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ
قُلْ هَٰؤُلَاءِ لِسِتْرٍ ؕ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ

إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَٰئِكَ

كِتَابُ
ذَمِّ الدُّنْيَا

وهو الكتاب السادس من ربيع المملكات
من كتب احياء علوم الدين

كتاب ذم الدنيا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي عرّف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتِها ، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها ، حتّى نظروا في شواهدِها وآياتِها ، ووزنوا بحسناتها سيئاتِها ، فعلموا أنّه يزيدُ مُنكرُها على معروفِها ، ولا يفي مرجوُها بمخوفِها ، ولا يسلمُ طلوعُها من كسوفِها ، ولكنها في صورةِ امرأةٍ مليحةٍ تستميلُ الناسَ بجمالِها ، ولها أسرارٌ سوءٍ قبائحُ تهلكُ الراغبينَ في وصالِها .

ثمّ هي فرّارةٌ عن طلابِها ، شحيحةٌ بإقبالِها ، وإذا أقبلت . . لم يؤمن شرُّها ووبالُها ، إنّ أحسنت ساعةً . . أساءت سنةً ، وإن أساءت مرّةً . . جعلتها سنةً ، فدوائرُ إقبالِها على التقاربِ دائرةٌ ، وتجارةُ بنيتها خاسرةٌ باثرةٌ ، وآفاتُها على التّوالي لصدورِ طلابِها راشقةٌ ، ومجاري أحوالِها بذلٌ طالبيها ناطقةٌ ؛ فكلُّ متعزّزٍ بها إلى الدّلّ مصيرُهُ ، وكلُّ متكبرٍ بها إلى التحشّرِ مسيرُهُ .

شأنُها الهربُ من طالبِها ، والطلبُ لها ربِّها ، من خدمها . . فاتتهُ ، ومن أعرضَ عنها . . واتتهُ ، لا يخلو صفوها عن شوائبِ الكدوراتِ ، ولا ينفكُّ سرورُها عن المنغصاتِ ، سلامتها تعقبُ السّقمَ ، وشبابُها يسوقُ إلى

الهرم ، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم .

فهي خداعة مكاره ، طيارة فرارة ، لا تزال تزيّن لطلابها ، حتى إذا صاروا من أحبابها . . كشرت لهم عن أنيابها ، وشوّشت عليهم منازم أسبابها ، وكشفت لهم عن مكنون عجايبها ، فأذاقتهم قاتل سمامها^(١) ، ورشقتهم بصوائب سهامها .

بينما أصحابها منها في سرور وإنعام . . إذ ولّت عنهم كأنها أضغاث أحلام ، ثم كرّت عليهم بدواهيها ، فطحنتهم طحن الحصيد ، ووارتتهم في أكفانهم تحت الصعيد ، إن ملكت واحداً منهم جميع ما طلعت عليه الشمس . . جعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس ، ثمّني أصحابها سروراً ، وتعدهم غروراً ، حتى يأملون كثيراً ، وبينون قصوراً ، فتصبح قصورهم قبوراً ، وجمعهم بوراً ، وسعيهم هباءً منثوراً ، ودعاؤهم ثبوراً ، هذه صفتها ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

والصلاة على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً ، وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيراً ، وعلى الظالمين نصيراً ، وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الدنيا عدوة لله ، وعدوة لأوليائه الله ، وعدوة لأعداء الله .

(١) السّمام : جمع سمّ . « إتحاف » (٧٨ / ٨) .

أَمَّا عداوتُها لله... فَإِنَّهَا قَطَعَتِ الطَّرِيقَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهَا مِنْذُ خَلَقَهَا .

وَأَمَّا عداوتُها لأَوْلِيَاءِ اللَّهِ... فَإِنَّهَا تَزَيَّنَتْ لَهُمْ بِزِينَتِهَا ، وَعَمَّتَتْهُمْ بِزَهْرَتِهَا وَنَضَارَتِهَا ، حَتَّى تَجَرَّعُوا مَرَارَةَ الصَّبْرِ فِي مَقَاطِعَتِهَا .

وَأَمَّا عداوتُها لأَعْدَاءِ اللَّهِ... فَإِنَّهَا اسْتَدْرَجَتْهُمْ بِمَكْرِهَا وَمَكِيدَتِهَا ، وَاقْتَنَصَتْهُمْ بِشَبَكَتِهَا ، حَتَّى وَثِقُوا بِهَا ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهَا ، فَخَذَلَتْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا ، فَاجْتَنَوْا مِنْهَا حَسْرَةً تَتَقَطَّعُ دُونَهَا الْأَكْبَادُ ، ثُمَّ حَرَمَتْهُمْ السَّعَادَةَ أَبَدَ الْأَبَادِ ؛ فَهُمْ عَلَى فِرَاقِهَا يَتَحَسَّرُونَ ، وَمِنْ مَكَايِدِهَا يَسْتَغِيثُونَ فَلَا يُغَاثُونَ ، بَلْ يُقَالُ لَهُمْ : ﴿ أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

وَإِذَا عَظُمَتْ غَوَائِلُ الدُّنْيَا وَشُرُورُهَا... فَلَا بَدَّ أَوَّلًا مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الدُّنْيَا ، وَمَا هِيَ ، وَمَا الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِهَا مَعَ عِدَاوَتِهَا ، وَمَا مَدَاخِلُ غُرُورِهَا وَشُرُورِهَا ؛ فَإِنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ... لَا يَتَّقِيهِ ، وَيُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ .

وَنَحْنُ نَذَكُرُ ذَمَّ الدُّنْيَا ، وَأُمُثْلَتَهَا ، وَحَقِيقَتَهَا ، وَتَفْصِيلَ مَعَانِيهَا ، وَأَصْنَافَ الْأَشْغَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَا ، وَوَجَعَ الْحَاجَةِ إِلَى أَصُولِهَا ، وَسَبَبَ انْصِرَافِ الْخَلْقِ عَنِ اللَّهِ بِسَبَبِ التَّشَاغُلِ بِفَضُولِهَا ، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ الْمَعِينُ عَلَى مَا يَرْضَاهُ .



بيان ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة ، وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا ، وصرف الخلق عنها ، ودعوتهم إلى الآخرة ، بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم يُعثنوا إلا لذلك .

فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها .

فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على شاة ميتة فقال : « أترون هذه الشاة هتنة على أهلها ؟ » قالوا : من هوانها ألقوها ، قال : « والذي نفسي بيده ؛ للدنيا أهون على الله تعالى من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة .. ما سقى كافراً منها شربة ماء » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمنين وجنة الكافر » (٢) .

(١) رواه الترمذي (٢٣٢١) ، وابن ماجه (٤١١١) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه بنحوه ، ورواه ابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، وأفرد الجملة الأخيرة منه الترمذي (٢٣٢٠) من حديثه .
(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ما كان لله منها »^(١) .

وقال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ.. أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ.. أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ ، فَأَثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »^(٣) .

وقال زيد بن أرقم : كُنَّا مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَدَعَا بِشَرَابٍ ، فَأَتَى بِمَاءٍ وَعَسَلٍ ، فَلَمَّا أَدْنَاهُ مِنْ فِيهِ.. بَكَى وَبَكَى حَتَّى أَبْكَى أَصْحَابَهُ ، فَسَكْتُوا وَمَا سَكَتَ ، ثُمَّ عَادَ وَبَكَى حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَسْأَلَتِهِ ، قَالَ : ثُمَّ مَسَحَ عَيْنَيْهِ ، فَقَالُوا : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ؛ مَا أَبْكَاكَ ؟ قَالَ : كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَرَأَيْتُهُ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ شَيْئًا وَلَمْ أَرَمْعه أَحَدًا ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ مَا الَّذِي تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِكَ ؟ قَالَ : « هَذِهِ الدُّنْيَا مِثْلَتْ لِي ، فَقُلْتُ لَهَا : إِلَيْكَ عَنِّي ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَقَالَتْ : إِنَّكَ إِنْ أَفَلْتَ مِنِّي.. لَمْ يَفِلْ مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ »^(٤) .

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) ، وفيه : « إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤ / ٤١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٠٩) ، والحاكم في « المستدرک » (٤ / ٣٠٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم =

وقال صلى الله عليه وسلم : « يا عجباً كلَّ العجب للمصدقِ بدارِ الخلود وهو يسعى لدارِ الغرورِ ! »^(١) .

وروي أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقفَ على مزبلةٍ ، فقال : « هلمُّوا إلى الدنيا » ، وأخذ خرقاً قد بليتَ على تلك المزبلة ، وعظماً قد نخرت فقال : « هذه الدنيا »^(٢) ، وهذه إشارةٌ إلى أنَّ زينةَ الدنيا ستخلقُ مثلَ تلك الخرقِ ، وأنَّ الأجسامَ التي ترى بها ستصيرُ عظماً باليةً .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الدنيا حلوةٌ خضرةٌ ، وإنَّ اللهَ مستخلفُكم فيها فناظرُ كيفَ تعملونَ ، إنَّ بني إسرائيلَ لما بُسِطَتْ لهمُ الدنيا ومُهدَّتْ . . تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب »^(٣) .

وقال عيسى عليه السلام : (لا تتخذوا الدنيا ربّاً فتتخذكمُ الدنيا عبيداً ، اكثروا كنزكم عند مَنْ لا يضيُّعه ؛ فإنَّ صاحبَ كنزِ الدنيا يخافُ عليه الآفة ، وصاحبَ كنزِ الله لا يخافُ عليه الآفة)^(٤) .

= في « المستدرک » (٣٠٩ / ٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٠٣) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا »

(١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٦) عن أبي جعفر عبد الله بن مسور مرسلاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٨٨) عن أبي ميمون اللخمي مرسلاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٠) عن الحسن مرسلاً ، ورواه بنحوه مسلم

(٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١) .

وقال عليه السلام : (يا معشرَ الحواريين ، إني قد كَبَيْتُ لَكُمْ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهَا ، فلا تنعشوها بعدي ؛ فَإِنَّ مِنْ خُبْثِ الدُّنْيَا أَنْ عُصِيَ اللَّهَ فِيهَا ، وَإِنَّ مِنْ خُبْثِ الدُّنْيَا أَنَّ الْآخِرَةَ لَا تُدْرِكُ إِلَّا بِتَرْكِهَا ، أَلَا فَاعْبُرُوا الدُّنْيَا وَلَا تَعْمُرُوهَا ، واعلمُوا أَنَّ أَصْلَ كُلِّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا ، وَرَبِّ شَهْوَةٍ أَوْرَثَتْ أَهْلَهَا حَزْناً طَوِيلاً) (١) .

وقال عليه السلام أيضاً : (بطَحْتُ لَكُمْ الدُّنْيَا وَجَلَسْتُ عَلَى ظَهْرِهَا ، فلا يَنَازِعُكُمْ فِيهَا إِلَّا الْمُلُوكُ وَالنِّسَاءُ ، فَأَمَّا الْمُلُوكُ .. فلا تَنَازَعُوهُمْ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَعْزِضُوا لَكُمْ مَا تَرَكْتُمُوهُمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَأَمَّا النِّسَاءُ .. فَاتَّقُوهُنَّ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ) (٢) .

وقال عليه السلام أيضاً : (الدُّنْيَا طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ ، فَطَالِبُ الْآخِرَةِ تَطْلُبُهُ الدُّنْيَا ، حَتَّى يَسْتَكْمَلَ فِيهَا رِزْقَهُ ، وَطَالِبُ الدُّنْيَا تَطْلُبُهُ الْآخِرَةُ حَتَّى يَجِيءَ الْمَوْتُ فَيَأْخُذُهُ بِعُنُقِهِ) (٣) .

وقال موسى بن يسار : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ جَلَّ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٤٥ / ٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٧٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥) ، ونحوه رواه الطبراني في « الكبير » (١٠ / ١٦٢) مرفوعاً من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ثَنَاءُهُ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ مِنْذُ خَلْقِهَا لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا « (١) .

وَرُوِيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَرَّ فِي مَوْكِبِهِ وَالطَّيْرُ تَظْلُهُ ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ عَنْ يَمِينِهِ وَيسَارِهِ ، قَالَ : فَمَرَّ بِعَابِدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا بْنَ دَاوُدَ ؛ لَقَدْ آتَاكَ اللَّهُ مُلْكًا عَظِيمًا ، قَالَ : فَسَمِعَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ : لِتَسْبِيحَةٍ فِي صَحِيفَةٍ مَوْمِنٍ خَيْرٌ مِمَّا أُعْطِيَ ابْنُ دَاوُدَ ؛ فَإِنَّ مَا أُعْطِيَ ابْنَ دَاوُدَ يَذْهَبُ ، وَالتَّسْبِيحَةُ تَبْقَى (٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟ » (٣) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ ، وَعَلَيْهَا يَعَادِي مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ، وَعَلَيْهَا يَحْسَدُ مَنْ لَا فِقْهَ لَهُ ، وَلَهَا يَسْعَى مَنْ لَا يَقِينَ لَهُ » (٤) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٠) من حديث ابن يسار بلاغاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٣ / ٢) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٨) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٧١ / ٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، مقتصرأ على قوله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » ، وزاد ابن أبي الدنيا في روايته له في « ذم الدنيا » (١٨٢) : « ومال من لا مال له » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمَّهُ . . فليس من الله في شيء ، وألزم الله قلبه أربع خصال : هماً لا ينقطع عنه أبداً ، وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً ، وفقرًا لا يبلغ غناه أبداً ، وأملًا لا يبلغ منتهاه أبداً »^(١) .

وقال أبو هريرة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة ؛ ألا أريك الدنيا جميعاً بما فيها ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بيدي ، وأتى بي وادياً من أودية المدينة ، فإذا مزبلة فيها رؤوس أناس ، وعذرات ، وخرق ، وعظام ، ثم قال : « يا أبا هريرة ؛ هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل آمالكُم ، ثم هي اليوم عظام بلا جلد ، ثم هي صائرة رماداً ، وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم ، اكتسبوها من حيث اكتسبوها ، ثم قذفوها من بطونهم ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت ريشهم ولباسهم ، فأصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكياً على الدنيا . . فليبك » ، قال : فما برحنا حتى اشتدَّ بكاؤنا^(٢) .

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥) عن شعيب بن صالح قال : (قال عيسى ابن مريم عليه السلام : ما سكنت الدنيا قلب عبد إلا وألبط قلبه منها بثلاث . . .) ، فذكرها ، ولم يذكر الأولى من المثبت .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨٤ / ٨) : (قال العراقي : لم أجد له أصلاً ، قلت : لكن أورده صاحب « القوت » عن الحسن مرسلًا) ، وأورده الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (٥٠) .

وَيُرَوَّى : أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَهْبَطَ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ . . . قَالَ لَهُ : ابْنِ
لِلْخَرَابِ ، وَلِذَلِكَ الْفَنَاءِ^(١) .

وَقَالَ دَاوُدُ بْنُ هَلَالٍ : (مَكْتُوبٌ فِي صَحْفِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
يَا دُنْيَا ؛ مَا أَهْوَنَكَ عَلَى الْأَبْرَارِ الَّذِينَ تَصْنَعْتَ لَهُمْ وَتَزَيَّنْتَ لَهُمْ ، إِنِّي قَذَفْتُ
فِي قُلُوبِهِمْ بَغْضَكَ وَالصَّدُودَ عَنْكَ ، وَمَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْكَ ، كُلُّ
شَأْنِكَ صَغِيرٌ ، وَإِلَى الْفَنَاءِ تَصِيرِينَ ، قَضَيْتُ عَلَيْكَ يَوْمَ خَلَقْتُكَ إِلَّا تَدُومِي
لِأَحَدٍ ، وَلَا يَدُومَ لَكَ أَحَدٌ ، وَإِنْ بَخَلَ بِكَ صَاحِبُكَ وَشَحَّ عَلَيْكَ ، طُوبَى
لِلْأَبْرَارِ الَّذِينَ أَطْلَعُونِي مِنْ قُلُوبِهِمْ عَلَى الرِّضَا ، وَمِنْ ضَمِيرِهِمْ عَلَى الصَّدْقِ
وَالِاسْتِقَامَةِ ، طُوبَى لَهُمْ مَا لَهُمْ عِنْدِي مِنَ الْجَزَاءِ إِذَا وَفَدُوا إِلَيَّ مِنْ قُبُورِهِمْ ،
النُّورُ يَسْعَى أَمَامَهُمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ حَافُّونَ بِهِمْ ، حَتَّى أُبَلِّغَهُمْ مَا يَرْجُونَ مِنْ
رَحْمَتِي)^(٢) .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الدُّنْيَا مَوْقُوفَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ مِنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَا يَنْظَرُ إِلَيْهَا ، وَتَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا رَبُّ ؛
اجْعَلْنِي لِأَدْنَى أَوْلِيَائِكَ نَصِيبًا الْيَوْمَ ، فَيَقُولُ : اسْكُتِي يَا لَا شَيْءَ ، إِنِّي لَمْ
أَرْضَكِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، أَرْضَاكِ لَهُمْ الْيَوْمَ ! »^(٣) .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٦ / ٣) عن
مجاهد أو غيره .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٥٨ / ١٠) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٤٤ / ١) ، وينحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧ / ١) عن =

وروي في أخبار آدم عليه السلام : أنه لما أكل من الشجرة . . تحركت معدته لخروج الثفل ، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنة إلا في هذه الشجرة ، فلذلك نهيا عن أكلها ، قال : فجعل يدور في الجنة ، فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه ، فقال له : قل له : أي شيء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضع ما في بطني من الأذى ، فقيل للملك : قل له : في أي مكان تضعه ؟! على الفرش ؟! أم على السرير ؟! أم على الأنهار ؟! أم تحت ظلال الأشجار ؟! هل ترى ههنا موضعاً يصلح لذلك ؟! ولكن اهبط إلى الدنيا^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة ، فيؤمر بهم إلى النار » ، قالوا : يا رسول الله ؛ مصلين ؟ قال : « نعم ، كانوا يصلون ويصومون ، يأخذون هنة من الليل ، فإذا عرض لهم شيء من الدنيا . . وثبوا عليه »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه : « المؤمن بين مخافتين ؛

= علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وروى ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه : (الدنيا موقوفة ما بين السماء والأرض ، كالشن البالي ، تنادي ربها منذ يوم خلقها إلى يوم يفنيها : يا رب ، يا رب ؛ لم تبغضني ؟ يا رب ، يا رب ؛ لم تبغضني ؟ فيقول لها : اسكتي يا لا شيء ، اسكتي يا لا شيء) .

(١) قوت القلوب (٢٥٤ / ١) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (١٨٦٥) ، والدليمي في « مسند الفردوس » (٨٨٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٧٧ / ١) عن سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه ، والهنة هنا : القليل .

بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي
مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ ، فَلْيَتَزَوَّدِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَمِنْ
حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ ، وَمِنْ شَبَابِهِ لِهَرَمِهِ ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ
لِلْآخِرَةِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ ، وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا
مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ ^(١) .

وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (لَا يَسْتَقِيمُ حُبُّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي قَلْبٍ
مُؤْمِنٍ ، كَمَا لَا يَسْتَقِيمُ الْمَاءُ وَالنَّارُ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ) ^(٢) .

وَيُرَوَّى أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا أَطْوَلَ الْأَنْبِيَاءِ
عُمُرًا ؛ كَيْفَ وَجَدْتَ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : كَدَارٍ لَهَا بَابَانِ ، دَخَلْتُ مِنْ أَحَدِهِمَا ،
وَخَرَجْتُ مِنَ الْآخِرِ ^(٣) .

وَقِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَوْ اتَّخَذْتَ بَيْتًا يَكُنُّكَ ، قَالَ : يَكْفِينَا خُلُقَانُ
مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ^(٤) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٩٠) عن الحسن مرسلاً ، والبيهقي في
« الشعب » (١٠٠٩٧) عن الحسن عن بعض الصحابة مرفوعاً ، والديلمي في « مسند
الفردوس » (٤٢٦١) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٦) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم »
(ص ٢٠٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق »
(٢٥٧/٦٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٩) .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : « احذروا الدنيا ؛ فإنها أسحر من هاروت وماروت » (١) .

وعن الحسن قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال : « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً ؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها . . أعشى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها . . أعطاه الله علماً بغير تعلم ، وهدى بغير هداية ، ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ، ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر للفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر للبغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الدل وهو يقدر على العز ، لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى . . أعطاه الله عز وجل ثواب خمسين صديقاً » (٢) .

وروي أن عيسى عليه السلام اشتد به المطر والرعد والبرق يوماً ، فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فرفعت له خيمة من بعيد فأتاها ؛ فإذا فيها امرأة ، فحاذ عنها ؛ فإذا هو بكهف في جبل ، فأتاه ؛ فإذا فيه أسد ، فوضع يده عليه

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٢٢) عن أبي الدرداء الرهاوي .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٢ / ٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٨) .

وقال : إلهي ؛ جعلت لكل شيء مأوى ، ولم تجعل لي مأوى ، فأوحى الله تعالى إليه : مأواكَ في مستقرٍّ من رحمتي ، لأزوجنَّكَ يومَ القيامةِ مئةَ حوراءَ خلقتُها بيدي ، ولأطعمنَّ في عُرْسِكَ أربعةَ آلافِ عامٍ ، يومٌ منها كعمرِ الدنيا ، ولأمرنَّ منادياً ينادي : أينَ الزهادُ في الدنيا ؟ زوروا عرسَ الزاهدِ عيسى ابنِ مريمَ^(١) .

وقال عيسى ابنُ مريمَ عليه السلامُ : (ويلٌ لصاحبِ الدنيا ، كيفَ يموتُ ويتركُها وما فيها ، ويأمنُها وتغرُّه ، ويثقُ بها وتخذُلُه ، ويلٌ للمغتربينَ ، كيفَ أرثَهُم ما يكرهونَ ، وفارقَهُم ما يحبُّونَ ، وجاءَهُم ما يُوعَدُونَ ، وويلٌ لمنَ الدنيا همُّه ، والخطايا عمله ، كيفَ يُفتضحُ غداً بذنبِهِ)^(٢) .

وقيلَ : (أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السلامُ : يا موسى ؛ ما لك ولدارِ الظالمينَ ؟ ! إنها ليست لك بدارٍ ، أخرج منها همَّك ، وفارقها بعقلِكَ ، فبُستِ الدارُ هي ، إلا لعاملٍ يعملُ فيها فنعمتِ الدارُ هي ، يا موسى ؛ إنِّي مرصِدٌ للظالمِ حتَّى آخذَ منه للمظلومِ)^(٣) .

وروي أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعثَ أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ ، فجاءهُ بمالٍ مِنَ البحرينِ ، فسمعتِ الأنصارُ بِقدومِ أبي عبيدةَ ، فوافوا صلاةَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧ / ٤٢١) عن محمد بن سباع النميري .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٢) عن عبيد الله بن مسلم .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٨٣) عن عبادة أبي مروان .

الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمّا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . انصرف ، فتعرّضوا له ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ، ثمّ قال : « أظنّكم سمعتم أن أبا عبيدة قدّم بشيء ؟ » قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : « فأبشروا وأمّلوا ما يسرّكم ، فوالله ؛ ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسّطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » (١) .

وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض » ، فقيل : ما بركات الأرض ؟ قال : « زهرة الدنيا » (٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا » (٣) ، فنهى عن ذكرها فضلاً عن إصابه عينها .

وقال عمار بن سعيد : مرّ عيسى عليه السلام بقرية ؛ فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق ، فقال لهم : يا معشر الحواريين ؛ إن هؤلاء ماتوا عن

(١) رواه البخاري (٣١٥٨) ، ومسلم (٢٩٦١) .

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٢) ، ومسلم (١٠٥٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٠٠) عن محمد بن النضر الحارثي مرسلاً ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨٧/٨) : (لأن الله يغار على قلب عبده أن يشتغل بغيره) .

سخطه ، ولو ماتوا عن غير ذلك . . لتدافنوا ، فقالوا : يا روح الله ؛ وددنا
 أنا علمنا خبرهم ، فسأل ربّه ، فأوحى الله تعالى إليه : إذا كان الليل . .
 فنادهم يجيؤك ، فلمّا كان الليل . . أشرف على نشز ، ثم نادى : يا أهل
 القرية ؛ فأجابه مجيبٌ : ليّك يا روح الله ؛ فقال : ما حالكم ؟
 وما قصّتكم ؟ قالوا : بتنا في عافية ، وأصبحنا في الهاوية ، قال : وكيف
 ذاك ؟ قال : بحبّنا الدُّنيا ، وطاعتنا أهل المعاصي ، قال : وكيف كان حبُّكم
 للدُّنيا ؟ قال : حبُّ الصبيِّ لأمّه ؛ إذا أقبلت . . فرحنا ، وإذا أدبرت . . حزناً
 وبكىنا عليها ، قال : فما بال أصحابك لم يجيؤني ؟ قال : لأنّهم ملجَمون
 بلُجَمٍ من نارٍ بأيدي ملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ ، قال : فكيف أجبتني أنت من
 بينهم ؟ قال : لأنّي كنتُ فيهم ولم أكن منهم ، فلمّا نزل بهم العذاب . .
 أصابني معهم ، فأنا معلقٌ على شفير جهنّم ، لا أدري أنجو منها أم أكبكبُ
 فيها ، فقال المسيح للحواريّين : لأكلُ خبز الشعير بالملح الجريش ، ولبسُ
 المسوح ، والنوم على المزابل . . كثيرٌ مع عافية الدُّنيا والآخرة^(١) .

وقال أنسٌ : كانت ناقةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم العضباءُ
 لا تُسبّقُ ، فجاء أعرابيٌّ على قَعُودٍ فسبقها ، فشقّ ذلك على المسلمين ،
 فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : « إنّه حقٌّ على الله ألا يرفعَ شيئاً من
 الدُّنيا إلّا وضعه »^(٢) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨٢) ، وفي « الزهد » (٢٩٨) .

(٢) رواه البخاري (٢٨٧٢) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨٨ / ٨) : (ووجد =

وقال عيسى عليه السلام : (مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَاراً ؟ !
تلكُم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً)^(١) .

وقيل لعيسى عليه السلام : عَلَّمْنَا عَمَلًا وَاحِدًا يُحِبُّنَا اللَّهُ عَلَيْهِ ، قَالَ :
أَبْغَضُوا الدُّنْيَا . . يُحِبُّكُمُ اللَّهُ تَعَالَى^(٢) .

وقال أبو الدرداء : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ تَعْلَمُونَ
مَا أَعْلَمُ . . لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَلَهَانَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا ، وَلَا ثَرْتُمْ
الْآخِرَةَ » ، ثُمَّ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ : (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ . .
لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ وَتَبْكُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ
لَا حَارِسَ لَهَا ، وَلَا رَاجِعَ إِلَيْهَا إِلَّا مَا لَا بَدَّ لَكُمْ مِنْهُ ، وَلَكِنْ يَغِيبُ عَنْ
قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآخِرَةِ ، وَحُضِرَها الْأَمَلُ ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِأَعْمَالِكُمْ ،
وَصِرْتُمْ كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، فَبَعْضُكُمْ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَدْعُ هَوَاهَا
مَخَافَةً مِمَّا فِي عَاقِبَتِهِ .

مَا لَكُمْ لَا تَحَابُّونَ وَلَا تَنَاصِحُونَ وَأَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ ؟ ! مَا فَرَّقَ
بَيْنَ أَهْوَائِكُمْ إِلَّا خَبْتُ سَرَائِرِكُمْ ، وَلَوْ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى الْبِرِّ . . لَتَحَابَبْتُمْ .

= بخط الكمال الدميري قال : أفادني بعض طلبة العلم أنه سمع بعض الحفاظ يقول :
الأعرابي الذي جاء على قعود فسبق ناقة النبي صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه
السلام) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٧٠) عن سعيد بن عبد العزيز ، وابن عساكر في
« تاريخ دمشق » (٤٣٠ / ٤٧) عن مجاهد .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤١٥) عن سلم بن بشير .

ما لَكُمْ تناصحونَ في أمرِ الدنيا ولا تناصحونَ في أمرِ الآخرةِ ؟
ولا يملكُ أحدُكُمْ النصيحةَ لِمَنْ يحبُّه ويعينه على أمرِ آخرتهِ ، ما هذا إلا مِنْ
قلَّةِ الإيمانِ في قلوبِكُمْ ، لو كنتمْ توقنونَ بخيرِ الآخرةِ وشرِّها كما توقنونَ
بالدنيا . . لآثرتُمْ طلبَ الآخرةِ ؛ لأنها أملكُ بأمورِكُمْ .

فإن قلتمْ : حبُّ العاجلةِ غالبٌ . . فإنَّا نراكمْ تدعونَ العاجلةَ مِنَ الدنيا
للأجلِ مِنْها ، تكذِّبونَ أنفسَكُم بِالْمَشَقَّةِ والاحترافِ في طلبِ أمرٍ لعلَّكُمْ
لا تدركونهُ ، فبئسَ القومُ أنتمْ ، ما حقَّقتمْ إيمانَكُم بما يُعرفُ بِهِ الإيمانُ
البالغُ فيكُم ، فإن كنتمْ في شكٍّ ممَّا جاءَ بِهِ محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . .
فأتونا فلنبيِّنْ لَكُمْ ، ولنريكُمْ مِنَ النورِ ما تطمئنُّ إليه قلوبُكُمْ ، واللهِ ؛ ما أنتمْ
بالمُنْقوصَةِ عقولُكُمْ فنعذرَكُم ، إنَّكُمْ لتبيِّتونَ صوابَ الرأيِ في دنياكُمْ ،
وتأخذونَ بالحزمِ في أمرِكُمْ .

ما لَكُمْ تفرحونَ باليسيرِ مِنَ الدنيا تصيبيونهُ ، وتحزنونَ على اليسيرِ مِنْها
يفوتُكُمْ ؟ حتَّى يتبيَّنَ ذلكَ في وجوهِكُمْ ، ويظهرَ على ألسنتِكُمْ ، وتسمُّونها
المصائبَ ، وتقيمونَ فيها المآتمَ ، وعامَّتُكُمْ قد تركوا كثيراً من دينِهِمْ ، ثمَّ
لا يتبيَّنُ ذلكَ في وجوهِكُمْ ، ولا يتغيَّرُ حالُ بكمْ ، إنِّي لأرى اللهَ قد تَبَرَّأَ
منكُمْ .

يلقى بعضُكُمْ بعضاً بالسُرورِ ، وكلُّكُمْ يكرهُ أن يستقبلَ صاحبهُ بما يكرهه
مخافةً أن يستقبلهُ صاحبهُ بمثلهِ ، فأصبحتمْ على الغلِّ ، ونبئتْ مراعيكمْ على

الدِّمَنِ ، وتصافيتُمْ على رفضِ الأجلِ ، ولوددتُ أَنَّ اللهَ تعالى أراحني منكم ، وألحقني بمن أحبَّ رؤيته ، ولو كانَ حياً لم يصابركُم ، فإن كانَ فيكُم خيرٌ . . فقد أسمعْتُكُم ، وإن تطلبوا ما عندَ الله . . تجدوهُ يسيراً ، وبالله أستعينُ على نفسي وعليكُم (١) .

وقال عيسى عليه السلام : (يا معشرَ الحواريين ؛ ارضوا بدنيءِ الدُّنيا معَ سلامةِ الدِّينِ ؛ كما رضيَ أهلُ الدُّنيا بدنيءِ الدِّينِ معَ سلامةِ الدُّنيا) (٢) .

وفي معناه قيل (٣) :

أَرَى رِجَالاً بِأَذْنَى الدِّينِ قَدْ قَنَعُوا وَمَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي الْعَيْشِ بِالدُّونِ
فَاسْتَغْنَى بِالدِّينِ عَنْ دُنْيَا الْمُلُوكِ كَمَا اسْتَغْنَى الْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنْ الدِّينِ
وقال عيسى عليه السلام : (يا طالبَ الدُّنيا لَتَبَرَّ ، ترككَ للدُّنيا أبرُّ) (٤) .

(١) رواه بتمامه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٢٧) ، وروى المرفوع منه البخاري (٤٦٢١) ، ومسلم (٢٣٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، والصعدات : البراري والقفار . « إتحاف » (٨٩ / ٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٤٩) عن زكريا بن عدي .

(٣) البيتان متنازع في نسبتهما ، وهما مما نسب لعبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٦٩) ، ولأبي العتاهية في « عيون الأخبار » (٣٧٣ / ٢) وليس في « ديوانه » ، ولمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٢٨١) ، ولإبراهيم بن أدهم في « مختصر تاريخ دمشق » (٣٢ / ٤) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٠ / ٨) ، والمعنى : يا من يطلب الدنيا ليكون باراً ببذلها ، فهو لا يطلبها لذاتها ؛ إن تركك لها أبرُّ من تركها بها .

وقال نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم : « لتأتينَّكم بعدي دنيا تأكلُ إيمانَكم ؛ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ » (١) .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : (يا موسى ؛ لا تركننَّ إلى حبِّ الدُّنيا ؛ فإنَّكَ لنْ تأتيني بكبيرةٍ هيَ أشدُّ عليك منها) (٢) .

ومرَّ موسى عليه السلامُ برجلٍ وهو يبكي ، ورجعَ وهو يبكي ، فقال موسى : يا ربُّ ؛ عبدُكَ يبكي منْ مخافتِكَ ، فقال : يا بنَ عمران ؛ لو نزلَ دماغُهُ معْ دموعِ عينيه ، ورفعَ يديه حتَّى تسقطا . . لمْ أغفرْ لَهُ وهو يحبُّ الدُّنيا (٣) .



الآثار :

قال عليُّ رضي الله عنه : (مَنْ جمعَ ستَّ خصالٍ . . لمْ يدعُ للجنةِ مطلباً ، ولا عنِ النارِ مهرباً : مَنْ عرفَ اللهَ فأطاعَهُ ، وعرفَ الشيطانَ فعصاهُ ، وعرفَ الحقَّ فاتبعَهُ ، وعرفَ الباطلَ فاتقاهُ ، وعرفَ الدُّنيا فرفضَها ، وعرفَ الآخرةَ فطلبَها) (٤) .

(١) قال الحافظ العراقي : (لمْ أجِدْ له أصلاً) . « إتحاف » (٩٠ / ٨) ، وروى نعيم بن حماد في « الفتن » (١٢١) : عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه : (أبشروا بدنيا عريضة تأكل إيمانكم) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥ / ٦) بنحوه .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٠ / ٨) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٠ / ٨) .

وقال الحسن : (رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة ، فأدّوها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم راحوا خفافاً)^(١) .

وقال أيضاً رحمه الله : (من نافسك في دينك . . فنافسه ، ومن نافسك في دنياك . . فألقها في نحره)^(٢) .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : (يا بني ؛ إن الدنيا بحر عميق ، قد غرق فيه ناس كثير ، فلتكن سفيتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله عز وجل ، وشرائعها التوكل على الله عز وجل ؛ لعلك تنجو ، وما أراك ناجياً)^(٣) .

وقال الفضيل : (طالت فكرتي في هذه الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَنْبَلُوهُمُ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾) .

وقال بعض الحكماء : (إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك ، ويكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداً يوم ، فلا تهلك في أكلة ، وصم عن الدنيا ، وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى ، وربحها النار)^(٤) .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩٠ / ٨) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩١ / ٨) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٥١) عنه : (إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا . . فنافسه في الآخرة) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٣٧) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩١ / ٨) .

وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يخلق الأبدان ، ويجدد
الآمال ، ويقربُ المنيّة ، ويبعدُ الأمنيّة ، قيل : فما حالُ أهله ؟ قال : مَنْ
ظفرَ به .. تعب ، ومَنْ فاتهُ .. نضب^(١) .

وفي ذلك قيل^(٢) :

وَمَنْ يَحْمَدِ الدُّنْيَا لِعَيْشِ يَسْرُهُ فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا
إِذَا أَذْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيرًا هُمُومُهَا
وقال بعض الحكماء : (كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا
ولا أكون فيها ، فلا أسكنُ إليها ؛ فإنَّ عيشها نكدٌ ، وصفوها كدرٌ ، وأهلها
منها على وجلٍ ؛ إمّا بنعمة زائلة ، أو بليّة نازلة ، أو منيّة قاضية)^(٣) .
وقال بعضهم : (من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحقُّ ، لكنها
إمّا أن تزيدهُ ، وإمّا أن تنقصهُ)^(٤) .

وقال سفيان : (أما ترى النعم كأنها مغضوبٌ عليها ، قد وُضِعَتْ في غير
أهلها ؟ !)^(٥) .

-
- (١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٩٠) دون السؤال عن حال أهله ، ونضب : غار
وذهب ، وفي بعض النسخ : (نصب) ولا يبعد .
(٢) البيتان لسيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ٢٢٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٣٤ / ٢) عن الحسن ضمن رسالة بعثها لعمر بن
عبد العزيز .
(٤) أورده الآبي في « نثر الدر » (٦٧ / ٧) لبزرجمهر .
(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٧٥ / ١٠) ، وسفيان هو ابن عيينة .

وقال أبو سليمان الداراني : (مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا عَلَى الْمَحَبَّةِ لَهَا . . لَمْ يُعْطَ مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا أَرَادَ أَكْثَرَ ، وَمَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ عَلَى الْمَحَبَّةِ لَهَا . . لَمْ يُعْطَ مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا أَرَادَ أَكْثَرَ ، وَلَيْسَ لِهَذَا غَايَةٌ وَلَا لِهَذَا غَايَةٌ) (١) .

وقال رجل لأبي حازم : أَشْكُو إِلَيْكَ حُبَّ الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ لِي بَدَارٍ ، فَقَالَ : انْظُرْ مَا آتَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا ؛ فَلَا تَأْخُذْهُ إِلَّا مِنْ حِلِّهِ ، وَلَا تَضَعُهُ إِلَّا فِي حَقِّهِ ، وَلَا يَضُرُّكَ حُبُّ الدُّنْيَا (٢) .

وإنما قال هذا لأنه لو آخذ نفسه بذلك . . لأتعبه ، حتَّى يتبرَّم بالدُّنْيَا ، ويطلب الخروجَ منها .

وقال يحيى بن معاذ : (الدُّنْيَا حَانُوثُ الشَّيْطَانِ ، فَلَا تَسْرِقْ مِنْ حَانُوتِهِ شَيْئاً فَيَجِيءَ فِي طَلْبِهِ فَيَأْخُذَكَ) (٣) .

وقال الفضيل : (لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَى وَالْآخِرَةُ مِنْ خَزَفٍ يَبْقَى . . لَكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَخْتَارَ خَزَفاً يَبْقَى عَلَى ذَهَبٍ يَفْنَى ، فَكَيْفَ وَقَدْ اخْتَرْنَا خَزَفاً يَفْنَى عَلَى ذَهَبٍ يَبْقَى !؟) (٤) .

وقال أبو حازم : (إِيَّاكُمْ وَالدُّنْيَا ؛ فَإِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّهُ يُوقَفُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩١ / ٨) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٢١) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٢ / ٨) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩٢ / ٨) .

إذا كان معظماً للدنيا ، فيقال : هذا عظم ما حقره الله^(١) .

وقال ابن مسعود : (ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف ، وماله عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مردودة)^(٢) .

وفي ذلك قيل^(٣) :

[من الطويل]

وَمَا أَلْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تَرَدَّ الْوَدَائِعُ

وزار رابعة أصحابها ، فذكروا الدنيا ، فأقبلوا على ذمها ، فقالت :
اسكتوا عن ذكرها ، فلو لا موقعها من قلوبكم . . ما أكثرتم من ذكرها ، ألا
من أحب شيئاً . . أكثر من ذكره^(٤) .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت ؟ فقال^(٥) :

[من الطويل]

نُرْقِعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيْقِ دِينِنَا فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرْقِعُ
فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللَّهَ رَبَّهُ وَجَادَ بِدُنْيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » ، وأبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩٢ / ٨) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠١ / ٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٤ / ١) .

(٣) البيت للبيد في « ديوانه » (ص ١٧٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٦٤) .

(٥) البيت الأول ينسب إلى عدي بن زيد وهو في « ديوانه » (ص ٢٠٠) ، وإلى عبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٨٤) ، وانظر « بهجة المجالس » (٢٨٩ / ٣) .

وَقِيلَ (١) :

[من الطويل]

أَرَى طَالِبَ الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ عُمُرُهُ وَنَالَ مِنَ الدُّنْيَا سُرُوراً وَأَنْعُمًا
كَبَانَ بَنَى بُنْيَانَهُ فَأَقَامَهُ فَلَمَّا أَسْتَوَى مَا قَدْ بَنَاهُ تَهَدَّمَا

وَقِيلَ (٢) :

[من الوافر]

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى أَنْتِقَالٍ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ فَيءٍ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنَ بِالزَّوَالِ
وَقَالَ لِقَمَانُ لَابِنِهِ : (يَا بَنِيَّ ؛ بَعِ دُنْيَاكَ بِآخِرَتِكَ تَرْبِحُهُمَا جَمِيعاً ،
وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ فَتُخْسِرُهُمَا جَمِيعاً) (٣) .

وَقَالَ مَطْرَفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ : (لَا تَنْظُرْ إِلَى خَفَضِ عَيْشِ الْمُلُوكِ
وَلِيْنِ رِيَاسِهِمْ ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى سُرْعَةِ ظَعْنِهِمْ وَسَوْءِ مَنَاقِبِهِمْ) (٤) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ ؛ جِزْءٌ
لِلْمُؤْمِنِ ، وَجِزْءٌ لِلْمُنَافِقِ ، وَجِزْءٌ لِلْكَافِرِ ؛ فَالْمُؤْمِنُ يَتَزَوَّدُ ، وَالْمُنَافِقُ
يَتَزَيَّنُ ، وَالْكَافِرُ يَتَمَتَّعُ) (٥) .

(١) شرح نهج البلاغة (٢٩١ / ١٩) .

(٢) البيتان لأبي العتاهية . انظر « ديوانه » (ص ٢٩٧) ، و« شرح نهج البلاغة » (٢٩١ / ١٩) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٢ / ٨) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٣ / ٢) من قول الحسن .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٩٤) .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٣ / ٨) .

وقال بعضهم : (الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً . فليصبر على معاشره الكلاب) (١) .

وفي ذلك قيل (٢) :

يا خاطب الدنيا إلى نفسك
تَنَحَّ عَنْ خُطْبِهَا تَسْلَمَ
إِنَّ الَّتِي تَخْطُبُ غَدَارَةً
قَرِيَّةُ الْعُرْسِ مِنَ الْمَاتَمِ
وقال أبو الدرداء : (من هوان الدنيا على الله أنه لا يُعصى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها) (٣) .

وفي ذلك قيل (٤) :

إذا أُمْتُحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشَفَتْ
لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ
وقيل أيضاً (٥) :

يا راقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُوراً بِأَوَّلِهِ
إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَاراً
أَفْنَى الْقُرُونِ الَّتِي كَانَتْ مُنْعَمَةً
كَرُّ الْجَدِيدَيْنِ إِقْبَالاً وَإِذْباراً
كَمْ قَدْ أَبَادَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ مَلِكٍ
قَدْ كَانَ فِي الدَّهْرِ نَفَاعاً وَضَرَاراً
يَا مَنْ يُعَانِقُ دُنْيَاً لَا بَقَاءَ لَهَا
يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي دُنْيَاهُ سَفَاراً

(١) كذا في « الحلية » (٢٣٨ / ٨) عن علي كرم الله وجهه .

(٢) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٤٤) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٠٩) عن بعض الحكماء .

(٤) البيت لأبي نواس في « ديوانه » (ص ٧١٤) .

(٥) الأبيات لمحمد بن حازم الباهلي في « ديوانه » (ص ٥٦) .

هَلَّا تَرَكْتَ مِنَ الدُّنْيَا مُعَانَقَةً حَتَّى تُعَانِقَ فِي الْفِرْدَوْسِ أَبْكَارًا
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ تَسْكُنُهَا فَيَنْبَغِي لَكَ أَلَّا تَأْمَنَ النَّارَ

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه : لَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . أَتَتْ إِبْلِيسَ جَنُودُهُ ، فَقَالُوا : قَدْ بُعِثَ نَبِيٌّ وَأُخْرِجَتْ أُمَّةٌ ، قَالَ : يَحْبُونَ الدُّنْيَا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : لَنْ كَانُوا يَحْبُونَهَا . . مَا أَبَالِي إِلَّا يَعْبُدُوا الْأَوْثَانَ ، وَأَنَا أَغْدُو عَلَيْهِمْ وَأَرْوَحُ بِثَلَاثٍ : أَخْذُ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ حَقِّهِ ، وَإِنْفَاقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَإِمْسَاكُهُ عَنْ حَقِّهِ ، وَالشَّرُّ كُلُّهُ لِهَذَا تَبِعُ^(١) .

وقال رجلٌ لعلي رضي الله عنه : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ صِفْ لَنَا الدُّنْيَا ، قَالَ : وَمَا أَصْفُ لَكَ مِنْ دَارٍ مَنْ صَحَّ فِيهَا . . مَا أَمِنَ ، وَمَنْ سَقَمَ فِيهَا . . نَدِمَ ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا . . حَزِنَ ، وَمَنْ اسْتَغْنَى فِيهَا . . افْتِنَّ ، فِي حَلَالِهَا الْحِسَابُ ، وَفِي حَرَامِهَا الْعِقَابُ ، وَمَتَشَابَهَهَا الْعِتَابُ^(٢) .

وقيلَ لَهُ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَقَالَ : أَطَوَّلُ أَمْ أَقْصُرُ ؟ فَقِيلَ قَصُرَ ، فَقَالَ : حَلَالُهَا حِسَابٌ ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ^(٣) .

وقال مالك بن دينار : (اتَّقُوا السَّخَّارَةَ ؛ فَإِنَّهَا تَسْحَرُ قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ)^(٤) ؛ يَعْنِي : الدُّنْيَا .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٨) ، وفيه : (مَنْ صَحَّ فِيهَا . . أَمِنَ) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٩) .

وقال أبو سليمان الداراني : (إذا كانت الآخرة في القلب . . جاءت الدنيا تزحمها ، وإذا كانت الدنيا في القلب . . لم تزحمها الآخرة ؛ لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لثيمة)^(١) ، وهذا تشديد عظيم ، ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح ؛ إذ قال : (الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب ، فأيهما غلب . . كان الآخر تبعاً له)^(٢) .

وقال مالك بن دينار : (بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك)^(٣) ، وهذا اقتباس مما قاله عليّ كرم الله وجهه : (الدنيا والآخرة ضرّتان ، فبقدر ما ترضي إحداهما تسخط الأخرى)^(٤) .

وقال الحسن : (والله ؛ لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه ، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ، ذهبَت إلى ذا أم ذهبَت إلى ذا)^(٥) .

وقال رجلٌ للحسن : ما تقول في رجلٍ آتاه الله مالاً ؛ فهو يتصدق منه ، ويصلُّ منه ، ويحسن فيه ، أله أن يتعيش فيه ؟ يعني : التَّعَمُّ ، فقال : لا ،

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٩) عن وهب بن منبه .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٢ / ٦) .

لَوْ كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا كُلُّهَا . . مَا كَانَ لَهُ مِنْهَا إِلَّا الْكَفَافُ ، وَيَقْدَمُ ذَلِكَ لِيَوْمِ
فَقْرِهِ ^(١) .

وَقَالَ الْفَضِيلُ : (لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا بِحَذَا فِيرِهَا عُرِضَتْ عَلَيَّ حَلَالًا ،
لَا أَحَاسِبُ بِهَا فِي الْآخِرَةِ . . لَكُنْتُ أَتَقَدَّرُهَا ، كَمَا يَتَقَدَّرُ أَحَدُكُمْ الْجِيفَةَ إِذَا
مَرَّ بِهَا أَنْ تَصِيبَ ثَوْبَهُ) ^(٢) .

وَقِيلَ : قَدِمَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشَّامَ ، فَاسْتَقْبَلَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ
عَلَى نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ بِحَبْلِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَلَّاهُ ، ثُمَّ أَتَى مَنْزِلَهُ ، فَلَمْ يَرَ فِيهِ إِلَّا
سَيْفَهُ وَتَرْسَهُ وَرَحْلَهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَوْ اتَّخَذْتَ مَتَاعًا ،
فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّ هَذَا يَبْلُغُنَا الْمَقِيلَ ^(٣) .

وَقَالَ سَفِيَانُ : (خُذْ مِنَ الدُّنْيَا لِبَدِنِكَ ، وَمِنْ الْآخِرَةِ لِقَلْبِكَ) ^(٤) .
وَقَالَ الْحَسَنُ : (وَاللَّهِ ؛ لَقَدْ عِبَدَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْأَصْنَامَ بَعْدَ عِبَادَتِهِمْ
الرَّحْمَنَ بِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا) ^(٥) .

وَقَالَ وَهْبٌ : (قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ : الدُّنْيَا غَنِيمَةُ الْأَكْيَاسِ ، وَغَفْلَةُ
الْجَهَّالِ ، لَمْ يَعْرِفُوهَا حَتَّى خَرَجُوا مِنْهَا ، فَسَأَلُوا الرَّجْعَةَ فَلَمْ يُرْجِعُوا) ^(٦) .

(١) رواه أبو نعيم في « المحلية » (١٩٨ / ٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « المحلية » (٨٩ / ٨) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٨٦) .

(٤) رواه أبو نعيم في « المحلية » (٢٠ / ٧) .

(٥) رواه أبو نعيم في « المحلية » (١٩٨ / ٦) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٦٥) .

وقال لقمان لابنه : (يا بني ؛ إِنَّكَ استدبرتَ الدُّنْيَا مِنْ يَوْمٍ
نزلتها واستقبلت الآخرة ؛ فَأَنْتَ إِلَى دَارٍ تَقْرُبُ مِنْهَا أَقْرَبُ مِنْ دَارٍ تَبَاعِدُ
عنها) (١) .

وقال سعد بن مسعود : (إذا رَأَيْتَ الْعَبْدَ تَزْدَادُ دُنْيَاهُ وَتَنْقُصُ آخِرَتُهُ وَهُوَ
بِهِ رَاضٍ . . فَذَلِكَ الْمَغْبُونُ الَّذِي يَلْعَبُ بِوَجْهِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ) (٢) .

وقال عمرو بن العاص على المنبر : (والله ؛ ما رَأَيْتُ قَوْمًا قَطُّ أَرْغَبَ
فِيمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزْهَدُ فِيهِ مِنْكُمْ ، وَاللَّهِ ؛ مَا مَرَّ
بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثٌ إِلَّا وَالَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِي لَهُ) (٣) .

وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَفْرَقُوا بَيْنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا
يَفْرَقَكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُوقُ ﴾ : مَنْ قَالَ ذَا ؟ مَنْ خَلَقَهَا وَمَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهَا ، إِيَّاكُمْ
وَمَا شَغَلَ مِنَ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا كَثِيرَةُ الْأَشْغَالِ ، لَا يَفْتَحُ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ
بَابَ شَغْلٍ إِلَّا أَوْشَكَ ذَلِكَ الْبَابُ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهِ عَشْرَةُ أَبْوَابٍ (٤) .

وقال أيضاً : (مسكينُ ابنِ آدمَ ؛ رَضِيَ بِدَارِ حِلَالِهَا حَسَابٌ ، وَحَرَامُهَا
عَذَابٌ ، إِنْ أَخَذَهُ مِنْ حِلِّهِ . . حُوسِبَ بِنِعْمَتِهِ ، وَإِنْ أَخَذَهُ مِنْ حَرَامٍ . . عُدِّبَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٠٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٠) .

به ، ابن آدم يستقلُّ ماله ولا يستقلُّ عمله ، يفرح بمصيبته في دينه ، ويجزع من مصيبته في دنياه (١) .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليهما : سلام عليك ، أمّا بعد : فكأنك بأخبر من كتب عليه الموت قد مات ، فأجابه عمر : سلام عليك ، كأنك بالدنيا لم تكن ، وبالأخرة لم تزل (٢) .

وقال الفضيل بن عياض : (الدخول في الدنيا هيئ ، لكن التخلّص منها شديد) (٣) .

وقال بعضهم : (عجباً لمن يعرف أن الموت حقّ كيف يفرح ؟! وعجباً لمن يعلم أن النار حقّ كيف يضحك ؟! وعجباً لمن يرى تقلّب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها ؟! وعجباً لمن يعلم أن القدر حقّ كيف ينصب ؟!) (٤) .

وقدم على معاوية رضي الله عنه رجل من نجران عمره مئتا سنة ، فسأله عن الدنيا كيف وجدها ؟ فقال : سنيّات بلاء ، وسنيّات رخاء ، يوم فيوم ، وليلة فليلة ، يولد مولود ، ويهلك هالك ، فلولا المولود . . باد الخلق ، ولولا الهالك . . ضاقت الدنيا بمن فيها ، فقال له : سل ما شئت ، قال :

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢١١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣٩٣) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢٧) ضمن خبر عن مسعر بن كدام .

عمرٌ مضى فتردُّه ، أو أجلٌ حضر فتدفعُهُ ؟ قال : لا أملكُ ذلك ، قال : لا حاجةَ لي إليك ^(١) .

وقال داوودُ الطائيُّ رحمه الله : (يا بنَ آدمَ ؛ فرحتَ ببلوغِ أملكِ ، وإنَّما بلغتُهُ بانقضاءِ أجلِكَ ، ثمَّ سوَّفتَ بعملِكَ ؛ كأنَّ منفعتَهُ لغيرِكَ) ^(٢) .

وقال بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ سألَ اللهَ الدُّنيا . . فإنَّما يسألهُ طولَ الوقوفِ بينَ يديه) ^(٣) .

وقال أبو حازمٍ : (ما في الدُّنيا شيءٌ يسرُّكَ ، إلا وقد ألصقَ به شيءٌ يسوءُكَ) ^(٤) .

وقال الحسنُ : (لا تخرجُ نفسُ ابنِ آدمَ مِنَ الدُّنيا إلا بحسراتٍ ثلاثٍ : أنَّه لم يشبعْ ممَّا جمعَ ، ولم يدركْ ما أَمَلَ ، ولم يحسنِ الزادَ لما قدَّم عليه) ^(٥) .

وقيلَ لبعضِ العبَّادِ : قد نلتَ الغنى ، قال : إنَّما نالَ الغنى مَنْ عتقَ مِنْ رِقِّ الدُّنيا ^(٦) .

- (١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٣٩) .
- (٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٤٣) .
- (٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦١) .
- (٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦٣) .
- (٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٥) .
- (٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٦) .

وقال أبو سليمان : (لا يصبرُ عن شهواتِ الدنيا إلا مَنْ كانَ في قلبِهِ ما يشغلهُ بالآخرةِ)^(١) .

وقال مالكُ بنُ دينارٍ : (اصطلحنا على حبِّ الدنيا ، فلا يأمرُ بعضُنا بعضاً ، ولا ينهى بعضُنا بعضاً ، ولا يدعُنا اللهُ على هذا ، فليت شعري ؛ أيُّ عذابِ اللهِ ينزلُ بنا ؟ !)^(٢) .

وقال أبو حازمٍ : (يسيرُ الدنيا يشغلُ عن كثيرِ الآخرةِ)^(٣) .

وقال الحسنُ : (أهينُوا الدنيا ، فواللهِ ؛ ما هي لأحدٍ بأهناً منها لمنْ أهانها)^(٤) .

وقال أيضاً : (إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . أعطاهُ مِنَ الدنيا عطيةً ، ثمَّ يمسكُ ، فإذا نفدَ . . أعادَ عليه ، وإذا هانَ عليه عبدٌ . . بسطَ لَهُ الدنيا بسطاً)^(٥) .

وكانَ بعضُهم يدعو : (يا ممسكَ السماءِ أنْ تقعَ على الأرضِ إلا بإذنِكَ ؛ أمسكْ عني الدنيا)^(٦) .

وقال محمدُ بنُ المنكدرِ : (رأيتَ لو أنَّ رجلاً صامَ الدهرَ لا يفطرُ ،

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨٤) بلاغاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٩٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٠٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٤) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٥) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٧) .

وقام الليل لا يفتُر ، وتصدَّق بماله ، وجاهد في سبيل الله ، واجتنب محارم الله ، غير أنه يُؤتى به يوم القيامة فيقال : ها إن هذا عظم في عينه ما صغره الله ، وصغر في عينه ما عظمه الله . كيف ترى يكون حاله ؟ فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا ؟! (١) .

وقال أبو حازم : (اشتدَّت مؤونة الدنيا والآخرة ، فأما مؤونة الآخرة . . فإنك لا تجد عليها أعواناً ، وأما مؤونة الدنيا . . فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه) (٢) .

وقال أبو هريرة : (الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشئ البالي ، تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفيها : يا رب ، يا رب ، لم تبغضني ؟ فيقول لها : اسكتي يا لا شيء ، اسكتي يا لا شيء) (٣) .

وقال عبد الله بن المبارك : (حبُّ الدنيا في القلب والذنوب قد احتوشته ، فمتى يصل الخير إليه ؟!) (٤) .

وقال وهب بن منبه : (من فرح قلبه بشيء من الدنيا . . فقد أخطأ الحكمة ، ومن جعل شهوته تحت قدميه . . فرق الشيطان من ظله ،

-
- (١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢١) .
 (٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢٥) .
 (٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٦٠) .
 (٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٣٧) .

وَمَنْ غَلَبَ عِلْمُهُ هَوَاهُ.. . فَهُوَ الْغَالِبُ (١) .

وقيل لبشرٍ : ماتَ فلانٌ ، فقالَ : جمعَ الدُّنيا وذهبَ إلى الآخرةِ ، ضيَّعَ نفسهُ ، قيلَ لهُ : إِنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ وَيَفْعَلُ ، وذكروا أبواباً مِنَ البرِّ ، فقالَ : وما يَنْفَعُ هَذَا وهوَ يجمعُ الدُّنيا !؟ (٢) .

وقالَ بعضُهُم : (الدُّنيا تُبْغِضُ إلينا نفسَها ، ونحنُ نحبُّها ! فكيفَ لو تحبَّبتْ إلينا !؟) (٣) .

وقيلَ لحكيمٍ : الدُّنيا لَمَنْ هِيَ ؟ قالَ : لَمَنْ تركَها ، فقيلَ : الآخرةُ لَمَنْ هِيَ ؟ قالَ : لَمَنْ طلبَها (٤) .

وقالَ حكيمٌ : (الدُّنيا دارُ خرابٍ ، وأخربُ مِنْها قلبُ مَنْ يَعمُرُها ، والجنةُ دارُ عمرانٍ ، وأَعمُرُ مِنْها قلبُ مَنْ يَطلبُها) (٥) .

وقالَ الجنيدُ : كَانَ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ مِنَ المريدِينَ الناطقينَ بلسانِ الحقِّ في الدُّنيا ، وعظَ أَخاً لَهُ في اللهِ ، وخوَّفَهُ باللهِ ، فقالَ : يا أَخِي ؛ إِنَّ الدُّنيا دَحْضُ مَزَلَّةٍ ، ودارُ مَذَلَّةٍ ، عمرانُها إلى الخرابِ صائرٌ ، وساكنُها إلى القبورِ زائرٌ ، شملُها على الفرقَةِ موقوفٌ ، وغناها إلى الفقرِ مصروفٌ ، الإكثارُ فيها

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٦) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٧) .

إعسارٌ ، والإعسارُ فيها يسارٌ ، فافزعْ إلى الله ، وارضَ برزقِ الله ، ولا تتسلف من دارٍ بقائك في دارٍ فنائك ؛ فإنَّ عيشَكَ فيءٌ زائلٌ ، وجدارٌ مائلٌ ، أكثر من عملِكَ ، وقصر من أملك .

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة ؟ فقال : دينار في اليقظة ، فقال : كذبت ؛ لأنَّ الذي تحبُّه في الدنيا كأنك تحبُّه في المنام ، والذي لا تحبُّه في الآخرة كأنك لا تحبُّه في اليقظة . وعن إسماعيل بن عياش قال : (كان أصحابنا يسمُّون الدنيا خنزيرة ، فيقولون : إليك عنا يا خنزيرة ، فلو وجدوا لها اسماً أقبح من هذا . لسموها به) (١) .

وقال كعب : (لتحببنَّ إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها) (٢) . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : (العقلاء ثلاثة : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه) (٣) . وقال أيضاً : (الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لها يلهيك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها !) (٤) .

وقال بكر بن عبد الله : (من أراد أن يستغنيَ بالدنيا عن الدنيا .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٧) عن إسماعيل بن عياش ، عن أبي راشد التنوخي ، عن يزيد بن ميسرة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٤٠) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٨٨) .

كَانَ كَمُطْفِئِ النَّارِ بِالتَّبْنِ (١) .

وَقَالَ بِنْدَارٌ : (إِذَا رَأَيْتَ أَبْنَاءَ الدُّنْيَا يَتَكَلَّمُونَ فِي الزَّهْدِ . . فاعلم أَنَّهُمْ فِي سَخَرَةِ الشَّيْطَانِ) (٢) .

وَقَالَ أَيْضاً : (مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الدُّنْيَا . . أَحْرَقَتْهُ نِيرَانُهَا - يَعْنِي : الْحَرَصَ - حَتَّى يَصِيرَ رَمَاداً ، وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى الْآخِرَةِ . . صَفَّتْهُ نِيرَانُهَا ، فَصَارَ سَبِيكَةً ذَهَبٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . . أَحْرَقَتْهُ نِيرَانُ التَّوْحِيدِ ، فَصَارَ جَوْهَرًا لَا حَدَّ لَقِيمَتِهِ) .

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (إِنَّمَا الدُّنْيَا سِتَّةُ أَشْيَاءَ : مَطْعُومٌ ، وَمَشْرُوبٌ ، وَمَلْبُوسٌ ، وَمَرْكُوبٌ ، وَمَنْكُوحٌ ، وَمَشْمُومٌ ، فَأَشْرَفُ الْمَطْعُومَاتِ الْعَسَلُ ، وَهُوَ مَذَقَةُ ذَبَابٍ ، وَأَشْرَفُ الْمَشْرُوبَاتِ الْمَاءُ ، يَسْتَوِي فِيهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، وَأَشْرَفُ الْمَلْبُوسَاتِ الْحَرِيرُ ، وَهُوَ نَسِجُ دُودَةٍ ، وَأَشْرَفُ الْمَرْكُوبَاتِ الْفَرَسُ ، وَعَلَيْهِ يُقْتَلُ الرِّجَالُ ، وَأَشْرَفُ الْمَنْكُوحَاتِ الْمَرْأَةُ ، وَهِيَ مَبَالٌ فِي مَبَالٍ ، وَاللَّهُ ؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَزِينُ أَحْسَنَ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَيُرَادُّ أَقْبَحُ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَأَشْرَفُ الْمَشْمُومَاتِ الْمَسْكُ ، وَهُوَ دَمُ حَيَوَانٍ) (٣) .



(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩٢) .

(٢) يعني : لا يتكلم في الزهد إلا من كان زاهداً ؛ حتى يكون لكلامه التأثير . « إتحاف » (٩٨ / ٨) .

(٣) أورده الراغب في « الذريعة » (ص ٢١٨) .

بيان الموعظ في ذم الدنيا وصفها

قَالَ بَعْضُهُمْ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ؛ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَهْلٍ ، وَكُونُوا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ وَجَلٍ ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِالْأَمَلِ وَنَسِيَانِ الْأَجَلِ ، وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ خَدَّاعَةٌ ، قَدْ تَزَخَّرَتْ لَكُمْ بِغُرُورِهَا ، وَفَتَّتْكُمْ بِأَمَانِيهَا ، وَتَزَيَّنَتْ لَخَطَّابِهَا ، فَأَصْبَحَتْ كَالْعُرُوسِ الْمَجْلُوءَةِ ، الْعَيُونُ إِلَيْهَا نَاطِرَةٌ ، وَالْقُلُوبُ عَلَيْهَا عَاكِفَةٌ ، وَالنَّفُوسُ لَهَا عَاشِقَةٌ ، فَكَمْ مِنْ عَاشِقٍ لَهَا قَتَلَتْ ، وَمُطْمَئِنٍّ إِلَيْهَا خَذَلَتْ .

فَانظَرُوا إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ ؛ فَإِنَّهَا دَارٌ كَثُرَتْ بَوَائِقُهَا ، وَذَمَّهَا خَالِقُهَا ، جَدِيدُهَا يَبْلَى ، وَمُلْكُهَا يَفْنَى ، وَعَزِيزُهَا يَذَلُّ ، وَكَثِيرُهَا يَقَلُّ ، وَحَيُّهَا يَمُوتُ ، وَخَيْرُهَا يَفُوتُ ، فَاسْتَيْقِظُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ مِنْ غَفْلَتِكُمْ ، وَانْتَبَهُوا مِنْ رَقَدَتِكُمْ ، قَبْلَ أَنْ يُقَالَ : فَلَانٌ عَلِيلٌ ، أَوْ مَدْفَنٌ ثَقِيلٌ ، فَهَلْ عَلَى الدَّوَاءِ مِنْ دَلِيلٍ ؟ وَهَلْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ سَبِيلٍ ؟ فَيُدْعَى لَكَ الْأَطْبَاءُ ، وَلَا يُرْجَى لَكَ الشِّفَاءُ ، ثُمَّ يُقَالُ : فَلَانٌ أَوْصَى ، وَمَالُهُ أَحْصَى ، ثُمَّ يُقَالُ : قَدْ ثَقُلَ لِسَانُهُ ، فَمَا يَكَلِّمُ إِخْوَانَهُ ، وَلَا يَعْرِفُ جِيرَانَهُ ، وَعَرَقَ عِنْدَ ذَلِكَ جَبِينُكَ ، وَتَتَابَعَ أُنْيُكَ ، وَثَبَتَ يَقِينُكَ ، وَطُمَحَتْ جَفُونُكَ ، وَصَدَقَتْ ظَنُونُكَ ، وَتَلَجَّلَجَ لِسَانُكَ ، وَبَكَى إِخْوَانُكَ ، وَقِيلَ لَكَ : هَذَا ابْنُكَ فَلَانٌ ، وَهَذَا أَخُوكَ فَلَانٌ ، وَمُنَعْتَ الْكَلَامَ فَلَا تَنْطَقُ ، وَخُتِمَ عَلَى لِسَانِكَ فَلَا يَنْطَلِقُ ، ثُمَّ حُلَّ بِكَ الْقَضَاءُ ، وَانْتَزَعَتْ نَفْسُكَ مِنَ الْأَعْضَاءِ ، ثُمَّ عُرِجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَاجْتَمَعَ

عند ذلك إخوانك ، وأحضرت أكفانك ، فغسلوك وكفنوك ، فانقطع عوادك ، واستراح حسادك ، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتها بأعمالك .

وقال بعضهم لبعض الملوك : (إنَّ أحقَّ الناسِ بدمِّ الدنيا وقلاها من بسطَ له فيها ، وأعطى حاجته منها ؛ لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه ، أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتي سلطانه فتهدمه من القواعد ، أو تدبُّ إلى جسمه فتسقمه ، أو تفجعه بشيء هو ضنين به من أحبابه ، فالدنيا أحقُّ بالدمِّ ، هي الآخذة ما تعطي ، الراجعة فيما تهبُّ ، بينا هي تضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيره ، وبينما هي تبكي له إذ أبكت عليه ، وبينما هي تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد ، تعقد التاج على رأس صاحبها اليوم ، وتعفره في التراب غداً ، سواءً عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقي ، تجد في الباقي من الذاهب خلفاً ، وترضى بكلِّ من كلِّ بدلاً ^(١) .

وكتب الحسن البصريُّ إلى عمر بن عبد العزيز : (أمّا بعدُ : فإنَّ الدنيا دارٌ ظعنٍ ليست بدارٍ إقامةٍ ، وإنَّما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبةً ، فاحذرْها يا أمير المؤمنين ؛ فإنَّ الزادَ منها تركُّها ، والغنى منها فقرُها ، لها في كلِّ حينٍ قتيْلٌ ، تذلُّ من أعزَّها ، وتفقرُ من جمعها ، هي كالسَّمِّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فكن فيها كالمداوي جراحته ، يحتمي

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٧) .

قليلاً مخافة ما يكره طويلاً ، ويصبرُ على شدةِ الدوائِ مخافةَ طولِ البلاءِ .
 فاحذرْ هذه الدارَ الغدارةَ ، الختالةَ الخداعةَ ، التي قد زينتْ بخدعِها ،
 وفتنتْ بغرورها ، وتحلّتْ بآمالِها ، وتشوّقتْ لخطاياها ، فأصبحتْ
 كالعروسِ المجلوةِ ، العيونُ إليها ناظرةٌ ، والقلوبُ عليها والهةٌ ، والنفوسُ
 لها عاشقةٌ ، وهي لأزواجِها كلّهم قاتلةٌ ، فلا الباقي بالماضي معتبرٌ ،
 ولا الآخرُ بالأوّلِ مزدجرٌ ، ولا العارفُ بالله عزّ وجلّ حينَ أخبره عنها
 مدّكرٌ ، فعاشقٌ لها قد ظفرَ منها بحاجتيهِ ، فاعترّ وطغى ، ونسيَ المعادَ ،
 فشغلَ فيها لُبّه ، حتّى زلّتْ عنها قدمُهُ ، فعظمتْ ندامتُهُ ، وكثرتْ حسرتُهُ ،
 واجتمعتْ عليه سكراتُ الموتِ بالمِوهِ ، وحسراتُ الفوتِ بغصّتيهِ ، وراغبٌ
 فيها لم يدركْ منها ما طلبَ ، ولم يروّحْ نفسه من التعبِ ، فخرجَ بغيرِ زادٍ ،
 وقدمَ على غيرِ مهادٍ ، فاحذرْها يا أميرَ المؤمنين .

وكنْ أسراً ما تكونُ فيها أحذرَ ما تكونُ لها ؛ فإنَّ صاحبَ الدُّنيا كلّما
 اطمأنَّ منها إلى سرورٍ . أشخصتهُ إلى مكروهٍ ، السارُّ فيها لأهلِها غارٌ ،
 والنافعُ منها غداً ضارٌّ ، وقد وُصلَ الرِّخاءُ منها بالبلاءِ ، وجُعِلَ البقاءُ فيها
 إلى فناءٍ ، فسروورها مشوبٌ بالأحزانِ ، لا يرجعُ منها ما ولى وأدبرَ ،
 ولا يُدرى ما هوأتِ فينتظرُ .

أمانِها كاذبةٌ ، وآمالُها باطلةٌ ، وصفوها كدرٌ ، وعيشُها نكدٌ ، وابنُ آدمَ
 فيها على خطيرٍ ، إنْ عقلَ ونظرَ . فهو من النعماءِ على خطيرٍ ، ومن البلاءِ
 على حذرٍ ، فلو كان الخالقُ لم يُخبرَ عنها خبراً ، ولم يضربْ لها مثلاً .

لَكَانَتِ الدُّنْيَا قَدْ أَيْقَظَتِ النَّائِمَ ، وَنَبَّهَتِ الْغَافِلَ ، فَكَيْفَ وَقَدْ جَاءَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا زَاجِرٌ ، وَفِيهَا وَاعِظٌ ، فَمَا لَهَا عِنْدَ اللَّهِ جَلٌّ ثَنَاؤُهُ قَدْرٌ ، وَمَا نَظَرَ إِلَيْهَا مِنْذُ خَلَقَهَا .

وَلَقَدْ عُرِضَتْ عَلَى نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِفَاتِيحِهَا وَخَزَائِنِهَا لَا يَنْقُصُهُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا ؛ إِذْ كَرِهَ أَنْ يَخَالَفَ عَلَى اللَّهِ أَمْرَهُ ، أَوْ يَحِبَّ مَا أَبْغَضَ خَالِقُهُ ، أَوْ يَرْفَعَ مَا وَضَعَ مَلِيكُهُ ، فَزَوَّاهَا عَنِ الصَّالِحِينَ اخْتِبَارًا ، وَبَسَطَهَا لِأَعْدَائِهِ اغْتِرَارًا .

فِيظُنُّ الْمَغْرُورُ بِهَا الْمُقْتَدِرُ عَلَيْهَا أَنَّهُ أَكْرَمَ بِهَا ، وَنَسِيَ مَا صَنَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ شَدَّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ ، وَلَقَدْ جَاءَتْ الرِّوَايَةُ عَنْهُ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلًا . . فَقُلْ : ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عَقُوبَتُهُ ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلًا . . فَقُلْ : مَرْحَبًا بِشُعَارِ الصَّالِحِينَ ، وَإِنْ شِئْتَ . . اقْتَدِيتَ بِصَاحِبِ الرُّوحِ وَالْكَلِمَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِدَامِي الْجُوعُ ، وَشُعَارِي الْخَوْفُ ، وَلِبَاسِي الصَّوْفُ ، وَصِلَاتِي فِي الشِّتَاءِ مِشَارِقُ الشَّمْسِ ، وَسِرَاجِي الْقَمَرُ ، وَدَابَّتِي رَجُلَايَ ، وَطَعَامِي وَفَاكِهِتِي مَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ ، أَبَيْتُ وَلَيْسَ لِي شَيْءٌ ، وَأَصْبَحْتُ وَلَيْسَ لِي شَيْءٌ ، وَلَيْسَ عَلَيَّ الْأَرْضُ أَحَدٌ أَغْنِيَنِي (١) .

(١) كَذَا رَوَاهُ بِطُولِهِ وَمَرْفُوعُهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « الزَّهْدِ » (٥٠) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَةِ » (٣١٣ / ٦) عَنْ الْحَسَنِ ، فَالْمَرْفُوعُ فِيهِ مَرْسَلٌ ، وَخَبَرُ إِعْرَاضِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الدُّنْيَا وَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٤٧) عَنْ أَبِي أَمَامَةَ مَرْفُوعًا : « عَرَضَ عَلَيَّ =

وقال وهب بن منبه : (لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا
السلامُ إِلَى فِرْعَوْنَ . . قَالَ : لَا يَرُوعَنَّكُمَا لِباسُهُ الَّذِي لَبَسَ مِنَ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ
نَاصِيَتَهُ بِيَدِي ، لَيْسَ يَنْطِقُ وَلَا يَطْرِفُ وَلَا يَنْتَفَسُّ إِلَّا بِإِذْنِي ، وَلَا يَعْجِبَنَّكُمَا
مَا تَمَتَّعَ بِهِ مِنْهَا ؛ فَإِنَّمَا هِيَ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَةُ الْمَتَرَفِينَ ، فَلَوْ شِئْتُ أَنْ
أَزِينَكُمَا بِزِينَةٍ مِنَ الدُّنْيَا ، يَعْرِفُ فِرْعَوْنُ حِينَ يَرَاهَا أَنْ مَقْدَرَتُهُ تَعْجُزُ عَمَّا
أُوتِيْتُمَا . . لَفَعَلْتُ ، وَلَكِنِّي أَرُغِبُ بِكُمَا عَنْ ذَلِكَ ، فَأُزَوِّي ذَلِكَ عَنْكُمَا ،
وَكَذَلِكَ أَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِي ، إِنِّي لَأَذُودُهُمْ عَنْ نَعِيمِهَا ، كَمَا يَذُودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ
غَنَمَهُ عَنْ مَرَاتِعِ الْهَلَكَةِ ، وَإِنِّي لَأُجَنِّبُهُمْ سُلُوكَهَا كَمَا يُجَنِّبُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبِلَهُ
عَنْ مَبَارِكِ الْعَرَّةِ ^(١) ، وَمَا ذَاكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ ، وَلَكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا نَصِيْبَهُمْ مِنْ
كَرَامَتِي سَالِمًا مَوْفِرًا ، إِنَّمَا يَتَزَيَّنُّ لِي أَوْلِيَائِي بِالذُّلِّ وَالْخُشُوعِ ،
وَالْخَوْفِ وَالْخُضُوعِ ، وَالتَّقْوَى تُثَبِّتُ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَتُظْهِرُ عَلَى أَجْسَادِهِمْ ؛
فَهِيَ ثِيَابُهُمْ الَّتِي يَلْبَسُونَ ، وَدَثَارُهُمْ الَّذِي يَظْهَرُونَ ، وَضَمِيرُهُمْ الَّذِي
يَسْتَشْعِرُونَ ، وَنَجَاتُهُمْ الَّتِي بِهَا يَفُوزُونَ ، وَرَجَاؤُهُمْ الَّذِي إِتْيَاهُ يَأْمَلُونَ ،
وَمَجْدُهُمْ الَّذِي بِهِ يَفْخَرُونَ ، وَسِيْمَاهُمْ الَّتِي بِهَا يُعْرَفُونَ ، فَإِذَا لَقِيَتْهُمْ . .
فَاخْفَضَ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَذَلَّلَ لَهُمْ قَلْبَكَ وَلِسَانَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ أَخَافَ لِي

= ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ،
وخبر موسى عليه السلام رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٩) من حديث
أبي سعيد رضي الله عنه .

(١) العرّة : الجرب .

وليّاً . فقد بارزني بالمحاربة ، ثمّ أنا الثائرُ له يومَ القيامةِ (١) .

وخطبَ عليّ رضي الله عنه يوماً فقال : (اعلّمُوا أنكمُ ميّتُونَ ، ومبعوثُونَ مِنْ بعدِ الموتِ ، وموقوفُونَ على أَعْمَالِكُمْ ، ومجزّيُونَ بها ، فلا تغرّنكمُ الحياةُ الدُّنيا ؛ فإنّها بالبلاءِ محفوفةٌ ، وبالفناءِ معروفةٌ ، وبالغدرِ موصوفةٌ ، وكلُّ ما فيها إلى زوالٍ ، وهي بينَ أهلِها دولٌ وسجالٌ ، لا تدومُ أحوالُها ، ولا يسلمُ مِنْ شرّها نزالُها ، بينا أهلُها مِنْها في رخاءٍ وسرورٍ ؛ إذا هُم مِنْها في بلاءٍ وغرورٍ ، أحوالٌ مختلفةٌ ، وتاراتٌ متصرّفةٌ ، العيشُ فيها مذمومٌ ، والرخاءُ فيها لا يدومُ ، وإنّما أهلُها فيها أغراضٌ مستهدفةٌ ، ترميهمُ بسهامِها ، وتقصمُهمُ بحمامِها ، وكلُّ حتفٍ فيها مقدورٌ ، وحظٌّ فيها موفورٌ .

واعلمُوا عبادَ الله أنكمُ وما أنتمُ فيه مِنْ هذهِ الدُّنيا على سبيلِ مَنْ قَدْ مضى ممّنْ كانَ أطولَ منكمُ أعماراً ، وأشدّ منكمُ بطشاً ، وأعمرَ دياراً ، وأبعدَ آثاراً ، فأصبحتْ أصواتُهمُ هامدةٌ خامدةٌ مِنْ بعدِ طولِ تقلُّبِها ، وأجسادُهمُ باليةٌ ، وديارُهمُ على عروشِها خاليةٌ ، وآثارُهمُ عافيةٌ .

واستبدلُوا بالقصورِ المشيدةِ والسررِ والنمازِقِ الممهّدةِ الصخورِ والأحجارِ المسندةِ في القبورِ اللاطئةِ الملحدةِ ، فمحلُّها مقربٌ ، وساكنُها مغتربٌ بينَ أهلِ عمارةٍ موحشينَ ، وأهلِ محلّةٍ متشاغلينَ ، لا يستأنسونَ بالعمرانِ ، ولا يتواصلونَ تواصلَ الجيرانِ والإخوانِ ، على ما بينهمُ مِنْ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١ / ١) .

قرب المكان والجوارِ ودنو الدارِ ، وكيف يكون بينهم تواصلٌ ، وقد طحنهم
بكلِّكِهِ البلى ، وأكلتهم الجنادلُ والثرى ، فأصبحوا بعدَ الحياةِ أمواتاً ،
وبعدَ غضارةِ العيشِ رُفاتاً .

فُجِعَ بهمُ الأحبابُ ، وسكنوا تحتَ الترابِ ، وظعنوا فليسَ لهمُ إيابٌ ،
هيهاتَ هيهاتَ ، ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ،
فكانَ قد صرتمُ إلى ما صاروا إليه مِنَ البلى ، والوحدةِ في دارِ المثنوى ،
وارتهتمُ في ذلكَ المضجعِ ، وضممكم ذلكَ المستودعُ .

فكيفَ بكم لو عاينتمُ الأمورَ ، وبُعِثْتِ القبورُ ، وحُصِّلَ ما في
الصدورِ ، وأوقِفْتُمُ للتحصيلِ بينَ يدي الملكِ الجليلِ ، فطارَتِ القلوبُ
لإسفافِها من سالفِ الذنوبِ ، وهتكتِ عنكمُ الحُجُبُ والأستارُ ، وظهرتِ
منكمُ العيوبُ والأسرارُ ، هنالكَ تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ يقولُ : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ ، وقالَ
تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ . . . ﴾ الآية ، جعلنا اللهُ
وإياكمُ عاملينَ بكتابه ، ومتبعينَ لأوليائه ؛ حتَّى يُحِلَّنَا وإياكمُ دارَ المُقامةِ مِنْ
فضله ، إِنَّهُ حميدٌ مجيدٌ (١) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الأيَّامُ سهامٌ ، والناسُ أغراضٌ ، والدهرُ يرميكُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢١٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم »
(ص ٣٦٤) .

كلَّ يومٍ بسهامِهِ ، ويخترمُكَ بلياليهِ وأيامِهِ ، حتَّى يستغرقَ جميعَ أجزاءِكَ ، فكمْ بقاءُ سلامتِكَ معَ وقوعِ الأيامِ بكَ ، وسرعةِ الليالي في بدنِكَ ؟ لو كُشفَ لكَ عمَّا أحدثتِ الأيامُ فيكَ مِنَ النقصِ . . لاستوحشتَ مِنْ كلِّ يومٍ يأتي عليكَ ، واستثقلتِ ممرَّ الساعاتِ بكَ ، ولكنْ تدبِيرُ اللهِ سبحانه فوقَ تدبِيرِ الاعتبارِ ، وبالسُّلُوِّ عَنْ غوائلِ الدُّنيا وَجَدَ طعمُ لذاتها ، وإنَّها لأمرٌ مِنَ العلقمِ إذا عجمَها الحكيمُ^(١) ، وقد أعيَتِ الواصفَ لعيوبِها بظاهِرِ أفعالِها ، وما تأتي بهِ مِنَ العجائبِ أَكثَرُ ممَّا يحيطُ بِهِ الواعظُ ، فنستوهبُ اللهَ رُشداً إلى الصوابِ^(٢) .

وقال بعضُ الحكماءِ وقد استُوصِفَ الدُّنيا وقدرَ بقائِها : (الدُّنيا وقتُكَ الذي يرجعُ إليك فيه طرفُكَ ؛ لأنَّ ما مضى عنكَ . . فقد فاتَكَ إدراكُهُ ، وما لم يأتِ . . فلا علمَ لكَ بهِ ، والدَّهْرُ يومٌ مقبلٌ تنعاه ليلتُهُ ، وتطويه ساعتهُ ، وأحداثُهُ تتوالى على الإنسانِ بالتغييرِ والنقصانِ ، والدَّهْرُ موَكَّلٌ بثبوتِ الجماعاتِ ، وانخرامِ الشَّمْلِ ، وتنقِلِ الدُّولِ ، والأملُ طويلٌ ، والعمرُ قصيرٌ ، وإلى اللهِ تصيرُ الأمورُ)^(٣) .

وخطبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهِ عليه فقالَ : (أيُّها الناسُ ؛ إنَّكم

(١) عجمها ؛ يقال : عجم الشيء يعجمه عجماً ؛ عضه ليعلم صلابته من خوره ، وكذا العين تعجم إذا نظرت فاحصةً مختبرة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠ / ١٥٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩٧) .

خُلِقْتُمْ لِأَمْرٍ إِنْ كُنْتُمْ تَصَدَّقُونَ بِهِ.. إِنْ كُنْتُمْ حَقَقْتُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ..
 إِنْ كُنْتُمْ لَهْلَكْتُمْ ، إِنَّمَا خُلِقْتُمْ لِلْأَبَدِ ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ تُنْقَلُونَ ،
 عِبَادَ اللَّهِ ؛ إِنْ كُنْتُمْ فِي دَارٍ لَكُمْ فِيهَا مِنْ طَعَامِكُمْ غَصَصٌ ، وَمِنْ شَرَابِكُمْ شَرَقٌ ،
 لَا تَصْفَوْ لَكُمْ نِعْمَةً تُسْرُونَ بِهَا إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى تَكْرَهُونَ فِرَاقَهَا ، فَاعْمَلُوا لِمَا
 أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ ، وَخَالِدُونَ فِيهِ) ، ثُمَّ غَلَبَهُ الْبُكَاءُ فَزَلَّ (١) .

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خُطْبَتِهِ : (أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالتَّوَكُّلِ
 لِلدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَحِبُّونَ تَرْكَهَا ، الْمَبْلِيَةِ أَجْسَامَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ
 تَرِيدُونَ تَجْدِيدَهَا ، فَإِنَّمَا مِثْلُكُمْ وَمِثْلُهَا كَمَثَلِ سَفِيرٍ سَلَكَوا طَرِيقًا وَكَأَنَّهُمْ قَدْ
 قَطَعُوهُ ، وَأَفْضَوْا إِلَى عِلْمٍ فَكَأَنَّهُمْ بَلَغُوهُ ، وَكَمْ عَسَى أَنْ يَجْرِيَ الْمَجْرَى حَتَّى
 يَنْتَهِيَ إِلَى الْغَايَةِ ؟ وَكَمْ عَسَى أَنْ يَبْقَى مَنْ لَهُ يَوْمٌ فِي الدُّنْيَا وَطَالِبٌ حَيْثُ
 يَطْلُبُهُ حَتَّى يَفَارِقَهَا ؟ فَلَا تَجْزَعُوا لِبُؤْسِهَا وَضُرَائِهَا ؛ فَإِنَّهُ إِلَى انْقِطَاعٍ ،
 وَلَا تَفْرَحُوا بِنَعِيمِهَا ؛ فَإِنَّهُ إِلَى زَوَالٍ ، عَجِبْتُ لَطَالِبِ الدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ ،
 وَغَافِلٍ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ) (٢) .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ (٣) : (لَمَّا عَلِمَ أَهْلُ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ
 وَالْأَدَبِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَهَانَ الدُّنْيَا ، وَأَنَّهُ لَمْ يَرْضَهَا لِأَوْلِيَائِهِ ، وَأَنَّهَا عِنْدَهُ
 حَقِيرَةٌ قَلِيلَةٌ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَهَدَ فِيهَا ، وَحَذَرَ أَصْحَابَهُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٣٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤١٤) .

(٣) في (ب) : (الحسن) بدل (الحسين) .

مِنْ فتنِهَا . . أَكَلُوا مِنْهَا قَصِداً ، وَقَدَّمُوا فَضْلاً ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا يَكْفِي ،
 وَتَرَكُوا مَا يُلْهِي ، لَبَسُوا مِنَ الثِّيَابِ مَا سَتَرَ الْعَوْرَةَ ، وَأَكَلُوا مِنَ الطَّعَامِ أَذْنَاهُ
 مِمَّا سَدَّ الْجُوعَةَ ، نَظَرُوا إِلَى الدُّنْيَا بَعَيْنٍ أَنَّهَا فَانِيَةٌ ، وَإِلَى الْآخِرَةِ أَنَّهَا بَاقِيَةٌ ،
 فَتَزَوَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ ، فَخَرَّبُوا الدُّنْيَا ، وَعَمَرُوا بِهَا الْآخِرَةَ ،
 وَنَظَرُوا إِلَى الْآخِرَةِ بِقُلُوبِهِمْ ، فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ سَيَنْظُرُونَ إِلَيْهَا بِأَعْيُنِهِمْ ،
 فَارْتَحَلُوا إِلَيْهَا بِقُلُوبِهِمْ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُمْ سَيَرْتَحِلُونَ إِلَيْهَا بِأَبْدَانِهِمْ ، صَبَرُوا
 قَلِيلاً وَتَنَعَّمُوا طَوِيلاً ، كُلُّ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ مَوْلَاهُمُ الْكَرِيمِ ، أَحَبُّوا مَا أَحَبَّ
 لَهُمْ ، وَكَرَهُوا مَا كَرِهَ لَهُمْ) .



بيان صفته الدنيا بالأمثلة

اعلم : أنَّ الدنيا سريعةُ الفناء ، قريبةُ الانقضاء ، تعدُّ بالبقاء ، ثمَّ تُخلفُ بالوفاء ، تنظرُ إليها فتراها ساكنةً مستقرَّةً ، وهي سائرةٌ سيراً عنيفاً ، ومرحلةٌ ارتحالاً سريعاً ، ولكنَّ الناظرَ إليها قد لا يحسُّ بحركتها ، فيطمئنُّ إليها ، وإنما يحسُّ عند انقضائها .



ومثالها : الظلُّ ، فإنه متحركٌ ساكنٌ ، متحركٌ في الحقيقة ، ساكنٌ في الظاهر ، لا تدركُ حركتهُ بالبصرِ الظاهرِ ، بلُ بالبصيرةِ الباطنةِ .

ولمَّا ذكرتِ الدنيا عندَ الحسنِ البصريِّ رحمه الله عليه . . أنشدَ^(١) : [من الكامل]

أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظَلٍّ زَائِلٍ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ
وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَتِمُّثَلُ
ويقولُ^(٢) :

يَا أَهْلَ لَذَاتِ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا إِنَّ أُغْتِرَاراً بِظِلِّ زَائِلٍ حُمُقُ
وقيلَ : إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ .

(١) البيت منسوب إلى عمران بن حطان ، انظر « شعر الخوارج » (ص ١٥٥) ، وإلى ابن أبي حصينة في « ديوانه » (٣٧٦ / ١) .

(٢) انظر « ربيع الأبرار » (٧٠ / ١) ، و « المدهش » (٣٩٥ / ١) .

ويُقال : نزلَ أعرابيٌّ بقومٍ ، فقدَّموا إليه طعاماً ، فأكلَ ، ثُمَّ قامَ إلى ظِلِّ خيمةٍ لَهُمْ ، فنامَ هناكَ ، فاقتلعُوا الخيمةَ ، فأصابَتْهُ الشمسُ ، فانتَبَهَ وقامَ وهو يقولُ :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَظِلٍّ بَنَيْتُهُ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ ظِلِّكَ زَائِلٌ^(١)
وكذلكَ قيلَ^(٢) :

وإِنَّ أَمْرًا دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ لَمُسْتَمْسِكٌ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورٍ
مثالٌ آخرُ :

الدُّنْيَا مِنْ حَيْثُ التَّغْرِيرُ بِخَيَالَاتِهَا ، ثُمَّ الْإِفْلَاسُ مِنْهَا بَعْدَ إِفْلَاتِهَا . . تشبهُ خيالاتِ المنامِ ، وأضغاثَ الأحلامِ .
قالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الدُّنْيَا حُلْمٌ ، وأهلُها عليها مجازونَ ومعاقبونَ »^(٣) .

وقالَ يونسُ بنُ عبيدٍ : (ما شَبَّهْتُ نفسي في الدُّنْيَا إِلَّا كرجُلٍ نامَ ، فرأى في منامِهِ ما يكرَهُ وما يحبُّ ، فبينما هوَ كذلكَ إِذِ انتَبَهَ)^(٤) ، فكذلكَ الناسُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٥) .

(٢) انظر « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٦٩) ، و « ربيع الأبرار » (١ / ٤٦) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨ / ١٠٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٢) .

نِيَامٌ ، فَإِذَا مَاتُوا . . انتبهوا^(١) ، فَإِذَا لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِمَّا رَكَنُوا إِلَيْهِ وَفَرَحُوا بِهِ .

وقيل لحكيم : أي شيء أشبه بالدُّنيا ؟ قال : أحلامُ النَّائمِ^(٢) .



مثال آخرُ للدُّنيا في عداوتها لأهلها ، وإهلاكها بنيها :

اعلم : أنَّ طبعَ الدُّنيا التَّلَطُّفُ في الاستدراجِ أوَّلاً ، والتَّوَصُّلُ إلى الإهلاكِ آخرًا ، وهي كَامِرَةٌ تَتَزَيَّنُ لِلخَطَّابِ ، حَتَّى إِذَا نَكَحَتْهُمْ . . ذَبَحَتْهُمْ .

وقَدْ رَوَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كُوشِفَ بالدُّنيا ، فَرَأَاهَا فِي صُورَةِ عَجُوزٍ هَتَمَاءَ ، عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ ، فَقَالَ لَهَا : كَمْ تَزُوجَتِ ؟ قَالَتْ : لَا أَحْصِيَهُمْ ، قَالَ : فَكُلُّهُمْ مَاتَ عَنْكَ أَوْ كُلُّهُمْ طَلَّقَكَ ؟ قَالَتْ : بَلْ كُلُّهُمْ قَتَلْتُ ، فَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : بؤْساً لأزواجكِ الباقيْنَ كَيْفَ لَا يَعْتَبِرُونَ بِأَزْوَاجِكِ الْمَاضِينَ ؟! كَيْفَ تَهْلِكِينَهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَلَا يَكُونُونَ مِنْكَ عَلَى حَذَرٍ ؟!^(٣) .



(١) تقدم أنه من قول سفيان الثوري .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧) .

مثال آخرُ للدُّنيا في مخالفةِ باطنِها لظاهرِها :

اعلم : أنَّ الدُّنيا مزينةُ الظواهرِ ، قبيحةُ السرائرِ ، وهي تشبهُ عجوزاً متزينةً تخدعُ الناسَ بظاهرِها ، فإذا وقفوا على باطنِها ، وكشفوا القناعَ عن وجهِها . . تمثلتْ لهمُ قبائحُها ، فندموا على اتباعِها ، وخجلوا من ضعفِ عقولِهم في الاغترارِ بظاهرِها .

وقال العلاءُ بنُ زيادٍ : (رأيتُ في المنامِ عجوزاً كبيرةً مُتغضَّنةَ الجلدِ ، عليها من كلِّ زينةِ الدُّنيا ، والناسُ عُكُوفٌ عليها متعجبونَ ينظرونَ إليها ، فجئتُ ونظرتُ وتعجبتُ من نظريهمُ إليها ، وإقبالِهمُ عليها ، فقلتُ لها : ويلكِ ! مَنْ أنتِ ؟ قالتُ : أوَمَا تعرفُني ؟ ! قلتُ : لا ، ما أدري مَنْ أنتِ ، قالتُ : فإنِّي أنا الدُّنيا ، قلتُ : أعودُ باللهِ من شرِّكِ ، قالتُ : فإنَّ أحبَّبتُ أنْ تُعاذَ من شرِّي . . فأبغضِ الدرهمَ) (١) .

وقال أبو بكرٍ بنُ عياشٍ : (رأيتُ الدُّنيا في النومِ عجوزاً مشوَّهةً شمطاءً ، تصفُقُ بيديها ، وخلفها خلقٌ يتبعونها يصفقونَ ويرقصونَ ، فلما كانتُ بحداثتي . . أقبلتُ عليَّ ، فقالتُ : لو ظفرتُ بك . . لصنعتُ بك ما صنعتُ بهؤلاءِ) ، ثمَّ بكى أبو بكرٍ ، وقال : (رأيتُ هذا قبلَ أنْ أقدمَ إلى بغدادَ) (٢) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٠) .

وقال الفضيل بن عياض : قال ابن عباس رضي الله عنه : (يُؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوهة خلقها ، فتشرف على الخلائق ، فيقال : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه ، فيقال : هذه الدنيا التي تناحرتُم عليها ، بها تقاطعتُم الأرحام ، وبها تحاسدتُم وتباغضتُم واغتررتُم ، ثم تُقذف في جهنم ، فتنادي : أي رب ؟ أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله عز وجل : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها) (١) .

وقال الفضيل : (بلغني أن رجلاً عُرج بروجِه ؛ فإذا امرأة على قارعة الطريق ، عليها من كل زينة من الحلِيِّ والثياب ، وإذا لا يمرُّ بها أحدٌ إلا جرحته ، وإذا هي أدبرت . . كانت أحسن شيء رآه الناس ، وإذا أقبلت . . كانت أقبح شيء رآه الناس ، عجوز شمطاء ، زرقاء عمشاء ، قال : فقلت : أعوذ بالله منك ، قالت : لا والله ؛ لا يعيدك الله مني حتى تبغض الدرهم ، قلت : مَنْ أنت ؟ قالت : أنا الدنيا) (٢) .

مثال آخرُ للدُّنيا وعبور الإنسان بها :

اعلم : أن الأحوال ثلاثة : حالة لم تكن فيها شيئاً ، وهي ما قبل

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٤) .

وجودك إلى الأزل ، وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا ، وهي ما بعد موتك إلى الأبد ، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل ، وهي أيام حياتك في الدنيا ، فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد ؛ حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر طويل .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « ما لي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف ، فرفعت له شجرة ، فقال تحت ظلها ساعة ، ثم راح وتركها »^(١) .

ومن رأى الدنيا بهذه العين . . لم يركن إليها ، ولم يبال كيف انقضت أيامه ؛ في ضرٍّ وضيقٍ ، أو في سعةٍ ورفاهيةٍ ، بل لا يبغي لبنةً على لبنةٍ ، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنةً على لبنةٍ ، ولا قصبةً على قصبةٍ^(٢) .

ورأى بعض الصحابة يني بيتاً من خُصٍّ ، فقال : « ما أرى الأمر

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٧) ، وابن ماجه (٤١٠٩) .

(٢) فقد روى الطبراني في « الأوسط » (٣٢٦٥) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من سأل عني أو سرّه أن ينظر إلي . . فلينظر إلي أشعث شاحب مشمّر ، لم يضع لبنةً على لبنةٍ ، ولا قصبةً على قصبةٍ ، رفع إليه عَلمَ فشمّر إليه ، اليوم المضمار وغداً السباق ، والغاية الجنة والنار » .

وروى ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٣٩) عن عمر بن عبد العزيز وكان لا يني بنياناً : (سنة رسول الله خير من الدنيا وما فيها ، لم يبن بنياناً ، ولم يضع لبنةً على لبنةٍ ، ولا قصبةً على قصبةٍ) .

إلا أعجلَ مِنْ ذلِكَ » ، وأنكرَ ذلك ^(١) .

والى هذا أشارَ عيسى عليه السلامُ حيثُ قالَ : (الدُّنيا قنطرةٌ ،
فاعبروها ولا تعمروها) ^(٢) .

وهوَ مثالٌ واضحٌ ؛ فإنَّ الحياةَ الدُّنيا معبرٌ إلى الآخرةِ ، والمهدُّ هوَ الميلُ
الأولُ على رأسِ القنطرةِ ، واللَّحدُ هوَ الميلُ الثاني ، وبينهُما مسافةٌ
محدودةٌ ، فَمِنَ الناسِ مَنْ قطعَ نصفَ القنطرةِ ، ومنهُم مَنْ قطعَ ثلثها ،
ومنهُم مَنْ قطعَ ثلثيها ، ومنهُم مَنْ لم يبقَ لَهُ إلا خطوةٌ واحدةٌ وهوَ غافلٌ
عنها ، وكيفما كانَ . . فلا بدَّ لَهُ مِنَ العبورِ ، فالبناءُ على القنطرةِ وتزيينُها
بأصنافِ الزينةِ وأنتَ عابرٌ عليها . . غايةُ الجهلِ والخذلانِ .

مثالٌ آخرٌ للدُّنيا في لينِ موردها وخشونةِ مصدرِها :

اعلمُ : أنَّ أوائلَ أمورِ الدنيا تبدو هيئةً ليّنةً ، يظنُّ الخائضُ فيها أنَّ حلاوةَ
خفَضِها كحلاوةِ الخوضِ فيها ، وهيئاتُ ! فإنَّ الخوضَ في الدُّنيا سهلٌ ،
والخروجَ مِنْها مع السلامةِ شديدٌ .

وقد كتبَ عليُّ رضيَ اللهُ عنهُ إلى سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ بِمثالِها ،

(١) رواه أبو داود (٥٢٣٥) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، وكان قد مرَّ صلى اللهُ عليه وسلم
بعبد الله بن عمرو وهو يطيئن مع أمه حائطاً له .

(٢) كذا في « القوت » (٢٥٦ / ١) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٣) .

فَقَالَ : (مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مِسْهُهَا ، وَيَقْتُلُ سَمُّهَا ، فَأَعْرَضَ عَمَّا يَعْجَبُكَ مِنْهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا ، وَضَعُ عَنْكَ هَمُومَهَا لَمَّا أَيْقَنْتَ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَكَنَّ أَسْرًا مَا تَكُونُ فِيهَا أَحْذَرَ مَا تَكُونُ لَهَا ؛ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا أَطْمَأَنَّ مِنْهَا إِلَى سُرُورٍ . . أَشْخَصَهُ عَنْهُ مَكْرُوهٌ ، وَالسَّلَامُ) ^(١) .



مَثَالٌ آخَرُ لِلدُّنْيَا فِي تَعَذُّرِ الْخُلَاصِ مِنْ تَبَعَاتِهَا بَعْدَ الْخَوْضِ فِيهَا :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْمَاشِي فِي الْمَاءِ ، هَلْ يَسْتَطِيعُ الَّذِي يَمْشِي فِي الْمَاءِ أَلَّا تَبْتَلَّ قَدَمَاهُ ؟ » ^(٢) .

وَهَذَا يَعْرِفُكَ جَهَالَةُ قَوْمٍ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَخُوضُونَ فِي نَعِيمِ الدُّنْيَا بِأَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبُهُمْ عَنْهَا مَطَهَّرَةٌ ، وَعَلَائِقُهَا عَنْ بَوَاطِنِهِمْ مَنْقُطَعَةٌ ، وَذَلِكَ مَكِيدَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، بَلْ لَوْ أُخْرِجُوا مِمَّا هُمْ فِيهِ . . لَكَانُوا أَعْظَمَ الْمَتَفَجِّعِينَ بِفِرَاقِهَا ، فَكَمَا أَنَّ الْمَشْيَ عَلَى الْمَاءِ يَقْتَضِي بِلَالًا لَا مُحَالَةً يَلْتَصِقُ بِالْقَدَمِ ، فَكَذَلِكَ مَلَابَسَةُ الدُّنْيَا تَقْتَضِي عِلَاقَةً وَظِلْمَةً فِي الْقَلْبِ ، بَلْ عِلَاقَةُ الْقَلْبِ مَعَ الدُّنْيَا تَمْنَعُ حِلَاوَةَ الْعِبَادَةِ .

قَالَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (بِحَقِّ أَقُولُ لَكُمْ : كَمَا يَنْظُرُ الْمَرِيضُ إِلَى

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « ذَمِّ الدُّنْيَا » (٧٤) .

(٢) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « ذَمِّ الدُّنْيَا » (٨٩) ، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي « الشَّعْبِ » (١٠٠٩٩) عَنْ الْحَسَنِ بِلَاغًا ، وَوَصَلَهُ فِي « الشَّعْبِ » (٩١٤١) ، وَفِي « الزَّهْدِ الْكَبِيرِ » (٢٥٧) عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا .

الطعام فلا يلتذُّ به مِنْ شِدَّةِ الوجع ؛ كذلك صاحبُ الدُّنيا لا يلتذُّ بالعبادة ولا يجدُ حلاوتها مع ما يجدُ مِنْ حُبِّ الدُّنيا ، وبحقِّ أقولُ لَكُمْ : إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا لَمْ تُرْكَبْ وَتُؤْتَمَّهَنَّ . . تَصْعَبَتْ وَتَغَيَّرَ خُلُقُهَا ؛ كذلك القلوبُ إِذَا لَمْ تُرَقَّقْ بِذِكْرِ الموتِ وَبِنَصَبِ العبادَةِ . . تقسو وتغلظُ ، بحقِّ أقولُ لَكُمْ : إِنَّ الزَّقَّ مَا لَمْ يَتَخَرَّقْ أَوْ يَقَحَلَ^(١) يوشكُ أَنْ يَكُونَ وعاءً للعسلِ ؛ كذلك القلوبُ مَا لَمْ تَخْرُقْهَا الشهواتُ أَوْ يَدْنُسْهَا الطَّمَعُ أَوْ يَقْسُهَا النِّعِيمُ فَسَوْفَ تَكُونُ أوعيةً للحكمةِ^(٢) .

وقال نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ ، وَإِنَّمَا مِثْلُ عَمَلٍ أَحَدِكُمْ كَمِثْلِ الوعاءِ إِذَا طَابَ أَعْلَاهُ . . طَابَ أَسْفَلُهُ ، وَإِذَا خَبُثَ أَعْلَاهُ . . خَبُثَ أَسْفَلُهُ »^(٣) .



مثالٌ آخرُ لما بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا وَقَلَّتْهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا سَبَقَ :
قال أنسٌ : قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مِثْلُ هَذِهِ الدُّنْيَا مِثْلُ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، فَبَقِيَ مُتَعَلِّقًا بِخِيطٍ فِي آخِرِهِ ، فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخِيطُ أَنْ يَنْقَطَعَ »^(٤) .



- (١) أي : ييبس .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٠) .
(٣) رواه ابن ماجه (٤١٩٩) ولم يذكر صدره ، وهو بتمامه عند أحمد في « المسند » (٩٤ / ٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣١ / ٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥٩) .

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك :

قال عيسى عليه السلام : (مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً . . ازداد عطشاً حتى يقتله)^(١) .



مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ، ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها :

اعلم : أن شهوات الدنيا في القلب لذيدة ؛ كشهوات الأطعمة في المعدة ، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والتنقيح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها ، وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعماً ، وأكثر دسماً ، وأظهر حلاوة . . كان رجيعة أقدر وأشدّ نتناً ؛ فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى فتشبعها وكرهتها والتأذي بها عند الموت أشدّ ، بل هي في الدنيا مشاهدة ؛ فإن من نهبت داره وأخذ أهله وولده وماله . . فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقدّه بقدر لذته به ، وحبّه له وحرصه عليه ، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ . . فهو عند الفقد أدهى وأمرّ ، وما للموت معنى إلا فقد ما في الدنيا .

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحّاك بن سفيان

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٤٦) .

الكلابي : « أَلَسْتَ تُؤْتِي بِطَعَامِكَ وَقَدْ مُلِّحَ وَقَزَّحَ ثُمَّ تَشْرَبُ عَلَيْهِ اللَّبَنَ وَالْمَاءَ ؟ » قَالَ : بَلَى ، قَالَ : « فَإِلَا مَا يَصِيرُ ؟ » قَالَ : إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ضَرَبَ مَثَلَ الدُّنْيَا لِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ طَعَامُ ابْنِ آدَمَ » (١) .

وَقَالَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الدُّنْيَا ضُرِبَتْ مَثَلًا لِبْنِ آدَمَ ، فَاَنْظُرْ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْ ابْنِ آدَمَ وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ إِلَا مَا يَصِيرُ ؟ » (٢) .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الدُّنْيَا لِمَطْعَمِ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا ، وَضَرَبَ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ لِلدُّنْيَا مَثَلًا وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ » ، وَقَالَ الْحَسَنُ : (قَدْ رَأَيْتُهُمْ يَطْبِئُونَهُ بِالْأَفَاوِيهِ وَالطَّيِّبِ ، ثُمَّ يَرْمُونَ بِهِ حَيْثُ رَأَيْتُمْ) (٣) .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (إِلَى رَجِيعِهِ) (٤) .

وَقَالَ رَجُلٌ لِبْنِ عَمْرٍ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ وَأُسْتَحْيِي ، قَالَ : فَلَا

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤٥٢ / ٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٩٩ / ٨) ، وليس فيه ذكر الملح والقزح ، والقزح : الأبرار التي يستصلح بها الطعام .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٩٤) .

(٣) كذا روى المرفوع مع قول الحسن ابن المبارك في « الزهد » (٤٩٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٢٦٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١٣) .

تستحي وسل ، قال : إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه ؟
قال : نعم ، إنَّ الملك يقول له : انظر ، هذا ما بخلت به ، انظر إلى ماذا صار^(١) .

وكان بشير بن كعب يقول : انطلقوا حتَّى أرىكم الدنيا ، فيذهب بهم إلى مزبلة ، فيقول : انظروا إلى ثمارهم ، ودجاجهم ، وعسلهم ، وسمينهم^(٢) .



مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة في اليم ، فليتنظروا يرجع إليه »^(٣) .



مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وحسراتهم العظيمة بسببها :

اعلم : أنَّ أهل الدنيا في غفلتهم مثلهم مثل قوم ركبوا سفينة ، فانتَهت

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١١٢ / ٨) ، وفي « القوت » (٢٤٤ / ١) :
(وكذلك روي في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾) ، قيل : مواضع الغائط والبول) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١١٣ / ٨) .

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨) .

بِهِمْ إِلَى جَزِيرَةٍ ، فَأَمَرَهُمُ الْمَلَّاحُ بِالخُرُوجِ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ ، وَحَذَّرَهُمُ الْمَقَامَ وَخَوْفَهُمْ مَرُورَ السَّفِينَةِ وَاسْتَعْجَالَهَا ، فَتَفَرَّقُوا فِي نَوَاحِي الْجَزِيرَةِ ، فَقَضَى بَعْضُهُمْ حَاجَتَهُ ، وَبَادَرَ إِلَى السَّفِينَةِ ، فَصَادَفَ الْمَكَانَ خَالِيًا ، فَأَخَذَ أَوْسَعَ الْأَمَاكِنِ وَالْيَنَها وَأَوْفَقَهَا لِمَرَادِهِ .

وَبَعْضُهُمْ تَوَقَّفَ فِي الْجَزِيرَةِ يَنْظُرُ إِلَى أَنْوَارِهَا وَأَزْهَارِهَا الْعَجِيبَةِ ، وَغِيَاضِهَا الْمَلْتَفَّةِ ، وَنَعْمَاتِ طَيُورِهَا الطَّيِّبَةِ ، وَالْحَانِئِ الْمَوْزُونَةِ الْغَرِيبَةِ ، وَصَارَ يَلْحَظُ مِنْ تَرْبِيتِهَا أَحْجَارَهَا وَجَوَاهِرَهَا وَمَعَادِنَهَا الْمَخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ ، الْحَسَنَةَ الْمَنْظَرِ ، الْعَجِيبَةَ النَّقُوشِ ، السَّالِبَةَ أَعْيُنِ النَّاضِرِينَ بِحَسَنِ زِبْرِجِهَا وَعَجَائِبِ صُورِهَا ، ثُمَّ تَنَبَّهَ لَخَطَرِ فَوَاتِ السَّفِينَةِ ، فَرَجَعَ إِلَيْهَا ، فَلَمْ يَصَادَفْ إِلَّا مَكَانًا ضَيْقًا حَرَجًا فَاسْتَقَرَّ فِيهِ .

وَبَعْضُهُمْ أَكَبَّ عَلَى تِلْكَ الْأَصْدَافِ وَالْأَحْجَارِ ، وَأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا ، وَلَمْ تَسْمَحْ نَفْسُهُ بِإِهْمَالِهَا ، فَاسْتَصَحَبَ مِنْهَا جَمْلَةً ، فَلَمْ يَجِدْ فِي السَّفِينَةِ إِلَّا مَكَانًا ضَيْقًا ، وَزَادَهُ مَا حَمَلَهُ مِنَ الْحَجَارَةِ ضَيْقًا ، وَصَارَ ثِقَلًا عَلَيْهِ وَوَبَالَآ ، فَندَمَ عَلَى أَخْذِهِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى رَمِيهِ ، وَلَمْ يَجِدْ مَكَانًا لَوْضَعِهِ فَحَمَلَهُ فِي السَّفِينَةِ عَلَى عُنُقِهِ ، وَهُوَ مُتَأَسِّفٌ عَلَى أَخْذِهِ ، وَلَيْسَ يَنْفَعُهُ التَّأْسُفُ .

وَبَعْضُهُمْ تَوَلَّجَ الْغِيَاضَ ، وَنَسِيَ الْمَرْكَبَ ، وَبَعُدَ فِي مَتَفَرِّجِهِ وَمَتَنَزَّهِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْلُغْهُ نَدَاءُ الْمَلَّاحِ ؛ لِاسْتِغَالِهِ بِأَكْلِ تِلْكَ الثَّمَارِ ، وَاسْتِمَامِ تِلْكَ الْأَنْوَارِ ، وَالتَّفَرُّجِ بَيْنَ تِلْكَ الْأَشْجَارِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ

السباع ، وغيرُ خالٍ مِنَ السقطاتِ والنكباتِ ، ولا ينفكُ عن شوكٍ يتشبَّثُ
بثيابه ، وغصنٍ يجرحُ بدنه ، وشوكةٍ تدخلُ في رجله ، وصوتٍ هائلٍ يفزعُ
منه ، وعوسجٍ يخرقُ ثيابه ويهتكُ عورته ، ويمنعُه عن الانصرافِ لو أرادَه ،
فلَمَّا بلغه نداءُ أهلِ السفينةِ . . انصرفَ بعضهم مثقلاً بما معه ولم يجد في
المركبِ موضعاً ، فبقيَ على الشطِّ حتَّى ماتَ جوعاً ، وبعضهم لم يبلغه
النداءُ ، وسارتِ السفينةُ ، فمنهم من افترسته السباعُ ، ومنهم من تاهَ فهمام
على وجهه حتَّى هلكَ ، ومنهم من ماتَ في الأوحالِ ، ومنهم من نهشته
الحياتُ ، وتفرَّقوا كالجيفِ المنتنةِ .

وأما مَنْ وصلَ إلى المركبِ بثقلٍ ما أخذه مِنَ الأزهارِ والأحجارِ
المزبرجةِ . . فقد استرقَّته ، وشغلهُ الحزنُ بحفظها ، والخوفُ من فوتها ،
وقد ضيقتُ عليه مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهارُ ، وكمدت ألوانُ
الأحجارِ ، وظهرَ نثرُ رائقِها ، فصارت مع كونها مضيقةً عليه مؤذيةً له بنتنِها
ووحشتِها ، فلم يجد حيلةً إلَّا أن ألقاها في البحرِ هرباً منها ، وقد أثرَ فيه
ما أكلَ منها ، فلم ينتهِ إلى الوطنِ إلَّا بعد أن ظهرت عليه الأسقامُ بتلك
الروائحِ ، فبلغ سقيماً مدبراً .

ومَنْ رجعَ قريباً . . فما فاتهُ إلا سعةُ المحلِّ ، فتأذَّى بضيقِ المكانِ مدَّةً ،
ولكن لَمَّا وصلَ إلى الوطنِ . . استراحَ .

ومَنْ رجعَ أولاً . . وجدَ المكانَ الأوسعَ ووصلَ إلى الوطنِ سالماً .

فهذا مثال أصناف أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ،
ونسيانهم موردتهم ومصدرهم ، وغفلتهم عن عاقبة أمرهم ، وما أقبح من
يزعم أنه بصير عاقل أن تغرّه أبحار الأرض وهي الذهب والفضة ، وهشيم
النبت ، وهي زينة الدنيا ، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت ! بل يصير
كلًا ووبالاً عليه ، وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه ، وهذه
حال الخلق كلهم ، إلا من عصمه الله تعالى .



مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم بقول الله تعالى في تحذيره
إياهم غوائل الدنيا :

قال الحسن رحمه الله : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لأصحابه : « إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ،
حتى إذا لم يدرؤا ما سلكوا منها أكثر ، أو ما بقي . . أنفذوا الزاد ، وحسروا
الظهر^(١) ، وبقوا بين ظهراي المفازة لا زاد ولا حمولة ، فأيقنوا بالهلكة ،
فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه ، فقالوا : هذا
قريب عهد بريف ، وما جاءكم هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم . .
قال : يا هؤلاء ؛ قالوا : يا هذا ؛ قال : علام أنتم ؟ قالوا : على
ما ترى ؛ قال : رأيكم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون ؟

(١) أي : أعروه ، وهو كناية عن هلاك ما يركبونه . « إتحاف » (١١٤ / ٨) .

قالوا : لا نعصيك شيئاً ، قال : عهودكم ومواثيقكم بالله ، فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً ، قال : فأوردتهم ماءً رواءً ورياضاً خضراً ، فمكث فيهم ما شاء الله ، ثم قال : يا هؤلاء ؛ قالوا : يا هذا ؛ قال : الرحيل ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماءٍ ليس كمائكم ، وإلى رياضٍ ليست كرياضكم ، فقال أكثرهم : والله ؛ ما وجدنا هذا حتى ظننا أننا لن نجدّه ، وما نصنع بعيشٍ خيرٍ من هذا ؟ قال : وقالت طائفةٌ وهم أقلُّهم : ألم تعطوا هذا الرجلَ عهودكم ومواثيقكم بالله ألا تعصوه شيئاً وقد صدقكم في أوّل حديثه ؟! فوالله ؛ ليصدقنكم في آخره ، فراح فيمن اتبعه وتخلّف بقيّهم ، فبدر بهم عدوّ ، فأصبحوا من بين أسيرٍ وقتيلٍ ^(١) .

مثال آخر لتنعيم الناس بالدنيا ثم تفجّعهم على فراقها :

اعلم : أنّ مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجلٍ هيئاً داراً وزينها ، وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً واحداً بعد واحدٍ ، فدخل واحدٌ داره ، فقدم إليه طبقٌ ذهبٍ عليه بخورٌ ورياحينٌ ليشمه ويتركه لمن يلحقه ، لا ليملكه ويأخذه ، فجهل رسمه ، فظنّ أنّه قد وهب ذلك له ، فتعلّق به

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٨٨) عن الحسن بلاغاً ، وروى نحوه أحمد في « مسنده » (٢٦٧ / ١) ، والطبراني في « الكبير » (٢١٩ / ١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في رؤيا أريها النبي صلى الله عليه وسلم وحَدَّث بها أصحابه ، وأنه صلى الله عليه وسلم مثل الرجل الهادي للقوم .

قلبه لما ظنَّ أنه له ، فلمَّا استرجع منه . . ضجّر وتفجّع ، ومن كان عالماً
برسمه . . انتفع به وشكره ، وردّه بطيبة قلبٍ وانشرح صدرٍ .

فكذلك من عرف سنة الله في الدنيا . . علم أنها دار ضيافة ، سُبُلَت على
المجتازين لا على المقيمين ؛ ليرزؤوا منها ويتفّعوا بما فيها كما ينتفع
المسافرون بالعواري ، ولا يصرفون إليها كلّ قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم
عند فراقها .

فهذه أمثلة الدنيا وآفاتِها وغوائلها ، نسأل الله تعالى اللطيف الخبير
حسنَ العونِ بكرمه وحلمه .



بيان حقيقة الدنيا وما هيتهما في حق العبد

اعلم : أنَّ معرفة ذمِّ الدنيا لا تكفيك ما لم تعرفِ الدنيا المذمومة ما هي ، وما الذي ينبغي أن يُجتنبَ منها ، وما الذي لا يُجتنبُ ، فلا بدَّ وأنَّ نبيَّنَ الدنيا المذمومة المأمورَ باجتنابها ؛ لكونها عدوة قاطعة لطريق الله تعالى ما هي ؟

فنعول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريبُ الداني منها يُسمَّى دنيا ، وهو كلُّ ما قبل الموت ، والمتراخي المتأخِّرُ يُسمَّى آخرة ، وهو ما بعد الموت ، فكلُّ ما لك فيه حظٌّ وغرضٌ ونصيبٌ وشهوةٌ ولذةٌ في عاجل الحال قبل الوفاة . . فهو الدنيا في حقك .

إلا أنَّ جميعَ ما لك إليه ميلٌ وفيه نصيبٌ وحظٌّ . . فليس بمذموم ، بل هو ثلاثة أقسام :

القسمُ الأولُ : ما يصحبك في الآخرة ، وتبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو شيان : العلم والعمل فقط .

وأعني بالعلم : العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وملكوت أرضه وسماؤه ، والعلم بشريعة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وأعني بالعمل : العبادة الخالصة لوجه الله تعالى .

وقد يأنسُ العالمُ بالعلم ، حتَّى يصيرَ ذلكَ الذَّ الأشياءَ عندهُ ، فيهجِرَ النومَ والمنكحَ والمطعمَ في لذَّته ؛ لأنَّه أشهى عندهُ من جميعِ ذلكَ ، فقد صارَ حظًّا عاجلاً في الدُّنيا ، ولكنَّا إذا ذكرنا الدُّنيا المذمومةَ . . لم نعدَّ هذا من الدُّنيا أصلاً ، بل قلنا : إنَّه من الآخرةِ .

وكذلكَ العابدُ قد يأنسُ بعبادتهِ فيستلذُّها ؛ بحيثُ لو مُنِعَ عنها . . لكانَ ذلكَ أعظمَ العقوباتِ عليه ، حتَّى قالَ بعضهمُ : (ما أخافُ من الموتِ إلا من حيثُ يحولُ بيني وبينَ قيامِ الليلِ)^(١) .

وكانَ آخرُ يقولُ : (اللَّهُمَّ ؛ ارزقني قوَّةَ الصلاةِ والركوعِ والسجودِ في القبرِ)^(٢) ، فهذا قد صارتِ الصلاةُ من حظوظهِ العاجلةِ ، وكلُّ حظٍّ عاجلٍ فاسمُ الدُّنيا ينطلقُ عليه من حيثُ الاشتقاقُ من الدنوّ ، ولكنَّا لسنا نعني بالدُّنيا المذمومةَ ذلكَ .

وقد قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « حُبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ : الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(٣) ، فجعلَ الصلاةَ من جملةِ ملاذِّ الدُّنيا ؛

(١) فقد روى أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٥ / ٩) عن أبي سليمان الداراني قوله : (لأهل الطاعة بالهمُّ الذمُّ من أهل اللهب بلهوهم ، ولولا الليل . . ما أحببت البقاء في الدنيا) .

(٢) وهو ثابت البناني ، روى أبو نعيم في « الحلية » (٣١٩ / ٢) دعاءه : (اللهم ؛ إن أذنت لأحد أن يصلي في قبره . . فأذن لثابت أن يصلي في قبره) .

(٣) رواه النسائي (٦١ / ٧) ، وأحمد في « المسند » (١٢٨ / ٣) ، وليس لفظ (ثلاث) منه ، وتبع المصنف هنا في لفظه صاحب « القوت » (٢٤٩ / ٢) ، قال الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (٢١٥٥ / ٥) : (وقد اشتهر على الألسنة بزيادة =

وذلك لأنَّ كلَّ ما يدخلُ في الحسِّ والمشاهدةِ فهو منَّ عالمِ الشهادةِ ، وهو منَّ الدُّنيا ، والتلذُّذُ بتحريكِ الجوارحِ بالركوعِ والسجودِ إنّما يكونُ في الدُّنيا ؛ فلذلك أضافها إلى الدُّنيا ، إلّا أنّا في هذا الكتابِ لسنا نتعرّضُ إلّا للدُّنيا المذمومةِ ، فنقولُ : هذه ليست منَّ الدُّنيا .



القسمُ الثاني - وهو المقابلُ له على الطرفِ الأقصى - : كلُّ ما فيه حظٌّ عاجلٌ ، ولا ثمرةَ له في الآخرةِ أصلاً ؛ كالتلذُّذُ بالمعاصي كلّها ، والتنعُّمُ بالمباحاتِ الزائدةِ على قدرِ الضروراتِ والحاجاتِ ، الداخلةِ في جملةِ الرفاهيةِ والرعوناتِ ؛ كالتنعُّمُ بالقناطيرِ المقنطرةِ منَّ الذهبِ والفضةِ ، والخيولِ المسوّمةِ ، والأنعامِ ، والحرثِ ، والغلمانِ ، والجواري ، والخيولِ ، والمواشي ، والقصورِ ، والدورِ ، ورفيعِ الثيابِ ، ولذائذِ الأطعمةِ ؛ فحظُّ العبدِ منَّ هذه كلّها هي الدُّنيا المذمومةُ ، وفيما يُعدُّ فضولاً أو في محلِّ الحاجةِ نظرٌ طويلٌ ؛ إذ روي عن عمرَ رضي الله عنه : أنّه استعملَ أبا الدرداءِ على حمصٍ ، فاتخذَ كنيفاً أنفقَ عليه درهمينِ ، فكتبَ إليه عمرُ : (من عمرَ بنِ الخطابِ أميرِ المؤمنينَ إلى عويمرٍ ، قد كان لك في

= « ثلاث » ، وشرحه الإمام أبو بكر بن فورك في جزء مفرد على ذلك ، وكذلك ذكره الغزالي في « الإحياء » ، ولم نجد لفظ « ثلاث » في شيء من طرقة المسندة) ، وعلى فرض عدمها لا يمنع ما ذكره المصنف هنا ؛ لنفي قطعية كون الصلاة من الآخرة بالنص .

بناءً فارسَ والرومَ ما تكتفي به عن عمرانِ الدنيا حينَ أذنَ اللهُ بخرابِها ، فإذا
أناكَ كتابي هذا . . فقد سیرتكَ وأهلكَ إلى دمشق ^(١) ، فلم يزلُ بها حتَّى
ماتَ ، فهذا رأهُ فضولاً مِنَ الدنيا ، فتأملُ فيه .



القسمُ الثالثُ - وهو متوسطُ بينَ الطرفين - : كلُّ حظٍّ في العاجلِ مُعينٌ
على أعمالِ الآخرةِ ؛ كقَدْرِ القوتِ مِنَ الطعامِ ، والقَميصِ الواحدِ الخشنِ ،
وكلُّ ما لا بدَّ منه ليتأتَّى للإنسانِ البقاءُ والصحةُ التي بها يتوصلُ إلى العلمِ
والعملِ ، وهذا ليسَ مِنَ الدنيا كالقسمِ الأولِ ؛ لأنَّه مُعينٌ على القسمِ الأوَّلِ
ووسيلةٌ إليه ، فمهما تناوله العبدُ على قصدِ الاستعانةِ به على العلمِ
والعملِ . . لم يكنْ به متناولاً للدُّنيا ، ولم يصرْ به مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، وإنْ كانَ
باعثُهُ الحظَّ العاجلَ دونَ الاستعانةِ على التقوى . . التحقَّ بالقسمِ الثاني ،
وصارَ مِنْ جملةِ الدُّنيا .



ولا يبقى مع العبدِ عندَ الموتِ إلا ثلاثُ صفاتٍ : صفاءُ القلبِ - أعني :
طهارتهُ عن أدناسِ الدُّنيا - وأنسهُ بذكرِ اللهِ تعالى ، وحبُّهُ لله تعالى ، وصفاءُ
القلبِ وطهارتهُ لا يحصلانِ إلا بالكفِّ عن شهواتِ الدُّنيا ، والأنسِ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٦٦) ، والبيهقي في « الشعب »
(١٠٢٥١) .

لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه ، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة ، ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر ، وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت ، وهي الباقيات الصالحات .

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا . فهي من المنجيات ؛ إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله ؛ كما ورد في الأخبار : « أن أعمال العبد تنازل عنه ، فإذا جاء العذاب من قبل رجليه . . جاء قيام الليل يدفع عنه ، وإذا جاء من قبل يديه . . جاءت الصدقة تدفع عنه . . » الحديث (١) .

وأما الأنس والحب . فهما من المسعدات ، وهما موصولان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة ، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد ، وكانت العوائق تعوقه عن الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله ، فارتفعت العوائق ، وأفلت من السجن ، وخُلِّيَ بينه وبين محبوبه ، فقدم عليه مسروراً سليماً من الموانع ، آمناً من الفراق !؟

(١) رواه بنحوه وبطوله الطبراني في « الأحاديث الطوال » (٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٦ / ٣٤) ، وروى أحمد في « مسنده » (٣٥٢ / ٦) من حديث أسماء رضي الله عنها مرفوعاً : « إذا دخل الإنسان قبره ؛ فإن كان مؤمناً . . أحف به عمله ؛ الصلاة والصيام ، قال : فيأتيه الملك من نحو الصلاة ، فترده ، ومن نحو الصيام فيرده . . » الحديث .

وكيفَ لا يكونُ محبُّ الدُّنيا عندَ الموتِ معذباً ولم يكنْ له محبوبٌ إلا في الدُّنيا ، وقد غُصِبَ منه ، وحِيلَ بينَهُ وبينَهُ ، وسُدَّتْ عليه طُرُقُ الحيلةِ في الرجوعِ إليه ؟ !

[من السريع]

ما حالُ مَنْ كانَ له واحدٌ غُيِبَ عَنْهُ ذَلِكَ الْوَاحِدُ^(١) وليسَ الموتُ عدماً ، إنّما هوَ فراقٌ لمحابِّ الدُّنيا ، وقدومٌ على الله تعالى .

فإذا ؛ سالكُ طريقِ الآخرةِ هوَ المواظِبُ على أسبابِ هذهِ الصفاتِ الثلاثِ ؛ وهيَ الذكرُ ، والفكرُ ، والعملُ الذي يَفْطُمُهُ عنْ شهواتِ الدُّنيا ، ويَغْضُضُ إليه مَلاذَها ، ويقطَعُهُ عنها ، وكلُّ ذلكَ لا يمكنُ إلا بصحَّةِ البدنِ ، وصحَّةِ البدنِ لا تُنالُ إلا بقوتِ وملبسِ ومسكنِ ، ويحتاجُ كلُّ واحدٍ إلى أسبابِ ، فالقَدْرُ الذي لا بدَّ منه مِنْ هذهِ الثلاثةِ إذا أخذَهُ العبدُ مِنَ الدُّنيا للآخرةِ . . لم يكنْ مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، وكانتِ الدُّنيا في حقِّه مزرعةً للآخرةِ ، وإنْ أخذَ ذلكَ لحظَّ النفسِ وعلى قصدِ التَّعَمُّ . . صارَ مِنْ أبناءِ الدُّنيا والراغبينَ في حظوظِها .

إلا أنَّ الرغبةَ في حظوظِ الدُّنيا تنقسمُ إلى ما يعرِّضُ صاحِبَهُ لعذابِ الآخرةِ ، ويُسمَّى ذلكَ حراماً ، وإلى ما يحولُ بينَهُ وبينَ الدرجاتِ العُلا ، ويعرِّضُهُ لطولِ الحسابِ ، ويُسمَّى ذلكَ حلالاً ، والبصيرُ يعلمُ أنَّ طولَ

(١) انظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١١) .

الموقف في عَرَصاتِ القيامةِ لأجلِ المحاسبةِ أيضاً عذابٌ ؛ فمن نُوقِشَ الحسابَ.. عَذَّبَ^(١) ؛ إِذْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « حَلَالُهَا حَسَابٌ ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ »^(٢) ، وَقَدْ قَالَ أَيْضاً : « حَلَالُهَا عَذَابٌ » ، إِلَّا أَنَّهُ عَذَابٌ أَخْفُ مِنْ عَذَابِ الْحَرَامِ ، بَلْ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْحَسَابُ.. لَكَانَ مَا يَفُوتُ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الْجَنَّةِ ، وَمَا يَرُدُّ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ التَّحْشُرِ عَلَى تَفْوِيتِهَا بِحُظُوظِ حَقِيرَةٍ خَسِيسَةٍ لَا بَقَاءَ لَهَا هُوَ أَيْضاً عَذَابٌ ، وَقَسَّ بِهِ حَالُكَ فِي الدُّنْيَا إِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَقْرَانِكَ وَقَدْ سَبَقُوكَ بِسَعَادَاتٍ دُنْيَوِيَّةٍ كَيْفَ يَتَقَطَّعُ قَلْبُكَ عَلَيْهَا حَسْرَةً ، مَعَ عِلْمِكَ بِأَنَّهَا سَعَادَاتٌ مَنْصَرِمَةٌ لَا بَقَاءَ لَهَا ، وَمَنْغَصَةٌ بِكَدُورَاتٍ لَا صِفَاءَ لَهَا ، فَمَا حَالُكَ فِي فَوَاتِ سَعَادَةٍ لَا يَحِيطُ الْوَصْفُ بِعَظَمَتِهَا ، وَتَنْقَطِعُ الدُّهُورُ دُونَ غَايَتِهَا ؟!

فَكُلُّ مَنْ تَنَعَّمَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ بِسَمَاعِ صَوْتٍ مِنْ طَائِرٍ ، أَوْ بِالنَّظَرِ إِلَى خُضْرَةٍ ، أَوْ بِشُرْبَةِ مَاءٍ بَارِدٍ.. فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ حَظِّهِ فِي الْآخِرَةِ أَضْعَافُهُ ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُ عَنْهُ »^(٣) ، أَشَارَ بِهِ إِلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ ، وَالتَّعَرُّضُ لِجَوَابِ السُّؤَالِ

(١) كما روى ذلك مرفوعاً البخاري (١٠٣ ، ٦٥٣٦) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٣) رواه النسائي (٢٤٦ / ٦) ، وأحمد في « المسند » (٣٣٨ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٢٧٩) .

فيه ذلٌ ، وخوفٌ ، وخطرٌ ، ومشقةٌ ، وانتظارٌ ، وكلُّ ذلك من نقصانِ الحظِّ ، ولذلك قال عمرُ رضي الله عنه : (اعزلُّوا عني حسابها) حيثُ كان به عطشٌ ، فعرضَ عليه ماءٌ باردٌ بعسلٍ ، فأداره في كفه ، ثم امتنع عن شربه (١) .

فالدُّنيا قليلُها وكثيرُها ، حلالُها وحرامُها ملعونةٌ ، إلا ما أعان على تقوى الله ؛ فإنَّ ذلك القدرَ ليس من الدُّنيا ، وكلُّ من كانت معرفته أقوى وأتقن . . كان حذرُه من نعيمِ الدُّنيا أشدَّ ، حتَّى إنَّ عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجرٍ لمَّا نام ، ثم رمى به ؛ إذ تمثَّل له إبليسُ وقال له : رغبتَ في الدُّنيا (٢) .

وحتَّى إنَّ سليمانَ عليه السلام في ملكه كان يطعمُ الناسَ لذائدِ الأطعمة وهو يأكلُ خبزَ الشعيرِ ، فجعلَ المُلْكُ على نفسه بهذا الطريقِ امتحاناً وشدةً ؛ فإنَّ الصبرَ عن لذائدِ الأطعمة مع القدرةِ عليها ووجودها أشدُّ (٣) .

ولهذا زوى الله تعالى الدُّنيا عن نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم ، فكان يطوي

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٤٩٢) عن بكير بن عتيق قال : سقيت سعيد بن جبير شربة من عسل في قدح ، فشربها ثم قال : والله ؛ لأسألنَّ عن هذا ، فقلت : لمة ؟ فقال : شربته وأنا أستلذه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٦/٤٧) .

(٣) رواه بنحوه أحمد في « الزهد » (٤٦٦) .

أياماً^(١) ، وكان يشدُّ الحجرَ على بطنِهِ مِنَ الجوع^(٢) .

ولهذا سلَّطَ اللهُ البلاءَ والمحنَ على الأنبياءِ والأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ
فالأمثلِ ، كلُّ ذلكَ نظراً لَهُمْ ، وامتناناً عَلَيْهِمْ ؛ ليتوفَّرَ مِنَ الآخرةِ حظُّهُمْ ؛
كما يمنعُ الوالدُ الشفيقُ ولدَهُ لذَّةَ الفواكهِ ، ويلزمُهُ ألمَ الفصدِ والحجامةِ ؛
شفقةً عَلَيْهِ ، وحبّاً لَهُ ، لا بخلاً عَلَيْهِ .

وقد عرفتَ بهذا أنَّ كلَّ ما ليسَ اللهُ . . فهو مِنَ الدُّنيا ، وما هوَ اللهُ عزَّ
وجلَّ . . فذلكَ ليسَ مِنَ الدُّنيا .



فإن قلتَ : فما الذي هوَ اللهُ سبحانه ؟

فأقولُ : الأشياءُ ثلاثةٌ أقسامٍ :

منها : ما لا يُتصوَّرُ أن يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وهو الذي يُعبَّرُ عنه بالمعاصي

(١) فقد روى الترمذي (٢٣٦٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما
قال : (كان رسول الله يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر
خبزهم خبز الشعير) ، وأما أنه سبحانه زوى الدنيا عنه صلى الله عليه وسلم . . فتقدم في
غير خبير ، منها ما رواه البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) عن عمر رضي الله عنه
وقد قال للنبي صلى الله عليه وسلم : هذا الحصر قد أثر في جنبك ، وهذه خزانة
لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول الله
وصفوته وهذه خزانة ؟ فقال : « يا ابن الخطاب ؛ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم
الدنيا ؟ ! » .

(٢) روى ذلك البخاري في قصة الخندق (٤١٠١) .

والمحظورات ، وأنواع التنعّمات في المباحات ، وهي الدنيا المحض المذمومة ، فهي الدنيا صورة ومعنى .

ومنها : ما صورتهُ الله ، ويمكن أن يُجعلَ لغير الله ، وهي ثلاثة : الفكر ، والذكر ، والكف عن الشهوات ؛ فإن هذه الثلاثة إذا جرت سراً ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر . فهي لله وليست من الدنيا ، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشوّف به ، وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة ، أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال ، أو الحمية لصحة البدن ، أو الاشتهار بالزهد . فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يُظن بصورته أنه لله تعالى .

ومنها : ما صورتهُ لحظ النفس ، ويمكن أن يُجعلَ معناه لله سبحانه ، وذلك كالأكلي ، والنكاح ، وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده ، فإن كان القصدُ حظ النفس . فهو من الدنيا ، وإن كان القصدُ الاستعانة به على التقوى . فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ طلب الدنيا حلالاً مُفَاخِراً مُكَاثِراً . . لقي الله وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانةً لنفسه . . جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر »^(١) ، فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٩ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

فإذا ؛ الدنيا حظُّ نفسك العاجل ، الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ،
ويعبر عنه بالهوى ، وإليه أشار قوله تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ
الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴾ .

ومجامع الهوى خمسة أمور ، وهي ما جمعه الله تعالى في قوله : ﴿ أَنَّمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ ، والأعيان
التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة ، يجمعها قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ
حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا ، وقدر ضرورة القوت ،
وما لا بد منه من مسكن وملبس . . فهو لله إن قصد به وجه الله ، والاستكثار
منه تنعم ، وهو لغير الله ، وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة ،
ولها طرفان وواسطة ، طرف يقرب من حد الضرورة ، فلا يضر ؛ فإن
الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن ، وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب
منه ، وينبغي أن يُحذر منه ، وبينهما وسائط متشابهة ، ومن حام حول
الحمى يوشك أن يقع فيه ، والحزم في الحذر والتقوى ، والتقريب من حد
الضرورة ما أمكن ؛ اقتداءً بالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين والأولياء ؛ إذ
كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة .

حتى إن أويساً القرني كان يظن أهله أنه مجنون ؛ لشدة تضيقه على

نفسه ، فبنوا له بيتاً على باب دارهم ، فكان يأتي عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجهاً ، وكان يخرج أول الأذان ، ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة ، وكان طعامه أن يلتقط النوى ، فكلما أصاب من الحشف . . خبأه لإفطاره ، وإن لم يصب ما يقوته من الحشف . . باع النوى ، واشترى به ما يقوته ، وكان لباسه ما يلتقط من المزابل ، فيلتقط قطع الأكسية ، فيغسلها في الفرات ، ويلفّق بعضها إلى بعض ، ثم يلبسها ، فكان ذلك لباسه^(١) ، وكان ربّما مرّ بالصبيان فيرجمونّه ، ويظنون أنّه مجنون ، فيقول لهم : (يا إخوتاه ؛ إن كان ولا بدّ أن ترموني . . فارموني بأحجار صغار ، فإنّي أخاف أن تدمو عقبي فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء)^(٢) ، فهكذا كانت سيرته ، ولهذا عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، فقال : « إنّي لأجد نفس الرّحمن من جانب اليمين » إشارة إليه رحمه الله^(٣) .

ولمّا ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . قال : أيّها الناس ؛ من كان منكم من أهل العراق . . فليقم ؛ قال : فقاموا ، فقال : اجلسوا إلّا من كان من أهل الكوفة فجلسوا ، فقال : اجلسوا إلّا من كان من مراد ، فجلسوا ، فقال : اجلسوا إلّا من كان من قرين ، فجلسوا كلّهم إلّا رجلاً

(١) خبر أويس إلى هنا رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣١ / ٩ - ٤٣٢) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٤١٢) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٥٢ / ٧) ، وعند أحمد في « المسند » (٥٤٠ / ٢) :

« نفس ربكم » بدل « نفس الرحمن » .

واحداً ، فقال له عمرُ رضي الله عنه : أقرني أنت ؟ فقال : نعم ، فقال :
أتعرفُ أويسَ بنَ عامرِ القرني ؟ فوصفه له ، فقال : نعم ، وما تسألُ عن
ذلك يا أميرَ المؤمنين ؟! فوالله ؛ ما فينا أحقُّ منه ، ولا أجنُّ منه ،
ولا أحوجُّ منه ، ولا أدنى منه ، فبكى عمرُ رضي الله عنه ، ثم قال : ما قلتُ
ما قلتُ إلا أنني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « يدخلُ في
شفاعتهِ مثلُ ربيعةٍ ومضرٍ » .

فقال هَرَمُ بنُ حَيَّانَ : فلما سمعتُ هذا القولَ مِنْ عمرَ بنِ الخطابِ
رضي الله عنه . . قدمتُ الكوفةَ ، فلم يكن لي همٌّ إلا أن أطلبَ أويساً القرني
وأسالَ عنه ، حتَّى سقطتُ عليه جالساً على شاطئِ الفراتِ نصفَ النهارِ
يتوضأُ ويغسلُ ثوبه ، قال : فعرفتهُ بالنعتِ الذي نعتَ لي ؛ فإذا رجلٌ لحيمٌ
شديدُ الأدمة ، مخلوقُ الرأسِ ، كثُ اللحية ، متغيرٌ جداً ، كريةُ الوجه ،
مهيَّبُ المنظرِ .

قال : فسلمتُ عليه ، فردَّ عليَّ السلامَ ونظرَ إليَّ ، فقلتُ : حيَّاكَ اللهُ مِنْ
رجلٍ ، ومددتُ يدي لأصافحه ، فأبى أن يصافحني ، فقلتُ : رحمَكَ اللهُ
يا أويسُ وغفرَ لك ، كيفَ أنتَ رحمَكَ اللهُ ؟ وخنقتُني العبرةُ مِنْ حُبِّي إِيَّاهُ
ورفقتي عليه ؛ إذ رأيتُ مِنْ حالِهِ ما رأيتُ ، حتَّى بكيتُ وبكيتُ ، قال : وأنتَ
فحيَّاكَ اللهُ يا هَرَمُ بنَ حَيَّانَ ، كيفَ أنتَ يا أخي ، وَمَنْ دَلَّكَ عليَّ ؟ قال :
قلتُ : اللهُ ، فقال : لا إلهَ إلا اللهُ ، سبحانَ اللهِ ، ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا
لَمَفْعُولًا ﴾ .

قَالَ فَعَجِبْتُ حِينَ عَرَفَنِي ، وَلَا وَاللَّهِ ؛ مَا رَأَيْتُهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا رَأَيْ ،
فَقُلْتُ : مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ اسْمِي وَاسْمَ أَبِي ، وَمَا رَأَيْتُكَ قَبْلَ الْيَوْمِ وَلَا رَأَيْتَنِي ؟
قَالَ ﴿ تَبَأْنِي أَلْعَلِيمُ الْخَيْرُ ﴾ ، وَعَرَفْتُ رُوحِي رُوحَكَ حِينَ كَلَّمْتُ نَفْسِي
نَفْسَكَ ، إِنَّ الْأَرْوَاحَ لَهَا أَنْفُسٌ كَأَنْفُسِ الْأَجْسَادِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَيَعْرِفُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَتَحَابُّونَ بِرُوحِ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ يَلْتَقُوا ، يَتَعَارَفُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ وَإِنْ
نَأتَ بِهِمُ الدَّارُ وَتَفَرَّقَتْ بِهِمُ الْمَنَازِلُ .

قَالَ : قُلْتُ : حَدَّثَنِي رَحِمَكَ اللَّهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِحَدِيثٍ أَسْمَعُهُ مِنْكَ ، قَالَ : إِنِّي لَمْ أَدْرِكْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَلَمْ يَكُنْ لِي مَعَهُ صَحْبَةٌ بِأَبِي وَأُمِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَكِنِّي
رَأَيْتُ رَجُلًا قَدْ رَأَوُهُ ، وَبَلَّغَنِي مِنْ حَدِيثِهِ نَحْوُ مِمَّا بَلَّغَكَ ، وَلَسْتُ أَحِبُّ أَنْ
أَفْتَحَ هَذَا الْبَابَ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَكُونَ مُحَدِّثًا ، أَوْ مُفْتِيًا ، أَوْ قَاصًّا ، فِي نَفْسِي
شُغْلٌ عَنِ النَّاسِ يَا هَرَمَ بْنَ حِيَانَ .

فَقُلْتُ : يَا أَخِي ؛ اقْرَأْ عَلَيَّ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَسْمَعُهَا مِنْكَ ، وَادْعُ لِي
بِدَعَوَاتٍ ، وَأَوْصِنِي بِوَصِيَّةٍ أَحْفَظُهَا عَنْكَ ؛ فَإِنِّي أَحْبُّكَ فِي اللَّهِ حُبًّا شَدِيدًا .

قَالَ : فَقَامَ وَأَخَذَ بِيَدِي عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ ، ثُمَّ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ
الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، ثُمَّ بَكَى ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ رَبِّي ، وَأَحَقُّ الْقَوْلِ قَوْلُهُ ،
وَأَصْدَقُ الْحَدِيثِ حَدِيثُهُ ، وَأَصْدَقُ الْكَلَامِ كَلَامُهُ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبَةٍ ﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حَتَّى

انتهى إلى قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، فشهِقَ شهقةً ظننتُ أنه قد غشي عليه ، ثم قال : يا بنَ حَيَّانَ ؛ ماتَ أبوكَ حَيَّانُ ، ويوشكُ أن تموتَ أنتَ ، فإمّا إلى جَنَّةٍ وإمّا إلى نارٍ ، وماتَ أبوكَ آدمُ ، وماتتَ أمُّكَ حواءُ ، وماتَ نوحُ ، وماتَ إبراهيمُ خليلُ الرحمنِ ، وماتَ موسى نبيُّ الرحمنِ ، وماتَ داوودُ خليفةُ الرحمنِ ، وماتَ محمدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولُ ربِّ العالمينَ ، وماتَ أبو بكرٍ خليفةُ المسلمينَ ، وماتَ أخِي وصفيُّ عمرُ بنُ الخطابِ .

ثم قال : يا عمراهُ يا عمراهُ ، قال : فقلتُ : رحمَكَ اللهُ ؛ إنَّ عمرَ لم يمتْ ، قال : قد نعاهُ إليَّ ربِّي ، ونعى إليَّ نفسي ، ثم قال : وأنا وأنتَ في الموتى كأنَّهُ قد كانَ ، ثم صَلَّى على النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، ثم دعا بدعواتٍ خفيّاتٍ .

ثم قال : هذه وصيّي إياكَ يا هَرَمَ بنَ حَيَّانَ ؛ كتابَ اللهِ ، ونعي الصالحينَ المؤمنين^(١) ، فقد نُعيَتْ إليَّ نفسي ونفسُكَ ، عليكَ بذكرِ الموتِ لا يفارقُ قلبَكَ طرفَةٌ عينٍ ما بقيتَ ، وأنذرَ قومَكَ إذا رجعتَ إليهمُ ، وانصحْ للأمةِ جميعاً ، وإياكَ أن تفارقَ الجماعةَ قيدَ شبرٍ فتفارقَ دينَكَ وأنتَ لا تعلمُ ، فتدخلَ النارَ يومَ القيامةِ ، ادعُ لي ولنفسِكَ .

ثم قال : اللهم ؛ إنَّ هذا يزعمُ أنه يحبِّي فيكَ ، وزارني مِن أجلكَ ،

(١) في (أ) : (وصيّي إياكَ ذكرَ اللهُ تعالى ، والصلاة على النبي عليه السلام ، ونعي المسلمين وغيرهم من الصالحين) ، وفي (ب) : (وسير نعي الصالحين) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (١٢٦/٨) : (ونهج الصالحين) بدل (ونعي الصالحين) .

فعرّفني وجهه في الجنة ، وأدخله عليّ في دارك دار السلام ، واحفظه ما دام في الدنيا حياً ، وضمّ عليه ضيعته ، وأرضه من الدنيا باليسير ، وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيراً ، واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين ، واجزه عني خير الجزاء .

ثم قال : أستودعك الله يا هرم بن حيّان ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، لا أراك بعد اليوم - رحمك الله - تطلبني ، فإنني أكره الشهرة ، والوحدة أعجب إليّ ؛ لأنني كثير الهم ، شديد الغم مع هؤلاء الناس ما دمت حياً ، فلا تسأل عني ولا تطلبني ، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرك ولم ترني ؛ فاذكرني ، وادع لي ؛ فإنني سأذكرك وأدعوك إن شاء الله ، انطلق أنت ههنا حتّى أنطلق أنا ههنا ، فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبى عليّ ، ففارقته ، فبكى وأبكاني ، وجعلت أنظر في قفاه حتّى دخل بعض السكك ، ثم سألت عنه بعد ذلك ، فما وجدت أحداً يخبرني عنه بشيء ، رحمه الله وغفر له^(١) .

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا ، وقد عرفت ممّا

(١) روى أجزاء الخبر ابن سعد في « طبقاته » (٢٨٥ / ٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨٤ / ٢) ، وهو بطوله ومرفوعه عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣١ / ٩) - (٤٣٤) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٠٩٩) عن الحسن مرسلأ : « يدخل الجنة بشفاعه رجل من أمتي مثل ربيعة ومضر » ، قال الحسن : أويس القرني . وروى الترمذي (٢٤٣٩) عنه أيضاً مرسلأ : « يشفع عثمان بن عفان يوم القيامة بمثل ربيعة ومضر » ، وروى الطبراني في « الكبير » (٢٣٥ / ٨) من حديث أبي أمامة مرفوعاً : « من المؤمنين من يدخل بشفاعته الجنة مثل ربيعة ومضر » ، ولم يسم رجلاً .

سبق في بيان الدنيا ، ومن سيرة الأنبياء والأولياء : أن حد الدنيا كل ما أظلت الخضراء ، وأقلت الغبراء ، إلا ما كان لله عز وجل من ذلك ، وضد الدنيا الآخرة ، وهو كل ما أريد به الله عز وجل ، مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا ؛ لأجل قوة طاعة الله ، وذلك ليس من الدنيا .



ونبين هذا بمثال : وهو أن الحاج إذا حلف أنه في طريق الحج لا يشتغل بغير الحج ، بل يتجرد له ، ثم اشتغل بحفظ الزاد ، وعلف الجمل ، وخرز الراوية ، وكل ما لا بد للحج منه . لم يحث في يمينه ، ولم يكن مشغولاً بغير الحج ؛ فذلك البدن مركب النفس ، تقطع به مسافة العمر ، فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا . نعم ، إذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الأسباب . . كان منحرفاً عن الآخرة ، ويخشى على قلبه القسوة .

قال الطنافسي : (كنت على باب بني شيبه في المسجد الحرام سبعة أيام طاوياً ، فسمعت في الليلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة والنوم : ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه)^(١) .
فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك ، فاعلم ذلك . . ترشد إن شاء الله تعالى .



(١) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص ٢٣٤) ولكن عن سمون المحب .

بيان ماحية الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرت همهم الخلق حتى أنشئهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلم : أنَّ الدنيا عبارة عن أعيان موجودة ، وللإنسان فيها حظ ، وله في إصلاحها شغل ، فهذه ثلاثة أمورٍ قد يُظنُّ أنَّ الدنيا عبارة عن أحاديها ، وليس كذلك .

أمَّا الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها . . فهي الأرض وما عليها ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، فالأرض فراشٌ للآدميين ومهادٌ ومسكنٌ ومستقرٌّ ، وما عليها لهم ملبسٌ ومطعمٌ ومشربٌ ومنكحٌ .

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسامٍ : المعادن ، والنبات ، والحيوان .

أمَّا النبات . . فيطلبه الآدميُّ للاقتيات وللتداوي .

وأمَّا المعادن . . فيطلبها الآدميُّ لآلاتٍ والأواني ، كالنحاس والرصاص ، وللقدِّ ؛ كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد .

وأمَّا الحيوان . . فينقسم إلى الإنسان والبهائم ، أمَّا البهائم . . فيطلب لحومها للمأكَل ، وظهورها للمراكب والزينة ، وأمَّا الإنسان . . فقد يطلب الآدميُّ أن يملك أبدانَ الناسِ ليستخدمهم ويستسخرهم ؛ كالغلمان ، أو

ليتمتع بهم ؛ كالجواري والنسوان ، ويطلب قلوب الناس ليملكها ، بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام ، وهو الذي يُعبرُّ عنه بالجاه ؛ إذ معنى الجاه : ملك قلوب الآدميين .

فهذه هي الأعيان التي يُعبرُّ عنها بالدنيا ، وقد جمعها الله تعالى في قوله : ﴿ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ وهذا من الإنس ، ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن ، وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليوافيت وغيرها ، ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ ﴾ وهي البهائم والحيوانات ، ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ وهو النبات والزرع .

فهذه هي أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين :

علاقة مع القلب : وهو حبه لها ، وحظه منها ، وانصراف همه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد ، أو المحب المستهتر بالدنيا ، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا ؛ كالكبر ، والغل ، والحسد ، والرياء ، والسمعة ، وسوء الظن ، والمداهنة ، وحب الشاء ، وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة ، وأما الظاهرة .. فهي الأعيان التي ذكرناها .

العلاقة الثانية : مع البدن : وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها .

والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين ؛
علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل ، ولو عرف نفسه ، وعرف
ربه ، وعرف حكمة الدنيا وسرها . . علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا
لم تُخلق إلا لعلف الدابة التي يسيّر بها إلى الله تعالى ، وأعني بالدابة :
البدن ؛ فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن ؛ كما لا يبقى الإبل
في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال^(١) .

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده مثال الحاج الذي يقف في
منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ، ويتعهدّها وينظفها ، ويكسوها ألوان
التياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ، ويردّ لها الماء بالثلج ، حتّى تفوته
القافلة ، وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة ، وعن بقائه في البادية
فريسة للسباع هو وناقته ، والحاج البصير لا يهتم من أمر الجملي إلا القدر
الذي يقوى به على المشي ، فيتعهدّه وقلبه إلى الكعبة والحج ، وإنما يلتفت
إلى الناقة بقدر الضرورة ؛ فكذلك البصير في سفر الآخرة لا يشتغل بتعهد
البدن إلا بالضرورة ، كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة ، ولا فرق بين
إدخال الطعام في البطن وبين إخراجهِ من البطن في أن كلّ واحد منهما
ضرورة البدن ، ومن همته ما يدخل بطنه . . فقيمه ما يخرج منه ، وأكثر
ما شغل الناس عن الله هو البطن ؛ فإنّ القوت ضروري ، وأمر المسكن

(١) جلال : جمع جُل ، وهو ما بقي ظهره لثلاث يتقبه الرجل . « إتحاف » (١٢٨ / ٨) .

والملبس أهون ، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليها . لم تستغرقهم أشغال الدنيا ، وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ، ولكنهم جهلوا وغفلوا ، وتتابعَت أشغال الدنيا عليهم ، واتصل بعضها ببعض ، وتداعت إلى غير نهاية محدودة ، فتاهوا في كثرة الأشغال ، ونسوا مقصودها .



ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس في مقاصدها ؛ حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرَفَت الخلق عن الله تعالى ، وكيف أنستهم عاقبة أمورهم ، فنقول :

الأشغال الدنيوية : هي الحِرَفُ ، والصناعاتُ ، والأعمالُ التي ترى الخلق منكبين عليها ، وسبب كثرة الأشغال : هو أن الإنسان مضطراً إلى ثلاث : القوت ، والمسكن ، والملبس ، فالقوت للغذاء والبقاء ، والملبس لدفع الحر والبرد ، والمسكن لدفع الحر والبرد ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال ، ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مُصلحاً بحيث يُستغنى عن صنعة الإنسان فيه ، نعم ، خلق الله ذلك للبهائم ؛ فإن النبات يغذي الحيوان من غير طبخ ، والحر والبرد لا يؤثّر في بدنه ، فيستغني عن البناء ، ويقنع بالصحراء ، ولباسها شعورها وجلودها ، فيستغني عن اللباس ، والإنسان ليس كذلك ، فحدثت الحاجة إلى خمس

صناعاتٍ ، هي أصولُ الصناعاتِ ، وأوائلُ الأشغالِ الدنيويَّةِ ؛ وهي الفلاحةُ ، والرعايةُ ، والاقتناصُ ، والحياكةُ ، والبناءُ .

أمَّا البناءُ .. فللمسكنِ ، والحياكةُ وما يكتنفُها مِنَ الغزلِ والخياطةِ ..
فللملبسِ ، والفلاحةُ للمطعمِ ، والرعايةُ للمواشي والخيلِ أيضاً للمطعمِ
والمركبِ ، والاقتناصُ نعني به : تحصيلُ ما خلقه اللهُ مِنْ صيدٍ ، أو
معدنٍ ، أو حشيشٍ ، أو حطبٍ ، فالفلاحُ يحصِّلُ النباتَ ، والرَّاعي يحفظُ
الحيواناتِ ويستنتجُها ، والمقتنصُ يحصِّلُ ما نبتَ ونتجَ بنفسِه مِنْ غيرِ صنعٍ
آدميٍّ ، وكذلك يأخذُ مِنَ معادنِ الأرضِ ما خُلِقَ فيها مِنْ غيرِ صنعةِ آدميٍّ ،
ونعني بالاقتناصِ ذلكَ ، ويدخلُ تحتهُ صناعاتٌ وأشغالٌ عدَّةٌ .

ثمَّ هذهُ الصناعاتُ تفتقرُ إلى أدواتٍ وآلاتٍ ؛ كالحياكةِ ، والفلاحةِ ،
والبناءِ ، والاقتناصِ ، والآلاتُ إنما تُؤخذُ إمَّا مِنَ النباتِ وهي الأخشابُ ،
أو مِنَ المعادنِ كالحديدِ والرصاصِ وغيرِه ، أو مِنْ جلودِ الحيواناتِ ؛
فحدثتِ الحاجةُ إلى ثلاثةِ أنواعٍ أُخرَ مِنَ الصناعاتِ ؛ وهي النجارةُ ،
والحدادةُ ، والخَرْزُ ، وهؤلاءِ همُ عمالُ الآلاتِ ، ونعني بالنجارةِ : كلُّ عاملٍ
في الخشبِ كيفما كانَ ، وبالحدَّادِ : كلُّ مَنْ عَمِلَ في جواهرِ المعادنِ حتَّى
النَّحاسِ والإبريِّ وغيرِهما ، وغرضُنا ذكرُ الأجناسِ ، فأما آحادُ الحرفِ ..
فكثيرةٌ ، وأمَّا الخَرَّازُ .. فنعني به : كلُّ عاملٍ في جلودِ الحيواناتِ
وأجزائها ، فهذهُ أمهاتُ الصناعاتِ .

ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ بَحِيثٌ لَا يَعِيشُ وَحْدَهُ ، بَلْ يُضْطَرُّ إِلَى الْجَمَاعَةِ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ جَنْسِهِ ؛ وَذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ :

أحدهما : حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتيهما .

والثاني : التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس وتربية الولد ، فإن الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة ، والواحد لا يستقل بحفظ الولد وتهيئته أسباب القوت ، ثم ليس يكفيه الاجتماع مع أهل البيت في المنزل ، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ؛ ليتكفل كل واحد بصناعته ؛ فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها ، وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار ، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز ؟ ! وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراثة القطن ، وآلات الحياكة والخياطة ، وأعمال كثيرة ؟ ! فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده ، وحدثت الحاجة إلى الاجتماع .

ثُمَّ لَوْ اجْتَمَعُوا فِي صَحْرَاءَ مَكشوفةٍ .. لتأذوا بالحر والبرد والمطر والصوص ؛ فافتقروا إلى أبنية محكمة ، ومنازل ينفرد كل أهل بيت به ، وبما معه من الآلات والأثاث ، والمنازل لدفع الحر والبرد والمطر ، ولدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها ، لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص من خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون

والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل ، فحدثت البلاد لهذه الضرورة .
ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا . . تولدت بينهم
خصومات ؛ إذ تحدث رئاسة وولاية للزوج على الزوجة ، وولاية للأبوين
على الولد لأنه ضعيف محتاج إلى قوام به ، ومهما حصلت الولاية على
عاقلي . . أفضى إلى الخصومة ، بخلاف الولاية على البهائم ؛ إذ ليس لها
قوة المخاصمة وإن ظلمت ، فأما المرأة . . فتخاصم الزوج ، والولد
يخاصم الأبوين ، هذا في المنزل .

وأما أهل البلد أيضاً . . فيتعاملون في الحاجات ، ويتنازعون فيها ، ولو
تركوا كذلك . . لتقاتلوا وهلكوا ، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون
على المراعي والأراضي والمياه ، وهي لا تفي بكل أغراضهم ، فيتنازعون
لا محالة ، ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو
هرم ، وتعرض عوارض مختلفة ، ولو ترك ضائعاً . . لهلك ، ولو وُكِّلَ
تفقدته إلى الجميع . . لتخاذلوا ، ولو خصَّ واحد من غير سبب يخصه . .
لكان لا يدعن له ؛ فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع
صناعات أخرى ، فمنها صناعة المساحة التي بها تعرف مقادير الأرض ؛
لتمكن القسمة بينهم بالعدل ، ومنها صناعة الجندية ؛ لحراسة البلد
بالسيف ، ودفع اللصوص عنهم ، ومنها صناعة الحكم ، والتوصل لفصل
الخصومة ، ومنها الحاجة إلى الفقه ، وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن
يُضبط به الخلق ، ويُلزموا الوقوف على حدوده ، حتى لا يكثر النزاع ، وهو

معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها .

فهذه أمورٌ سياسيةٌ لا بدَّ منها ، ولا يشتغلُ بها إلا مخصَّصونَ بصفاتٍ مخصَّصةٍ مِنَ العلمِ والتمييزِ والهدايةِ ، وإذا اشتغلوا بها . . لم يتفرَّغوا لصناعةٍ أخرى ، ويحتاجونَ إلى المعاشِ ، ويحتاجُ أهلُ البلدِ إليهم ؛ إذ لو اشتغلَ أهلُ البلدِ بالحربِ معَ الأعداءِ مثلاً . . تعطلَّتِ الصناعاتُ ، ولو اشتغلَ أهلُ الحربِ والسلاحِ بالصناعاتِ لطلبَ القوتِ . . تعطلَّتِ البلادُ عنِ الحرَّاسِ ، واستضرَّ الناسُ ؛ فمستِ الحاجةُ إلى أن يُصرفَ إلى معاشِهِم وأرزاقِهِم الأموالُ الضائعةُ التي لا مالكَ لها إن كانت ، أو تُصرفَ إليهمُ الغنائمُ إن كانتِ العداوةُ معَ الكفارِ ، فإن كانوا أهلَ ديانةٍ وورعٍ . . قنعوا بالقليلِ مِنْ أموالِ المصالحِ ، وإن أرادوا التَّوسُّعَ . . فتمسَّ الحاجةُ - لا محالةً - إلى أن يمدَّهُم أهلُ البلدِ بأموالِهِم ؛ ليمدُّوهم بالحراسةِ ، فتحدثُ الحاجةُ إلى الخراجِ .

ثمَّ يتولَّدُ بسببِ الحاجةِ إلى الخراجِ الحاجةُ إلى صناعاتٍ أخرى ؛ إذ يُحتاجُ إلى مَنْ يوظَّفُ الخراجَ بالعدلِ على الفلاحينَ وأربابِ الأموالِ ، وهمُ العمالُ ، وإلى مَنْ يستوفي مِنْهُمْ بالرفقِ ، وهمُ الجباةُ والمستخرجونَ ، وإلى مَنْ يُجمَعُ عندهُ ليحفظَهُ إلى وقتِ التفرقةِ ، وهمُ الخُزَّانُ ، وإلى مَنْ يفرِّقُ عليهمُ بالعدلِ ، وهو الفارضُ للعساكرِ .

وهذه الأعمالُ لو تولَّاها عددٌ لا تجمعُهُم رابطةٌ . . انخرمَ النظامُ ،

فحدثت منه الحاجة إلى ملك يدبرهم ، وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصاً ، ويختار لكل واحد ما يليق به ، ويراعي النصفة في أخذ الخراج وإعطائه ، واستعمال الجند في الحرب ، وتوزيع أسلحتهم ، وتعيين جهات الحرب ، ونصب الأمير والقائد على كل طائفة منهم ، إلى غير ذلك من صناعات الملك ، فيحدث من ذلك - بعد الجند الذين هم أهل السلاح ، وبعد الملك الذي يراقبهم بالعين الكائنة ويدبرهم - الحاجة إلى الكتاب ، والخزان ، والحساب ، والجباة ، والعمال .

ثم هؤلاء أيضاً يحتاجون إلى معيشة ، ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف ، فتحديث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل ، وهو المسمى فرع الخراج .

وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف :

الأولى : الفلاحون ، والرعاة ، والمحترفون .

والثانية : الجندية الحماة لهم بالسيوف .

والثالثة : المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء ، وهم العمال ، والجباة ، وأمثالهم .

فانظر كيف ابتداء الأمر من حاجة القوت والمسكن والملبس ، وإلى ماذا انتهى ، وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا ويفتح بسببه عشرة أبواب آخر ، وهكذا تتناهى إلى غير حد محصور ، وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها ، من وقع في مهواة منها . . سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالي .

فهذه هي الحرف والصناعات ، إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات ،
والمال عبارة عن أعيان الأرض وما عليها مما يُنتفع به ، وأعلاها الأغذية ،
ثم الأمكنة التي يأوي الإنسان إليها ، وهي الدور ، ثم الأمكنة التي يسعى
فيها للتعيش ؛ كالحوانيت ، والأسواق ، والمزارع ، ثم الكسوة ، ثم أثاث
البيت وآلاته ، ثم آلات الآلات ، وقد يكون في الآلات ما هو حيوان ؛
كالكلب آلة الصيد ، والبقر آلة الحراثة ، والفرس آلة الحرب ، ثم يحدث
من ذلك حاجة البيع ، فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ،
والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة ؛ فبالضرورة يحتاج
الفلاح إليهما ، ويحتاجان إلى الفلاح ، فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده
للاخر حتى يأخذ منه غرضه ، وذلك بطريق المعاوضة .

إلا أن النجار مثلاً إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح
في ذلك الوقت إلى الآلة ؛ فلا يبيعه ، والفلاح إذا طلب الآلة من النجار
بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت ؛ فلا يحتاج إليه ، فتعوق
الأغراض ، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة يترصد بها صاحبها
أرباب الحاجات ، وإلى أنبار يجمع إليها ما يحملها الفلاحون ، فيشتريه
منهم صاحب الأنبار^(١) يترصد به أرباب الحاجات ، فظهر لذلك الأسواق
والمخازن ، فيحمل الفلاح الحبوب ، فإذا لم يصادف محتاجاً . . باعها

(١) في (ب) : (أبيات) و (الأبيات) بدل (أنبار) و (الأنبار) .

بشمنٍ رخيصٍ مِنَ الباعةِ ، فيخزّنونها في انتظارِ أربابِ الحاجاتِ ؛ طمعاً في الربحِ ، وكذلك في جميعِ الأمتعةِ والأموالِ .

ثمَّ يحدثُ - لا محالةَ - بينَ البلادِ والقرى تردُّدٌ ، فيتردّدُ الناسُ يشترونَ مِنَ القرى الأطعمةَ ، وَمِنَ البلادِ الآلاتِ ، وينقلونها ويتعيّشونَ بها ؛ لتنظيمِ أمورِ الناسِ في البلادِ بسببِهِمْ ؛ إذ كُلُّ بلدٍ ربما لا تُوجدُ فيه كُلُّ آلةٍ ، وكلُّ قريةٍ لا يُوجدُ فيها كُلُّ طعامٍ ، والبعضُ يحتاجُ إلى البعضِ ، فيحوّجُ إلى النّقلِ ، فيحدّثُ التجّارُ المتكلّفونَ بالنقلِ ، وباعثُهُمْ عليه حرصُ جمعِ المالِ لا محالةَ ، فيتعبونَ طولَ الليلِ والنهارِ في الأسفارِ لأغراضٍ غيرِهِمْ ، ونصيبُهُمْ منها جمعُ المالِ الذي يأكلُهُ - لا محالةَ - غيرُهُمْ ، إمّا قاطعُ طريقٍ ، وإمّا سلطانٌ ظالمٌ ، ولكنْ جعلَ اللهُ تعالى في غفلتِهِمْ وجهلِهِمْ نظاماً للبلادِ ، ومصلحةً للعبادِ ، بل جميعُ أمورِ الدنيا انتظمتْ بالغفلةِ وخسةِ الهمةِ ، ولو عقلَ الناسُ وارتفعتْ هممُهُمْ . . لزهّدوا في الدُّنيا ، ولو فعلوا ذلكَ . . لبطلتِ المعاشُ ، ولو بطلتْ . . لهلكوا ، ولهلكَ الزُّهادُ أيضاً .

ثمَّ هذهِ الأموالُ التي تُثقلُ لا يقدرُ الإنسانُ على حملِها ؛ فتحتاجُ إلى دوابٍّ تحمِلُها ، وصاحبُ المالِ قد لا يملكُ دابةً ، فتحدّثُ معاملةً بينَهُ وبينَ مالكِ الدابةِ تُسمّى الإجارةَ ، ويصيرُ الكراءُ نوعاً مِنَ الاكتسابِ أيضاً .

ثمَّ تحدثُ بسببِ البياعاتِ الحاجةُ إلى النقدين^(١) ؛ فإنَّ مَنْ يريدُ أنْ

(١) البياعات : الأشياء التي يتباع بها في التجارة .

يشتري طعاماً بثوبٍ . . فمن أين يدري أنَّ المقدارَ الذي يساويه من الطعامِ كم هو ؟ والمعاملةُ تجري في أجناسٍ مختلفةٍ ؛ كما يُباعُ ثوبٌ بطعامٍ ، وحيوانٌ بثوبٍ ، وهذه أمورٌ لا تتناسبُ ؛ فلا بدَّ من حاكمٍ عدلٍ يتوسَّطُ بين المتاعين ، يعدِّلُ أحدهما بالآخر ، فيطلبُ ذلكَ العدلُ من أعيانِ الأموالِ .
ثمَّ يُحتاجُ إلى مالٍ يطولُ بقاءُهُ ؛ لأنَّ الحاجةَ إليه تدومُ ، وأبقى الأموالِ المعادنُ ؛ فاتخذتِ النقودُ من الذهبِ والفضةِ والنحاسِ .

ثمَّ مسَّتِ الحاجةُ إلى الضربِ والنَّقشِ والتقديرِ ؛ فحدثتِ الحاجةُ إلى دارِ الضربِ وإلى الصيارفةِ .

وهكذا تتداعى الأشغالُ والأعمالُ بعضها إلى بعضٍ ، حتَّى انتهت إلى ما تراه .

فهذه أشغالُ الخلقِ ، وهي معاشُهُم .

وشيءٌ من هذه الحِرَفِ لا يمكنُ مباشرتهُ إلا بنوعٍ تعلَّم وتعبٍ في الابتداءِ ، ومن الناسِ مَنْ يغفلُ عن ذلكَ في الصِّبا فلا يشتغلُ به ، أو يمنعه عنه مانعٌ ، فيبقى عاجزاً عن الاكتسابِ ؛ لعجزه عن الحرفِ ، فيحتاجُ إلى أن يأكلَ ممَّا يسعى فيه غيرهُ ، فتحدثُ منه حرفتانِ خسيستانِ : اللصوصيةُ ، والكِديةُ^(١) ؛ إذ يجمعُهُما أنَّهما يأكلانِ من سعيِ غيرِهِما .

ثم إنَّ الناسَ يحترزونَ من اللصوصِ والمكدينَ ، ويحفظونَ عنهم

(١) الكِدية : هي الشحاذة ؛ أي : التكفف من الناس . « إتحاف » (١٣٥ / ٨) .

أموالَهُمْ ، فافتقرُوا إلى صرفِ عقولِهِمْ في استنباطِ الحيلِ والتدابيرِ ، أمَّا
 للصوصِ . . فمنهُم مَنْ يطلبُ أعواناً ، ويكونُ في يديه شوكَةٌ وقوَّةٌ ،
 فيجتمعونَ ويتكاثرونَ ويقطعونَ الطرقَ ؛ كالأعرابِ والأكرادِ ، وأمَّا الضعفاءُ
 منهمُ . . فيفزعونَ إلى الحيلِ ؛ إمَّا بالنقبِ والتسلُّقِ عندَ انتهازِ فرصةِ الغفلةِ ،
 وإمَّا بأنْ يكونَ طرَّاراً أو سلاًلاً^(١) ، إلى غيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ التلصُّصِ الحادثةِ
 بحسبِ ما أنتجتُهُ الأفكارُ المصروفةُ إلى استنباطِها .

وأمَّا المُكدي : فَإِنَّهُ إِذَا طَلَبَ ما سعى فيه غَيْرُهُ . . قِيلَ لَهُ : اتعبْ واعملْ
 كما عملَ غيرُكَ ، فما لكَ وللبطالةِ ؟! فلا يُعطى شيئاً ، فافتقرَ إلى حيلةٍ في
 استخراجِ الأموالِ وتمهيدِ العذرِ لأنفسِهِمْ في البطالةِ ، فاحتالُوا للتعلُّلِ
 بالعجزِ ؛ إمَّا بالحقيقةِ ؛ كجماعةٍ يعمونَ أولادَهُمْ وأنفسَهُمْ بالحيلةِ لِيُعذروا
 بالعمى فيُعطونَ ، وإمَّا بالتعامي ، والتفالجِ ، والتجاننِ ، والتمارضِ وإظهارِ
 ذلكَ بأنواعِ مِنَ الحيلِ معَ بيانِ أَنَّ تلكَ محنةٌ أصابتَ مِنْ غيرِ استحقاقٍ ،
 ليكونَ ذلكَ سببَ الرحمةِ .

وجماعةٌ يلتمسونَ أقوالاً وأفعالاً يتعجَّبُ الناسُ مِنْها حتَّى تنبسطَ قلوبُهُمْ
 عندَ مشاهدَتِها ، فيسخوا برفعِ اليدِ عنْ قليلٍ مِنَ المالِ في حالِ التعجُّبِ ، ثمَّ
 قدَّ يندمُ بعدَ زوالِ التعجُّبِ ، ولا ينفعُ الندمُ ، وذلكَ قدَّ يكونُ بالتمسخرِ ،

(١) الطرار : هو الذي يقطع النفقات ويأخذها على غفلة من أهلها ، والسلا : المختلس .
 « إتحاف » (١٣٥ / ٨) .

والمحاكاة ، والشعبذة ، والأفعال المضحكة ، وقد يكون بالأشعار الغريبة ، والكلام المثور المسجع مع حسن الصوت ، والشعر الموزون أشد تأثيراً في النفس ، لا سيما إذا كان فيه تعصّب يتعلّق بالمذاهب ؛ كأشعار مناقب الصحابة ، وفضائل أهل البيت رضي الله عنهم ، أو الذي يحرك داعية العشق من أهل المجانة ؛ كصنعة الطبّالين في الأسواق ، أو تسليم ما يشبه العوض وليس بعوض ؛ كبيع التعويذات والحشائش التي يخيّل بائعها أنها أدوية ، فيخدع بذلك الصبيان والجهّال ، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين ، ويدخل في هذا الجنس الوعّاظ المكدون على رؤوس المناير ، إذا لم يكن وراءهم طائل علمي ، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم ، وأنواع الكدية تزيد على ألف نوع وألفين ، وكل ذلك استنبط بدقيق الفكر لأجل المعيشة .

فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكثروا عليها ، وجرّهم إلى ذلك كلّ الحاجة إلى القوت والكسوة ، ولكن نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم ، فضلّوا وتاهوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدّرتها زحمة أشغال الدنيا خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم ، واختلفت آراؤهم على عدّة أوجه :

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة ، فلم تفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمرهم ، فقالوا : المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا ، فنجتهد حتّى نكتسب القوت ، ثم نأكل حتّى نقوى على الكسب ، ثم نكتسب حتّى نأكل ،

فياكلون ليكسبوا ، ثم يكسبون ليأكلوا ، وهذا مذهب الفلاحين
والمحترفين ، ومن ليس له تنعم في الدنيا ، ولا قدم في الدين ؛ فإنه يتعب
نهاراً ليأكل ليلاً ، ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً ، وذلك كسير السواني^(١) ؛ فهو
سفر لا ينقطع إلا بالموت .

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفتنوا للأمر ، وهو أنه ليس المقصود أن
يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا ، بل السعادة في أن يقضي وطره
من شهوات الدنيا ، وهي شهوة البطن والفرج ؛ فهؤلاء نسوا أنفسهم ،
وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان ، وجمع لذائذ الأطعمة ، فياكلون كما
تأكل الأنعام ، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك . . فقد أدركوا غاية السعادات ،
فشغلهم ذلك عن الله تعالى واليوم الآخر .

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في كثرة المال ، والاستغناء بكثرة
الكنوز ، فأسهروا ليلهم ، وأتعبوا نهارهم في الجمع ، فهم يتعبون في
الأسفار طول الليل والنهار ، ويتدردون في الأعمال الشاقة ، ويكتسبون
ويجمعون ، ولا ياكلون إلا قدر الضرورة ؛ شحاً وبخلاً عليها أن تنقص ،
وهذه لذتهم ، وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت ، فيبقى
تحت الأرض ، أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات ، فيكون للجامع

(١) السواني : جمع سانية ، الناقة تدور ويستسقى عليها الماء ، وفي المثل : سير السواني
سفر لا ينقطع .

تعُبُّها ووبأُها ، وللاكل لذتُها ، ثمَّ الذينَ يجمعونَ ينظرونَ إلى أمثالِ ذلكَ ولا يعتبرونَ .

وطائفةٌ أخرى ظنُّوا أنَّ السعادةَ في حُسْنِ الاسمِ ، وانطلاقِ الألسنةِ بالثناءِ ، والمدحِ بالتجملِ والمروءةِ ، فهؤلاءِ يتعبونَ في كسبِ المعاشِ ، ويضيِّقونَ على أنفسهم في المطعمِ والمشربِ ، ويصرفونَ جميعَ أموالِهِم إلى الملابسِ الحسنةِ ، والدوابِّ النفيسةِ ، ويزخرِفونَ أبوابَ الدورِ ، وما يقعُ عليه أبصارُ الناسِ ؛ حتَّى يُقالَ : إنَّه غنيٌّ ، وإنَّه ذو ثروةٍ ، ويظنُّونَ أنَّ ذلكَ هو السعادةُ ، فهمَّتُهُم ليلُهُم ونهارُهُم في تعهِّدِ موقعِ نظرِ الناسِ .

وطائفةٌ أخرى ظنُّوا أنَّ السعادةَ في الجاهِ والكرامةِ بينَ الناسِ وانقيادِ الخلقِ بالتواضعِ والتوقيرِ ؛ فصرفوا هممَهُم إلى استجرارِ الناسِ إلى الطاعةِ بطلبِ الولاياتِ ، وتقلُّدِ الأعمالِ السلطانيةِ ؛ لينفذَ أمرُهُم بها على طائفةٍ مِنَ الناسِ ، ويرونَ أنَّهم إذا اتسعتْ ولايتُهُم ، وانقادتْ لَهُم رعاياهُم . . فقد سعدوا سعادةً عظيمةً ، وأنَّ ذلكَ غايةُ المطلبِ ، وهذهِ أغلبُ الشهواتِ على قلوبِ المتعاقلينَ مِنَ الناسِ^(١) ، فهؤلاءِ شغلُهُم حبُّ تواضعِ الناسِ لَهُم عنِ التواضعِ لله ، وعنِ عبادتِهِ ، وعنِ التفكيرِ في آخرتِهِم ومعادِهِم .

ووراءَ هؤلاءِ طوائفٌ يطولُ حصرُها ، تزيدُ على نيفِ وسبعينَ فرقةً ،

(١) في (د) : (المتعاقلين) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (١٣٦ / ٨) : (الغافلين) بدل (المتعاقلين) .

كُلُّهُمْ قَدْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ ، وَإِنَّمَا جَرَّهُمْ إِلَى جَمِيعِ ذَلِكَ حَاجَةُ الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَسْكَنِ ، وَنَسُوا مَا تُرَادُّ لَهُ هَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ ، وَالْقَدَرُ الَّذِي يَكْفِي مِنْهَا ، وَانْجَرَّتْ بِهِمْ أَوَائِلُ أَسْبَابِهَا إِلَى أَوَاخِرِهَا ، وَتَدَاعَى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى مَهَاوٍ لَمْ يُمْكِنْهُمْ التَّرَقُّي مِنْهَا .

فَمَنْ عَرَفَ وَجَهَ الْحَاجَةَ إِلَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَالْأَشْغَالِ ، وَعَرَفَ غَايَةَ الْمَقْصُودِ مِنْهَا . . فَلَا يَخُوضُ فِي شَغْلِ وَحِرْفَةٍ وَعَمَلٍ إِلَّا وَهُوَ عَالِمٌ بِمَقْصُودِهِ ، وَعَالِمٌ بِحِظِّهِ وَنَصِيبِهِ مِنْهُ ، وَأَنَّ غَايَةَ مَقْصُودِهِ تَعَهُدُّ بِدَنِهِ بِالْقُوَّةِ وَالْكِسُوفَةِ حَتَّى لَا يَهْلِكَ .

وَذَلِكَ إِنْ سَلَكَ فِيهِ سَبِيلَ التَّقْلِيلِ . . اندَفَعَتِ الْأَشْغَالُ عَنْهُ ، وَفَرَّغَ الْقَلْبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ ذِكْرُ الْآخِرَةِ ، وَانْصَرَفَتِ الْهَمَّةُ إِلَى الْإِسْتِعْدَادِ لَهُ ، وَإِنْ تَعَدَّى بِهِ قَدْرَ الضَّرُورَةِ . . كَثُرَتِ الْأَشْغَالُ ، وَتَدَاعَى الْبَعْضُ إِلَى الْبَعْضِ ، وَتَسْلَسَلَ إِلَى غَيْرِ نَهَايَةٍ ، فَتَشَعَّبَتْ بِهِ الْهَمُومُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهَمُومُ فِي أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا . . فَلَا يَبَالِي اللَّهُ تَعَالَى فِي أَيِّ وَادٍ أَهْلَكَ^(١) .

فهذا شأنُ المنهمكين في أشغال الدنيا .

وَتَبَّهَ لِذَلِكَ طَائِفَةٌ ، فَأَعْرَضُوا عَنِ الدُّنْيَا ، فَحَسَدَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وَلَمْ يَتْرَكْهُمْ ، وَأَضَلَّهُمْ فِي الْإِعْرَاضِ أَيْضاً ، حَتَّى انْقَسَمُوا إِلَى طَوَائِفَ :

(١) فقد روى ابن ماجه (٢٥٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من جعل الهموم همّاً واحداً همَّ الآخرة . . كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا . . لم يبال الله في أي أوديتها هلك » .

فَظَنَّتْ طَائِفَةٌ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بِلَاءٍ وَمَحْنَةٍ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ دَارُ سَعَادَةٍ لِكُلِّ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا ، سِوَاءٍ تَعَبَّدَ فِي الدُّنْيَا أَوْ لَمْ يَتَعَبَّدْ ؛ فَرَأَوْا أَنَّ الصَّوَابَ فِي أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ ؛ لِلخَّلَاصِ مِنْ مَحْنَةِ الدُّنْيَا .

وإِلَيْهِ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعِبَادِ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ بَلْ طَوَائِفُ^(١) ، فَهُمْ يَتَهَجَّمُونَ عَلَى النَّارِ وَيَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْإِحْرَاقِ ، وَيُظَنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ خَلَاصٌ لَهُمْ مِنْ مَحَنِ الدُّنْيَا .

وظَنَّتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى أَنَّ الْقَتْلَ لَا يَخْلُصُ ، بَلْ لَا بَدْءَ أَوَّلًا مِنْ إِمَاتَةِ الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَقَطْعِهَا عَنِ النَّفْسِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَأَنَّ السَّعَادَةَ فِي قَطْعِ الشَّهْوَةِ وَالغَضَبِ .

ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى الْمَجَاهِدَةِ ، وَشَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى هَلَكَ بَعْضُهُمْ بِشِدَّةِ الرِّيَاضَةِ ، وَبَعْضُهُمْ فَسَدَ عَقْلُهُ وَجُنَّ ، وَبَعْضُهُمْ مَرَضَ وَانْسَدَّ عَلَيْهِ طَرِيقُ الْعِبَادَةِ ، وَبَعْضُهُمْ عَجَزَ عَنْ قَمْعِ الصِّفَاتِ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَظَنَّ أَنَّ مَا كَلَّفَهُ الشَّرْعُ مُحَالًا ، وَأَنَّ الشَّرْعَ تَلْبِيسٌ لَا أَصْلَ لَهُ ، فَوَقَعَ فِي الْإِلْحَادِ .

وظَهَرَ لِبَعْضِهِمْ أَنَّ هَذَا التَّعَبَّ كُلُّهُ لِلَّهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَغْنٍ عَنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ ، لَا يَنْقُصُهُ عَصْيَانُ عَاصٍ ، وَلَا تَزِيدُهُ عِبَادَةُ عَابِدٍ ، فَعَادُوا إِلَى الشَّهَوَاتِ ، وَسَلَكُوا مَسْلَكَ الْإِبَاحَةِ ، وَطَوَّأُوا بِسَاطَ الشَّرْعِ وَالْأَحْكَامِ .

(١) هم البراهمة المعروفة بالجركية . « إتحاف » (١٣٨ / ٨) .

وزعموا أنَّ ذلكَ مِنْ صفاءِ توحيدِهِمْ ، حيثُ اعتقدُوا أنَّ اللهَ مستغْنٍ عن عبادةِ العبادِ .

وظنَّت طائفةٌ أخرى أنَّ المقصودَ مِنَ العباداتِ المجاهدةُ حتَّى يصلَ العبدُ بها إلى معرفةِ اللهِ تعالى ، فإذا حصلتِ المعرفةُ .. فقد وصلَ ، وبعدَ الوصولِ يستغني عن الوسيلةِ والحيلةِ .

فتركوا السعيَ والعبادةَ ، وزعموا أنَّه ارتفعَ محلُّهم في معرفةِ اللهِ سبحانه عن أن يُمتَهَنوا بالتكاليفِ ، وإنَّما التكاليفُ على عوامِّ الخلقِ .

ووراءَ هذا مذاهبٌ باطلةٌ ، وضلالاتٌ هائلةٌ يطولُ إحصاؤها ، إلى أن تبلغَ نيفاً وسبعينَ فرقةً .

وإنَّما الناجي منها فرقةٌ واحدةٌ ، وهي السالكةُ ما كانَ عليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه .

وهو ألا يتركَ الدنيا بالكليَّةِ ، ولا يقمعَ الشهواتِ بالكليَّةِ .

أمَّا الدنيا .. فيأخذُ منها قدرَ الزادِ .

وأمَّا الشهواتُ .. فيقمعُ منها ما يخرجُ عن طاعةِ الشرعِ والعقلِ ؛ فلا يتبعُ كلَّ شهوةٍ ، ولا يتركُ كلَّ شهوةٍ ، بل يتبعُ العدلَ ، ولا يتركُ كلَّ شيءٍ مِنَ الدنيا ، ولا يطلبُ كلَّ شيءٍ مِنَ الدنيا .

بل يعلمُ مقصودَ كلِّ ما خلقَ اللهُ مِنَ الدنيا ، ويحفظُه على حدِّ مقصوده ، فيأخذُ مِنَ القوتِ ما يقوِّي بهِ البدنَ على العبادةِ ، وَمِنَ المسكنِ ما يحفظُه مِنَ

اللصوص والحرّ والبرد ، وَمِنَ الكسوةِ كذلك ، حتّى إذا فرغ القلبُ مِنْ شغلِ البدنِ . . أقبلَ على الله تعالى بِكُنْهِ هَمَّتِهِ ، واشتغلَ بالذكرِ والفكرِ طولَ العمرِ ، وبقيَ ملازماً لسياسةِ الشهواتِ ، ومراقباً لها حتّى لا يجاوزَ حدودَ الورعِ والتقوى .

ولا يعلمُ تفصيلَ ذلكَ إلا بالاقتداءِ بالفرقةِ الناجيةِ .

والفرقةُ الناجيةُ : هُمُ الصحابةُ ؛ فَإِنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَالَ : « النَّاجِي مِنْهَا وَاحِدَةٌ » . . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ وَمَنْ هُمْ ؟ قَالَ : « أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ » ، فَقِيلَ : وَمَنْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ؟ قَالَ : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » (١) .

وقد كانوا على المنهجِ القُصْدِ ، وعلى السبيلِ الواضحِ الذي فصلناه مِنْ قَبْلُ .

فإنَّهُمْ ما كانوا يأخذونَ الدُّنْيَا للدُّنْيَا ، بَلْ لِلدِّينِ .

(١) وهو الحديث الذي رواه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « لِيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمْتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذُو النَعْلِ بِالنَعْلِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عِلَانِيَةً . . لَكَانَ فِي أُمْتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ، وَإِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مِائَةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمْتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِائَةً ، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِائَةً وَاحِدَةً » ، قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » .
وعند أبي داود (٤٥٩٧) من حديث معاوية رضي الله عنه بنحوه ، وفيه : « وَهِيَ الْجَمَاعَةُ » ، وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ طَوِيلٌ الذَّلِيلُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ وَعِلْمَاءِ الْكَلَامِ ، وَانْظُرْ « الْإِتْحَافُ » (١٤٠ / ٨) .

وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية .
وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك
قواماً ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين ، وهو أحب الأمور إلى الله
تعالى كما سبق ذكره في مواضع ، والله أعلم .
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم .



تم كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين
وصلى الله على سيدنا محمد النبي العربي المصطفى وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه اجمعين
يتلوه كتاب ذم المال والجمل

كِتَابُ
خَيْرِ الْمَالِ وَالْبَخْلِ

وهو الكتاب السابع من ربيع المسلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذم المال والبخل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذي خلق الخلق ووسّع الرزق ، وأفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، وردّدهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والإفلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل ، واستحقار الكثير ، كل ذلك ليلوهم أيهم أحسن عملاً ، وينظر أيهم أثر الدنيا على الآخرة بدلاً ، وابتغى عن الآخرة عدولاً وحولاً ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولاً .

والصلاة على محمد الذي نسخ بملته مللاً ، وطوى بشريعته أدياناً ونحلاً ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللاً ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد :

فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف ، واسعة الأرجاء والأكناف ،

ولكن الأموال أعظم فتنها ، وأطمع معنيتها ، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها ، ثم إذا وجدت . . فلا سلامة منها ، فإن فقد المال . . حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً ، وإن وجد . . حصل منه الطغيان الذي لا يكون عاقبة أمره إلا خُسراً .

وبالجملة : فهي لا تخلو من الفوائد والآفات ، وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتميز خيرها من شرها من المعوصات ، التي لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين ، من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين .

وشرح ذلك مهم على الانفراد ، فإن ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً في المال خاصة ، بل في الدنيا عامة ؛ إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمال بعض أجزاء الدنيا ، والجاه بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتشفي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها ، ولها أبعاد كثيرة ، ويجمعها كل ما للإنسان فيه حظ عاجل .

ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده ؛ إذ فيه آفات وغوائل ، وللإنسان من فقده صفة الفقر ، ومن وجوده صفة الغنى ، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان .

ثم للفاقد حالتان : القناعة والحرص ، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة .

وللحرصِ حالتان : طمعٌ فيما في أيدي الناس ، أو تشمُّرٌ للحرفِ
والصناعاتِ مع اليأسِ عن الخلقِ ، والطمعُ شرُّ الحالتين .
وللواجِدِ حالتان : إمساكٌ بحكمِ البخلِ والشحِّ وإنفاقٌ ، وإحداهما
مذمومةٌ والأخرى محمودَةٌ .

وللمنفقِ حالتان : تبذيرٌ واقتصادٌ ، والمحمودُ هو الاقتصادُ .

وهذه أمورٌ متشابهةٌ ، وكشفُ الغطاءِ عن الغموضِ فيها مهمٌّ ، ونحنُ
نشرحُ ذلكَ في أربعةَ عشرَ فصلاً إن شاء الله تعالى ، وهي : بيانُ ذمِّ المالِ ،
ثمَّ مدحِهِ ، ثمَّ تفصيلِ فوائدِ المالِ وآفَاتِهِ ، ثمَّ ذمِّ الحرصِ والطمعِ ، ثمَّ
علاجِ الحرصِ والطمعِ ، ثمَّ فضيلةِ السخاءِ ، ثمَّ حكاياتِ الأسخياءِ ، ثمَّ ذمِّ
البخلِ ، ثمَّ حكاياتِ البخلاءِ ، ثمَّ الإيثارِ وفضلهِ ، ثمَّ حدَّ السخاءِ والبخلِ ،
ثمَّ علاجِ البخلِ ، ثمَّ مجموعِ الوظائفِ في المالِ ، ثمَّ ذمِّ الغنى ومدحِ
الفقرِ .



بيان ذم المال وكراهته حبه

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فَمَنْ اخْتَارَ مَالَهُ وَوَلَدَهُ عَلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ . . . فَقَدْ خَسِرَ وَغَبِنَ خَسِرَانًا عَظِيمًا .
وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . . ﴾ الْآيَةُ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَاثِرٌ ﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلْهَمَكُمْ التَّكَاثُرَ ﴾ .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « حُبُّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ يَنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَنْبْتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ »^(١) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا ذُبَّانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلَا فِي زُرِيَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرِ فِسَادٍ فِيهَا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ »^(٢) .

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهذا اللفظ ، وذكره بعد هذا بلفظ الجاه بدل الشرف) . « إتحاف » (١٤٤ / ٨) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « ما ذُبَّانِ جائعان أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدٍ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ » ، وينحو لفظ المصنف مروي عند الطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « هلك الأكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهلكذا ، وقليل ما هم » (١) .

وقيل : يا رسول الله ؛ أي أمتك شر ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « الأغنياء » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطيب الدنيا وألوانها ، ويركبون فزة الخيل وألوانها ، وينكحون أجمل النساء وألوانها ، ويلبسون ألين الثياب وألوانها ، لهم بطون من القليل لا تشبع ، وأنفس بالكثير لا تقنع ، عاكفون على الدنيا يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها آلهة من دون إلههم ، ورباً دون ربهم ، إلى أمرها ينتهون ، وهواهم يتبعون ، فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم ألا يسلم عليهم ، ولا يعود مرضاهم ، ولا يتبع جنازتهم ، ولا يوقر كبيرهم ، فمن فعل ذلك . . فقد أعان على هدم الإسلام » (٣) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥٣٥ / ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم حديث « هم الأخسرون . . » الذي رواه البخاري (٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) .

(٢) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٧٠) ، وروى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) من حديث السيدة فاطمة عليها السلام مرفوعاً : « شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ، الذين يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشققون في الكلام » .

(٣) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٩٦) ويتمامه ، وروى بعضه الطبراني في « الكبير » (١٠٧ / ٨) ، وأبو نعيم في « المحلية » (٩٠ / ٦) من حديث أبي أمامة مرفوعاً ، ولفظه : « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ، ويشربون ألوان الشراب ، ويلبسون ألوان اللباس ، ويتشققون في الكلام ، أولئك شرار أمتي » ، =

وقال صلى الله عليه وسلم : « دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا ، مَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ . . أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟ ! » (٢) .

وقال رجلٌ : يا رسول الله ؛ ما لي لا أحبُّ الموت ؟ فقال : « هل معَكَ مِنْ مَالٍ ؟ » ، قال : نعم يا رسول الله ، قال : « قَدْ مِ مَالُكَ ؛ فَإِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مَعَ مَالِهِ ، إِنْ قَدَّمَهُ . . أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ ، وَإِنْ خَلَّفَهُ . . أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ » (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَخْلَاءُ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ : وَاحِدٌ يَتَّبِعُهُ إِلَى قَبْرِ رُوحِهِ ، وَالثَّانِي إِلَى قَبْرِهِ ، وَالثَّلَاثُ إِلَى مُحْشَرِهِ ؛ فَالَّذِي يَتَّبِعُهُ إِلَى قَبْرِ رُوحِهِ فَمَالُهُ ، وَالَّذِي يَتَّبِعُهُ إِلَى قَبْرِهِ فَأَهْلُهُ ، وَالَّذِي يَتَّبِعُهُ إِلَى مُحْشَرِهِ فَعَمَلُهُ » (٤) .

= وفُزُهُ : جمع فاره ، النشيط المليح القوي .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه : (جيفة) بدل (حتفه) ، وبلغف المصنف رواه تمام في « فوائده » (١٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩١ / ٥٥) ، والحتف : الهلاك .

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٤) .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٨٣٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٣) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (٦٥١٤) ، ومسلم (٢٩٦٠) من حديث =

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما لك تمشي على الماء ولا تقدر على ذلك ؟ فقال لهم : ما منزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة ، قال : لكنهما عندي والمدر سواء^(١) .

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء^(٢) : يا أخي ؛ إياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدّي شكره ؛ فإنني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجاءُ بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه ، كلما تكفأ به الصراط .. قال له ماله : امض ؛ فقد أدّيت حق الله فيّ ، ثمّ يُجاءُ بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه ، كلما تكفأ به الصراط .. قال له ماله : ويلك ؛ ألا أدّيت حق الله فيّ ، فما يزال كذلك حتّى يدعو بالويل والثبور »^(٣) .

وكل ما أوردناه في كتاب الفقر والزهد في ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال ؛ فلا نطوّل بتكريره ، وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا

= أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله » .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « اليقين » (٤٠) عن الفضيل بن عياض .

(٢) كذا في النسخ ، وإنما هو كتاب من أبي الدرداء إلى سلمان رضي الله تعالى عنهما كما هو مثبت في مصادر تخريج الخبر ، ونص عليه الحافظ العراقي . انظر « الإتحاف » (١٤٦/٨) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٩٦/١١) ، وابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٤/١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٧٤) .

فيتناول ذم المال بحكم العموم ؛ لأن المال أعظم أركان الدنيا ، وإنما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا مات العبد . . قالت الملائكة : ما قدم ؟ وقال الناس : ما خلف ؟ » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا » (٢) .



الآثار :

رُوي أن رجلاً نال من أبي الدرداء وأراه سوءاً ، فقال : (اللهم ؛ من فعل بي سوءاً . . فأصح جسمه ، وأطل عمره ، وأكثر ماله) (٣) ، فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر ؛ لأنه لا بد وأن يفضي إلى الطغيان .

ووضع علي رضي الله عنه درهماً على كفه وقال : (أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني) (٤) .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٨٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٨) ، وفيه : (فترغبوا) بدل (فتحبوا) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩١ / ٢) عن عامر بن عبد الله بن عبد قيس أنه دعا بهذا ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٤٧ / ٨) : (نقله صاحب « القوت ») .

(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٤٧ / ٨) .

وَرُوي أَنَّ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْسَلَ إِلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بَعْطَائِهَا ،
فَقَالَتْ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : أَرْسَلُهُ إِلَيْكَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَقَالَتْ : غَفَرَ اللَّهُ
لَهُ ، ثُمَّ حَلَّتْ سِتْرًا كَانَ لَهَا ، فَقَطَعَتْهُ وَجَعَلَتْهُ صِرْرًا ، وَقَسَمَتْهَا فِي أَهْلِ بَيْتِهَا
وَرَحِمِهَا وَأَيْتَامِهَا ، ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَيْهَا وَقَالَتْ : اللَّهُمَّ ؛ لَا يَدْرِكَنِي عَطَاءُ عَمَرَ
بَعْدَ عَامِي هَذَا ، فَكَانَتْ أَوَّلَ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَوْقًا
بِهِ ^(١) .

وَقَالَ الْحَسَنُ : (وَاللَّهِ ؛ مَا أَعَزَّ الدَّرْهَمَ أَحَدًا إِلَّا أَذَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى) ^(٢) .

وَقِيلَ : إِنَّ أَوَّلَ مَا ضُرِبَ الدِّينَارُ وَالدَّرْهَمُ . . رَفَعَهُمَا إِبْلِيسُ ، ثُمَّ
وَضَعَهُمَا عَلَى جَبْهَتِهِ ، ثُمَّ قَبَّلَهُمَا وَقَالَ : مَنْ أَحَبَّكُمَا . . فَهُوَ عَبْدِي حَقًّا ^(٣) .

وَقَالَ شُمَيْطُ بْنُ عَجْلَانَ : (إِنَّ الدِّينَارَ وَالدَّرْهَمَ أَرْزَمَةُ الْمُنَافِقِينَ ، يُقَادُونَ
بِهَا إِلَى النَّارِ) ^(٤) .

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ : إِنَّ الدَّرْهَمَ عَقْرَبٌ ؛ فَإِنْ لَمْ تَحْسِنْ رُقِيَّتَهُ . . فَلَا
تَأْخُذْهُ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَدَغَكَ . . قَتَلَكَ سَمُّهُ ، قِيلَ : وَمَا رُقِيَّتُهُ ؟ قَالَ : أَخْذُهُ مِنْ
حِلِّهِ ، وَوَضْعُهُ فِي حَقِّهِ ^(٥) .

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠٦ / ١٠) .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٢٨١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٨ / ١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٢٨ / ٣) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦٠ / ١٠) دون الاستفهام .

وقال العلاء بن زياد : (تمثّلت لي الدنيا وعليها من كل زينة ، فقلت : أعود بالله من شرك ، فقالت : إن شرك أن يعيذك الله من شرّي . . فأبغض الدرهم)^(١) .

وذلك لأن الدينار والدرهم هما الدنيا كلها ؛ إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها ، فمن صبر عنهما . . صبر عن الدنيا ، وفي ذلك قيل^(٢) : [من الكامل]

إِنِّي وَجَدْتُ فَلَا تَظُنُّوا غَيْرَهُ هَذَا التَّوَرُّعَ عِنْدَ هَذَا الدَّرْهِمِ
فَإِذَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَكْتَهُ فَأَعْلَمَ بَأَنَّ ثِقَاكَ تَقْوَى الْمُسْلِمِ

وفي ذلك قيل^(٣) :

لَا يَغْرُنْكَ مِنَ الْمَرْ ءِ قَمِيصٌ رَقَعَهُ
أَوْ إِزَارٌ فَوْقَ كَعْبِ السِّدِّ سَاقٍ مِنْهُ رَفَعَهُ
أَوْ جَبِينٌ لَاحَ فِيهِ أَثَرٌ قَدْ قَلَعَهُ^(٤)
وَلَدَى الدَّرْهِمِ فَأَنْظُرْ غِيَّهُ أَوْ وَرَعَهُ

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه عند موته ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ صنعت صنيعاً لم

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١١٥٨) .

(٢) البيتان لسفيان الثوري ، انظر « معجم الأدباء » (١٠٠ / ١) .

(٣) الأبيات في « المدهش » (٢١١ / ١) من غير نسبة .

(٤) أثر قد قلعه : تشبيه كثرة السجود وأثرها على الجبين بركبة العنز كيف فيها أثر القلع ، وقد يكون هذا مصطنعاً بمعالجة . انظر « الإتحاف » (٥٠٥ / ٥) .

يصنعه أحد قبلك ، تركت ولدك ليس لهم دينار ولا درهم - وكان عنده ثلاثة عشر من الولد - فقال عمر : أقعدوني ، فأقعدوه ، فقال : أمّا قولك : لم أدع لهم ديناراً ولا درهماً . فإنني لم أمنعهم حقاً لهم ، ولم أعطهم حقاً لغيرهم ، وإنما ولدي أحد رجلين ؛ إمّا مطيع لله ، فالله كافيه والله يتولى الصالحين ، وإمّا عاصي لله ، فلا أبالي على ما وقع^(١) .

وروي أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالا كثيراً ، فقيل له : لو أدخرته لولدك من بعدك ، قال : لا ، ولكني أدخره لنفسي عند ربّي ، وأدخر ربّي لولدي^(٢) .

ويروي أن رجلاً قال لأبي عبد ربّ : يا أخي ؛ لا تذهب بشرّ وتترك أولادك بخير ، فخرج أبو عبد ربّ من مئة ألف درهم^(٣) .

وقال يحيى بن معاذ : مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للبعد في ماله عند موته ، قيل : وما هما ؟ قال : يؤخذ منه كلّ ، ويسأل عنه كلّ^(٤) .



(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٣٣ / ٥) بنحوه .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٣٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٠ / ٥) بنحوه ، وأبو عبد ربّ هو عبيدة بن مهاجر .

(٤) رواه الخطيب في « الزهد » (١١) .

بيان مدح المال ، وإجماع بينه وبين الذم

اعلم : أن الله تعالى قد سَمَّى المالَ خيراً في مواضعٍ مِنَ القرآن ، فقال
جلَّ وعزَّ : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا... ﴾ الآية .

وقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ
الصَّالِحِ »^(١) .

وكلُّ ما جاء في ثوابِ الصدقةِ والحجِّ .. فهو ثناءٌ على المالِ ؛ إذ
لا يمكنُ الوصولُ إليهما إلا به .

وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

وقال تعالى ممتناً على عباده : ﴿ وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَأَنِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ
لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ .

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كَفْرًا »^(٢) ، وهو ثناءٌ
على المالِ .

ولا تَقِفْ على وجهِ الجمعِ بين المدحِ والذمِّ إلا بأن تعرفَ حكمةَ المالِ ،
ومقصوده ، وآفاته ، وغوائله ؛ حتَّى ينكشفَ لك أنه خيرٌ مِنْ وجهِ ، وشرُّ

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٩٧ / ٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١٠) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٣ / ٣) ،
والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

مِنْ وَجْهِ ، وَأَنَّهُ مَحْمُودٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ خَيْرٌ ، وَمَذْمُومٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ شَرٌّ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِخَيْرٍ مَحْضٍ ، وَلَا هُوَ بِشَرٍّ مَحْضٍ ، بَلْ هُوَ سَبَبٌ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً ، وَمَا هَذَا وَصْفُهُ فَيُمدَحُ - لَا مُحَالَةً - تَارَةً وَيُذَمُّ أُخْرَى ، وَلَكِنَّ الْبَصِيرَ الْمُمَيِّزَ يَدْرِكُ أَنَّ الْمَحْمُودَ مِنْهُ غَيْرُ الْمَذْمُومِ .

وبيانه بالاستمداد ممّا ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات ، وتفصيل درجات النعم .

والقدر المقنع فيه : هُوَ أَنَّ مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعيم الدائم والملك المقيم ، والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس ؛ إِذْ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ وَأَكْسُهُمْ ؟ فَقَالَ : « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْداداً » (١) .

وهذه السعادة لا تُنالُ إلا بثلاث وسائل في الدنيا ، وهي :

الفضائل النفسية : كالعلم ، وحسن الخلق .

والفضائل البدنية : كالصحة ، والسلامة .

والفضائل الخارجة عن البدن : كالمال ، وسائر الأسباب .

وأعلاها النفسية ، ثُمَّ البدنية ، ثُمَّ الخارجة ، فالخارجة أخسها ، والمال من جملة الخارجات ، وأدناها الدراهم والدنانير ؛ فَإِنَّهُمَا خَادِمَانِ ، وَلَا خَادِمَ لَهُمَا ، وَمَرَادَانِ لغيرهما ، وَلَا يُرَادَانِ لذاتيهما ؛ إِذِ النَّفْسُ هِيَ

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) .

الجوهر الشريف المطلوب سعادتها ؛ فإنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق ؛ لتحصلها صفة في ذاتها ، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء ، والمطاعم والملابس تخدم البدن ، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن المناكح إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتركيتها وتزيينها بالعلم والخلق .

ومن عرف هذا الترتيب . . فقد عرف قدر المال ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس . . هو خير ، ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده ، واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لها . . فقد أحسن وانتفع ، وكان ما حصل له الغرض محموداً في حقه .

فإذا ؛ المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة ، وهي المقاصد الصادرة عن سعادة الآخرة ، وتسد سبيل العلم والعمل ، فهو إذاً محمود مذموم ؛ محمود بالإضافة إلى المقصود المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصود المذموم ، فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه . . فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر ؛ كما ورد به الخبر^(١) .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وتمام في « فوائده » (١٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩١/٥٥) .

ولمَّا كَانَتِ الطَّبَاعُ مَائِلَةً إِلَى اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ الْقَاطِعَةِ لِسَبِيلِ اللَّهِ ، وَكَانَ الْمَالُ مَسْهَلًا لَهَا وَآلَةً إِلَيْهَا . . عَظُمَ الْخَطَرُ فِيمَا يَزِيدُ عَلَى قَدْرِ الْكِفَايَةِ ، فَاسْتَعَاذَ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ شَرِّهِ ، حَتَّى قَالَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ ؛ اجْعَلْ قُوَّةَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا » (١) .

فَلَمْ يَطْلُبْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا يَتِمَّ خَيْرُهُ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ ؛ أَحْيِنِي مَسْكِينًا وَأَمُتْنِي مَسْكِينًا ، وَاحْشُرْنِي فِي زَمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » (٢) .

وَاسْتَعَاذَ إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ﴿ وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ ، وَعَنِى بِهَا هَٰذَيْنِ الْحَجَرَيْنِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ؛ إِذْ رَتَبَةُ النَّبُوَّةِ أَجْلٌ مِنْ أَنْ يُخْشَى عَلَيْهَا أَنْ تَعْتَقَدَ الْإِلَهِيَّةَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَٰذِهِ الْحَجَارَةِ ؛ إِذْ قَدْ كُفِيَ قَبْلَ النَّبُوَّةِ عِبَادَتَهَا مَعَ الصَّغَرِ .

وَإِنَّمَا مَعْنَى عِبَادَتِهَا حُبُّهَا ، وَالْإِغْتِرَارُ بِهَا ، وَالرُّكُونُ إِلَيْهَا .

قَالَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، وَتَعِسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ ، تَعِسَ وَلَا يَتَعَسَّ ، وَإِذَا شَيْكَ . . فَلَا يَنْتَقَشُ » (٣) ، بَيَّنَّ عَلَيْهِ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٦٠) ، وَمُسْلِمٌ (١٠٥٥) ، وَفِيهِمَا : (قُوَّةً) بَدَلُ (كَفَافًا) ، وَبَلَفَظَ الْمُصَنِّفُ رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي « صَحِيحِهِ » (٦٣٤٣) .

(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٥٢) ، وَابْنُ مَاجَهَ (٤١٢٦) ، وَالْمُسْكِنَةُ هُنَا : الْإِخْبَاتُ وَالْخُمُولُ لَا الْقَلَّةُ .

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٨٨٧) ، وَابْنُ مَاجَهَ (٤١٣٦) ، وَلَيْسَ فِيهِمَا : (تَعِسَ) =

الصلاة والسلام أن محبَّهما عبدٌ لهما ، ومن عبدَ حجرًا . . فهو عابدٌ صنم ؛
 بل كلُّ مَنْ كَانَ عَبْدًا لغيرِ اللهِ فهو عابدٌ صنم ؛ أي : مَنْ قَطَعَهُ ذَلِكَ عَنِ اللَّهِ
 تعالى ، وعنِ أداءِ حقِّه . . فهو كعابدِ صنم ، وهو شركٌ ، إلا أنَّ الشركَ
 شركان ؛ شركٌ خفيٌّ لا يوجبُ الخلودَ في النارِ ، وقلَّمَا ينفكُّ عنه
 المؤمنون ؛ فإنَّه أخفى مِنْ ديبِ النملِ ، وشركٌ جليٌّ يوجبُ الخلودَ في
 النارِ ، نعوذُ باللهِ مِنَ الجميعِ .



= (ولا انتعش) ، بل : (تعس وانتكس) ، وأورد (انتعش) العسكري في « تصحيفات
 المحدثين » (٢٩٩ / ١) وعذَّها تصحيفاً لـ (انتقش) ، ويقال : (انتعش العاثر ؛ نهض
 من عثرته) .

بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم : أنَّ المالَ مثلُ حيَّةٍ فيها سُمٌّ وترياقٌ ، ففوائدها ترياقُها ، وغوائلها سمومُها .

فمَنْ عرفَ غوائلَها وفوائدها . . أمكنه أن يحترزَ من شرِّها ، ويستدرَّ منها خيرَها .



أمَّا الفوائدُ : فهي تنقسمُ إلى دنيويةٍ ودينيةٍ :

أمَّا الدُّنيويةُ : فلا حاجةَ إلى ذكرِها ؛ فإنَّ معرفتها مشتركةٌ بينَ أصنافِ الخلقِ ، ولولا ذلكَ . . لم يتهالكوا على طلبِها .

وأمَّا الدِّينيةُ : فتتخصَّرُ جميعُها في ثلاثةِ أنواعٍ :

النوعُ الأوَّلُ : أنْ ينفقهُ على نفسه :

إمَّا في عبادةٍ ، أو في الاستعانةِ على عبادةٍ .

أمَّا في العبادةِ . . فهو كالاستعانةِ بهِ على الحجِّ والجهادِ ؛ فإنَّه لا يتوصَّلُ إليهما إلا بالمالِ ، وهما من أمهاتِ القرباتِ ، والفقيرُ محرومٌ من فضليهما .

وأمَّا فيما يقوِّيه على العبادةِ . . فذلكَ هو المطعمُ ، والملبسُ ، والمسكنُ ، والمنكحُ ، وضروراتُ المعيشةِ ؛ فإنَّ هذه الحاجاتُ إذا لم

تيسر . . كَانَ الْقَلْبُ مَنْصَرَفًا إِلَى تَدْبِيرِهَا ، فَلَا يَتَفَرَّغُ لِلدِّينِ ، وَمَا لَا يُتَوَصَّلُ إِلَى الْعِبَادَةِ إِلَّا بِهِ . . فَهُوَ عِبَادَةٌ ، فَأَخَذُ الْكَفَايَةَ مِنَ الدُّنْيَا لِأَجْلِ الْإِسْتِعَانَةِ عَلَى الدِّينِ مِنَ الْفَوَائِدِ الدِّينِيَّةِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا التَّنَعُّمُ وَالزِّيَادَةُ عَلَى الْحَاجَةِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حَظْوِ الدُّنْيَا فَقَطْ .



النوع الثاني : ما يصرفه إلى الناس :

وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام .

أما الصدقة . . فلا يخفى ثوابها ، وإنَّهَا لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فُضَائِلَهَا فِيمَا تَقَدَّمَ .

وأما المروءة . . فنعني بها : صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها ، فَإِنَّ هَذِهِ لَا تُسَمَّى صَدَقَةً ، بَلِ الصَّدَقَةُ مَا يُسَلَّمُ إِلَى مُحْتَاجٍ ، إِلَّا أَنَّ هَذَا أَيْضًا مِنَ الْفَوَائِدِ الدِّينِيَّةِ ؛ إِذْ بِهِ يَكْتَسِبُ الْعَبْدُ الْإِخْوَانَ وَالْأَصْدِقَاءَ ، وَبِهِ يَكْتَسِبُ صِفَةَ السَّخَاءِ ، وَيَلْتَحِقُ بِزِمْرَةِ الْأَسْخِيَاءِ ؛ فَلَا يُوصَفُ بِالْجُودِ إِلَّا مَنْ يَصْطَنِعُ الْمَعْرُوفَ وَيَسْلُكُ سَبِيلَ الْفَتْوَةِ وَالْمَرْوَةِ ، وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يَعْظُمُ الثَّوَابُ فِيهِ ، فَقَدْ وَرَدَتْ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ فِي الْهَدَايَا ، وَالضِّيَافَاتِ ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ مِنْ غَيْرِ اشْتِرَاطِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ فِي مَصَارِفِهَا .

وأما وقاية العرض.. فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء ، وقطع ألسنتهم ودفع شرهم ، وهو أيضاً مع تنجز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما وقى به المرء عرضه.. كُتِبَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ »^(١) ، وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة ، واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل في المكافاة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة ؟!

وأما الاستخدام.. فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولأها بنفسه.. ضاعت أوقاته ، وتعدّر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالكين ، ومن لا مال له.. فيفتقر إلى أن يتولّى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام ، وطبخه ، وكس البيت ، حتّى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه ، وكل ما يُصوّر أن يقوم به غيرك ، ويحصل به غرضك.. فأنت مغبون إذا اشتغلت به ؛ إذ عليك من العلم والعمل والفكر والذكر ما لا يُصوّر أن يقوم به غيرك ، فتضيع الوقت في غيره خسران .



النوع الثالث : ما لا يصرفه إلى إنسان معيّن ، ولكن يحصل به خير عام :
كبناء المساجد ، والقناطر ، والرباطات ، ودور المرضى ، ونصب

(١) رواه الدارقطني في « سننه » (٢٨ / ٣) ، والحاكم في « المستدرک » (٥٠ / ٢) .

الحِجابِ في الطُرُقِ^(١) ، وغير ذلك مِنَ الأوقافِ المرصدةِ للخيراتِ ، وهي مِنَ الخيراتِ المؤبَّدةِ ، الدَّارَةُ بعدَ الموتِ ، المستجلبَةُ بركةَ أدعيةِ الصالحينَ إلى أوقاتٍ متماذيةٍ ، وناهيكَ بها خيراً .

فهذه جملةُ فوائدِ المالِ في الدينِ سوى ما يتعلَّقُ بالحفظِ العاجلةِ ؛ مِنَ الخلاصِ مِنْ ذلِّ السَّوَالِ ، وحقارةِ الفقرِ ، والوصولِ إلى العزِّ والمجدِ بينَ الخلقِ ، وكثرةِ الإخوانِ والأعوانِ والأصدقاءِ ، والوقارِ والكرامةِ في القلوبِ ، فكلُّ ذلكَ ممَّا يقتضيه المالُ مِنَ الحفظِ الدُّنيويَّةِ .



وَأَمَّا الْآفَاتُ : فدينيَّةٌ ، ودنيويَّةٌ :

أَمَّا الدِّينِيَّةُ . . فثلاثُ :

الأولى : أَنَّهُ يَجْرُ إِلَى الْمَعَاصِي :

فإنَّ الشهواتِ متقاضيةً^(٢) ، والعجزُ قَدْ يحوُلُ بينَ المرءِ وبينَ المعصيةِ ، وَمِنَ العصمةِ أَلَا يَقْدَرُ ، ومهما كَانَ الإنسانُ آيساً عَنْ نوعِ مِنَ المعصيةِ . . لَمْ تَتَحَرَّكَ دَاعِيَتُهُ ، فإذا اسْتَشْعَرَ الْقُدْرَةَ عَلَيْهَا . . انْبَعَثَتْ دَاعِيَتُهُ ، وَالْمَالُ نوعٌ مِنَ الْقُدْرَةِ يَحَرِّكُ دَاعِيَةَ الْمَعَاصِي وَارْتِكَابِ الْفُجُورِ ، فَإِنْ اقْتَحَمَ مَا اشْتَهَاهُ . .

(١) حِجَابٌ : جمعُ حُجْبٍ ، لفظةٌ فارسيةٌ معربةٌ ، وهي الخابيةُ ، والمرادُ بالتي على الطريقِ مخازنُ المياهِ .

(٢) إِذْ بَعْضُهَا يَقْتَضِي وجودَ بَعْضٍ ويدعو إليه .

هلك ، وإن صبر . . وقع في شدة ؛ إذ الصبر مع القدرة أشد ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

الثانية : أنه يجزئ إلى التَّعَمُّ في المباحات :

وهذا أقلُّ الدرجات ، فمتى يقدرُ صاحبُ المالِ على أن يتناولَ خبزَ الشعير ، ويلبسَ الثوبَ الخشن ، ويتركَ لذائذَ الأطعمة ؛ كما كان يقدرُ عليه سليمانُ بنُ داودَ عليهما الصلاة والسلامُ في ملكه ؟ فأحسنُ أحواله أن يتنعمَ بالدنيا ، ويمرّنَ على ذلك نفسه ؛ فيصيرُ التَّعَمُّ مألوفاً عنده ، ومحبوفاً لا يصبرُ عنه ، ويجزئه البعضُ منه إلى البعض .

فإذا اشتدَّ أنسه به . . ربّما لا يقدرُ على التوصلِ إليه بالكسبِ الحلالِ ؛ فيقتحمُ الشبهاتِ ، ويخوضُ في المراءاة ، والمداهنة ، والكذب ، والنفاق ، وسائرِ الأخلاقِ الرديئة ؛ لينتظمَ له أمرُ دنياه ، ويتيسّرَ له تنعمُهُ ؛ فإنَّ مَنْ كَثُرَ ماله . . كَثُرَتْ حاجتهُ إلى الناسِ ، ومنَ احتاجَ إلى الناسِ . . فلا بدَّ وأن ينافقَهُمْ ، ويعصيَ اللهَ تعالى في طلبِ رضاهُمْ ؛ فإنَّ سَلِمَ الإنسانُ مِنَ الآفةِ الأولى - وهي مباشرةُ المحظوراتِ - فلا يسلمُ عن هذهِ أصلاً ، ومنَ الحاجةِ إلى الخلقِ ثورُ العداوةِ والصدقةِ ، وينبني عليه الحسدُ ، والحقْدُ ، والرياءُ ، والكبرُ ، والكذبُ ، والغيبةُ ، والنميمةُ ، وسائرُ المعاصي التي تخصُّ القلبَ واللسانَ ، ولا تخلو عن التعدي أيضاً إلى سائرِ الجوارحِ ، وكلُّ ذلكَ يلزمُ من شؤمِ المالِ ، والحاجةِ إلى حفظِهِ وإصلاحِهِ .

الثالثة - وهي التي لا ينفك عنها أحدٌ - : وهي أَنَّهُ يُلْهِمُهُ إِصْلَاحُ مَالِهِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى :

وكلُّ ما شغَلَ العبدَ عن الله . . فهو خسرانٌ ، ولذلك قَالَ عيسى عليه الصلاة والسلامُ : في المالِ ثلاثُ آفاتٍ : أَنْ يأخذه مِنْ غيرِ حلِّه ، فقليلٌ : إِنْ أَخَذَهُ مِنْ حلِّه ؟ فقالَ : يضعُّهُ في غيرِ حقِّه ، فقليلٌ : إِنْ وضعَهُ في حقِّه ؟ فقالَ : يشغله إِصلاحُهُ عنِ اللَّهِ تَعَالَى^(١) .

وهذا هو الداءُ العضالُ ، فَإِنَّ أَصْلَ العباداتِ ومَحْضَها وسرَّها ذكرُ اللَّهِ تعالى والفكرُ في جلالِهِ ، وذلك يستدعي قلباً فارغاً ، وصاحبُ الضَّيعةِ يمسي ويصبحُ متفكراً في خصومةِ الفلاحِ ومحاسبتِهِ ، وفي خصومةِ الشركاءِ ومنازعتِهِمْ في الماءِ والحدودِ ، وخصومةِ أعوانِ السلطانِ في الخراجِ ، وخصومةِ الأجرَاءِ في التقصيرِ في العمارةِ ، وخصومةِ الفلاحينَ في خيانتِهِمْ وسرقتِهِمْ ، وصاحبُ التجارةِ يكونُ متفكراً في خيانةِ شريكِهِ ، وانفراذه بالربحِ ، وتقصيره في العملِ ، وتضييعِهِ للمالِ ، وكذلك صاحبُ المواشي ، وهكذا سائرُ أصنافِ الأموالِ ، وأبعدُها عن كثرةِ الشغلِ النقْدُ المكنوزُ تحتِ الأرضِ ، ولا يزالُ الفكرُ متردداً فيما يُصرفُ إليه ، وفي كيفيةِ حفظِهِ ، وفي الخوفِ ممَّنْ يعثرُ عليه ، وفي دفعِ أطماعِ الناسِ عنه ، وأوديةِ أفكارِ الدنيا لا نهايةَ لها ، والذي معه قوتُ يومِهِ في سلامةٍ عن جميعِ ذلك .

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٢٤٨) عن سفيان بن سعيد يحكيه .

فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أربابُ الأموال في الدنيا ؛
من الخوف ، والحزن ، والغم ، والهم ، والتعب في دفع الحساد ،
وتجشّم المصاعب في حفظ الأموال وكسبها .
فإذا ؛ تریاقُ المال أخذُ القوتِ منه ، وصرفُ الباقي إلى الخيرات ،
وما عداهُ سمومٌ وآفاتٌ ، نسألُ اللهَ تعالى السلامةَ وحسنَ العونِ بلطفِهِ
وكرمه ، إنَّه على ذلك قديرٌ .



بيان ذم الحرص والطمع ، ومدح القناعة والياس مما في أيدي الناس

اعلم : أن الفقر محمود ؛ كما أوردناه في كتاب الفقر ، ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى ما في أيديهم ، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن ، ويقتصر على أقله قدرأ وأخسه نوعاً ، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر .

فإن تشوّف إلى الكثير أو طول أمله . . فاته عز القناعة ، وتدنّس - لا محالة - بالطمع وذل الحرص ، وجره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات ، وقد جبل آدمي على الحرص والطمع وقلّة القناعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب . . لابتغى إليهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » (١) .

وعن أبي واقد الليثي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه . . أتيناؤه يعلمنا ممّا أوحى إليه ، فجئت ذات يوم فقال : « إن الله

(١) رواه البخاري (٦٤٣٦ ، ٦٤٣٩) ، ومسلم (١٠٤٨ ، ١٠٤٩) .

عزَّ وجلَّ يقولُ : إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَلَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وادياً مِنْ ذَهَبٍ . . لأحبَّ أَنْ يكونَ إليه الثاني ، وَلَوْ كَانَ لَهُ الثاني . . لأحبَّ أَنْ يكونَ إليهما الثالثُ ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدَمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ على مَنْ تَابَ «^(١) .

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : نزلتْ سورةٌ نحوُ (براءة) ، ثُمَّ رُفِعَتْ ، وحُفِظَ مِنْهَا : (إِنَّ اللَّهَ يُوَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَقَ لَهُمْ ، وَلَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ واديينِ مِنْ مَالٍ . . لتمنَّى وادياً ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدَمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ على مَنْ تَابَ) «^(٢) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ ؛ منهومُ العلمِ ، ومنهومُ المالِ » «^(٣) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « يهرمُ ابنُ آدَمَ ويشبُّ منه اثنتانِ ؛ الأملُ ، وحبُّ المالِ » «^(٤) ، أو كما قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ .

ولمَّا كانتْ هذهِ جبلَةٌ للآدميِّ مضلةً ، وغريزةٌ مهلكةٌ . . أثنى اللهُ تعالى

(١) رواه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص ٣٢٢) ، وأحمد في « المسند » (٢١٨ / ٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤٧ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٠٠) .
(٢) رواه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص ٣٢٣) واللفظ له ، وأصله عند مسلم (١٠٥٠) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرک » (٩٢ / ١) من حديث أنس مرفوعاً ، ولفظه : « منهومان لا يشبعان ؛ منهوم في علم لا يشبع ، ومنهوم في دنيا لا يشبع » .

(٤) رواه البخاري (٦٤٢١) ، ومسلم (١٠٤٧) .

ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْقَنَاعَةِ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كِفَافاً وَقِنَعَ بِهِ » (١) .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْ أَحَدٍ غَنِيَ وَلَا فَقِيرٍ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَنَّهُ كَانَ أُوتِيَ قُوْتاً فِي الدُّنْيَا » (٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، إِنَّمَا الْغِنَى
غِنَى النَّفْسِ » (٣) .

وَنَهَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شِدَّةِ الْحَرَصِ وَالْمِبَالِغَةِ فِي الطَّلَبِ ، فَقَالَ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ ؛ أَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ
إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا
وَهِيَ رَاغِمَةٌ » (٤) .

وَرَوَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ تَعَالَى فَقَالَ : أَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى ؟
قَالَ : أَقْنَعُهُمْ بِمَا أُعْطِيَتْهُ ، قَالَ : فَأَيُّهُمْ أَعْدَلُ ؟ قَالَ : مَنْ أَنْصَفَ مِنْ
نَفْسِهِ (٥) .

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٩) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٩٧٩٣) من حديث
فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وعند مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو
مرفوعاً : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٤٠) .

(٣) رواه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .

(٤) روى الحاكم في « المستدرک » (٤/٢) نحوه .

(٥) رواه هناد في « الزهد » (٤٨٩) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في روعي أنَّ نفساً لن تموتَ حتَّى تستكملَ رزقها ،
فاتَّقوا اللهَ وأجملوا في الطَّلَبِ » (١) .

وقال أبو هريرة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة ؛
إذا اشتدَّ بك الجوعُ . . فعليك برغيفٍ وكوزٍ من ماءٍ وعلى الدنيا الدِّمارُ » (٢) .
وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« كن ورعاً . . تكن أعبدَ الناسِ ، وكن قنعاً . . تكن أشكرَ الناسِ ، وأحبَّ
للناسِ ما تحبُّ لنفسِكَ . . تكن مؤمناً » (٣) .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب
الأنصاري : أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛
عظني وأوجز ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إذا صليت . . فصلِّ صلاةَ
مودِّعٍ ، ولا تحدَّثَنَّ بحديثٍ تعتذرُ منه غداً ، وأجمعِ اليأسَ ممَّا في أيدي
الناسِ » (٤) .

وقال عوف بن مالك الأشجعي : كنَّا عندَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم
تسعةَ أو ثمانيةَ أو سبعةَ ، فقال : « ألا تباعونَ رسولَ الله ؟ » قلنا : أوليسَ

(١) رواه الحاكم في « المستدرک » (٤ / ٢) ، وابن ماجه (٢١٤٤) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٨٨١) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٣٦٦) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنَّا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَيْ مَاذَا نَبَايَعُكَ؟ قَالَ: «عَلَيْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَاةِ الْخَمْسِ، وَتَسْمَعُوا وَتَطِيعُوا - وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا» ، قَالَ: فَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ أَوْلَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُهُ فَلَا يَسْأَلُ أَحَدًا أَنْ يَنَاولَهُ إِيَّاهُ^(١).



الْأَنَارُ :

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ، وَإِنَّ الْيَأْسَ غِنًى، وَإِنَّهُ مَنْ أَيْسَ مِمَّا عِنْدَ النَّاسِ.. اسْتَغْنَى عَنْهُمْ)^(٢).

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: مَا الْغِنَى؟ قَالَ: قَلَّةُ تَمَنُّيكَ، وَرِضَاكَ بِمَا يَكْفِيكَ^(٣).

[مجزوء الكامل]

وَفِي ذَلِكَ قِيلَ^(٤):

وَحُطُّوبُ أَيَّامٍ تَكُرُّ	الْعَيْشُ سَاعَاتٍ تَمُرُّ
وَأَتْرُكُ هَوَاكَ وَأَنْتَ حُرٌّ ^(٥)	إِقْنَعْ بِعَيْشِكَ تَرْضَاهُ
ذَهَبٌ وَيَاقُوتٌ وَدُرٌّ	فَلَرُبَّ حَتْفٍ سَاقَهُ

(١) رواه مسلم (١٠٤٣)، وأبو داود (١٦٤٢)، والنسائي (٢٢٩/١).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣١).

(٣) رواه أبو بكر الشاشي في «فوائده» (٦).

(٤) انظر «شرح نهج البلاغة» (١٦٣/١٩).

(٥) في (أ): (تعيش) بدل (وأنت).

وكانَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ يَبْلُ الخَبْزَ الْيَابِسَ بِالماءِ وَيَأْكُلُهُ وَيَقُولُ : مَنْ قَنَعَ بهذا . . . لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَحَدٍ^(١) .

وَقَالَ سَفِيَانُ : (خَيْرُ دُنْيَاكُمْ مَا لَمْ تُبْتَلَوْا بِهِ ، وَخَيْرُ مَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِ مَا خَرَجَ مِنْ أَيْدِيكُمْ)^(٢) .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَمَلَكٌ يَنَادِي : يَا بَنَ آدَمَ ؛ قَلِيلٌ يَكْفِيكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يَطْغِيكَ)^(٣) .

وَقَالَ شُمَيْطُ بْنُ عَجَلَانَ : (إِنَّمَا بَطْنُكَ يَا بَنَ آدَمَ شَبْرٌ فِي شَبْرٍ ؛ فَلِمَ يَدْخُلُكَ النَّارُ ؟)^(٤) .

وَقِيلَ لِحَكِيمٍ : مَا مَالُكَ ؟ قَالَ : التَّجَمُّلُ فِي الظَّاهِرِ ، وَالْقَصْدُ فِي الْبَاطِنِ ، وَالْيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ .

وَيُرَوَّى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : يَا بَنَ آدَمَ ؛ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَكَ . . . لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَوْتُ ، فَإِذَا أَنَا أُعْطَيْتُكَ مِنْهَا الْقَوْتَ ، وَجَعَلْتُ حَسَابَهَا عَلَى غَيْرِكَ . . . فَأَنَا إِلَيْكَ مُحْسِنٌ .

(١) رَوَى أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٣٥٣) أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعٍ أَرِيدَ عَلَى الْقَضَاءِ فَأَبَى ، فَعَاتَبَتْهُ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ : لَكَ عِيَالٌ وَأَنْتَ مُحْتَاجٌ ، قَالَ : مَا دُمْتُ تَرِينِي أَصْبِرُ عَلَى الْخَلِّ وَالْبَقْلِ . . . فَلَا تَطْمَعِي فِي هَذَا مِنِّي .

(٢) رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي « الزَّهْدِ » (٥٤١) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٢١ / ٧) بِنَحْوِهِ .

(٣) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » . « إِتْحَافٌ » (١٦١ / ٨) .

(٤) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » . « إِتْحَافٌ » (١٦١ / ٨) .

وقال ابن مسعود : (إذا طلب أحدكم الحاجة . . فليطلبها طلباً يسيراً ، ولا يأتي الرجل فيقول : إنك وإنك فيقطع ظهره ، فإنما يأتيه ما قسم له أو ما رزق)^(١) .

وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه ، فكتب إليه : قد رفعت حوائجي إلى مولاي ، فما أعطاني منها . . قبلت ، وما أمسك عني . . قنعت^(٢) .

وقيل لبعض الحكماء : أي شيء أسر للعاقل ؟ وأيما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال : أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء^(٣) .

وقال بعض الحكماء : (وجدت أطول الناس غمًا الحسود ، وأهناهم عيشاً القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفصهم عيشاً أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط) .

وفي ذلك قيل^(٤) :

أَرْفَهُ يَبَالِ فَتَى يُمْسِي عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الَّذِي قَسَمَ الْأَرْزَاقَ يَرْزُقُهُ

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٧٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٧ / ٣) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٦٢ / ٨) .

(٤) الأبيات للعطوي في « ديوانه » (ص ٨٤) (ضمن مجلة المورد ، المجلد الأول ١٣٩١ -

١٩٧١ - العددان ١+٢) ، والثالث في « بهجة المجالس » (٣٠٩ / ٣) .

فَالْعَرَضُ مِنْهُ مَصُونٌ لَا يُدْنَسُهُ وَالْوَجْهُ مِنْهُ جَدِيدٌ لَيْسَ يُخْلِقُهُ
إِنَّ الْقَنَاعَةَ مَنْ يَخْلُلُ بِسَاحَتِهَا لَمْ يَلَقَ فِي دَهْرِهِ شَيْئًا يُورِّقُهُ
وقد قيل أيضاً^(١) :

حَتَّى مَتَى أَنَا فِي حِلٍّ وَتَرَحَالٍ وَطُولِ سَعْيٍ وَإِذْبَارٍ وَإِقْبَالٍ
وَنَازِحُ الدَّارِ لَا أَنْفَكَ مُغْتَرِبًا عَنِ الْأَحْيَةِ لَا يَذْرُونَ مَا حَالِي
بِمَشْرِقِ الْأَرْضِ طَوْرًا ثُمَّ مَغْرِبِهَا لَا يَخْطُرُ الْمَوْتُ مِنْ حِرْصِي عَلَى بَالٍ
وَلَوْ قَنَعْتُ أَتَانِي الرِّزْقُ فِي دَعَةٍ إِنَّ الْقَنُوعَ الْغِنَى لَا كَثْرَةُ الْمَالِ^(٢)

وقال عمر رضي الله عنه : (ألا أخبركم بما أستحل من مال الله عز وجل ؟ حُلَّتَانِ لشتائي وقيظي ، وما يسعني من الظَّهْرِ لِحْجِي وعُمُرْتِي ، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش ، لست بأرفعهم ولا بأوضعهم ، فوالله ؛ ما أدري أيحل ذلك أم لا ؟)^(٣) ، كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها ؟

وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال : (يا أخي ؛ أنت طالب

(١) الأبيات مما نسب إلى أبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٢٨) ، وإلى كلثوم العتابي . انظر « العقد الفريد » (٢٠٨-٢٠٩) .

(٢) رواها الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٧١) للمأمون وهو قافل إلى طرسوس .

(٣) رواه ابن زنجويه في « الأموال » (٩٨٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٠/٤٤) .

ومطلوبٌ ، يطلبُكَ مَنْ لا تفوتهُ ، وتطلبُ أَنْتَ ما قد كُفيتُهُ ، وكأنَّ ما غابَ
عَنكَ قد كُشِفَ لَكَ ، وما أَنْتَ فِيهِ قد نُقِلْتَ عَنْهُ ؛ كأنَّكَ - يا أَخِي - لم ترَ
حريصاً محروماً ، وزاهداً مرزوقاً ^(١) .

وقيلَ في ذلك ^(٢) :

[من الوافر]

أراكَ يَزِيدُكَ الْإِثْرَاءُ حِرْصاً عَلَى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ لَا تَمُوتُ
فَهَلْ لَكَ غَايَةٌ إِنْ صِرْتَ يَوْماً إِلَيْهَا قُلْتَ حَسْبِيَ قَدْ رَضِيتُ
وحكى الشَّعْبِيُّ : أَنَّ رجلاً صَادَ قَنْبَرَةً ، فَقَالَتْ : ما تريدُ أَنْ تصنعَ بي ؟
قالَ : أَذْبَحُكَ وَأَكُلُكَ ، قَالَتْ : واللهِ ؛ ما أَشْفِي مِنْ قَرَمٍ ، ولا أَشْبِعُ مِنْ
جوعٍ ، ولكنْ أَعْلَمُكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ هِيَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَكْلِي ؛ أَمَّا وَاحِدَةٌ ..
فَأَعْلَمُكَ وَأَنَا فِي يَدِكَ ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ .. فَإِذَا صرْتُ عَلَى الشَّجَرَةِ ، وَأَمَّا
الثَّالِثَةُ .. فَإِذَا صرْتُ عَلَى الْجَبَلِ ، فَقَالَ : هَاتِ الْأُولَى ، قَالَتْ : لا تَلْهَفَنَّ
عَلَى ما فَاتَكَ ، فَخَلَّاهَا ، فَلَمَّا صَارَتْ عَلَى الشَّجَرَةِ .. قَالَ : هَاتِ الثَّانِيَةَ ،
قَالَتْ : لا تصدِّقَنَّ بما لا يَكُونُ أَنَّهُ يَكُونُ ، ثُمَّ طَارَتْ فَصَارَتْ عَلَى الْجَبَلِ ،
قَالَتْ : يا شَقِيٍّ ؛ لو ذبحتني .. لأَخْرَجْتَ مِنْ حَوْصَلَتِي دُرَّتَيْنِ زَيْنُهُ كُلُّ
وَاحِدَةٍ عَشْرُونَ مِثْقَالاً ، قَالَ : فَعَضَّ عَلَى شَفْتَيْهِ وَتَلَهَّفَ ، وَقَالَ : هَاتِ
الثَّالِثَةَ ، قَالَتْ : قد نَسِيتَ اثْنَتَيْنِ ؛ فَكَيْفَ أَخْبِرُكَ بِالثَّالِثَةِ ؟ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ :
لا تَلْهَفَنَّ عَلَى ما فَاتَكَ ، ولا تصدِّقَنَّ بما لا يَكُونُ أَنَّهُ يَكُونُ ؟ ! أَنَا وَلَحْمِي

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣١٤) .

(٢) البيهقي لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٨٩) .

ودمي وريشي لا يكونَ عشرينَ مثقالاً ، فكيفَ يكونُ في حوصلتي درّتانِ في كلِّ واحدةٍ عشرونَ مثقالاً ، ثمَّ طَارَتْ فَذَهَبَتْ ^(١) .

وهذا مثالٌ لفرطِ طمعِ الآدميِّ ؛ فَإِنَّهُ يُعْمِيهِ عَنْ ذِكْرِ الْحَقِّ حَتَّى يَقْدَرَ ما لا يكونُ أَنَّهُ يكونُ .

وقالَ ابنُ السَّمَّاكِ : (إِنَّ الرِّجاءَ حَبْلٌ فِي قَلْبِكَ ، وَقَيْدٌ فِي رِجْلِكَ ، فَأَخْرِجِ الرِّجاءَ مِنْ قَلْبِكَ . . يَخْرِجِ الْقَيْدُ مِنْ رِجْلِكَ) ^(٢) .

وقالَ أبو محمدٍ اليزيديُّ : دخلتُ على الرُّشيدِ ، فوجدتهُ ينظرُ في ورقةٍ مكتوبٍ فيها بالذهبِ ، فلمَّا رآني . . تَبَسَّمَ ، فَقُلْتُ : فائدةُ أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعم ، وجدتُ هذينِ البيتينِ في بعضِ خزائنِ بني أميَّةَ فاستحسنتُهُما ، وقد أضفتُ إليهما ثالثاً ، وأنشدني ^(٣) : [من الطويل]

إِذَا سُدَّ بَابُ عَنكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ فَدَعُهُ لِأُخْرَى يَنْفَتِحَ لَكَ بِابُهَا
فَإِنَّ قُرَابَ الْبَطْنِ يَكْفِيكَ مِلْؤُهُ وَيَكْفِيكَ سَوَاءُ الْأُمُورِ أَجْتَنَابُهَا
وَلَا تَكُ مَبْذالاً لِعَرَضِكَ وَأَجْتَنِبْ رُكُوبَ الْمَعَاصِي يَجْتَنِبَكَ عِقَابُهَا

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ لكعبٍ : ما يُذهِبُ العلمَ مِنْ قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ بَعْدَ إِذْ وَغَوْهُ وَعَقْلُوهُ ؟ قالَ : الطَّمَعُ ، وَشَرُّهُ النَّفْسِ ، وَطَلَبُ الْحَوَائِجِ ^(٤) .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٦ / ٤) .

(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٤٣) .

(٣) انظر « بهجة المجالس » (٣ / ٣١٠) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٢٥) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠ / ١٧١) .

وقال رجل للفضيل : فسّر لي قول كعب ، قال : يطمع الرجل في الشيء فيطلبه ، فيذهب عليه دينه ، وأما الشره . . فشره النفس في هذا وفي هذا ، حتى لا تحب أن يفوتها شيء ، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة ، فإذا قضاها لك . . خزم أنفك ، وقادك حيث شاء ، واستمكن منك ، وخضعت له ، فمن حبك للدنيا سلّمت عليه إذا مررت به ، وعدته إذا مرض ، لم تسلّم عليه عز وجل ، ولم تعده لله عز وجل ، فلو لم يكن لك إليه حاجة . . كان خيراً لك ، ثم قال : هذا خير لك من مئة حديث عن فلان وفلان^(١) .

وقال بعض الحكماء : (من عجب أمر الإنسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا . . لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدّة التمتع وتوقع الزوال)^(٢) .

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب ، فقلت له : من أين تأكل ؟ قال : من بيدر اللطيف الخبير ، الذي خلق الرّحى هو يأتيها بالطحين ، وأشار بيده إلى رحى أضراسه^(٣) ، فسبحان القدير الخبير .



(١) رواه - وفيه الخبر السابق - القاضي عياض في « الإلماع » (ص ١٩٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٩ / ١٦٤) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٩ / ١٦٤) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق »

(١١ / ٦) ضمن خبر طويل ولكن عن السليط بن سبيع .

بيان علاج الحرص والطمع، والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلم : أن هذا الدواء مركَّبٌ مِنْ ثلاثة أركانٍ : الصبر ، والعلم ، والعمل .

ومجموع ذلك خمسة أمور :

الأول - وهو العمل - : الاقتصادُ في المعيشة ، والرفقُ في الإنفاقِ : فَمَنْ أرادَ عزَّ القناعةِ . . فينبغي أن يسدَّ عن نفسه أبوابَ الخرجِ ما أمكنه ، ويردَّ نفسه إلى ما لا بدَّ منه ؛ فَمَنْ كثرَ خرجهُ ، واتسعَ إنفاقُهُ . . لم تمكنهُ القناعةُ ، بل إن كانَ وحدهُ . . فينبغي أن يقنعَ بثوبٍ واحدٍ خشنٍ ، ويقنعَ بأيِّ طعامٍ كانَ ، ويقلِّلَ مِنَ الإدامِ ما أمكنه ، ويوطِّنَ نفسه على ذلك ، وإن كانَ له عيالٌ . . فيردُّ كلَّ واحدٍ إلى هذا القدرِ ، فإنَّ هذا القدرَ يتيسَّرُ بأدنى جهدٍ ، ويمكنُ معه الإجمالُ في الطلبِ .

فالاقتصادُ في المعيشة هو الأصلُ في القناعةِ ، ونعني به : الرفقُ في الإنفاقِ ، وتركُ الخُرْقِ فيه^(١) .

قالَ رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم : « إِنَّ اللهَ يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كُلِّهِ »^(٢) .

(١) الخُرْق : ضد الرفق ، وهو أيضاً ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٤) ، ومسلم (٢١٦٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما عالَ مَنْ اقْتَصَدَ »^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ منجياتٌ ؛ خشيةُ الله في السرِّ والعلانية ، والقصدُ في الغنى والفقر ، والعدلُ في الرضا والغضب »^(٢) .

وروي أن رجلاً أبصرَ أبا الدرداءِ يلتقطُ حَبًّا مِنَ الأرضِ وهو يقولُ : (إِنَّ مِنْ فَهْكَ رَفَقَكَ فِي مَعِشَتِكَ)^(٣) .

وقال ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « الاقتصادُ ، وحسنُ السَّمتِ ، والهدْيُ الصالحُ . . جزءٌ مِنْ بضعٍ وعشرينَ جزءاً مِنَ النبوةِ »^(٤) .

وفي الخبرِ : « التدبيرُ نصفُ العيشِ »^(٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ اقْتَصَدَ . . أغناهُ اللهُ ، وَمَنْ بَذَرَ . .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤٤٧/١) ، وابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٨/١٠) ، وما عالَ : ما افتقر ، من اقتصد : من أنفق قصداً ولم يجاوزهُ إلى الإسراف . « إتحاف » (١٦٤/٨) .

(٢) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٦١٤٤) ، ورواه من حديثه أيضاً مرفوعاً (٦١٤٥) .

(٤) رواه أبو داود (٤٧٧٦) مع تقديم وتأخير ، والترمذي (٢٠١٠) وفيه : (التؤدة) بدل (الهدي الصالح) .

(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٢١) ، والتدبير هنا : النظر في عواقب الإنفاق ؛ إذ به يحترز عن الإسراف والتقتير . « إتحاف » (١٦٥/٨) .

أفقره الله ، ومن ذكر الله عز وجل . . أحبه الله ^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أردت أمراً . . فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً » ^(٢) ، والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور .



الثاني : أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه . . فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل : ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذي قُدِّرَ له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه ، وأن شدة الحرص ليس هي السبب لوصول الأرزاق ، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعده الله تعالى ؛ إذ قال عز وجل : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وذلك لأن الشيطان يعدُّه الفقر ويأمره بالفحشاء ، ويقول : إن لم تحرص على الجمع والادخار . . فربما تمرض وتعجز ، وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال ، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من التعب ، ويضحك عليه في احتماله التعب نقداً مع الغفلة عن الله عز وجل لتوهم تعب في ثاني الحال ، وربما لا يكون .

وفي مثله قيل ^(٣) :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٢٨) بتمامه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٢١) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٨) .

(٣) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (١٥٠ / ٢) .

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما :
« لا تئسا من الرزق ما تهزئت رؤوسكما ؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر
ليس عليه قشر ، ثم يرزقه الله تعالى » (١) .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين ، فقال له :
« لا تكثر همك ، ما يقدر . . يكن ، وما ترزق . . يأتك » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا أيها الناس ؛ أجملوا في الطلب ؛ فإنه
ليس لعبد إلا ما كتب له ، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من
الدنيا وهي راغمة » (٣) .

ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير
أرزاق العباد ، وأن ذلك يصل - لا محالة - مع الإجمال في الطلب ، بل
ينبغي أن يعلم أن رزق العبد من حيث لا يحتسب أكثر ، قال الله تعالى :
﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، فإذا انسأ عليه
باب كان ينتظر الرزق منه . . فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله .

(١) رواه ابن ماجه (٤١٦٥) ، والطبراني في « الكبير » (٧ / ٤) ، وابنا خالد هما حبة
وسواء رضي الله عنهما ، وتهزئت - وعند ابن ماجه (تهزئت) - : تحركت .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١٩) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة »
(٩٤٤ / ٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٤) .

(٣) روى الحاكم في « المستدرک » (٤ / ٢) نحوه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب »^(١) .

وقال سفيان : (اتق الله ؛ فما رأيتُ تقياً محتاجاً)^(٢) أي : لا يتركُ التقى فاقداً لضرورته ، بل يُلقي الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه^(٣) .

وقال المفضل الضبي : قلت لأعرابي : من أين معاشك ، قال : بورود الحاج ، قلت : فإذا صدروا ؟ فبكى وقال : لو لم نعش إلا من حيث ندري . . لم نعش^(٤) .

وقال أبو حازم رضي الله عنه : (وجدت الدنيا شيئين ؛ شيئاً منهما هو لي ؛ فلن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السماوات والأرض ، وشيئاً منهما هو لغيري ؛ فذلك لم أنله فيما مضى ، فلا أرجوه فيما بقي ، يُمنع الذي لغيري مني كما يُمنع الذي لي من غيري ؛ ففي أي هذين أفني عمري ؟)^(٥) .

(١) رواه ابن حبان في « المجروحين » (١٦١/١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٨٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٥٢) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٦٨/٨) : (أخرجه صاحب « الحلية » ، وكأنه استنبط ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ وَرَزْقَهُ . . . الآية ؛ أي : فلا يتصور الاحتياج مع التقوى) .

(٣) من غير إشراف نفس منه ولا مسألة . « إتحاف » (١٦٨/٨) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤٨/٥٦) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٧/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٤٠) .

فهذا دواءٌ مِنْ جهةِ المعرفةِ لا بدَّ مِنْهُ لدفعِ تخويفِ الشيطانِ وإنذارِهِ
بالفقرِ .



الثالثُ : أنْ يعرفَ ما في القناعةِ مِنْ عَزِّ الاستغناءِ ، وما في الطمعِ
والحرصِ مِنَ الذلِّ : فإذا تحقَّقَ عندهُ ذلكَ . . انبعثتْ رغبتهُ إلى القناعةِ ؛
لأنَّه في الحرصِ لا يخلو مِنْ تعبٍ ، وفي الطمعِ لا يخلو مِنْ ذلٍّ ، وليسَ في
القناعةِ إلا أَلَمُ الصبرِ عَنِ الشهواتِ والفضولِ ، وهذا أَلَمٌ لا يطلعُ عليه أحدٌ
إلا اللهُ ، وفيهِ ثوابُ الآخرةِ ، وذلكَ ممَّا يُضافُ إليه نظرُ الناسِ ، وفيهِ الوبالُ
والمأثمُ ، ثمَّ يفوتهُ عَزُّ النفسِ ، والقدرةُ على متابعةِ الحقِّ ؛ فإنَّ مَنْ كَثُرَ
طمعُهُ وحرصُهُ . . كَثُرَتْ حاجتُهُ إلى الناسِ ، فلا يمكنُهُ دعوتُهُمْ إلى الحقِّ ،
بل تلزمُهُ المداهنَةُ ، وذلكَ يهلكُ دينَهُ ، وَمَنْ لا يُوَثِّرُ عَزَّ النفسِ على شهوةِ
البطنِ . . فهوَ ركيكُ العقلِ ، ناقصُ الإيمانِ .

قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَزُّ الْمُؤْمِنِ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ » (١) .

ففي القناعةِ الحريةُ والعزُّ ، ولذلكَ قيلَ : (استغنِ عَمَّنْ شئتَ . . فأنتَ

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥٣ / ٣) عن
سهل بن سعد رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يا
محمد ؛ عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، وأحبب من شئت
فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس) .

نظيره ، واحتج إلى من شئت . . فأنت أسيرُهُ ، وأحسن إلى من شئت . .
فأنت أميرُهُ (١) .



الرابع : أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى ، وأراذل الناس ،
والحمقى من الأكراد والأعراب الأجلاف ، ومن لا دين لهم ولا عقل ، ثم
ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء ، وإلى سمات الخلفاء الراشدين ، وسائر
الصحابة والتابعين ، ويستمع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين
أن يكون على مشابهة أراذل الناس ، أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف
الخلق عند الله عز وجل حتى يهون عليه بذلك الصبر على القليل ، والقناعة
باليسير ؛ فإنه إن تنعم في البطن . . فالحمار أكثر أكلًا منه ، وإن تنعم في
الوقاع . . فالخنزير أعلى رتبة منه ، وإن تزين في الملابس والخيول . . ففي
اليهود من هو أعلى رتبة منه ، وإن قنع بالقليل ورضي به . . لم يساهمه في
رتبته إلا الأنبياء والأولياء .



الخامس : أن يفهم ما في جمع المال من الخطر : كما ذكرناه في آفات
المال ، وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع ، وما في خلو اليد من
الأمن والفراغ ، ويتأمل ما ذكرناه من آفات المال ، مع ما يفوته من المدافعة

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٨٤ / ٦٧) عن أبي محمد الأنصاري أنه قرأه على
حجر بيت المقدس .

عن باب الجنة إلى خمس مئة عام ، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه . . التحق بزمرة الأغنياء ، وأخرج من جريدة الفقراء ، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا ، لا إلى من فوقه ، فإن الشيطان أبداً يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه ، فيقول : لِمَ تفتُر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس ؟ ويصرف نظره في الدين إلى من دونه ، فيقول : لِمَ تضيِّق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله ، والناس كلهم مشغولون بالتنعم ؟ فلم تريد أن تتميز عنهم ؟!

قال أبو ذر رضي الله عنه : (أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم : أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقني)^(١) أي : في الدنيا . وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق . . فلينظر إلى من هو أسفل منه ممَّن فضل عليه »^(٢) .

فهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة ، وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل ليتمتع دهرًا طويلاً ، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه في انتظار الشفاء .



(١) رواه أحمد في « المسند » (١٥٩/٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٤٩) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٠) ، ومسلم (٢٩٦٣) .

بيان فضيلة السخاء

اعلم : أنَّ المالَ إنَّ كَانَ مَفْقُوداً . . فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ الْعَبْدِ الْقَنَاعَةَ وَقَلَّةَ الْحَرَصِ ، وَإِنْ كَانَ مَوْجُوداً . . فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُهُ الْإِيثَارَ وَالسَّخَاءَ ، وَاصْطِنَاعَ الْمَعْرُوفِ ، وَالتَّبَاعَدَ عَنِ الشَّحِّ وَالْبَخْلِ ؛ فَإِنَّ السَّخَاءَ مِنْ أَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَهُوَ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ النِّجَاةِ ، وَعَنْهُ عَبَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ : « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ ، أَغْصَانُهَا مُتَدَلِّئَةٌ إِلَى الْأَرْضِ ، فَمَنْ أَخَذَ بِغَضَنِ مِنْهَا . . قَادَهُ ذَلِكَ الْغَضَنُ إِلَى الْجَنَّةِ » (١) .

وَقَالَ جَابِرٌ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ هَذَا دِينَ ارْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي ، وَلَنْ يَصْلَحَهُ إِلَّا السَّخَاءُ وَحَسَنُ الْخُلُقِ ، فَأَكْرَمُوهُ بِهِمَا مَا اسْتَطَعْتُمْ » ، وَفِي رَوَايَةٍ : « فَأَكْرَمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ » (٢) .

وَعَنْ عَائِشَةَ الصَّدِيقَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢٣٥ / ١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٢ / ٧) ،

والخرقوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢١) ، وسيأتي بتمامه .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٩ ، ٥٥٩) ، والطبراني في « الأوسط »

(٨٩١٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٦٦) ، ولفظه بروايته عند الخرقوشي في

« تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٢) .

وسلّم : « ما جَبَلَ اللهُ تعالى وليّاً له إلا على السَّخَاءِ وحُسْنِ الخُلُقِ »^(١) .

وعن جابر قال : قيل : يا رسول الله ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قال :
« الصبرُ والسماحةُ »^(٢) .

وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرو : قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ : « خُلُقَانِ
يحبُّهُما اللهُ عزَّ وجلَّ ، وخُلُقَانِ يبغضُهُما اللهُ عزَّ وجلَّ ، فأَمَّا اللذانِ
يحبُّهُما اللهُ عزَّ وجلَّ . . فحسَنُ الخُلُقِ والسَّخَاءُ ، وأَمَّا اللذانِ يبغضُهُما اللهُ
عزَّ وجلَّ . . فسوءُ الخُلُقِ والبخلُ ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . استعملهُ في
قضاءِ حوائجِ الناسِ »^(٣) .

وروى المقدمُ بنُ شريحٍ عن أبيه ، عن جدِّه قال : قلتُ :
يا رسولَ اللهِ ؛ دلّني على عملٍ يدخلُنِي الجنةَ ، قال : « إنَّ مِنْ مَوجِبَاتِ
المَغْفِرَةِ بذلَ الطعامِ ، وإفشاءَ السلامِ ، وحسَنَ الكلامِ »^(٤) .

وقال أبو هريرة رضي اللهُ عنه : قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ :
« السَّخَاءُ شجرةٌ في الجنةِ ؛ فَمَنْ كَانَ سَخِيّاً . . أَخَذَ بَغْضَنِ مِنْهَا ، فلم يتركهُ

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٠٥) ، والخرکوشي في « تهذيب
الأسرار » (ص ٤٢٢) ، والدیلمی في « مسند الفردوس » (٦٢٢٨) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٣٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١٨٥٤) ،
ورواه أحمد في « مسنده » (٣٨٥ / ٤) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٢٥٣) ، والدیلمی في « مسند الفردوس » (٢٩٨٩) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨٠ / ٢٢) بروايتين ، جمع هنا بينهما ، وهو كما أورده
المصنف عند الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٣) .

ذَلِكَ الْغَضْنُ حَتَّى يَدْخُلَهُ الْجَنَّةُ ، وَالشَّحُّ شَجَرَةٌ فِي النَّارِ ؛ فَمَنْ كَانَ شَحِيحًا . . أَخَذَ بَغْضَنِ مِنْهَا ، فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذَلِكَ الْغَضْنُ حَتَّى يَدْخُلَهُ النَّارَ « (١) .

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : اطلبوا الفضلَ عِنْدَ الرَّحَمَاءِ مِنْ عِبَادِي . . تَعِشُوا فِي أَكْنَافِهِمْ ؛ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَتِي ، وَلَا تَطْلُبُوهُ مِنَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ؛ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ سَخَطِي » (٢) .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَخَذَ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ » (٣) .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الرِّزْقُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ أَسْرَعُ مِنَ السَّكِينِ إِلَى ذُرْوَةِ الْبَعِيرِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيُبَاهِي بِمُطْعِمِ الطَّعَامِ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ » (٤) .

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٧٧) .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٦٨) ، وابن حبان في « المجروحين » (٢٩٩ / ٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٧١٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٠٠) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٩٧ / ٩) ، ورواه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (١٠٨ / ٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٦٩) .

(٤) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٤) ، وقد روى ابن ماجه (٣٣٥٦ ، ٣٣٥٧) من حديث أنس وابن عباس رضي الله عنهم مرفوعاً : « الخير أسرع إلى البيت الذي يؤكل فيه - أو يُغشى - من الشفرة إلى سنام البعير » ، ورواه بنحوه هنا الرافي في « تاريخ قزوين » (١٢٠ / ٤) من حديث جابر رضي الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ ، وَيُحِبُّ مُعَالِيَ الْأَخْلَاقِ ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » (١) .

وقال أنس رضي الله عنه : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُسَأَلْ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئاً إِلَّا أُعْطَاهُ ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ ، فَأَمَرَ لَهُ بِشَاءٍ كَثِيرٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ مِنْ شَاءِ الصَّدَقَةِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ : يَا قَوْمِ ؛ أَسْلَمُوا ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مَنْ لَا يَخَافُ الْفَاقَةَ (٢) .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَخْصُهُمْ بِالنَّعْمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ ، فَمَنْ بَخَلَ بِتِلْكَ الْمَنَافِعِ عَنِ الْعِبَادِ .. نَقَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ ، وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِ » (٣) .

وعن الهلالي قَالَ : أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَسْرَى مِنْ بَنِي الْعَبْرِ ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ ، وَأَفْرَدَ مِنْهُمْ رَجُلًا ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ الرَّبُّ وَاحِدٌ ، وَالْدِّينُ وَاحِدٌ ، وَالذَّنْبُ وَاحِدٌ ؛ فَمَا بَالُ هَذَا مِنْ بَيْنِهِمْ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَزَلَ عَلَيَّ

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٧٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلًا ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٨١ / ٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعاً ، وقد تقدم بعضه .

(٢) رواه مسلم (٢٣١٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٥١٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٥ / ٦) و (٢١٥ / ١٠) .

جبريلُ فقالَ : اقتل هؤلاءِ واترك هذا ؛ فإنَّ اللهَ تعالى شكرَ له سخاءَ فيه « (١) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إِنَّ لكلِّ شيءٍ ثمرةً ، وثمرَةُ المعروفِ تعجيلُ السَّراحِ » (٢) .

وعنُ نافعٍ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « طعامُ الجوادِ دواءٌ ، وطعامُ البخيلِ داءٌ » (٣) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عندهُ . . عَظُمَتْ مؤنَّةُ الناسِ عليه ، فَمَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ تلكَ المؤنَّةَ . . عَرَّضَ تلكَ النعمةَ للزوالِ » (٤) .

(١) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٥) ، وفيه : (الهذلي) بدل (الهلالي) ، وزاد : فقال الأسير : لِمَ لم الحق بأصحابي ؟ فقال : « إن الله تعالى شكر سخاء فيك » ، فأسلم وحسن إسلامه ببركة سخاوته .

وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحافه » (١٧٥ / ٨) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٧٥ / ٨) : (قال العراقي : لم أقف له على أصل . قلت : ولكن المعنى صحيح ، ومنه قولهم : إما نعم صريحة وإلا مريحة) ، وقد سقط الخبر من مطبوع « تهذيب الأسرار » للخرکوشي مع أن السياق عنده .

(٣) كذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٩٥٤) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن عدي والدارقطني في « غرائب مالك » ، وأبو علي الصوفي في « عواليه » وقال : رجاله ثقات أئمة ، قال ابن القطان : وإنهم لمشاهير ثقات إلا مقدم بن داوود ؛ فإن أهل مصر تكلموا فيه) . « إتحاف » (١٧٥ / ٨) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (١٧٤ / ١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٩٨) ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً أيضاً .

وقال عيسى عليه السلام : استكثروا مِنْ شيءٍ لا تأكلُهُ النارُ ، قيل : وما هو ؟ قال : المعروف^(١) .

وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الجنة دارُ الأسخياء »^(٢) .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ السخيَّ قريبٌ مِنَ الله ، قريبٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ الجنةِ ، بعيدٌ مِنَ النارِ ، وإنَّ البخيلَ بعيدٌ مِنَ الله ، بعيدٌ مِنَ الناسِ ، بعيدٌ مِنَ الجنةِ ، قريبٌ مِنَ النارِ ، وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله مِنْ عابدٍ بخيلٍ ، وأدوأُ الداءِ البخلُ »^(٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اصنع المعروف إلى مَنْ هوَ أهلهُ وإلى مَنْ ليسَ بأهلهِ ؛ فإنَّ أصبتَ أهلهُ .. فقد أصبتَ أهلهُ ، وإنَّ لم تصبِ أهلهُ .. فأنتَ مِنْ أهلهِ »^(٤) .

(١) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٧) ، ورواه أبو نعیم في « الحلیة » (٣٧١ / ٣) عن الزهري .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٩٧) ، وابن حبان في « الثقات » (٢٣ / ٥) ، وابن عدي في « الكامل » (١٨٧ / ١) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٦١) دون الجملة الأخيرة ، ورواها الخرائطي في « مساوی الأخلاق » (٣٧٤) .

(٤) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٧٨) ، والجصاص في « أحكام القرآن » (٢٦٧ / ٣) ، والسلمي في « آداب الصحبة » (١٣٨) ، وهو عند الدارقطني في « العلل » (١٠٧ / ٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ، ولكن دخلوها بسخاء الأنفس ، وسلامة الصدور ، والنصح للمسلمين » (١) .

وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل جعل للمعروف وجوهاً من خلقه ، حبب إليهم المعروف ، وحبب إليهم فعالة ، ووجّه طلاب المعروف إليهم ، وسرّ عليهم إعطاءه ؛ كما سرّ الغيث إلى البلدة الجدية فيحييها ويحيي بها أهلها » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ، وما وقى به المرء عرضه .. فهو له صدقة ، وما أنفق الرجل من نفقة .. فعلى الله خلفها » (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كل معروف صدقة ، والدال على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة اللّهفان » (٤) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٩٣) ، (١٠٣٩٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤) ، ورواه الحاكم في « المستدرک » (٣٢١ / ٤) من حديث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بنحوه .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٤٣١ / ٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٢٩) ، والجملة الأولى منه رواها البخاري (٦٠٢١) ، ومسلم (١٠٠٥) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٢٥١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كلُّ معروفٍ فعلته إلى غنيٍّ أو فقيرٍ صدقةٌ » (١) .

وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : لا تقتل السامريَّ ؛ فإنه سخيٌّ (٢) .

وقال جابرٌ : بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعثاً عليهم قيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادَةَ ، فجهدوا ، فنحرَ لهم قيسٌ تسعَ ركائبَ ، فحدّثوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الجودَ لمن شِمةِ أهلِ ذلك البيتِ » (٣) .



الآثار :

قال عليٌّ رضي الله عنه : إذا أقبلت الدنيا عليك .. فأنفق منها ؛ فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك .. فأنفق منها ؛ فإنها لا تبقى ، وأنشد^(٤) : [من البسيط]

لا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّبَذِيرُ وَالسَّرْفُ

- (١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٢) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (١١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٩ / ٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .
- (٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) ، والثعلبي في « تفسيره » (٢٥٨ / ٦) .
- (٣) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (١٠٩١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٩١ / ٤٩) .
- (٤) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ « أنوار العقول لوحي الرسول » (ص ١٨٠) .

فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَأَخْرَيْ أَنْ تَجُودَ بِهَا فَالْحَمْدُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرْتَ خَلْفُ
 وسأل معاويةَ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهم عن المروءة والنجدة
 والكرم ، فقال :
 أمَّا المروءة .. فحفظُ الرجلِ دينه ، وحذرُه نفسه ، وحسنُ قيامه
 بضيفه ، وحسنُ المنازعة ، والإقدامُ في الكراهية .
 وأمَّا النجدة .. فالذبُّ عن الجار ، والصبرُ في المواطن .
 وأمَّا الكرم .. فالتبرُّعُ بالمعروفِ قبلَ السؤالِ ، والإطعامُ في المخلِ ،
 والرافةُ بالسائل مع بذلِ النائل^(١) .

ورفعَ رجلٌ إلى الحسنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهما رقعةً ، فقال : حاجتكُ
 مقضيةٌ ، فقبلَ له : يا بنَ رسولِ اللهِ ؛ لو نظرتَ في رقعتي ثمَّ رددتَ الجوابَ عليَّ
 قدرَ ذلك ! فقال : يسألني اللهُ عزَّ وجلَّ عن ذلِّ مقامه بينَ يديَّ حتَّى أقرأ
 رقعتي^(٢) .

وقالَ ابنُ السماكِ : (عجبْتُ لِمَنْ يشتري المماليكَ بماله ولا يشتري
 الأحرارَ بمعروفه)^(٣) .

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥٧ / ١٣) بنحوه ، وبلغظه عند الخرکوشي في
 « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٩) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٩) .

(٣) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٠) ، ورواه البيهقي في
 « الشعب » (١٠٤٢١) .

وسُئِلَ بعضُ الأعرابِ : مَنْ سيّدُكُمْ ؟ فقالَ : مَنْ احتمَلَ شَتْمَنَا ، وأعطى سائلَنَا ، وأغضى عن جاهِلِنَا^(١) .

وقالَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَنْ وُصِفَ ببذلِ مالِهِ لطلابِهِ .. لم يكنْ سخيّاً ، وإنّما السخيُّ مَنْ يبتدئُ بحقوقِ اللهِ تعالى في أهلِ طاعَتِهِ ، ولا تنازعُهُ نفسُهُ إلى حبِّ الشكرِ لَهُ إذا كانَ يقينُهُ بثوابِ اللهِ تامّاً)^(٢) .

وقيلَ للحسنِ البصريِّ : ما السخاءُ ؟ فقالَ : أنْ تجودَ بمالكِ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، قيلَ : فما الحزمُ ؟ قالَ : أنْ تمنعَ مالكَ فيه ، قيلَ : فما الإسرافُ ؟ قالَ : الإنفاقُ لحبِّ الرئاسةِ^(٣) .

وقالَ جعفرُ الصادقُ رحمهُ اللهِ عليه : (لا مالَ أعودُ مِنَ العقلِ^(٤) ، ولا مصيبةَ أعظمُ مِنَ الجهلِ ، ولا مظاهرةَ كالمشاورةِ ، ألا وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : إني جوادٌ كريمٌ لا يجاورُنِي لثيمٌ ، واللؤمُ مِنَ الكفرِ ، وأهلُ الكفرِ في النارِ ، والجودُ والكرمُ مِنَ الإيمانِ ، وأهلُ الإيمانِ في الجنةِ)^(٥) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العلم » (٤٠) عن معاوية رضي الله عنه يسأل أحد أعراب طيء ، وقصدوا به خريم بن أوس .

(٢) أورده الخرkowski في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .

(٣) أورده الخرkowski في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .

(٤) أي : أكثر عائدة منه .

(٥) أورده الخرkowski في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٣) .

قال : وورث أبي خمسين ألف درهم ، فبعث بها إلى إخوانه صرراً ،
وقال : قد كنت أسأل الله تعالى لإخواني الجنة في صلاتي ، فأبخل عليهم
بالمال ؟! (١) .

وقال الحسن : (بذل المجهود في بذل الموجود منتهى
الجود) (٢) .

وقيل لبعض الحكماء : من أحب الناس إليك ؟ قال : من كثرت أيادي
عندي ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : من كثرت أيادي عنده (٣) .

وقال عبد العزيز بن مروان : (إذا الرجل أمكنتني من نفسه حتى أضع
معروفي عنده . . فيده عندي مثل يدي عنده) (٤) .

وقال المهدي لشبيب بن شيبه : كيف رأيت الناس في داري ؟ فقال
يا أمير المؤمنين ؛ إن الرجل منهم ليدخل راجياً ويخرج راضياً (٥) .

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٨) ، وعنده : (وورث الحسن)

بدل (قال : وورث أبي) ، وينحوه حكاية الطرطوشي في « سراج الملوك » (٣٧٣ / ١)

عن عبد الملك بن بحر ، وفي (ب) : (وورث عبد الرحمن بن الحارث) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) عن الحماني .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) ، وقريب منه عند الدينوري في

« المجالسة وجواهر العلم » (ص ٨٤) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) .

(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٧٦ / ٩) .

وتمثل متمثلٌ عند عبد الله بن جعفر فقال^(١) :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ
فَإِذَا أَصْطَنَعَتْ صَنِيعَةً فَأَعْمَدَ بِهَا اللَّهُ أَوْ لِذَوِي الْقَرَابَةِ أَوْ دَعِ
فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ : إِنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لِيُخْلَانِ النَّاسَ ، وَلَكِنْ أَمَطِرِ
الْمَعْرُوفَ مَطَرًا ؛ فَإِنْ أَصَابَ الْكَرَامَ . . كَانُوا لَهُ أَهْلًا ، وَإِنْ أَصَابَ اللَّثَامَ . .
كَانَتْ لَهُ أَهْلًا^(٢) .



(١) البيتان لسيدنا حسان في « ديوانه » (٤٩٣ / ١) .

(٢) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٦) ، ورواه بنحوه ابن حبان في
« روضة العقلاء » (ص ٢٥٤) .

حكايات الأسخياء

عن محمد بن المنكدر ، عن أمّ درّة^(١) - وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها - قالت : إنّ ابن الزبير بعث إليها^(٢) بمال في غرارتين ثمانين ومئة ألف درهم ، فدعت بطبق ، فجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أمست ، قالت : يا جارية ؛ هلمّي فطوري ، فجاءتها بخبز وزيت ، فقالت لها أمّ درّة : ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه ؟ فقالت : لو كنت ذكرتيني . . لفعلت^(٣) .

وعن أبان بن عثمان قال : أراد رجل أن يضارّ عبد الله بن عباس ، فأتى وجوه قريش فقال : يقول لكم عبد الله : تغدّوا عندي اليوم ، فأتوه حتّى ملؤوا عليه الدار ، فقال : ما هذا ، فأخبر الخبر ، فأمر عبد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوماً فطبخوا ، وخبزوا ، وقُدّمت الفاكهة إليهم ، فلم يفرغوا منها حتّى وُضعت الموائد ، فأكلوا حتّى صدروا ، فقال عبد الله لوكلائه : أوجود كلاً ما أردت في السوق مثل هذا ؟ قالوا : نعم ،

(١) قال الحافظ الزبيدي في «الإنحاف» (٨/ ١٨١) : (هلكذا ضبطه غير واحد بضم الدال المهملة)، وضبطه الحافظ ابن حجر في «تبصير المتنبه» (٢/ ٥٦٠) : ذرّة، بفتح الدال المعجمة .

(٢) أي : لعائشة رضي الله تعالى عنها .

(٣) رواه هناد في «الزهد» (٦١٩) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٧) ، ولفظه عند الخرکوشي في «تهذيب الأسرار» (ص ٤٢٧) .

قَالَ : فليَتَغَدَّ عِنْدَنَا هَؤُلَاءِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ^(١) .

وَقَالَ مَصْعَبُ بْنُ الزَّبِيرِ : حَجَّ معاويةُ رضيَ اللهُ عنه ، فلمَّا انصرفَ . . مرَّ بالمدينة ، فقالَ الحسينُ بْنُ عليٍّ لأخيه الحسنِ رضيَ اللهُ عنهم : لا تَلْقَهُ ولا تَسَلِّمْ عليه ، فلمَّا خرجَ معاويةُ . . قالَ الحسنُ : إِنَّ عَلَيْنَا دَيْنًا ولا بَدَّ لَنَا مِنْ إِتْيَانِهِ ، فركبَ في أثرِهِ فلحقَهُ ، فسَلَّمَ عليه وأخبرَهُ بِدِينِهِ ، فمَرُّوا عليه بِبُخْتِيٍّ عليه ثمانونَ ألفَ دينارٍ وقدَ أعيا وتخلَّفَ عَنِ الإِبِلِ وقومٌ يسوقونه ، فقالَ معاويةُ : ما هَذَا؟ فَذَكَرَ لَهُ ، فقالَ : اصرفوه بما عليه إلى أبي محمدٍ ^(٢) .

وعنُ واقدِ بْنِ محمدٍ الواقديِّ قالَ : حدثنا أبي أَنَّهُ رَفَعَ رَقْعَةً إلى المأمونِ يذكُرُ فيها كثرةَ الدينِ وقِلَّةَ صبرِهِ عليه ، فوَقَّعَ المأمونُ على ظَهْرِ رَقْعَتِهِ : إِنَّكَ رَجُلٌ اجتمعَ فيكَ خصلتانِ : سخاءٌ ، وحياءٌ ، فأَمَّا السخاءُ . . فهو الذي أطلقَ ما في يديكَ ، وأَمَّا الحياءُ . . فهو الذي يمنعُكَ مِنْ تبليغِنا ما أنتَ عليه ، وقدَ أمرْتُ لَكَ بِمِئَةِ ألفِ درهمٍ ، فإنْ كُنْتُ قدَ أصبْتُ . . فازدَدْ في بسِطِ يَدِكَ ، وإنْ لَمْ أَكُنْ قدَ أصبْتُ . . فجنائتُكَ على نَفْسِكَ ، وأنتَ حَدَّثْتَنِي وَكنتَ على قضاءِ الرشيدِ : عن محمدِ بْنِ إسحاقَ ، عَنِ الزهريِّ ، عَنِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ للزبيرِ بْنِ العوّامِ :

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٢٢) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٨) .

« يا زبير ؛ اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش ، يبعث الله عز وجل إلى كل عبد بقدر نفقته ؛ فمن كثر . . كثر له ، ومن قل . . قل له » ، وأنت أعلم . قال الواقدي : فوالله ؛ لَمَذَاكِرَةُ المأمونِ إِيَّايَ الحديثَ أحبُّ إليَّ مِنَ الجائزةِ وهي مئة ألفِ درهمٍ ^(١) .

وسأل رجلُ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهَ عنهُما حاجةً فقالَ له : يا هذا ؛ حقُّ سؤالِكَ إِيَّايَ يعظمُ لديَّ ، ومعرفتي بما يجبُ لك تكبرُ عليَّ ، ويدي تعجزُ عن نيلِكَ بما أنتَ أهلهُ ، والكثيرُ في ذاتِ اللهِ تعالى قليلٌ ، وما في ملكي وفاءٌ لشكرِكَ ، فإنِ قبلتَ الميسورَ ، ورفعتَ عني مؤنةَ الاحتمالِ والاهتمامِ لما أتكلَّفُهُ مِنْ واجبِكَ . . فعلتُ ، فقالَ : يا بنَ رسولِ اللهِ ؛ أقبِلْ وأشكرْ العطيةَ ، وأعذرْ على المنعِ ، فدعا الحسنُ بوكيله ، وجعلَ يحاسبُهُ على نفقاتِهِ حتَّى استقصاها ، فقالَ : هاتِ الفاضلَ مِنَ الثلاثِ مئةَ ألفِ درهمٍ ، فأحضرَ خمسينَ ألفاً ، قالَ : فما فعلتَ بالخمسِ مئةَ دينارٍ ؟ قالَ : هيَ عندي ، قالَ : أحضرها ، فأحضرها ، فدفعَ الدنانيرَ والدراهمَ إلى الرجلِ ، وقالَ : هاتِ مَنْ يحملُها لك ، فأتاهُ بحمالينَ ، فدفعَ إليهِ الحسنُ رداءهُ لكراءِ الحملِ ، فقالَ له موالِيهِ : واللهِ ؛ ما عندنا درهمٌ ، فقالَ :

(١) رواه بتمامه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٢٨/٣) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٨) ، وروى المرفوع وحده أبو نعيم في « الحلية » (٢١٦/١٠) ، والديلمى في « مسند الفردوس » (٨٥٥٤) بنحوه .

ولكنني أرجو أن يكون لي عند الله أجرٌ عظيم^(١) .

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل البصرة ، فقالوا : لنا جارٌ صوامٌ قوامٌ يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنيت له من ابن أخيه وهو فقيرٌ وليس عنده ما يجهزها به ، فقام عبد الله بن عباس ، فأخذ بأيديهم ، وأدخلهم داره ، وفتح صندوقاً فأخرج منه ستاً بدر ، فقال : احملا ، فحملوا ، فقال ابن عباس : ما أنصفناه ، أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه ، ارجعوا بنا . . نكن أعوانه على تجهيزها ، فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه تعالى ، وما بنا من التكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ، ففعل وفعلوا^(٢) .

وحكي أنه لما أجذب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم ، فقال : والله ؛ لأغليمن الشيطان أني عدوّه ، فعال محايجههم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم ، فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم ، فرهنهم بها حلي نسائه ، وقيمته خمسة آلاف ألف درهم^(٣) ، فلما تعذر عليه ارتجاعها . . كتب إليهم ببيعها ، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته^(٤) .

(١) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣١) ، وأورده مختصراً القشيري في « رسالته » (ص ٤٢٣) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣١) ، وانظر « ثمرات الأوراق » (ص ٤٤٠) ، و « المستطرف » (١ / ٤٩٢ - ٤٩٣) .

(٣) في غير (ج) : (وقيمته خمس مئة ألف ألف درهم) .

(٤) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .

وكان أبو طالب بن كثير شيعياً ، فقال له رجل : بحق علي بن أبي طالب ؛ لَمَا وهبت لي نِحلتك بموضع كذا ، قال : قد فعلت ، وحقه ؛ لأعطيتك ما يليها ، وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل^(١) .

وكان أبو مرثد أحد الكرماء ، فمدحه بعض الشعراء ، فقال للشاعر : والله ؛ ما عندي ما أعطيك ، ولكن قدمني إلى القاضي وادع علي بعشرة آلاف درهم ، حتى أقر لك بها ، ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتركوني محبوساً ، ففعل ذلك ، فلم يُمس حتى دُفع إليه عشرة آلاف درهم ، وأُخرج أبو مرثد من الحبس^(٢) .

وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقيين بالبصرة ، فحضر بابه شاعر ، فأقام مدة ، وأراد الدخول على معن ، فلم يتهيأ له ، فقال يوماً لبعض خدام معن : إذا دخل الأمير البستان . . فعرفني ، فلما دخل . . أعلمه ، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل بستان معن ، وكان معن على رأس الماء ، فلما بصر بالخشبة . . أخذها وقرأها ؛ فإذا فيها مكتوب :

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي فما لي إلى معن سواك شفيع
فقال : من صاحب هذه ؟ فدعني بالرجل ، فقال له : كيف قلت ؟

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢)، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٢٣) .

فقاله ، فأمر له بعشر بُدَرٍ ، فأخذها ، ووضع الأميرُ الخشبةَ تحتَ بساطِهِ ، فلمَّا كانَ اليومُ الثاني.. أخرجَهَا مِنْ تحتِ البساطِ وقرأَ ما فيها ، ودعا بالرجلِ فدفعَ إليه مئةَ ألفِ درهمٍ ، فلمَّا أخذَهَا الرجلُ.. تفكَّرَ وخافَ أنْ يأخذَ مِنْهُ ما أعطاهُ ، فخرجَ ، فلمَّا كانَ اليومُ الثالثُ.. قرأَ ما فيها ودعا بالرجلِ ، فطلبَ فلمْ يُوجدْ ، فقالَ معنٌ : حقٌّ عليَّ أنْ أعطيهُ حتَّى لا يبقى في بيتِ مالي درهمٌ ولا دينارٌ^(١) .

وقالَ أبو الحسنِ المدائنيُّ : خرجَ الحسنُ والحسينُ وعبدُ الله بنُ جعفرٍ رضيَ اللهُ عَنْهُمُ حُجَّاجاً ، ففاتَهُمُ أثقالُهُمُ ، فجاعوا وعطشوا ، فمرُّوا بعجوزٍ في خباءٍ لها ، فقالوا : هلْ مِنْ شرابٍ ؟ فقالتَ : نعم ، فأناخوا إليها وليسَ لها إلا شويهةٌ في كسرِ الخيمةِ ، فقالتَ : احلبوها وامتدقوا لبنَهَا ، ففعلوا ذلكَ ، ثمَّ قالوا لها : هلْ مِنْ طعامٍ ؟ قالتَ : لا إلا هذهِ الشاةُ ، فليذبحُها أحدُكُمْ حتَّى أهَيِّءَ لَكُمْ ما تأكلونَ ، فقامَ إليها أحدُهُم فذبحَهَا وكشطَهَا ، ثمَّ هيأتَ لَهُمُ طعاماً ، فأكلُوا وأقاموا حتَّى أبردوا ، فلمَّا ارتحلوا.. قالوا لها : نحنُ نفرٌ مِنْ قريشٍ نريدُ هذا الوجهَ ، فإذا رجعنا سالمينَ.. فألمِّي بنا ؛ فإنَّا صانعونَ بكِ خيراً ، ثمَّ ارتحلوا ، وأقبلَ زوجها فأخبرتهُ بخبرِ القومِ والشاةِ ، فغضبَ الرجلُ ، وقالَ : ويلَكَ ؛ تذبحينِ شاتي لقومٍ لا تعرفينَهُمُ ، ثمَّ تقولينِ : نفرٌ مِنْ قريشٍ ، قالَ : ثمَّ بعدَ مدةٍ ألجأتُهُما الحاجةُ إلى دخولِ

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) ، وانظر « ثمرات الأوراق » (ص ٤٤٠) ، و« المستطرف » (١/ ٤٩٢-٤٩٣) .

المدينة ، فدخلها وجعلنا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ، ويتعيشان بثمانه ، فمرت العجوز في بعض سكك المدينة ؛ فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره ، فعرف العجوز وهي له منكرة ، فبعث غلامه ودعا العجوز ، فقال لها : يا أمة الله ؛ أتعرفيني ؟ قالت : لا ، قال : أنا ضيفك يوم كذا وكذا ، قالت العجوز : بأبي أنت وأمي ، أنت هو ؟ قال : نعم ، ثم أمر الحسن فاشترى لها من شاء الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين ، فقال لها الحسين : بكم وصلك أخي ؟ قالت : بألف شاة وألف دينار ، فأمر لها الحسين أيضاً بمثل ذلك ، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر ، فقال لها : بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت : بألفي شاة وألفي دينار ، فأمر لها عبد الله بألفي شاة وألفي دينار ، وقال لها : لو بدأت بي . . لأتعبتهما ، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة ، وأربعة آلاف دينار^(١) .

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله ، وهو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف ، فمشى إلى جانبه ، فقال له عبد الله : ألك حاجة يا غلام ؟ قال : صلاحك وفلاحك ، رأيتك تمشي وحدك ، فقلت : أفيك بنفسي ، وأعوذ بالله إن طار بجناحك مكروه ، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار ، فدفعها إلى الغلام ، وقال :

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٣) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٨٥ / ٨) : (هكذا أخرجه المدائني بأسانيده) .

استنقذ هذه ، فنعم ما أدبَكَ أهلك^(١) .

وَحِكِي أَنَّ قوماً مِنَ الْعَرَبِ جَاءُوا إِلَى قَبْرِ بَعْضِ أَسْخِيائِهِمْ لِلزِّيَارَةِ ،
فَنَزَلُوا عِنْدَ قَبْرِهِ ، وَبَاتُوا عِنْدَهُ وَقَدْ كَانُوا جَاءُوا مِنْ سَفَرٍ بَعِيدٍ ، فَرَأَى رَجُلٌ
مِنْهُمْ فِي النَّوْمِ صَاحِبَ الْقَبْرِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : هَلْ لَكَ أَنْ تَبَادَلَ بَعِيرَكَ بِنَجِيئِي ؟
وَكَانَ السَّخِيُّ الْمَيِّتُ قَدْ خَلَّفَ نَجِيئاً مَعْرُوفاً بِهِ ، وَلِهَذَا الرَّجُلُ بَعِيرٌ سَمِينٌ ،
فَقَالَ لَهُ فِي النَّوْمِ : نَعَمْ ، وَبَاعَ فِي النَّوْمِ بَعِيرَهُ بِنَجِيئِهِ ، فَلَمَّا وَقَعَ بَيْنَهُمَا
الْعَقْدُ . . عَمَدَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى بَعِيرِهِ فَنَحَرَهُ فِي النَّوْمِ ، فَانْتَبَهَ الرَّجُلُ مِنْ
نَوْمِهِ ؛ فَإِذَا الدَّمُ يَشْجُ مِنْ نَحْرِ بَعِيرِهِ ، فَقَامَ الرَّجُلُ مِنَ النَّوْمِ فَنَحَرَهُ ، وَقَسَمَ
لِحِمَّةٍ ، فَطَبَخُوهُ وَقَضَوْا حَاجَتَهُمْ مِنْهُ ، ثُمَّ رَحَلُوا وَسَارُوا ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ
الثَّانِي وَهُمْ فِي الطَّرِيقِ . . اسْتَقْبَلَهُمْ رَكْبٌ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : مَنْ فُلَانُ بْنُ
فُلَانٍ مِنْكُمْ ؟ بِاسْمِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، فَقَالَ : أَنَا ، فَقَالَ : هَلْ بَعْتَ مِنْ فُلَانٍ
شَيْئاً ؟ وَذَكَرَ الْمَيِّتَ صَاحِبَ الْقَبْرِ ، قَالَ : نَعَمْ ، بَعْتُ مِنْهُ بَعِيرِي بِنَجِيئِهِ فِي
النَّوْمِ ، فَقَالَ : خُذْ ، هَذَا نَجِيئُهُ ، ثُمَّ قَالَ : هُوَ أَبِي ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي النَّوْمِ
وَهُوَ يَقُولُ : إِنْ كُنْتَ ابْنِي . . فَادْفَعْ نَجِيئِي إِلَى فُلَانٍ وَسَمَّاهُ^(٢) .

وَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنَ السَّفَرِ ، فَمَرَّ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى قَارِعَةٍ

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٤) ، وفيه : (صار) بدل (طار) ،
وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٨٥ / ٨) : (هكذا أخرجه أبو الحسن المدائني
في « أخبار الأسخياء ») .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٦) .

الطريق قد أقعده الدهر ، وأضرَّ به المرض ، فقال : يا هذا ؛ أعنا على الدهر ، فقال الرجل لغلامه : ما بقي معك من النفقة . فادفعه إليه ، فصبَّ الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم ، فذهب لينهض ، فلم يقدر من الضعف فبكى ، فقال له الرجل : ما يكيك ؟ لعلك استقلت ما أعطيناك ؟ قال : لا ، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني^(١) .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل . . سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قالوا : يكون لدارهم ، قال : يا غلام ؛ اتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً^(٢) .

وقيل : أنفذ هارون الرشيد إلى مالك بن أنس رضي الله عنهما خمس مئة دينار ، فبلغ ذلك الليث بن سعد ، فأنفذ إليه ألف دينار ، فغضب هارون وقال : أعطيتُه خمس مئة وتعطيه ألفاً وأنت من رعيي ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن لي من غلتي كل يوم ألف دينار ، فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم^(٣) .

وحكي أنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار^(٤) .

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٤٨) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٨٨) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) .

وروي أن امرأة سألت الليث بن سعدٍ رحمه الله عليه شيئاً من عسلٍ ، فأمر لها بزق من عسلٍ ، فقيل له : إنها كانت تقنع بدون هذا ، فقال : إنها سألت على قدرها ، ونعطيها على قدر النعمة علينا^(١) .

وكان الليث بن سعدٍ لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاث مئة وستين مسكيناً^(٢) .

وقال الأعمش : اشتكت شاةٌ عندي ، فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ، ويسألني : هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتي لبدٌ أجلس عليه ؛ فإذا خرج . . قال : خذ ما تحت اللبد ، حتى وصل إلي في غلة الشاة أكثر من ثلاث مئة دينارٍ من برّه ، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ^(٣) .

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة : بلغني عنك خصالٌ ، فحدثني بها ، فقال : هي من غيري أحسن منها مني ، قال : عزمت عليك إلا حدثتني بها ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط ، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت إليه قوماً إلا كانوا أمنً علي مني عليهم ، ولا نصب لي رجل وجهه قط ليسألني شيئاً فاستكثر شيئاً أعطيته إياه^(٤) .

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٢٣) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) .

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك ، وكان سعيد رجلاً جواداً ، فإذا لم يجد شيئاً . كتب لمن سأله صكاً على نفسه حتى يخرج عطاؤه ، فلما نظر إليه سليمان . . تمثل بهذا البيت فقال : [من الكامل]

إني سمعت مع الصّباح مُنادياً يا مَنْ يُعِينُ عَلَى الْفَتَى الْمِعْوَانِ
ثمَّ قال : حاجتك ؟ قال : ديني ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثون ألف دينار ، قال : ديتك ومثله^(١) .

وقيل : مرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقيل : إنهم يستحيون ممّا لك عليهم من الدّين ، فقال : أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثمَّ أمر منادياً فنادى : مَنْ كان عليه لقيس حقٌّ . . فهو منه في حلٍّ ، قال : فكسرت درجته بالعشيّ ؛ لكثرة من عاده^(٢) .

وعن أبي إسحاق قال : صليتُ الفجر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلبُ غريماً لي ، فلما صليتُ . . وُضِعَ بين يديّ حلة ونعلان ، فقلتُ : لستُ من أهل هذا المسجد ، فقيل : إنّ الأشعث بن قيس الكنديّ قدّم البارحة من مكة فأمر لكلّ من صلّى في المسجد بحلّة ونعلين^(٣) .

(١) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) ، و« ربيع الأبرار » (١/٥٩٥-٥٩٦) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) .

(٣) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤١) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٢٢٢) دون ذكر أبي إسحاق السبيعي .

وقال الشيخ أبو سعد الخَزْكَوْشِيُّ النيسابوري رحمه الله : سمعتُ
 محمدَ بنَ محمدَ الحافظَ يقولُ : سمعتُ الشافعيَّ المجاورَ بمكةَ يقولُ : كانَ
 بمصرَ رجلٌ عُرِفَ بأنَّهُ يجمعُ للفقراءِ شيئاً ، فولدَ لبعضِهِم ولداً ، قالَ :
 فجئتُ إليه ، فقلتُ له : ولِدَ لي مولودٌ ، وليسَ معي شيءٌ ، فقامَ معي ،
 ودخلَ على جماعةٍ ، فلمَ يُفتحَ بشيءٍ ، فجاءَ إلى قبرِ رجلٍ ، وجلسَ
 عندهُ ، وقالَ : رحمَكَ اللهُ ؛ كنتَ تفعلُ وتصنعُ ، وإنِّي دُرْتُ اليومَ
 وكلفتُ جماعةً دفعَ شيءٍ لمولودٍ ، فلمَ يتفقَ لي شيءٌ ، قالَ : ثمَّ قامَ ،
 وأخرجَ ديناراً وكسره نصفين ، وناولني نصفه ، وقالَ : هذا دينٌ عليكِ
 إلى أن يُفتحَ لكَ بشيءٍ ، قالَ : فأخذتهُ وانصرفتُ ، فأصلحتُ ما اتفقَ لي
 بهِ ، فرأى ذلكَ المحتسبُ تلكَ الليلةَ ذلكَ الشخصَ في منامِهِ ، فقالَ :
 سمعتُ جميعَ ما قلتَ ، وليسَ لنا إذنٌ بالجوابِ ، ولكنِ احضرِ منزلي ،
 وقلْ لأولادي يحفروا مكانَ الكانونِ ، ويخرجوا قرابةً فيها خمسُ مئةِ
 دينارٍ ، واحملها إلى هذا الرجلِ ، فلَمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . تقدَّم إلى منزلِ
 الميتِ ، وقصَّ عليهمُ القصةَ ، فقالوا لهُ : اجلسِ ، وحفروا الموضعَ ،
 فأخرجوا الدنانيرَ ، وجاؤوا بها فوضعوها بينَ يديه ، فقالَ : هذا مالُكمُ ،
 وليسَ لرؤيائي حكمٌ ، فقالوا : هوَ يتسخَّى ميتاً ، ولا نتسخَّى نحنُ أحياءُ !
 فلما ألحوا عليه . . حملَ الدنانيرَ إلى الرجلِ صاحبِ المولودِ ، وذكرَ لهُ
 القصةَ ، قالَ : فأخذَ منها ديناراً وكسره نصفين ، فأعطاهُ النصفَ الذي
 أقرضهُ ، وحملَ النصفَ الآخرَ ، وقالَ : يكفيني هذا ، وتصدَّقْ بها على

الفقراء ، فقال أبو سعيد : فلا أدري أيُّ هؤلاء أسخى^(١) .

وروي أن الشافعي رضي الله عنه لما مرض مرضاً موتاً . . قال : مروا فلاناً يغسلني^(٢) ، فلمّا تُوفي . . بلغه خبر وفاته ، فحضر وقال : اثنوني بتذكرته ، فأتى بها ، فنظر فيها ؛ فإذا على الشافعي رحمه الله سبعون ألف درهم دين ، فكتبها على نفسه ، وقضاها عنه ، وقال : هذا غسلي إياه ؛ أي : أراد به هذا .

وقال أبو سعيد الواعظ الخرکوشي رحمه الله : لمّا قدمت مصر . . طلبت منزل ذلك الرجل ، فدلّوني عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم ، فرأيت فيهم سيما الخير وآثار الفضل ، فقلت : بلغ أثره في الخير إليهم ، وظهرت برکته فيهم ؛ مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾^(٣) .

وقال الشافعي رحمه الله : لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه ؛ أنه كان ذات يوم راكباً حماره ، فحرّكه فانقطع زرّه ، فمرّ على خياط ، فأراد أن ينزل إليه ليسوي زرّه ، فقال الخياط : والله ؛ لا نزلت ، فقام الخياط إليه ، فسوى زرّه ، فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير ، فسلمها إلى الخياط ، واعتذر إليه من قلّتها^(٤) .

(١) رواه الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤١) .

(٢) وعنى به : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم . « إنحاف » (١٨٩ / ٨) .

(٣) تهذيب الأسرار (ص ٤٤٢) .

(٤) كذا هو عند الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٢) ، ورواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢ / ٢٣٢) .

وَأُنْشِدَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِنَفْسِهِ ^(١) :

يَا لَهْفَ قَلْبِي عَلَى مَالٍ أَفْرَقْتُهُ عَلَى الْمُقْلِينَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوءَاتِ
إِنَّ أَعْتَذَارِي إِلَى مَنْ جَاءَ يَسْأَلُنِي مَا لَيْسَ عِنْدِي لِمَنْ إِحْدَى الْمُصِيبَاتِ

وعن الربيع بن سليمان قال : أخذ رجلٌ بركابِ الشافعي رحمه الله ، فقال : يا ربيعُ ؛ أعطه أربعةً ديناراً واعتذر إليه عني ^(٢) .

وقال الربيعُ : سمعتُ الحميديَّ يقولُ : قدم الشافعيُّ من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينارٍ ، فضربَ خباءَهُ في موضعٍ خارجاً من مكة ، فثَرَّها على ثوبٍ ، ثمَّ أقبلَ على كلِّ مَنْ دَخَلَ عليه يقبضُ قبضةً ويعطيه حتَّى صَلَّى الظهرَ ، ونفضَ الثوبَ وليسَ عليه شيءٌ ^(٣) .

وعن أبي ثورٍ قال : أرادَ الشافعيُّ الخروجَ إلى مكة ومعه مالٌ ، وكانَ قلماً يمسكُ شيئاً من سماحتهِ ، فقلتُ له : ينبغي أن تشتري بهذا المالَ ضيعةً تكونُ لك ولولدك ، قال : فخرجَ ، ثمَّ قدمَ علينا ، فسألتُهُ عن ذلكَ المالِ ، فقال : ما وجدتُ بمكةَ ضيعةً يمكنني أن أشتريها ؛ لمعرفتي بأصلِها ، وقد وُقِفَ أكثرُها ، ولكنِّي بنيتُ بمنى مضرِباً

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص ٤٣) .

(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٢٠ / ٢) .

(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٢٠ / ٢) ، والخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٣) .

يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه^(١) .

وأشَدَّ الشافعي رحمه الله^(٢) :

[من الوافر]

أَرَى نَفْسِي تَتَوَقُّ إِلَى أُمُورٍ يَقْصُرُ دُونَ مَبْلَغِهِنَّ مَالِي
فَنَفْسِي لَا تَطَاوِعُنِي بِبُخْلِ وَمَالِي لَا يُبَلِّغُنِي فِعَالِي

وقال محمد بن عباد المهلبي : دخل أبي على المأمون ، فوصله بمئة ألف درهم ، فلما قام من عنده . . تصدق بها ، فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه . . عاتبه المأمون في ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ منع الموجود سوء ظن بالمعبود ، فوصله بمئة ألف أخرى^(٣) .

وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله ، فأمر له بمئة ألف درهم ، فبكي ، فقال له سعيد : ما يبكيك ؟ قال : أبكي على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمئة ألف أخرى^(٤) .

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها ، فوجده عليلاً ، فقبل منه المدحة ، وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه ؛ وقال : عسى أن

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢ / ٢٢٣) .

(٢) البيتان مما نسب إلى الإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ١١٤) ، ولعبد الله بن معاوية في « ديوانه » (ص ٦٧) .

(٣) كذا هو عند الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٤) ، ورواه بنحوه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣ / ١٧٦) .

(٤) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٦) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١ / ١٣٢) .

أقوم من مرضي فأكافئه ، فأقام شهرين ، فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول^(١) :

[من المنسرح]

إِنَّ حَرَاماً قَبُولُ مِذْحَتِنَا وَتَرْكُ مَا نَرْتَجِي مِنَ الصَّفَدِ
كَمَا الدَّنَانِيرُ وَالذَّرَاهِمُ فِي الـ بَيْعِ حَرَامٍ إِلَّا يَدَا يَدِ

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم . . قال لحاجبه : كم أقام بالباب ؟ قال : شهرين ، قال : أعطه ثلاثين ألفاً ، وجشني بدواة ، فكتب إليه^(٢) : [من الكامل]

أَعَجَلْتَنَا فَاتَاكَ عَاجِلُ بَرْنَا قُلّاً وَلَوْ أَمْهَلْتَنَا لَمْ نُقْلِلِ
فَخُذِ الْقَلِيلَ وَكُنْ كَأَنَّكَ لَمْ تَقُلْ وَنَكُونُ نَحْنُ كَأَنَّنَا لَمْ نَفْعَلِ

ويروى أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهياً مالك فاقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك^(٣) .

وقالت سعدى بنت عوف : دخلت على طلحة ، فرأيت منه ثقلاً ، فقلت : ما لك ؟ فقال : اجتمع عندي مالٌ وقد غمّني ، فقلت : وما يغمُّك ؟! ادع قومك ، فقال : يا غلام ؛ عليّ بقومي ، فقسمه فيهم ،

(١) البيتان ليسا في « ديوان أبي تمام » انظر « المحاسن والمساوي » (ص ٢٤٩) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٩) .

(٢) البيتان منسوبان إلى غير واحد ، وهما في « المنصف » لابن وكيع (١٠٨/١) ، وانظر تخريجها ثمة .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠٣/٢٥) .

فسألت الخادم : كم كان ؟ قال : أربع مئة ألف^(١) .

وجاء أعرابي إلى طلحة ، فسأله وتقرَّب إليه برحم ، فقال : إنَّ هذه الرَّحِمَ ما سألتني بها أحدٌ قبلك ، إنَّ لي أرضاً قد أعطاني بها عثمانُ ثلاث مئة ألف ، فإن شئت . . فاقبضها ، وإن شئت . . بعثها من عثمان ، ودفعتُ إليك الثمن ، فقال : الثمن ، فباعها من عثمان ، ودفع إليه الثمن^(٢) .

وقيل : بكى عليّ رضي الله عنه يوماً ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتني ضيفٌ منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهانني^(٣) .

وأتى رجلٌ صديقاً له ، فدق عليه الباب ، فقال : ما جاء بك ؟ قال : عليّ أربع مئة درهم دين ، فوزن أربع مئة درهم وأخرجها إليه ، وعاد يبكي ، فقالت له امرأته : لم أعطيتُهُ إذ شقَّ عليك ؟ فقال : إنَّما أبكي لأنِّي لم أتفقذ حاله حتَّى احتاج إلى مفاتيحي به^(٤) ، فرحم الله من هذه صفاتهم ، وغفر لهم أجمعين .



(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٢٠١ / ٣) .

(٢) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (١٠٨٣) .

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٢٤) .

(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤٢١) .

بيان ذم البخل

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .
وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ .
وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحْلُوا مُحَارِمَهُمْ »^(١) .
وقال صلى الله عليه وسلم : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ؛ فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَدَعَاهُمْ فَاسْتَحْلُوا مُحَارِمَهُمْ ، وَدَعَاهُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ »^(٢) .
وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ ، وَلَا خَبٌّ ، وَلَا خَائِنٌ ، وَلَا سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » .
وفي رواية : « وَلَا جَبَارٌ » ، وفي رواية : « وَلَا مَنَانٌ »^(٣) .

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٣٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٨٥٥٦) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٦) .

(٣) كذا رواه بروايته هنا الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٦١ - ٣٦٢) ، ونحوه عند الترمذي (١٩٦٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه »^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى ييغض ثلاثة : الشيخ الزاني ، والبخيل المنان ، والمعيل المختال »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ئديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق . . فلا ينفق شيئاً إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه ، وأما البخيل . . فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه ، فهو يوسّعها ولا تتسع »^(٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل ، وسوء الخلق »^(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذُ

(١) رواه الخرائطي في « مساوى الأخلاق » (٣٦٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣ / ٢) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوى الأخلاق » (٣٧٥) .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوى الأخلاق » (٣٧٦) ، وأصله عند البخاري (١٤٤٤) ، ومسلم (١٠٢١) .

(٤) رواه الترمذي (١٩٦٢) ، والخرائطي في « مساوى الأخلاق » (٣٧٧) .

بِكَ مِنَ الْجَبَنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ «^(١) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظِلْمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَاحِشَ وَلَا الْمَتَفَحِّشَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الشُّحُّ ، أَمَرَهُمْ بِالْكَذِبِ فَكَذَبُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا »^(٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحُّ هَالِعٌ ، وَجَبْنٌ خَالِعٌ »^(٣) .

وَقُتِلَ شَهِيدٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَكَتُهُ بَاكِيَةٌ ، فَقَالَتْ : وَاشْهِدَاهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا يَدْرِيكَ أَنَّهُ شَهِيدٌ ؟ ! فَلَغَلَهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ ، أَوْ يَبْخُلُ بِمَا لَا يَنْقُصُهُ »^(٤) .

وَقَالَ جَبْرِ بْنُ مَطْعَمٍ : بَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ النَّاسُ مَقْفَلَةٌ مِنْ حُنَيْنٍ . . . عَلِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ ، حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ ، فَخَطَفْتُ رِدَاءَهُ ، فَوَقَفَ

(١) رواه البخاري (٦٣٦٥) ، وهو عند الخرائطي في « مساويء الأخلاق » (٣٨١) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٥٥) .

(٣) رواه أبو داود (٢٥١١) ، وهالع : جازع ؛ يعني : شحاً يحمل على الحرص على المال ، والجزع على ذهابه ، وقيل : هو ألا يشبع ، كلما وجد شيئاً . . . بلعه ، ولا قرار له ، وخالع : شديد ؛ كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه من الخلق . انظر « الإتحاف » (١٩٤ / ٨) .

(٤) رواه أبو يعلى في « مسنده » (٦٦٤٦) ، وقريب منه عند الترمذي (٢٣١٦) .

رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم فقال : « أعطوني ردائي ، فوالذي نفسي بيده ؛ لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً . . لقسمته بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً » (١) .

وقال عمر رضي الله عنه : قسم رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم قسماً ، فقلت : غير هؤلاء كانوا أحق به منهم ، فقال : « إنهم يخبروني بين أن يسألوني بالفحش ، أو يخلوني ولست بباخل » (٢) .

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : دخل رجلان على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ، فسألاه ثمن بعير ، فأعطاهما دينارين ، فخرجا من عنده ، فلقىهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأثنيا وقالوا معروفاً ، وشكرا ما صنع بهما ، فدخل عمر على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ، فأخبره بما قالوا ، فقال صَلَّى الله عليه وسلم : « لكن فلان أعطيت ما بين عشرة إلى مئة ولم يقل ذلك ، إن أحدكم ليسألني فينطلق في مسأله متأبطها وهي نار » ، فقال عمر : فلم تعطهم ما هو نار ؟ فقال : « يابون إلا أن يسألوني ، ويأبى الله لي البخل » (٣) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم : « الجود من جود الله تعالى ، فجودوا . . يجود الله عليكم ، ألا إن الله عز وجل خلق

(١) رواه البخاري (٢٨٢١) .

(٢) رواه مسلم (١٠٥٦) .

(٣) رواه أبو يعلى في « مسنده » (١٣٢٧) ، وينحوه عند أحمد في « المسند » (٤ / ٣) .

الجُودَ فجعله في صورة رجلٍ ، وجعل أصله راسخاً في أصل شجرة طوبى ،
 وشد أغصانها بأغصان سِدرة المُنتهى ، ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا ،
 فمن تعلّق بغصنٍ منها.. أدخله الجنة ، ألا إنّ السّخاء من الإيمان ،
 والإيمان في الجنة ، وخلق البخل من مقتيه ، وجعل أصله راسخاً في أصل
 شجرة الزُّقوم ، ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا ؛ فمن تعلّق بغصنٍ منها..
 أدخله النَّارَ ، ألا إنّ البخل من الكفر ، والكفر في النار» (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « السّخاء شجرة تنبت في الجنة ؛ فلا يلجُ
 الجنة إلا سخيٌّ ، والبخل شجرة تنبت في النار ؛ فلا يلجُ النار إلا
 بخيلٌ » (٢) .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد بني لحيان :
 « مَنْ سيّدُكم يا بني لحيان ؟ » قالوا : سيّدنا جدُّ بن قيس ، إلا أنّه رجلٌ فيه
 بخلٌ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وأيُّ داءٍ أدوأ من البخلِ ، ولكن
 سيّدُكم عمرو بن الجموح » (٣) ، وفي رواية : أنّهم قالوا : سيّدنا جدُّ بن
 قيس ، فقال : « بَمَ تسودونه ؟ » ، قالوا : إنّهُ أكثرنا مالاً ، وإنّا على ذلك

(١) قال المتقي الهندي في « كثر العمال » (١٦٢١٧) : (رواه الخطيب في كتاب
 « البخلاء » عن ابن عباس ، وفي سنده أبو بكر النقاش ، صاحب مناكير) .

(٢) كذا هو عند صاحب « مسند الفردوس » (٣٥٤٣) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٥٨) ، ورواه من حديث جابر رضي الله عنه البخاري
 في « الأدب المفرد » (٢٩٦) بنحوه .

لنَزُّهُ بِالْبُخْلِ ، فَقَالَ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ ، لَيْسَ ذَلِكَ سَيِّدُكُمْ » ، قَالُوا : فَمَنْ سَيِّدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « سَيِّدُكُمْ بِشَرِّ بْنِ الْبِرَاءِ »^(١) .

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَخِيلَ فِي حَيَاتِهِ ، السَّخِيُّ عِنْدَ مَوْتِهِ »^(٢) .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « السَّخِيُّ الْجَهْلُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ »^(٣) .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَجْتَمِعُ الشَّخْ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبٍ عَبْدٍ »^(٤) .

وَقَالَ أَيْضاً : « خَصْلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ ؛ الْبُخْلُ ، وَسَوْءُ الْخُلُقِ »^(٥) .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٥ / ٢) ، والحاكم في « المستدرک » (٢١٩ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٥٩) ، ولنَزُّهُ : لنتهمه .

(٢) كذا هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٧) ، وأشار السيوطي كما في « فيض القدير » (٢٨٥ / ٢) إلى رواية الخطيب له في كتاب « البخلاء » ، وقال العلامة المناوي : (وهو مما يَبْغِضُ له الديلمي لعدم وقوفه له على سنده) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٦١) .

(٤) رواه النسائي (١٣ / ٦) .

(٥) رواه الترمذي (١٩٦٢) ، والخرائطي في « مساويء الأخلاق » (٣٧٧) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول قائلكم : الشحيح أعذر من الظالم ، وأي ظلم أظلم عند الله من الشح ؟ ! حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله ؛ لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل » (٢) .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالبيت ؛ فإذا رجل متعلقٌ بأستار الكعبة ، وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وما ذنبك ؟ صفه لي » قال : هو أعظم من أن أصفه لك ، قال : « ويحك ! ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ » ، قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال : « ويحك ! ذنبك أعظم أم الجبال ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : « فذنبك أعظم أم البحار ؟ » قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال : « فذنبك أعظم أم السماوات ؟ » قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال : « فذنبك أعظم أم العرش ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : « فذنبك أعظم أم الله ؟ » قال : بل الله أعظم وأعلى ،

(١) رواه هناد في « الزهد » (٦١٦) عن أبي جعفر الباقر مرسلًا ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٩٧ / ٨) : (ورواه الخطيب من حديث أبي عبد الرحمن السلمي موقوفاً) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٠٧٨) عن نافع قال : سمع ابن عمر رجلاً يقول : الشحيح أعذر من الظالم ، فقال ابن عمر : كذبت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشحيح لا يدخل الجنة » ، فليس أوله مرفوعاً .

قَالَ : « وَيَحَكَ ! فَصَفْ لِي ذَنْبَكَ » ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنِّي رَجُلٌ ذُو ثَرَةٍ مِنَ الْمَالِ ، وَإِنَّ السَّائِلَ لِيَأْتِيَنِي لِيَسْأَلَنِي ، فَكَأَنَّمَا يَسْتَقْبِلُنِي بِشَعْلَةٍ مِنْ نَارٍ .

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِلَيْكَ عَنِّي لَا تَحْرِقْنِي بِنَارِكَ ، فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْهُدَايَةِ وَالْكَرَامَةِ ؛ لَوْ قُمْتَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ثُمَّ صَلَّيْتَ أَلْفَ أَلْفِ عَامٍ ، وَبَكَيْتَ حَتَّى تَجْرِيَ مِنْ دُمُوعِكَ الْأَنْهَارُ ، وَتُسْقَى بِهَا الْأَشْجَارُ ، ثُمَّ مِتَّ وَأَنْتَ لَتِيمٌ . . . لِأَكْبَكَ اللَّهُ فِي النَّارِ ، وَيَحَكَ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْبَخْلَ كَفْرٌ ، وَأَنَّ الْكُفْرَ فِي النَّارِ ، وَيَحَكَ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ » ^(١) .



الآثار :

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى جَنَّةَ عَدْنٍ . . . قَالَ لَهَا : تَزِينِي ، فَتَزِينَتْ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : أَظْهَرِي أَنَّهُارَكَ ، فَأَظْهَرَتْ عَيْنَ السَّلْسَبِيلِ ، وَعَيْنَ الْكَافُورِ ، وَعَيْنَ التَّسْنِيمِ ، فَتَفَجَّرَ مِنْهَا فِي الْجَنَانِ أَنْهَارُ الْخَمْرِ ، وَأَنْهَارُ الْعَسَلِ وَاللَّبَنِ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : أَظْهَرِي سُرْرَكَ ، وَحِجَالَكَ ،

(١) رَوَاهُ الْفَاكْهِي فِي « أَخْبَارِ مَكَّة » (٢٧٨ / ٢) مِنْ حَدِيثِ الْهَيْكَلِ بْنِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأُورِدَهُ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ فِي « الْوَصَايَا » (ص ١٠٢) بِلَاغًا ، وَقَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ كَمَا فِي « الْإِتْحَافِ » (١٩٧ / ٨) : (الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ) ، وَانْظُرْ « أَسَدُ الْغَابَةِ » (٤٢٤ / ٥) ، وَ« الْإِصَابَةُ » (٥٨١ / ٣) .

وكراسيِّك ، وحُلِيِّك ، وحُلَلِّك ، وحوَرِ عَيْنِكَ ، فأظهرت ، فنظرَ إليها ، فقال : تكلمي ، فقالت : طوبى لمن دخلني ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أسكنك بخيلاً^(١) .

وقالت أمُّ البنين أختُ عمر بن عبد العزيز : (أفُّ للبخيل ، لو كان البخلُ قميصاً . ما لبسته ، ولو كان طريقاً . ما سلكته)^(٢) .
وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : (إنَّا لنجدُ بأموالنا ما يجدُ البخلاء ، ولكنَّا نتصبرُ)^(٣) .

وقال محمد بن المنكدر : (كان يُقال : إذا أراد الله بقوم شراً . أمرَ عليهم شرارَهُمْ ، وجعلَ أرزاقَهُمْ بأيدي بخلائِهِمْ)^(٤) .
وقال علي رضي الله عنه في خطبته : (إنَّه سيأتي على الناس زمانٌ عضوضٌ ، يعضُّ المؤمنُ على ما في يده ولم يؤمرْ بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾)^(٥) .

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٠ / ٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « لما خلق الله عز وجل جنة عدن . خلق فيها ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » ، وزاد أحد رواته : « ثم قالت : أنا حرام على كل بخيل ومراء » ، وقريب منه ولكن عن شعيب الجبائي عند الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٢) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٨) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٨) .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٧) .

(٥) رواه أبو داود (٣٣٨٢) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٨) .

وقال عبد الله بن عمرو : (الشحُّ أشدُّ من البخل ؛ لأنَّ الشحيحَ هو الذي يشحُّ على ما في يد غيره حتَّى يأخذه ، ويشحُّ بما في يديه فيحبسه ، والبخل هو الذي يبخل بما في يديه) (١) .

وقال الشعبي : (لا أدري أيُّهما أبعدُ غوراً في نار جهنم : البخلُ أو الكذبُ !) (٢) .

وقيل : وردَ على أنوشروانَ حكيمُ الهندِ وفيلسوفُ الرومِ ، فقال للهندي : تكلم ، فقال : خيرُ الناسِ مَنْ أَلْفِيَ سخياً ، وعندَ الغضبِ وقوراً ، وفي القولِ متأنياً ، وفي الرِّفعةِ متواضعاً ، وعلى كلِّ ذي رحمٍ مشفقاً ، فقال للرومي : تكلم ، فقال : مَنْ كانَ بخيلاً . . ورثَ عدوُّه ماله ، ومَنْ قلَّ شكرُهُ . . لم ينلِ النجَحَ ، وأهلُ الكذبِ مذمومون ، وأهلُ النميمةِ يموتون فقراء ، ومَنْ لم يرحَمْ . . سلطَ عليه مَنْ لا يرحمه (٣) .

وقال الضحاكُ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْتَقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ قال : (البخلُ ، أمسك اللهُ تعالى أيديهم عن النفقة في سبيلِ الله ؛ فهُمْ لا يبصرون الهدى) (٤) .

وقال كعبٌ : (ما مِنْ صباحٍ إلا وقد وُكِّلَ بِهِ ملكانِ يناديانِ : اللهمَّ ؛

(١) رواه الخرائطي في « مساوى الأخلاق » (٣٥٩) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوى الأخلاق » (٣٦٠) .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوى الأخلاق » (٣٦٤) .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوى الأخلاق » (٣٧٠) .

عَجَلٌ لِمَمْسِكٍ تَلْفًا ، وَلِمَنْفِقٍ خَلْفًا ^(١) .

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا وَقَدْ وَصَفَ رَجُلًا فَقَالَ : (لَقَدْ صَغُرَ فُلَانٌ فِي عَيْنِي ؛ لِعَظَمِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَأَنَّمَا السَّائِلُ إِذَا رَأَاهُ . . . مَلِكُ الْمَوْتِ إِذَا أَتَاهُ) ^(٢) .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : (لَا أَرَى أَنْ أَعْدَلَ بِخِيَلًا ؛ لِأَنَّهُ يَحْمِلُهُ الْبَخْلُ عَلَى الْإِسْتِقْصَاءِ ، فَيَأْخُذُ فَوْقَ حَقِّهِ ؛ خِيفَةً مِنْ أَنْ يُغْبَنَ ، فَمَنْ كَانَ هَكَذَا . . . لَا يَكُونُ مَأْمُونًا الْأَمَانَةِ) ^(٣) .

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (مَا اسْتَقْصَى كَرِيمٌ قَطُّ حَقَّهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾) ^(٤) .

وَقَالَ الْجَا حِظُّ : (مَا بَقِيَ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا ثَلَاثٌ : ذَمُّ الْبَخْلَاءِ ، وَأَكْلُ الْقَدِيدِ ، وَحَكُّ الْجَرْبِ) .

وَقَالَ بَشَرُ بْنُ الْحَارِثِ : (الْبَخِيلُ لَا غِيَةَ لَهُ ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٨٤) ، وليس فيه : (ولمنفق خلفاً) ،

ورواه مرفوعاً البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٦٢٤) عن أبي الحسن القرشي عن رجل من الأنصار بنحوه .

(٣) بنحوه أورده صاحب « القوت » (٢/٢٦٤) ، ونقله ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢٧/٣٥٥) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/٢٦٤) ، ومختصراً عند ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢٧/٣٥٥) ورواه الدينوري ضمن خبر عن سفيان (ص ٩) .

وسلم : « إنك لبخيل » ، ومُدِحَتِ امرأةٌ عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فقالوا : صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ ، إلا أن فيها بخلًا ، قال : « فما خيرُها إذا ؟ ! » (١) .
وقال بشرٌ أيضاً : (النظرُ إلى البخيلِ يقسِّي القلبَ) ، و (بقاءُ البخلاءِ كربٌ على قلوبِ المؤمنين) (٢) .

وقال يحيى بنُ معاذٍ : (يأبى القلبُ للأسخياءِ إلا حبًّا ولو كانوا فجَّارًا ، وللبخلاءِ إلا بغضًا وإن كانوا أبرارًا) (٣) .

وقال ابنُ المعتزِّ : (أبخلُ الناسِ بماله أجودُهُم بعرضِهِ) (٤) .

ولقي يحيى بنُ زكريا عليهما السلامُ إبليسَ في صورته ، فقال له : يا إبليسُ ؛ أخبرني بأحبِّ الناسِ إليك وأبغضِ الناسِ إليك ، قال : أحبُّ الناسِ إليَّ المؤمنُ البخيلُ ، وأبغضُ الناسِ إليَّ الفاسقُ السخيُّ ، قال له : لم ؟ قال : لأنَّ البخيلَ قد كفاني بخلُهُ ، والفاسقُ السخيُّ أتخوَّفُ أن يطلعَ اللهُ عليه في سخائه فيقبلُهُ ، ثمَّ ولَّى وهو يقولُ : لولا أنَّكَ يحيى . . لما أخبرتُكَ (٥) .



(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٤١٠) .

(٢) رواهما أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٠ / ٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤١٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦٦ / ١٠) .

(٤) أورده الثعالبي في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٤٠) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠٤ / ٦٤) .

حكايات البخلاء

قيل : كَانَ بالبصرة رجلٌ موسرٌ بخيلٌ ، فدعاه بعضُ جيرانه وقَدَّمَ إليه طباهجةً بيض^(١) ، فأكلَ منه فأكثرَ ، وجعلَ يشربُ الماءَ ، فانتفخَ بطنُهُ ، ونزلَ به الكربُ والموتُ ، فجعلَ يتلوَّى ، فلمَّا أجهدهُ الأمرُ . . وصفَ حالَهُ للطبيبِ ، فقالَ : لا بأسَ عليك ، تقياً ما أكلتَ ، فقالَ : هاهُ ، أتقياً طباهجةً بيضٍ ؟! الموتُ - واللهِ - ولا أتقياً طباهجةً بيضٍ .

وقيلَ : أقبلَ أعرابيٌّ يطلبُ رجلاً وبينَ يديه تينٌ ، فغطَّى التينَ بكسائه ، فجلسَ الأعرابيُّ ، فقالَ لَهُ الرجلُ : هلْ تحسنُ مِنَ القرآنِ شيئاً ؟ قالَ : نعمُ ، فقرأَ : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ، فقالَ : وأينَ التينُ ؟ قالَ : هوَ تحتَ كسائكِ .

ودعا بعضُهُمُ أخاهُ ، ولمْ يطعمهُ شيئاً إلى العَصْرِ ، حتَّى اشتدَّ جوعُهُ ، وأخذَهُ مثلُ الجنونِ ، فأخذَ صاحبُ البيتِ العودَ وقالَ لَهُ : بحياتي ؛ أيُّ صوتٍ تشتهي أنْ أسمعَكَ ؟ قالَ : صوتَ المِقلَى .

ويُحكى أنَّ محمدَ بنَ يحيى بنِ خالدٍ بنِ برمكٍ كانَ بخيلاً قبيحَ البخلِ ، فسُئِلَ نسيبٌ لَهُ كانَ يعرفُهُ عنه ، فقيلَ لَهُ : صفْ لي مائدَتَهُ ، فقالَ : هيَ فِترٌ

(١) طباهجة : معرَّب تباهجه ، لفظة فارسية ، وهو الكباب ، اللحم المدقوق دقاً ناعماً ، ويطلق أيضاً على العجة .

في فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش ، قيل : فمن يحضرها ؟
 قال : الكرام الكاتبون ، قيل : فما يأكل معه أحد ؟ قال : بلى ، الذباب ،
 فقيل : سوءة له ، أنت خاصر به وثوبك مخرق ؟! فقال : إني - والله -
 ما أقدر على إبرة أخيطه بها ، ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى التوبة مملوءاً
 إبراً ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ، ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يضمنان
 عنه إبرة ، ويسألونه إعارتهم إيّاها ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من
 دُبر . . ما فعل .

ويقال : كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقرم إليه ،
 فإذا قرم إليه . . أرسل غلامه فاشترى له رأساً ، فأكله ، فقيل له : نراك
 لا تأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء ، فلم تختار ذلك ؟ قال : نعم ،
 الرأس أعرف سعره ، فأمن خيانة الغلام ، ولا يستطيع أن يغبنني فيه وليس
 بلحم يطبخه الغلام ، فيقدر أن يأكل منه ، إن مس عينا أو أذناً أو خدّاً . .
 وقفت على ذلك ، وآكل منه ألواناً ، فأكل عينه لونا ، وأذنه لونا ، ولسانه
 لونا ، وغلصمته لونا ، ودماغه لونا ، وأكفى مؤنة طبخه ، فقد اجتمعت لي
 فيه مرافق^(١) .

وخرج يوماً يريد الخليفة المهدي ، فقالت له امرأة من أهله : مالي
 عليك إن رجعت بالجائزة ؟ قال : إن أعطيت مئة ألف . . أعطيتك درهماً ،

(١) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٥ / ٥٧) .

فأعطيني ستين ألفاً ، فأعطاهما أربعة دوانيق^(١) .

واشترى مرةً لحماً بدرهم ، فدعاه صديق له ، فردَّ اللحم إلى القصاب
بنقصانٍ دانقٍ وقال : أكره الإسراف^(٢) .

وكان للأعمش جارٌّ لا يزال يعرضُ عليه المنزلُ فيقولُ : لو دخلتَ
فأكلتَ كِسْرةً وملحاً ، فيأبى عليه الأعمشُ ، فعرضَ عليه ذاتَ يومٍ ، فوافقَ
جوعَ الأعمشِ ، فقال : مُرُّ بنا ، فدخلَ منزلهُ ، فقرَّبَ إليه كِسْرةً وملحاً ، إذ
سألَ سائلٌ ، فقال له ربُّ المنزلِ : بُوركَ فيكَ ، فأعادَ عليه المسألةَ ، فقالَ
له : بُوركَ فيكَ ، فلما سألَ الثالثةَ . . قالَ له : اذهب وإلا واللهِ . . خرجتُ
إليك بالعصا ، فناداهُ الأعمشُ وقالَ : اذهب ويحك ! فلا واللهِ ؛ ما رأيتُ
أحداً أصدقَ مواعيدَ منه ، هوَ منذُ مدةٍ يعدُّني بكِسْرةٍ وملحٍ ، فلا واللهِ ؛
ما زادني عليهما .



(١) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٦ / ٥٧) .

(٢) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٦ / ٥٧) .

بيان الإيثار وفضله

اعلم : أنَّ السخاءَ والبخلَ كلُّ واحدٍ منهما ينقسمُ إلى درجاتٍ ، فأرفعُ درجاتِ السخاءِ الإيثارُ ، وهو أنْ يجودَ بالمالِ معَ الحاجةِ إليه ، وإنَّما السخاءُ عبارةٌ عنْ بذلِ ما لا يحتاجُ إليه لمحتاجٍ أو لغيرِ محتاجٍ ، والبذلُ معَ الحاجةِ أشدُّ .

وكما أنَّ السخاوةَ قد تنتهي إلى أنْ يسخوَ الإنسانُ على غيره معَ الاحتياجِ . . فالبخلُ قد ينتهي إلى أنْ يبخلَ على نفسه معَ الحاجةِ ، فكم منْ بخيلٍ يمسكُ المالَ ويمرضُ فلا يتداوى ، ويشتهي الشهوةَ فلا يمنعه منها إلا البخلُ بالثمنِ ، ولو وجدَها مجاناً . . لأكلها ، فهذا يبخلُ على نفسه معَ الحاجةِ ، وذلك يؤثرُ على نفسه غيره معَ أنَّه محتاجٌ إليه ، فانظرْ ما بينَ الرجلينِ ؛ فإنَّ الأخلاقَ عطايا يضعها اللهُ تعالى حيثُ يشاءُ ؟

وليسَ بعدَ الإيثارِ درجةٌ في السخاءِ ، وقد أثنى اللهُ على الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهم به فقالَ تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أَيُّما امرئٍ اشتهى شهوةً فردَّ شهوتهَ وآثرَ على نفسه . . غُفِرَ لَهُ » (١) .

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١٢٧/٥) ، ورواه أيضاً ضمن قصة ابن عمر رضي الله =

وقالت عائشة رضي الله عنها : (ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا . . لشبعنا ، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا)^(١) .

ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفٌ ، فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجلٌ من الأنصار ، فذهب به إلى أهله فوضع بين يديه طعاماً ، وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمدُّ يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيفُ الطعام ، فلما أصبح . . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد عجب الله عزَّ وجلَّ من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم » ، ونزلت : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾^(٢) .

فالسخاءُ خلقٌ من أخلاقِ الله تعالى^(٣) ، والإيثارُ أعلى درجاتِ السخاءِ ،

- = عنهما المتقدمة في اشتهاه السمكة الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٢ / ٣١) ، وسياق المصنف عنده .
- (١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٩) ، وعند البخاري (٥٣٧٤) ، ومسلم (٥٤١٦) من حديثها رضي الله عنها : (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البرِّ ثلاث ليال تباعاً حتى قبض) ، وللبیهقي في « الشعب » (١٣٩٦) بسنده عن بشر عنها : (لو شئنا أن نشبع . . شبعنا ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يؤثر على نفسه) ، وتقدم بعضه .
- (٢) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٩) ، ورواه البخاري (٣٧٩٨) ، ومسلم (٢٠٥٤) .
- (٣) روى أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٧٨ / ١) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه مرفوعاً : « السخاء خلق الله الأعظم » .

وكان ذلك من دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى سمّاه الله تعالى عظيماً ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وقال سهل بن عبد الله التستري : قال موسى عليه السلام : يا رب ؛ أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمتيه ، وقال : يا موسى ؛ إِنَّكَ لَن تَطِيقَ ذَلِكَ ، ولكن أريك منزلة من منازل جليّة عظيمة ، فضلّته بها عليك وعلى جميع خلقي ، قال : فكشف له عن ملكوت السماء ، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله عز وجل ، فقال : يا رب ؛ بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال : بخُلُقٍ اختصصته به من بينهم ، وهو الإيثار ، يا موسى ؛ لا يأتيني أحدٌ منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحيت من محاسنّه ، وبوّأته من جنتي حيث يشاء (٢) .

وقيل : خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم وفيها غلام أسود يعمل فيها ؛ إذ أتى الغلام بقوته ، ودخل الحائط كلب ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه ، فقال : يا غلام ؛ كم قوتك كل يوم ؟ قال : ما رأيت ، قال : فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال : ما هي بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً ، فكرهت ردّه ، قال : فما أنت صانع اليوم ؟ قال : أطوي يومي هذا ، فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السخاء ؟ ! إن

(١) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥٢) نقلاً عن الجنيّد .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥٤) .

هذا لأسخى مني ، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات ، فأعتق الغلام ، ووهبه منه^(١) .

وقال عمر رضي الله عنه : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : إن أخي فلاناً أحوج مني إليه ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به الواحد إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ، حتى رجع إلى الأول^(٢) .

وبات علي رضي الله عنه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : إنني آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر ، فأياكما يؤثر صاحبه بالحياة ، فاختارا كلاهما الحياة ؟ فأوحى الله عز وجل إليهما : أفلا كنتم مثل علي بن أبي طالب ؟! آخيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فبات على فراشه يفديه بنفسه ، ويؤثره بالحياة ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه ، فكان جبريل عليه السلام عند رأسه وميكائيل عند رجله ، وجبريل عليه السلام يقول : بخ بخ ، من مثلك يا بن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة ؟! فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(٣) .

(١) الرسالة القشيرية (ص ٤٢١) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » (١٨٤ / ٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، والبيهقي في « الشعب » (٣٢٠٤) .

(٣) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥٠) ، والثعلبي في « تفسيره » (١٢٥ / ٢) .

وعن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيفٌ وثلاثون نفساً ، وكانوا في قرية بقرب الرّي ، ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم ، فكسروا الرغفان وأطفؤوا السراج ، وجلسوا للطعام ، فلمّا رُفِعَ . . فإذا الطعام بحالِهِ ، ولم يأكل واحدٌ منهم شيئاً ؛ إيثاراً لصاحبه على نفسه^(١) .

وروي أن شعبة جاءه سائلٌ ولم يكن عنده شيءٌ ، فنزع خشبةً من سقف بيته فأعطاه ، ثمّ اعتذر إليه^(٢) .

وقال حذيفة العدوي : انطلقت يومَ اليرموكٍ أطلبُ ابنَ عمِّ لي ، ومعِي شيءٌ من ماءٍ ، وأنا أقولُ : إن كان بهِ رُمقٌ . . سقيتهُ ، ومسحتُ بهِ وجههُ ، فإذا أنا بهِ ، فقلتُ : أسقيكَ ؟ فأشارَ أيّ : نعم ، فإذا رجلٌ يقولُ : آه ، فأشارَ ابنُ عمِّي أنْ انطلقْ بهِ إليه ، قالَ : فأتيتُهُ ؛ فإذا هوَ هشامُ بنُ العاصِ ، فقلتُ : أسقيكَ ؟ فسمعَ آخرَ يقولُ : آه ، فأشارَ هشامٌ أنْ انطلقْ بهِ إليه ، فجنّتهُ ؛ فإذا هوَ قد ماتَ ، فرجعتُ إلى هشامٍ ؛ فإذا هوَ قد ماتَ ، فرجعتُ إلى ابنِ عمِّي ؛ فإذا هوَ قد ماتَ ، رحمةُ اللهِ عليهمُ أجمعين^(٣) .

وقال عباسُ بنُ دهقانَ : ما خرجَ أحدٌ من الدنيا كما دخلها إلا بشرُ بنُ

(١) أوردته الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٨) .

(٢) أوردته الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٨) .

(٣) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٨) ، وقد رواه ابن المبارك في

« الزهد » (٥٢٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٢٠٨) .

الحارث ، فإنه أتاه رجلٌ في مرضه فشكا إليه الحاجة ، فنزع قميصه فأعطاه إياه ، واستعار ثوباً فمات فيه^(١) .

وعن بعض الصوفية قال : كنا بطرسوس ، فاجتمعنا جماعة ، وخرجنا إلى باب الجهاد ، فتبعنا كلبٌ من البلد ، فلمّا بلغنا باب الجهاد . . إذا نحنُ بدابة ميته فصعدنا إلى موضع خالٍ وقعدنا ، فلمّا نظر الكلبُ إلى الميته . . رجع إلى البلد ، ثمّ عاد بعد ساعة ومعه مقدارُ عشرين كلباً ، فجاء إلى تلك الميته وقعد ناحية ووقعت الكلابُ في الميته ، فما زالت تأكلها ، وذلك الكلبُ قاعدٌ ينظرُ إليها حتّى أكلت الميته وبقيت العظام ، ورجعت الكلابُ إلى البلد ، فقام ذلك الكلبُ وجاء إلى تلك العظام فأكل ما بقي عليها قليلاً ، ثمّ انصرف^(٢) .

وقد ذكرنا جملةً من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد ، فلا حاجة إلى الإعادة ههنا ، وبالله التوفيق ، وعليه التوكّل فيما يرضيه عزّ وجلّ .



(١) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥١) وفيه : (عياش) بدل (عباس) وهو موافق لما في (ب) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥٤) .

بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول : قد عُرِفَ بشواهدِ الشرع أنَّ البخلَ مِنَ المهلكاتِ ، ولكنَّ ما حدُّ البخلِ ؟ وبماذا يصيرُ الإنسانُ بخيلاً ؟

وما مِنْ إنسانٍ إلا وهو يرى نفسه سخياً ، وربما يراه غيره بخيلاً ، وقد يصدرُ فعلٌ مِنْ إنسانٍ ، فيختلفُ فيه الناسُ ؛ فيقولُ قومٌ : هذا بخلٌ ، ويقولُ آخرونَ : ليسَ هذا مِنَ البخلِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلا ويجدُ في نفسه حباً للمالِ ، ولأجلِهِ يحفظُ المالَ ويمسكُهُ ، فإنَّ كانَ يصيرُ بإمساكِ المالِ بخيلاً .. فإذا لا ينفكُ أحدٌ عنِ البخلِ ، وإذا كانَ الإمساكُ مطلقاً لا يوجبُ البخلَ ولا معنى للبخلِ إلا الإمساكُ .. فما البخلُ الذي يوجبُ الهلاكَ ؟

وما حدُّ السخاءِ الذي يستحقُّ به العبدُ صفةَ السخاوةِ وثوابها ؟

فنعقولُ : قد قالَ قائلونَ : حدُّ البخلِ : منعُ الواجبِ ؛ فكلُّ مَنْ أَدَّى ما يجبُ عليه .. فليسَ ببخيلٍ ، وهذا غيرُ كافٍ ، فإنَّ مَنْ يردُّ اللحمَ مثلاً إلى القصابِ والخبزَ إلى الخبازِ بنقصانِ حبةٍ أو نصفِ حبةٍ .. فإنه يُعدُّ بخيلاً بالاتفاقِ ، وكذلك مَنْ يسلِّمُ إلى عياله القدرَ الذي يفرضُهُ القاضي ، ثمَّ يضايقُهُمْ في لقمةٍ زادوا عليه أو ثمرةٍ أكلوها مِنْ ماله .. يُعدُّ بخيلاً ، ومَنْ كانَ بينَ يديه رغيْفٌ ، فحضرَ مَنْ يظنُّ أنَّه يأكلُ معه ، فأخفاه .. عُدَّ بخيلاً .

وقال قائلون : البخيلُ هو الذي يستصعبُ العطيةَ ، وهو أيضاً قاصرٌ ، فإنه إن أُريدَ به أنه يستصعبُ كلَّ عطيةٍ . . فكم من بخيلٍ لا يستصعبُ العطيةَ القليلةُ ؛ كالحبة وما يقربُ منها ، ويستصعبُ ما فوقَ ذلكَ ، وإن أُريدَ به أنه يستصعبُ بعضَ العطايا . . فما من جوادٍ إلا وقد يستصعبُ بعضَ العطايا ، وهو ما يستغرقُ جميعَ ماله ، أو المالَ العظيمَ ، وهذا لا يوجبُ الحكمَ بالبخلِ .

وكذلك تكلموا في الجودِ ، فقليلٌ : الجودُ عطاءٌ بلا منٍّ ، وإسعافٌ من غيرِ رويّةٍ .

وقيلَ : الجودُ عطاءٌ من غيرِ مسألةٍ على رؤيةٍ التقليلِ .

وقيلَ : الجودُ السرورُ بالسائلِ ، والفرحُ بالعطاءِ لما أمكنَ .

وقيلَ : الجودُ عطاءٌ على رؤيةٍ أن المالَ لله تعالى والعبدُ لله تعالى ، فيعطي عبدُ الله مالَ الله على غيرِ رؤيةٍ الفقرِ .

وقيلَ : من أعطى البعضَ وأبقى البعضَ . . فهو صاحبُ سخاءٍ ، ومن بذلَ الأكثرَ وأبقى لنفسه شيئاً . . فهو صاحبُ جودٍ ، ومن قاسى الضرَّ وآثرَ غيره بالبلغة . . فهو صاحبُ إيثارٍ ، ومن لم يبذلْ شيئاً . . فهو صاحبُ بخلٍ .



وجملةُ هذه الكلماتِ غيرُ محيطةٍ بحقيقةِ البخلِ والجودِ ، بل نقولُ :

المالُ خُلِقَ لحكمةٍ ومقصودٍ ، وهو صلاحُهُ لحاجاتِ الخلقِ ، ويمكنُ إمساكُهُ عنِ الصرفِ إلى ما خُلِقَ للصرفِ إليه ، ويمكنُ بذلُهُ بالصرفِ إلى ما لا يحسنُ الصرفُ إليه ، ويمكنُ التصرفُ فيه بالعدلِ ، وهو أن يُحفظَ حيثُ يجبُ الحفظُ ، ويُبدَلَ حيثُ يجبُ البذلُ ، فالإمساكُ حيثُ يجبُ البذلُ ، والبذلُ حيثُ يجبُ الإمساكُ تَبْذِيرٌ ، وبينهُما وسطٌ هو المَحْمودُ ، وينبغي أن يكونَ السخاءُ والجودُ عبارةً عنه ؛ إذ لم يُؤمَرِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلا بالسخاءِ ، وقد قيلَ له : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ .

فالجودُ وسطٌ بينَ الإسرافِ والإقتارِ ، وبينَ البسطِ والقبضِ ، وهو أن يُقدَّرَ بذلُهُ وإمساكُهُ بقدرِ الواجبِ ، ولا يكفي أن يفعلَ ذلكَ بجوارحِهِ ما لم يكنْ قلبُهُ طيباً به غيرَ منازعٍ له فيه ، فإنْ بذَلَ في محلٍّ وجوبِ البذلِ ونفسُهُ تنازعُهُ وهو يصابرُها . . فهو متسخٌّ وليس بسخيٍّ ، بل ينبغي ألا يكونَ لقلْبِهِ علاقةٌ معَ المالِ إلا منْ حيثُ يُرادُ المالُ له ، وهو صرفُهُ إلى ما يجبُ صرفُهُ إليه .



فإن قلتَ : فقد صارَ هذا موقوفاً على معرفةِ الواجبِ ، فما الذي يجبُ بذلُهُ ؟

فأقولُ : إنَّ الواجبَ قسمانِ ؛ واجبٌ بالشرعِ ، وواجبٌ بالمروءةِ والعادةِ ، والسخيُّ هو الذي لا يمنعُ واجبَ الشرعِ ولا واجبَ المروءةِ ، فإن منعَ

واحدًا منهما . . فهو بخيلٌ ، ولكنَّ الذي يمنعُ واجبُ الشرعِ أبخلُ ؛ كالذي يمنعُ أداءَ الزكاةِ ، ويمنعُ عياله وأهلهُ النفقةَ ، أو يؤدِّيها ولكنَّ يشقُّ عليه ، فإنه بخيلٌ بالطبع ، وإنَّما يتسَخَّى بالتكَلُّفِ ، أو كالذي يَتِمَّمُ الخبيثَ مِنْ ماله ولا يطيبُ له أن يعطيَ مِنْ أطيبِ ماله ، أو مِنْ وسطِهِ ؛ فهذا كلُّه بخلٌ .

وأما واجبُ المروءةِ . . فهو تركُ المضايقةِ والاستقصاءِ في المحقَّراتِ ، فإنَّ ذلكَ مستقبحٌ ، واستقباحُ ذلكَ يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فمَنْ كَثُرَ مالهُ . . يُستقبحُ منه ما لا يُستقبحُ مِنَ الفقيرِ مِنَ المضايقةِ ، ويُستقبحُ مِنَ الرجلِ المضايقةُ معَ أهلهِ وأقاربهِ ومماليكه ما لا يُستقبحُ معَ الأجانبِ ، ويُستقبحُ معَ الجارِ ما لا يُستقبحُ معَ البعيدِ ، ويُستقبحُ في الضيافةِ مِنَ المضايقةِ ما لا يُستقبحُ أكثرُ منه^(١) في المبايعةِ والمعاملةِ ، فيختلفُ ذلكَ بما فيه مِنَ المضايقةِ في ضيافةٍ أو معاملةٍ ، وبما بهِ المضايقةُ مِنْ طعامٍ أو ثوبٍ ؛ إذ يُستقبحُ في الأُطعمةِ ما لا يُستقبحُ في غيرها ، ويُستقبحُ في شراءِ الكفنِ مثلاً أو شراءِ الأُضحيةِ أو شراءِ خبزِ الصدقةِ ما لا يُستقبحُ في غيرهِ مِنَ المضايقةِ ، وكذلكَ يختلفُ بمنْ معه المضايقةُ ؛ مِنْ صديقٍ ، أو أخٍ ، أو قريبٍ ، أو زوجةٍ ، أو ولدٍ ، أو أجنبيٍّ ، وكذلكَ يختلفُ بمنْ منه المضايقةُ ؛ مِنْ صبيٍّ وامرأةٍ ، وشيخٍ وشابٍّ ، وعالمٍ وجاهلٍ ، وموسرٍ وفقيرٍ .

فالبخيلُ : هو الذي يمنعُ حيثُ ينبغي ألا يمنعَ ؛ إمَّا بحكمِ الشرعِ ، وإمَّا

(١) في (أ ، ب ، د) : (أقل منه) بدل (أكثر منه) .

بحكم المروءة ، وذلك لا يمكن التنصيص على مقدارِهِ .

ولعلَّ حدَّ البخلِ : هو إمساكُ المالِ عن غرضٍ ، ذلك الغرضُ هو أهمُّ من حفظِ المالِ ؛ فإنَّ صيانةَ الدينِ أهمُّ من حفظِ المالِ ، فمانعُ الزكاةِ والنفقةِ بخيلٌ ، وصيانةُ المروءةِ أهمُّ من حفظِ المالِ ، والمضايقُ في الدقائقِ مع مَنْ لا تحسنُ المضايقةَ معه هاتكُ سترِ المروءةِ لحبِّ المالِ ؛ فهو بخيلٌ .

وتبقى درجةٌ أخرى ، وهو أن يكونَ الرجلُ ممَّن يؤدي الواجبَ ، ويحفظُ المروءةَ ، ولكنَّ معه مالٌ كثيرٌ قد جمعه ليس يصرفهُ إلى الصدقاتِ وإلى المحتاجينَ ، فقد تقابلَ غرضُ حفظِ المالِ ليكونَ له عُدَّةٌ على نوائبِ الزمانِ وغرضُ الثوابِ ليكونَ رافعاً لدرجاتِهِ في الآخرةِ ، فإمساكُ المالِ عن هذا الغرضِ بخلٌ عندَ الأكياسِ ، وليسَ ببخلٍ عندَ عوامِّ الخلقِ ؛ وذلكَ لأنَّ نظرَ العوامِّ كالمقصورِ على حظوظِ الدنيا ، فيرونَ إمساكَهُ لدفعِ نوائبِ الزمانِ مهمّاً ، وربّما يظهرُ عندَ العوامِّ أيضاً سمةُ البخلِ عليه إن كانَ في جواره محتاجٌ ، فمنعهُ وقالَ : (قد أديتُ الزكاةَ الواجبةَ ، وليسَ عليَّ غيرها) ، ويختلفُ استقباحُ ذلكَ باختلافِ مقدارِ مالِهِ ، وباختلافِ شدَّةِ حاجةِ المحتاجِ وصلاحيهِ ودينهِ واستحقاقِهِ ، فمن أدنى واجبِ الشرعِ وواجبِ المروءةِ اللائقةِ به . . فقد تبرّأ من البخلِ .

نعم ، لا يتصفُ بصفةِ الجودِ والسخاءِ ما لم يبدلْ زيادةً على ذلكَ لطلبِ الفضيلةِ ونيلِ الدرجاتِ ، فإذا اتسعتْ نفسه لبذلِ المالِ حيثُ لا يوجبُهُ الشرعُ

ولا تتوجَّه إليه الملامة في العادة.. فهو جوادٌ بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير ، ودرجات ذلك لا تنحصر ، وبعض الناس أجود من بعض .

واصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ، ولا يكون عن طمع ، ورجاء خدمة أو مكافأة ، أو شكر أو ثناء ، فإن من طمع في الشكر والثناء.. فهو بياع وليس بجواد ، فإنه يشتري المدح بماله ، والمدح لذيد ، وهو مقصود في نفسه ، والجود هو بذل الشيء من غير عوض ، هذا هو الحقيقة^(١) ، ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى .

فأما الآدمي.. فاسم الجود عليه مجاز ، إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض ، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود ، وتطهير النفس عن رذالة البخل.. فيسمى جواداً ، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً ، أو من ملامة الخلق ، أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه.. فكل ذلك ليس من الجود ؛ لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهي أعواض معجلة له عليه ، فهو معترض لا جواد ، كما روي عن بعض المتعبدين أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه ، فقالت : هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها : سلي عما شئت ، وأشاروا إلى حبان بن هلال ، فقالت : ما السخاء عندكم ؟ قالوا : العطاء ،

(١) أي : الحقيقة اللغوية . « إتحاف » (٢٠٦ / ٨) .

والبذل ، والإيثار ، قالت : هذا السخاء في الدنيا ، فما السخاء في الدين ؟ قالوا : أن نعبد الله سبحانه سخيةً بها أنفسنا غير مكرهة ، قالت : فتريدون على ذلك أجراً ؟ قالوا : نعم ، قالت : ولم ؟ قالوا : لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها ، قالت : سبحان الله ! فإذا أعطيتُم واحدةً وأخذتُم عشرةً . . فبأي شيء تسخيتُم عليه ؟ !

قالوا لها : فما السخاء عندك يرحمك الله ؟ قالت : السخاء عندي : أن تعبدوا الله تعالى متنعمين متلذذين بطاعته ، غير كارهين ، لا تريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء ؟ ! إن هذا في الدنيا لقبيح .

وقالت بعض المتعبدات : أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط ؟ قيل : ففيم ؟ قالت : السخاء عندي في المهج .

وقال المحاسبي : (السخاء في الدين : أن تسخو نفسك بتلفها لله عز وجل ، ويسخو قلبك ببذل مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه ، لا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا أجلاً ، وإن كنت غير مستغنٍ عن الثواب ، ولكن يغلب على قلبك حسن كمال السخاء ، بترك الاختيار على الله تعالى ، حتى يكون مولاك هو الذي يفعل بك ما لا تحسن اختياره لنفسك) .



بيان علاج البخل

اعلم : أن البخل سببٌ حبِّ المالِ .

ولحبِّ المالِ سببان :

أحدهما : حبُّ الشهواتِ التي لا وصولَ إليها إلا بالمالِ مع طولِ الأملِ ، فإنَّ الإنسانَ لو علمَ أنَّه يموتُ بعدَ يومٍ . . ربَّما كانَ لا يبخلُ بماله ؛ إذ القدرُ الذي يحتاجُ إليه في يومٍ أو في شهرٍ أو في سنةٍ قريبٌ ، وإن كانَ قصيرَ الأملِ ولكنَّ كانَ له أولادٌ . . قامَ الولدُ مقامَ طولِ الأملِ ، فإنَّه يقدرُ بقاءَهُم كبقاءِ نفسه ، فيمسكُ لأجلِهِم ؛ ولذلك قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « الولدُ مبخلٌ مجبنةٌ مجهلةٌ »^(١) ، فإذا انضافَ إلى ذلكَ خوفُ الفقرِ وقلةُ الثقةِ بمجيءِ الرزقِ . . قويَ البخلُ لا محالةً .

السببُ الثاني : أن يحبَّ عينَ المالِ ، فمنَ الناسِ مَنْ مَعَهُ ما يكفيهِ لبقيةِ عمرِهِ إذا اقتصرَ على ما جرتَ به عادتهُ بنفقتهِ وتفضلُ آلافٌ ، وهو شيخٌ لا ولدَ له ، ومَعَهُ أموالٌ كثيرةٌ ، ولا تسمعُ نفسهُ بإخراجِ الزكاةِ ، ولا بمداواةِ نفسهِ عندَ المرضِ ، بل صارَ محبًّا للدنانيرِ عاشقاً لها ، يلتذُّ بوجودِها في يدهِ وبقدرتهِ عليها ، فيكنزُها تحتَ الأرضِ ، وهو يعلمُ أنَّه

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٦٦) وليس فيه : (مجهلة) ، وهي عند عبد الرزاق في «المصنف» (١٤٠/١١) ، والطبراني في «الكبير» (٢٤١/٢٤) ، والحاكم في «المستدرک» (٢٩٦/٣) .

يموت فتضيعُ أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمحُ نفسه بأن يأكل أو يتصدقَ منها بحبة واحدة !

وهذا مرضٌ للقلبِ عظيمٌ عسيرُ العلاجِ ، لا سيما في كبر السنِّ ، وهو مرضٌ مزمنٌ لا يُرجىُ علاجهُ ، ومثالُ صاحبه مثالُ رجلٍ عشقَ شخصاً ، فأحبَّ رسولهَ لنفسِهِ ، ثمَّ نسيَ محبوبه واشتغلَ برسوله ، فإنَّ الدنانيرَ رسولٌ مبلِّغٌ إلى الحاجاتِ ، فصارت محبوبهً لذلك ؛ لأنَّ الموصولَ إلى اللذيذِ لذيدٌ ، ثمَّ قد ينسى الحاجاتِ ، ويصيرُ الذهبُ عنده كأنَّهُ محبوبٌ في نفسه ، وهو غايةُ الضلالِ ، بل مَنْ رأى بينه وبين الحجرِ فرقاً . فهو لجهله ، إلا من حيث قضاء حاجته به ، فالفاضلُ عن قدر حاجته والحجرُ بمثابة واحدة .



فهذه أسبابُ حبِّ المالِ ، وإنَّما علاجُ كلِّ علَّةٍ بمضادةٍ سببها ، فيعالجُ حبَّ الشهواتِ بالقناعة باليسيرِ ، وبالصبرِ ، ويعالجُ طولَ الأملِ بكثرة ذكرِ الموتِ ، والنظرِ في موتِ الأقرانِ ، وطولِ تعبُّهم في جمعِ المالِ ، وضياعِهِ بعدهم ، ويعالجُ التفاتَ القلبِ إلى الولدِ بأنَّ الذي خلقه خلقَ معه رزقه ، وكم من ولدٍ لم يرث من أبيه شيئاً وحاله أحسنُ ممَّن ورث ، وبأنَّ يعلمَ أنَّه بجمعِ المالِ لولده يريدُ أن يترك ولده بخيرٍ وينقلب هو إلى شرٍّ ، وأنَّ ولده إن كان تقياً صالحاً . فيكفيه الله ، وإن كان فاسقاً . فيستعينُ بماله على المعصية ، وترجعُ مظلُمتهُ إليه .

ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء ، وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم .

ومن الأدوية النافعة : كثرة التأمل في أحوال البخلاء ، ونفرة الطبع عنهم ، واستقباحهم لهم ، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ، ويستقل كل بخيل من أصحابه ، فيعلم أنه مستقل ومستقدر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه .

ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال ؛ وأنه لماذا خلق ، فلا يحفظ من المال إلا قدر حاجته ، والباقي يدخره لنفسه ؛ بأن يحصل له ثواب بذله .

فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة . هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً ، فإذا تحركت الداعية . فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ؛ فإن الشيطان يعدُّه الفقر ويخوفه ويصدُّه عنه .

وكان أبو الحسن البوشنجي ذات يوم في الخلاء ، فدعا تلميذاً له ، وقال : انزع عني القميص وادفعه إلى فلان ، فقال : هلاً صبرت حتى تخرج ؟ قال : لم آمن على نفسي أن تتغير ، وكان قد خطر لي بذله^(١) .

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً ؛ كما لا يزول العشق إلا بمفارقة

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤٢٠) .

المعشوق بالسفر عن مستقره حتى إذا سافر وفارق تكلفاً ، وصبر عنه مدّة . .
تسلّى عنه قلبه ، فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفاً
بأن يبذله .

بل لو رماه في الماء . . كان أولى به من إمساكه إيّاه مع الحب له^(١) .

ومن لطائف الحيل فيه : أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار
بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء ، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة
الجود ، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب لها خبث الرياء ولكن
ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية
للنفس عند فطامها عن المال ؛ كما يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي
باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلّي واللعب ، ولكن لينقل عن الثدي إليه ،
ثم ينقل عنه إلى غيره ، فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلب بعضها
على بعض ؛ كما تسلب الشهوة على الغضب وتكسر سورتها بها ، ويسلب
الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به ، إلا أن هذا مفيد في حق من كان
البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ؛ فيبدل الأقوى بالأضعف ، فإن

(١) وقد تعجب ابن القيم من هذا الكلام ، وقال : إن الفقهاء كلهم يقولون : إن رمي المال
في البحر لا يجوز .

والجواب : أن أهل الطريق مجتهدون في أحوالها ، وأن من قواعد أهل الشريعة ارتكاب
أخف الضررين إذا تعارض معنا مفسدتان ، وقد تعارض هنا أمران : أحدهما مفسدة
الدين ، فقدموه على المفسد للدنيا ، فافهم والله أعلم . « إتحاف » (٣٨ / ١) .

كَانَ الْجَاهُ مَحْبُوباً عِنْدَهُ كَالْمَالِ . . فَلَا فَائِدَةَ فِيهِ ؛ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ عِلَّةً وَيَزِيدُ فِي أُخْرَى مِثْلِهَا ، إِلَّا أَنَّ عَلَامَةَ ذَلِكَ أَلَّا يَثْقُلَ عَلَيْهِ الْبَذْلُ لِأَجْلِ الرِّيَاءِ ، فَبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الرِّيَاءَ أَغْلَبُ عَلَيْهِ ، فَإِنْ كَانَ الْبَذْلُ يَشُقُّ عَلَيْهِ مَعَ الرِّيَاءِ . . فَيَنْبَغِي أَنْ يَبْذُلَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَرَضَ الْبَخْلِ أَغْلَبُ عَلَى قَلْبِهِ .

وَمِثَالُ دَفْعِ هَذِهِ الصِّفَاتِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ : مَا يُقَالُ : إِنَّ الْمَيِّتَ تَسْتَحِيلُ جَمِيعُ أَجْزَائِهِ دَوْدَاً ، ثُمَّ يَأْكُلُ بَعْضُ الدِّيدَانِ الْبَعْضَ حَتَّى يَقْلَّ عَدْدُهَا وَيَكْبُرُونَ ، ثُمَّ يَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضاً حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى اثْنَتَيْنِ قَوِيَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ ، ثُمَّ لَا تَزَالُ تَتَفَاتَلَانِ إِلَى أَنْ تَغْلِبَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى فَتَأْكُلَهَا وَتَسْمَنَ بِهَا ، ثُمَّ لَا تَزَالُ وَحْدَهَا تَبْقَى جَائِعَةً إِلَى أَنْ تَمُوتَ ؛ فَكَذَلِكَ هَذِهِ الصِّفَاتُ الْخَبِيثَةُ يُمْكِنُ أَنْ يُسَلِّطَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ حَتَّى يَقْمَعَها فَيَجْعَلَ الْأَضْعَفَ قُوَّةً لِلْأَقْوَى ، إِلَى أَلَّا يَبْقَى إِلَّا وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ تَقَعُ الْعَنَاءُ بِمَحْوِهَا وَإِذَا بَتِهَا بِالْمُجَاهِدَةِ ، وَذَلِكَ بِمَنْعِ الْقُوَّةِ عَنْهَا .

وَمَنْعُ الْقُوَّةِ عَنِ الصِّفَاتِ أَلَّا يُعْمَلَ بِمُقْتَضَاهَا ؛ فَإِنَّهَا تَقْتَضِي - لَا مُحَالَةَ - أَعْمَالاً ، فَإِذَا خُولِفَتْ . . خَدَمَتِ الصِّفَاتُ وَمَاتَتْ مِثْلَ الْبَخْلِ ؛ فَإِنَّهُ يَقْتَضِي إِمْسَاكَ الْمَالِ ، فَإِذَا مُنِعَ مُقْتَضَاهُ ، وَبُذِلَ الْمَالُ مَعَ الْجَهْدِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . . مَاتَتْ صِفَةُ الْبَخْلِ ، وَصَارَ الْبَذْلُ طَبْعاً ، وَسَقَطَ التَّعَبُ فِيهِ .

فَإِذَا ؛ عِلَاجُ الْبَخْلِ بَعْلَمُ وَعَمَلٍ ؛ فَالْعِلْمُ يَرْجِعُ إِلَى مَعْرِفَةِ آفَةِ الْبَخْلِ وَفَائِدَةِ الْجُودِ ، وَالْعَمَلُ يَرْجِعُ إِلَى الْبَذْلِ عَلَى سَبِيلِ التَّكْلُفِ ، وَلَكِنْ قَدْ

يقوى البخل ، بحيث يعمي ويصم ، فيمنعُ تحقُّق المعرفة بآفاته ، وإذا لم تتحقّق المعرفة . . لم تتحرّك الرغبة ، فلم يتيسّر العمل ، فتبقى العلة مزمنة ؛ كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله ؛ فإنّه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم ، فكان إذا توسّم في مريد فرحه بزاويته وما فيها . . نقله إلى زاوية غيره ، ونقل زاوية غيره إليه ، وأخرجه من جميع ما ملكه ، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه ، أو سجادة يفرح بها . . يأمره بتسليمها إلى غيره ، ويلبسه ثوباً خلقاً لا يميل إليه قلبه ، فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا ، فمن لم يسلك هذا السبيل . . أنس بالدنيا وأحبّها ، فإن كان له ألف متاع . . كان له ألف محبوب ، ولذلك إذا سرق كل واحد منه . . ألمّت به مصيبة بقدر حبه له ، فإذا مات . . نزلت به ألف مصيبة دفعة واحدة ؛ لأنّه كان يحبُّ الكل ، وقد سلب منه ، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقر والهلاك .

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم يُر له نظير ، وفرح الملك به فرحاً شديداً ، فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا ؟ قال : أراه مصيبة أو فقراً ، قال : كيف ؟ قال : إن كُسر . . كان مصيبة لا جبر لها ، وإن سرق . . صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله ، وقد كنت قبل أن يُحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر ، ثم اتفق أن انكسر يوماً ،

فعظمت مصيبتُ الملكِ عليه ، فقال : صدقَ الحكيمُ ، ليتَّهُ لم يُحمَلْ إلينا .
وهذا شأنُ جميعِ أسبابِ الدنيا ، فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ لأعداءِ الله ؛ إذ
تسوقُهُم إلى النارِ ، وعدوَّةٌ لأولياءِ الله ؛ إذ تغمُّهُم بالصبرِ عنها ،
 وعدوَّةٌ الله ؛ إذ تقطعُ طريقَهُ على عبادِهِ ، وعدوَّةٌ نفسِها ؛ فإنَّها تأكلُ
نفسَها ؛ فإنَّ المالَ لا يُحفظُ إلا بالخزائنِ والحراسِ ، والخزائنُ والحراسُ
لا يمكنُ تحصيلُها إلا بالمالِ ، وهو بذلُ الدراهمِ والدنانيرِ ، فالمالُ يأكلُ
نفسَهُ ويضادُّ ذاته حتَّى يَفْنَى ، ومنَ عرفَ آفةَ المالِ . . لم يأنسَ بِهِ ، ولم
يفرحْ بِهِ ، ولم يأخذْ مِنْهُ إلا قَدَرَ حاجَتِهِ ، ومنَ قنعَ بقَدْرِ الحاجةِ . . لم
يبخلْ ؛ لأنَّ ما أمسكَهُ لحاجَتِهِ فليسَ ببخلٍ ، وما لا يحتاجُ إليه فلا يُتعبُ
نفسَهُ بحفظِهِ ، فيبدلُهُ ، بل هو كالماءِ على شاطئِ الدجلةِ ؛ إذ لا يبخلُ بِهِ
أحدٌ ؛ لقناعةِ الناسِ مِنْهُ بمقدارِ الحاجةِ .



بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلم : أنَّ المالَ كما وصفناه ؛ خيرٌ مِنْ وجهٍ ، وشرٌّ مِنْ وجهٍ ، ومثاله
مثالُ حيَّةٍ يأخذُها الراقي ويستخرجُ مِنْها الترياقَ ، ويأخذُها الغافلُ فيقتله
سمُّها مِنْ حيثُ لا يدري .

ولا يخلو أحدٌ عن سُمِّ المالِ إلا بالمحافظةِ على خمسِ وظائفٍ :

الأولى : أن يعرفَ مقصودَ المالِ ، وأنَّه لماذا خُلِقَ ، وأنَّه لِمَ يحتاجُ
إليه ؛ حتَّى لا يكتسبَ ولا يحفظَ منه إلا قدرَ الحاجةِ ، ولا يعطيه مِنْ همِّه
فوقَ ما يستحقُّه .



الثانية : أن يراعيَ جهةَ دخلِ المالِ ، فيجتنبَ الحرامَ المحضَ ،
وما الغالبُ عليه الحرامُ ؛ كمالِ السلاطينِ ، ويجتنبَ الجهاتِ المكروهةَ
القاذحةَ في المروءةِ ؛ كالهدايا التي فيها شوائبُ الرشوةِ ، وكالسؤالِ الذي
فيه الذلُّ وهتكُ المروءةِ ، وما يجري مجراه .



الثالثة : في المقدارِ الذي يكتسبهُ ، فلا يستكثرُ منه ولا يستقلُّ ، بل
القدرُ الواجبُ ، ومعيَّارُه الحاجةُ ، والحاجةُ ملبسٌ ومسكنٌ ومطعمٌ ، ولكلِّ

واحد ثلاث درجات ، أدنى وأوسط وأعلى ، وما دام مائلاً إلى جانب القلة ومتقرباً من حد الضرورة . . . كان مخففاً ، ويجيء من جملة المخفين ، وإن جاوز ذلك . . . وقع في هاوية لا آخر لعمقها ، وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد .



الرابعة : أن يراعي جهة المخرج ، ويقتصد في الإنفاق ؛ غير مبذّر ولا مقترّ ؛ كما ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ، ولا يضعه في غير حقه ، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء .



الخامسة : أن يصلح نيته في الأخذ والترك ، والإنفاق والإمساك ، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له ، فإذا فعل ذلك . . . لم يضره وجود المال .

ولذلك قال علي رضي الله عنه : (لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى . . . فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى . . . فليس بزاهد) .



فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله تعالى مقصورة على عبادة ، أو ما يعين على العبادة ؛ فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة ،

وهما معينان على العبادة ، فإذا كان ذلك قصدك بهما . . صار ذلك عبادة في حقك ، وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما تحفظ ؛ من قميص وإزار وفراش وآنية ؛ لأن كل ذلك مما قد يحتاج إليه في الدين ، وما فضل من الحاجة . . ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ، فلا يمنع منه عند حاجته ، فمن فعل ذلك . . فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى سمها ، فلا تضره كثرة المال ، ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه ، وعظم فيه علمه ، والعامي إذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال ، وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة . . شابه الصبي الذي يرى المعزّم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها ، فيقتدي به ، ويظن أنه أخذها مستحسناً صورتها وشكلها ، ومستليناً جلدّها ، فيأخذها اقتداءً به ، فتقتله في الحال ، إلا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل ، وقتيل المال قد لا يعرف ، وقد شُبّهت الدنيا بالحية ، فقيل^(١) :

[من الخفيف]

هِيَ دُنْيَا كَحَيَّةٍ تَنْفُثُ السُّمَّ وَإِنْ كَانَتْ الْمَجَسَّةُ لَانَتْ

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير في تخطي قُللِ الجبال ، وأطراف البحار ، والطرق المشوكة ؛ فمحال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل في تناول المال .



(١) البيت لأبي العتاهية في «ديوانه» (ص ٧٥) .

بيان ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم : أنَّ الناسَ قد اختلفوا في تفضيلِ الغنيِّ الشاكرِ على الفقيرِ الصابرِ ، وقد أوردنا ذلكَ في كتابِ الفقرِ والزهدِ ، وكشفنا عن تحقيقِ الحقِّ فيه .

ولكنَّا في هذا الكتابِ ندُّ على أنَّ الفقرَ أفضلُ وأعلى من الغنى على الجملةِ ، من غيرِ التفاتٍ إلى تفصيلِ الأحوالِ .

ونقتصرُ فيه على حكايةِ فصلِ ذكره الحارثُ المحاسبِيُّ رضيَ اللهُ عنه في بعضِ كتبه في « الردِّ على بعضِ العلماءِ من الأغنياءِ ، حيثُ احتجَّ بأغنياءِ الصحابةِ ، وبكثرةِ مالِ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنه » ، وشبهَ نفسهُ بهم ، والمحاسبِيُّ رحمهُ الله حَبْرُ الأمةِ في علمِ المعاملة^(١) ، وله السبقُ على جميعِ الباحثينَ عن عيوبِ النفسِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، وأغوارِ العباداتِ ، وكلامه جديرٌ بأن يُحكى على وجهه .



وقد قالَ بعدَ كلامٍ له في الردِّ على علماءِ السوءِ :

بلغنا أنَّ عيسى عليه السلامُ قالَ : (يا علماءَ السوءِ ؛ تصومونَ ، وتصلُّونَ ، وتصدَّقونَ ، ولا تفعلونَ ما تؤمرونَ ، وتدرِّسونَ ما لا تعملونَ ،

(١) في (ج) : (خير) بدل (حبر) .

فيا سوء ما تحكمون ، تتوبون بالقول والأمانى ، وتعملون بالهوى ،
وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنساً .

بحق أقول لكم : لا تكونوا كالمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيب ،
وتبقى فيه النخالة ، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الغل
في صدوركم .

يا عبيد الدنيا ؛ كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ،
ولا تنقطع منها رغبته ؟ !

بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبكي من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت
الستكم ، والأعمال تحت أقدامكم .

بحق أقول لكم : أفسدتُم آخرتكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من
صلاح الآخرة ، فأئي الناس أخسر منكم لو تعلمون ؟ !

ويلكم ! حتى متى تصفون الطريق للمذبحين وتقيمون في محل
المتحيرين^(١) ؛ كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركوها لكم ؟ مهلاً مهلاً .

ويلكم ! ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه
وحش مظلم ؟ كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم
منه وحشة معطلة .

يا عبيد الدنيا ؛ لا كعبيد أتقياء ، ولا كأحرار كرام ، توشك الدنيا أن

(١) في « الوصايا » (٧٥) : (المتحيرين) بدل (المتحيرين) .

تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم حتى يسلمكم إلى الملك الديان عرأة فرادى ، فيوقفكم على سوءاتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم^(١) .



ثم قال الحارث رحمه الله :

إخواني ؛ فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا ، فهم في العاجل عارّ وشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله .

وبعد : فإنني رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص ، فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصي ، وإلى التلف والبوار مصيره ، فيعود فرح الهالك ترحاً ، فلم تبق له دنياه ، ولم يسلم له دينه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

فيا لها من مصيبة ما أفظعها ! ورزية ما أجلها ! ألا فراقبوا الله إخواني ، ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الأنس بالحجج الداحضة عند الله ؛ فإنهم

(١) مجمل أقوال سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩ / ٦٨) ، (٤٧ / ٤٦٠) .

يتكالبون على الدنيا ، ثم يطلبون لأنفسِهِم المعاذيرَ والحججَ ، ويزعمون أن أصحابَ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ لَهُمْ أَمْوَالٌ ، فيتزيّنُ المغرورونَ بذكرِ الصحابةِ ؛ ليعذرَهُمُ الناسُ على جمعِ المالِ ، ولقد دهاهُمُ الشيطانُ وما يشعرونَ .

ويحك أيُّها المفتونُ ! إنَّ احتجاجَكَ بِمَالِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ مَكِيدَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ يَنْطِقُ بِهَا عَلَى لِسَانِكَ لِتَهْلِكَ ؛ لَأَنَّكَ مَتَى زَعَمْتَ أَنَّ أَخْيَارَ الصَّحَابَةِ أَرَادُوا الْمَالَ لِلتَّكَاثُرِ وَالشَّرَفِ وَالزَّيْنَةِ .. فَقَدْ اغْتَبَتِ السَّادَةُ ، وَنَسَبْتَهُمْ إِلَى أَمْرِ عَظِيمٍ !

ومتى زَعَمْتَ أَنَّ جَمَعَ الْمَالِ الْحَلَالِ أَعْلَى وَأَفْضَلُ مِنْ تَرْكِهِ .. فَقَدْ أَزْرَيْتَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَنَسَبْتَهُمْ إِلَى قِلَّةِ الرِّغْبَةِ وَالزَّهْدِ فِي هَذَا الْخَيْرِ الَّذِي رَغِبْتَ فِيهِ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مِنْ جَمَعَ الْمَالِ ، وَنَسَبْتَهُمْ إِلَى الْجَهْلِ ؛ إِذْ لَمْ يَجْمَعُوا الْمَالَ كَمَا جَمَعْتَ !

ومتى زَعَمْتَ أَنَّ جَمَعَ الْمَالِ الْحَلَالِ أَعْلَى مِنْ تَرْكِهِ .. فَقَدْ زَعَمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَنْصَحِ الْأُمَّةَ ؛ إِذْ نَهَاهُمْ عَنْ جَمْعِ الْمَالِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ جَمَعَ الْمَالِ خَيْرٌ لِلْأُمَّةِ ؛ فَقَدْ غَشَّاهُمْ بِزَعْمِكَ حِينَ نَهَاهُمْ عَنْ جَمْعِ الْمَالِ ، كَذَبْتَ وَرَبُّ السَّمَاءِ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَقَدْ كَانَ لِلْأُمَّةِ نَاصِحًا ، وَعَلَيْهِمْ مَشْفِقًا ، وَبِهِمْ رَؤُوفًا .

ومتى زَعَمْتَ أَنَّ جَمَعَ الْمَالِ أَفْضَلُ .. فَقَدْ زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَنْظُرْ

لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير لهم ، أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع ؛ فلذلك نهاهم عنه ، وأنت عليم بما في المال من الخير والفضل ، فلذلك رغبت في الاستكثار ؛ كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك ، تعالى الله عن جهلك .

أيها المفتون ؛ تدبر ما دهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ، ويحك ! ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ودَّ عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتاً ؟! ولقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه . . قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ، فقال كعب : سبحان الله ! وما تخافون على عبد الرحمن ؟ كسب طيباً ، وأنفق طيباً ، وترك طيباً ، فبلغ ذلك أبا ذر ، فخرج مغضباً يريد كعباً ، فمرَّ بعظم لحي بعير ، فأخذه بيده ، ثم انطلق يطلب كعباً ، فقبل لكعب : إن أبا ذر يطلبك ، فخرج هارباً ، حتى دخل على عثمان رضي الله عنه يستغيث به ، وأخبره الخبر ، وأقبل أبو ذر يقتصر الأثر في طلب كعب ، حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل . . قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذر ، فقال له أبو ذر : هيه يا بن اليهودية ؛ تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ؟! لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً نحو أحد وأنا معه ، فقال : « يا أبا ذر » ؛ قلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال هكذا وهكذا عن

يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَقَدَّامِهِ وَخَلْفِهِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » ، ثُمَّ قَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ » ؛
 قُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، قَالَ : « مَا يَسْرُنِي أَنْ لِي مِثْلَ
 أَحَدٍ ذَهَباً أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَمُوتُ يَوْمَ أَمُوتُ وَأَتْرُكُ مِنْهُ قِيرَاطِينَ » ،
 قُلْتُ : أَوْ قَنْطَارِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « بَلْ قِيرَاطَانِ » ، ثُمَّ قَالَ : « يَا أَبَا
 ذَرٍّ ؛ أَنْتَ تَرِيدُ الْأَكْثَرَ وَأَنَا أَرِيدُ الْأَقْلَّ ؟ ! » ، فَرَسُولُ اللَّهِ يَرِيدُ هَذَا وَأَنْتَ
 تَقُولُ يَا بَنَ الْيَهُودِيَّةِ : لَا بَأْسَ بِمَا تَرَكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ؟ ! كَذَبْتَ
 وَكَذَبَ مَنْ قَالَ ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ حَرْفاً حَتَّى خَرَجَ ^(١) .

وَبَلَّغْنَا أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَدِمَتْ عَلَيْهِ عِيرٌ مِنَ الْيَمَنِ ، فَضَجَّتِ
 الْمَدِينَةُ ضَجَّةً وَاحِدَةً ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : مَا هَذَا ؟ فَقِيلَ : عِيرٌ
 قَدِمَتْ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ، قَالَتْ : صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
 فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، فَسَأَلَهَا ، فَقَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ ، فَرَأَيْتُ فَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْمُسْلِمِينَ

(١) الحديث المرفوع الذي ورد ضمن بلاغ الحارث رحمه الله تعالى رواه البخاري (٦٤٤٤) ، ومسلم (٩٤) ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة ، ولقاء أبي ذر بعثمان رضي الله عنهما وحديثهما عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه رواه أحمد في « المسند » (٦٣/١) وفيه : أن أبا ذر جاء يستأذن على عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأذن له ويده عصاه ، فقال عثمان رضي الله عنه : يا كعب ؛ إن عبد الرحمن توفي وترك مالا ، فما ترى فيه ؟ فقال : إن كان يصل فهي حق الله . . فلا بأس عليه ، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل مني أذر خلفي منه ست أواق » ، أنشدك الله يا عثمان ؛ أسمعته ؟ ثلاث مرات ، قال : نعم .

يدخلون سعيًا ولم أرَ أحداً من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوفٍ ، رأيتُهُ يدخلها معهم حبواً » ، فقال عبد الرحمن : « إن العير وما عليها في سبيل الله ، وإن أرقاءها أحرارٌ ، لعلِّي أدخلها معهم سعيًا »^(١) .

وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوفٍ : « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت أن تدخلها إلا حبواً »^(٢) .

ويحك أيها المفتون ! فما احتججك بالمال وهذا عبد الرحمن بن عوفٍ في فضله وتقواه ، وصنائه المعروفة ، وبذله الأموال في سبيل الله ، مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبشراه بالجنة^(٣) . . . يُوقَفُ في عُرْصَةِ الْقِيَامَةِ وأهوالها بسبب مالٍ كسبه من حلالٍ للتعفف ، ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصداً ، وأعطى في سبيل الله سخاً ، مُنِعَ من السعي إلى الجنة مع فقراء المهاجرين ، وصار يحبو في آثارهم حبواً ! فما ظنكم بأمثالنا الغرقى في فتن الدنيا ؟!

(١) رواه أحمد في « المسند » (١١٥ / ٦) دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » (٣١١ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) ولفظه : « يا بن عوف ! إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً . . . » ، وروى أبو نعيم في « فضائل الخلفاء الراشدين » (١١٩) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « أول من يدخل علينا من أغنياء الجنة عبد الرحمن بن عوف » .

(٣) بشراه صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بالجنة مع بقية العشرة رواه أبو داود (٤٦٤٩) ، والترمذي (٣٧٤٨) ، فضلاً عن الأحاديث التي أوردها المصنف رحمه الله تعالى .

وبعدُ : فالعجبُ كلُّ العجبِ لكلِّ مفتونٍ تمرَّغَ في تخاليطِ الشبهاتِ والسحتِ ، وتكالبَ على أوساخِ الناسِ ، وهو يتقلَّبُ في الشهواتِ والزينةِ والمباهاةِ ، ويتقلَّبُ في فتنِ الدنيا ، ثم يحتجُّ بعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ ، وتزعمُ أنَّكَ إنَّ جمعتَ المالَ . . فقد جمعتَ الصحابةُ ؟! كأنَّكَ أشبهتَ السلفَ وفعلَهُمْ ، ويحك ! إنَّ هذا من قياسِ إبليسَ ، ومن فتيةٍ لأوليائِهِ .

وسأصفُ لك أحوالكِ وأحوالَ السلفِ ؛ لتعرفَ فضائحَكَ وفضلَ الصحابةِ .

ولعمري ؛ لقد كانَ لبعضِ الصحابةِ أموالٌ أرادوها للتعقُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ ، فكسبوا حلالاً ، وأكلوا طيباً ، وأنفقوا قصداً ، وقَدَّموا فضلاً ، ولم يمنعوا منها حقاً ، ولم ييخلوا بها ، لكنَّهُم جادوا لله بأكثرِها ، وجادَ بعضُهُم بجميعِها ، وفي الشدَّةِ آثروا اللهَ على أنفُسِهِم كثيراً ، فيا لله ! أكَذَلِكَ أنتَ ؟! واللهِ ؛ إنَّكَ لبعيدُ الشبهِ بالقومِ .

وبعدُ : فإنَّ أخيارَ الصحابةِ كانوا للمسكنةِ محبِّينَ ، ومن خوفِ الفقرِ آمنينَ ، وباللهِ في أرزاقِهِم واثقينَ ، وبمقاديرِ اللهِ مسرورينَ ، وفي البلاءِ راضينَ ، وفي الرخاءِ شاكرينَ ، وفي الضراءِ صابرينَ ، وفي السراءِ حامدينَ ، وكانوا لله متواضعينَ ، وعن حبِّ العلوِّ والتكاثرِ ورعينَ ، لم ينالوا من الدنيا إلا المباحَ لَهُم ، ورضوا بالبلغةِ منها ، ورفضوا الدنيا ، وصبروا على مكارِهِها ، وتجرَّعوا مرارتَها ، وزهدوا في نعيمِها وزهرتِها ، فيا لله ! أكَذَلِكَ أنتَ ؟!

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم.. حزنوا ، وقالوا : ذنبٌ عَجَلَتْ عقوبتهُ مِنَ اللهِ تعالى ، وإذا رأوا الفقرَ مقبلاً.. قالوا : مرحباً بشعارِ الصالحين^(١) .

وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيءٌ.. أصبح كئيباً حزيناً ، وإذا لم يكن عندهم شيءٌ.. أصبح فرحاً مسروراً ، فقيل له : إنَّ الناسَ إذا لم يكن عندهم شيءٌ.. حزنوا ، وإذا كان عندهم شيءٌ.. فرحوا ، وأنتَ لستَ كذلك ، فقال : إنِّي إذا أصبحتُ وليسَ عندَ عيالي شيءٌ.. فرحتُ ؛ إذ كان لي بمحمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أسوةٌ ، وإذا كانَ عندَ عيالي شيءٌ.. اغتممتُ ؛ إذ لم يكن لي بآلِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أسوةٌ .

وبلغنا أنهم كانوا إذا سلكَ بهم سبيلُ الرخاءِ.. حزنوا وأشفقوا ، وقالوا : ما لنا وللدنيا وما يُراد بها ؟ فكأنَّهم على جناحِ خوفٍ ، وإذا سلكَ بهم سبيلُ البلاءِ.. فرحوا واستبشروا ، وقالوا : الآنَ تعاهدنا ربُّنا .

فهذه أحوالُ السلفِ ونعتُهُم ، وفيهم منَ الفضلِ أكثرُ ممَّا وصفنا ، فيا لله ! أكَذَلِكَ أَنْتَ ؟ ! إِنَّكَ لبعيدُ الشبهِ بالقومِ .

وسأصفُ لك أحوالَكَ - أيُّها المفتون - ضدّاً لأحوالِهِم ، وذلكَ أَنَّكَ تطغى عندَ الغنى ، وتبطرُ في الرخاءِ ، وتمرحُ عندَ السَّراءِ ، وتغفلُ عن شكرِ

(١) كما روى أبو نعيم في « الحلية » (٥ / ٦) عن كعب قال : (إن الرب تعالى قال لموسى عليه السلام : يا موسى ؛ إذا رأيت الغنى مقبلاً.. قل : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً.. قل : مرحباً بشعار الصالحين) ، وقد تقدم .

ذي النعماء ، وتقنطُ عندَ الضرَّاءِ ، وتسخطُ عندَ البلاءِ ، ولا ترضى بالقضاءِ ،
نعم ، وتبغضُ الفقرَ ، وتأنفُ مِنَ المسكنةِ ، وذلكَ فخرُ المرسلينَ ، وأنتَ
تأنفُ مِنْ فخرِهِمْ ، وتدخرُ المالَ وتجمعهُ ؛ خوفاً مِنَ الفقرِ ، وذلكَ مِنْ سوءِ
الظنِّ باللهِ عزَّ وجلَّ وقلةِ اليقينِ بضمانِهِ ، وكفى بِهِ إثماً .

وعساكَ تجمعُ المالَ لنعيمِ الدنيا وزهرتها ، وشهواتِها ولذاتها ، ولقد
بلغنا أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ : « شرارُ أمتي الذينَ غَدُوا
بالنَّعيمِ ونبتتْ عليه أجسامُهُمْ » (١) .

وبلغنا أَنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : ليحيثُنَّ يومَ القيامةِ قومٌ يطلبونَ حسناتِ
لَهُمْ ، فيقالُ لَهُمْ : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » ، وأنتَ في
غفلةٍ قد حُرمتَ نعيمَ الآخرةِ بسببِ نعيمِ الدنيا ، فيا لها حسرةٍ ومصيبةٍ !
نعم ، وعساكَ تجمعُ المالَ للتكاثرِ والعلوِّ والفخرِ والزينةِ في الدنيا ،
وقد بلغنا أَنَّ مَنْ طلبَ الدنيا للتكاثرِ أو للتفاخرِ . . لقيَ اللهَ وهوَ عليه
غضبانٌ (٢) ، وأنتَ غيرُ مكترثٍ بما حلَّ بكَ مِنْ غضبِ اللهِ حينَ أردتَ التكاثرَ
والعلوَّ .

- (١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل »
(٣١٨/٥) من حديث السيدة فاطمة رضي الله عنها ، ورواه الطبراني في « الكبير »
(١٠٧/٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٠/٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « العيال »
(٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٩/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩٠) من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

نعم ، وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من الثقل إلى جوار الله تعالى ؟! وأنت تكره لقاء الله ، والله للقاءك أكره ، وأنت في غفلة .

وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَسِفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتْهُ . . اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَقِيلَ : سَنَةِ »^(١) ، وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله .

نعم ، ولعلك تخرج من دينك أحياناً لتوفير دنياك ، وتفرح بإقبال الدنيا عليك ، وترتاح لذلك سروراً بها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَسُرَّ بِهَا . . ذَهَبَ خَوْفُ الْآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ »^(٢) .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إنك مُحاسِبٌ على التحزُّنِ على ما فاتك من الدنيا ، ومُحاسِبٌ بفرحك في الدنيا إذا قدَّرتَ عليها ، وأنت فرح بدنياك وقد سُلِبَتِ الخوفَ من الله تعالى .

(١) قال الحافظ العراقي : (رويناه في كتاب « القربة » لأبي حفص العتكي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال : « مسيرة ألف سنة » ، وإسناده ضعيف ، ورويناه في الجزء الثاني عشر من « فوائد الخلمي » من هذا الوجه) . « إتحاف » (٢١٩/٨) ، وذكره المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦١٤٧) وعزاه للرازي في مشيخته عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) قد رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٦٩) عن الحسن ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٩/٧) عن سفيان الثوري ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده إلا بلاغاً للحارث بن أسد كما ذكره المصنف عنه) . « إتحاف » (٢١٩/٨) .

وعساک تُعْنَى بِأُمُورِ دُنْيَاكَ أَضْعَافَ مَا تُعْنَى بِأُمُورِ آخِرَتِكَ .

وعساک ترى أَنَّ مصيبتَكَ في معاصيكَ أهونُ مِنْ مصيبتِكَ في انتقاصِ دُنْيَاكَ ، نعم ، وخوفُكَ مِنْ ذهابِ مالِكَ أَكْثَرُ مِنْ خوفِكَ مِنْ الذنوبِ .

وعساک تبذلُ للناسِ ما جمعتَ مِنَ الأوساخِ كُلِّها للعلوِّ والرفعةِ في الدنيا ، وعساک تُرضي المخلوقينَ بمساخطِ اللهِ تعالى كيما تُكْرِّمَ وتُعْظِمَ ؛ ويحك ! فكأنَّ احتقارَ اللهِ تعالى لَكَ في القيامةِ أهونُ عَلَيْكَ مِنْ احتقارِ الناسِ إِيَّاكَ .

وعساک تخفي مِنَ المخلوقينَ مساوئِكَ ولا تكثرُ باطلاعِ اللهِ عَلَيْكَ فيها ، فكأنَّ الفضيحةَ عِنْدَ اللهِ تعالى أهونُ عَلَيْكَ مِنَ الفضيحةِ عِنْدَ الناسِ ، فكأنَّ العبيدَ أَعْلَى عِنْدَكَ قَدْرًا مِنَ اللهِ ، تعالى اللهُ عَنْ جَهْلِكَ !

فكيفَ تنطقُ عِنْدَ ذَوِي الألبابِ وَهذهِ المثالبُ فيكَ ؟! أَفَّ لَكَ ، متلوِّثٌ بالأقذارِ وتحتجُّ بمالِ الأبرارِ ؟!

هيهاتَ هيهاتَ ! ما أَبْعَدَكَ مِنَ السلفِ الأخيارِ ! واللهِ ؛ لقدْ بلغني أَنَّهُمْ كانوا فيما أُحِلَّ لَهُمْ أَزْهَدَ مِنْكُمْ فيما حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّ الذي لا بأسَ بِهِ عِنْدَكُمْ كانَ مِنَ الموبقاتِ عِنْدَهُمْ^(١) ، وكانوا للزَّلَّةِ الصَّغِيرَةِ أَشَدَّ استعظاماً مِنْكُمْ لكِبائِرِ المعاصي ، فليتَ أَطيبَ مالِكَ وأحلَّهُ مثلُ شبهاتِ أموالِهِمْ ، وليتَكَ أَشفقتَ

(١) ففي « القوت » (٢٥٥ / ١) عن الحسن : (رأيت سبعين بدرياً كانوا - والله - فيما أحل الله تعالى لهم أزهد منكم فيما حرم الله تعالى عليكم) .

مِنْ سَيِّئَاتِكَ كَمَا أَشْفَقُوا مِنْ حَسَنَاتِهِمْ أَلَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ ، وَلَيْتَ صَوْمَكَ عَلَى مِثْلِ
إِفْطَارِهِمْ ، وَلَيْتَ اجْتِهَادَكَ فِي الْعِبَادَةِ مِثْلُ فَتْوَرِهِمْ وَنَوْمِهِمْ ، وَلَيْتَ جَمِيعَ
حَسَنَاتِكَ مِثْلُ وَاحِدَةٍ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ ، وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ قَالَ :
(غَنِيمَةُ الصَّدِيقِينَ مَا فَاتَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا ، وَنَهْمَتُهُمْ مَا زُوِيَ عَنْهُمْ مِنْهَا ، فَمَنْ
لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ . . فَلَيْسَ مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا مَعَهُمْ فِي الْآخِرَةِ) .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ ! كَمْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ التَّفَاوُتِ ، فَرِيقٌ خِيَارِ الصَّحَابَةِ فِي
الْعُلُوِّ عِنْدَ اللَّهِ ، وَفَرِيقٌ أَمْثَالُكُمْ فِي السُّفَالَةِ^(١) أَوْ يَعْفُو اللَّهُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهِ .
وَبَعْدُ : فَإِنَّكَ إِنْ زَعَمْتَ أَنَّكَ مَتَأَسُّ بِالصَّحَابَةِ بِجَمْعِ الْمَالِ لِلتَّعَقُّفِ
وَالْبَذْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . فَتَدْبِرُ أَمْرَكَ ، وَيَحَكَ ! هَلْ تَجِدُ مِنَ الْحَلَالِ فِي
دَهْرِكَ كَمَا وَجَدُوا فِي دَهْرِهِمْ ؟ أَوْ تَحْسِبُ أَنَّكَ مُحْتَاطٌ فِي طَلَبِ الْحَلَالِ كَمَا
احْتَاطُوا ؟ !

لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ قَالَ : (كُنَّا نَدْعُ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الْحَلَالِ
مَخَافَةَ أَنْ نَقَعَ فِي بَابٍ مِنَ الْحَرَامِ)^(٢) ، أَفَتَطْمَعُ مِنْ نَفْسِكَ فِي مِثْلِ هَذَا
الْاِحْتِيَاظِ ؟ ! لَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ؛ مَا أَحْسَبُكَ كَذَلِكَ .

وَيَحَكَ ! كُنْ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ جَمْعَ الْمَالِ لِأَعْمَالِ الْبِرِّ مَكْرٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
لِيُوقِعَكَ بِسَبَبِ الْبِرِّ فِي كِتْسَابِ الشُّبُهَاتِ الْمَمْزُوجَةِ بِالسُّحْتِ وَالْحَرَامِ ، وَقَدْ

(١) وعبارة الإمام المحاسبي : (فريق مع خيار الصحابة . . . ، وفريق مع أمثالهم في
الأسفلين) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢١٠) عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اجتراً على الشبهات . .
أوشك أن يقع في الحرام » (١) .

أيها المغرور ؛ أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل
وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات وبذلها في سبيل الله تعالى
وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم ، قال : (لأن تدع درهماً
واحداً مخافة ألا يكون حلالاً خيراً لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة
لا تدري أيحل لك أم لا) .

فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات ، وإنما تجمع المال
بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله تعالى ، ويحك ! إن كنت كما زعمت
بالغا في الورع . . فلا تتعرض للحساب ؛ فإن خيار الصحابة خافوا
المسألة ، وقد بلغنا أن بعض الصحابة قال : (ما سرّني أن أكتسب كل يوم
ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله ولم يشغلني الكسب عن صلاة
الجماعة ، قالوا : ولم ذلك رحمك الله ؟ قال : لأنني غني عن مقام يوم
القيامة ، فيقول : عبي ؛ من أين اكتسبت ؟ وفي أي شيء أنفقت ؟) (٢) .

(١) رواه البخاري (٢٠٥١) ولفظه عنده : (ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم . .
أوشك أن يواقع ما استبان) ، ومسلم (١٥٩٩) بنحوه ، وقد تقدم .

(٢) روى أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٩ / ١) عن عمرو بن مرة قال : قال أبو الدرداء : بعث
النبي صلى الله عليه وسلم وأنا تاجر ، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة ، فلم
يجتمع ، فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة ، والذي نفس أبي الدرداء بيده ؛
ما أحب أن لي اليوم حانوتاً على باب المسجد لا يخطئني فيه صلاة ، أربح فيه كل يوم =

فهؤلاء المتقون كانوا في جدّة الإسلام^(١) ، والحلال موجودٌ لديهم . .
تركوا المالَ وجلًا من الحساب ؛ مخافةً ألا يقومَ خيرُ المالِ بشرِّه ، وأنتَ من
نفايةِ الأمة ، والحلالُ في دهرِكَ مفقودٌ . . تتكالبُ على الأوساخ ، ثمَّ تزعمُ
أنَّكَ تجمعُ المالَ من الحلالِ ، ويحك ! وأين الحلالُ فتجمعه ؟ !

وبعدُ : فلو كان الحلالُ موجوداً لديك . . أما تخافُ أن يتغيرَ عندَ الغنى
قلبك ؟ وقد بلغنا أن بعضَ الصحابةِ كان يرثُ المالَ الحلالَ فيتركه ؛ مخافةً
أن يفسدَ قلبه ، أفتطمعُ أن يكونَ قلبك أتقى من قلوبِ الصحابةِ ، فلا يزولَ
عن شيءٍ من الحقِّ في أمرِكَ وأحوالك ؟ ! لئن ظننتَ ذلك . . لقد أحسنتَ
الظنَّ بنفسِكَ الأمارَةِ بالسوءِ .

ويحك ! إنِّي لك ناصحٌ ، أرى لك أن تقنعَ بالبلغةِ ، ولا تجمعَ المالَ
لأعمالِ البرِّ ، ولا تتعرضَ للحسابِ ، فإنه بلغنا عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ
عليه وسلَّم أنه قال : « مَنْ نُوقِشَ الحسابَ . . عُدَّ »^(٢) ، وقال صَلَّى اللهُ
عليه وسلَّم : « يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ ، فَأَنْفَقَهُ فِي
حَرَامٍ ، فَيُقَالُ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ، وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلَالٍ
وَأَنْفَقَهُ فِي حَرَامٍ ، فَيُقَالُ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ، وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً

= أربعين ديناراً وأتصدق بها كلها في سبيل الله ، قيل له : يا أبا الدرداء ؛ وما تكره من
ذلك ؟ قال : شدة الحساب .

(١) أي : في أوَّلِهِ ونشاطه . « إتحاف » (٢٢١ / ٨) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٦) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلَالٍ ، فَيُقَالُ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ؛ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلَالٍ ؛ فَيُقَالُ لَهُ : قَفْ ؛ لَعَلَّكَ أَضَرَرْتَ فِي طَلَبِ هَذَا بَشْيءٍ مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيْكَ ؛ مِنْ صَلَاةٍ لَمْ تَصَلِّهَا لَوَقْتِهَا ، أَوْ فَرَطْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَوُضُوءِهَا ، فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ؛ كَسَبْتُ مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلَالٍ ، وَلَمْ أَضَيِّعْ شَيْئاً مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ ، فَيُقَالُ : لَعَلَّكَ اخْتَلْتَ فِي هَذَا الْمَالِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَرْكَبٍ أَوْ ثَوْبٍ بَاهِيَةٍ بِهِ ، فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ؛ لَمْ أَخْتَلْ ، وَلَمْ أَبَاهِ فِي شَيْءٍ ، فَيُقَالُ : لَعَلَّكَ مَنَعْتَ حَقَّ أَحَدٍ أَمْرُتُكَ أَنْ تَعْطِيَهُ مِنْ ذَوِي الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ؛ كَسَبْتُ مِنْ حَلَالٍ ، وَأَنْفَقْتُ فِي حَلَالٍ ، وَلَمْ أَضَيِّعْ شَيْئاً مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ ، وَلَمْ أَخْتَلْ ، وَلَمْ أَبَاهِ ، وَلَمْ أَمْنَعْ حَقَّ أَحَدٍ أَمْرْتَنِي أَنْ أُعْطِيَهُ ، قَالَ : فَيَجِيءُ أَوْلَئِكَ فَيُخَاصِمُونَهُ ، فَيَقُولُونَ : يَا رَبِّ ؛ أُعْطِيَتْهُ وَأَغْنِيَتْهُ ، وَجَعَلَتْهُ بَيْنَ أَظْهَرِنَا ، وَأَمَرَتْهُ أَنْ يُعْطِيَنَا ، فَإِنْ كَانَ أَعْطَاهُمْ ، وَمَا ضَيَّعَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئاً مِنَ الْفَرَائِضِ ، وَلَمْ يَخْتَلْ فِي شَيْءٍ... فَيُقَالُ : قَفِ الْآنَ ، هَاتِ شُكْرَ كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتُهَا عَلَيْكَ مِنْ أَكْلَةٍ أَوْ شَرِبَةٍ أَوْ لَذَّةٍ ، فَلَا يَزَالُ يُسْأَلُ ^(١) .

وَيَحْكُ ! فَمَنْ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي كَانَتْ لِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي تَقَلَّبَ فِي الْحَلَالِ ، وَقَامَ بِالْحَقُوقِ كُلِّهَا ، وَأَدَّى الْفَرَائِضَ بِحُدُودِهَا ؛ حُسْبَ هَذِهِ الْمَحَاسِبَةِ ؟! فَكَيْفَ تَرَاهُ يَكُونُ حَالُ أَمْثَالِنَا ؛ الْغَرَقَى فِي فِتْنِ

(١) كَذَا أَوْرَدَهُ الْمَحَاسِبِيُّ فِي «الْوَصَايَا» (ص ٨٦) ، قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ : (الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ لَمْ أَقِفْ لَهُ عَلَى أَصْلٍ) . «إِتْحَافٌ» (٢٢١/٨) .

الدنيا وتخاليطها وشبهاتها وشهواتها وزينتها ؟!

ويحك ! لأجل هذه المسألة يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا ، فرضوا بالكفاف منها ، وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك - ويحك - بهؤلاء الأخيار أسوة ، فإن أبيت ذلك ، وزعمت أنك بالغ في الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال - بزعمك - للتعفف والبذل في سبيل الله ، ولم تنفق شيئاً من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ، ولم تسخط الله في شيء من سرائرك وعلائيتك ، ويحك ! فإن كنت كذلك - ولست كذلك - فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة ، وتعتزل ذوي الأموال إذا وقفوا للسؤال ، وتسبق مع الرعيل الأول في زمرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لا حبس عليك للمساءلة والحساب ، فإما سلامة وإما عطب ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمس مئة عام »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم ، فيتمتعون ويأكلون والآخرون جثاة على ركبهم ، فيقول الله : قبلكم طلبي ، أنتم حكّام الناس وملوكهم ، فأروني ماذا صنعتم فيما أعطيكم ؟ »^(٢) .

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٦) ولفظه : « أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذاك خمس مئة سنة » .

(٢) الحديث بهذا اللفظ وتامه أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٨٨) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٢٢٢ / ٨) ، وصدره وهو قوله صلى الله عليه وسلم =

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ما يسرني أن لي حمر النعم ولا أكون في الرعيّل الأوّل مع محمد صلى الله عليه وسلّم وحزبه^(١) .

يا قوم ؛ فاستبقوا السباق مع المخفّين في زمرة المرسلين ، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كما وجل المتقون .

وقد بلغنا أن بعض الصحابة عطش فاستسقى ، فأتي بشربة من ماء وعسل ، فلما ذاقه .. خنقته العبرة ، ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه ، وذهب ليتكلّم ، فعاد في البكاء ، فلما أكثر البكاء .. قيل له : أكل هذا من أجل هذه الشربة ؟ قال : نعم ، بينا أنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم وما معه في البيت أحدٌ غيري ، فجعل يدفع عن نفسه ويقول : « إليك عني » ، فقلتُ له : فداك أبي وأمي ؛ ما أرى بين يديك أحداً ، فمن تخاطب ؟ فقال : « هذه الدنيا تطاولت إليّ بعنقها ورأسها ، فقالت لي : يا محمد ؛ خذني ، فقلتُ : إليك عني ، فقالت : إن تنج مني يا محمد .. فإنه لا ينجو مني من بعدك » ، فأخاف أن تكون هذه قد لحقتني

= عليه وسلم : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم » رواه الترمذي (٢٣٥٤) وزاد : « بنصف يوم ، وهو خمس مئة عام » ، وروى أحمد في « الزهد » (١٦٤٨) عن الحسن قوله : (يحشر الأمراء والأغنياء ، فيقول لهم : إنكم كنتم حكام المسلمين ، وأهل الغنى قبلكم طلبتي) ، وفي (ج) : (مثلكم) بدل (قبلكم) .
(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢٢٢ / ٨) : (رواه صاحب « القوت » عن سعيد بن عامر ، عن جذيم رضي الله عنه نحوه) .

تقطعني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) .

يا قوم ؛ فهؤلاء الأخيارُ بكوا وجلاً أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربةً من حلال .

ويحك ! أنت في أنواع النعم والشهوات من مكاسب الشح والشبهات لا تخشى الانقطاع ، أف لك ما أعظم جهلك !

ويحك ! فإن تخلفت في القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المصطفى . . لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء ، ولئن قصرت عن السباق . . فليطولن عليك اللحاق ، ولئن أردت الكثير . . لتصيرن إلى حساب عسير ، ولئن لم تقنع بالقليل . . لتصيرن إلى وقوف طويل ، وصراخ وعويل ، ولئن رضيت بأحوال المتخلفين . . لتقطعن عن أصحاب اليمين ، وعن رسول رب العالمين ، ولتبطئن عن نعيم المتنعمين ، ولئن خالفت أحوال المتقين . . لتكونن من المحتسبين في أهوال يوم الدين ، فتدبري - ويحك - ما سمعت .

وبعد : فإن زعمت أنك في مثل خيار السلف ؛ قنع بالقليل ، زاهد في الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ، ولا تدخر شيئاً لغيرك ، مبغض للتكاثر والغنى ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقلّة

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبخاري في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم في « المستدرک » (٣٠٩ / ٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) ، وصاحب الخبر هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

والمسكنة ، مسرور بالذلّ والضعة ، كاره للعلو والرفعة ، قوي في أمره ، لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك في الله ، وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ، ولن توقف في المسألة ولا يحاسب مثلك من المتقين ، وإنما تجمع المال الحلال للبدل في سبيل الله . . ويحك أيها المغرور ! فتدبر الأمر ، وأحسن النظر ، أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال ، وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكر والفكر والاعتبار . . أسلم للدين ، وأيسر للحساب ، وأخف للمساءلة ، وآمن من روعات القيامة ، وأجزل للثواب ، وأعلى لقدرك عند الله تعالى أضعافاً ؟!

بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال : (لو أن رجلاً في حجره دنائير يعطيها والآخر يذكر الله تعالى . . لكان الذاكر أفضل)^(١) .

وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر ، قال : تركه أبر به^(٢) .

وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين ، أحدهما طلب الدنيا حلالاً فأصابها ، فوصل بها رحمه ، وقدم لنفسه ، وأمّا الآخر . . فإنه جانبها ، فلم يطلبها ولم يبذلها ، فأيهما أفضل ؟ فقال : بعيد والله

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٣ / ٢) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢٢٤ / ٨) : (رواه صاحب « القوت » عن الحسن) .

ما بينهما ، الذي جانبها أفضل ؛ كما بينَ مشارِق الأرضِ ومغارِبِها^(١) .

ويحك ! فهذا الفضلُ لك بترك الدنيا على مَنْ طلبها ، ولك في العاجلِ
إن تركتَ الاشتغالَ بالمالِ أن ذلكَ أروحُ لبدنِكَ ، وأقلُّ لتعبِكَ ، وأنعمُ
لعيشتِكَ ، وأرضى لبالكِ ، وأقلُّ لهمومِكَ ، فما عذرُكَ في جمعِ المالِ وأنتَ
بتركِ المالِ أفضلُ ممَّنْ طلبَ المالَ لأعمالِ البرِّ ؟!

نعم ، وشغلُكَ بذكرِ الله أفضلُ من بذلِ المالِ في سبيلِ الله ، فاجتمعَ لك
راحةُ العاجلِ مع السلامةِ والفضلِ في الآجلِ .

وبعدُ : فلو كانَ في جمعِ المالِ فضلٌ عظيمٌ . لوجبَ عليك في مكارمِ
الأخلاقِ أن تتأسى بنبيك صلى الله عليه وسلم ؛ إذ هداكَ اللهُ به ، وترضى
ما اختاره لنفسه من مجانية الدنيا .

ويحك ! تدبَّرْ ما سمعتَ ، وكنْ على يقينٍ أن السعادةَ والفوزَ في مجانيةِ
الدنيا ، فسرٌ مع لواءِ المصطفى صلى الله عليه وسلم سابقاً إلى جنَّةِ
المأوى ؛ فإنه بلغنا أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « ساداتُ
المؤمنينَ في الجنَّةِ مَنْ إذا تغدَّى . . لم يجدْ عشاءً ، وإذا استقرضَ . . لم يجدْ
قرضاً ، وليسَ له فضلُ كسوةٍ إلا ما يواريه ، ولم يقدرْ على أن يكتسبَ
ما يغنيه ، يمسي مع ذلكَ ويصبحُ راضياً عن ربِّه ، ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢٢٤ / ٨) : (رواه صاحب « القوت » عن الحسن) .

عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿١﴾ .

ألا يا أخي ؛ متى جمعتَ هذا المالَ مِنْ بعدِ هذا البيانِ . . فإنَّكَ مبطلٌ فيما ادعيتَ أنَّكَ للبرِّ والفضلِ تجمعه ، لا ، ولكنَّكَ خوفاً مِنَ الفقرِ تجمعه ، وللتنعمِ والزينةِ والتكاثرِ والفخرِ والعلوِّ والرياءِ والسمعةِ والتعظيمِ والتكريمِ تجمعه ، ثمَّ تزعمُ أنَّكَ لأعمالِ البرِّ تجمعُ المالَ !

ويحك ! راقبِ اللهَ واستحي مِنْ دُعَاكَ أَيُّهَا المغرورُ .

ويحك ! إِنْ كُنْتَ مفتوناً بحبِّ المالِ والدنيا . . فكُنْ مقرّراً أَنَّ الخيرَ والفضلَ فِي الرِّضَا بالْبُلْغَةِ ومجانبةِ الفضولِ .

نعم ، وَكُنْ عِنْدَ جمعِ المالِ مزيئاً عَلَى نَفْسِكَ ، معترفاً بِإِسَاءَتِكَ ، وجلالاً مِنَ الحسابِ ، فَذلكَ أَنْجِي لَكَ ، وَأقْرُبُ إِلَى الفضلِ مِنْ طَلِبِ الحُجَجِ لجمعِ المالِ .

إخواني ؛ اعلَمُوا أَنَّ دَهْرَ الصَّحَابَةِ كَانَ الحلالُ فِيهِ موجوداً ، وكانوا معَ ذلكَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ وَأَزْهَدِهِمْ فِي المَبَاحِ ، وَنَحْنُ فِي دَهْرِ الحلالِ فِيهِ مَفْقُودٌ ، فَكَيْفَ لَنَا مِنَ الحلالِ بِمِبلغِ القُوَّةِ وَسِتْرِ العُورَةِ ؟! فَأَمَّا جمعُ المالِ فِي دَهْرِنَا . . فَأَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذلكَ .

وبعدُ : فَأَيْنَ لَنَا بِمِثْلِ تَقْوَى الصَّحَابَةِ وَوَرَعِهِمْ ، وَمِثْلِ زَهْدِهِمْ وَاحْتِيَاظِهِمْ ؟! وَأَيْنَ لَنَا بِمِثْلِ ضَمَائِرِهِمْ وَحَسَنِ نِيَاتِهِمْ ؟! دُهْنًا - وَرَبُّ السَّمَاءِ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٩٩) ضمن حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه .

- بأدواء النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكونُ الورودُ ، فيا لسعادةِ المخففينَ
يومَ النشورِ ، وحزنٌ طويلٌ لأهلِ التكاثرِ والتخاليطِ ، وقد نصحتُ لكم إن
قبلتمُ ، والقابلونَ لهذا قليلٌ ، وفَقْنَا الله وإياكم لكلِّ خيرٍ برحمتهِ .

هذا آخرُ كلامِهِ ، وفيهِ كفايةٌ في إظهارِ فضلِ الفقرِ على الغنى ،
ولا مزيدَ عليه ، ويشهدُ لذلكُ جميعُ الأخبارِ التي أوردناها في كتابِ ذمِّ
الدنيا ، وفي كتابِ الفقرِ والزهدِ .

ويشهدُ له أيضاً ما رُوِيَ عن أبي أمانةِ الباهليِّ : أنَّ ثعلبةَ بنَ حاطبٍ
قالَ : يا رسولَ الله ؛ ادعُ الله أن يرزقني مالاً ، قالَ : « يا ثعلبةُ ؛ قليلٌ تؤدِّي
شكره خيرٌ من كثيرٍ لا تطيقه » ، فقالَ : يا رسولَ الله ؛ ادعُ الله أن يرزقني
مالاً ، قالَ : « يا ثعلبةُ ؛ أما لك في أسوة ؟ أما ترضى أن تكونَ مثلَ
نبيِّ الله ؟ أما والذي نفسي بيده ؛ لو شئتُ أن تسيرَ معي الجبالُ ذهباً
وفضةً . . لسارتُ » ، قالَ : والذي بعثك بالحقُّ ؛ لئن دعوتُ الله أن يرزقني
مالاً . . لأعطينَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ ، قالَ رسولُ الله
صلَّى الله عليه وسلَّم : « اللَّهُمَّ ؛ ارزق ثعلبةَ مالاً » .

فاتخذَ غنماً ، فنمتَ كما ينمو الدودُ ، فضاقتُ عليه المدينةُ ، فتنحَّى
عنها ، ونزلَ وادياً من أوديتها ، حتَّى جعلَ يصليَ الظهرَ والعصرَ في
الجماعةِ ، ويدعُ ما سواهما ، ثمَّ نمتَ وكثرتُ ، فتنحَّى وتركَ الصلاةَ في
الجماعةِ إلا الجمعةَ وهي تنمو كما ينمو الدودُ ، حتَّى تركَ الجمعةَ ، وطفقَ

يلقى الركبان يوم الجمعة يسألهم عن الأخبار في المدينة .

وسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما فعل ثعلبة بن حاطب ؟ » ، ف قيل : يا رسول الله ؛ اتخذ غنماً ، فضاقت عليه المدينة ، وأخبر بأمره كله ، فقال : « يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة » .

قال : وأنزل الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ ، وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم على الصدقة ، وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة^(١) ، وأمرهما أن يخرجاً فيأخذا الصدقة من المسلمين ، وقال : « مرّا بثعلبة بن حاطب وبفلان - رجل من بني سليم - وخذا صدقاتهما » .

فخرجاً حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إليّ ، فانطلقا نحو السليمي ، فسمع بهما ، فقام إلى خيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ، فلما رأياه . . قالا : لا يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك ، قال : بلى ، خذاها ، نفسي بها طيبة ، وإنما هي لتأخذاها .

فلما فرغا من صدقاتهما . . رجعا حتى مرّا بثعلبة ، فسألاه الصدقة ،

(١) بين فيه أسنان الإبل والغنم . « إنحاف » (٢٢٥ / ٨) .

فَقَالَ : أَرِيَانِي كِتَابَكُمَا ، فَنَظَرَ فِيهِ فَقَالَ : هَذِهِ أُخْتُ الْجَزِيَّةِ ، انْطَلِقَا حَتَّى أَرِي رَأْيِي ، فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا رَأَاهُمَا . . قَالَ : « يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ » قَبْلَ أَنْ يَكْلِمَاهُ ، وَدَعَا لِلْسَلِيمِيِّ ، فَأَخْبَرَاهُ بِالَّذِي صَنَعَ ثَعْلَبَةُ ، وَبِالَّذِي صَنَعَ السَّلِيمِيُّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ثَعْلَبَةَ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُم مِّن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ، وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِّنْ أَقَارِبِ ثَعْلَبَةَ ، فَسَمِعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى ثَعْلَبَةَ ، فَقَالَ : لَا أُمُّ لَكَ يَا ثَعْلَبَةُ ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ كَذَا وَكَذَا .

فَخَرَجَ ثَعْلَبَةُ حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ صَدَقَتَهُ ، فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ » ، فَجَعَلَ يَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « هَذَا عَمَلُكَ ، أَمَرْتُكَ فَلَمْ تَطْعَنِي » ، فَلَمَّا أَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا . . رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ .

فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . جَاءَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَبَى أَنْ يَقْبِلَهَا مِنْهُ ، وَجَاءَ بِهَا إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَبَى أَنْ يَقْبِلَهَا مِنْهُ ، وَتَوَفَّى ثَعْلَبَةُ بَعْدَ خِلَافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١) .

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٣٦ / ١٠ / ٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢١٨ / ٨) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤٩٥ / ١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٤٨) ، =

فهذا طغيانُ المالِ وشؤمُهُ ، وقد عرفتَهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ .

ولأجلِ بركةِ الفقرِ وشؤمِ الغنى آثرَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَقْرَ لِنَفْسِهِ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ ، حَتَّى رُوِيَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : كَانَتْ لِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْزِلَةٌ وَجَاءَ ، فَقَالَ : « يَا عِمْرَانُ ؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجَاهًا ، فَهَلْ لَكَ فِي عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ » فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَامَ وَقَمْتُ مَعَهُ ، حَتَّى وَقَفَ بِيَابِ مَنْزِلِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَفَرَعَ الْبَابَ وَقَالَ : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، أَدْخُلُ ؟ » فَقَالَتْ : ادْخُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « أَنَا وَمَنْ مَعِيَ ؟ » قَالَتْ : وَمَنْ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ » ، قَالَتْ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا ؛ مَا عَلَيَّ إِلَّا عِبَاءَةٌ ، قَالَ : « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وَأَشَارَ بِيَدِهِ ، فَقَالَتْ : هَذَا جَسَدِي قَدْ وَارَيْتُهُ ، فَكَيْفَ بِرَأْسِي ؟ فَأَلْقَى إِلَيْهَا مَلَاءَةً كَانَتْ عَلَيْهِ خَلْقَةٌ ، فَقَالَ : « شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكَ » .

ثُمَّ أَذْنَتْ لَهُ فَدَخَلَ ، فَقَالَ : « السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بِنْتَاهُ ، كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ » فَقَالَتْ : أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ وَجِيعَةً ، وَزَادَنِي وَجَعًا عَلَى مَا بِي أَنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى طَعَامِ أَكْلِهِ ، فَقَدْ أَجْهَدَنِي الْجَوْعُ ، فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

- وقوله : (وتوفي ثعلبة بعد خلافة عمر) أي : في خلافة عثمان رضي الله عنه كما هو مصرح به عندهم .

وقال : « لا تجزعي يا بنتاه ، فوالله ؛ ما ذقت طعاماً منذ ثلاث ، وإنِّي لأكرمُ على الله منك ، ولو سألتُ ربِّي . . لأطعمني ، ولكنْ آثرتُ الآخرةَ على الدنيا » ، ثمَّ ضربَ بيده على مَنْكِبِها وقالَ لها : « أبشري ، فوالله ؛ إنَّكَ لسيِّدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ » ، فقالتُ : فأينَ آسيَّةُ امرأةِ فرعونَ ومريمُ بنتُ عمرانَ ؟ فقالَ : « آسيَّةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، ومريمُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وخديجةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وأنتِ سيِّدةُ نساءِ عالمِكِ ، إنَّكنَّ في بيوتٍ مِنْ قصبٍ لا أذَى فيها ولا صخبَ » ، ثمَّ قالَ لها : « اقنعي بابنِ عمِّك ، فوالله ؛ لقد زوّجتُكِ سيِّداً في الدنيا سيِّداً في الآخرةِ »^(١) .

فانظرِ الآنَ إلى حالِ فاطمةَ وهي بَضْعَةٌ مِنْ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كيفَ آثرتِ الفقرَ ، وتركتِ المالَ .

ومنَ راقبَ أحوالَ الأنبياءِ والأولياءِ وأقوالَهُمْ ، وما وردَ مِنْ أخبارِهِمْ وآثارِهِمْ . . لم يشكَّ في أنَّ فقدَ المالِ أفضلُ مِنْ وجودِهِ وإنَّ صُرِفَ إلى الخيراتِ ؛ إذ أقلُّ ما فيه معَ أداءِ الحقوقِ ، والتوقُّي مِنَ الشبهاتِ ، والصرفِ إلى الخيراتِ . . اشتغالُ الهمِّ بإصلاحِهِ ، وانصرافُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ؛ إذ لا ذَكَرَ إلا معَ الفراغِ ، ولا فراغَ معَ شغلِ المالِ .

وقد رُوِيَ عَنْ جَرِيرٍ ، عَنْ لَيْثٍ قَالَ : صحبَ رجلٌ عيسىَ بنَ مريمَ عليه

(١) رواه الآجري في « الشريعة » (١٦٠٧) ، ورواه مختصراً من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أحمدُ في « المسند » (٢٦/٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢٩/٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٦/٤٢) .

السلام ، فقال : أكون معك وأصحبك ، فانطلقا ، فانتھيا إلى شطّ نهر ، فجلسا يتغذيان ومعهما ثلاثة أرغفة ، فأكلا رغيفين ، وبقي رغيف ، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ، ثم رجع فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : مَنْ أَخَذَ الرغيف ؟ قال : لا أدري .

قال : فانطلق ومعه صاحبه ، فرأى ظبية ومعهما خشفان لها ، قال : فدعا أحدهما فأتاه ، فذبحه واشتوى منه ، فأكل هو وذلك الرجل ، ثم قال للخشف : قم بإذن الله ، فقام فذهب ، فقال : للرجل : أسألك بالذي أراك هذه الآية : مَنْ أَخَذَ الرغيف ؟ قال : لا أدري ، ثم انتھيا إلى وادي ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء ، فلما جاوزا . . قال : أسألك بالذي أراك هذه الآية ، مَنْ أَخَذَ الرغيف ؟ فقال : لا أدري .

قال : فانتھيا إلى مفازة ، فجلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام فجمع تراباً أو كتيباً ، ثم قال : كن ذهباً بإذن الله تعالى ، فصار ذهباً ، فقسّمه ثلاثة أثلاث ، فقال : ثلث لي ، وثلث لك ، وثلث لمن أخذ الرغيف ، قال : أنا الذي أخذت الرغيف ، قال : فكله لك ، وفارقه عيسى عليه السلام .

فانتھى إليه رجلان في المفازة ومعه المال ، فأرادا أن يأخذه منه ويقتلاه ، فقال : هو بيننا أثلاثاً ، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاماً نأكله ، فبعثوا أحدهم ، فقال الذي بُعث : لأي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال ، لكنني أضع في الطعام سماً فأقتلهم وأخذ المال وحدي ،

قَالَ : ففعل ، وقال ذانك الرجلان : لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال ، ولكن إذا رجع . . قتلناه واقتسمنا المال بيننا .

قَالَ : فلما رجع إليهما . . قتلاه وأكلا الطعام فماتا ، فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة قتلوا عنده ، فمرَّ بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة ، فقال لأصحابه : هذه الدنيا فاحذروها^(١) .

وحكي أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس في أيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبوراً ، فإذا أصبحوا . . تعهدوا تلك القبور وكنسوها ، وصلوا عندها ، ورعوا البقل كما ترعى البهائم ، وقد قُيِّضَ لَهُمْ في ذلك معاش من نبات الأرض ، فأرسل ذو القرنين إلى ملكهم ، فقال له : أجب ذا القرنين ، فقال : ما لي إليه حاجة ، فإن كان له حاجة . . فليأتني ، فقال ذو القرنين : صدق ، فأقبل إليه ذو القرنين وقال : أرسلت إليك لتأتي فابيت ، فهأنذا قد جئت ، فقال : لو كان لي إليك حاجة . . لأتيتك ، فقال له ذو القرنين : ما لي أراكم على الحال التي لم أر أحداً من الأمم عليها ، قال : وما ذاك ؟ قال : ليس لكم دنيا ولا شيء ، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا : إنما كرهناهما لأن أحداً لم يعط منهما شيئاً إلا تآقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه ، فقال : ما بالكم قد احتفرتُم قبوراً ، فإذا أصبحتم تعهدتموها ، فكنستموها وصلَّيتم

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩٤ / ٤٧) .

عندها ؟ قالوا : أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا . . منعنا قبورنا من الأمل ،
 قال : وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض ، أفلا اتخذتم البهائم من
 الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ؟ فقالوا : كرهنا أن نجعل
 بطوننا قبوراً لها ، ورأينا في نبات الأرض بلاغاً ، وإنما يكفي ابن آدم أدنى
 العيش من الطعام ، وإن ما جاوز الحنك من الطعام . . لم نجد له طعاماً كائناً
 ما كان من الطعام ، ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول
 جُمجُمَةً فقال : يا ذا القرنين ؛ أتدري من هذا ؟ قال : لا ، ومن هو ؟
 قال : ملك من ملوك الأرض ، أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض ، فغشم
 وظلم وعتا ، فلمّا رأى الله تعالى ذلك منه . . حسمه بالموت ، فصار
 كالحجر الملقى ، وقد أحصى الله عليه عمله حتّى يجزيه به في آخرته ، ثم
 تناول جُمجُمَةً أخرى بالية فقال : يا ذا القرنين ، هل تدري من هذا ؟ قال :
 لا ، ومن هو ؟ قال : هذا ملك ملكه الله بعده ، قد كان يرى ما يصنع الذي
 قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر ، فتواضع وخشع لله عزّ وجلّ ، وأمر
 بالعدل في أهل مملكته ، فصار كما ترى ، قد أحصى الله عليه عمله حتّى
 يجزيه به في آخرته ، ثمّ أهوى إلى جُمجُمَةٍ ذي القرنين فقال : وهذه
 الجُمجُمَةُ كأنّ قد صارت كهاتين ، فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع ، فقال
 له ذو القرنين : هل لك في صحبتي فأخذك أخاً ووزيراً وشريكاً فيما
 آتاني الله من هذا المال ؟ قال : ما أصلح أنا وأنت في مكان ، ولا أن نكون
 جميعاً ، قال ذو القرنين : ولم ؟ قال : من أجل أن الناس كلّهم لك عدوٌّ

ولي صديق ، قال : ولم ؟ قال : يعادونك لما في يدك من الملك والمال والدنيا ، ولا أجد أحداً يعاديني لرفضني لذلك ، ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء ، قال : فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظاً به^(١) .



فهذه الحكايات تدلُّك على آفات الغنى مع ما قدَّمناه من قبل ، والله الموفق للصواب .



تم كتاب ذم المال والبخل

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين

بجهد وعونه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

ينلوه كتاب ذم الجاه والزبائر

(١) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٩٥٨) ، وابن الجوزي من طريق ابن أبي الدنيا في « المنتظم » (١٨٥ / ١) .

كِتَابُ
خَيْرِ الْجَاهِ وَالسَّيِّئِ

وهو الكتاب الثامن من ربيع المسلمات
من كتب احياء علوم الدين

كتاب ذم الجاه والرياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كباير الذنوب ، العالم بما تُجَنُّهُ الضمائر من خفايا العيوب ، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات ، الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كُملَ ووفى ، وخلَصَ من شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المنفرد بالملكوت والملك ، وهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والصلاة على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك ، وسلّم كثيراً .

أما بعد :

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية »^(١) .

والرياء من الشهوة الخفية التي هي أخفى من ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢٢ / ٧) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣١٦) ، وروى ابن ماجه (٤٢٠٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراف بالله ؛ أما إنني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمرأ ولا وثناً ، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية » .

سماسرة العلماء ، فضلاً عن عامة العباد والأتقياء ، وهو من أواخر غوائل النفس ، وبواطن مكايدها ، وإنما يُتلى به العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ؛ فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات ، وصانوها عن الشبهات ، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات . . عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير ، وإظهار العمل والعلم ، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم ، فنازعت إلى إظهار الطاعة^(١) ، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ، ولم تقنع باطلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس ، ولم تقنع بحمد الله وحده ، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركها للشهوات ، وتوقفها للشبهات ، وتحملها لمشاق العبادات . . أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء ، وبالغوا في التفريظ والإطراء ، ونظروا إليها بعين التوقير والاحترام ، وتبركوا بمشاهدتها ولقائها ، ورغبوا في بركة دعائها ، وحرصوا على اتباع رأيها ، وفاتحوها بالخدمة والسلام ، وأكرموا في المحافل غاية الإكرام ، وسامحوها في البيع والمعاملات ، وقدموها في المجالس ، وآثروها بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا لها متواضعين ، وانقادوا لها في أغراضها موقرين ، فأصابَت النفس في ذلك لذة هي أعظم

(١) نازعت : اشتاقت ، وفي (أ) : (سارعت) بدل (نازعت) .

اللذات ، وشهوة هي أغلب الشهوات ، فاستحقرت فيها ترك المعاصي والهفوات ، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات ؛ لإدراكها في الباطن لذّة اللذات ، وشهوة الشهوات .

فهو يظنُّ أنَّ حياته بالله وبعبادته المرضية ، وإنَّما حياته بهذه الشهوة الخفية ، التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية ، ويرى أنَّه مخلص في طاعة الله ، ومجتنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة ؛ تزيئاً للعباد ، وتصنعاً للخلق ، وفرحاً بما نالت من المنزل والوقار ، وأحبّطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال ، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين ، وهو يظنُّ أنه عند الله من المقربين .

وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرقى عنها إلا المقربون ، ولذلك قيل : (آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حبُّ الرئاسة)^(١) .

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين ، الذي هو أعظم شبكة للشياطين . . . وجب شرح القول في سببه ، وحقيقته ، ودرجاته ، وأقسامه ، وطرق معالجته ، والحذر منه ، ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين .



(١) كما نقله القشيري وصاحب « القوت » . « إتحاف » (٢٣٢ / ٨) .

الشَّطْرُ الْأَوَّلُ في حب الجاه وشهرة

وفيه بيانُ ذمِّ الشهرةِ ، وبيانُ فضيلةِ الخمولِ ، وبيانُ ذمِّ الجاهِ ، وبيانُ معنى الجاهِ وحقيقتهِ ، وبيانُ السببِ في كونه محبوباً حبّاً أشدَّ مِنْ حُبِّ المالِ ، وبيانُ أَنَّ الجاهَ كمالٌ وهميٌّ وليسَ بكمالٍ حقيقيٍّ ، وبيانُ ما يُحمدُ مِنْ حُبِّ الجاهِ وما يُذمُّ ، وبيانُ السببِ في حُبِّ المدحِ والثناءِ وكراهةِ الذمِّ ، وبيانُ العلاجِ في حُبِّ الجاهِ ، وبيانُ علاجِ حُبِّ المدحِ ، وبيانُ علاجِ كراهةِ الذمِّ ، وبيانُ اختلافِ أحوالِ الناسِ في المدحِ والذمِّ .

فهِيَ اثنا عشرَ فصلاً ، منها تنشأُ معاني الرياءِ ، فلا بدَّ مِنْ تقديمِها ، واللهُ الموفقُ للصوابِ بلطفِهِ ومنهُ وكرمه .



بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلمُ : أَنَّ أصلَ الجاهِ هو انتشارُ الصَّيْتِ والاشتهارُ ، وهو مذمومٌ ، بلُ المحمودُ الخمولُ ، إلا مَنْ شهرةُ الله تعالى لنشرِ دينِهِ مِنْ غيرِ تكلفٍ طلبِ الشهرةِ مِنْهُ .

قالَ أنسُ رضيَ اللهُ عَنْهُ : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « حسبُ

امرىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ» (١) .

وَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « بِحَسَبِ الْمَرْءِ مِنَ الشَّرِّ - إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ السَّوْءِ - أَنْ يَشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَإِلَى أَعْمَالِكُمْ » (٢) .

وَلَقَدْ ذَكَرَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلْحَدِيثِ تَأْوِيلًا لَا بَأْسَ بِهِ ؛ إِذْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ ، فَقِيلَ لَهُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ؛ إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْكَ . . . أَشَارُوا إِلَيْكَ بِالأَصَابِعِ ، قَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَعْزِ هَذَا ، إِنَّمَا عَنِيَ بِهِ الْمُبْتَدِعُ فِي دِينِهِ ، وَالْفَاسِقُ فِي دُنْيَاهُ» (٣) .

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (تَبَذَّلْ ، لَا تَشْتَهَرْ ، وَلَا تَرْفَعْ شَخْصَكَ لِتُذَكَّرَ وَتُعَلَّمَ ، وَاكْتُمْ وَاصُمْتُ . . . تَسْلَمْ ، تَسْرُّ الأَبْرَارَ وَتَغِيظُ الْفَجَّارَ) (٤) .

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « التَّوَاضُّعِ وَالْخُمُولِ » (٣٠) ، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي « الشَّعْبِ » (٦٥٨٠) .

(٢) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « التَّوَاضُّعِ وَالْخُمُولِ » (٣١) ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ . . . » رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) رَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « التَّوَاضُّعِ وَالْخُمُولِ » (٣٢) عَنْ الْحَسَنِ مَرْسَلًا : « حَسَبِ الْمَرْءِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَشَارَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ » ، وَرَوَى قَوْلُهُ هُنَا عَقِبَهُ (٣٣) ، قَالَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي « نَوَادِرِ الْأَصُولِ » (ص ١٢٠) بَعْدَ رَوَايَةِ حَدِيثِ الْحَسَنِ : (إِنَّمَا يَشَارُ إِلَيْهِ فِي دِينٍ لِأَنَّهُ أَحْدَثَ بَدْعًا وَمَنْكَرًا ، وَفِي دُنْيَا أَحْدَثَ مَنْكَرًا مِنَ الْكِبَائِرِ) .

(٤) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « التَّوَاضُّعِ وَالْخُمُولِ » (٣٤) .

وقال إبراهيم بن أدهم : (ما صدق الله مَنْ أَحَبَّ الشهرة)^(١) .

وقال أيوب السخيتاني : (والله ؛ ما صدق الله عَبْدٌ إِلَّا سرُّهُ أَلَا يُشْعِرَ بمكانه)^(٢) .

وعن خالد بن معدان أَنَّهُ كَانَ إِذَا كَثُرَتْ حَلَقَتُهُ . . قَامَ مخافة الشهرة^(٣) .

وعن أبي العالية أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَلَسَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثَةٍ . . قَامَ^(٤) .

ورأى طلحة قوماً يمشون معه أَكْثَرُ مِنْ عَشْرَةٍ ، فَقَالَ : ذَبَابُ طَمَعٍ ، وَفَرَّاشُ نَارٍ^(٥) .

وقال سليم بن حنظلة : بينا نحنُ حولَ أبي بن كعبٍ نمشي خلفه ؛ إِذْ رَأَاهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنه ، فعلاه بالدرّةِ ، فقال : انظُرْ يا أميرَ المؤمنينَ ما تصنعُ ، فقال : إِنَّ هَذِهِ ذَلَّةٌ لِلتَّابِعِ ، وَفِتْنَةٌ لِلْمَتَّبِعِ^(٦) .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١ / ٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٧٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٤٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٤٧) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٠) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥١) ، وقد أورد نصر بن مزاحم في

« وقعة صفين » (٥٣٢) ، وروى الطبري في « تاريخه » (٦٢ / ٥) أن حرب بن

شرحبيل - وكان ذا شأن في قومه - أقبل يمشي مع سيدنا علي رضي الله عنه وهو راكب ،

فقال له علي : ارجع ، فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن .

وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوماً من منزله ، فاتبعه أناس ، فالتفت إليهم فقال : علام تتبعوني ؟ فوالله ؛ لو تعلمون ما أغلق عليه بابي .. ما اتبعني منكم رجلان^(١) .

وقال الحسن : (إن خفق النعال حول الرجال قلما تثبت معه قلوب الحمقى)^(٢) .

وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم ، فقال : هل لكم من حاجة ؟ وإلا .. فما عسى أن يبقِيَ هذا من قلب المؤمن ؟^(٣) .

وروي أن رجلاً صحب ابن محيريز في سفر ، فلما فارقه .. قال : أوصني ، قال : إن استطعت أن تعرف ولا تعرف ، وتمشي ولا يمشي إليك ، وتسال ولا تسأل .. فافعل^(٤) .

وخرج أيوب في سفر ، فتبعه ناس كثير ، فقال : لولا أنني أعلم أن الله يعلم من قلبي أنني لهذا كاره .. لخشيت المقت من الله تعالى^(٥) .

وقال معمر : عاتبت أيوب على طول قميصه ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله ، وهي اليوم في تسميره^(٦) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٥) ، وفيه وفي (ب) : (ألا تعرف) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٩) ، وأيوب هو السخيتاني .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦١) .

وقال بعضهم : كنّا مع أبي قلابة ؛ إذ دخل عليه رجل عليه أكسية ، فقال : إياكم وهذا الحمار النّهاق . . يشيرُ به إلى طلب الشهرة^(١) .

وقال الثوري : (كانوا يكرهون الشهرتين ؛ الثيابَ الجيّدة ، والثيابَ الرديئة ؛ إذ الأبصارُ تمتدُّ إليهما جميعاً)^(٢) .

وقال رجلٌ لبشرِ بنِ الحارث : أوصني ، فقال : أخِمْلْ ذَكَرَكَ ، وطَيِّبْ مطعَمَكَ^(٣) .

وكان حوشبٌ يكي ويقولُ : بلغَ اسمي مسجدَ الجامع^(٤) .

وقال بشرٌ : (ما أعرفُ رجلاً أحبَّ أن يُعرفَ إلا ذهبَ دينُهُ وافتَضَحَ)^(٥) .

وقال أيضاً : (لا يجدُ حلاوةَ الآخرةِ رجلٌ يحبُّ أن يعرفَهُ الناسُ)^(٦) .



- (١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٥) .
- (٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٤) ، وجاء النهي عن الشهرتين مرفوعاً كما رواه البيهقي في « الشعب » (٥٨٢١) وقد سئل صلى الله عليه وسلم : ما الشهرتان ؟ فقال : « رقة الثياب وغلظها ، ولينها وخشونتها ، وطولها وقصرها ، ولكن سداد فيما ذلك واقتصاد » .
- (٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٩) .
- (٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٠) .
- (٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) .
- (٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) .

بيان فضيلة النحول

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرِينٍ ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ . . . لِأَبْرَةٍ ، مِنْهُمْ الْبِرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » (١) .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « رُبَّ ذِي طَمْرِينٍ ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ . . . لِأَبْرَةٍ ، لَوْ قَالَ : اللَّهُمَّ ؛ أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ . . . لِأَعْطَاةِ الْجَنَّةِ ، وَلَمْ يَعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا » (٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ . . . لِأَبْرَةٍ ، وَأَهْلُ النَّارِ كُلُّ مُسْتَكْبِرٍ جَوَاطِظٍ » (٣) .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرِينٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأَمْراءِ . . . لَمْ يُؤْذَنُ لَهُمْ ، وَإِذَا خَطَبُوا النِّسَاءَ . . . لَمْ يُنْكَحُوا ، وَإِذَا قَالُوا . . . لَمْ يُنْصَتْ لِقَوْلِهِمْ ،

(١) رواه الترمذي (٣٨٥٤) ، وأصله عند مسلم (٢٦٢٢) .

(٢) رواه تمام في « فوائده » (١٦٦٣) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا ، ومن طريقه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » بسند ضعيف) . « إتحاف » (٢٣٥ / ٨) .

(٣) رواه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) .

حوائج أحدهم تتجلجل في صدره ، لو قُسمَ نوره يوم القيامة على الناس ..
لوسعهم» (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتي من لو أتى أحدكم فسأله ديناراً .. لم يعطه إيّاه ، ولو سأله درهماً .. لم يعطه إيّاه ، ولو سأله فلساً .. لم يعطه إيّاه ، ولو سأل الله تعالى الجنة .. أعطاه إيّاها ، ولو سأله الدنيا .. لم يعطه إيّاها ، وما منعها إيّاه لهوائه عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله .. لأبره» (٢) .

وروي أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد ، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما يبكيك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله تعالى يحب الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا .. لم يفقدوا ، وإن حضروا .. لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة» (٣) .

وقال محمد بن سويد : قُحط أهل المدينة ، وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ، لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما هم في دعائهم ؛ إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان ، فصلّى ركعتين ، وأوجز

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٠٤ ، ١٠٠٠٥) ، وصدره : « إن ملوك أهل الجنة ... » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١) عن سالم بن أبي الجعد مرسلًا .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨) واللفظ له .

فيهما ، ثم بسط يديه ، فقال : يا ربّ ؛ أقسمتُ عليكِ إلا أمطرتَ علينا الساعةَ ، فلم يردّ يديه ، ولم يقطعْ دعاءَهُ حتّى تَغَشَّتِ السماءُ بالغيَمِ وأمطروا ، حتّى صاحَ أهلُ المدينةِ مِنْ مخافةِ الغرقِ ، فقال : يا ربّ ؛ إن كنتَ تعلمُ أنّهم قد اكتفوا.. فارفعْ عنهم ، فسكنَ ، وتبعَ الرجلُ صاحبَ المطرِ حتّى عرفَ منزلهُ ، ثمّ بكرَّ إليه ، فخرجَ إليه ، فقال : إنّي أتيتُكَ في حاجةٍ ، قال : وما هي ؟ قال : تخصّني بدعوةٍ ، قال : سبحانَ الله ؛ أنتَ أنتَ وتسالني أن أخصّكَ بدعوةٍ ! قال : ما الذي بلغكَ ما رأيتُ ؟ قال : أظعتُ اللهَ فيما أمرني ونهاني ، فسألتهُ فأعطاني^(١) .

وقال ابنُ مسعودٍ : (كونوا ينابيعَ العلمِ ، مصابيحَ الهدى ، أحلاسَ البيوتِ ، سُرجَ الليلِ ، جُدَدَ القلوبِ ، خُلُقَانَ الثيابِ ، تُعرفونَ في أهلِ السماءِ وتُخفونَ في أهلِ الأرضِ)^(٢) .

وقال أبو أمامةٍ : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالى : إنّ أغبطَ أوليائي عندي مؤمنٌ خفيفُ الحاذِ ، ذو حظٍّ مِنْ صلاةٍ ، أحسنَ عبادةِ ربِّهِ وأطاعةٍ في السِّرِّ ، وكانَ غامضاً في الناسِ لا يُشارُ إليه بالأصابعِ ، فمَنْ صبرَ على ذلكَ » قالَ : ثمّ نقرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيدهِ وقالَ : « .. عَجَلْتُ مِنْهُ ، وقلّ ترائُهُ ، وقلّتْ بواكيهِ »^(٣) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) ، وابن ماجه (٤١١٧) .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أحبُّ عبادِ الله إلى اللهِ الغرباءُ ،
قيل : ومنَ الغرباءُ ؟ قال : الفارُّونَ بدينهم ، يجتمعونَ يومَ القيامةِ إلى
عيسى بن مريمَ عليه السلام^(١) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغني أنَّ الله تعالى يقولُ في بعضِ ما يُمْنُ به
على عبده : (أَلَمْ أَنْعَمْ عَلَيْكَ ؟ أَلَمْ أُسْتَرْكَ ؟ أَلَمْ أَخْمِلْ ذَكَرَكَ ؟)^(٢) .

وكان الخليل بن أحمد يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلني عندَكَ مِنْ أرفعِ خَلْقِكَ ،
واجعلني عندَ نفسي مِنْ أَوْضَعِ خَلْقِكَ ، واجعلني عندَ الناسِ مِنْ أَوْسَطِ خَلْقِكَ)^(٣) .
وقال الثوري : (وجدتُ قلبي يصلحُ بمكةَ والمدينةِ مع قومِ غرباءَ ،
أصحابِ بُتوتٍ وعباءٍ)^(٤) .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما قرئت عيني في الدنيا قطُّ إلا مرَّةً ، بثُّ ليلةً
في بعضِ مساجدِ قرى الشامِ ، وكان بي البطنُ ، فجزَّني المؤذنُ برجلي حتَّى
أخرجني مِنَ المسجدِ^(٥) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢) ، وبتوت : جمع بثُّ ، الطيلسان
من خَزْ ونحوه ، وهو كساء غليظ مهلهل مربع أخضر ، وقيل : هو من وبر وصوف ،
وعباء - بفتح العين - : جمع عباءة .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٨) ، وهو ضمن خبر طويل ساقه
اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ٣٠٣) .

وقال الفضيل : (إن قدرت ألا تعرف . . فافعل ، وما عليك ألا تعرف ؟
وما عليك ألا يُثنى عليك ؟ وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت
محموداً عند الله تعالى ؟) (١) .

فهذه الأخبار والآثار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول ، وإنما
المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب ، وحب
الجاه هو منشأ كل فساد .



فإن قلت : فأني شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة
العلماء ؟ فكيف فاتهم فضيلة الخمول ؟

فاعلم : أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله تعالى من
غير تكلف من العبد . . فليس بمذموم .

نعم ، فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء ، وذلك كالغريق الضعيف إذا
كان معه جماعة من الغرقى ، فالأولى به ألا يعرفه أحد منهم ؛ فإنهم يتعلقون
به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم ، وأما القوي . . فالأولى أن يعرفه الغرقى
ليتعلقوا به ، فينجيهم ويثاب على ذلك .



(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٧) .

بيان ذم حب الجاه

قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ ، جمع بين إرادة الفساد والعلو ، ويُنَّ أن الدار الآخرة للخالين عن الإرادتين جميعاً .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وهذا أيضاً متناولٌ بعمومه لحب الجاه ؛ فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا ، وأكثر زينة من زينتها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حب المال والجاه يبتان النفاق في القلب كما يُنبِت الماء البقل » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم »^(١) .

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « ما ذئبان جائعان أرسلتا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » ، وبنحو لفظ المصنف مروي عند الطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : « إنما هلاكُ الناسِ
 باتباعِ الهوى وحبِّ الشاءِ » (١) .
 نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه .



(١) تقدم معناه ، وهو حديث : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب
 المرء برأيه » .

بيان معنى الجاه وتحقيقته

اعلم : أنَّ الجاهَ والمالَ هما ركنا الدنيا .

ومعنى المالِ : ملكُ الأعيانِ المتفع بها .

ومعنى الجاه : ملكُ القلوبِ المطلوبِ تعظيمُها وطاعتُها .

وكما أنَّ الغنيَّ هو الذي يملكُ الدراهمَ والدنانيرَ ؛ أي : يقدرُ عليهما ؛ ليتوصلَ بهما إلى الأغراضِ والمقاصدِ وقضاءِ الشهواتِ وسائرِ حظوظِ النفسِ . . فكَذلكَ ذو الجاهِ ، هو الذي يملكُ قلوبَ الناسِ ؛ أي : يقدرُ على أن يتصرفَ فيها ؛ ليستعملَ بواسطتها أربابها في أغراضِهِ ومآربِهِ ، وكما أنَّه يكتسبُ الأموالَ بأنواعٍ مِنَ الحرفِ والصناعاتِ . . فكَذلكَ يكتسبُ قلوبَ الخلقِ بأنواعٍ مِنَ المعاملاتِ ، ولا تصيرُ القلوبُ مسخرةً إلا بالمعارفِ والاعتقاداتِ ، فكلُّ مَنْ اعتقدَ القلبُ فيه وصفاً مِنْ أوصافِ الكمالِ . . انقادَ لَهُ ، وتسخرَ لَهُ بحسبِ قوَّةِ اعتقادهِ ، وبحسبِ درجةِ ذلكَ الكمالِ عندهُ ، وليسَ يُشترطُ أن يكونَ الوصفُ كمالاً في نفسه ، بل يكفي أن يكونَ كمالاً عندهُ وفي اعتقادهِ .

وقدَ يعتقِدُ ما ليسَ كمالاً كمالاً ، ويدعُنُ قلبُهُ للموصوفِ بهِ انقياداً ضرورياً بحسبِ اعتقادهِ ؛ فإنَّ انقيادَ القلبِ حالٌ للقلبِ ، وأحوالُ القلوبِ تابعةٌ لاعتقاداتِ القلوبِ وعلومِها وتخيلاتِها ، وكما أنَّ محبَّ المالِ يطلبُ

ملك الأرقاء والعبيد . . فطالب الجاه يطلب أن يسترَقَّ الأحرارَ ويستعبدَهُمْ ،
ويملك رقابَهُمْ بملكِ قلوبِهِمْ ، بل الرِّقُّ الذي يطلبُهُ صاحبُ الجاهِ أعظمُ ؛
لأنَّ المالكَ يملكُ العبدَ قهراً والعبدُ متأبِّ بطبيعِهِ ، ولو خُلِّيَ ورأيه . . انسلَّ
عن الطاعةِ ، وصاحبُ الجاهِ يطلبُ الطاعةَ طوعاً ، ويبغي أن يكونَ له
الأحرارُ عبيداً بالطبعِ والطوعِ مع الفرحِ بالعبوديةِ والطاعةِ له ، فما يطلبُهُ فوقَ
ما يطلبُهُ مالكُ الرِّقِّ بكثيرٍ .

فإذا ؛ معنى الجاهِ : قيامُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ ؛ أي : اعتقادُ القلوبِ
لنعتٍ مِنْ نعوتِ الكمالِ فيه ، فبقدرِ ما يعتقدونَ مِنْ كمالِهِ تدعُنُ لَهُ قلوبُهُمْ ،
وبقدرِ إذعانِ القلوبِ تكونُ قدرتهُ على القلوبِ ، وبقدرِ قدرتهِ على القلوبِ
يكونُ فرحُهُ وحبُّهُ للجاهِ .

فهذا هو معنى الجاهِ وحقيقتهُ ، وله ثمراتٌ ؛ كالمدحِ والإطراءِ ، فإنَّ
المعتقدَ للكمالِ لا يسكتُ عن ذكرِ ما يعتقدُهُ ، فيثني عليه ، وكالخدمةِ
والإعانةِ ؛ فإنه لا يبخلُ ببذلِ نفسهِ في طاعتهِ بقدرِ اعتقادِهِ ، فيكونُ سخرةً له
مثلَ العبدِ في أغراضِهِ ، وكالإيثارِ ، وتركِ المنازعةِ ، والتعظيمِ والتوقيرِ ؛
بالمفاتحةِ بالسلامِ ، وتسليمِ الصدرِ في المحافلِ ، والتقديمِ في جميعِ
المقاصدِ .

فهذه آثارُ تصدرُ عن قيامِ الجاهِ في القلبِ ، ومعنى قيامِ الجاهِ في
القلبِ : اشتغالُ القلوبِ على اعتقادِ صفاتِ الكمالِ في الشخصِ ؛ إمَّا

بعلم ، أو عبادة ، أو حسن خلق ، أو نسب ، أو ولاية ، أو جمال في
صورة ، أو قوة في بدن ، أو شيء مما يعتقدُه الناسُ كمالاً ، فإنَّ هذه
الأوصافَ كلّها تعظمُ محلَّه في القلوبِ ، فتكونُ سبباً لقيام الجاهِ ، واللهُ
تعالى أعلمُ .



بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم : أنَّ السببَ الذي يقتضي كونَ الذهبِ والفضةِ وسائرِ أنواعِ الأموالِ محبوباً . . هو بعينه يقتضي كونَ الجاهِ محبوباً .

بل يقتضي أن يكونَ أحبَّ منَ المالِ ، كما يقتضي أن يكونَ الذهبُ أحبَّ منَ الفضةِ مهما تساويا في المقدارِ ، وهو أنَّك تعلمُ أنَّ الدراهمَ والدنانيرَ لا غرضَ في أعيانها ؛ إذ لا تصلحُ لمطعمٍ ولا مشربٍ ولا منكِحٍ ولا ملبسٍ ، وإنَّما هيَ والحصباءُ بمثابةِ واحدةٍ ، ولكنها محبوبَةٌ لأنَّها وسيلةٌ إلى جميعِ المحابِّ ، وذريعةٌ إلى قضاءِ الشهواتِ ، فكَذلكَ الجاهُ ؛ لأنَّ معنى الجاهِ ملكُ القلوبِ ، وكما أنَّ ملكَ الذهبِ والفضةِ يفيدُ قدرةً يتوصَّلُ الإنسانُ بها إلى سائرِ أغراضِهِ . . فكَذلكَ ملكُ قلوبِ الأحرارِ والقدرةُ على استسخارِها يفيدُ قدرةً على التوصلِ إلى جميعِ الأغراضِ .

فالاشتراكُ في السببِ اقتضى الاشتراكَ في المحبةِ ، وترجيحُ الجاهِ على المالِ اقتضى أن يكونَ الجاهُ أحبَّ منَ المالِ .



ولملكِ القلوبِ ترجيحُ على ملكِ المالِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

الأوَّلُ : أنَّ التَّوصَّلَ بالجاهِ إلى المالِ أيسرُ مِنَ التَّوصَّلِ بالمالِ إلى

الجاه ، فالعالمُ أو الزاهدُ الذي تَقَرَّرَ لَهُ جَاهٌ فِي الْقُلُوبِ لَوْ قَصَدَ اكْتِسَابَ الْمَالِ . . تيسَّرَ لَهُ ؛ فَإِنَّ أَمْوَالَ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ مَسْخَرَةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَمَبْذُولَةٌ لِمَنْ اعْتَقَدَ فِيهِ الْكَمَالَ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْخَسِيسُ الَّذِي لَا يَتَّصِفُ بِصِفَةِ كَمَالٍ إِذَا وَجَدَ كَنْزًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ جَاهٌ يَحْفَظُ مَالَهُ ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَوَصَّلَ بِالْمَالِ إِلَى الْجَاهِ . . لَمْ يَتيسَّرْ لَهُ .

فَإِذَا ؛ الْجَاهُ آلَةٌ وَوَسِيلَةٌ إِلَى الْمَالِ ، فَمَنْ مَلَكَ الْجَاهَ . . فَقَدْ مَلَكَ الْمَالَ أَيْضًا ، وَمَنْ مَلَكَ الْمَالَ . . لَمْ يَمْلِكِ الْجَاهَ بِكُلِّ حَالٍ ، فَلِذَلِكَ صَارَ الْجَاهُ أَحَبَّ .



الثاني : هُوَ أَنَّ الْمَالَ مَعْرُضٌ لِلْبُلُوْىِ وَالتَّلَفِ ؛ بِأَنْ يُسْرَقَ وَيُغْصَبَ ، وَيَطْمَعَ فِيهِ الْمُلُوكُ وَالظُّلَمَةُ ، وَيَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْحَفَظَةِ وَالْحِرَاسِ وَالْخَزَائِنِ ، وَتَطَّرَقُ إِلَيْهِ أخطارٌ كَثِيرَةٌ ، وَأَمَّا الْقُلُوبُ إِذَا مُلِكَتْ . . لَمْ تَعْرِضْ لِهَذِهِ الْآفَاتِ ، فَهِيَ عَلَى التَّحْقِيقِ خَزَائِنٌ عَتِيدَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا السَّرَاقُ ، وَلَا تَتَنَاوَلُهَا أَيْدِي النُّهَابِ وَالْغُصَّابِ ، وَأُثْبِتُ الْأَمْوَالَ الْعَقَارُ ، وَلَا يُؤْمَنُ فِيهِ الْغُصْبُ وَالظُّلْمُ ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْ الْمِرَاقِبَةِ وَالْحَفَظِ ، وَأَمَّا خَزَائِنُ الْقُلُوبِ . . فَهِيَ مُحْفُوظَةٌ مُحْرُوسَةٌ بِأَنْفُسِهَا ، وَذُو الْجَاهِ فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ مِنَ الْغُصْبِ وَالسَّرَقَةِ فِيهَا .

نعم ، إِنَّمَا تُغْصَبُ الْقُلُوبُ بِالتَّضْرِيبِ^(١) ، وَتَقْبِيحِ الْحَالِ ، وَتَغْيِيرِ

(١) التضرِبُ بَيْنَ الْقَوْمِ : الْإِغْرَاءُ .

الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك ممّا يهون دفعه ،
ولا يتيسر على محاوله فعله .



الثالث : أن ملك القلوب يسري ويُنمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب
ومقاساة ؛ فإن القلوب إذا أذعنّت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو
غيره . . أفصحّت الألسنة - لا محالة - بما فيها ، فيصف ما يعتقده لغيره ،
ويقتنص ذلك القلب أيضاً له ، ولهذا المعنى يحبّ الطبع الصيت وانتشار
الذكر ؛ لأن ذلك إذا استطار في الأقطار . . اقتنص القلوب ، ودعاها إلى
الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد ، وليس له
مردّ معين .

وأما المال : فمن ملك منه شيئاً . . فهو مالكه ، ولا يقدر على استنمايه
إلا بتعب ومقاساة ، والجاه أبداً في النماء بنفسه ، ولا مردّ لموقعه ، والمال
واقف ؛ ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء . .
استحققت الأموال في مقابلة ذلك .

فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال ، وإذا فصلت . . كثرت وجوه
الترجيح .



فإن قلت : فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً ، فلم ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه ؟

نعم ، القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملائد ودفع المضار معلوم ؛ كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم ، أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه . فحبه للمال والجاه معلوم ؛ إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا ، وهو حب جمع الأموال ، وكنز الكنوز ، وادخار الذخائر ، واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب . لا يتغى إليهما ثالثاً ، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه ، وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ؛ ليعظموه ، أو ليرثوه بمال ، أو ليعينوه على غرض من أغراضه ، ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاز ، وحب ذلك ثابت في الطبع ، ويكاد يُظن أن ذلك جهل ؛ فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة .

فنقول : نعم ، هذا الحب لا تنفك عنه القلوب ، وله سببان : أحدهما جلبي تدركه الكافة ، والآخر خفي ، وهو أعظم السببين ، ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء ؛ وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس ، وطبيعة مستكنة في الطبع ، لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون .

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ؛ لأن الشفيق^(١) بسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل ، ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف ، فيحتاج إلى غيره ، فإذا خطر ذلك بباله . . . حاج الخوف من قلبه ، ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفرغ إليه إن أصابت هذا المال جائحة ، فهو أبداً لشقيقته على نفسه وحبّه للجاه يقدّر طول الحياة ، ويقدر هجوم الحاجات ، ويقدر إمكان تطرّق الآفات إلى الأموال ، ويستشعر الخوف من ذلك ، فيطلب ما يدفع خوفه ، وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطائفة من ماله . . . استغنى بالآخر .

وهذا خوف لا موقف له عند مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « منهومان لا يشبعان ؛ منهوم العلم ، ومنهوم المال »^(٢) .

ومثل هذه العلة تطرد في حبّه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأبعاد عن وطنه وبلده ؛ فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن ، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ويحتاج إلى الاستعانة بهم ، ومهما كان ذلك ممكناً ، ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة . . . كان للنفس فرح

(١) أي : الخائف على نفسه . « إتحاف » (٢٤١ / ٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » (٩٢ / ١) من حديث أنس مرفوعاً ، ولفظه : « منهومان لا يشبعان : منهوم في علم لا يشبع ، ومنهوم في دنيا لا يشبع » .

ولذة بقيام الجاه في قلوبهم ؛ لما فيه من الأمن من هذا الخوف .

وأما السبب الثاني - وهو الأقوى - : أن الروح أمر رباني ، به وصفه الله تعالى ؛ إذ قال سبحانه : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، ومعنى كونه ربانياً : أنه من أسرار علوم المكاشفة ، ولا رخصة في إظهاره ؛ إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلاً إلى صفات بهيمية ؛ كالأكل والوقاع ، وإلى صفات سبعية ؛ كالقتل والضرب والإيذاء ، وإلى صفات شيطانية ؛ كالمكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية ؛ كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء ؛ وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرح تفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحبُّ الربوبية بالطبع ، ومعنى الربوبية : التوحد بالكمال ، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال ، فصار الكمال من نعوت الإلهية ، فصار محبوباً بالطبع للإنسان ، والكمال بالتفرد بالوجود ؛ فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة ، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى . . . لكان ذلك نقصاناً في حقها ؛ إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية .

والمنفرد بالوجود هو الله تعالى ؛ إذ ليس معه وجود سواه ، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته ، لا قوام له بذاته ، بل هو قائم به ، فلم يكن

(١) كما في « البخاري » (١٢٥) ، و« مسلم » (٢٧٩٤) .

موجوداً معه ؛ لأنَّ المعية توجب المساواة في الرتبة ، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال ، بل الكامل مَنْ لا نظيرَ له في رتبته ، فكما أنَّ إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس ، بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمسٍ أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها . . فكَذلك وجود كلِّ ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة ، فيكون تابعاً ولا يكون معاً .

فإذا ؛ معنى الربوبية : التفرد بالوجود ، وهو الكمال ، وكلُّ إنسانٍ فإنه بطبعه محبٌّ لأن يكون هو المنفرد بالكمال ؛ ولذلك قال بعضُ مشايخ الصوفية : (ما من إنسانٍ إلا وفي باطنه ما صرَّح به فرعون من قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ، ولكنه ليس يجدُّ له مجالاً) ، وهو كما قال ؛ فإنَّ العبودية قهرٌ على النفس ، والربوبية محبوبة بالطبع ، وذلك للنسبة الربانية التي أوما إليها قوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ .

ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال . . لم تسقط شهوتها للكمال ، فهي محبة للكمال ، ومشتهية له ، وملتذذة به لذاته ، لا لمعنى آخر وراء الكمال ، فكلُّ موجودٍ فهو محبٌّ لذاته ، ولكمال ذاته ، ومبغضُ الهلاك الذي هو عدم ذاته ، أو عدم صفات الكمال من ذاته ، وإنما الكمال بعد أن يسلم له التفرد بالوجود في الاستيلاء على كلِّ الموجودات ، فإنَّ أكمل الكمال أن يكون وجودٌ غيرك منك ، فإن لم يكن منك . . فإن تكون مستولياً عليه ، فصار الاستيلاء على الكلِّ محبوباً بالطبع ؛ لأنه نوعُ كمال ،

وكلُّ موجودٍ يعرفُ ذاتهُ فإنَّهُ يحبُّ ذاتهُ ، ويحبُّ كمالَ ذاتهِ ويلتذُّ بهِ ، إلا أنَّ الاستيلاءَ على الشيءِ . . . بالقدرةِ على التأثيرِ فيه ، وعلى تغييرهِ بحسبِ الإرادةِ ، وكونهِ مسخراً لكَ تردُّدُهُ كيفَ تشاءُ ، فأحبُّ الإنسانُ أن يكونَ لهُ الاستيلاءُ على كلِّ الأشياءِ الموجودةِ معهُ ، إلا أنَّ الموجوداتِ منقسمةٌ :

إلى ما لا يقبلُ التغييرَ في نفسه ؛ كذاتِ اللهِ تعالى وصفاتهِ .

وإلى ما يقبلُ التغييرَ ولكن لا تستولي عليه قدرةُ الخلقِ ؛ كالأفلاكِ ، والكواكبِ ، وملَكوتِ السماواتِ ، ونفوسِ الملائكةِ والجنِّ والشیاطينِ ، والجبالِ ، والبحارِ ، وما تحتَ الجبالِ والبحارِ .

وإلى ما يقبلُ التغييرَ بقدرةِ العبدِ ؛ كالأرضِ وأجزائها ، وما عليها من المعادنِ والنباتِ والحيوانِ ، ومن جملتها قلوبُ الناسِ ؛ فإنَّها قابلةٌ للتأثيرِ والتغييرِ مثلَ أجسادِهِم وأجسادِ الحيواناتِ .

فإذا ؛ انقسمتِ الموجوداتُ إلى ما يقدرُ الإنسانُ على التصرفِ فيه ؛ كالأرضياتِ ، وإلى ما لا يقدرُ على التصرفِ فيه ؛ كذاتِ اللهِ تعالى ، والملائكةِ ، والسماواتِ ، فأحبُّ الإنسانُ أن يستوليَ على السماواتِ بالعلمِ والإحاطةِ والاطلاعِ على أسرارِها ، فإنَّ ذلكَ نوعُ استيلاءٍ ؛ إذ المعلومُ المحاطُ بهِ كالداخلِ تحتَ العلمِ ، والعالمُ كالمستولي عليه ؛ فلذلكَ أحبُّ أن يعرفَ اللهَ تعالى ، والملائكةُ ، والأفلاكُ والكواكبُ ، وجميعَ عجائبِ السماواتِ ، وعجائبِ البحارِ والجبالِ وغيرها ؛ لأنَّ ذلكَ نوعُ استيلاءٍ

عليها ، والاستيلاء نوع كمال ، وهذا يضاهي اشتياق مَنْ عجزَ عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها ؛ كَمَنْ يعجزُ عن وضع الشطرنج ، فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به ، وأنه كيف وُضع ، وكَمَنْ يرى صنعة عجيبة في الهندسة ، أو الشعبة ، أو جرّ الثقل أو غيره ، وهو مستشعرٌ في نفسه نقص العجز والقصور عنه ، ولكنه يشاق إلى معرفة كيفيته ، فهو متألم بنقص العجز ، متلذذ بكمال العلم إن علمه .

وأما القسم الثاني : وهو الأرضيات التي يقدرُ الإنسان عليها . فإنه يحبُّ بالطبع أن يستوليَ عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد ، وهي قسمان : أجساد ، وأرواح .

أما الأجساد : فهي الدراهم ، والدنانير ، والأمتعة ، فيحبُّ أن يكون قادراً عليها ، يفعلُ فيها ما شاء من الرفع والوضع ، والتسليم والمنع ، فإن ذلك قدرة ، والقدرة كمال ، والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع ، فلذلك أحبُّ الأموال وإن كان لا يحتاجُ إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهواتِ نفسه ، وكذلك طلبُ استرقاق العبيد واستعباد أشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة ، حتّى يتصرّف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار وإن لم يملك قلوبهم ؛ فإنها ربّما لم تعتقد كماله حتّى يصير محبوباً لها وتقوم منزلته فيها ، فإن الحشمة القهرية أيضاً لذيدة ؛ لما فيها من القدرة .

القسم الثاني : نفوسُ الآدميين وقلوبهم ، وهي أنفسُ ما على وجه

الأرض ، فهو يحبُّ أن يكونَ له استيلاءٌ وقدرةٌ عليها ؛ لتكونَ مسخرةً له ، متصرفةً تحتَ إشارتهِ وإرادتهِ ؛ لما في ذلكَ مِن كمالِ الاستيلاءِ والتشبهِ بالصفاتِ الربَّانيةِ ، والقلوبُ إنَّما تتسَخَّرُ بالحبِّ ، ولا تحبُّ إلا باعتقادِ الكمالِ ، فإنَّ كلَّ كمالٍ محبوبٌ ؛ لأنَّ الكمالَ مِنَ الصفاتِ الإلهيةِ ، والصفاتُ الإلهيةُ كُلُّها محبوبةٌ بالطَّبعِ ؛ للمعنى الربانيِّ مِن جملةِ معاني الإنسانِ ، وهو الذي لا يبليه الموتُ فيعدمه ، ولا يتسلطُ عليه الترابُ فيأكله ، فإنَّه محلُّ الإيمانِ والمعرفةِ ، وهو الواصلُ إلى لقاءِ الله تعالى والساعي إليه .

فإذا ؛ معنى الجاهِ : تسخيرُ القلوبِ ، وَمَنْ تَسَخَّرَتْ لَهُ القلوبُ . . كَانَتْ لَهُ قدرةٌ واستيلاءٌ عليها ، والقدرةُ والاستيلاءُ كمالٌ ، وهو مِن أوصافِ الربوبيةِ .

فإذا ؛ محبوبُ القلبِ بطبيعهِ الكمالُ بالعلمِ والقدرةِ ، والمالُ والجاهُ مِن أسبابِ القدرةِ ، ولا نهايةَ للمعلوماتِ ، ولا نهايةَ للمقدوراتِ ، وما دامَ يبقى معلومٌ أو مقدورٌ فالشوقُ لا يسكنُ ، والنقصانُ لا يزولُ ؛ ولذلك قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ »^(١) .

فإذا ؛ مطلوبُ القلوبِ الكمالُ ، والكمالُ بالعلمِ والقدرةِ ، وتفاوتُ الدرجاتِ فِيهِ غيرُ محصورٍ ، فسرورُ كلِّ إنسانٍ ولذَّتهُ بقدرِ ما يدركهُ مِنَ الكمالِ .

(١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٩٢ / ١) .

فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوباً ، وهو أمرٌ - وراء كونه محبوباً - لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات ، فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات ، بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض ، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات ، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات ؛ لأن في العلم استيلاء على المعلوم ، وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية ؛ فكان محبوباً بالطبع ، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها ، إن شاء الله تعالى .



بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة ،
ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي .



وبيانه : أن كمال العلم لله تعالى ، وذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : من حيث كثرة المعلومات وسعتها ؛ فإنه محيط بجميع
المعلومات ؛ فذلك كلما كانت علوم العبد أكثر . . كان أقرب إلى الله
تعالى .

والثاني : من حيث تعلُّق العلم بالمعلوم على ما هو به ، وكون المعلوم
مكشوفاً به كشفاً تاماً ، فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى باتِّمِّ أنواع الكشف
على ما هي عليه ؛ فذلك مهما كان علم العبد أوضح ، وأيقن وأصدق ،
وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم . . كان أقرب إلى الله تعالى .

والثالث : من حيث بقاء العلم أبد الآب ، بحيث لا يتغير ولا يزول ،
فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير .

فذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب . . كان
أقرب إلى الله تعالى .



والمعلوماتُ قسمان : متغيرات وأزليات :

أمَّا المتغيراتُ : فمثالُها : العلمُ بكونِ زيدٍ في الدارِ ، فإنه علمٌ له معلومٌ ، ولكن يُتصوَّرُ أن يخرجَ زيدٌ مِنَ الدارِ ، ويبقى اعتقادُ كونه في الدارِ كما كانَ ، فينقلبُ جهلاً ، فيكونُ نقصاناً لا كمالاً ، فكلُّ ما اعتقدته اعتقاداً موافقاً له وتُصوَّرُ أن ينقلبَ المعتقدُ فيه عمّا اعتقدته . . كنتَ بصددِ أن ينقلبَ كمالُكَ نقصاً ، ويعودَ علمُكَ جهلاً .

ويلتحقُ بهذا المثالِ جميعُ متغيراتِ العالمِ ؛ كعلمِكَ مثلاً بارتفاعِ جبلٍ ، ومساحةِ أرضٍ ، وبعددِ البلادِ ، وتباعدِ ما بينها مِنَ الأميالِ والفراسخِ ، وسائرِ ما يُذكرُ في المسالكِ والممالكِ ، وكذلك العلمُ باللغاتِ التي هي اصطلاحاتٌ تتغيَّرُ بتغيُّرِ الأعصارِ والأممِ والعاداتِ ، فهذه علومٌ معلوماتُها مثلُ الزُّبُقِ ، تتغيَّرُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ ، فليسَ فيها كمالٌ إلا في الحالِ ، ولا يبقى كمالاً في القلبِ .

والقسمُ الثاني : هي المعلوماتُ الأزليَّةُ : وهي جوازُ الجائزاتِ ، ووجوبُ الواجباتِ ، واستحالةُ المستحيلاتِ ، فإنَّ هذه معلوماتُ أزليَّةٌ أبديةٌ ؛ إذ لا يستحيلُ الواجبُ قطُّ جائزاً ، ولا الجائزُ محالاً ، ولا المحالُ واجباً ، وكلُّ هذه الأقسامِ داخلةٌ في معرفةِ الله ، وما يجبُ له ، وما يستحيلُ في صفاته ، ويجوزُ في أفعاله ، فالعلمُ بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وحكمته في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وترتيبِ الدنيا

والآخرة ، وما يتعلّق به . . هو الكمال الحقيقي الذي يقربُ مَنْ يتّصفُ به مِنْ الله تعالى ، ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت ، فتكون هذه المعرفة نوراً للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربّنا أتمم لنا نورنا ؛ أي : تكون هذه المعرفة رأس مالٍ يوصلُ إلى كشفِ ما لم ينكشف في الدنيا ، كما أنّ مَنْ معه سراجٌ خفيّ . . فإنّه يجوزُ أن يصيرَ ذلك سبباً لزيادةِ النورِ بسراجٍ آخرَ يقتبسُ منه ، فيكملُ النورُ بذلك النورِ الخفيّ على سبيلِ الاستتمام ، ومَنْ ليسَ معه أصلُ السراج . . فلا مطمعَ له في ذلك ، فمَنْ ليسَ معه أصلُ معرفةِ الله تعالى . . لم يكنْ له مطمعٌ في هذا النورِ ، فيبقى كمنْ مثله في الظلماتِ ليسَ بخارجٍ منها ، بل كظلماتٍ في بحرٍ لجيٍّ ، يغشاه موجٌ مِنْ فوقِهِ موجٌ مِنْ فوقِهِ سحبٌ ، ظلماتٌ بعضها فوقَ بعضٍ .



فاذا ؛ لا سعادةَ إلا في معرفةِ الله تعالى ، وأمّا ما عدا ذلك مِنْ المعارفِ . . فمنها ما لا فائدةَ لها أصلاً ؛ كمعرفةِ الشعرِ وأنسابِ العربِ وغيرِ ذلك ، ومنها ما لها فائدةٌ في الإعانةِ على معرفةِ الله تعالى ؛ كمعرفةِ لغةِ العربِ ، والتفسيرِ ، والفقهِ ، والأخبارِ ، فإنَّ معرفةَ لغةِ العربِ تعينُ على معرفةِ تفسيرِ القرآنِ ، ومعرفةِ التفسيرِ تعينُ على معرفةِ ما في القرآنِ مِنْ كيفيةِ العباداتِ والأعمالِ التي تفيّدُ تزكيةَ النفسِ ، ومعرفةَ طريقِ تزكيةِ النفسِ تفيّدُ استعدادَ النفسِ لقبولِ الهدايةِ إلى معرفةِ الله سبحانه وتعالى ؛ كما قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ﴾ ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ،

فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى .

وإنما الكمال في معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات ؛ إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى ، ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة . . فهي من تكملة معرفة الله تعالى .

هذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائقاً بأحكام الجاه والرياء ، ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال .



وأما القدرة :

فليس فيها كمال حقيقي للعبد ، بل للعبد علم حقيقي ، وليس له قدرة حقيقية ، وإنما القدرة الحقيقية لله تعالى^(١) ، وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته . . فهي حادثة بإحداث الله ؛ كما قررناه في كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل ، وفي مواضع شتى من ربع المنجيات ،

(١) ولقائل أن يقول : والعلم كالقدرة أيضاً ؛ إذ العلم الحقيقي لله وحده ، وعلم العبد حادث بخلق الله سبحانه ، قال عز من قائل : ﴿ وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ ، وللعبد علم يناسب حاله كما أن له قدرة تناسب حاله وتصحيح تكليفه ، فالمراد بقول المصنف : (للعبد علم حقيقي) المعرفة التي هي أس كمالات العبد ، وعلة تكليفه الأصلية ، فحقيقته بصلاحه لطلب غايات الكمال ، وتصوّر ديمومته للعبد أبد الآباد ، بخلاف القدرة التي هي وسيلة من جهة ، ومن أخرى غير متصورة الاستصحاب .

فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ، ويوصله إلى الله تعالى ، فأما كمال القدرة .. فلا .

نعم ؛ له كمالٌ من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال ، وهي وسيلة له إلى كمال العلم ؛ كسلامة أطرافه ، وقوة يديه للبطش ، ورجليه للمشي ، وحواسه للإدراك ؛ فإن هذه القوى آلات للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم ، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله تعالى .. فلا خير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب ، ومن ظن ذلك كمالاً .. فقد جهل .

فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل ، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة ، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه .. كمال ، فلما اعتقدوا ذلك .. أحبووه ، ولما أحبووه .. طلبوه ، ولما طلبوه .. شغلوا به ، وتهالكوا عليه ، فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته ، وهو العلم والحرية ، أما العلم .. فما ذكرناه من معرفة الله تعالى ، وأما الحرية .. فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا ، والاستيلاء عليها بالقهر ؛ تشبهاً بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة ، ولا يستهويهم الغضب ، فإن دفع آثار الغضب والشهوات عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة .

ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه ، فمن كان عن

التغيُّر والتأثُّر بالعوارضِ أبعد.. . كَانَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَقْرَبَ ، وبالملائكةِ أشبهَ ، ومنزلتهُ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمَ ، وهذا كَمَالٌ ثَالِثٌ سِوَى كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ ، وَإِنَّمَا لَمْ نُورِدْهُ فِي أَقْسَامِ الْكَمَالِ ؛ لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ تَرْجِعُ إِلَى عَدَمٍ وَنَقْصَانٍ ، فَإِنَّ التَّغْيِيرَ نَقْصَانٌ ؛ إِذْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ عَدَمِ صِفَةٍ كَائِنَةٍ وَهَلَاكِهَا ، وَالْهَلَاكُ نَقْصٌ فِي الذَّاتِ وَفِي صِفَاتِ الْكَمَالِ لِلذَّاتِ .

فَإِذَا ؛ الْكَمَالَاتُ ثَلَاثَةٌ - إِنِ عَدَدْنَا عَدَمَ التَّغْيِيرِ بِالشَّهَوَاتِ وَعَدَمَ الْإِنْقِيَادِ لَهَا كَمَالًا - : كَمَالُ الْعِلْمِ ، وَكَمَالُ الْقُدْرَةِ ، وَكَمَالُ الْحَرِيَةِ ؛ وَأَعْنِي بِهِ : عَدَمَ الْعَبُودِيَّةِ لِلشَّهَوَاتِ وَإِرَادَاتِ الْأَسْبَابِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَكَمَالُ الْقُدْرَةِ لِلْعَبْدِ طَرِيقٌ إِلَى اكْتِسَابِ كَمَالِ الْعِلْمِ وَكَمَالِ الْحَرِيَةِ ، وَلَا طَرِيقَ لَهُ إِلَى اكْتِسَابِ كَمَالِ الْقُدْرَةِ الْبَاقِيَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ ؛ إِذْ قُدْرَتُهُ عَلَى أَعْيَانِ الْأَمْوَالِ وَعَلَى اسْتِسْخَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ تَنْقَطِعُ بِالمَوْتِ ، وَمَعْرِفَتُهُ وَحَرِّيَّتُهُ لَا يَنْعَدِمَانِ بِالمَوْتِ ، بَلْ يَبْقَيَانِ كَمَالًا فِيهِ ، وَوَسِيلَةٌ إِلَى الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .

فَانْظُرْ كَيْفَ انْقَلَبَ الْجَاهِلُونَ وَانْكَبُّوا عَلَى وُجُوهِهِمْ انْكَبَابَ الْعَمِيَانِ ، فَأَقْبَلُوا عَلَى طَلَبِ كَمَالِ الْقُدْرَةِ بِالْجَاهِ وَالْمَالِ ، وَهُوَ الْكَمَالُ الَّذِي لَا يَسْلُمُ ، وَإِنْ سَلِمَ.. . فَلَا بَقَاءَ لَهُ ، وَأَعْرَضُوا عَنْ كَمَالِ الْحَرِيَّةِ وَالْعِلْمِ الَّذِي إِذَا حَصَلَ.. . كَانَ أَبَدِيًّا لَا انْقِطَاعَ لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا جَرَمَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْآلٌ وَآلْبَسُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَآلْبَقِيَتْ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ ، فَالْعِلْمُ وَالْحَرِيَّةُ هِيَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ الَّتِي تَبْقَى

كمالاً في النفس ، والمالُ والجاهُ هو الذي ينقضي على القرب ، وهو كما مثله الله تعالى حيث قال : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ . . . ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ ، وكلُّ ما تذروه رياحُ الموتِ فهو زهرةُ الحياةِ الدنيا ، وكلُّ ما لا يقطعُهُ الموتُ فهو الباقياتُ الصالحاتُ .

فقد عرفت بهذا أنَّ كمالَ القدرةِ بالمالِ والجاهِ كمالٌ ظنيٌّ لا أصلَ له ، وأنَّ مَنْ قَصَرَ الوقتَ على طلبِهِ وظَنَّهُ مقصوداً فهو جاهلٌ .
وإليه أشارَ أبو الطيّب بقوله^(١) :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَأَلْذِي فَعَلَ الْفَقْرُ
إِلَّا قَدَرَ الْبُلْغَةَ مِنْهُمَا إِلَى الْكَمَالِ الْحَقِيقِيِّ ، اللَّهُمَّ ؛ اجْعَلْنَا مَمَّنْ وَفَقْتَهُ
لِلْخَيْرِ وَهَدَيْتَهُ بِلَطْفِكَ .



(١) البيت في « ديوانه بشرح العكبري » (١٥٠ / ٢) .

بيان ما نخب من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها . فحكمه حكم ملك الأموال ، فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة ، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة ، وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس . . فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يتنازع به الطعام . . فذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعو إلى الخدمة ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطان به يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم ؛ فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال ، فلا فرق بينهما .

إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلى ألا يكون المال والجاه في أعيانهم محبوبين ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون في داره بيت ماء ؛ لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته ، وكان يود لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى

يستغني عن بيت الماء ، وهذا على التحقيق ليس بحبٍ لبيت الماء ، فكلُّ ما يُرادُ للتوصلِ به إلى محبوبٍ . . فالمحسوبُ هو المقصودُ المتوصلُ إليه .

وتدركُ التفرقةُ بمثالٍ آخرَ ؛ وهو أنَّ الرجلَ قد يحبُّ زوجتهَ مِنْ حيثُ إنَّه يدفعُ بها فضلةَ الشهوةِ كما يدفعُ بيتَ الماءِ فضلةَ الطعامِ ، ولو كُفي مؤنةُ الشهوةِ . . لكانَ يهجرُ زوجتهَ ، كما أنَّه لو كُفي قضاءَ الحاجةِ . . لكانَ لا يدخلُ بيتَ الماءِ ولا يدورُ بهِ ، وقد يحبُّ زوجتهَ لذاتها حبَّ العشاقِ ، ولو كُفي الشهوةُ . . لبقِيَ مستصحباً لنكاحها ، فهذا هو الحبُّ دونَ الأولِ ، وكذلك الجاهُ والمالُ قد يحبُّ كلُّ واحدٍ منهما على هذينِ الوجهينِ ، فحبُّهُما لأجلِ التوصلِ بهما إلى مهمَّاتِ البدنِ غيرِ مذمومٍ ، وحبُّهُما لأعيانِهِما فيما يجاوزُ ضرورةَ البدنِ وحاجتهُ مذمومٌ ، ولكنَّهُ لا يُوصفُ صاحبهُ بالفسقِ والعصيانِ ما لمَ يحمِلْهُ الحبُّ على مباشرةِ معصيةٍ ، وما لمَ يتوصَّلْ إلى اكتسابِهِ بكذبٍ وخداعٍ وارتكابِ محظورٍ ، وما لمَ يتوصَّلْ إلى اكتسابِهِ بعبادةٍ ؛ فإنَّ التوصلَ إلى الجاهِ والمالِ بالعبادةِ جنايةٌ على الدينِ ، وهو حرامٌ ، وإليه يرجعُ معنى الرِّياءِ المحظورِ كما سيأتي .



فإن قلتَ : طلبُهُ المنزلةَ والجاهَ في قلبِ أستاذهِ وخادمِهِ ورفيقِهِ وسلطانِهِ ومنْ يرتبطُ بهِ أمرُهُ . . مباحٌ على الإطلاقِ كيفما كانَ ، أو يُباحُ إلى حدٍّ مخصوصٍ وعلى وجهٍ مخصوصٍ ؟

فأقول : يُطلبُ ذلك على ثلاثة أوجهٍ : وجهانٍ منها مباحان ، ووجهٌ محظورٌ .

أما الوجهُ المحظورُ : فهو أن يطلبَ قيامَ المنزلةِ في قلوبِهِم باعتقادِهِم فيه صفةٌ هو منفكٌ عنها ؛ مثلَ العلمِ والورعِ والنسبِ ، فيظهرُ لَهُم أَنَّهُ علويٌّ أو عالمٌ أو ورعٌ ولا يكونُ كذلك ، فهذا حرامٌ ؛ لأنَّهُ كذبٌ وتلبيسٌ ؛ إمَّا بالقولِ وإمَّا بالمعاملةِ .

وأما أحدُ المباحين : فهو أن يطلبَ المنزلةَ بصفةٍ هو متصفٌ بها ؛ كقولِ يوسفَ عليه السلامُ فيما أخبرَ عنه الربُّ تعالى : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ فإنه طلبُ المنزلةِ في قلبِهِ بكونِهِ حفيظاً عليماً ، وكان محتاجاً إليه ، وكان صادقاً فيه .

والثاني : أن يطلبَ إخفاءَ عيبٍ مِنْ عيوبِهِ ومعصيةٍ مِنْ معاصيهِ حتَّى لا يُعلمَ ، فلا تزولَ منزلتُهُ بِهِ ، فهذا أيضاً مباحٌ ؛ لأنَّ حفظَ السِّرِّ على القبائحِ جائزٌ ، ولا يجوزُ هتكُ السِّرِّ وإظهارُ القبيحِ ، وهذا ليسَ فيه تلبيسٌ ، بل هو سدُّ لطريقِ العلمِ بما لا فائدةَ في العلمِ بِهِ ؛ كالذي يُخفي عن السلطانِ أَنَّهُ يشربُ الخمرَ ، ولا يلقي إليه أَنَّهُ ورعٌ ؛ فإنَّ قوله : إِنِّي ورعٌ تلبيسٌ ، وعدمُ إقرارِهِ بالشربِ لا يوجبُ اعتقادَ الورعِ ، بل يمنعُ العلمَ بالشربِ .

وَمِنْ جَمَلَةِ الْمُحْظُورَاتِ : تَحْسِينُ الصَّلَاةِ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ لِيَحْسُنَ فِيهِ

اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس ؛ إذ يخيلُ إليه أنه من المخلصين
 الخاشعين لله تعالى ، وهو وراء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصاً ؟ ! فطلبُ
 الجاه بهذا الطريق حرام ، وكذا بكل معصية ، وذلك يجري مجرى اكتسابِ
 المال من غير فرق ، وكما لا يجوزُ أن يتملكَ مالَ غيره بتلبسٍ في عوضٍ أو
 في غيره . . فلا يجوزُ له أن يتملكَ قلبه بتزويرٍ وخداع ؛ فإن ملكَ القلوبِ
 أعظمُ من ملكِ الأموال .



بيان اسباب في حب المدح والثناء وارتياح النفس له ، وميل الطباع اليه ، وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم : أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب :

السبب الأول - وهو الأقوى - : شعور النفس بالكمال ، فإننا بيّنا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فإدراكه لذيد ، فمهما شعرت النفس بكمالها . . ارتاحت ، واهتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها ، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو : إما أن يكون جلياً ظاهراً ، أو يكون مشكوكاً فيه .

فإن كان جلياً ظاهراً محسوساً . . كانت اللذة فيه أقل ، ولكنه لا يخلو عن لذة ؛ كثنائه عليه بأنه طويل القامة ، أبيض اللون ، فإن هذا نوع كمال ، ولكن النفس تغفل عنه ، فتخلو عن لذته ، فإذا أشعر به . . لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة .

وإن كان ذلك الوصف ممّا يتطرق إليه الشك . . فاللذة فيه أعظم ؛ كالثناء عليه بكمال العلم ، وكمال الورع ، وبالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربّما يكون شاكاً في كمال حسنه ، وكمال علمه ، وكمال ورعه ، ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشك ؛ بأن يصير مستيقناً لكونه عديم النظر في هذه الأمور ؛ إذ تطمئن نفسه إليه ، فإذا ذكره غيره . . أورث ذلك طمأنينة وثقة

باستشعار ذلك الكمال ، فتعظم لذته ، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات ، خير بها ، لا يجازف في القول إلا عن تحقيق ، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل ، فإنه في غاية اللذة ، وإن صدر ممن يجازف في الكلام أو لا يكون بصيراً بذلك الوصف . . ضعفت اللذة .

وبهذه العلة ييغض الذم أيضاً ويكرهه ؛ لأنه يشعره بنقصان نفسه ، والنقصان ضد الكمال المحبوب ، فهو ممقوت ، والشعور به مؤلم ، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به ، كما ذكرناه في المدح .



السبب الثاني : أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح ، وأنه مريد له ، ومعتقد فيه ، ومسخر تحت مشيئته ، وملك القلوب محبوب ، والشعور بحصوله لذيذ ، وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته ، وينتفع باقتناص قلبه ؛ كالملوك والأكابر ، ويضعف مهما كان المثنى ممن لا يؤبه له ، ولا يقدر على شيء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير ، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة ، وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ، ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر . . كانت نكايته أعظم ؛ لأن الفاتت به أعظم .



السبب الثالث : أن ثناء المُثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لا سيما إذا كان ممن يلتفت إلى قوله ، ويُعتدُّ بثنائه ، وهذا يختصُّ بثناء يقع على الملائ ، فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمُثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله . . كان المدح ألدَّ ، والذمُّ أشدَّ على النفس .



السبب الرابع : أن المدح يدلُّ على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء عليه ؛ إمَّا عن طوع ، وإمَّا عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لذيدة ؛ لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به ، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذته ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشدَّ .

فهذه الأسباب الأربعة قد تجتمع في مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفرق فتتقصُّ اللذة بها .



أمَّا العلة الأولى وهي استشعار الكمال . . فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في مدحه ؛ كما إذا مدح بأنه نسيب ، أو سخي ، أو عالم بعلم ، أو متورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال ، وتبقى لذّة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات .

فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه
الصفة . . بطلت اللذة الثانية ، وهو استيلاؤه على قلبه ، وتبقى لذّة الاستيلاء
بالحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالشأن .

فإن لم يكن ذلك عن خوف ، بل كان بطريق اللّعب . . بطلت اللذات
كلها ، فلم يكن في المدح أصلاً لذّة ؛ لفوات الأسباب الثلاثة .

فهذا ما يكشف الغطاء عن علّة التذاذ النفس بالمدح ، وتألمها بسبب
الذّم ، وإنما ذكرناه ليُعرف طريق العلاج لحبّ الجاه ، وحبّ المحمّدة ،
وخوف المذمّة ، فإن ما لا يُعرف سببه لا يمكن معالجته ؛ إذ العلاج عبارة
عن حلّ أسباب المرض ، والله الموفق بكرمه ولطفه ، وصلى الله على كلّ
عبدٍ مصطفى .



بيان علاج حب الجاه

اعلم : أنَّ مَنْ غلبَ على قلبه حبُّ الجاه .. صارَ مقصورَ الهمِّ على مراعاةِ الخلقِ ، مشغولاً بالتودُّدِ إليهم والمراعاةِ لأجلهم ، ولا يزالُ في أقواله وأفعاله وأعماله ملتفتاً إلى ما يعظمُ منزلتهُ عندهم ، وذلكَ بذرِّ النفاقِ وأصلُ الفسادِ ، ويجرُّ ذلكَ - لا محالةً - إلى التساهلِ في العباداتِ والمراعاةِ بها ، وإلى اقتحامِ المحظوراتِ للتوصُّلِ إلى اقتناصِ القلوبِ .

ولذلكَ شبَّهَ رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم حبَّ الشرفِ والمالِ وإفسادهما للذينِ بذئبينِ ضارينِ ، وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ : « إِنَّهُ يَنْبُتُ النِّفَاقُ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَنْبُتُ الْمَاءُ الْبَقْلُ »^(١) إِذِ النِّفَاقُ هُوَ مُخَالَفَةُ الظَّاهِرِ لِلْبَاطِنِ بِالْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ ، وَكُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَنْزِلَةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ فَيُضْطَرُّ إِلَى النِّفَاقِ مَعَهُمْ ، وَإِلَى التَّظَاهِرِ بِخَصَالٍ حَمِيدَةٍ هُوَ خَالٍ عَنْهَا ، وَذَلِكَ هُوَ عَيْنُ النِّفَاقِ .



فحبُّ الجاهِ إِذَا مِنْ المَهْلَكَاتِ ، فيجبُ علاجُهُ وإزالتهُ عن القلبِ ، فإنَّه طبعُ جُبَلِ القلبِ عليه كما جُبِلَ على حبِّ المالِ ، وعلاجُهُ مَرَكَّبٌ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ :

(١) رواه الديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ : (حبُّ الغنى يَنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَنْبُتُ الْمَاءُ الْعُشْبَ) « إتحاف » (٦ / ٢٥٢) .

أما العلمُ : فهو أن يعلمَ السببَ الذي لأجلِهِ أحبَّ الجاهَ ، وهو كمالُ القدرةِ على أشخاصِ الناسِ وعلى قلوبِهِمْ ، وقد بيَّنا أن ذلك إن صفا وسلمَ . . فأخرُهُ الموتُ ، فليسَ مِنَ الباقياتِ الصالحاتِ ، بل لو سجدَ لك كلُّ مَنْ على بساطِ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ فإلى خمسينَ سنةً . . لا يبقى الساجدُ ولا المسجودُ لَهُ ، ويكونُ حالُكَ كحالِ مَنْ ماتَ قبْلَكَ مِنْ ذوي الجاهِ مع المتواضعينَ لَهُ ، فهذا لا ينبغي أن يُتركَ به الدينُ الذي هو الحياةُ الأبديةُ التي لا انقطاعَ لها .

وَمَنْ فهِمَ الكمالَ الحقيقيَّ والكمالَ الوهميَّ كما سبقَ . . صغَرَ الجاهُ في عينِهِ ، إلا أن ذلك إنما يصغرُ في عينِ مَنْ ينظرُ إلى الآخرةِ كأنَّهُ يشاهدها ، ويستحقِرُ العاجلةَ ، ويكونُ الموتُ كالحاصلِ عندهُ ، ويكونُ حالُهُ كحالِ الحسنِ البصريِّ إذ كتبَ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهما : (أما بعدُ : فكأنَّكَ بآخرِ مَنْ كُتِبَ عليه الموتُ قد ماتَ ، فانظرْ كيفَ مدَّ نظرُهُ نحوَ المستقبلِ وقدَّرَهُ كائنًا) ، وكذلك حالُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حينَ كتبَ في جوابِهِ : (أما بعدُ : فكأنَّكَ بالدنيا لم تكنْ ، وكأنَّكَ بالآخرةِ لم تزلْ) (١) .

فهؤلاءِ كانَ التفاتُهُمْ إلى العاقبةِ ، فكانَ عملُهُمْ لها بالتقوى ؛ إذ علموا أن العاقبةَ للمتقينَ ، فاستحقروا الجاهَ والمالَ في الدنيا ، وأبصارُ أكثرِ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢٦) .

الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب ،
ولذلك قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ، وقال :
﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ .

فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبه في حب الجاه بالعلم بالآفات
العاجلة ، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في
الدنيا ، فإن كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء ، وخائف على الدوام
على جاهه ، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب ، والقلوب أشد تغيراً
من القدر في غليانها ، وهي مترددة بين الإقبال والإعراض ، فكل ما يُبنى
على قلوب الخلق يضاوي ما يُبنى على أمواج البحر ، فإنه لا ثبات له ،
والاشتغال بمراعاة القلوب ، وحفظ الجاه ، ودفع كيد الحساد ، ومنع أذى
الأعداء . . كل ذلك غموم عاجلة ، ومكدرة للذة الجاه ، فلا يفي في الدنيا
مرجوها بمخوفها ، فضلاً عما يفوت في الآخرة ، فبهذا ينبغي أن تُعالج
البصيرة الضعيفة .

وأما من نفذت بصيرته ، وقوي إيمانه . . لم يلتفت إلى الدنيا ، فهذا هو
العلاج من حيث العلم .



وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال
يُلام عليها ؛ حتى يسقط من أعين الخلق ، وتفارقه لذة القبول ، ويأنس

بالخمول ، ويردّ الخلق ، ويقنع بالقبول من الخالق .

وهذا هو منهج الملامية^(١) ؛ إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ؛ ليستقوا أنفسهم عن أعين الناس ، فيسلموا من آفة الجاه ، وهذا غير جائز لمن يقتدى به ، فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين ، وأمّا الذي لا يقتدى به . . فلا يجوز له أن يقدم على محذور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس ؛ كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه . . استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ، ويعظم اللقم ، فلما نظر إليه الملك . . سقط من عينه وانصرف ، فقال الزاهد : الحمد لله الذي صرفك عني^(٢) .

ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر ، حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من الأعين ، وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه ، إلا أن أرباب الأحوال ربّما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا صلاح قلوبهم فيه ، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير ؛ كما فعل بعضهم ، فإنه عُرِفَ بالزهد ، وأقبل الناس عليه ، فدخل حماماً ،

(١) نسبة إلى الملامة ؛ إذ لا ينفكون عن لوم أنفسهم ، والأصل أن يقال لهم : الملامية ، وهو مستعمل ، وقد يقال لهم : الأمانة ، وهم - كما سيبين المصنف - قوم يعمرن بواطنهم ويخربون ظواهرهم ، من أعظم أئمتهم الشيخ عبد الله بن منازل والشيخ حمدون القصار رضي الله عنهما ، انظر طرفاً من بيان صفات الملامية للعلامة الحافظ عبد الملك الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤٨ / ٤) بنحوه .

ولبس ثياب غيره وخرج ، ووقف في الطريق حتى عرفوه ، فأخذوه وضربوه ، واستردوا منه الثياب ، وقالوا : إِنَّهُ طَرَّارٌ وهَجْرُوهُ^(١) .

وأقوى الطرق في قطع الجاه : الاعتزال عن الناس ، والهجرة إلى موضع الخمول ، فإنَّ المعتزل في بيته في البلدة التي هو بها مشهور ، لا يخلو عن حبِّ المنزل التي ترسخ له في القلوب بسبب عزله ، وربما يظنُّ أنه ليس محباً لذلك الجاه ، وهو مغرور ، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ، ولو تغيَّر الناس عما اعتقدوه فيه ؛ فذمُّوه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به . . . جزعت نفسه وتألَّمت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك ، وإمالة ذلك الغبار عن قلوبهم ، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتليس ، ولا يبالي به ، وبه يتبينُّ أنه محبٌّ للجاه والمنزلة ، ومن أحبَّ الجاه والمنزلة . . فهو كمن أحبَّ المال ، بل هو شرُّ منه ، فإنَّ فتنة الجاه أعظم ، ولا يمكنه ألا يحبَّ المنزل في قلوب الناس ما دام يطعم في الناس ، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى ، وقطع طمعه عن الناس رأساً . . أصبح الناس كلُّهم عنده كالأرذال^(٢) ، فلا يبالي أكانت له منزلة في قلوبهم أم لم تكن ؛ كما لا يبالي بذلك في قلوب الذين هم منه في أقصى

(١) وهو إبراهيم الخواص رضي الله عنه ، ونُعت بعد هذه الحادثة بـ (لص الحمام) ، فقال لنفسه : هل هنا طاب المقام ، وانظر القصة ومثيلاتها وأجوبة الفقهاء في بيان جوازها عند اليافعي في « نشر المحاسن الغالية » (ص ٣٠٣) .

(٢) في (ب) : (كالجماوات) .

الشرقي ؛ لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم .

ولا يُقطعُ الطمعُ عن الناسِ إلا بالقناعة ، فمن قنع . . استغنى عن الناسِ ، وإذا استغنى . . لم يشتغل قلبه بالناسِ ، ولم يكن لقيام منزلته في القلوبِ عنده وزنٌ ، ولا يتمُّ تركُ الجاهِ إلا بالقناعة وقطعِ الطمعِ ؛ ويستعينُ على جميع ذلك بالأخبارِ الواردة في ذمِّ الجاهِ ومدحِ الخمولِ والذلِّ ، مثل قولهم : (المؤمنُ لا يخلو من ذلَّةٍ ، أو قلَّةٍ ، أو علَّةٍ)^(١) ، وينظرُ في أحوالِ السلفِ وإيثارهم للذلِّ على العزِّ ، ورغبتهم في ثوابِ الآخرة ، رضي الله عنهم أجمعين .



(١) وهو قول مشهور على ألسنة الناس . « إتحاف » (٢٥٥ / ٨) ، ومعناه في الحديث الآتي .

بيان وجه العلاج بحب المدح وكراهة الذم

اعلم : أنَّ أكثرَ الناسِ إنَّما هلكوا بخوفِ مذمةِ الناسِ وحبِّ مدحِهِمْ ، فصارت حركاتُهُمْ كُلُّها موقوفةً على ما يوافقُ رضا الناسِ ؛ رجاءً للمدحِ وخوفاً مِنَ الذِّمِّ ، وذلكَ مِنَ المهلكاتِ ، فيجبُ معالجتهُ .
وطريقُهُ : ملاحظةُ الأسبابِ التي لأجلِها يُحبُّ المدحُ ويُكرهُ الذِّمُّ .



أمَّا السببُ الأوَّلُ وهو استشعارُ الكمالِ بسببِ قولِ المادحِ : فطريقُكَ فيه أن ترجعَ إلى عقلِكَ وتقولَ لنفسِكَ : هذهِ الصِّفةُ التي يمدِّحُك بها أنتَ متصفٌ بها أم لا ؟

فإن كنتَ متصفاً بها.. فهي إمَّا صفةٌ تستحقُّ بها المدحَ ؛ كالعلمِ والورعِ ، وإمَّا صفةٌ لا تستحقُّ بها المدحَ ؛ كالثروةِ والجاهِ والأغراضِ الدنيويَّةِ .

فإن كانتَ مِنَ الأغراضِ الدنيويَّةِ.. فالفرحُ بها كالفرحِ بنباتِ الأرضِ الذي يصيرُ على القربِ هشيماً تذروه الرياحُ ، وهذا من قلةِ العقلِ ، بل العاقلُ يقولُ كما قال المتنبي^(١) :

[من الوافر]

أشدُّ أَلَمٍ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْتَقِلا

(١) انظر « ديوانه بشرح العكبري » (٢٢٤ / ٣) .

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا ، وإن فرح .. فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها ، بل بوجودها ، والمدح ليس هو سبب وجودها .
 وإن كانت الصفة ممّا يستحقُّ الفرح بها ؛ كالعلم والورع .. فينبغي ألا يفرح بها ؛ لأنَّ الخاتمة غيرُ معلومة ، وهذا إنّما يقتضي الفرح لأنَّه يقربُ عند الله زُلْفَى ، وخطرُ الخاتمة باقٍ ، ففي الخوفِ مِنْ سوءِ الخاتمةِ شغلٌ عن الفرح بكلِّ ما في الدنيا ، بل الدنيا دارُ أحزانٍ وغمومٍ ، لا دارُ فرحٍ وسرورٍ .

ثمَّ إن كنتَ تفرحُ بها على رجاءِ حسنِ الخاتمةِ .. فينبغي أن يكونَ فرحُكَ بفضلِ الله تعالى عليك بالعلم والتقوى ، لا بمدحِ المادح ، فإنَّ اللذةَ في استشعارِ الكمالِ ، والكمالُ موجودٌ مِنْ فضلِ الله لا مِنْ المدحِ ، والمدحُ تابعٌ له ، فلمَ ينبغي أن تفرحَ بالمدحِ والمدحُ لا يزيدُكَ فضلاً ؟

وإن كانتِ الصفةُ التي مُدحتَ بها أنتَ خالٍ عنها .. ففرحُكَ بالمدحِ غايةُ الجنونِ ، ومثالكُ مثالُ مَنْ يهزأُ بهِ إنسانٌ ويقولُ له : سبحانَ الله ! ما أكثرَ العطرَ الذي في أحشائه ! وما أطيبَ الروائحَ التي تفوحُ منه إذا قضى حاجتهُ ! وهو يعلمُ ما تشتملُ عليه أعاؤه مِنَ الأقدارِ والأنتانِ ، ثمَّ يفرحُ بذلكَ ، فكذلكَ إذا أثنوا عليك بالصلاحِ والورعِ ، ففرحتَ بهِ ، واللهُ مطلعٌ على خبائثِ باطنِكَ ، وغوائلِ سريرتِكَ ، وأقدارِ صفاتِكَ .. كانَ ذلكَ مِنْ غايةِ الجهلِ .

فإذا ؛ المادحُ إن صدقَ .. فليكنْ فرحُكَ بصفيتِكَ التي هي مِنْ فضلِ الله

عليك ؛ وإن كذب . . فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به .



وأما السبب الثاني وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح ، وكونه سبباً لتسخير قلب آخر : فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب ، وقد سبق وجهه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس ، وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك بها يسقط منزلتك عند الله تعالى ، فكيف تفرح به ؟



وأما السبب الثالث وهو الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح : فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح ، بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ، كما نقل ذلك عن السلف ؛ لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ، كما ذكرناها في كتاب آفات اللسان .
وقال بعض السلف : (من فرح بمدح . . فقد مكّن الشيطان من أن يدخل في بطنه)^(١) .

وقال بعضهم : (إذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك : بئس الرجل أنت . . فأنت والله بئس الرجل)^(٢) .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢ / ٣٦٤) عن مالك بن دينار .

(٢) أورده صاحب « القوت » (١ / ١٧٣) عن سفيان الثوري بنحوه .

وروي في بعض الأخبار - فإن صحَّ . . فهو قاصمٌ للظهور - : أن رجلاً
أثنى على رجلٍ خيراً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « لو كان صاحبك حاضراً فرضي الذي قلت فمات
على ذلك . . دخل النار »^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم مرةً للمادح : « ويحك ! قطعت ظهره ، لو
سمعت . . ما أفلح إلى يوم القيامة »^(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا لا تمادحوا ، وإذا رأيتم المذاحين . .
فاحثوا في وجوههم التراب »^(٣) .

فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجلٍ عظيمٍ من
المدح وفتنته ، وما يدخل على القلب من الشرور العظيم به ، حتى إن بعض
الخلفاء الراشدين سأل رجلاً عن شيء فقال : أنت يا أمير المؤمنين خيرٌ مني
وأعلم ، فغضب وقال : إنني لم آمرك أن تزكيني !^(٤) .

وقيل لبعض الصحابة : لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله ، فغضب
وقال : إنني لأحسبك عراقياً^(٥) .

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده أصلاً) . « إتحاف » (٢٥٦ / ٨) .

(٢) رواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) بنحوه .

(٣) رواه مسلم (٦٩ / ٣٠٠٢) دون قوله : (ألا لا تمادحوا) .

(٤) رواه البيهقي في « السنن الكبرى » (١٨٢ / ٥) قاله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه
لأريد وقد مدحه بهذا .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٤) من زيادات نعيم بن حماد ، والصحابي =

وقال بعضهم لما مدح : (اللَّهُمَّ ؛ إِنَّ عَبْدَكَ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِمَقْتِكَ ،
فَأَشْهَدُكَ عَلَى مَقْتِهِ) (١) .

وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند
الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يُغضُّ إليهم مدح الخلق ؛
لأن الممدوح على الحقيقة هو المقرَّب إلى الله ، والمذموم على الحقيقة هو
المبعد من الله الملقى في النار مع الأشرار ، فهذا الممدوح إن كان عند الله
من أهل النار . . فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره ! وإن كان من أهل
الجنة . . فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله سبحانه وتعالى وثناؤه عليه ؛ إذ
ليس أمره بيد الخلق ، ومهما علم أن الآجال والأرزاق بيد الله تعالى . . قلَّ
التفاتُهُ إلى مدح الخلق وذمهم ، وسقط من قلبه حبُّ المدح ، واشتغل بما
يهمُّه من أمر دينه ، والله الموفق للصواب برحمته .



= هو عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٢) .

بيان علاج كراهة الذم

قد سبق أن العلة في كراهة الذم هي ضد العلة في حب المدح ، فعلاجه أيضاً يفهم منه .

والقول الوجيز فيه : أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة ، وإما أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء والتعنُّت ، وإما أن يكون كاذباً .



فإن كان صادقاً وقصده النصح . فلا ينبغي أن تذهمه وتغضب عليه وتحقد بسببه ، بل ينبغي أن تتقلد مثته ؛ فإن من أهدى إليك عيوبك . فقد أرشدك إلى المهلك لك حتى تتقيه ، فينبغي أن تفرح به ، وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، فأما اغتنامك بسببه وكراهتك له وذمك إيَّاه . فإنه غاية الجهل .



وإن كان قصده التعنُّت . فانت قد انتفعت بقوله ؛ إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به ، أو ذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه ، أو قبَّحه في عينك لينبعت حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته ، وكل ذلك أسباب سعادتك ، وقد استفدت منه ، فاشتغل بطلب السعادة ، فقد

أُتِيحَ لَكَ أسبابُها بسببِ ما سمعته من المذمة .

فمهما قصدت الدخولَ على ملكٍ وثوبك ملوثٌ بالعذرةِ وأنت لا تدري ، ولو دخلتَ عليه كذلك لخفتَ أن يحزَّ رقبَتَكَ لتلويثِكَ مجلسَهُ بالعذرةِ ، فقال لك قائلٌ : أيُّها الملوَّثُ بالعذرةِ ؛ طهِّرْ نفسك . . فينبغي أن تفرَّحَ به ؛ لأنَّ تنبُّهَكَ بقوله غنيمةٌ ، وجميعُ مساوئِ الأخلاقِ مهلكةٌ في الآخرةِ ، والإنسانُ إنما يعرفُها من قولِ أعدائِهِ ، فينبغي أن تغتنمَهُ .

وأما قصدُ العدوِّ التعتُّ . . فجنايةٌ منه على دينِ نفسه ، وهو نعمةٌ منه عليك ، فلمَ تغضبْ عليه بفعلٍ انتفعتَ به أنت وتضرَّرَ هو به ؟ !



الحالةُ الثالثةُ : أن يفترى عليك بما أنت بريءٌ منه عندَ الله تعالى : فينبغي ألا تكرهَ ذلك ، ولا تشتغلَ بذهمه ، بل تتفكَّرَ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدها : أنَّكَ إنْ خلوتَ من ذلك العيبِ . . فلا تخلو من أمثاله وأشباهِهِ ، وما سترَ اللهُ من عيوبِكَ أكثرُ ، فاشكرِ الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبِكَ ، ودفعه عنكَ بذكرِ ما أنت بريءٌ منه .

والثاني : أنَّ ذلك كفاراتٌ لبقيةِ مساوئِكَ وذنوبِكَ ، فكأنَّه رماك بعيبٍ أنت بريءٌ منه ، وطهَّرَكَ عن ذنوبٍ أنت ملوثٌ بها ، وكلُّ من اغتابَكَ فقد أهدى إليك حسناته ، وكلُّ من مدحك فقد قطعَ ظهرك ، فما بالكَ تفرحُ

بقطع الظهر ، وتحزنُ بهدايا الحسناتِ التي تقرَّبُكَ إلى الله تعالى ، وأنت تزعمُ أنك تحبُّ القربَ من الله ؟

وأما الثالثُ : فهو أنَّ المسكينَ قد جنى على دينه حتى سقطَ من عينِ الله تعالى ، وأهلكَ نفسه بافترائه ، وتعرَّضَ لعقابه الأليم ، فلا ينبغي أن تغضبَ عليه مع غضبِ الله عليه ، فتشمتَ الشيطانَ به ، وتقولُ : اللهم ؛ أهلكه ، بل ينبغي أن تقولُ : اللهم ؛ أصلحه ، اللهم ؛ تب عليه ، اللهم ؛ ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ اغفرْ لقومي ، اللهم ؛ اهدِ قومي ، فإنَّهُم لا يعلمون » ^(١) لما أن كسروا نبيته ، وشجّوا وجهه ، وقتلوا عمّه حمزة يوم أحد .

ودعا إبراهيمُ بنُ أدهمَ لمن شجَّ رأسه بالمغفرة ، ف قيلَ له في ذلك ، فقال : أعلمُ أنني مأجورٌ بسببه ، وما نالني منه إلا خيرٌ ، فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي ^(٢) .

ومما يهونُ عليك كراهة المذمة : قطعُ الطمع ؛ فإنَّ من استغنى عنه مهما ذمَّكَ . لم يعظمْ أثرُ ذلك في قلبك ، وأصلُ الدينِ القناعة ، وبها

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤١٤) .

ينقطع الطمعُ عن الجاهِ والمالِ ، وما دامَ الطمعُ قائماً كانَ حبُّ الجاهِ والمدحِ
في قلبِ مَنْ طمعتَ فيه غالباً ، وكانتْ همتُكَ إلى تحصيلِ المنزلةِ في قلبهِ
مصروفةً ، ولا يُنالُ ذلكَ إلا بهدمِ الدينِ ، فلا ينبغي أن يطمعَ طالبُ
المالِ والجاهِ ومحِبُّ المدحِ ومبغضُ الذمِّ في سلامةِ دينهِ ، فإنَّ ذلكَ بعيدٌ
جداً .



بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

اعلم : أنَّ للناس أربعة أحوالٍ بالإضافة إلى الذَّامِّ والمدحِ :

الحالة الأولى : أنَّ يفرحَ بالمدح ويشكرَ المادحَ ، ويغضبَ من الذَّامِّ ويحقدَ على الذَّامِّ ، ويكافئه أو يحبَّ مكافأته ، وهذا حالُ أكثرِ الخلقِ ، وهو غايةُ درجاتِ المعصيةِ في هذا الباب .



الحالة الثانية : أنَّ يمتنعَ في الباطنِ على الذَّامِّ ، ولكنْ يمسكُ لسانه وجوارحه عن مكافأته ، ويفرحَ باطنه ويرتاح للمادح ، ولكنْ يحفظُ ظاهره عن إظهارِ السرورِ ، وهذا من النقصانِ ، إلا أنَّه بالإضافة إلى ما قبله كمالٌ .



الحالة الثالثة - وهي أوَّلُ درجاتِ الكمالِ - : أنَّ يستويَ عنده ذامُّه ومدحُه ، فلا تغمُّه المذمَّةُ ، ولا تسرُّه المدحُ ، وهذا قد يظنُّه بعضُ العبادِ بنفسه ، ويكونُ مغروراً إنْ لم يمتحنْ نفسه بعلاماته ، وعلاماته : ألا يجدَ في نفسه استثقلاً للذَّامِّ عندَ تطويله الجلوسَ عنده أكثرَ ممَّا يجدهُ في المدحِ ، وألا يجدَ في نفسه زيادةَ هِزَّةٍ ونشاطٍ في قضاءِ حوائجِ المادحِ فوقَ ما يجدهُ في قضاءِ حوائجِ الذَّامِّ ، وألا يكونَ انقطاعُ الذَّامِّ عن مجلسه أهونَ عليه من

انقطاع المادح ، وألا يكون موت المادح المطري له أشد نكايَةً في قلبه من موت الذّام ، وألا يكون غمّه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر ممّا يكون بمصيبة الذّام ، وألا تكون زلّة المادح أخفّ على قلبه وفي عينه من زلّة الذّام ، فمهما خفّ الذّام على قلبه كما خفّ المادح ، واستويا من كلّ وجهٍ . . فقد نال هذه الرتبة ، وما أبعد ذلك وما أشدّه على القلوب !

وأكثرُ العبّاد فرحُهم بمدح الناس لهم مستبطنٌ في قلوبهم وهم لا يشعرون ؛ حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات ، وربّما يشعرُ العابدُ بميل قلبه إلى المادح دون الذّام ، والشيطان يحسّن له ذلك ويقول : الذّام قد عصى الله بمذمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوي بينهما ؟ ! وإنّما استتقّالك للذّام من الدين المحض .

وهذا محضُ التّلبّيس ؛ فإنّ العابد لو تفكّر . . علم أنّ في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر ممّا ارتكبه الذّام في مذمّته ، ثمّ إنّهُ لا يستثقلُهم ولا ينفّرُ عنهم ، ويعلم أنّ المادح الذي مدحه لا يخلو عن مذمّةٍ غيره ، ولا يجدُ في نفسه نفرةً عنه لمذمّةٍ غيره ؛ كما يجدُ لمذمّةٍ نفسه ، والمذمّة من حيث إنّها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره .

فإذا ؛ العابدُ المغرور لنفسه يغضب ، ولهواه يمتعض ، ثمّ الشيطان يخيلُ إليه أنّه من الدين حتّى يعتدّ على الله بهواه ، فيزيده ذلك بُعداً من الله ،

وَمَنْ لَمْ يَطْلُعْ عَلَى مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ وَأَفَاتِ النُّفُوسِ . . فَأَكْثَرُ عِبَادَاتِهِ تَعَبٌ ضَائِعٌ ، يَفُوتُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَيَخْسَرُ فِي الْآخِرَةِ ، وَفِيهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .



الحالة الرابعة - وهي الصدق في العبادة - : أن يكره المدح ويمقت المادح ؛ إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر ، مضرة له في الدين ، وأن يحب الدائم ؛ إذ يعلم أنه مهد إلى عيوبه ، ومرشد له إلى مهمته ، ومهد إليه حسناته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى »^(١) .

وقد روي في بعض الأخبار ما هو قاصمٌ لظهور أمثالنا إن صح ؛ إذ روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ويلٌ للصائم ، وويلٌ للقائم ، وويلٌ لصاحب الصوف إلا »^(٢) ، فقيل : يا رسول الله ؛ إلا من ؟ فقال : « إلا من

(١) رواه هناد في « الزهد » (٨٠٧) موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه : (إن من رأس التواضع أن تبدأ من لقيت بالسلام ، وأن ترضى بالدون من شرف المجلس ، وتكره المدح والسمعة والرياء بالبر) ، وأورده مرفوعاً من حديث علي رضي الله عنه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٨٥٠٦) ونسب روايته للعسكري ، أما بلفظ المصنف . . فقال الحافظ العراقي : (لم أجده أصلاً) . « إتحاف » (٢٥٩ / ٨) .

(٢) في (ج) : (إلا من) بدل (إلا) وحدها .

تَنَزَّهَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا ، وَأَبْغَضَ الْمِدْحَةَ ، وَاسْتَحَبَّ الْمَذْمَةَ ^(١) ، وَهَذَا شَدِيدٌ جَدًّا .

وَعَايَةُ أَمَثَالِنَا الطَّمَعُ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ ، وَهُوَ أَنْ يَضْمَرَ الْفَرْحَ وَالْكَرَاهَةَ لِلذَّامِّ وَالْمَادِحِ وَلَا يَظْهَرَ ذَلِكَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّلَاثَةُ ، وَهِيَ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْمَادِحِ وَالذَّامِّ . فَلَسْنَا نَطْمَعُ فِيهَا ، ثُمَّ إِنَّ طَالِبَنَا أَنْفَسْنَا بِعَلَامَاتِ الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ . . فَإِنَّهَا لَا تَفِي بِهَا ؛ فَإِنَّهَا لَا بَدَّ وَأَنْ تَتَسَارَعَ إِلَى إِكْرَامِ الْمَادِحِ وَقَضَاءِ حَاجَاتِهِ ، وَتَتَأَقَّلَ عَنْ إِكْرَامِ الذَّامِّ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِ ، وَلَا نَقْدَرُ عَلَى أَنْ نَسَوِّيَ بَيْنَهُمَا فِي الْفِعْلِ الظَّاهِرِ ، كَمَا لَا نَقْدَرُ عَلَيْهِ فِي سَرِيرَةِ الْقَلْبِ ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الذَّامِّ وَالْمَادِحِ فِي ظَاهِرِ الْفِعْلِ . . فَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يُتَّخَذَ قَدْوَةً فِي هَذَا الزَّمَانِ إِنْ وُجِدَ ، فَإِنَّهُ الْكَبِيرُ الْأَحْمَرُ يُتَحَدَّثُ بِهِ وَلَا يُرَى ، فَكَيْفَ بِمَا بَعْدَهُ مِنَ الْمَرْتَبَتَيْنِ ؟ !

وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الرُّتَبِ أَيْضًا فِيهَا دَرَجَاتٌ ، أَمَّا الدَّرَجَاتُ فِي الْمَدْحِ . . فَهِيَ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَمَنَّى الْمِدْحَةَ وَالثَّنَاءَ وَانْتِشَارَ الصِّيتِ ، فَيَتَوَصَّلُ إِلَى نَيْلِ ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ ، حَتَّى يَرَائِيَ بِالْعِبَادَاتِ ، وَلَا يَبَالِي بِمُقَارَفَةِ الْمُحْظُورَاتِ ؛ لِاسْتِمَالَةِ قُلُوبِ النَّاسِ ، وَاسْتِنطَاقِ أَلْسِنَتِهِمْ بِالْمَدْحِ ، وَهَذَا مِنَ الْهَالِكِينَ .

(١) قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ : (لَمْ أَجِدْهُ هَكَذَا ، وَذَكَرَ صَاحِبُ « الْفَرْدُوسِ » مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ : « وَيَلُ لِمَنْ لَبَسَ الصُّوفَ فَخَالَفَ فِعْلَهُ قَوْلَهُ » ، وَلَمْ يَخْرُجْهُ وَلَدَهُ فِي مَسْنَدِهِ) . « إِتْحَافٌ » (٢٥٩ / ٨) .

ومنهم مَنْ يريدُ ذلكَ ويطلبُهُ بالمباحاتِ ، ولا يطلبُهُ بالعباداتِ ، ولا يباشرُ المحظوراتِ ، وهذا على شفا جُرفِ هارٍ ، فإنَّ حدودَ الكلامِ الذي يستميلُ به القلوبَ وحدودَ الأعمالِ لا يمكنُهُ أنْ يضبطَها ، فيوشكُ أنْ يقعَ فيما لا يحلُّ لنيلِ الحمدِ ، فهو قريبٌ مِنَ الهالكينَ جداً .

ومنهم مَنْ لا يريدُ المِدحةَ ولا يسعى لطلبِها ، ولكنَّ إذا مُدِحَ . . سبقَ السرورُ إلى قلبِهِ ، فإنَّ لم يقابلْ ذلكَ بالمجاهدةِ ، ولم يتكلَّفِ الكراهةَ . . فهو قريبٌ مِنْ أنْ يستجرَّهُ فرطُ السرورِ إلى الرتبةِ التي قبلَها ، وإنْ جاهدَ نفسَهُ في ذلكَ ، وكلَّفَ قلبَهُ الكراهةَ ، وبغَضَ السرورِ إليه بالتفكيرِ في آفاتِ المدحِ . . فهو في خطرِ المجاهدةِ ، فتارةً تكونُ اليُدُلُ ، وتارةً تكونُ عليه . ومنهم مَنْ إذا سمعَ المدحَ . . لم يُسرَّ ولم يغتمَّ ، ولكنَّ لم يؤثرْ فيه ، وهذا على خيرٍ ، وإنْ كانَ قد بقيَ عليه بقيةٌ مِنَ الإخلاصِ^(١) .

ومنهم مَنْ يكرهُ المدحَ إذا سمعَهُ ، ولكنَّ لا ينتهي به إلى أنْ يغضبَ على المادحِ وينكرَ عليه .

وأقصى درجاتِهِ أنْ يكرهُ ويغضبَ ، ويُظهرَ الغضبَ وهو صادقٌ فيه ، لا أنْ يُظهرَ الغضبَ وقلبهُ محبٌّ للمدحِ ، فإنَّ ذلكَ عينُ النفاقِ ؛ لأنَّهُ يريدُ أنْ يظهرَ مِنْ نفسه الإخلاصَ والصدقَ ، وهو مفلسٌ منه .

وكذلكَ بالضدِّ مِنْ هذا تتفاوتُ الأحوالُ في حقِّ الدَّامِّ ، وأولُ درجاتِهِ

(١) بسببِ عدمِ اغتمامِهِ . « إتحاف » (٢٦٠ / ٨) .

إظهارُ الغضبِ ، وآخرُها إظهارُ الفرحِ ، ولا يكونُ الفرحُ وإظهارُهُ إلا ممَّنْ في قلبِهِ حَقٌّ وحقُّدٌ على نَفْسِهِ ؛ لتمرُّدِها عليه ولَكثرةِ عيوبِها ومواعيدِها الكاذبةِ وتلبيساتِها الخبيثةِ ، فيبغضُها بغضُ العدوِّ ، والإنسانُ يفرحُ بَمَنْ يذمُّ عدوَّهُ ، وهذا شخصٌ عدوُّهُ نَفْسُهُ ، فيفرحُ إذا سمعَ ذمَّها ، ويشكرُ الذَّامَّ على ذلك ، ويعتقدُ فطنتَهُ وذكاءَهُ ؛ لما وقفَ عليه مِنْ عيوبِ نَفْسِهِ ، فيكونُ ذلكَ كالتَّشْفِي لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، ويكونُ غنيمةً عندهُ ؛ إذ صارَ بالمدمَّةِ أَوْضَعَ في أعينِ الناسِ ، حتَّى لا يُبتلى بفتنةِ الجاهِ ، وإذا سيقَتْ إليه حسناتٌ لم ينصبْ فيها ، فعساهُ يكونُ جبراً لعيوبِهِ التي هو عاجزٌ عن إماطتِها ، ولو جاهدَ المريدُ نَفْسَهُ طولَ عمرِهِ في هذهِ الخصلةِ الواحدةِ ، وهي أن يستويَ عندهُ دائمُهُ ومادحُهُ . . . لكانَ لَهُ شغلٌ شاغلٌ فيه لا يتفرَّغُ معه لغيرِهِ ، وبينَهُ وبينَ السعادةِ عقباتٌ كثيرةٌ ، هذهِ إحداها ، ولا يقطعُ شيئاً منها إلا بالمجاهدةِ الشديدةِ في العمرِ الطويلِ .



الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرياء

وفيه بيانُ ذمِّ الرياءِ ، وبيانُ حقيقةِ الرياءِ وما يُرأى به ، وبيانُ درجاتِ الرياءِ ، وبيانُ الرياءِ الخفيِّ ، وبيانُ ما يحبطُ العملَ مِنَ الرياءِ وما لا يحبطُ ، وبيانُ دواءِ الرياءِ وعلاجه ، وبيانُ الرخصةِ في إظهارِ الطاعاتِ ، وبيانُ الرخصةِ في كتمانِ الذنوبِ ، وبيانُ تركِ الطاعاتِ خوفاً مِنَ الرياءِ والآفاتِ ، وبيانُ ما يصحُّ مِنْ نشاطِ العبدِ للعبادةِ بسببِ رؤيةِ الخلقِ وما لا يصحُّ ، وبيانُ ما يجبُ على المريدِ أَنْ يُلزِمَهُ قَلْبُهُ قَبْلَ الطاعةِ وبعدها ، وهي أحدَ عشرَ فصلاً .

بيان ذم الرياء

اعلم : أَنَّ الرياءَ حرامٌ ، والمرائيَ عندَ اللهِ ممقوتٌ ، وقد شهدتُ لذلكِ الآياتُ والأخبارُ والآثارُ .

أَمَّا الآياتُ :

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ، قال مجاهد : (هم أهل الرياء)^(١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ ، فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله تعالى ، والرياء هو ضده .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ، نزلت فيمن يطلب الأجر والحمد بعبادته وأعماله^(٢) .



وَأَمَّا الْأَخْبَارُ :

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حين سألَهُ رجلٌ فقال : يا رسول الله ؛ فيم النجاة ؟ فقال : « ألا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس »^(٣) .

وروى أبو هريرة في حديث الثلاثة ، المقتول في سبيل الله ، والمتصدق

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٦١) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٦١) من زيادات

نعيم بن حماد ، ورواه الطبري في « تفسيره » (١٢ / ٢٢ / ١٤٧) عن شهر بن حوشب .

(٢) كما روى ذلك الحاكم في « المستدرک » (١١١ / ٢) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ١٦١) ، وعند السيوطي في « الدر المنثور » (٧٤ / ١) :

(أخرج أحمد بن منيع في « مسنده » بسند ضعيف عن رجل من الصحابة : أن قائلاً من المسلمين قال : يا رسول الله ؛ ما النجاة غداً ؟ قال : « لا تخادع الله » ، قال : وكيف نخادع الله ؟ قال : « أن تعمل بما أمرك به تريد به غيره ، فاتقوا الله فإنه الشرك بالله . . . ») ، وسيأتي بتمامه .

بماله ، والقارىء لكتاب الله ؛ كما أوردناه في كتاب الإخلاص ، وأن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم : « كذبت ، بل أردت أن يقال : فلان جواد ، كذبت ، بل أردت أن يقال : فلان شجاع ، كذبت ، بل أردت أن يقال : فلان قارىء » ، فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لم يُثابوا ، وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم^(١) .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ رَأَى . . رَأَى اللَّهَ بِهِ ، وَمَنْ سَمِعَ . . سَمِعَ اللَّهَ بِهِ »^(٢) .

وفي حديث آخر طويل : « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لَمَلَائِكَتِهِ : إِنَّ هَذَا لَمْ يَرُدَّنِي بِعَمَلِهِ ، فَاجْعَلُوهُ فِي سَجِينٍ »^(٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ » ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) ، وسيأتي بتمامه .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩) ، ومسلم (٢٩٨٧) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه ، ورواه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما كما أورده المصنف ابن المبارك في « الزهد » (١٤١) بلفظ : « من سمع الناس . . سمع الله به سامع خلقه ، وحقره وصغره » ، قال : فذرفت عينا ابن عمر رضي الله عنهما ، وبلغ المصنف عن عبد الله بن عمرو بن العاص هو عند المحاسبي في « الرعاية » (ص ١٦١) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٢) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٥٢٠) من حديث ضمرة بن حبيب مرسل .

كُتِبَ تَرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمُ الْجَزَاءَ ؟ « (١) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جُبِّ الْحَزَنِ » ، قِيلَ : وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أُعِدَّ لِلْقُرَّاءِ الْمَرَاتِينِ » (٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي . . فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ ، وَأَنَا أَغْنِي الْأَغْنِيَاءَ عَنِ الشَّرِكِ » (٣) .

وَقَالَ عِيسَى الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ . . فَلْيِدْهِنْ رَأْسَهُ وَلَحِيَّتَهُ وَيَمْسَحْ شَفْتَيْهِ ؛ لئَلَّا يَرَى النَّاسُ أَنَّهُ صَائِمٌ ، وَإِذَا أُعْطِيَ بِيَمِينِهِ . . فَلْيُخْفِ عَنْ شِمَالِهِ ، وَإِذَا صَلَّى . . فَلْيُرِخْ سِتْرَ بَابِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْسِمُ الشَّاءَ كَمَا يَقْسِمُ الرِّزْقُ) (٤) .

وَقَالَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلًا فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِيَاءٍ » (٥) .

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٤٢٨ / ٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥٣ / ٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤١٢) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٣) ، وابن ماجه (٢٥٦) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بتقديم وتأخير .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٠ / ٨) من كلام يوسف بن أسباط ، أما مرفوعاً . فقد

قال الحافظ العراقي : (لم أجده هكذا) . « إتحاف » (٢٦٣ / ٨) .

وقال عمرُ لمعاذِ بنِ جبلٍ حينَ رآه يُبكي : ما يُبكيكَ ؟ قالَ حديثٌ سمعتهُ منَ صاحبِ هذا القبرِ - يعني : النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ - يقولُ : « إنَّ أدنى الرياءِ شركٌ »^(١) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أخوفُ ما أخافُ عليكمُ الرياءُ والشهوةُ الخفيةُ »^(٢) ، وهي : أيضاً ترجعُ إلى خفايا الرياءِ ودقائقه .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ في ظلِّ العرشِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلهُ رجلاً تصدَّقَ بيمينه فكادَ أنْ يخفيها عن شماله »^(٣) .

ولذلك وردَ أنَّ فضلَ عملِ السرِّ على عملِ الجهرِ سبعونَ ضعفاً^(٤) .

وقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ المرائيَّ يُنادي يومَ القيامةِ : يا فاجرُ ، يا غادرُ ، يا مرائي ؛ ضلَّ عملُكَ ، وحبطَ أجرُكَ ، اذهبْ فخذْ أجرَكَ ممَّنْ كنتَ تعملُ له »^(٥) .

(١) كذا رواه الطبراني في « الكبير » (٣٦/٢٠) ، وبنحوه رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢٢/٧) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣١٦) ، وروى ابن ماجه (٤٢٠٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراف بالله ؛ أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمرأ ولا وثناً ، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية » .

(٣) هو جزء من حديث رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) بنحوه .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥١) ، وبنحوه كذلك عن أبي الدرداء (٦٣٩٤) .

(٥) رواه أبو الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٣٣) ، وليس فيه لفظ : (يا مرائي) .

وقال شداد بن أوس : رأيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يبكي ، فقلتُ : ما يُبكيكَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « إِنِّي تخَوَّفْتُ على أُمَّتي الشُّركَ ، أما إنَّهُمْ لا يعبُدونَ صنماً ولا شمساً ولا قمرأً ولا حجراً ، ولكنَّهُمْ يَراوُونَ بأَعْمالِهِمْ » (١) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ . . مادَتْ بأهلِها ، فخلَقَ الجبالَ فصَيَّرَها أوتاداً للأرضِ ، فقالتِ الملائكةُ : ما خلَقَ ربُّنا خلقاً هوَ أشدُّ مِنَ الجبالِ ، فخلَقَ اللهُ الحديدَ فقطَعَ الجبالَ ، ثمَّ خلَقَ النارَ فأذابَتِ الحديدَ ، ثمَّ أمرَ اللهُ تعالى الماءَ فأطفأَ النارَ ، وأمرَ الرِّيحَ فكدَّرتِ الماءَ ، فاختلفَتِ الملائكةُ ، فقالتُ : نَسألُ اللهُ تعالى ، فقالتُ : يا ربُّ ؛ ما أشدُّ ما خلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ ؟ فقالَ اللهُ تعالى : لَمْ أخلُقْ خلقاً هوَ أشدُّ مِنْ ابنِ آدَمَ حينَ يتصدَّقُ بصدقةٍ يمينِهِ فيخفيها عن شمالِهِ ، فهوَ أشدُّ خلقِ خَلْقَتُهُ » (٢) .

وروى عبدُ اللهِ بنُ المباركٍ بإسناده عن رجلٍ أَنَّهُ قالَ لمعاذِ بنِ جبلٍ : حَدِّثْني حديثاً سمعْتَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : قالَ : فبكى معاذٌ حتَّى ظننتُ أَنَّهُ لا يسكُتُ ، ثمَّ سكَّ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ لي : « يا معاذُ » ؛ قلتُ : لِيَيْكَ بأبي أنتَ وأُمِّي يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « إِنِّي محدِّثُكَ حديثاً إنَّ أنتَ حفظتَهُ . . نفعَكَ ، وإنَّ أنتَ

(١) كذا في « الرعاية » (١٦٤) ، وقد تقدم قريباً .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٦٩) بألفاظ مقاربة .

ضِيَعَتُهُ وَلَمْ تَحْفَظْهُ . . انْقَطَعَتْ حَجَّتُكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَا مُعَاذُ ؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلاَكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ، فَجَعَلَ لِكُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّبْعَةِ مُلَكًا بَوَّابًا عَلَيْهَا قَدْ جَلَّلَهَا عَظَمًا ، فَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ حِينَ أَصْبَحَ إِلَى أَنْ يَمْسِيَ ، لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ ، حَتَّى إِذَا صَعِدَتْ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا . . زَكَّتُهُ فَكَثَّرَتْهُ ، فَيَقُولُ الْمَلِكُ لِلْحَفْظَةِ : اضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجَهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا صَاحِبُ الْغَيْبَةِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَلَّا أَدْعَ عَمَلٍ مِّنْ اغْتَابَ النَّاسَ يَجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي .

قَالَ : ثُمَّ تَأْتِي الْحَفْظَةُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ مِّنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ فَتَمُرُّ فَتَزَكِّيهِ وَتَكْثُرُهُ . حَتَّى تَبْلُغَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُ بِالسَّمَاءِ الثَّانِيَةِ : قَفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجَهَ صَاحِبِهِ ؛ إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هَذَا عَرْضَ الدُّنْيَا ، أَمَرَنِي رَبِّي أَلَّا أَدْعَ عَمَلَهُ يَجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي ؛ إِنَّهُ كَانَ يَفْتَخِرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ .

قَالَ : وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَتَهَجُّ نُورًا ؛ مِنْ صَدَقَةٍ وَصِيَامٍ وَصَلَاةٍ قَدْ أَعْجَبَ الْحَفْظَةَ ، فَيَجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُ بِهَا : قَفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجَهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا مَلِكُ الْكِبَرِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَلَّا أَدْعَ عَمَلَهُ يَجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي ؛ إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ .

قَالَ : وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَزْهَرُ كَمَا يَزْهَرُ الْكَوْكَبُ الدَّرِّيُّ ، لَهُ

دويٌّ مِنْ تَسْبِيحٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يَجَاوِزُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ،
فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُّ بِهَا : قَفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجَهَ صَاحِبِهِ ،
اضْرِبُوا بِهِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ ، أَنَا صَاحِبُ الْعُجْبِ ، أَمْرَنِي رَبِّي أَلَّا أَدَعَ عَمَلَهُ
يَجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي ؛ إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمَلَ عَمَلًا . . أَدْخَلَ الْعُجْبَ فِي عَمَلِهِ .

قَالَ : وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ حَتَّى يَجَاوِزُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ
الْخَامِسَةِ ؛ كَأَنَّهُ الْعُرُوسُ الْمَزْفُوفَةُ إِلَى أَهْلِهَا ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُّ
بِهَا : قَفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجَهَ صَاحِبِهِ ، وَاحْمِلُوهُ عَلَى عَاتِقِهِ ، أَنَا
مَلِكُ الْحَسَدِ ؛ إِنَّهُ كَانَ يَحْسَدُ النَّاسَ مَنْ يَتَعَلَّمُ وَيَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِهِ ، وَكُلَّ مَنْ
كَانَ يَأْخُذُ فَضْلًا مِنَ الْعِبَادَةِ يَحْسَدُهُمْ وَيَقَعُ فِيهِمْ ، أَمْرَنِي رَبِّي أَلَّا أَدَعَ عَمَلَهُ
يَجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي .

قَالَ : وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ ؛ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ
وَصِيَامٍ ، فَيَجَاوِزُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُّ
بِهَا : قَفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجَهَ صَاحِبِهِ ؛ إِنَّهُ كَانَ لَا يَرْحَمُ إِنْسَانًا قَطُّ
مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَصَابَهُ بَلَاءٌ أَوْ ضُرٌّ أَضُرَّ بِهِ ، بَلْ كَانَ يَشْمَتُ بِهِ ، أَنَا مَلِكُ
الرَّحْمَةِ ، أَمْرَنِي رَبِّي أَلَّا أَدَعَ عَمَلَهُ يَجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي .

قَالَ : وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ؛ مِنْ صَوْمٍ وَصَلَاةٍ
وَنَفَقَةٍ وَزَكَاةٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ ، لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيٍّ الرَّعْدِ ، وَضَوْءٌ كَضَوْءِ
الشَّمْسِ ، مَعَهُ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مَلَكٍ ، فَيَجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَيَقُولُ
لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُّ بِهَا : قَفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجَهَ صَاحِبِهِ ، وَاضْرِبُوا

به جوارحه ، اقللوا على قلبه ؛ إني أحجُبُ عن ربِّي كلَّ عملٍ لم يُردَّ به وجهُ ربِّي ؛ إنَّه أرادَ بعمله غيرَ الله تعالى ، إنَّه أرادَ رفعةً عندَ الفقهاء ، وذكرًا عندَ العلماء ، وصيتاً^(١) في المدائن ، أمرني ربِّي ألا أدعَ عملهُ يجاوزني إلى غيري ، وكلُّ عملٍ لم يكنْ لله تعالى خالصاً فهو رياءٌ ، ولا يقبلُ الله تعالى عملَ المرائي .

قال : وتصدُّ الحفظةُ بعملِ العبدِ ؛ مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ ، وعمرةٍ وخُلُقٍ حسنٍ وصمتٍ وذكرٍ لله تعالى ، وتشيُّعُهُ ملائكةَ السماواتِ حتَّى يقطعوا به الحُجُبَ كُلَّها إلى الله عزَّ وجلَّ ، فيقفونَ بينَ يديه ويشهدونَ له بالعملِ الصَّالحِ المخلصِ لله تعالى ، قال : فيقولُ اللهُ لَهُمْ : أنتمُ الحفظةُ على عملِ عبدي وأنا الرقيبُ على نفسيهِ ؛ إنَّه لم يردني بهذا العملِ ، وأرادَ به غيري ، فعليه لعنتي ، فتقولُ الملائكةُ كُلُّها : عليه لعنتك ولعنتنا ، وتقولُ السماواتُ كُلُّها : عليه لعنةُ اللهِ ولعنتنا ، وتلعنهُ السماواتُ السبعُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، قالَ معاذٌ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وأنا معاذٌ ، قالَ : « اقتدِ بي وإن كانَ في عمرِكَ نقصٌ^(٢) » ، يا معاذُ ؛ حافظُ على لسانِكَ مِنَ الوقِيعَةِ في إخوانِكَ مِنْ حَمَلَةِ القرآنِ ، واحمِلْ ذنوبَكَ عليك ، ولا تحمِلْها عليهم ، ولا تركُ نفسِكَ بذمِّهم ، ولا ترفعَ نفسَكَ عليهم ، ولا تُدخِلْ عملَ الدنيا في عملِ الآخرةِ ، ولا تتكَبَّرْ في مجلسِكَ لكي يحذرَ

(١) في (ب) : (وصوتاً) .

(٢) في غير (ك) : (تقصير) بدل (نقص) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٢٦٦/٨) :

(عملك) بدل (عمرِكَ) .

الناس من سوء خُلُقِكَ ، ولا تناجِ رجلاً وعندك آخرُ ، ولا تتعظّم على الناسِ فينقطعَ عنك خيرُ الدنيا ، ولا تمزّقِ الناسَ فتمزّقَكَ كلابُ النارِ يومَ القيامةِ في النارِ ، قالَ تعالى : ﴿وَالنَّشِيطَةِ نَشْطًا﴾ ، أتدري ما هي يا معاذُ ؟ « قلتُ : ما هي بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله ؟ قالَ : « كلابُ في النارِ تنشطُ اللحمَ والعظمَ » ، قلتُ : بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله ، فمن يطيقُ هذه الخصالَ ؟ ومن ينجو منها ؟ قالَ : « يا معاذُ ؛ إِنَّهُ ليسيّرُ على مَنْ يَسْرُهُ اللهُ عليه » ، قالَ : فما رأيتُ أكثرَ تلاوةً للقرآنِ مِنْ معاذٍ ؛ للحذرِ ممّا في هذا الحديثِ (١) .



وأما الآثارُ :

فيُروى أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه رأى رجلاً يطأطأ رقبتهُ ، فقالَ : (يا صاحبَ الرقبةِ ؛ ارفعْ رقبَتَكَ ، ليسَ الخشوعُ في الرّقابِ ، وإنما الخشوعُ في القلوبِ) (٢) .

ورأى أبو أمانةَ الباهليُّ رجلاً في المسجدِ يبكي في سجودِهِ ، فقالَ : (أنتَ أنتَ ؛ لو كانَ هذا في بيتِكَ) (٣) .

- (١) قال الحافظ العراقي : (هو كما قال المصنف ، رواه ابن المبارك بطوله في الزهد له ، وفي إسناده - كما ذكر - رجل ، ورواه ابن الجوزي في « الموضوعات » [٣٣٩/٢]) .
« إتحاف » (٢٦٦/٨) وزاد : (ويخط الكمال الدميري : قال الشيخ تقي الدين القشيري : الرجل المذكور هو خالد بن معدان) .
(٢) أورده الإسماعيلي في « مناقبه » . « إتحاف » (٢٦٧/٨) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٦) .

وقال علي رضي الله عنه : (للمُرائي أربع علامات : يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان في الناس ، ويزيد في العمل إذا أُنِّي عليه ، وينقص إذا ذم)^(١) .

وقال رجل لعبادة بن الصامت : أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس ؟ قال : لا شيء لك ، فسأله ثلاث مرات ، كل ذلك يقول : لا شيء لك ، ثم قال في الثالثة : « إن الله تعالى يقول : أنا أغني الأغنياء عن الشرك . . . » الحديث^(٢) .

وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يُحمد ويؤجر ، فقال له : أتحب أن تُمقت ؟ قال : لا ، قال : فإذا عملت لله عملاً . . فأخلصه^(٣) .

وقال الضحاك : (لا يقولن أحدكم : هذا لوجه الله ولوجهك ، ولا يقل : هذا لله وللرحم ؛ فإن الله تعالى لا شريك له)^(٤) .

(١) كذا أورده الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٣٠) ، ورواه بنحوه عن أبي سليمان الداراني الثعلبي في « تفسيره » (٧/٢) وفيه لفظ (ثلاث علامات) ولم يذكر الأخيرة .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٦) ، وروى الحديث مرفوعاً مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٥) ، والسائل هو ابن أبي مغيث .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٩٣٧) ، ورواه عنه الدارقطني في « سننه » (٥١/١) مرفوعاً .

وضربَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه رجلاً بالدَّرَّةِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : اقْتَصَّهَا مِنِّي ،
فَقَالَ : لَا ، بَلْ أَدْعُهَا لِلَّهِ وَلَكَ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا صَنَعْتَ
شَيْئاً ، إِمَّا أَنْ تَدْعَهَا لِي فَأَعْرِفَ ذَلِكَ لَكَ ، أَوْ تَدْعَهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، فَقَالَ :
وَدَعْتُهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، فَقَالَ : فَنَعَمْ إِذَا^(١) .

وَقَالَ الْحَسَنُ : (لَقَدْ صَحِبْتُ أَقْوَاماً إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَتَعْرِضُ لَهُ
الْحِكْمَةُ ، لَوْ نَطَقَ بِهَا . لَنَفَعَتْهُ وَنَفَعَتْ أَصْحَابَهُ ، وَمَا يَمْنَعُهُ مِنْهَا إِلَّا مَخَافَةُ
الشَّهْرَةِ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَمُرُّ فَيَرَى الْأَذَى عَلَى الطَّرِيقِ ، فَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ
يَنْحِيَهُ إِلَّا مَخَافَةُ الشَّهْرَةِ)^(٢) .

وَيُقَالُ : (إِنَّ الْمَرَاتِي يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ : يَا مَرَاتِي ،
يَا غَادِرُ ، يَا فَاجِرُ ، يَا خَاسِرُ ؛ اذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ ، فَلَا أَجَرَ
لَكَ عِنْدَنَا)^(٣) .

وَقَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ : (كَانُوا يَرَاوُونَ بِمَا يَعْمَلُونَ ، وَصَارُوا الْيَوْمَ
يَرَاوُونَ بِمَا لَا يَعْمَلُونَ)^(٤) .

(١) كَذَا فِي «الرعاية» (ص ١٦٦) ، وَقَدْ رَوَاهُ ضَمَنَ خَبَرِ طَوِيلِ ابْنِ عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِ
دِمَشْقَ» (٢٩١/٤٤) .

(٢) رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «الزَّهْدِ» (١٣٨) .

(٣) كَذَا فِي «الرعاية» (ص ١٦٣) ، وَرَوَاهُ اللَّيْثُ السَّمُرْقَنْدِيُّ فِي «تَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ»
(ص ٣٣) .

(٤) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَةِ» . «إِتْحَافٌ» (٢٦٨/٨) .

وقال عكرمة : (إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ عَلَى نِيَّتِهِ مَا لَا يُعْطِيهِ عَلَى عَمَلِهِ ؛
لَأَنَّ النِّيَّةَ لَا رِيَاءَ فِيهَا) (١) .

وقال الحسن رضي الله عنه : (الْمُرَائِي يُرِيدُ أَنْ يَغْلِبَ قَدَرَ اللَّهِ تَعَالَى ،
هُوَ رَجُلٌ سُوءٌ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ : هُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ ، وَكَيْفَ يَقُولُونَ وَقَدْ
حَلَّ مِنْ رَبِّهِ مَحَلَّ الْأَرْدِيَاءِ ، فَلَا بَدَّ لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَعْرِفَهُ ؟ !) (٢) .

وقال قتادة : (إِذَا رَأَى الْعَبْدُ . . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : انْظُرُوا إِلَيَّ عَبْدِي
يَسْتَهْزِئُ بِي) (٣) .

وقال مالك بن دينار : (الْقِرَاءُ ثَلَاثَةٌ : قِرَاءُ الرَّحْمَنِ ، وَقِرَاءُ الدُّنْيَا ،
وَقِرَاءُ الْمُلُوكِ ، وَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعٍ مِنْ قِرَاءِ الرَّحْمَنِ) (٤) .

وقال الفضيل : (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مُرَاءٍ . . فَلْيَنْظُرْ إِلَيَّ) .

وقال محمد بن المبارك الصوري : (أَظْهَرَ السَّمْتِ بِاللَّيْلِ ؛ فَإِنَّهُ أَشْرَفُ
مِنْ سَمْتِكَ بِالنَّهَارِ ؛ لِأَنَّ السَّمْتِ بِالنَّهَارِ لِلْمَخْلُوقِينَ ، وَسَمْتُ اللَّيْلِ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ) .

(١) هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٨٤٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٦٨ / ٨) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٩٣) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤٥ / ٢) .

وقال أبو سليمان : (التوقي عن العمل أشد من العمل)^(١) .
 وقال ابن المبارك : إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان ، قيل :
 وكيف ذاك ؟ قال : يحب أن يذكر أنه مجاور بمكة .
 وقال إبراهيم بن أدهم : (ما صدق الله من أراد أن يشتهر)^(٢) .



(١) روي مرفوعاً بنحوه ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٣٩٤) من حديث أبي الدرداء : « إن الاتقاء على العمل أشد من العمل ... » .
 (٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١ / ٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٧٦) .

بيان حقيقة الرياء وما يرائى به

اعلم : أنَّ الرياءَ مشتقٌّ مِنَ الرُّؤية ، والسمعةُ مشتقةٌ مِنَ السَّماعِ ، وإنَّما الرياءُ أصلُهُ طلبُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ بإيرائِهِمْ خصالَ الخيرِ ، إلا أنَّ الجاهَ والمنزلةَ تُطلبُ في القلبِ بأعمالٍ سوى العباداتِ ، وتُطلبُ بالعباداتِ .

واسمُ الرياءِ مخصوصٌ بحكمِ العادةِ بطلبِ المنزلةِ في القلوبِ بالعباداتِ وإظهارِها .

فحدُّ الرياءِ : هوَ إرادةُ العبادِ بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ ، فالمرائي هوَ العابدُ ، والمرأى له هُمُ الناسُ المطلوبُ رؤيتُهُمْ بطلبِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ، والمرأى به هيَ الخصالُ التي قصدَ المرأيَ إظهارَها ، والرياءُ هوَ قصدهُ إظهارَ ذلكِ .

والمرأى به كثيرٌ ، تجمعُهُ خمسةُ أقسامٍ ، هيَ مجامعُ ما يتزَيَّنُ العبدُ به للناسِ ، وهوَ البدنُ ، والزِّيُّ ، والقولُ ، والعملُ ، والأتباعُ والأشياءُ الخارجةُ ، وكذلك أهلُ الدنيا يراوونَ بهذه الأسبابِ الخمسةِ ، إلا أنَّ طلبَ الجاهِ وقصدَ الرياءِ بأعمالٍ ليستُ مِنْ جملةِ الطاعاتِ أهونُ مِنَ الرياءِ بالطاعاتِ .

الأول : الرياء في الدين من جهة البدن :

وذلك بإظهار النحول والاصفرار ؛ ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على أمر الدين ، وغلبة خوف الآخرة ، وليدلّ بالنحول على قلة الأكل ، وبالاصفرار على سهر الليل ، وكثرة الاجتهاد ، وعظم الحزن في الدين .

وكذلك يراني بتشعيب الشعر ؛ ليدلّ به على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر .

وهذه أسباب مهمما ظهرت . . استدللّ الناس بها على هذه الأمور ، فارتاحت النفس لمعرفتهم ؛ فلذلك تدعو النفس إلى إظهارها ؛ لنيل تلك الراحة .

ويقرب من هذا خفض الصوت ، وغور العينين ، وذبول الشفتين ؛ ليُستدلّ بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته ، أو ضعف الجوع هو الذي أضعف قوته .

وعن هذا قال عيسى عليه السلام : (إذا صام أحدكم . . فليدهن رأسه ، ويرجل شعرة ، ويكحل عينيه)^(١) .

وكذلك روي عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٢) ، وذلك كله لما يخاف

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠) بنحوه .

(٢) كما أشار إلى ذلك في « الرعاية » (ص ١٧٩) .

عليه مِنْ نَزَغِ الشَّيْطَانِ بِالرِّيَاءِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : (أَصْبَحُوا صِيَامًا مَذْهَنِينَ)^(١) .

فهذه مراعاةُ أهلِ الدينِ بالبدنِ ، فأما أهلُ الدنيا . . فيراؤونَ بإظهارِ السمنِ ، وصفاءِ اللونِ ، واعتدالِ القامةِ ، وحسنِ الوجهِ ، ونظافةِ البدنِ ، وقوةِ الأعضاءِ وتناسبها^(٢) .



الثاني : الرياءُ بالزُّيِّ والهيئة :

أما الهيئة . . فتشعِثُ شعرَ الرأسِ ، وحلقُ الشاربِ ، وإطراقُ الرأسِ في المشي ، والهدوءُ في الحركة ، وإبقاءُ أثرِ السجودِ على الوجهِ ، وغلظُ الثيابِ ، ولبسُ الصوفِ ، وتشميرُها إلى قريبٍ مِنْ نصفِ السَّاقِ ، وتقصيرُ الأكمامِ ، وتركُ تنظيفِ الثوبِ ، وتركُهُ مخرقاً ، كلُّ ذلكِ يُرائي بِهِ ؛ ليظهرَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِلسَّنَةِ فِيهِ ، ومقتدٍ فِيهِ بِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ .

ومنه : لبسُ المرقعِ ، والصلاةُ على السجادةِ ، ولبسُ الثيابِ الزرقِ تشبُّهاً بالصوفيَّةِ معَ الإفلاسِ مِنْ حَقَائِقِ التَّصَوُّفِ فِي الْبَاطِنِ .

ومنه : التَّقَنُّعُ بِالْإِزَارِ فَوْقَ الْعِمَامَةِ ، وإسبالُ الرداءِ عَلَى الْعَيْنَيْنِ ؛ لِيُرَى

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٧٩) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١ / ١٣٦) .

(٢) الرعاية (ص ١٨٠) .

به أَنَّهُ انتهى تَقَشُّفُهُ إِلَى الحذرِ مِنْ غبارِ الطريقِ ، ولتَنصَرِفَ إِلَيْهِ الأعينُ بسببِ تَميِّزِهِ بتلكِ العلامةِ .

ومنه الدُّرَاعَةُ والطَّيْلَسَانُ يلبسُهُ مَنْ هُوَ خَالٍ عَنِ العلمِ ؛ ليوهم أَنَّهُ مِنْ أَهلِ العلمِ .

والمراوونَ بالزِّيِّ على طبقاتٍ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ المنزلَةَ عِنْدَ أَهلِ الصَّلاحِ بإظهارِ الزهدِ ، فيلبسُ الثيابَ المخرَّقةَ الوسخةَ القصيرةَ الغليظةَ ؛ ليرائيَ بغلظِها ووسخِها وقصرِها وتخرُّقِها أَنَّهُ غيرُ مكترثٍ بالدنيا ، ولو كُلفَ أَنْ يلبسَ ثوباً وسطاً نظيفاً ممَّا كَانَ السلفُ يلبسُهُ . . لكانَ ذلكَ عِنْدَهُ بمنزلةِ الذبحِ ؛ وذلكَ لخوفِهِ أَنْ يقولَ الناسُ : قد بدالهُ مِنَ الزهدِ ، ورجعَ عَن تلكِ الطريقةِ ، ورغبَ في الدنيا .

وطبقةٌ أخرى يطلبونَ القبولَ عِنْدَ أَهلِ الصَّلاحِ ، وعِنْدَ أَهلِ الدنيا مِنَ الملوكِ والوزراءِ والتجارِ ، ولو لبسوا الثيابَ الفاخرةَ . . ردَّهمُ القراءُ ، ولو لبسوا الثيابَ المخرَّقةَ الخلقةَ . . ازدرتْهمُ أعيُنُ الملوكِ والأغنياءِ ، فهُمْ يريدونَ الجمعَ بينَ قبولِ أَهلِ الدينِ والدنيا ، فلذلكَ يطلبونَ الأصوافَ الرقيقةَ ، والأكسيةَ الرفيعةَ ، والمرقاتِ المصبوغةَ ، والفوطَ الرفيعةَ فيلبسونَهَا ، ولعلَّ قيمةَ ثوبِ أَحَدِهِمْ قيمةُ ثوبِ الأغنياءِ ، ولونهُ وهيئَتُهُ لَوْنُ ثيابِ الصلحاءِ ، فيلتمسونَ القبولَ عِنْدَ الفريقينِ ، وهؤلاءِ لو كُلفُوا لبسَ ثوبٍ خشنٍ أو وسخٍ . . لكانَ عِنْدَهُمْ كالذبحِ ؛ خوفاً مِنَ السقوطِ مِنْ أعيُنِ

الملوك والأغنياء ، ولو كُلفوا لبس الدِّيَقِيِّ والكَتَّانِ الرقيق الأبيض^(١) ،
والقصبِ المعلم ، وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم . . لعظم ذلك عليهم ؛
خوفاً من أن يقول أهلُ الصلاح : قد رغبوا في زيِّ أهل الدنيا ، وكلُّ طبقةٍ
منهم رأى منزلته في زيِّ مخصوص ، فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه ، أو
إلى ما فوقه وإن كان مباحاً ؛ خوفاً من المذمة .

وأما أهلُ الدنيا . . فمراءاتهم بالثياب النفيسة ، والمراكب الرفيعة ،
 وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول ،
 وبالثياب المصبغة والطياصة النفيسة ، وذلك ظاهراً بين الناس ، فإنهم
 يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ، ويستند عليهم لو برزوا للناس على تلك
 الهيئة ما لم يبالغوا في الزينة .



الثالث : الرياء بالقول :

ورياءُ أهل الدين بالوعظ ، والتذكير ، والنطق بالحكمة ، وحفظ الأخبار
 والآثار لأجل الاستعمال في المحاوراة ؛ إظهاراً لغزارة العلم ، ودلالة على
 شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر
 الناس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار

(١) الدِيقِي : منسوب إلى ديق ، وهي من قرئ دمياط ، قد خربت منذ زمان ، كان يعمل
 فيها هذه الثياب المنسوجة بالحرير . « إتحاف » (٢٧٠ / ٨) .

الغضب للمنكرات ، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي ،
وتضعيف الصوت في الكلام ، وترقيق الصوت بقراءة القرآن ؛ ليدلَّ
بذلك على الحزن والخوف ، وادعاء حفظ الحديث ، ولقاء الشيوخ ، والردُّ
على مَنْ يروي الحديث بيان خلل في لفظه ؛ ليُعرف أنَّه بصيرٌ
بالأحاديث ، والمبادرة إلى أنَّ الحديث صحيحٌ أو غير صحيح ؛ لإظهار
الفضل فيه ، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ؛ ليظهر للناس قوَّته في
علم الدين .

والرياء بالقول كثيرٌ وأبوابه لا تنحصر .

وأما أهل الدنيا . فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال ،
والتفاح في العبارات ، وحفظ النحو الغريب ؛ للإغراب على أهل
الفضل ، وإظهار التودُّد إلى الناس لاستمالة القلوب .



الرابع : الرياء بالعمل :

كمراءة المصلِّي بطول القيام ومدَّ الظهر ، وتطويل السجود والركوع ،
وإطراق الرأس ، وترك الالتفات ، وإظهار الهدوء والسكون ، وتسوية
القدمين واليدين ، وكذلك بالصوم ، والغزو ، والحج ، وبالصدقة ،
وبإطعام الطعام ، وبالإخبات في المشي عند اللقاء ؛ كإرخاء الجفون ،
وتنكيس الرأس ، والوقار في الكلام ، حتَّى إنَّ المرائي قد يسرع في المشي

إلى حاجته ، فإذا اطلع عليه واحدٌ من أهل الدين . . رجع إلى الوقار وإطراق الرأس ؛ خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار ، فإن غاب الرجل . . عاد إلى عجلته ، فإذا رآه . . عاد إلى خشوعه ، ولم يحضره ذكرُ الله حتى يكون يجدد الخشوع له ، بل هو لا اطلاع إنسانٍ عليه يخشى ألا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء .

ومنهم من إذا سمع هذا . . استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس ، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة ، حتى إذا رآه الناس . . لم يفتقر إلى التغيير ، ويظن أنه يتخلص به عن الرياء ، وقد تضاعف به رياؤه ، فإنه صار في خلوته أيضاً مرئياً ، فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة ؛ ليكون كذلك في الملاء ، لا لخوف من الله وحياء منه .

وأما أهل الدنيا . . فمراءاتهم بالتبخر والاختيال ، وتحريك اليدين وتقريب الخطأ ، والأخذ بأطراف الذيل ، وإدارة العطفين ؛ ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة .



الخامس : المراءة بالأصحاب والزائرين والمخالطين :

كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ؛ ليقال : إن فلاناً قد زار فلاناً ، أو عابداً من العباد ؛ ليقال : إن أهل الدين يتبركون بزيارته ، ويرددون إليه ، أو ملكاً من الملوك ، أو عاملاً من عمال السلطان ؛ ليقال :

إِنَّهُمْ يَتَبَرَّكُونَ بِهِ ؛ لعظم رتبته في الدين ، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ؛ ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم ، فيباهي بشيوخه ، ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاطبته ، فيقول لغيره : وَمَنْ لَقِيتَ مِنَ الشُّيُوخِ ؟ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً ، ودرت البلاد ، وخدمت الشيوخ ، وما يجري مجراه .

فهذه مجامع ما يراني به المراءون ، وكلهم يطلبون به الجاه والمنزلة في قلوب العباد .



ومنها مَنْ يَقْنَعُ بِحَسَنِ الْإِعْتِقَادَاتِ فِيهِ ، فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة ، وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة ، وإنما حياته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ، ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته . . لتشوش قلبه ، ولم يقنع بعلم الله تعالى ببراءة ساحته ، بل يشتد لذلك غمّه ، ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم ، مع أنه قطع طمعه عن أموالهم ، ولكنه يحب مجرد الجاه ، فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه ، فإنه نوع قدرة وكمال في الحال ، وإن كان سريع الزوال ، لا يغتر به إلا الجهال ، ولكن أكثر الناس جهال .

وَمِنَ الْمَرَاتِينِ مَنْ لَا يَقْنَعُ بِقِيَامِ مَنْزِلَتِهِ ، بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد .

ومنها مَنْ يَرِيدُ انْتِشَارَ الصِّيتِ فِي الْبِلَادِ ؛ لتكثر الرحلة إليه .

ومنهم مَنْ يريدُ الاشتهارَ عندَ الملوكِ ؛ لتُقبلَ شفاعتُهُ ، وتنجزَ الحوائجُ على يديه فيقومَ لَهُ بِهِ جاهٌ عندَ العامة .

ومنهم مَنْ يقصدُ التوصلَ بذلكِ إلى جمعِ حطامٍ ، وكسبِ مالٍ ولو من الأوقافِ وأموالِ اليتامى وغيرِ ذلكِ من الحرامِ ، وهؤلاءِ شرُّ طبقاتِ المرائينَ الذينَ يراوونَ بالأسبابِ التي ذكرناها .

فهذه حقيقةُ الرِّياءِ وما بِهِ يقعُ الرِّياءُ .



فإن قلتَ : فالرياءُ حرامٌ ، أو مكروهٌ ، أو مباحٌ ، أو فيه تفصيلٌ ؟

فأقولُ : فيه تفصيلٌ ؛ فإنَّ الرياءَ هوَ طلبُ الجاهِ ، وهوَ إمَّا أن يكونَ بالعباداتِ أو بغيرِ العباداتِ ، فإن كانَ بغيرِ العباداتِ . . فهوَ كطلبِ المالِ ؛ فلا يحرمُ مِنْ حيثُ إنَّه طلبٌ منزلةٌ في قلوبِ العبادِ ، ولكن كما يمكنُ كسبُ المالِ بتلبيساتٍ وأسبابٍ محظورةٍ . . فكَذلكَ الجاهُ ، وكما أنَّ كسبَ قليلٍ منَ المالِ وهوَ ما يحتاجُ إليه الإنسانُ محمودٌ . . فكسبُ قليلٍ منَ الجاهِ وهوَ ما يسلمُ بِهِ عنِ الآفاتِ أيضاً محمودٌ ، وهوَ الذي طلبَهُ يوسفُ عليه السلامُ حيثُ قالَ : ﴿ إِنِّي خَفِيفٌ عَلَيْهِمُ ﴾ ، وكما أنَّ المالَ فيه سَمٌّ نافعٌ ودرياقٌ نافعٌ^(١) . . فكَذلكَ الجاهُ ، وكما أنَّ كثيرَ المالِ يُلهي ويُطغي ، ويُنسي

(١) الدرياق والترياق بمعنى .

ذكر الله تعالى والدار الآخرة. . فكذلك كثرة الجاه ، بل إن فتنة الجاه أعظم من فتنة المال ، وكما أننا لا نقول : تملك المال الكثير حرام ، فلا نقول أيضاً : تملك القلوب الكثيرة حرام ، إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز .

نعم ، انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور ؛ كانصراف الهم إلى كثرة المال ، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها .

وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ، ومن غير اغتمام بزواله إن زال. . فلا ضرر فيه ؛ فلا جاة أوسع من جاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاه الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ، ولا يوصف بالتحريم .

فعلى هذا نقول : تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراعاة ، وهو ليس بحرام ؛ لأنه ليس رياء بالعبادة ، بل بالدنيا ، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم .

والدليل عليه : ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخرج يوماً على الصحابة ، فكان ينظر في حب الماء ، ويسوي عمامته وشعره ، فقالت : أوتفعل ذلك يا رسول الله ؟ قال :

« نعم ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَتَزَيَّنَ لِإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ »^(١) .

نعم ، هَذَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِبَادَةً ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مَأْمُورًا بِدَعْوَةِ الْخَلْقِ ، وَتَرْغِيبِهِمْ فِي الْإِتْبَاعِ ، وَاسْتِمَالَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَلَوْ سَقَطَ مِنْ أَعْيُنِهِمْ . . لَمْ يَرْغَبُوا فِي اتِّبَاعِهِ ، فَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ مُحَاسِنَ أَحْوَالِهِ ؛ لِكَيْلَا تَزْدَرِيَهُ أَعْيُنُهُمْ ، فَإِنَّ أَعْيُنَ عَوَامِّ الْخَلْقِ تَمْتَدُّ إِلَى الظَّوَاهِرِ دُونَ السَّرَائِرِ ، فَكَانَ ذَلِكَ قَصْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَلَكِنْ لَوْ قَصَدَ قَاصِدٌ أَنْ يَحْسُنَ نَفْسَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ؛ حَذَرًا مِنْ ذَمِّهِمْ وَلَوْمِهِمْ ، وَاسْتِرْوَا حَاقًا إِلَى تَوْقِيرِهِمْ وَاحْتِرَامِهِمْ . . كَانَ قَدْ قَصَدَ أَمْرًا مَبَاحًا ؛ إِذْ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنَ أَلَمِ الْمَذْمَةِ ، وَيَطْلُبَ رَاحَةَ الْأَنْسِ بِالْإِخْوَانِ ، وَمَهْمَا اسْتَقْلَوْهُ وَاسْتَقْذَرُوهُ . . لَمْ يَأْنَسْ بِهِمْ .

فَإِذَا ؛ الْمِرَاءَةُ بِمَا لَيْسَ مِنَ الْعِبَادَاتِ قَدْ تَكُونُ مَبَاحَةً ، وَقَدْ تَكُونُ طَاعَةً ، وَقَدْ تَكُونُ مَذْمُومَةً ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ بِهَا ، وَلِلذَلِكَ نَقُولُ : الرَّجُلُ إِذَا أَنْفَقَ مَالَهُ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، لَا فِي مَعْرِضِ الْعِبَادَةِ وَالصَّدَقَةِ ، وَلَكِنْ لِيَعْتَقِدَ النَّاسُ أَنَّهُ سَخِيٌّ . . فَهَذِهِ مِرَاءَةٌ وَلَيْسَتْ بِحَرَامٍ ، وَكَذَلِكَ أَمْثَالُهَا .



(١) قَالَ الْعِرَاقِيُّ : (أَخْرَجَهُ ابْنُ عَدِي فِي « الْكَامِلِ ») . « إِنْحَافٌ » (٣٩٦ / ٢) ، وَالْحُبُّ : الْخَابِيَةُ ، لَفْظَةٌ فَارْسِيَّةٌ مَعْرَبَةٌ .

أما العبادات ؛ كالصدقة ، والصلاة ، والصيام ، والغزو ، والحج . .
فللمرائي فيه حالتان :

إحدهما^(١) : ألا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يبطل عبادته ؛ لأن الأعمال بالنيات ، وهذا ليس يقصد العباد ، ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول : صار كما كان قبل العباد ، بل يعصي بذلك ويأثم ، كما دللت عليه الأخبار والآيات ، والمعنى فيه أمران : أحدهما : يتعلق بالعباد ، وهو التلبس والمكر ؛ لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله ، وأنه من أهل الدين ، وليس كذلك ، والتلبس أيضاً في أمر الدنيا حرام ، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ؛ ليعتقدوا سخاوته . . أثم به ؛ لما فيه من التلبس وتملك القلوب بالخداع والمكر .

والثاني : يتعلق بالله عز وجل ، وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله . . فهو مستهزئ بالله ، ولذلك قال قتادة : (إذا رأى العبد . . قال الله تعالى لملائكته : انظروا إلى عبدي كيف يستهزئ بي)^(٢) ، ومثاله : أن يمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار ؛ كما جرت عادة الخدمة ، وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك ، أو غلام من

(١) والحالة الثانية ستأتي آخر هذا البيان عند قوله : (فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً . .) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٩٣) .

علمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك ؛ إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته ، بل قصد به عبداً من عبيده ، فأئى استحقاق يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراعاة عبد ضعيف لا يملك له ضرراً ولا نفعاً ؟! وهل ذلك إلا لأنه ظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله تعالى ، وأنه أولى بالتقرب إليه من الله تعالى ؛ إذ أثره على ملك الملوك ، فجعله مقصود عباده ؟! وأئى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ؟!

فهذا من كبائر المهلكات ، ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشرك الأصغر^(١) .

نعم ، بعض درجات الرياء أشد من بعض كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى ، ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف ، بحسب ما به المراعاة ، ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله . . . لكان فيه كفاية ؛ فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله . . . فقد قصد غير الله ، ولعمري ؛ لو عظم غير الله بالسجود . . . لكفر كفرأ جلياً ، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي ؛ لأن المرائي عظم في قلبه الناس ، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع لهم ، فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق . . . كان ذلك قريباً من

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤٢٨/٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥٣/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤١٢) .

الشرك ، إلا أنه إن قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله . . فمن هذا كان شركاً خفياً لا شركاً جلياً ، وذلك غاية الجهل ، ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان ، وأوهم عنده أن العباد يملكون من نفعه وضره ورزقه وأجله ومصالح حاله وماله أكثر مما يملكه الله تعالى ، فلذلك عدل بوجهه عن الله تعالى إليهم ، وأقبل بقلبه عليهم ؛ ليستميل بذلك قلوبهم ، ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة . . لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ؛ فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم ، لا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ، فكيف يملكون لغيرهم ؟! هذا في الدنيا ، فكيف في يوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، بل تقول الأنبياء فيه : نفسي نفسي ؟! فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله تعالى ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس ؟! فلا ينبغي أن نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعاً ، هذا إذا لم يقصد الأجر .

فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته . . فهذا الشرك الذي يناقض الإخلاص ، وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص ، ويدل ما نقلناه في الآثار من قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت أنه لا أجر له فيه أصلاً .



بيان درجات الرياء

اعلم : أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض ، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه .

وأركانه ثلاثة : المراءى به ، والمراءى لأجله ، ونفس قصد الرياء .



الركن الأول : نفس قصد الرياء :

وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب ، فإن كان كذلك . . فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب ، أو أضعف ، أو مساوية لإرادة العبادة ، فتكون الدرجات أربعاً :

الدرجة الأولى : - وهي أغلظها - : ألا يكون مراده الثواب أصلاً ؛ كالذي يصلّي بين أظهر الناس ، ولو انفرده . . لكان لا يصلّي ، بل ربّما يصلّي من غير طهارة مع الناس ، فهذا جرّد قصده إلى الرياء ؛ فهو الممقوث عند الله تعالى ، وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ، ولو خلا بنفسه . . لما أداها ، فهذه الدرجة العليا من الرياء .

الدرجة الثانية : أن يكون له قصد الثواب أيضاً ، ولكن قصداً ضعيفاً ؛ بحيث لو كان في الخلوة . . لكان لا يفعله ، ولا يحمله ذلك القصد على

العمل ، ولو لم يكن قصد الثواب . . لكان قصد الرياء يحمله على العمل ،
فهذا قريب مما قبله ، وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على
العمل . . لا ينفي عنه المقت والإثم .

الدرجة الثالثة : أن يكون قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو
كان كل واحد منهما خالياً عن الآخر . . لم يبعثه على العمل ، فلما
اجتمعا . . انبعثت الرغبة ، أو كان كل واحد منهما لو انفرد . . لاستقل بحمله
على العمل ، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح ، فترجو أن يسلم رأساً برأس ،
لا له ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب ، وظواهر
الأخبار تدل على أنه لا يسلم ، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص .

الدرجة الرابعة : أن يكون اطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه ، ولو لم
يكن . . لكان لا يترك العبادة ، ولو كان قصد الرياء وحده . . لما أقدم عليه ،
فالذي نظنه - والعلم عند الله - أنه لا يحبط أصل الثواب ، ولكنه ينقص منه ،
أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ، ويثاب على مقدار قصد الثواب .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « أنا أغنى الأغنياء عن
الشرك »^(١) . . فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان ، أو كان قصد الرياء
أرجح .



(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه .

الركن الثاني : المراءى به :

وهو الطاعات ، وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات ، وإلى الرياء بأوصافها :

القسم الأول - وهو الأغلظ - : الرياء بالأصول ، وهو على ثلاث درجات :
الأولى : الرياء بأصل الإيمان : وهذا أغلظ أبواب الرياء ، وصاحبه مغلط في النار ، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ، ولكنه يرائي بظاهر الإسلام ، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : في دلائلهم بقولهم على ضمائرهم .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ . وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا . . . الآية .
وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ مُذَبَّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ .
والآيات فيهم كثيرة ، وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض^(١) ، وذلك مما يقل في زماننا ، ولكن يكثر نفاق

(١) كحماية النفس والمال والعرض وكالطمع في الدنيا وغير ذلك . « إنحاف » (٨/ ٢٧٦) .

مَنْ يَنْسِلُ عَنِ الدِّينِ بَاطِناً ، فَيَجْحَدُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ؛ مَيْلاً إِلَى قَوْلِ الْمَلْحَدَةِ^(١) ، أَوْ يَعْتَقِدُ طَيِّئَ بَسَاطِ الشَّرْعِ وَالْأَحْكَامِ ، مَيْلاً إِلَى أَهْلِ الْإِبَاحَةِ^(٢) ، أَوْ يَعْتَقِدُ كُفْراً أَوْ بَدْعَةً وَهُوَ يَظْهَرُ خِلَافَهُ ، فَهُوَ لَاءٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمَرَاتِينَ الْمُخَلَّدِينَ فِي النَّارِ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ هَذَا الرِّيَاءِ رِيَاءٌ ، وَحَالُ هَؤُلَاءِ أَشَدُّ مِنْ حَالِ الْكُفَّارِ الْمَجَاهِرِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ كُفْرِ الْبَاطِنِ وَنِفَاقِ الظَّاهِرِ .

الدرجة الثانية : الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين : وهذا أيضاً عظيم عند الله تعالى ، ولكنه دون الأول بكثير ، ومثاله : أن يكون مال الرجل في يد غيره ، فيأمره بإخراج الزكاة ؛ خوفاً من ذمّه ، والله يعلم منه أنه لو كان في يده . . لما أخرجها ، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع ، فيصلّي معهم ، وعادته ترك الصلاة في الخلوة ، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر ، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة . . لكان لا يحضرها ، أو يصلّ رحمةً ويبرئ والديه لا عن رغبة ، ولكن خوفاً من الناس ، أو يغزو أو يحجّ كذلك .

فهذا وراءه معه أصل الإيمان بالله تعالى ، يعتقد أنه لا معبود سواه ، ولو

(١) وهم في زمن المصنف عرفوا بالباطنية ، يدعون أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأنه يخالف الظاهر ، وأنهم يعلمون الباطن ، فأحالوا بذلك الشريعة ؛ لأنهم تأولوا بما يخالف العربية التي نزل بها القرآن . « إتحاف » (٢٧٦ / ٨) .

(٢) القائلين بسقوط التكليف عن العبد إذا بلغ مقام اليقين . « إتحاف » (٢٧٦ / ٨) .

كُلَّفَ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ أَوْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ . . لَمْ يَفْعَلْ ، وَلَكِنَّهُ يَتْرُكُ الْعِبَادَاتِ
لِلْكَسَلِ ، وَيَنْشِطُ عِنْدَ إِطْلَاعِ النَّاسِ ، فَتَكُونُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ الْخَلْقِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ
مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الْخَالِقِ ، وَخَوْفُهُ مِنْ مَذْمَةِ النَّاسِ أَعْظَمَ مِنْ خَوْفِهِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ ،
وَرَغْبَتُهُ فِي مُحَمَّدَتِهِمْ أَشَدَّ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي ثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا غَايَةُ
الْجَهْلِ ، وَمَا أَجْدَرَ صَاحِبَهُ بِالْمَقْتِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَنْسَلٍ عَنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ مِنْ
حَيْثُ الْإِعْتِقَادُ !

الدرجة الثالثة : أَلَا يَرَانِي بِالْإِيمَانِ وَلَا بِالْفَرَائِضِ ، وَلَكِنَّهُ يَرَانِي بِالنَّوَافِلِ
وَالسَّنَنِ الَّتِي لَوْ تَرَكَهَا لَا يَعْصِي ، وَلَكِنَّهُ يَكْسَلُ عَنْهَا فِي الْخُلُوعِ ؛ لِفَتْوَرِ رَغْبَتِهِ
فِي ثَوَابِهَا ، وَلَا يَثَارُ لَذَّةِ الْكَسَلِ عَلَى مَا يَرْجِي مِنَ الثَّوَابِ ، ثُمَّ يَبْعَثُهُ الرِّيَاءُ
عَلَى فَعْلِهَا ، وَذَلِكَ كَحُضُورِ الْجَمَاعَةِ فِي الصَّلَاةِ ، وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى ، وَاتِّبَاعِ
الْجَنَائِزِ ، وَغَسْلِ الْمَوْتَى ، وَكَالتَهَجُّدِ بِاللَّيْلِ ، وَصِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ ،
وَيَوْمِ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ ، فَقَدْ يَفْعَلُ الْمَرَانِي جَمْلَةً ذَلِكَ ؛ خَوْفًا مِنَ الْمَذْمَةِ .
أَوْ طَلَبًا لِلْمُحَمَّدَةِ ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ خَلَا بِنَفْسِهِ . . لَمَا زَادَ عَلَى أَدَاءِ
الْفَرَائِضِ .

فهذا أيضاً عظيمٌ ، وَلَكِنَّهُ دُونَ مَا قَبْلَهُ ، فَإِنَّ الَّذِي قَبْلَهُ آثَرَ حَمْدِ الْخَلْقِ
عَلَى حَمْدِ الْخَالِقِ ، وَهَذَا أَيْضاً قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ، وَاتَّقَى ذَمَّ الْخَلْقِ دُونَ ذَمِّ
الْخَالِقِ ، فَكَانَ ذَمُّ الْخَلْقِ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ ، وَأَمَّا هَذَا . . فَلَمْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَخَفْ عِقَاباً عَلَى تَرْكِ النَّافِلَةِ لَوْ تَرَكَهَا ، وَكَأَنَّهُ عَلَى الشَّطْرِ مِنَ
الْأَوَّلِ ، وَعِقَابُهُ نِصْفُ عِقَابِهِ .

فهذا هو الرياء بأصول العبادات .

القسم الثاني : الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها ، وهو أيضاً على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن يراني بفعل ما في تركه نقصان العبادات ؛ كالذي عزمه أن يخفف الركوع والسجود ، ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس . . أحسن الركوع والسجود ، وترك الالتفات ، وتمم القعود بين السجدين ، وقد قال ابن مسعود : (مَنْ فعل ذلك . . فهو استهانة يستهين بها ربُّه عزَّ وجلَّ)^(١) أي : أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة ، فإذا اطلع آدمي عليه . . أحسن الصلاة ، ومن جلس بين يدي إنسان متربّعاً أو متكئاً ، فدخل غلامه ، فاستوى وأحسن الجلسة . . كان ذلك منه تقديماً للغلام على السيد ، واستهانة بالسيد لا محالة ، وهذا حال المراني بتحسين الصلاة في الملاء دون الخلوة .

وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة ، أو من الحب الرديء ، فإذا اطلع عليه غيره . . أخرجها من الجيد ؛ خوفاً من مذمته .

وكذلك الصائم يصوم صومه عن الغيبة والرفث ؛ لأجل الخلق ، لا إكمالاً لعبادة الصوم ؛ خوفاً من المذمة ، فهذا أيضاً من الرياء

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٤٩٠) ولفظه : (من صلى صلاة والناس يرونه . . فليصل إذا خلا مثلها ، وإلا . . فإنما هي استهانة يستهين بها ربه) .

المحظور ؛ لأن فيه تقديماً للمخلوق على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات .

فإن قال المرائي : إنما فعلت ذلك صيانة لأستيتهم عن الغيبة ؛ فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات . . أطلقوا اللسان بالذم والغيبة ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية . . فيقال له : هذه مكيدة من الشيطان وتلبيس ، وليس الأمر كذلك ؛ فإن ضررك من نقصان صلاتك - وهي خدمة منك لمولائك - أعظم من ضررك من غيبة غيرك ، فلو كان باعثك الدين . . لكأنت شفقتك على نفسك أكثر ، وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك لينال منه فضلاً وولاية يتقلدها ، فيهديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ، ولا يبالي به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلمانه . . امتنع ؛ خوفاً من مذمة غلمانه ، وذلك محال ، بل من يراعي جانب غلام الملك . . ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر .

نعم ، للمرائي فيه حالتان :

إحداهما : أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس ، وذلك حرام قطعاً .

والثانية : أن يقول : ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود ، ولو خفت . . كانت صلاتي عند الله ناقصة ، وأذاني الناس بدمهم وغيتهم ، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ، ولا أرجو عليه

ثواباً ، فهو خيرٌ من أنْ أترك تحسينَ الصلاةِ ، فيفوتَ الثوابُ وتحصلَ المذمَّةُ ، فهذا فيه أدنى نظيرٍ ، والصحيحُ : أنَّ الواجبَ عليه أنْ يحسنَ ويخلصَ ، فإنْ لمْ تحضرهُ النيَّةُ . . فينبغي أنْ يستمرَّ على عادتهِ في الخلوةِ ، فليسَ له أنْ يدفعَ الذمَّ بالمرءاةِ بطاعةِ اللهِ ؛ فإنَّ ذلكَ استهزاءٌ كما سبق .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يرأى بفعلٍ ما لا نقصانَ في تركهِ ، ولكنْ فعلُهُ في حكمِ التكملةِ والتتمةِ لعبادتهِ ؛ كالتطويلِ في الركوعِ والسجودِ ، ومدُّ القيامِ ، وتحسينِ الهيئةِ في رفعِ اليدينِ ، والمبادرةِ إلى التكبيرةِ الأولى ، وتحسينِ الاعتدالِ ، والزيادةِ في القراءةِ على السورةِ المعتادةِ ، وكذلك كثرةُ الخلوةِ في صومِ رمضانَ ، وطولِ الصمتِ ، وكاختيارِ الأجودِ على الجيدِ في الزكاةِ ، وإعتاقِ الرقبةِ الغاليةِ في الكفارةِ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا لو خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يقدمُ عليه .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يرأى بزياداتٍ خارجةٍ عن نفسِ النوافلِ أيضاً ؛ كحضورِ الجماعةِ قبلَ القومِ ، وقصدهِ للصفِّ الأوَّلِ ، وتوجُّههِ إلى يمينِ الإمامِ ، وما يجري مجراهُ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يعلمُ اللهُ مِنْهُ أنَّه لو خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يبالي أينَ وقفَ ، ومتى أحرَمَ بالصلاةِ .

فهذه درجاتُ الرياءِ بالإضافةِ إلى ما يُراءى بهِ ، وبعضُهُ أشدُّ من بعضِ ، والكلُّ مذمومٌ .

الركن الثالث : المراءى لأجله :

فإن للمراءى مقصوداً لا محالة ، وإنما يراني لإدراك مالٍ أو جاهٍ أو غرضٍ
من الأغراض لا محالة ، وله أيضاً ثلاث درجات :

الدرجة الأولى - وهي أشدها وأعظمها - : أن يكون مقصده التمكن من
معصية الله ؛ كالذي يراني بعبادته ، ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل
والامتناع عن أكل الشبهات ، وغرضه أن يعرف بالأمانة ، فيؤلى القضاء ، أو
الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الأيتام ؛ فيأخذها ، أو يُسلم إليه تفرقة
الزكوات أو الصدقات ؛ ليستأثر بما يقدر عليه منها ، أو يُودع الودائع
فيأخذها ويجحدّها ، أو تُسلم إليه الأموال التي تُنفق في طريق الحج ،
فيختزل بعضها أو كلها ، أو يتوصل بها إلى استباع الحجيج ، ويتوصل
بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي .

وقد يظهر بعضهم زيّ التصوف ، وهيئة الخشوع ، وكلام الحكمة على
سبيل الوعظ والتذكير ، وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل
الفجور ، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير ، وحلق القرآن ، يظهر
الرغبة في سماع العلم والقرآن ، وغرضهم ملاحظة النسوان والصبيان ، أو
يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام ، وهؤلاء
أبغض المرائين إلى الله تعالى ؛ لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلماً إلى معصيته ،
واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم .

ويقربُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَإِنْ كَانَ دُونَهُمْ مَنْ هُوَ مُقْتَرَفٌ جَرِيمَةٌ أَتَاهُمْ بِهَا ، وَهُوَ مُصَرٌّ عَلَيْهَا وَيُرِيدُ أَنْ يَنْفِي التَّهْمَةَ عَنْ نَفْسِهِ ، فَيُظْهِرُ التَّقْوَى ؛ لِيَنْفِي التَّهْمَةَ ؛ كَالَّذِي جَحَدَ وَدِيعَةً وَأَتَاهُمُ النَّاسُ بِهَا ، فَيَتَصَدَّقُ بِالْمَالِ ؛ لِيُقَالَ : إِنَّهُ يَتَصَدَّقُ بِمَالِ نَفْسِهِ ، فَكَيْفَ يَسْتَحِلُّ مَالَ غَيْرِهِ ؟ ! وَكَذَلِكَ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى فَجُورٍ بِامْرَأَةٍ أَوْ غُلَامٍ ، فَيُدْفَعُ التَّهْمَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِالْخُشُوعِ وَإِظْهَارِ التَّقْوَى .

الدرجةُ الثانيةُ : أَنْ يَكُونَ غَرَضُهُ نَيْلَ حَظٍّ مُبَاحٍ مِنْ حِظْوِ الدُّنْيَا ؛ مِنْ مَالٍ ، أَوْ نِكَاحِ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ أَوْ شَرِيفَةٍ ؛ كَالَّذِي يُظْهِرُ الْحُزْنَ وَالْبُكَاءَ ، وَيَشْتَغِلُ بِالْوَعظِ وَالتَّذْكِيرِ ؛ لِيُتَبَدَّلَ لَهُ الْأَمْوَالُ ، وَتُرْغَبَ فِي نِكَاحِ النِّسَاءِ ، فَيَقْصِدُ إِمَّا امْرَأَةً بَعِينَهَا لِيَنْكِحَهَا ، أَوْ امْرَأَةً شَرِيفَةً عَلَى الْجَمَلَةِ ، وَكَالَّذِي يَرْغَبُ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنْتَ عَالِمٍ عَابِدٍ ، فَيُظْهِرُ لَهُ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ ؛ لِيَرْغَبَ فِي تَزْوِيجِهِ ابْنَتَهُ ، فَهَذَا رِيَاءٌ مُحْظُورٌ ؛ لِأَنَّهُ طَلَبَ بَطَاعَةَ اللَّهِ مُتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهُ دُونَ الْأَوَّلِ ، فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ بِهَذَا مُبَاحٌ فِي نَفْسِهِ .

الدرجةُ الثالثةُ : أَلَّا يَقْصِدَ نَيْلَ حَظٍّ وَإِدْرَاكَ مَالٍ أَوْ نِكَاحٍ ، وَلَكِنْ يُظْهِرُ عِبَادَتَهُ ؛ خِيفَةً مِنْ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ النِّقْصِ ، فَلَا يُعَدُّ مِنَ الْخَاصَّةِ وَالزَّهَّادِ ، وَيُعْتَقَدُ أَنَّهُ مِنْ جَمَلَةِ الْعَامَّةِ ؛ كَالَّذِي يَمْشِي مُسْتَعْجَلًا فَيَطْلُعُ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَيُحَسِّنُ الْمَشْيَ وَيَتْرُكُ الْعَجَلَةَ ؛ كَي لَا يُقَالَ : إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ اللَّهْوِ وَالسَّهْوِ ، لَا مِنْ أَهْلِ الْوَقَارِ ، وَكَذَلِكَ يَسْبِقُ إِلَى الضَّحْكِ ، أَوْ يَبْدُرُ مِنْهُ الْمَزَاحُ ، فَيَخَافُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِحْتِقَارِ ، فَيَتَّبِعُ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ ، وَتَنْفُسِ الصُّعْدَاءِ ، وَإِظْهَارِ

الحزن ، ويقول : ما أعظم غفلة آدمي عن نفسه ! والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة . . لما كان يثقل عليه ذلك ، وإنما يخاف أن يُنظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير .

وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح ، أو يتهجّدون ، أو يصومون الاثنين والخميس ، أو يتصدّقون ، فيوافقهم خيفة أن يُنسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ، ولو خلا بنفسه . . لكان لا يفعل شيئاً من ذلك ، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء ، أو في الأشهر الحرم . . فلا يشرب ؛ خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم ، فإذا ظنوا به الصوم . . امتنع عن الأكل لأجلهم ، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ؛ ليظن أنه صائم ، وقد لا يصرح بأنه صائم ، ولكن يقول : لي عذر ، وهو جمع بين خبيثين ؛ فإنه يُري أنه صائم ، ثم يُري أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً ، فيريد أن يقال : إنه سائر لعبادته ، ثم إن اضطر إلى شرب . . لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً ، تصرّحاً أو تعريضاً ؛ بأن يتعلّل بمرض يقتضي فرط العطش ، ويمنع من الصوم ، أو يقول : أفطرت تطيباً لقلب فلان ، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه ؛ كي لا يُظن به أنه يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ، ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً ، مثل أن يقول : إن فلاناً محب للإخوان ، شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه ، وقد ألح عليّ اليوم ولم أجذبداً من تطيب قلبه ، ومثل أن يقول : إن أمي ضعيفة القلب ، مشفقة عليّ ، تظن أنني لو صمت يوماً . . مرضت ، فلا تدعني أصوم .

فهذا وما يجري مجراه علاماتُ الرياء ، فلا يسبقُ إلى اللسانِ إلا لرسوخِ عرقِ الرياءِ في الباطنِ ، وأما المخلصُ . . فإنه لا يبالي كيفَ نظرَ الخلقُ إليه ، فإن لم يكنْ له رغبةٌ في الصومِ وقد علمَ اللهُ تعالى ذلكَ مِنْهُ . . فلا يريدُ أنْ يعتقِدَ غيرُهُ ما يخالفُ علمَ اللهِ ، فيكونَ ملبِّساً ، وإن كانَ له رغبةٌ في الصومِ لله . . قنعَ بعلمِ اللهِ تعالى ، ولم يشركْ فيه غيره .

وقد يخطرُ له أنْ في إظهارِهِ اقتداءَ غيره به ، وتحريكَ رغبةِ الناسِ فيه ، وفيهِ مكيدةٌ وغرورٌ ، وسيأتي شرحُ ذلكَ وشروطُهُ .

فهذه درجاتُ الرياءِ ، ومراتبُ أصنافِ المرائينَ ، وجميعُهُمْ تحتَ مقتِ اللهِ تعالى وغضبه ، وهو من أشدِّ المهلكاتِ ، وإن من شدَّتِهِ أنْ فيه شوائبَ هي أخفى من ديبِ النملة ؛ كما وردَ به الخبرُ ، تزَلُّ فيه فحولُ العلماءِ ، فضلاً عن العبَادِ الجهلاءِ بآفاتِ النفوسِ وغوائلِ القلوبِ ، واللهُ أعلمُ .



بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم : أنَّ الرياءَ جلبيٌّ وخفيٌّ .

فالجلبيُّ : هو الذي يبعثُ على العملِ ويحمِلُ عليه أولاً دونَ قصدِ الثوابِ ، وهو أجلاء .



وأخفى منه قليلاً : هو ما لا يحمِلُ على العملِ بمجردِه ، إلا أنَّه يخفُّفُ العملَ الذي أريدَ به وجهُ الله ؛ كالذي يعتادُ التهجدَ كلَّ ليلةٍ ويثقلُ عليه ، فإذا دخل عليه الضيفانُ . . نشطَ له ، وخفَّ عليه ، وعلمَ أنَّه لولا رجاءُ الثوابِ . . لكانَ لا يصلِّي لمجردِ رياءِ الضيفانِ .



وأخفى من ذلك : ما لا يؤثِّرُ في العملِ ، ولا بالتسهيلِ والتخفيفِ أيضاً ، ولكنه مع ذلك مستبطنٌ في القلبِ ، ومهما لم يؤثِّرُ في الدعاءِ إلى العملِ . . لم يمكنَ أن يُعرفَ إلا بالعلاماتِ ، وأجلُّ علاماتِه : أن يُسرَّ باطلاعِ الناسِ على طاعتهِ ، فربَّ عبدٍ يخلصُ في عمله ولا يعتقدُ الرياءَ ، بل يكرهه ويردُّه ، ويتمُّ العملَ كذلك ، ولكن إذا أطلعَ عليه الناسُ . . سرَّه ذلك وارتاحَ له ، وروَّحَ ذلك عن قلبه شدةَ العبادةِ ، وهذا السرورُ يدُلُّ على رياءٍ خفيٍّ ، منه يترشَّحُ السرورُ ، ولولا التفاتُ القلبِ إلى الناسِ . . لما ظهرَ سروره عندَ اطلاعِ

الناس ، فلقد كَانَ الرياءُ مستكنًا في القلبِ استكنانَ النارِ في الحجرِ ، فأظهرَ منه إطلاعُ الخلقِ أثرَ الفرحِ والسرورِ ، ثمَّ إذا استشعرَ لذةَ السرورِ بالاطلاعِ ، ولم يقابلْ ذلكَ بكراهيةٍ . . صارَ ذلكَ قوتًا وغذاءً للعرقِ الخفيِّ مِنَ الرياءِ ، حتَّى يتحرَّكَ على نفسه حركةً خفيَّةً ، فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلَّفَ سبباً يُطلَّعُ عليه بالتعريضِ وإلقاءِ الكلامِ عرضاً ، وإن كَانَ لا يدعو إلى التصريحِ ، وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهارِ بالنطقي تعريضاً وتصريحاً ولكنَّ بالشماثلِ ؛ كإظهارِ النحولِ ، والاصفرارِ ، وخفضِ الصوتِ ، وبسِ الشفتينِ ، وجفافِ الريقِ ، وآثارِ الدموعِ ، وغلبةِ النعاسِ الدالِّ على طولِ التهجدِ .



وأخفى من ذلكَ : أن يختفيَ بحيثُ لا يريدُ الاطلاعَ ، ولا يُسرُّ بظهورِ طاعتهِ ، ولكنهُ معَ ذلكَ إذا رأى الناسَ . . أحبَّ أن يبدؤوه بالسلامِ ، وأن يقابلوه بالبشاشةِ والتوقيرِ ، وأن يثنوا عليه ، وأن ينشطوا في قضاءِ حوائجهِ ، وأن يسامحوه في البيعِ والشراءِ ، وأن يوسَّعوا له في المكانِ ، فإن قصَّرَ في ذلكَ مقصَّراً . . ثقلَ على قلبه ، ووجدَ لذلكَ استبعاداً في نفسه ؛ كأنَّ نفسه تتقاضى الاحترامَ على الطاعةِ التي أخفاها معَ أنَّه لم يُطلَّعْ عليه ، ولو لم يكنْ قد سبقتْ منه تلكَ الطاعةُ . . لما كَانَ يستبعدُ تقصيرَ الناسِ في حقِّه ، ومهما لم يكنْ وجودُ العبادةِ كعدمِها في كلِّ ما يتعلَّقُ بالخلقِ . . لم يكنْ قد قنعَ بعلمِ الله تعالى ، ولم يكنْ خالياً عن شوبِ خفيِّ مِنَ الرياءِ أخفى مِنْ ديبِ النملِ ، وكلُّ ذلكَ يوشكُ أن يحبطَ الأجرَ ، ولا يسلمُ منه إلا الصديقونَ .

وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : (إن الله عز وجل يقول للفرء يوم القيامة : ألم يكن يُرخص عليكم السَّعرُ ؟ ! ألم تكونوا تبتدؤن بالسلام ؟ ! ألم تكن تُقضى لكم الحوائج ؟ !) .

وفي الحديث : « لا أجر لكم ، قد استوفيتم أجوركم » .

وقال عبد الله بن المبارك : روي عن وهب بن منبه أنه قال : (إن رجلاً من السُّيَّاح قال لأصحابه : إننا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان ، فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم ، إن أحدنا إذا لقي . . أحب أن يُعظم لمكان دينه ، وإن سأل حاجة . . أحب أن تُقضى له لمكان دينه ، وإن اشترى شيئاً . . أحب أن يُرخص عليه لمكان دينه .

فبلغ ذلك ملكهم ، فركب في موكب من الناس ؛ فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس ، فقال السائح : ما هذا ؟ قيل : هذا الملك قد أظلك ، فقال للغلام : ائني بطعام ، فاتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر ، فجعل يحشو شذقيه ويأكل أكلاً عنيفاً ، فقال الملك : أين صاحبكم ؟ قالوا : هذا ، قال : كيف أنت ؟ قال : كالناس - وفي حديث آخر : بخير - فقال الملك : ما عند هذا من خير ، فانصرف عنه ، فقال السائح : الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي دأماً ^(١) .

(١) تقدم بنحوه مختصراً ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٦٤) .

فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي ، يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، يحرصون على إخفائها أعظم ممّا يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن تخلّص أعمالهم الصالحة ، فيجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق ؛ إذ علموا أن الله لا يقبل يوم القيامة إلا الخالص ، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة ، وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يجزي والد عن ولده ، ويشغل الصديقون بأنفسهم ، فيقول كل واحد : نفسي نفسي ، فضلاً عن غيرهم ، فكانوا كزوار بيت الله تعالى إذا توجهوا إلى مكة ؛ فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص ؛ لعلمهم بأن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزيف والبهرج ، والحاجة تشتد في البادية ، ولا وطن يُفرغ إليه ، ولا حميم يُتمسك به ؛ فلا يُنجي إلا الخالص من النقد ، فهكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة ، والزاد الذي يتزودونه له من التقوى .



فإذا ؛ شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر ، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة . . ففيه شعبة من الرياء ؛ فإنه لما قطع طمعه عن البهائم . . لم يبال حضرت البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا ، فلو كان مخلصاً قانعاً بعلم الله . .

لاستحققر عقلاء العباد كما استحققر صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لا يقدرُونَ له على رزق ، ولا أجل ، ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب ، كما لا يقدرُ عليه البهائم والصبيان والمجانين ، فإذا لم يجد ذلك . . ففيه شوبٌ خفي ، ولكن ليس كل شوبٍ محبطاً للأجرِ مفسداً للعمل ، بل فيه تفصيل .



فإن قلت : فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته ، فالسرور مذموم كله ؟ أو بعضه محمودٌ وبعضه مذموم ؟

فنقول أولاً : كل سرورٍ فليس بمذموم ، بل السرور منقسم إلى محمود ، وإلى مذموم ، فأما المحمود . . فأربعة أقسام :

الأول : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه الخلق . . علم أن الله أطلعهم ، وأظهر الجميل من أحواله ، فيستدل بذلك على حسن صنع الله به ، ونظره إليه ، والطف به ؛ فإنه يستر الطاعة والمعصية ، ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة ؛ فلا لطف أعظم من ستر القبيح عليه وإظهار الجميل ، فيكون فرحه بجميل نظر الله له ، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ، فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبولٌ وفرح به .

الثاني : أن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة ؛ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة » (١) .

فيكون الأول فرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

الثالث : أن يظن رغبة المطلقين على الاقتداء به في الطاعة ، فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً ، وأجر السر بما قصده أولاً ، ومن اقتدي به في طاعة . . فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ ، وموجب للسرور لا محالة .

الرابع : أن يحمده المطلقون على طاعته ، فيفرح بطاعتهم الله تعالى في مدحهم ، وبحبهم للمطيع ، وبميل قلوبهم إلى الطاعة ؛ إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقتئ ويحسده ، أو يذمه ويهزأ به ، أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه ، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله ، وعلامة الإخلاص في هذا النوع : أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه .

وأما المذموم . . فهو الخامس : وهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس ؛ حتى يمدحوه ويعظموه ، ويقوموا بقضاء حوائجهم ، ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده ، فهذا مكروه ، والله تعالى أعلم .



(١) رواه مسلم (٢٥٩٠) .

بيان ما يحبط العمل من الرياء النخفي والجلبي وما لا يحبطه

فتقول فيه : إذا عقد العبدُ العبادةَ على الإخلاصِ ، ثمَّ وردَ عليه وارِدُ الرياءِ .. فلا يخلو :

إمَّا أن يردَّ عليه بعدَ فراغِهِ مِنَ العملِ ، أو قبلَ الفراغِ .

فإن وردَ بعدَ الفراغِ سرورٌ مجردٌ بالظهورِ مِنْ غيرِ إظهارٍ .. فهذا لا يحبطُ العملَ ؛ إذ العملُ قد تمَّ على نعتِ الإخلاصِ ، سالماً مِنَ الرياءِ ، فما يطرأُ عليه بعدهُ .. فنرجو ألا ينعطفَ عليه أثرُهُ ، لا سيما إذا لم يتكلَّفْ هوَ إظهارَهُ والتحدُّثَ بِهِ ، ولم يتمنَّ ذكرَهُ وإظهارَهُ ، ولكن اتفقَ ظهورُهُ بإظهارِ اللهِ ، ولم يكنْ منه إلا ما دخلَ مِنَ السرورِ والارتياحِ على قلبِهِ .

نعم ، لو تمَّ العملُ على الإخلاصِ مِنْ غيرِ عقدِ رياءٍ ، ولكنْ ظهرتْ لَهُ بعدهُ رغبةٌ في الإظهارِ ، فتحدَّثَ بِهِ وأظهرَهُ ، فهذا مخوفٌ ، وفي الآثارِ والأخبارِ ما يدلُّ على أنَّه محبطٌ ؛ فقد رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه أنَّه سمعَ رجلاً يقولُ : قرأتُ البارحةَ (سورة البقرة) ، قال : ذلك حظُّكَ منها^(١) .

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قالَ لرجلٍ قالَ لَهُ : صمتُ الدهرَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ لَهُ : « ما صمتَ ولا أفطرتَ » ، فقالَ بعضهم :

(١) الرعاية (ص ٢١٠) .

إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَظْهَرُهُ^(١) ، وَقِيلَ : هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى كِرَاهَةِ صَوْمِ الدَّهْرِ^(٢) .
وَكَيْفَمَا كَانَ . . فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَمِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ اسْتِدْلَالاً عَلَى أَنَّ قَلْبَهُ عِنْدَ الْعِبَادَةِ لَمْ يَخْلُ عَنْ عَقْدِ الرِّيَاءِ
وَقَصْدِهِ لَهُ ، لَمَّا أَنْ ظَهَرَ مِنْهُ التَّحَدُّثُ بِهِ ؛ إِذْ يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ مَا يَطْرَأُ عَلَى
الْعَمَلِ مَبْطَلًا لثَوَابِ الْعَمَلِ ، بَلِ الْأَقْيَسُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ مَثَابٌ عَلَى عَمَلِهِ الَّذِي
مَضَى ، وَمَعَاقِبٌ عَلَى مَرَاءَاتِهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْهُ ، بِخِلَافِ مَا لَوْ
تَغَيَّرَ عَقْدُهُ إِلَى الرِّيَاءِ قَبْلَ الْفَرَاغِ مِنَ الصَّلَاةِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَبْطُلُ الصَّلَاةُ ،
وَيَحْبُطُ الْعَمَلُ .

وَأَمَّا إِذَا وَرَدَ وَارِدُ الرِّيَاءِ قَبْلَ الْفَرَاغِ مِنَ الصَّلَاةِ مِثْلًا وَكَانَ قَدْ عَقَدَ عَلَى
الْإِخْلَاصِ ، وَلَكِنْ وَرَدَ فِي أَثْنَائِهَا وَارِدُ الرِّيَاءِ . . فَلَا يَخْلُو : إِمَّا أَنْ
يَكُونَ مَجْرَدَ سُرُورٍ لَا يُوَثِّرُ فِي الْعَمَلِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ رِيَاءً بَاعِثًا عَلَى
الْعَمَلِ .

فَإِنْ كَانَ بَاعِثًا عَلَى الْعَمَلِ وَخَتَمَ الْعِبَادَةَ بِهِ . . حَبَطَ أَجْرُهُ ، وَمِثَالُهُ : أَنْ
يَكُونَ فِي تَطَوُّعٍ ، فَتَجَدَّدَتْ لَهُ نَظَارَةٌ^(٣) أَوْ حَضَرَ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ يَشْتَهِي

(١) القائل هو ابن حيويه أحد الرواة ، ولفظه : (لأنه تحدّث به) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٢١٠) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٣) ، وعند
مسلم (١١٦٢) أن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يصوم
الدهر ، فقال : « لا صام ولا أفطر » .

(٣) النظارة : القوم ينظرون إليه .

أَنْ يَنْظَرَ إِلَيْهِ ، أَوْ يَذْكَرَ شَيْئاً نَسِيَهُ مِنْ مَالِهِ وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَطْلُبَهُ ، وَلَوْ لَا النَّاسُ . . . لَقُطِعَ الصَّلَاةُ ، فَاسْتَمَّتْهَا خَوْفاً مِنْ مَذَمَّةِ النَّاسِ ، فَقَدْ حَبَطَ أَجْرُهُ ، وَعَلَيْهِ الْإِعَادَةُ إِنْ كَانَ فِي فَرِيضَةٍ ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْعَمَلُ كَالْوَعَاءِ ، إِذَا طَابَ آخِرُهُ . . . طَابَ أَوَّلُهُ » ^(١) أَي : النَّظَرُ إِلَى خَاتَمَتِهِ .

وَرُويَ أَنَّ مَنْ رَأَى بِعَمَلِهِ سَاعَةً . . . حَبَطَ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ ^(٢) ، وَهُوَ مَنْزِلٌ عَلَى الصَّلَاةِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ، لَا عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَا عَلَى الْقِرَاءَةِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا مَنْفَرْدٌ ، فَمَا يَطْرَأُ يَفْسُدُ الْبَاقِي دُونَ الْمَاضِي ، وَالصَّوْمُ وَالْحَجُّ مِنْ قَبِيلِ الصَّلَاةِ .

وَأَمَّا إِذَا كَانَ وَارِدُ الرِّيَاءِ بَحِثٌ لَا يَمْنَعُهُ مِنْ قَصْدِ الْإِسْتِمَامِ لِأَجْلِ الثَّوَابِ ؛ كَمَا لَوْ حَضَرَ جَمَاعَةٌ فِي أَثْنَاءِ صَلَاتِهِ ، فَفَرَحَ بِحُضُورِهِمْ وَاعْتَقَدَ الرِّيَاءَ ، وَقَصَدَ تَحْسِينَ الصَّلَاةِ لِأَجْلِ نَظَرِهِمْ ، وَكَانَ لَوْ لَا حُضُورُهُمْ . . . لَكَانَ يَتِمُّهَا أَيْضاً ، فَهَذَا رِيَاءٌ قَدْ أَثَّرَ فِي الْعَمَلِ ، وَانْتَهَضَ بَاعِثاً عَلَى الْحَرَكَاتِ ، فَإِنْ غَلَبَ حَتَّى انْمَحَقَ مَعَهُ الْإِحْسَاسُ بِقَصْدِ الْعِبَادَةِ وَالثَّوَابِ ، وَصَارَ قَصْدُ الْعِبَادَةِ مَغْمُوراً . . . فَهَذَا أَيْضاً يَنْبَغِي أَنْ يَفْسُدَ الْعِبَادَةُ مَهْمَا مَضَى رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؛ لِأَنَّا نَكْتَفِي بِالنِّيَّةِ السَّابِقَةِ عِنْدَ الْإِحْرَامِ بِشَرْطِ أَلَّا يَطْرَأَ مَا يَغْلِبُهَا وَيَغْمُرُهَا ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ : لَا يَفْسُدُ الْعِبَادَةُ نَظَرًا إِلَى حَالَةِ

(١) رواه ابن ماجه (٤١٩٩) .

(٢) إِذْ رَوَى أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (١٥٠ / ٥) عَنْ ابْنِ أَبِي زَكْرِيَا يَحْدُثُ : « مَنْ رَأَى بِعَمَلِهِ . . . حَبَطَ مَا كَانَ قَبْلَهُ » .

العقد ، وإلى بقاء أصل قصد الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه .
ولقد ذهب الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو
أهون من هذا ، وقال : إذا لم يُرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ؛ يعني :
سروراً هو كحبّ المنزلة والجاه ، قال : قد اختلف الناس في هذا ،
فصارت فرقة إلى أنه يحبط ؛ لأنه قد نقض العزم الأول ، وركن إلى حمد
المخلوقين ، ولم يختم عمله بالإخلاص ، وإنما يتم العمل بخاتمته^(١) .

ثم قال : ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزدد في العمل ، ولا آمن
عليه ، وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا
ختم عمله بالرياء^(٢) .

ثم قال : فإن قيل : قد قال الحسن رحمه الله تعالى : إنهما سورتان ،
فإذا كانت الأولى لله . . لم تضره الثانية^(٣) ، وقد روي أن رجلاً قال
لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ أسرّ العمل لا أحب أن
يطلع عليه ، فيطلع عليه ، فيسرّني ، قال : « لك أجران ؛ أجر السرّ وأجر
العلانية »^(٤) ، ثم تكلم على الأثر والخبر فقال : أمّا الحسن . . فأراد
بقوله : لا تضره ؛ أي : لا يدع العمل ، ولا تضره الخطرة وهو يريد الله عزّ

(١) الرعاية (ص ٢٣٣) .

(٢) الرعاية (ص ٢٣٤) .

(٣) الرعاية (ص ٢٣٣) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٧٤) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٨٤) ، وابن ماجه (٤٢٢٦) .

وجلّ ، ولم يقل : إذا اعتقدَ الرياءَ بعدَ عقدِ الإخلاصِ . . لم يضره^(١) ، وأمّا الحديثُ . . فتكلّمَ عليه بكلامٍ طويلٍ يرجعُ حاصلُهُ إلى ثلاثةِ أوجهٍ :
أحدها : أنّه يحتملُ أنّه أرادَ ظهورَ عمله بعدَ الفراغِ ، وليسَ في الحديثِ أنّه قبلَ الفراغِ .

والثاني : أنّه أرادَ أن يُسرّبَ به لاقتداءِ الناسِ به ، أو لسرورِ آخرٍ محمودٍ ممّا ذكرناه من قبل ، لا سروراً بسببِ حبِّ المحمّدةِ والمنزلةِ ، بدليلِ أنّه جعلَ له به أجرين ، ولا ذاهبَ من الأمةِ إلى أنّ للسرورِ بالمحمّدةِ أجراً ، وغايتهُ أن يُعفى عنه ، فكيفَ يكونُ للمخلصِ أجرٌ وللمرائي أجرانٍ ؟!

والثالثُ : أنّه قالَ : أكثرُ من يروي الحديثَ يرويه غيرَ متصلٍ إلى أبي هريرة ، بل أكثرُهُم يوقفهُ على أبي صالح ، ومنهُم من يرفعه ؛ فالحكمُ بالعموماتِ الواردةِ في الرياءِ أولى^(٢) .

هذا ما ذكره ولم يقطع به ، بل أظهرَ ميلاً إلى الإحباطِ .

والأقيسُ عندنا : أنّ هذا القدرَ إذا لم يظهر أثرُهُ في العملِ ، بل بقيَ العملُ صادراً عن باعِثِ الدينِ ، وإنّما انضافَ إليه السرورُ بالاطلاعِ . . فلا يفسدُ العملَ ؛ لأنّه لم ينعُدْ به أصلُ نيّتهِ ، وبقيتْ تلكَ النيّةُ باعثةً على العملِ ، وحاملةً على الإتمامِ .

(١) الرعاية (ص ٢٣٤) .

(٢) الرعاية (ص ٢٣٥) وما بعدها .

وأما الأخبار التي وردت في الرياء.. فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق .

وأما ما ورد في الشركة.. فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساوياً لقصد الثواب ، أو أغلب منه ، أما إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه.. فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال ، ولا ينبغي أن يفسد الصلاة .

ولا يبعد أيضاً أن يقال : إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله تعالى ، والخالص ما لا يشوبه شيء ، فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوب ، والعلم عند الله فيه ، وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاماً أوفى مما أوردناه الآن ، فليرجع إليه .

فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادَةِ ، إما قبل الفراغ ، أو بعد الفراغ .

القسم الثالث : الذي يقارن حال العقد ؛ بأن يتدىء الصلاة على قصد الرياء ، فإن تم عليه حتى سلّم.. فلا خلاف في أنه يقضي ، ولا يعتد بصلاته ، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام.. ففيما يلزمه ثلاثة أوجه :

قالت فرقة : لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء ، فليستأنف .

وقالت فرقة : تلزمه إعادة الأفعال ؛ كالركوع والسجود ، وتفسد

وقالت فرقة : لا يلزمه إعادة شيء ، بل يستغفر الله بقلبه ، ويتمُّ العبادة على الإخلاص ، والنظر إلى خاتمة العبادة ؛ كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء .. لكان يفسد عمله ، وشبهوا ذلك بثوب أبيض طُخ بنجاسة عارضة ، فإذا أُزيل العارض .. عاد إلى الأصل ، فقالوا : إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ، ولو سجد لغير الله .. لكان كافراً ، ولكن اقترن به عارض الرياء ، ثم زال بالندم والتوبة ، وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم ، فتصح صلاته .

ومذهبُ الفريقينِ الآخرينِ خارجٌ عن قياسيِ الفقهِ جدّاً ، خصوصاً مَنْ قالَ : يلزمُهُ إعادةُ الركوعِ والسجودِ دونَ الافتتاحِ ؛ لأنَّ الركوعَ والسجودَ إنْ لمْ يصحَّ . . صارتْ أفعالاً زائدةً في الصلاةِ فتفسدُ الصلاةُ ، وكذلك قولُ مَنْ يقولُ : لو ختمَ بالإخلاصِ . . صحَّ ؛ نظراً إلى الآخرِ ، فهو أيضاً ضعيفٌ ؛ لأنَّ الرياءَ يقدحُ في النيةِ ، وأولى الأوقاتِ بمراعاةِ أحكامِ النيةِ حالةُ الافتتاحِ ، فالذي يستقيمُ على قياسيِ الفقهِ هو أنْ يُقالَ : إنْ كانَ باعثُهُ مجردَ الرياءِ في ابتداءِ العقدِ دونَ طلبِ الثوابِ وامتنالِ الأمرِ . . لمْ ينعقدِ افتتاحُهُ ، ولمْ يصحَّ ما بعدهُ ، وذلكَ فيمَنْ إذا خلا بنفسِهِ . . لمْ يصلْ ، ولمَّا رأى الناسَ . . تحرَّمَ بالصلاةِ ، وكانَ بحيثُ لو كانَ ثوبُهُ نجساً أيضاً . . كانَ يصليُّ لأجلِ الناسِ ، فهذهِ صلاةٌ لانيةٍ فيها ؛ إذِ النيةُ عبارةٌ عن

إجابة باعث الدين ، وهلهنا لا باعث ولا إجابة .

فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضاً . . . لكان يصلي إلا أنه ظهرت له الرغبة في المحمدة أيضاً ، فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم ، أو في عقد صلاة وحج ، فإن كان في صدقة . . . فقد عصي بإجابة باعث الرياء ، وأطاع بإجابة باعث الثواب ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، فله ثواب بقدر قصده الصحيح ، وعقاب بقدر قصده الفاسد ، ولا يحبط أحدهما الآخر .

وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية . . . فلا يخلو : إما أن تكون نفلاً أو فرضاً ؛ فإن كانت نفلاً . . . فحكمها أيضاً حكم الصدقة ، فقد عصي من وجه وأطاع من وجه ؛ إذ اجتمع في قلبه الباعثان ، ولا يمكن أن يقال : صلاته فاسدة والاقتداء به باطل ، حتى إن من يصلي التراويح ، وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء بإظهار حسن القراءة ؛ ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في البيت وحده لما صلى . . . لا يصح الاقتداء به ؛ فإن المصير إلى هذا بعيد جداً ، بل يُظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بتطوعه ، فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ، ويصح الاقتداء به وإن اقترن به قصد آخر هو به عاصي .

فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل ، وإنما

يحصل الانبعاث بمجموعيهما . . فهذا لا يسقط الواجب عنه ؛ لأن الإيجاب لم ينتهض باعثاً في حقه بمجرد واستقلاله .

وإن كان كل باعث مستقلاً ، حتى لو لم يكن باعث الرياء . . لأدى الفرض ، ولو لم يكن باعث الفرض . . لأنشأ صلاة تطوعاً لأجل الرياء ، فهذا في محل النظر ، وهو محتمل جداً ، فيحتمل أن يقال : إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ، ويحتمل أن يقال : الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه ، وقد وجد ، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه ، كما لو صلى في دار مغصوبة ؛ فإنه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ، ومسقط للفرض عن نفسه ، وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة .

أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة ؛ مثل من بادر إلى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا . . لأخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض . . لكان لا يتبدى صلاة لأجل الرياء ، فهذا ممّا يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به ؛ لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره ، بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد عن القدر في النية .

هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه ، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل . . فبعيد أن يفسد الصلاة .

فهذا ما نراه لائقاً بقانونِ الفقه ، والمسألة غامضةٌ مِنْ حيثُ إِنَّ الفقهاءَ
لَمْ يتعرَّضوا لها في فنِّ الفقه ، والذينَ خاضوا فيها وتصرَّفوا لَمْ يلاحظوا
قوانينَ الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها ، بل حملَهُمُ
الحرصُ على تصفية القلوب وطلبِ الإخلاصِ على إفسادِ العباداتِ بأدنى
الخواطر ، وما ذكرناه هُوَ الأقصدُ فيما نراه ، والعلمُ عندَ الله عزَّ وجلَّ فيه ،
وهو عالمُ الغيبِ والشهادة ، وهو الرحمنُ الرحيمُ .



بيان دواء الرياء وطريق معاينة القلب فيه

قد عرفت ممّا سبق أنّ الرياء محبّط للأعمال ، وسبب للمقت عند الله تعالى ، وأنه من كبائر المهلكات .

وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجدّ في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرّة البشعة ، وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلّهم ؛ إذ الصبيّ يُخلق ضعيف العقل والتمييز ، ممتدّ العين إلى الخلق ، كثير الطمع فيهم ، فيرى الناس يتصنّع بعضهم لبعض ، فيغلب عليه حبّ التصنّع بالضرورة ، وترسّخ ذلك في نفسه ، وإنّما يشعر بكون ذلك مهلكاً بعد كمال عقله ، وقد انغرس الرياء في قلبه وترسّخ فيه ، فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ، ومكابدة لقوّة الشهوات ، فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ، ولكنها تشقّ أولاً وتخفّ آخراً ، وفي علاجه مقامان :

أحدهما : قطع عروقه وأصوله التي منها انشعابه .

والثاني : دفع ما يخطر منه في الحال .



المقام الأول : في قطع عروقه واستئصال أصوله :

وأصله حبّ المنزلّة والجاه ، وإذا فُصل . . رجع إلى ثلاثة أصول ، وهي

حُبُّ لَذَّةِ المحمَّدةِ ، والفرارُ مِنْ أَلَمِ المذمَّةِ ، والطَّمَعُ فيما في أيدي الناسِ .
ويشهد للرياء بهذه الأسبابِ وأنها الباعثة للمرائي ما روى أبو موسى :
أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ الرَّجُلُ
يَقَاتِلُ حِمِيَّةً ؛ وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ يَأْنَفُ أَنْ يُقْهَرَ أَوْ يُذَمَّ بِأَنَّهُ مَقْهُورٌ مَغْلُوبٌ ،
وَالرَّجُلُ يَقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ ؛ وَهَذَا هُوَ طَلَبُ لَذَّةِ الْجَاهِ وَالْقَدْرِ فِي الْقُلُوبِ ،
وَالرَّجُلُ يَقَاتِلُ لِلذِّكْرِ ؛ وَهَذَا هُوَ الْحَمْدُ بِاللِّسَانِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا . . فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (١) .
وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (إِذَا التَقَى الصَّفَانِ . . نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ ،
فَكَتَبُوا النَّاسَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ ، فَلَانٌ يَقَاتِلُ لِلذِّكْرِ ، وَفَلَانٌ يَقَاتِلُ لِلْمَلِكِ) (٢) ،
وَالْقِتَالُ لِلْمَلِكِ إِشَارَةٌ إِلَى الطَّمَعِ فِي الدُّنْيَا .
وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (يَقُولُونَ : فَلَانٌ شَهِيدٌ ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ
مَلَأْتُ فِتْنِي رَاحِلَتِهِ وَرِقًا !) (٣) .
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ غَزَا لَا يَبْغِي إِلَّا عِقَالًا . . فَلَهُ
مَا نَوَى » (٤) ، فَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الطَّمَعِ .

(١) رواه البخاري (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) بالفاظ مقاربة .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢) ، وقد ذكر عند ابن مسعود رضي الله عنه قوم
قتلوا في سبيل الله عز وجل ، فذكره .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرى » (٣٣٢/٦) .

(٤) رواه النسائي (٢٤/٦) .

وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ، ولكن يحذر من ألم الذم ؛
 كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير ، فإنه يتصدق بالقليل كي
 لا يُبخل ، وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره ، وكالجبان بين
 الشجعان ، لا يفر من الزحف خوفاً من الذم ، وهو لا يطمع في الحمد وقد
 هجم غيره على صف القتال ، ولكن إذا أيس من الحمد . . كره الذم ،
 والرجل بين قوم يصلون جميع الليل ، فيصلّي ركعات معدودة كي لا يُذم
 بالكسل ، وهو لا يطمع في الحمد .

وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ، ولا يقدر على الصبر على
 ألم الذم ، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه ؛ خيفة من أن يُذم
 بالجهل ، ويفتي بغير علم ، ويدّعي العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل
 ذلك حذراً من الذم .

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرّك المرائي إلى الرياء .

وعلاجه : ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة ، ولكننا
 نذكر الآن ما يخص الرياء ، وليس بخفي أن الإنسان إنما يقصد الشيء
 ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ ، إما في الحال وإما في المال ، فإن
 علم أنه لذيق في الحال ولكنه ضار في المال . . سهل عليه قطع الرغبة عنه ،
 كمن يعلم أن العسل لذيق ، ولكن إذا بان له أن فيه سمّاً . . أعرض عنه ؛
 فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيها من المضرّة .

ومهما عرف العبدُ مضرّةَ الرياءِ ، وما يفوتهُ مِنْ صلاحِ قلبِهِ ، وما يُحرّمُ عنه في الحالِ مِنَ التوفيقِ ، وفي الآخرةِ مِنَ المنزلةِ عندَ اللهِ ، وما يتعرّضُ لَهُ مِنَ العقابِ العظيمِ ، والمقتِ الشديدِ ، والخزيِ الظاهرِ ؛ حيثُ يُنادى على رؤوسِ الخلائقِ : يا فاجرُ ، يا غادرُ ، يا مرائي ؛ أما استحييتَ إذ اشتريتَ بطاعةِ اللهِ عرضَ الدنيا ، وراقبتَ قلوبَ العبادِ ، واستهزأتَ بطاعةِ اللهِ ، وتحببتَ إلى العبادِ بالتبغّضِ إلى اللهِ ، وتزيّنتَ لَهُمْ بالشَّيْنِ عندَ اللهِ ، وتقرّبتَ إِلَيْهِمْ بالبعدِ مِنَ اللهِ ، وتحمّدتَ إِلَيْهِمْ بالتذمُّمِ عندَ اللهِ ، وطلبتَ رضاهُمْ بالتعرّضِ لسخطِ اللهِ ؟! أما كانَ أحدُ أهونَ عليكَ مِنَ اللهِ ؟!

فمهما تفكّرَ العبدُ في هذا الخزيِ ، وقابلَ ما يحصلُ لَهُ مِنَ العبادِ والترتُّنِ لَهُمْ في الدنيا بما يفوتهُ في الآخرةِ ، وبما يحبطُ عليه مِنْ ثوابِ الأعمالِ ، معَ أنَّ العملَ الواحدَ ربّما كانَ يترجّحُ بِهِ ميزانُ حسناتِهِ لو خُلصَ ، فإذا فسدَ بالرياءِ . . حوّلَ إلى كِفّةِ السيئاتِ فترجّحتَ بِهِ ، ويهوي إلى النارِ ، فلو لم يكنْ في الرياءِ إلا إحباطُ عبادةٍ واحدةٍ . . لكانَ ذلكَ كافياً في معرفةِ ضررهِ ، وإنْ كانَ معَ ذلكَ سائرُ حسناتِهِ راجحةً ، فقد كانَ ينالُ بهذهِ الحسنَةِ علوَّ الرتبةِ عندَ اللهِ تعالى في زمرةِ النبيّينَ والصديقينَ ، وقد حُطَّ عَنْهُمْ بسببِ الرياءِ ، ورُدَّ إلى صفِّ النعالِ مِنْ مراتبِ الأولياءِ ، لهذا معَ ما يتعرّضُ لَهُ في الدنيا مِنْ تشتّتِ الهمِّ بسببِ ملاحظةِ قلوبِ الخلقِ ، فإنَّ رضا الناسِ غايةٌ لا تُدرَكُ ، فكلُّ ما يرضى بِهِ فريقٌ يسخطُ بِهِ فريقٌ ، ورضا بعضهم في سخطِ بعضهم ، وَمَنْ طلبَ رضاهُمْ في سخطِ اللهِ . . سخطَ اللهُ عليهِ ، وأسخطَهُمْ

أيضاً عليه ، ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ،
ولا يزيده مدحهم رزقاً ولا أجلاً ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقتة وهو يوم
القيامة ؟!

وأما الطمع فيما في أيديهم .. فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر
للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ، ولا رازق إلا الله ،
ومن طمع في الخلق .. لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد ..
لم يخل عن المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله لرجاء كاذب ووهم فاسد
قد يصيب وقد يخطئ ، وإذا أصاب .. فلا تفي لذته بألم منته ومذلته ؟!

وأما ذمهم .. فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئاً مما لم يكتبه الله عليه ،
ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل
الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محموداً عند الله ، ولا يزيده مقتاً إن كان
ممقوتاً عند الله ؟! فالعباد كلهم عزة لا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ،
ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

فإذا قرّر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها .. فترت رغبته ، وأقبل
على الله قلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه .

ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار
الإخلاص .. لمقتوه ، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ،
ويعرفهم أنه مرء وممقوت عند الله تعالى ، ولو أخلص لله .. لكشف الله لهم

إخلاصه ، وحببه إليهم ، وسخرهم له ، وأطلق ألسنتهم بحمده والثناء عليه ، مع أنه لا كمال في مدحهم ، ولا نقصان في ذمهم ، كما قال شاعر من بني تميم : إن مدحي زين ، وإن ذمي شين ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كذبت ، ذاك الله الذي لا إله إلا هو »^(١) ، إذ لا زين إلا في مدحه ، ولا شين إلا في ذمه ، فأبي خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأي شر لك في ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقرئين ؟!

فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد ، والمنازل الرفيعة عند الله . . استحق ما يتعلق بالخلق أيام الحياة ، مع ما فيه من الكدورات والمنغصات ، واجتمع هممه ، وانصرف إلى الله قلبه ، وتخلص من مذمة الرياء ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشر بها صدره ، وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله واستيحاشه من الخلق ، واستحقاره للدنيا ، واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه ، وانحلت عنه داعية الرياء ، وتذلل له منهج الإخلاص .

فهذا وما قدمناه في الشطر الأول هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء .

(١) والقائل هو الأقرع بن حابس ، كما رواه أحمد في « المسند » (٣٩٣ / ٦) دون زيادة : (كذبت) ، وهي عند الروياني في « مسنده » (٣٠٧) .

وأما الدواء العملي . . فهو أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تُغلق الأبواب دون الفواحش ، حتّى يقنع قلبه بعلم الله وإطلاعه على عبادته ، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به .

وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها ، فقال له أبو حفص : (أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه ، لا تجالسنا بعد هذا) ، فلم يرخص في إظهار هذا القدر ؛ لأنّ في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها ، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشقّ في بداية المجاهدة ، وإذا صبر عليه مدّة بالتكليف . . سقط عنه ثقله ، وهان عليه ذلك بتواصل الطاف الله وما يمدّ به عبادة من حسن التوفيق والتأييد ، ولكن الله لا يغيّر ما يقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ، فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، وإن تك حسنة . . يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً .

المقام الثاني : في دفع العارض منه في أثناء العبادة :

وذلك لا بدّ من تعلّمه أيضاً ، فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة ، وقطع الطمع ، وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين ، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم . . فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادة ، بل يعارضه بخطرات الرياء ولا تنقطع عنه نزغاته ، وهوى النفس وميلها

لا ينمحي بالكلية ، فلا بدّ وأن يتشمرّ لدفع ما يعرض من خطر الرياء .
 وخواطر الرياء ثلاثة ، قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد ، وقد
 تترادف على التدرّج .

فالأول : العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم ، ثمّ يتلوّه هيجان الرغبة
 من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم ، ثمّ يتلوّه قبول النفس له
 والركون إليه ، وعقد الضمير على تحقيقه ، فالأول : معرفة ، والثاني :
 حالة تسمى الشهوة والرغبة ، والثالث : فعل يسمى العزم وتصميم العقد .

وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوّه الثاني ، فإذا
 خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم . . دفع ذلك بأن قال : ما لك
 وللخلق ، علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك ؟! فأي فائدة في علم
 غيره ؟!

فإن حاجت الرغبة إلى لذة الحمد . . تذكر ما رسخ في قلبه من قبل من
 آفة الرياء ، وتعرض للمقت عند الله في القيامة ، وخيبته في أحوج أوقاته إلى
 أعماله ، فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء . . فمعرفة
 آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة ؛ إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله
 وعقابه الأليم ، والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء ،
 والنفس تطاوع - لا محالة - أقواهما وأغلبهما .

فإذا ؛ لا بدّ في ردّ الرياء من ثلاثة أمور : المعرفة ، والكراهة ، والإباء .

وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يردُّ خاطرُ الرياء فيقبله ، ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضميرُ منطوياً عليها ، وإنما سببُ ذلك امتلاء القلب بخوفِ الذمِّ وحبِّ الحمد ، واستيلاء الحرصِ عليه ؛ بحيث لا يبقى في القلب متسعٌ لغيره ، فتعزبُ عن القلب المعرفة السابقة بأفاتِ الرياء وشؤمِ عاقبته ؛ إذ لم يبقَ موضعٌ في القلب خالٍ عن شهوةِ الحمد أو خوفِ الذمِّ ، وهو كالذي يحدثُ نفسه بالحلمِ وذمِّ الغضبِ ، ويعزمُ على التحلُّمِ عندَ جريانِ سببِ الغضبِ ، ثم يجري من الأسبابِ ما يشتدُّ به غضبه ، فينسى سابقَ عزمِهِ ، ويمتلئ قلبه غيظاً يمنعُ من تذكُّرِ آفةِ الغضبِ ، ويشغلُ عنه ، فكذلك حلاوةُ الشهوةِ تملأُ القلبَ وتدفعُ نورَ المعرفةِ مثلَ مرارةِ الغضبِ ، وإليه أشارَ جابرٌ بقوله : بايعنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم تحتَ الشجرةِ على ألا نفرَّ ، ولم نبايعه على الموتِ ، فأنسيناها يومَ حنينٍ ، حتَّى نُوديَ : يا أصحابَ الشجرةِ ؛ فرجعوا^(١) ، وذلك لأنَّ القلوبَ امتلأت بالخوفِ فنسيَتِ العهدَ السابقَ ، حتَّى ذكروا ، وأكثرُ الشهواتِ التي تهجمُ فجأةً هكذا تكونُ ؛ إذ تنسي معرفةَ مضرتِهِ

(١) كذا في «الرعاية» (ص ١٨٦) ، وهو مجموع حديثين رواهما مسلم (١٨٥٦) ، (١٧٧٥) ، فالأول من حديث جابر رضي الله عنه قال : (كنا يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة ، فبايعناه وعمر أخذ بيده تحتَ الشجرةِ وهي سَمرةٌ ، وقال : بايعناه على ألا نفر ، ولم نبايعه على الموت) ، والثاني من حديث العباس رضي الله عنه ، وفيه ذكر إخبار المسلمين يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى أمرَ العباس أن ينادي أصحابَ السمرَةِ ، فلما ناداهم . . عادوا كحنين البقر إلى أولادها .

الداخلية في عقد الإيمان ، ومهما نسي المعرفة . . لم تظهر الكراهة ، فإن الكراهة ثمرة المعرفة .

وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ، ولا يقدر على ترك لذة الحال ، فيسوف بالتوبة ، أو يتشاغل عن التفكير في ذلك لشدة الشهوة ، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعو إلى النطق به إلا رياء الخلق ، وهو يعلم ذلك ، ولكنه يستمر عليه ، فتكون الحجة عليه أوكد ؛ إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموماً عند الله ، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة .

وقد تحضر المعرفة والكراهة ، ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء ويعمل به ؛ لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة ، وهذا أيضاً لا ينتفع بكراهته ؛ إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل .

فإذا ؛ لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث ، وهي : المعرفة ، والكراهة ، والإباء ، فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة ، وحب الدنيا ونسيان الآخرة ، وقلة التفكير فيما عند الله ، وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظم نعيم الآخرة ، وبعض ذلك ينتج بعضاً ويثمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات ، فهو رأس كل خطيئة ، ومنبع كل ذنب ؛ لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغمر القلب

وتسلبُهُ ، وتحولُ بينَهُ وبينَ التفكُّرِ في العاقبةِ ، والاستضاءةِ بنورِ الكتابِ
والسنةِ وأنوارِ العلومِ .



فإن قلتَ : فمَنْ صادفَ مِنْ نَفْسِهِ كراهةَ الرياءِ ، وحملتُهُ الكراهةُ على
الإباءِ ، ولكنهُ معَ ذلكَ غيرُ خالٍ عن ميلِ الطبعِ إليه وحبِّهِ لَهُ ومنازعتِهِ إيَّاهُ ،
إلا أَنَّهُ كارهٌ لِحَبِّهِ ولميلِهِ وغيرُ محبِّبٍ إليه . . فهل يكونُ في زمرةِ المرائينَ ؟

فاعلمُ : أَنَّ اللهَ تعالى لَمْ يَكْلِفِ العبدَ إلا ما يطيقُ ، وليسَ في طاقةِ العبدِ
منعُ الشيطانِ عن نزغَاتِهِ ، ولا قمعُ الطبعِ حتَّى لا يميلَ إلى الشهواتِ
ولا ينزعَ إليها ، وإنَّما غايَتُهُ أَنْ يقابلَ شهوتَهُ بكراهةٍ استشارَها مِنْ معرفةِ
العواقبِ وعلمِ الدينِ ، وأصولِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فإذا فعلَ ذلكَ . .
فهو الغايةُ في أداءِ ما كُلفَهُ .

ويدلُّ على ذلكَ مِنَ الأخبارِ ما رُوِيَ أَنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وسَلَّمَ شَكَّوا إِلَيْهِ وقالوا : تعرضُ لقلوبِنا أشياءُ لَأَنْ نخرَّ مِنَ السماءِ فتخطفنا
الطيرُ أو تهوي بنا الريحُ في مكانٍ سحيقٍ . . أحبُّ إلينا مِنْ أَنْ نتكلَّمَ بها ،
فقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَوْقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قالوا : نعم ، قال :
« ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ »^(١) ، وَلَمْ يَجِدُوا إِلَّا الْوَسْوَاسَ وَالْكَرَاهَةَ لَهُ .

(١) رواه مسلم (١٣٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٤٩) ، وهو الحديث المنعوت
بحديث الوسوسة .

ولا يمكن أن يُقال : أراد بـ (صريح الإيمان) : الوسوسة ؛ فلم يبق إلا حملُهُ على الكراهة المساوقة للوسوسة ، والرياء وإن كان عظيمًا . . فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى ، فإذا اندفع ضررُ الأعظم بالكراهة . . فبأن يندفع بها ضررُ الأصغر أولى .

وكذلك يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال : « الحمد لله الذي ردَّ كيدَ الشيطان إلى الوسوسة »^(١) .

وقال أبو حازم : (ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك . . فلا يضرُّك ما هو من عدوك ، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك . . فعاتبها عليه)^(٢) .



فإذا ؛ وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرُّك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة ، والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخييلات للأسباب المهيجة للرياء هي من الشيطان ، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس ، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل .

(١) رواه أبو داود (٥١١٢) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (١٠٤٣٤) ، وكان جواباً عن شكواهم تلك .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ١٨٨) ، وقال : (وقال زيد بن أسلم مثل ذلك) ، وهو عن زيد بن أسلم رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢١/٣) .

إلا أن للشيطان ههنا مكيده ؛ وذلك أنه إذا عجزَ عن حملِهِ على قبولِ الرياءِ . . خيَلَ إليه أن صلاحَ قلبِهِ في الاشتغالِ بمجادلةِ الشيطانِ ، ومطاولتهِ في الردِّ والجدالِ ، حتَّى يسلبَهُ ثوابَ الإخلاصِ وحضورِ القلبِ ؛ لأنَّ الاشتغالَ بمجادلةِ الشيطانِ ومدافعتِهِ انصرافٌ عن سرِّ المناجاةِ مع الله تعالى ، فيوجبُ ذلكَ نقصاناً في منزلتِهِ عندَ الله تعالى .



والمخلصونَ عن الرياءِ في دفعِ خواطرِ الرياءِ على أربعِ مراتبَ :

الرتبةُ الأولى : أن يردَّ على الشيطانِ مكيدتهُ فيكذبهُ ، ولا يقتصرُ عليه ، بل يشتغلُ بمجادلتهِ ، ويطيلُ الجدلَ معه ؛ لظنه أن ذلكَ أسلمُ لقلبه ، وهو على التحقيقِ نقصانٌ ؛ لأنه اشتغلَ عن مناجاةِ الله تعالى وعن الخيرِ الذي هو بصددِهِ ، وانصرفَ إلى قتالِ قطاعِ الطريقِ ، والتعريضِ على قتالِ قطاعِ الطريقِ نقصانٌ في السلوكِ .

الرتبةُ الثانيةُ : أن يعرفَ أن الجدلَ والقتالَ نقصانٌ في السلوكِ ، فيقتصرُ على تكذيبِهِ ودفعِهِ ، ولا يشتغلُ بمجادلتهِ .

الرتبةُ الثالثةُ : ألا يشتغلَ بتكذيبِهِ أيضاً ؛ لأنَّ ذلكَ وقفةٌ وإن قلتَ ، بل يكونُ قد قرَّرَ في عقدِ ضميرِهِ كراهةَ الرياءِ وكذبِ الشيطانِ ، فيستمرُّ على ما كانَ عليه مستصحباً للكراهةِ غيرَ مشغولٍ بالتكذيبِ ولا بالمخاصمةِ .

الرتبةُ الرابعةُ : أن يكونَ قد علمَ أن الشيطانَ سيحسدهُ عندَ جريانِ أسبابِ

الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما نزع الشيطان . . زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله تعالى ، وإخفاء الصدقة والعبادة ؛ غيظاً للشيطان ، وذلك هو الذي يغيط الشيطان ويقمعه ، ويوجب يأسَهُ وقنوطَهُ حتَّى لا يرجع .

يُروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له : إن فلاناً ذكرَكَ ، فقال : والله ؛ لأغيظنَّ مَنْ أمرُهُ ، قيل : وَمَنْ أمرُهُ ؟ قال : الشيطان ، ثمَّ قال : اللهم ؛ اغفرْ له ؛ أي : لأغيظنَّه بأن أطيع الله فيه^(١) .

ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة . . كفَّ عنه ؛ خيفة من أن يزيد في حسناته .

وقال إبراهيم التيمي : (إنَّ الشيطانَ ليدعو العبدَ إلى البابِ مِنَ الإثمِ ، فلا يطيعُهُ ويحدثُ عندَ ذلكَ خيراً ، فإذا رآه كذلكَ . . تركه)^(٢) .

وقال أيضاً : (إذا رآكَ الشيطانُ متردداً . . طمعَ فيكَ ، وإذا رآكَ مداوماً . . ملَّكَ وقلاك)^(٣) .

وضربَ الحارثُ المحاسبيُّ رحمةُ اللهُ لهذه الأربعة مثلاً أحسنَ فيه فقال : مثالُهُمْ كأربعةٍ قصدوا مجلساً مِنَ العلمِ والحديثِ ؛ لينالوا بهِ فائدةً

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٩٥) ، وينحوه رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٧٠) .

(٢) الرعاية (ص ١٩٥) ، وزاد : (ثم يدعوهُ إلى البابِ من الإثمِ ، فلا يطيعه ، ويحدثُ عندَ ذلكَ خيراً ، فإذا رآه كذلكَ . . تركه) .

(٣) الرعاية (ص ١٩٥) .

وفضلاً ، وهداية ورشداً ، فحسدَهُمْ على ذلك ضالٌّ مبتدعٌ ، وخافَ أن يعرفوا الحقَّ ، فتقدَّم إلى واحدٍ منهم ليمنعه ويصرفه عنه ، ودعاهُ إلى مجلسٍ ضلالٍ فأبى ، فلمَّا عرفَ إباءَهُ . شغلهُ بالمجادلة ، فاشتغلَ معه ليردَّ ضلالَهُ وهوَ يظنُّ أن ذلكَ مصلحةً ، وهوَ غرضُ الضالِّ ليفوتَ عليه بقدرِ تأخيره .

فلمَّا مرَّ الثاني عليه . . نهاهُ واستوقفهُ فوقفَ ، فدفعَ في نحرِ الضالِّ ولم يشغلْ بالقتالِ واستعجلَ ، ففرحَ منه الضالُّ بقدرِ توقُّفه للدَّفعِ فيه .

ومرَّ به الثالثُ ، فلم يلفتْ إليه ، ولم يشغلْ بدفعه ولا بقتاله ، بل استمرَّ على ما كانَ ، فخابَ منه رجاؤُهُ بالكلية .

فمرَّ الرابعُ فلم يتوقَّفْ له ، وأرادَ أن يغيظه فزادَ في عجلته وتركَ الثاني في المشي .

فيوشكُ إن عادوا ومرُّوا عليه مرةً أخرى أن يعاودَ الجميعَ إلا هذا الأخيرَ ، فإنه لا يعاودُهُ ؛ خيفةً من أن يزدادَ فائدةً باستعجالِهِ^(١) .



فإن قلتَ : الشيطانُ إذا كانَ لا تؤمنُ نزعتهُ . . فهل يجبُ الترسُّدُ له قبلَ حضورِهِ للحذرِ منه ؛ انتظاراً لوروده ، أم يجبُ التوكُّلُ على الله ليكونَ هوَ الدافعُ له ، أو يجبُ الاشتغالُ بالعبادة والغفلةُ عنه ؟^(٢) .

(١) الرعاية (ص ١٩٥) .

(٢) الرعاية (ص ١٩٦) .

قلنا : اختلفَ الناسُ فيه على ثلاثة أوجه :

فذهبتُ فرقةٌ من أهلِ البصرةِ إلى أنَّ الأقوياءَ قد استغنوا عن الحذرِ من الشيطانِ ؛ لأنَّهُم انقطعوا إلى الله تعالى ، واشتغلوا بحبِّه ، فاعتزلَهُم الشيطانُ وأيسَ منهم وخنسَ عنهم ؛ كما أيسَ من ضعفاءِ العبادِ في الدعوةِ إلى الخمرِ والزنا ، فصارتْ ملاذُّ الدنيا عندهم - وإن كانتْ مباحةً - كالخمرِ والخنزيرِ ، وإذْ خلَّوا من حبِّها بالكليةِ . . لم يبقَ للشيطانِ إليهم سبيلٌ ، فلا حاجةَ بهم إلى الحذرِ .

وذهبتُ فرقةٌ من أهلِ الشامِ إلى أنَّ الترصّدَ للحذرِ منه إنّما يحتاجُ إليه مَنْ قلَّ يقينه ، ونقصَ توكلُّه ، فمَنْ أيقنَ بأنَّ لا شريكَ لله في تدبيره . . فلا يحذرُ غيرهَ ، ويعلمُ أنَّ الشيطانَ ذليلٌ مخلوقٌ ليسَ إليه أمرٌ ، ولا يكونُ إلا ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى ، فهو الضارُّ والنافعُ ، والعارفُ يستحيي من الله تعالى أنْ يحذرَ غيرهَ ، فاليقينُ بالوحدانيةِ يغنيه عن الحذرِ .

وقالتُ فرقةٌ من أهلِ العلمِ : لا بدَّ من الحذرِ من الشيطانِ .

وما ذكرهُ البصريونَ من أنَّ الأقوياءَ قد استغنوا عن الحذرِ ، وخلَّتْ قلوبُهُم عن حبِّ الدنيا بالكليةِ وهي وسيلةُ الشيطانِ . . يكادُ يكونُ غروراً ؛ إذ الأنبياءُ عليهم السلامُ لم يتخلَّصوا من وساوسِ الشيطانِ ونزغاته ، فكيفَ يتخلَّصُ غيرُهُم؟!

وليسَ كلُّ وساوسِ الشيطانِ من الشهواتِ وحبِّ الدنيا ، بل في

صفات الله تعالى وأسمائه ، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك ، ولا ينجو أحد من الخطر فيه ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي »^(١) ، مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير ، فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام . فهو مغرور ، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ؛ ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله تعالى لهما : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۖ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۖ ﴾ مع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة ، وأطلق له وراء ذلك ما أراد ، فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان . فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع الفتن والمحن ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها ؟!

وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه الله تعالى : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ ﴾ .

ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى : ﴿ يَبْقَىٰ آدَمُ لَا يَفْنَىٰ ۖ ﴾

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) .

الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبُو يَكْمَ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿١﴾ ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ، وَالْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ تَحْذِيرٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ؛ فَكَيْفَ يُدْعَى الْأَمْنُ مِنْهُ ؟!

وَأَخَذَ الْحَذَرَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ لَا يَنَافِي الْأَشْتَغَالَ بِحُبِّ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ مِنَ الْحَبِّ لَهُ امْتِثَالَ أَمْرِهِ ، وَقَدْ أَمَرَ بِالْحَذَرِ مِنَ الْعَدُوِّ ، كَمَا أَمَرَ بِالْحَذَرِ مِنَ الْكَفَّارِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ فَإِذَا لَزَمَكَ بِأَمْرِ اللَّهِ الْحَذَرُ مِنَ الْعَدُوِّ الْكَافِرِ وَأَنْتَ تَرَاهُ . . . فَبِأَنْ يَلْزَمَكَ الْحَذَرُ مِنْ عَدُوِّ يَرَاكَ وَلَا تَرَاهُ أَوْلَى ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ مُحِيرِيزٍ : (صَيْدٌ تَرَاهُ وَلَا يَرَاكَ يَوْشُكُ أَنْ تَظْفَرَ بِهِ ، وَصَيْدٌ يَرَاكَ وَلَا تَرَاهُ يَوْشُكُ أَنْ يَظْفَرَ بِكَ) (١) ، فَأَشَارَ إِلَى الشَّيْطَانِ ، فَكَيْفَ وَلَيْسَ فِي الْغَفْلَةِ عَنْ عَدَاوَةِ الْكَافِرِ إِلَّا قَتْلٌ هُوَ شَهَادَةٌ ، وَفِي إِهْمَالِ الْحَذَرِ مِنَ الشَّيْطَانِ التَّعَرُّضُ لِلنَّارِ وَالْعِقَابُ الْأَلِيمُ ؟!

فَلَيْسَ مِنَ الْأَشْتَغَالِ بِاللَّهِ الْإِعْرَاضُ عَمَّا حَذَرَ اللَّهُ ، وَبِهِ يَبْطُلُ مَذْهَبُ الْفِرْقَةِ الثَّانِيَةِ فِي ظَنِّهِمْ أَنَّ ذَلِكَ قَادِحٌ فِي التَّوَكُّلِ ؛ فَإِنَّ أَخَذَ التَّرْسَ وَالسَّلَاحَ ، وَجَمَعَ الْجُنُودَ ، وَحَفَرَ الْخَنْدِقَ . . . لَمْ يَقْدَحْ فِي تَوَكُّلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَيْفَ يَقْدَحُ فِي التَّوَكُّلِ الْخَوْفُ مِمَّا خَوَّفَ اللَّهُ بِهِ ، وَالْحَذَرُ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِالْحَذَرِ مِنْهُ ؟!

(١) الرعاية (ص ٢٠٠) بنحوه .

وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط مَنْ ظنَّ أنَّ معنى التوكلِ النزوعُ
عن الأسبابِ بالكلية .

وقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾
لا يناقضُ امثالَ التوكلِ مهما اعتقدَ القلبُ أنَّ الضارَّ والنافعَ والمحبيَّ
والمميتَ هو الله تعالى ، فكَذلك يحذرُ الشيطانُ ويعتقدُ أنَّ المضلَّ والهاديَ
هو الله ؛ ويرى الأسبابَ وسائطَ مسخرة كما ذكرناه في كتابِ التوكلِ ، وهذا
ما اختاره الحارثُ المحاسبِيُّ رحمه الله^(١) ، وهو الصحيح الذي يشهدُ له نورُ
العلم ، وما قبله يشبهُ أن يكونَ مِنْ كلامِ العبادِ الذينَ لم يغزُرْ علمُهُمْ ،
ويظنونَ أنَّ ما يهجمُ عليهم مِنْ الأحوالِ في بعضِ الأوقاتِ مِنَ الاستغراقِ باللهِ
يستمرُّ على الدوامِ ، وهو بعيدٌ .

ثمَّ اختلفتْ هذهِ الفرقَةُ على ثلاثةِ أوجهٍ في كيفيةِ الحذرِ :

فقالَ قومٌ : إذا حذرنا الله تعالى العدوَّ . . فلا ينبغي أن يكونَ شيءٌ أغلبَ
على قلوبنا مِنْ ذكرِهِ والحذرِ مِنْهُ والترصدِ لَهُ ؛ فإنَّنا إنْ غفلنا عَنْهُ لحظةً . .
فيوشكُ أن يهلكنا .

وقالَ قومٌ : إنَّ ذلكَ يؤدي إلى خلوِّ القلبِ عَنْ ذكرِ الله تعالى ، واشتغالِ
الهمِّ كُلِّهِ بالشيطانِ ، وذلكَ مرادُ الشيطانِ مِنَّا ، بل نشتغلُ بالعبادةِ وبذكرِ الله
تعالى ، ولا ننسى الشيطانَ وعداوتَهُ ، والحاجةُ إلى الحذرِ مِنْهُ ؛ فنجمعُ بينَ

(١) كما في «الرعاية» (ص ١٩٦-٢٠٢) .

الأميرين فإننا إن نسيناهُ.. ربّما عرضَ مِنْ حيثُ لا نحتسِبُ ، وإن تجردنا لذكرِهِ.. كنّا قد أهملنا ذكرَ الله ، فالجمعُ أولى .

وقال العلماءُ المحققون : غلطُ الفريقانِ ، أمّا الأولُ.. فقد تجرّدَ لذكرِ الشيطانِ ونسيَ ذكرَ الله ، فلا يخفى غلطُهُ ، وإنّما أمرنا بالحدَرِ مِنَ الشيطانِ ؛ كي لا يصدّنا عن الذكرِ ، فكيف نجعلُ ذكرَهُ أغلبَ الأشياءِ على قلوبنا وهو منتهى غرضِ العدوِّ ؟! ثمَّ يؤدي ذلك إلى خلوّ القلبِ عن نورِ ذكرِ الله تعالى ، فإذا قصدَ الشيطانُ مثلَ هذا القلبِ وليس فيه نورُ ذكرِ الله تعالى وقوةُ الاشتغالِ بِهِ.. فيوشكُ أن يظفرَ بِهِ ، ولا يقوى على دفعِهِ ، فلم نُؤمِرْ بانتظارِ الشيطانِ ولا بإدمانِ ذكرِهِ .

وأما الفرقَةُ الثانيةُ : فقد شاركتِ الأولى ؛ إذ جمعت في القلبِ بينَ ذكرِ الله والشيطانِ ، وبقدَرٍ ما يشتغلُ القلبُ بذكرِ الشيطانِ ينقصُ مِنْ ذكرِ الله عزَّ وجلَّ ، وقد أمرَ اللهُ الخلقَ بذكرِهِ ونسيانِ ما عداهُ ؛ إبليسَ وغيرَهُ .

فالحقُّ : أن يلزمَ العبدُ قلبُهُ الحدَرُ مِنَ الشيطانِ ، ويقرّرَ على نفسه عداوتهُ ، فإذا اعتقدَ ذلكَ وصدقَ بِهِ ، وسكنَ الحدَرُ فيه.. فليشتغلْ بذكرِ الله ، ويكبَّ عليه بكلِّ الهمةِ ، ولا يخطرُ ببالِهِ أمرُ الشيطانِ ؛ فإنَّهُ إذا اشتغلَ بذلكَ بعدَ معرفةِ عداوتهِ ثمَّ خطرَ الشيطانُ لَهُ.. تنبّهَ لَهُ ، وعندَ التنبُّهِ يشتغلُ بدفعِهِ ، والاشتغالُ بذكرِ الله لا يمنعُ مِنَ التيقُّظِ عندَ نزغةِ الشيطانِ ، بل الرجلُ ينامُ وهو خائفٌ مِنْ أن يفوتهُ مهمٌّ عندَ طلوعِ الصبحِ ، فيلزمُ نفسه

الحذر ، ويناوم على أن يتنبه في ذلك الوقت ، فينبه في الليل مرات قبل أوانه ؛ لما استكن في قلبه من الحذر ، مع أنه بالنوم غافل عنه ، فاشتغاله بذكر الله تعالى كيف يمنع تنبهه ؟ ! ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرّد ذكر الله تعالى قد أمت منه الهوى ، وأحيا فيه نور العقل والعلم ، وأماط عنه ظلمة الشهوات .

فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده ، وألزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره ، بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شرّ العدو واستضاءوا بنور الذكر حتى أبصروا خواطر العدو ، فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ؛ ليتفجّر منها الماء الصافي ، فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر ، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزع الماء القذر من جانب ، ولكنه تركه جارياً إليها من جانب آخر ، فيطول تعبهُ ، ولا تجفّ البئر من الماء القذر ، والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدّاً ، وملاء بالماء الصافي ، فإذا جاء الماء القذر . . دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب .



بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم : أنَّ في الأسرار للأعمالِ فائدةَ الإخلاصِ والنجاةِ مِنَ الرياءِ ، وفي الإظهارِ فائدةَ الاقتداءِ وترغيبِ الناسِ في الخيرِ ، ولكنَّ فيه آفةُ الرياءِ ، قالَ الحسنُ : (قد علمَ المسلمونَ أنَّ السرَّ أحرزُ العملينِ)^(١) .

ولكنَّ في الإظهارِ أيضاً فائدةٌ ، ولذلك أثنى اللهُ تعالى على السرِّ والعلانيةِ ، فقالَ : ﴿ إِن تَبَدُّوا الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

والإظهارُ قسمانِ :

أحدهما : في نفسِ العملِ ، والآخرُ : بالتحدُّثِ بما عملَ .



القسمُ الأوَّلُ : إظهارُ نفسِ العملِ :

كالصدقةِ في المَلأِ لترغيبِ الناسِ في ذلكَ ؛ كما رُوِيَ عنِ الأنصاريِّ الذي جاءَ بالصُّرَّةِ ، فتتابعَ الناسُ بالعطيةِ لَمَّا رَأَوْهُ ، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « مَنْ سَنَّ سَنَةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِهَا . . كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ اتَّبَعَهُ »^(٢) .

(١) الرعاية (ص ٢٦٤) ، وينحوه رواه أحمد في « الزهد » (ص ٢١٢) .

(٢) رواه مسلم (١٠١٧) .

وتجري سائر الأعمال هذا المجري من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ، ولكن الاقتداء على الطباع في الصدقة أغلب .

نعم ، الغازي إذا هم بالخروج ، فاستعدّ وشدّ الرّحل قبل القوم تحريضاً لهم على الحركة . . فذلك أفضل له ؛ لأنّ الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره ، فالمبادرة إليه ليس من الإعلان ، بل هو تحريض مجرد ، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في صلاة الليل ؛ لينبّه جيرانه وأهله فيقتدى به .

فكل عمل لا يمكن إسراره ؛ كالحجّ والجهاد والجمعة . . فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض ، بشرط ألا يكون فيه شوائب الرياء .

وأما ما يمكن إسراره ؛ كالصدقة والصلاة ؛ فإن كان إظهار الصدقة يؤدي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة . . فالسرّ أفضل ؛ لأنّ الإيذاء حرام ، فإن لم يكن فيه إيذاء . . فقد اختلف الناس في الأفضل ، فقال قوم : السرّ أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة ، وقال قوم : السرّ أفضل من علانية لا قدوة فيها ، أمّا العلانية للقدوة . . فأفضل من السرّ ، ويدلّ على ذلك أنّ الله تعالى أمر أنبياءه بإظهار العمل للاقتداء ، وخصّهم بمنصب النبوة ، ولا يجوز أن يُظنّ بهم أنّهم حرموا أفضل العملين ، ويدلّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « له أجرها وأجر من عمل بها » .

وقد روي في بعض الحديث : أن عمل السر يُضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ، ويُضاعف عمل العلانية إذا استنَّ بعامله على عمل السر سبعين ضعفاً^(١) .

وهذا لا وجه للخلاف فيه ؛ فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء ، وتمَّ الإخلاص على وجه واحد في الحالتين .. فما يُقتدى به أفضل لا محالة ، وإنما يُخاف من الظهور الرياء ، ومهما حصلت شائبة الرياء .. لم ينفعه اقتداء غيره ، وهلك به ، فلا خلاف في أن السر أفضل منه .

ولكن على من يظهر العمل وظيفتان :

أحدهما : أن يظهره حيث يعلم أنه يُقتدى به ، أو يظن ذلك ظناً ، ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه ، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق ، وربما يقتدي به أهل محله ، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة ، فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات .. ربما نُسب إلى الرياء والنفاق ، وذمُّوه ولم يقتدوا به ، فليس له الإظهار من غير فائدة ، فإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به .

(١) الشطر الأول منه رواه البيهقي في « الشعب » (٦٣٩٤) عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وروى أيضاً في « الشعب » (٦٦١٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « عمل السر أفضل من عمل العلانية ، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به » .

والثانية : أن يراقب قلبه ، فإنه ربّما يكون فيه حبّ الرياء الخفي ، فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء ، وإنّما شهوته التجمّل بالعمل ، وبكونه مقتدى به ، وهذا حال كلّ مَنْ يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين ، وقليل ما هم ، فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر ، فإنّ الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم ، فأقبل عليهم حتى تشبّوا به ، فهلكوا وهلك ، والغرق بالماء في الدنيا ألمة ساعة ، وليت كان الهلاك بالرياء مثله ، لا بلّ عذابه دائم مدة مديدة ، وهذه مزلة أقدام العبّاد والعلماء ، فإنّهم يتشبّهون بالأقوياء في الإظهار ، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص ، فتحبط أجورهم بالرياء .

والتفطن لذلك غامض ، ومحكّ ذلك : أن يعرض على نفسه أنّه لو قيل له : أخفِ العمل حتّى يقتدي الناس بعباد آخر من أقرانك ، ويكون لك في السرّ مثل أجر الإعلان ؛ فإنّ مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به ، وهو المظهر للعمل . . فباعته الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير ، فإنّهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره ، وأجره قد توفّر عليه مع إسراره ، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم ؟!

فليحذر العبد خدع النفس ؛ فإنّ النفس خدوع ، والشيطان مترصد ، وحبّ الجاه على القلب غالب ، وقلّما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات ، فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً ، والسلامة في الإخفاء ، وفي الإظهار من

الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا ، فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء .



القسم الثاني : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ :

وحكمه حكم إظهار العمل نفسه ، والخطر في هذا أشد ؛ لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة ، وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء . . لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه أهون .

والحكم فيه : أن من قوي قلبه ، وتم إخلاصه ، وصغر الناس في عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه . . فهو جائز ، بل هو مندوب إليه إن صفت النية ، وسلمت عن جميع الآفات ؛ لأنه ترغيب في الخير ، والترغيب في الخير خير .

وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء ، قال سعد بن معاذ : (ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ، ولا تبعث جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق) (١) .

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٢٤٩٨) بنحوه .

وقال عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أبالي أصبحتُ على عسرٍ أو على يسرٍ ؛ لأنِّي لا أدري أيُّهما خيرٌ لي) (١) .

وقال ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أصبحتُ على حالٍ فتمنيتُ أنْ أكونَ على غيرِها) (٢) .

وقال عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما تغيتُ ، ولا تمنيتُ ، ولا مسستُ ذكرِي بيمينِي منذُ بايعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم) (٣) .

وقال شدادُ بنُ أوسٍ : (ما تكلمتُ بكلمةٍ منذُ أسلمتُ حتَّى أزمَّها وأخطمَها غيرَ هذه) ، وكانَ قد قالَ لغلَامِهِ : (اتنا بالسُّفرةِ لنعبثَ بها حتَّى ندركَ الغداءَ) (٤) .

وقال أبو سفيانَ لأهلِهِ حينَ حضَرَهُ الموتُ : (لا تبكوا عليَّ ؛ فإنِّي ما أحدثُ ذنباً منذُ أسلمتُ) (٥) .

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ تعالى : (ما قضى اللهُ لي بقضاءٍ قطُّ فسرتُني أنْ يكونَ قضى لي بغيرِهِ ، وما أصبحَ لي هوى إلا في مواقعِ قدرِ اللهِ) (٦) .

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣٠٤ / ٨) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٥) من زيادات نعيم بن حماد .

(٣) رواه ابن ماجه (٣١١) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١٤) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٣٤) .

(٦) الرعاية (ص ٢٦٢) ، وينحوه رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٤٦) .

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المראה إذا صدرت ممن يراني بها ، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به ، فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها ، فلا ينبغي أن يُسدَّ باب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء ، بل إظهار المراني للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ، ولكنه شرٌّ للمراني ، فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مرء عند الله تعالى .

وقد روي أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح ، فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت ، فصنّف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء ، فتركوا ذلك ، وترك الناس الرغبة فيه ، فكانوا يقولون : ليت ذلك الكتاب لم يُصنّف^(١) .

فإظهار المراني فيه خير كثير لغيره إذا لم يُعرف رباؤه ، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم كما ورد في الأخبار^(٢) ، وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم ، والله تعالى أعلم .



(١) نقله صاحبه « القوت » . « إتحاف » (٨ / ٣٠٥) .

(٢) تقدم حديث : « إن الله يؤيد هذا الدين . . . » الذي رواه البخاري (٤٢٠٣) ، ومسلم (١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم حديث : « إن الله ليؤيد الدين بأقوام . . . » الذي رواه النسائي في « الكبرى » (٨٨٣٤) .

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكرهه اطلاع الناس عليها وكرهه ذمهم له

اعلم : أنَّ الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية ، كما قال عمرُ رضي الله عنه لرجل : عليك بعملِ العلانية ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ وما عملُ العلانية ؟ قال : ما إذا أُطْلِعَ عليك . . لم تستحي منه^(١) .

وقال أبو مسلم الخولاني : (ما عملتُ عملاً أبالي أن يطلعَ الناسُ عليه إلا إتياني أهلي ، والبول ، والغائط)^(٢) .

إلا أنَّ هذه درجة عظيمة لا ينالها كلُّ أحدٍ ، ولا يخلو الإنسانُ عن ذنوبٍ بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكرهُ اطلاعَ الناسِ عليها ، لا سيما ما تختلجُ به الخواطرُ في الشهواتِ والأمانِي ، واللهُ مُطَّلِعٌ على جميعِ ذلك ، فإرادةُ العبدِ لإخفائها عن العبيدِ ربِّما يُظنُّ أنَّه رياءٌ محظورٌ ، وليسَ كذلك ، بل المحظورُ أن يستترَ ذلك ليرى الناسُ أنَّه ورِعٌ وأنَّه خائفٌ مِنَ اللهِ تعالى مع أنَّه ليسَ كذلك .

فهذا هو سترُ المرائي .

(١) الرعاية (ص ٢٧٩) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣٠٦ / ٨) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

(٢) بنحوه رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢) من زيادات نعيم بن حماد ، وبلغظه هو في « الرعاية » (ص ٢٧٩) .

وأما الصادق الذي لا يراني . . فله ستر المعاصي ، ويصح قصده فيه ،
ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه :

الأول : هو أن يفرح بستر الله عليه ، وإذا افتضح . . اغتم بهتك الله
ستره ، وخاف أن يهتك ستره في القيامة ؛ إذ ورد في الخبر : أن من ستر الله
عليه في الدنيا ذنباً . . ستر عليه في الآخرة^(١) ، وهذا غم ينشأ من قوة
الإيمان .



الثاني : أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ، ويحب
سترها ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : « من ارتكب من هذه القاذورات
شيئاً . . فليستتر بستر الله »^(٢) ، فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن
محبة ما أحبه الله ، وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله ظهور المعاصي ،
وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ، ويغتم بسببه .



الثالث : أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه
وعقله عن طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالذم ، وينازع العقل ، ويشغل
عن الطاعة ، وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله

(١) رواه مسلم (٢٥٩٠) .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٨٢٥ / ٢) عن زيد بن أسلم مرسلاً ، ورواه الحاكم في
« المستدرک » (٣٨٣ / ٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

تعالى ، ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر ، وهذا أيضاً من قوّة الإيمان ؛ إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان .



الرابع : أن يكون ستره ورغبته فيه لكرهته لذنم الناس من حيث يتأذى طبعه ، فإن الذم مؤلم للقلب ، كما أن الضرب مؤلم للبدن ، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ، ولا الإنسان به عاصي ، وإنما يعصي إذا جزعته نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حذراً من ذمهم ، وليس يجب على الإنسان ألا يغتم بدم الخلق ولا يتألم به .

نعم ، كمال الصدق في أن تزول رؤيته للخلق ، فيستوي عنده ذامه ومادحه ؛ لعلمه أن الضار والنافع هو الله عز وجل ، وأن العباد كلهم عاجزون ، وذلك قليل جداً ، وأكثر الطباع تتألم بالذم ؛ لما فيه من الشعور بالنقصان ، ورُبَّ تألم بالذم محمود إذا كان الدائم من أهل البصيرة في الدين ، فإنهم شهداء الله ، وذمهم يدل على ذم الله تعالى ، وعلى نقصان في الدين ، فكيف لا يغتم به ؟!

نعم ، الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع ؛ كأنه يحب أن يُحمد بالورع ، ولا يجوز أن يحب أن يُحمد بطاعة الله تعالى ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثواباً من غيره ، فإن وجد ذلك في نفسه . . . وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد ، وأما كراهته الذم بالمعصية من حيث الطبع . .

فليس بمذموم ، فله السترُ حذراً مِنْ ذلك .

وَيُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ بِحَيْثُ لَا يَحِبُّ الْحَمْدَ ، وَلَكِنْ يَكْرَهُ الذَّمَّ ، وَإِنَّمَا مَرَادُهُ أَنْ يَتْرَكَهُ النَّاسُ حَمْدًا وَذَمًّا ، فَكَمْ مِنْ صَابِرٍ عَنْ لَذَّةِ الْحَمْدِ لَا يَصْبِرُ عَلَى أَلَمِ الذَّمِّ ؛ إِذِ الْحَمْدُ يُطْلَبُ لِلذَّةِ ، وَعَدَمُ اللَّذَّةِ لَا يُولِّمُ ، وَأَمَّا الذَّمُّ . فَإِنَّهُ مَوْلِمٌ ، فَحُبُّ الْحَمْدِ عَلَى الطَّاعَةِ طَلَبُ ثَوَابٍ عَلَى الطَّاعَةِ فِي الْحَالِ ، وَأَمَّا كِرَاهَةُ الذَّمِّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ . . . فَلَا مُحْذَرٍ فِيهِ إِلَّا أَمْرٌ وَاحِدٌ ؛ وَهُوَ أَنْ يَشْغَلَهُ غَمُّهُ بِاطْلَاعِ النَّاسِ عَلَى ذَنْبِهِ عَنِ اطْلَاعِ اللَّهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَايَةُ النِّقْصَانِ فِي الدِّينِ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ غَمُّهُ بِاطْلَاعِ اللَّهِ وَذَمِّهِ لَهُ أَكْثَرَ^(١) .



الخامسُ : أَنْ يَكْرَهُ الذَّمَّ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الذَّامَّ قَدْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى بِهِ ، وَهَذَا مِنَ الْإِيمَانِ ، وَعِلَامَتُهُ : أَنْ يَكْرَهُ ذَمَّهُ لِغَيْرِهِ أَيْضًا ، فَهَذَا التَّوَجُّعُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ، بِخِلَافِ التَّوَجُّعِ مِنْ جِهَةِ الطَّبَعِ .



السادسُ : أَنْ يَسْتَرَّ ذَلِكَ كَيْ لَا يُقْصَدَ بَشَرٌ إِذَا عُرِفَ ذَنْبُهُ ، وَهَذَا وَرَاءَ أَلَمِ الذَّمِّ ، فَإِنَّ الذَّمَّ مَوْلِمٌ مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُ الْقَلْبُ بِنِقْصَانِهِ وَخُسْتِهِ ، وَإِنْ كَانَ

(١) لِأَن شُغْلَهُ بِاطْلَاعِ الْخَلْقِ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا غَمًّا ، بِخِلَافِ شُغْلِهِ بِاطْلَاعِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ يَزِيدُهُ رَهْبَةً وَيَجْرُهُ إِلَى التَّوْبَةِ . « إِتْحَاف » (٣٠٧ / ٨) .

مَمَّنْ يُؤْمَنُ شَرُّهُ ، وَقَدْ يَخَافُ شَرَّ مَنْ يَطْلُعُ عَلَى ذَنْبِهِ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، فَلَهُ أَنْ يَسْتَرَّ ذَلِكَ حَذراً مِنْهُ .



السابعُ : مجردُ الحياءِ ؛ فإنه نوعُ ألمٍ وراءَ ألمِ الذمِّ والقصدِ بالشرِّ ، وهو خُلُقٌ كريمٌ يحدثُ في أوَّلِ الصُّبَا مهما أشرقَ عليه نورُ العقلِ ، فيستحيي مِنَ القَبَائِحِ إِذَا شُوهِدَتْ مِنْهُ ، وهوَ وصفٌ محمودٌ ؛ إِذْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ »^(١) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ »^(٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ »^(٣) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَيَّ الْحَلِيمَ »^(٤) .

فالذي يفسقُ ولا يبالي أن يظهرَ فسقَهُ للناسِ . . جمعَ إلى الفسقِ التَهْتُكُ والوقاحةَ وفقدَ الحياءِ ، فهوَ أشدُّ حالاً ممَّنْ يَسْتَرُّ وَيَسْتَحْيِي .
إِلَّا أَنَّ الْحَيَاءَ مَمْتَزَجٌ بِالرِّيَاءِ ، وَمَشْتَبَهُ بِهِ اشْتِبَاهاً عَظِيماً قَلَّ مَنْ يَتَفَقَّنُ لَهُ ،

(١) رواه مسلم (٦١/٣٧) .

(٢) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٤) مراسلاً من حديث عمرو بن دينار ، وعند مسلم (٢٩٦٥) مرفوعاً : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ » .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٩٦/١٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً سأل فاطمة رضي الله عنها فحدثته به .

وَيَدَّعِي كُلُّ مَرَأٍ أَنَّهُ مُسْتَحْيٍ ، وَأَنْ سَبَبَ تَحْسِينِ الْعِبَادَاتِ هُوَ الْحَيَاءُ مِنَ النَّاسِ ، وَذَلِكَ كَذِبٌ ، بَلِ الْحَيَاءُ خُلُقٌ يَنْبَعُثُ مِنَ الطَّبَعِ الْكَرِيمِ ، وَتَهْيِجُ عَقِيْبَهُ دَاعِيَةُ الرِّيَاءِ وَدَاعِيَةُ الْإِخْلَاصِ ، وَيُتَصَوَّرُ أَنْ يُخْلَصَ مَعَهُ ، وَيُتَصَوَّرُ أَنْ يُرَاءِيَ مَعَهُ .

وبيانُهُ : أَنَّ الرَّجُلَ يَطْلُبُ مِنْ صَدِيقٍ لَهُ قَرْضاً وَنَفْسُهُ لَا تَسْخُو بِإِقْرَاضِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَسْتَحْيِي مِنْ رَدِّهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ رَاسَلَهُ عَلَى لِسَانٍ غَيْرِهِ . . لَكَانَ لَا يَسْتَحْيِي ، وَلَا يَقْرَضُ رِيَاءً وَلَا لَطْلِبَ الثَّوَابِ ، فَلَهُ عِنْدَ ذَلِكَ أَحْوَالٌ ، أَحَدُهَا : أَنْ يَشَافَةَ بِالرَّدِّ الصَّرِيحِ وَلَا يَبَالِي ، فَيُنْسَبُ إِلَى قَلَّةِ الْحَيَاءِ ، وَهَذَا فَعْلٌ مَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ ، فَإِنَّ الْمُسْتَحْيِيَ إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّلَ أَوْ يَقْرَضَ ، فَإِنْ أُعْطِيَ . . فَيُتَصَوَّرُ لَهُ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ :

أَحَدُهَا : أَنْ يُمَزَجَ الرِّيَاءُ بِالْحَيَاءِ ، بِأَنْ يَهْيَجَ الْحَيَاءُ ، فَيَقْبَحَ عِنْدَهُ الرَّدُّ ، فَيَهْيَجُ خَاطِرُ الرِّيَاءِ ، وَيَقُولُ : يَنْبَغِي أَنْ تُعْطِيَ حَتَّى يُثْنِيَ عَلَيْكَ وَيَحْمَدَكَ ، وَيَنْشُرَ اسْمَكَ بِالسَّخَاءِ ، أَوْ يَنْبَغِي أَنْ تُعْطِيَ حَتَّى لَا يَذُمَّكَ وَلَا يَنْسَبَكَ إِلَى الْبَخْلِ ، فَإِذَا أُعْطِيَ . . فَقَدْ أُعْطِيَ بِالرِّيَاءِ ، وَكَانَ الْمَحْرُكُ لِلرِّيَاءِ هُوَ هَيْجَانُ الْحَيَاءِ .

الثَّانِي : أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ الرَّدُّ بِالْحَيَاءِ وَيَبْقَى فِي نَفْسِهِ الْبَخْلُ ، فَيَتَعَذَّرُ الْإِعْطَاءَ ، فَيَهْيِجُ بَاعْثُ الْإِخْلَاصِ وَيَقُولُ لَهُ : إِنَّ الصَّدَقَةَ بَوَاحِدَةٍ وَالْقَرْضَ بِثَمَانِيَةِ عَشَرَ ، فَفِيهِ أَجْرٌ عَظِيمٌ ، وَإِدْخَالُ سُرُورٍ عَلَى قَلْبِ صَدِيقٍ ، وَذَلِكَ

محمودٌ عندَ اللهِ تعالى ، فتسخرُ النفسُ بالإعطاءِ لذلك ، فهذا مخلصٌ هيَّجَ الحياءُ إخلاصَهُ .

الثالثُ : ألا يكونَ لَهُ رغبةٌ في الثوابِ ، ولا خوفٌ مِنْ مَذَمَّتِهِ ، ولا حُبٌّ لمحمدتِهِ ؛ لأنَّهُ لو طلبَهُ مراسلةً.. لكانَ لا يعطيه ، فأعطاهُ بمحضِ الحياءِ ، وهو ما يجدُهُ في قلبِهِ مِنْ أَلَمِ الحياءِ ، ولولا الحياءُ.. لردَّهُ ، ولو جاءَهُ مَنْ لا يستحي مِنْهُ مِنَ الأَجَانِبِ أو الأَرَاذِلِ.. لكانَ يردُّهُ وإنْ كَثُرَ الحمدُ والثوابُ فِيهِ ، فهذا مجردُ الحياءِ ، ولا يكونُ هَذَا إلا في القَبَائِحِ ؛ كالْبَخْلِ ومقارفةِ الذنوبِ ، والمرائي يستحي مِنْ المباحاتِ أيضاً ، حتَّى إِنَّهُ يُرى مستعجلاً في المشي فيعودُ إلى الهدوءِ ، أو ضاحكاً فيرجعُ إلى الانقباضِ ، ويزعمُ أَنَّ ذلكَ حياءٌ ، وهو عَيْنُ الرياءِ .

وقد قيلَ : إِنَّ بعضَ الحياءِ ضعفٌ ، وهو صحيحٌ ، والمرادُ بِهِ الحياءُ ممَّا ليسَ بقبيحٍ ؛ كالحياءِ مِنْ وعظِ الناسِ ، وإمامةِ الناسِ في الصلاةِ ، وهو في النساءِ والصبيانِ محمودٌ ، وفي العقلاءِ غيرُ محمودٍ ، وقد تشاهدُ معصيةً مِنْ شيخٍ فتستحي مِنْ شيبَتِهِ أَنْ تنكرَ عَلَيْهِ ؛ لأنَّ مِنْ إجلالِ اللهِ إجلالَ ذِي الشَّيْبَةِ المسلمِ ، وهذا الحياءُ حسنٌ ، وأحسنُ مِنْهُ أَنْ تستحييَ مِنْ اللهِ فلا تضيعَ الأمرَ بالمعروفِ ، فالقويُّ يؤثرُ الحياءَ مِنْ اللهِ على الحياءِ مِنْ الناسِ ، والضعيفُ قد لا يقدرُ عَلَيْهِ^(١) .

(١) الرعاية (ص ٢٨٣) .

فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب .



الثامن : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجريء عليه غيره ويقتدي به ، وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة ، وهو القدوة ، ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدي به ، وبهذه العلة ينبغي أن يخفي العاصي أيضاً معصيته عن أهله وولديه ؛ لأنهم يتعلمون منه .

ففي ستر الذنب هذه الأعداء الثمانية ، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع . . كان مراثياً ؛ كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة .



فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه ، وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس ، قال : « ازهذ في الدنيا يحبك الله ، وابذ إليهم هذا الحطام يحبوك » ؟ (١) .

فنتقول : حبك لحب الناس لك قد يكون مباحاً ، وقد يكون محموداً ، وقد يكون مذموماً ، فالمحمود : أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك ،

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٣٣) .

فإنه تعالى إذا أحب عبداً.. حَبَّه في قلوب عبادِهِ ، والمذمومُ : أن تحبَّ
حَبَّهُمْ وحمدَهُمْ على حَجِّكَ وغزوكَ وصلاتِكَ وعلى طاعةِ بعينِها ، فإنَّ ذلكَ
طلبُ عوضٍ على طاعةِ الله عاجلاً سوى ثوابِ الله ، والمباحُ : أن تحبَّ أن
يحبُّوكَ لصفاتٍ محمودَةٍ سوى الطاعاتِ المحمودَةِ المعينَةِ ، فحبُّكَ ذلكَ
كحبِّكَ المالَ ؛ لأنَّ ملكَ القلوبِ وسيلةٌ إلى الأغراضِ كملكِ الأموالِ ، فلا
فرقَ بينهما .



بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلم : أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتْرُكُ الْعَمَلَ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَكُونَ مَرَاتِباً بِهِ ، وَذَلِكَ غُلْطٌ وَمُوَافَقَةٌ لِلشَّيْطَانِ ، بَلِ الْحَقُّ فِيمَا يُتْرَكُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَا لَا يُتْرَكُ لَخَوْفِ الْآفَاتِ مَا نَذَكْرُهُ .

وهو أنَّ الطاعات تنقسم :

إِلَى مَا لَا لَذَّةَ فِي عَيْنِهِ : كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْغَزْوِ ، فَإِنَّهَا مَقَاسَاةٌ وَمَجَاهِدَاتٌ إِنَّمَا تُصِيرُ لَذِيذَةً مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تُوَصِّلُ إِلَى حَمْدِ النَّاسِ ، وَحَمْدُ النَّاسِ لَذِيذٌ ، وَذَلِكَ عِنْدَ إِطْلَاعِ النَّاسِ عَلَيْهَا .

وإِلَى مَا هُوَ لَذِيذٌ : وَهُوَ أَكْثَرُ مَا لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْبَدَنِ ، بَلْ يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ ؛ كَالْخُلَافَةِ ، وَالْقَضَاءِ ، وَالْوِلَايَاتِ ، وَالْحُسْبَةِ ، وَإِمَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَالتَّذْكِيرِ ، وَالتَّدْرِيسِ ، وَإِنْفَاقِ الْمَالِ عَلَى الْخَلْقِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَعْظُمُ الْآفَةُ فِيهِ ؛ لِتَعَلُّقِهِ بِالْخَلْقِ ، وَلَمَّا فِيهِ مِنَ اللَّذَّةِ .



الْقِسْمُ الْأَوَّلُ : الطَّاعَاتُ اللَّازِمَةُ لِلْبَدَنِ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِالْغَيْرِ وَلَا لَذَّةٌ فِي عَيْنِهَا :

كَالصَّوْمِ ، وَالصَّلَاةِ ، وَالْحَجِّ ، فَخَطَرَاتُ الرِّيَاءِ فِيهَا ثَلَاثٌ :

إِحْدَاها : مَا يَدْخُلُ قَبْلَ الْعَمَلِ ، فَيُبْعَثُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ لِرُؤْيَةِ النَّاسِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ بَاعْثُ الدِّينِ ، فَهَذَا مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُتْرَكَ ؛ لِأَنَّهُ مُعْصِيَةٌ لَا طَاعَةَ

فيه ، فإنه تدرّع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة ، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ، ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك ؟! لا تسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عبادته ؟! حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله ؛ عقوبة للنفس على خاطر الرياء ، وكفارة له ، فليشتغل بالعمل .

الثانية : أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها ، فلا ينبغي أن يترك العمل ؛ لأنه وجد باعثاً دينياً ، فليشرع في العمل ، وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحصيل الإخلاص بالمعالجة التي ذكرناها ؛ من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول .

الثالثة : أن يعقد على الإخلاص ، ثم يطرأ الرياء ودواعيه ، فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل ، لكن يرجع إلى عقد الإخلاص ، ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتم العمل ؛ لأن الشيطان يدعوك أولاً إلى ترك العمل ، فإذا لم تجب واشتغلت . . فيدعوك إلى الرياء ، فإذا لم تجب ودفعته . . يقول لك : هذا العمل ليس بخالص ، وأنت مُراءٍ ، وتعبك ضائع ، فأئي فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه ؛ حتى يحملك بذلك على ترك العمل ، فإذا تركته . . فقد حصل غرضه .

ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرئياً ؛ كمن سلم إليه مولاة حنطة فيها زوان^(١) وقال : خلصها من الزوان ونقها منه تنقية بالغة ، فيترك أصل

(١) وهو حب يخالط البر فيكسبه الرداءة . « إتحاف » (٣١١ / ٨) .

العمل ويقول : أخاف إن اشتغلتُ به .. لم تخلص خلاصاً صافياً نقياً ،
فترك العمل من أصله ، وهو ترك للإخلاص مع أصل العمل ، فلا معنى
له .

ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفاً من الناس أن يقولوا : (إنَّه مرءٍ)
فيعصون الله به ، فهذا من مكاييد الشيطان ؛ لأنَّه أولاً أساء الظنَّ
بالمسلمين ، وما كان من حقِّه أن يظنَّ بهم ذلك ، ثم إن كان .. فلا يضرُّه
قولهم ، ويفوته ثواب العبادَةِ ، وترك العمل خوفاً من قولهم : (إنَّه مرءٍ)
هو عينُ الرياء ، فلولا حبُّه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم .. فما له
ولقولهم^(١) ، قالوا : (إنَّه مرءٍ) أو قالوا : (إنَّه مخلصٌ) ؟ فأبى فرق بين
أن يترك العمل خوفاً من أن يُقال : (إنَّه مرءٍ) ، وبين أن يحسن العمل خوفاً
من أن يُقال : (إنَّه غافلٌ مقصّرٌ) ؟ ! بل ترك العمل أشدَّ من ذلك .

فهذه كلها مكاييد الشيطان على العبادِ الجهَّالِ .

ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل ، والشيطان
لا يخليه ، بل يقول له : (الآن يقول الناس : إنَّك تركت العمل ليُقال :
إنَّك مخلصٌ لا تشتهي الشهرة) ، فيضطرك بذلك إلى أن تهرب ، فإن
هربت ودخلت سرباً تحت الأرض .. ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس

(١) في هامش (ب) : (نسخة : لما سأل عنهم ، فما له ولقولهم) .

بتزهدك وهربك منهم ، وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك ، فكيف تتخلص ؟ بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء ، وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا ؛ لتلزم الكراهة والإباء قلبك ، وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي وإن نزع العدو ونزع الطبع ؛ فإن ذلك لا ينقطع ، وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات .

فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل ، وجاهد خاطر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله تعالى إذا دعيت نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك ، ولو اطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم . . لمقتوك ، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك . . فافعل ، فإن قال لك الشيطان : أنت مرء . . فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه ، وخوفك منه وحيائك من الله تعالى .

وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني ، بل تجرد باعث الرياء . . فاترك العمل عند ذلك ، وهو بعيد ممن شرع في العمل لله ، فإنه لا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب .



فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة ، روي أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ ، فأطبق المصحف وترك القراءة

وقال : (لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة)^(١) .

وقال إبراهيم التيمي : (إذا أعجبك الكلام .. فاسكت ، وإذا أعجبك السكوت .. فتكلم)^(٢) .

وقال الحسن : (إن كان أحدكم ليمر بالأذى على الطريق ما يمنعه من رفعه إلا كراهة الشهرة ، وكان أحدكم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة)^(٣) .

وقد ورد في ذلك آثار كثيرة .

قلنا : هذا يعارضه ما ورد في إظهار الطاعات مما لا يحصى ، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء ، وإمالة الأذى عن الطريق نفل ، ثم لم يتركه^(٤) .

وبالجملة : ترك النوافل جائز ، والكلام في الأفضل ، والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء ، فالأفضل أن يتم العمل ويجتهد في الإخلاص ، ولا يتركه ، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل ؛ لشدة الخوف ، والافتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء .

(١) الرعاية (ص ٢٦٦) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٦٩٨) عن بشر بن الحارث الحافي .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨) .

(٤) أي : لم يثبت عنه الترك ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٣١٢ / ٨) : (يقل) بدل (نفل) .

وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف.. فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستئنافها بعد خروجه ؛ للاشتغال بمكالمته ، فرأى ألا يراه في القراءة أبعد عن الرياء ، وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك .

وأما ترك رفع الأذى عن الطريق.. فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة ، وإقبال الناس عليه ، وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشية من الطريق ، فيكون تركه للمحافظة على عبادات هي أعظم منه ، لا لمجرد خوف الرياء .

وأما قول التيمي : (إذا أعجبك الكلام.. فاسكت) فيجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام ؛ كالفصاحة في الحكايات وغيرها ، فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور ، فهو عدول من مباح إلى مباح ؛ حذراً من العجب ، فأما الكلام الحق المندوب إليه.. فلم ينص عليه على أن الآفة مما تعظم في الكلام ؛ فهو واقع في القسم الثاني ، وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ، ولا تعظم فيه الآفات ، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى ؛ لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ، ولا يدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تخويفاً للناس من آفة الشهرة ، وزجراً عن طلبها .

القسم الثاني : ما يتعلق بالخلق ، وتعظم فيه الآفات والأخطار :

وأعظمها الخلافة ، ثم القضاء ، ثم التذكير والتدريس والفتوى ، ثم إنفاق المال .

أما الخلافة والإمارة . فهي من أفضل العبادات إذا كانت مع العدل والإخلاص ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً »^(١) ، فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة !

وقال صلى الله عليه وسلم : « أول من يدخل الجنة ثلاثة » ، الإمام المقسط أحدهم^(٢) .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ترد دعوتهم » الإمام العادل أحدهم^(٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل » ، رواه أبو سعيد الخدري^(٤) .

فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات ، ولم يزل المتقون يحترزون منها

(١) تقدم قريباً .

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) ، وليس فيه ذكر الأولية ، بل هي عند الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٧٤) .

(٣) رواه الترمذي (٢٥٢٦) ، وابن ماجه (١٧٥٢) .

(٤) رواه الترمذي (١٣٢٩) .

ويتركونها ويهربون من تقلدِها ؛ وذلك لما فيه من عظم الخطر ؛ إذ تتحرَّكُ بها الصفاتُ الباطنة ، ويغلبُ على النفسِ حبُّ الجاهِ ولذَّةُ الاستيلاءِ ونفاذُ الأمرِ ، وهوَ أعظمُ ملاذِّ الدنيا ، فإذا صارتِ الولايةُ محبوبَةً . . كانَ الوالي ساعياً في حظِّ نفسه ، ويوشكُ أن يتَّبَعَ هواهُ ، فيمتنعَ من كلِّ ما يقدحُ في جاهِهِ وولايَتِهِ وإن كانَ حقّاً ، ويقدمُ على ما يزيدُ في مكانَتِهِ وإن كانَ باطلاً ، وعندَ ذلكَ يهلكُ ، ويكونُ يومٌ من سلطانِ جائرٍ شراً من فسقِ ستينَ سنةً ؛ بمفهومِ الحديثِ الذي ذكرناه !

ولهذا الخطرُ العظيمُ كانَ عمرُ رضي الله عنه يقولُ : (مَنْ يأخذُها بما فيها ؟ !) (١) .

وكيفَ لا وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ما مِنْ والي عشرةٍ إلا جاءَ يومَ القيامةِ مغلولةٌ يداهُ إلى عنقِهِ ، أطلقَهُ عدلُهُ أو أوبقَهُ جورُهُ » ، رواه معقلُ بنُ يسارٍ (٢) .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨٠ / ٢) ضمن خبر طويل .

(٢) رواه ابنُ أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢٢٢) عن معقل بن يسار رضي الله عنه بلفظ : « ليس من وال يلي أمة قلت أو كثرت لا يعدل فيها . . إلا أكبه الله على وجهه في النار » ، وأصله عند البخاري (٧١٥٠) ، ومسلم (١٤٢) ، ولفظه : « ما من عبد استرعه الله رعية ، فلم يحطها بنصيحة . . إلا لم يجد رائحة الجنة » . والحديث بلفظ المصنف رواه أحمد في « مسنده » (٤٣١ / ٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٦٥٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٨ / ٦) من حديث ثوبان رضي الله عنه ، ورواه أحمد في « مسنده » (٢٨٤ / ٥) من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه .

وولاهُ عمرُ رضي الله عنه ولايةً^(١) ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أشر عليّ ، قال : اجلس واكتم عليّ^(٢) .

وروى الحسنُ أنَّ رجلاً ولّاهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فقال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : خزلي ، قال : « اجلس »^(٣) .

وكذلك حديثُ عبد الرحمن بن سمرة ؛ إذ قال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الرحمن ؛ لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أوتيتها من غير مسألة .. أعنت عليها ، وإن أوتيتها عن مسألة .. وكلت إليها »^(٤) .

وقال أبو بكرٍ رضي الله عنه لرافع بن عمر : (لا تأمُر على اثنين) ، ثم وليَ هو الخلافة ، فقام بها ، فقال له رافعٌ : ألم تقل لي : (لا تأمُر على اثنين) وأنت قد وليت أمر أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟! فقال : بلى ، وأنا أقول لك ذلك ؛ فمن لم يعدل فيها .. فعليه بهلة الله ؛ يعني : لعنة الله^(٥) .

ولعلَّ القليلَ البصيرة يرى ما وردَ في فضل الإمارة مع ما وردَ من النهي

(١) أي : معقل بن يسار رضي الله عنه ، وفي « الرعاية » (ص ٢٧٢) : (وولى عمر رجلاً) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١٦) ولم يصرح باسم المؤمر .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١٧) .

(٤) رواه البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٢١/٥) .

عنها متناقضاً ، وليس كذلك ، بل الحق فيه : أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا ، وأعني بالقوي : الذي لا تميله الدنيا ، ولا يستفزّه الطمع ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق من أعينهم ، وزهدوا في الدنيا وتبرّموا بها وبمخالطة الخلق ، وقهروا أنفسهم وملكوها ، وقمعوا الشيطان فأيس منهم ، فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق ، ولا يسكنهم إلا الحق ، ولو زهقت فيه أرواحهم ، فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة ، ومن علم أنه ليس بهذه الصفة . . فيحرم عليه الخوض في الولايات .

ومن جرب نفسه فراها صابرة على الحق ، كافة عن الشهوات في غير الولاية ، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاق لذّة الولاية ، وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكرة العزل ، فيداهن خيفة من العزل . . فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية ؟

فقال قائلون : لا يجب ؛ لأن هذا خوف أمر في المستقبل ، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوتاً في ملازمة الحق وترك لذات النفس .

والصحيح : أن عليه الاحتراز ؛ لأن النفس خداعة ، مدّعية للحق ، واعدة بالخير ، فلو وعدت بالخير جزماً . . لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية ، فكيف إذا أظهرت التردّد ؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع ، فالعزل مؤلم ، وهو كما قيل : طلاق الرجال ، فإذا

شرع. . لا تسمعُ نفسهُ بالعزلِ ، وتميلُ نفسهُ إلى المداهنة وإهمالِ الحقِّ ، وتهوي به في قعرِ جهنَّمَ ، ولا يستطيعُ النزوعَ منها إلى الموتِ ، إلا أن يُعزلَ قهراً ، وكانَ فيه عذابٌ عاجلٌ على كلِّ مَنْ يحبُّ الولايةَ ، ومهما مالتِ النفسُ إلى طلبِ الولايةِ ، وحملتْ على السؤالِ والطلبِ . . فهو أمارَةُ الشرِّ ، ولذلك قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إِنَّا لَا نُوَلِّي أَمْرَنَا مَنْ سَأَلَنَا »^(١) .

فإذا فهمتَ اختلافَ حكمِ القويِّ والضعيفِ . . عرفتَ أن نهيَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه لرافعٍ عن الولايةِ ثمَّ تقلَّدهُ لها ليسَ بمتناقضٍ .

وأما القضاءُ . . فهو وإن كانَ دونَ الخلافةِ والإمارةِ فهو في معناهما ، فإنَّ كلَّ ذي ولايةٍ أميرٌ ؛ أي : له أمرٌ نافذٌ ، والإمارةُ محبوبَةٌ بالطبع ، والثوابُ في القضاءِ عظيمٌ مع اتباعِ الحقِّ ، والعقابُ فيه أيضاً عظيمٌ مع العدولِ عن الحقِّ ، وقد قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « القضاءُ ثلاثةٌ ، واحدٌ في الجنةِ ، واثنانِ في النارِ »^(٢) .

وقالَ : « مَنْ استقضى . . فقد ذُبِحَ بغيرِ سكينٍ »^(٣) .

(١) رواه البخاري (٧١٤٩) ، ومسلم (١٧٣٣) .

(٢) رواه أبو داود (٣٥٧٣) ، والترمذي (١٣٢٢/م) ، والنسائي في « الكبرى » (٥٨٩١) ، وابن ماجه (٢٣١٥) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٢٧٣) ، وبلغظه رواه محمد بن خلف في « أخبار القضاء » (١٣/١) ، وبنحوه رواه أبو داود (٣٥٧١) ، والترمذي (١٣٢٥) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٥٨٩٢) ، وابن ماجه (٢٣٠٨) .

فحكمه حكم الإمارة ، ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه ، وليقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم .

ومهما كان السلاطين ظلماً ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداحتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم ؛ إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه ، أو لم يطيعوه . . . فليس له أن يتقلد القضاء ، وإن تقلده . . . فعليه أن يطالبهم بالحقوق ، ولا يكون خوف العزل عذراً مرخصاً له في الإهمال أصلاً ، بل إذا عزل . . . سقطت العهدة عنه ، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله ، فإن لم تسمح نفسه بذلك . . . فهو إذا يقضي لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثواباً وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار ؟!

وأما الوعظ ، والفتوى ، والتدريس ، ورواية الحديث ، وجمع الأسانيد العالية ، وكل ما يتسع بسببه الجاه ، ويعظم به القدر . . . فأفته أيضاً عظمة مثل آفة الولايات .

وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلاً .

وكانوا يقولون : (« حدثنا » باب من أبواب الدنيا ، ومن قال : « حدثنا » . . . فقد قال : أوسعوا لي)^(١) .

ودفن بشر كذا وكذا قمطرة من الحديث ، وقال : (يمنعني من الحديث

(١) قوت القلوب (١ / ١٣٥) ، والقاتل هو بشر بن الحارث .

أني أشتهي أن أحدث ، ولو اشتييت ألا أحدث .. لحدث (١) .

والواعظُ يجدُ في وعظه وتأثيرِ قلوبِ الناسِ به وتلاحقِ بكائهم وزَعَقَاتِهِمْ وإقبالِهِمْ عليه لذة لا توازيها لذة ، فإذا غلبَ ذلكَ على قلبه .. مالَ قلبُه إلى كلِّ كلامٍ مزخرفٍ يروجُ عندَ العوامِّ وإن كان باطلاً ، ويفرُّ عن كلِّ كلامٍ يستقلُّه العوامُّ وإن كان حقاً ، ويصيرُ مصروفَ الهمة بالكلية إلى ما يحركُ قلوبَ العوامِّ ، ويعظمُ منزلته في قلوبِهِمْ ، فلا يسمعُ حديثاً وحكمةً إلا ويكونُ فرحُه بها من حيثُ إنَّه يصلحُ لأن يذكره على رأسِ المنبر ، وكان ينبغي أن يكونَ فرحُه بها من حيثُ إنَّه عرفَ طريقَ السعادة ، وطريقَ سلوكِ سبيلِ الدين ؛ ليعملَ به أولاً ، ثم يقولَ : إذا أنعمَ اللهُ عليَّ بهذه النعمة ، ونفعني بهذه الحكمة .. فأقضِّها ؛ ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون .

فهذا أيضاً ممَّا يعظمُ فيه الخوفُ والفتنة ، فحكمُ الولاياتِ ؛ فمن لا باعثَ له إلا طلبُ الجاهِ والمنزلةِ والأكلُ بالدينِ والتفاخرُ والتكاثرُ به .. فينبغي أن يتركه ويخالفَ الهوى فيه إلى أن ترتاضَ نفسه ، وتقوى في الدين مُنتهً ، ويأمنَ على نفسه الفتنة ، فعندَ ذلكَ يعودُ إليه .



فإن قلتَ : مهما حُكمَ بذلكَ على أهلِ العلمِ .. تعطلتِ العلومُ واندرست ، وعمَّ الجهلُ كافةَ الخلقِ .

(١) قوت القلوب (١/١٥٦) .

فنقول : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة وتوعد عليها ، حتى قال : « إنكم تحرصون على الإمارة ، وإنها حسرة يوم القيامة وندامة ، إلا من أخذها بحقها »^(١) ، وقال : « نعمت المرضعة وبست الفاطمة »^(٢) ، ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت . . لبطل الدين والدنيا جميعاً ، وثار القتال بين الخلق ، وزال الأمن وخربت البلاد ، وبطلت المعاش ، فلم نهى عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب حين رأى قوماً يتبعونه وهو في ذلك يقول : (أبي سيّد المسلمين)^(٣) ، وكان يقرأ عليه القرآن ، فمنع من أن يتبعوه ، وقال : (ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع)^(٤) ، وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه .

واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه ، فقال : أتمنعني من نصيح الناس ؟ فقال : أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الشريا^(٥) ، إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق .

- (١) رواه البخاري (٧١٤٨) ، وليس فيه : « إلا من أخذها بحقها » ، وهي عند مسلم (١٨٢٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .
- (٢) هو قطعة من الحديث المتقدم عند البخاري (٧١٤٨) ، وفصلهما المصنف تبعاً لصاحب « الرعاية » (ص ٢٧١) .
- (٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٤٧٦) .
- (٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) برواية نعيم بن حماد ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣٠٣) .
- (٥) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١٨/١) بنحوه .

والقضاء والخلافة ممّا يحتاجُ الناسُ إليه في دينهم ؛ كالوعظِ والتدريسِ والفتوى ، وفي كلّ واحدٍ منهما فتنةٌ ولذةٌ ، فلا فرقَ بينهما .

فأمّا قولُ القائلِ : نهيكَ عن ذلكَ يؤدي إلى اندراسِ العلمِ . . فهو غلطٌ ؛ إذ نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤدِّ إلى تعطيلِ القضاء^(١) ، بل الرئاسةُ وحبُّها يضطرُّ الخلقَ إلى طلبِها ، وكذلك حبُّ الرئاسةِ لا يتركُ العلومَ تدرسُ ، بل لو حبسَ الناسُ وقيدوا بالسلاسلِ والأغلالِ عن طلبِ العلومِ التي فيها القبولُ والرئاسةُ . . لأفلتوا من الحبسِ وقطعوا السلاسلَ وطلبوها ، وقد وعدَ الله أن يؤيِّدَ هذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهم ، فلا تشغلُ قلبكَ بأمرِ الناسِ ، فإنَّ اللهَ لا يضيّعُهم ، وانظرْ لنفسِكَ .

ثمَّ إني أقولُ مع هذا : إذا كانَ في البلدِ جماعةٌ يقومونَ بالوعظِ مثلاً . . فليسَ في النهيِ عنه إلا امتناعُ بعضهم ، وإلا . . فيعلمُ أن كلَّهم لا يمتنعون ، ولا يتركونَ لذةَ الرئاسةِ ، فإن لم يكنْ في البلدِ إلا واحدٌ ، وكانَ وعظه نافعاً للناسِ من حيثُ حسنُ كلامِهِ ، وحسنُ سمتهِ في الظاهرِ ، وتخيلُهُ إلى العوامِّ أنَّه إنما يريدُ اللهَ بوعظه ، وأنه تاركٌ للعالمِ ومعرضٌ عنها . . فلا نمنعه منه ، ونقولُ له : اشتغلْ وجاهدْ نفسك ، فإن قال : لستُ أقدرُ على نفسي ، فنقولُ له : اشتغلْ وجاهدْ ؛ لأنَّا نعلمُ أنَّه لو تركَ ذلكَ . . لهلكَ الناسُ

(١) إذ روى مسلم (١٨٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال يتيم » .

كُلُّهُمْ ؛ إِذْ لَا قَائِمَ بِهِ غَيْرُهُ ، وَلَوْ وَاطَبَ وَغَرَضُهُ الْجَاهُ .. فَهُوَ الْهَالِكُ وَحْدَهُ ، وَسَلَامَةُ دِينِ الْجَمِيعِ أَحَبُّ عِنْدَنَا مِنْ سَلَامَةِ دِينِهِ وَحْدَهُ ، فَجَعَلُهُ فِدَاءً لِلْقَوْمِ ، وَنَقُولُ : لَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَقَ لَهُمْ »^(١) .

ثُمَّ الْوَاعِظُ هُوَ الَّذِي يَرُغِبُ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُزْهِدُ فِي الدُّنْيَا بِكَلَامِهِ وَبظَاهِرِ سِيرَتِهِ ، فَأَمَّا مَا أَحْدَثَهُ الْوَاعِظُ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ ؛ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمَزْخَرَةِ ، وَالْأَلْفَافِ الْمَسْجُوعَةِ الْمَقْرُونَةِ بِالشُّعَارِ ، مِمَّا لَيْسَ فِيهِ تَعْظِيمٌ لِأَمْرِ الدِّينِ وَتَخْوِيفٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، بَلْ فِيهِ التَّرْجِيءُ وَالتَّجَرُّعُ عَلَى الْمَعَاصِي بِطَيَّارَاتِ النَّكْتِ^(٢) .. فَيَجِبُ إِخْلَاءُ الْبِلَادِ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ نَوَاطِلُ الدِّجَالِ وَخُلَفَاءُ الشَّيْطَانِ ، وَإِنَّمَا كَلَامُنَا فِي وَاعِظٍ حَسَنِ الْوَعِظِ ، جَمِيلٍ الظَّاهِرِ ، يَبْطُنُ فِي نَفْسِهِ حُبُّ الْقَبُولِ وَلَا يَقْصُدُ غَيْرَهُ .

وَفِيمَا أوردناه فِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِنَ الْوَعِيدِ الْوَارِدِ فِي حَقِّ عُلَمَاءِ السُّوءِ مَا يَبَيِّنُ لَزُومَ الْحَذَرِ مِنْ فِتَنِ الْعِلْمِ وَغَوَائِلِهِ ، وَلَقَدْ قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (يَا عُلَمَاءَ السُّوءِ ؛ تَصُومُونَ وَتَصَلُّونَ وَتَتَصَدَّقُونَ ، وَلَا تَفْعَلُونَ مَا تَأْمُرُونَ ، وَتَدْرُسُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ، فَيَا سَوْءَ مَا تَحْكُمُونَ ، تَتُوبُونَ بِالْقَوْلِ وَالْأَمَانِيِّ ،

(١) رواه النسائي في « الكبرى » (٨٨٣٤) .

(٢) طيارات النكت : النكت النوادر الغريبة المهيجة للأوصاف المستكنة في الضمائر ، مما يكون باعثاً على آفاته غرض شيطاني . « إتحاف » (٣١٨ / ٨) .

وتعملون بالهوى ، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنساً ؟ !
 بحق أقول لكم : لا تكونوا كالمُنخل ؛ يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى
 فيه النخاله ، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في
 صدوركم .

يا عبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ،
 ولا تنقطع منها رغبته ؟ !

بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبكي من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت
 ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم .

بحق أقول لكم : أفسدتُم آخرتكم بصلاح دنياكم ، فصلاح الدنيا أحب
 إليكم من صلاح الآخرة ، فأئي ناسٍ أحسن منكم ؟ ! لو تعلمون ، ويلكم ،
 حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلة المتجبرين ؛
 كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركوها لكم ، مهلاً مهلاً ويلكم ، ماذا يغني
 عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ؟ !
 كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة
 معطلة .

يا عبيد الدنيا ؛ لا كعبيد أتقياء ، ولا كأحرار كرام ، توشك الدنيا أن
 تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم
 تأخذ خطاياكم بنواصيكم ؛ ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلمكم إلى

الملك الديان حفاة عراة فرادى ، فيوقفكم على سوء اتكم ، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم (١) .

وقد روى الحارث المحاسبى هذا الحديث في بعض كتبه ، ثم قال :
(هؤلاء علماء السوء ، شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا ، فهم في العاجل عارّ وشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون) .



فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ، ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من الدنيا وما فيها » (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه . . كان له أجره وأجر من اتبعه » (٣) ، إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغي أن يقال للعالم : اشتغل بالعلم واترك وراءك الخلق ، كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة : لا تترك العمل ، ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك .

(١) مجمل أقوال سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩ / ٦٨) ، (٤٦٠ / ٤٧) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧٥) بلفظه ، وأصله في « البخاري » (٣٧٠١) ، و« مسلم » (٢٤٠٦) .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٥) .

فاعلم : أن فضل العلم كثير ، وخطره عظيم ؛ كفضل الخلافة والإمارة ، ولا نقول لأحد من عباد الله : اترك العلم ؛ إذ ليس في نفس العلم آفة ، وإنما الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الأحاديث ، ولا نقول له أيضاً : اتركه ما دام يجد في نفسه باعثاً دينياً ممزوجاً بباعث الرياء .

فأما إذا لم يحركه إلا الرياء .. فترك الإظهار أنفع له وأسلم ، وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء .. وجب تركها ، أمّا إذا خطرَتْ له وساوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره .. فلا يترك الصلاة ؛ لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم في الولايات ، وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم .



وبالجملة : فالمراتب ثلاث :

الأولى : الولايات ، والآفات فيها عظيمة ، وقد تركها جماعة من السلف خوفاً من الآفة .

الثانية : الصوم ، والصلاة ، والحج ، والغزو ، وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ، ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة ، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها ، والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة .

الثالثة : وهي متوسطة بين الرتبين ، وهي التصدي لمنصب الوعظ

والفتوى والرواية والتدريس ، والآفات فيها أقل ممّا في الولايات وأكثر ممّا في الصلوات ؛ فالصلاة ينبغي ألا يتركها الضعيف والقوي ، ولكن يدفع خاطر الرياء ، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء ، ومناصب العلم بينهما ، ومن جرب آفات منصب العلم . . علم أنه بالولايات أشبه ، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم ، والله أعلم .

وهلها رتبة رابعة : وهي جمع المال وأخذة للفرقة على المستحقين ، فإن في الإنفاق وإظهار السخاء استجلاباً للثناء ، وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس ، والآفات فيها أيضاً كثيرة ، ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدّق به ، فقال : (القاعد أفضل)^(١) ؛ لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى .

وقال أبو الدرداء : (ما يسرّني أني أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين ديناراً أتصدق بها ، أما إنني لا أحرّم البيع والشراء ، ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)^(٢) .

وقد اختلف العلماء^(٣) ؛ فقال قوم : إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدّق بها . . فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل ، وقال

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٢٧٣) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٧) .

(٣) أورد الخلاف الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٧٥) .

قومٌ : الجلوسُ في دوامِ ذكرِ اللهِ أفضلُ ، والأخذُ والعطاءُ يشغلُ عن ذكرِ اللهِ ، وقد قالَ عيسى عليه السلامُ : (يا طالبَ الدنيا لتبرَّ بها ؛ تركك لها أبرُّ)^(١) ، وقالَ : أقلُّ ما فيه أنَّه يشغلهُ إصلاحُه عن ذكرِ اللهِ ، وذكرِ اللهِ أفضلُ وأكبرُ ، وهذا فيمنَ سلمَ مِنَ الآفاتِ .

فأما مَنْ يتعرَّضُ لآفةِ الرياءِ .. فتركُه لها أبرُّ ، والاشتغالُ بالذكرِ لا خلافَ في أنَّه أفضلُ .

وبالجملة : ما يتعلَّقُ بالخلقِ وللنفسِ فيه لذَّةٌ .. فهو مثارُ الآفاتِ ، والأحبُّ أنْ يعملَ ويدفعَ الآفةَ ، فإنْ عجزَ . فليُنظرْ وليجتهدْ ، وليستفتِ قلبه ، وليزنْ ما فيه مِنَ الخيرِ بما فيه مِنَ الشرِّ ، وليفعلْ ما يدلُّ عليه نورُ العلمِ دونَ ما يميلُ إليه الطبعُ .

وبالجملة : ما يجدهُ أخفُّ على قلبه فهو في الأكثرِ أضرُّ عليه ؛ لأنَّ النفسَ لا تشيرُ إلا بالشرِّ ، وقلَّما تستلذُّ الخيرَ وتميلُ إليه ، وإنْ كانَ لا يبعدُ ذلكَ أيضاً في بعضِ الأحوالِ ، وهذه أمورٌ لا يمكنُ الحكمُ على تفاصيلِها بنفي وإثباتٍ ، فهو موكولٌ إلى اجتهدِ القلبِ لينظرَ فيه لدينه ، ويدعَ ما يريه إلى ما لا يريه .

ثمَّ قد يقعُ ممَّا ذكرناه غرورٌ للجاهلِ ، فيمسكُ المالَ ولا ينفقهُ خيفةً مِن

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨ / ٩٠) ، والمعنى : يا من يطلب الدنيا ليكون باراً ببذلها ، فهو لا يطلبها لذاتها ؛ إن تركك لها أبرُّ من برك بها .

الآفة ، وهو عينُ البخلِ ، ولا خلافَ في أنَّ تفرقةَ المالِ في المباحاتِ فضلاً عن الصدقاتِ أفضلُ مِنْ إمساكِه ، وإنَّما الخلافُ فيمَنْ يحتاجُ إلى الكسبِ أنَّ الأفضلَ الكسبُ^(١) والإنفاقُ أو التجردُ للذكرِ ، وذلكَ لما في الكسبِ مِنْ الآفاتِ ، فأما المالُ الحاصلُ مِنْ الحلالِ .. فتفرقتهُ أفضلُ مِنْ إمساكِه بكلِّ حالٍ .



فإن قلتَ : فبأيِّ علامةٍ تعرفُ العالمَ والواعظَ أنَّه صادقٌ مخلصٌ في وعظهٍ غيرُ مریدٍ رياءِ الناسِ ؟

فاعلمُ : أنَّ لذلكَ علاماتٍ :

إحداها : أنَّه لو ظهرَ مَنْ هو أحسنُ منه وعظاً أو أغزرُ منه علماً والناسُ له أشدُّ قبولاً .. فرحَ به ولم يحسدهُ ، نعم ، لا بأسَ بالغبطةِ ، وهو أن يتمنى لنفسه مثلَ علمه .

والأخرى : أنَّ الأكابرَ إذا حضروا مجلسه .. لم يتغيرَ كلامه .

بل بقي كما كان عليه ، فينظرُ إلى الخلقِ بعينٍ واحدةٍ .

والأخرى : ألا يحبَّ اتباعَ الناسِ له في الطريقِ والمشى خلفه في الأسواقِ .

ولذلكَ علاماتٌ كثيرةٌ يطولُ إحصاؤها .

(١) في غير (د) : (الأفضل ترك الكسب) .

وقد روي عن سعيد بن أبي مروان أنه قال : كنت جالساً إلى جنب الحسن ، إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على بردون أصفر ، فدخل المسجد على بردونه ، فجعل يلتفت في المسجد ، فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن ، فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها ، ثم ثنى وركه ، فنزل ومشى نحو الحسن ، فلما رآه الحسن متوجهاً إليه . . تجافى له عن ناحية مجلسه ، قال سعيد : وتجافيت له أيضاً عن ناحية مجلسي ، حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج ، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه ، والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم ، فما قطع الحسن كلامه .

قال سعيد : فقلت في نفسي : لأبلون الحسن اليوم ، ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه ، أو تحمله هيئة الحجاج أن ينقص من كلامه ؟ فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحواً مما كان يتكلم به في كل يوم ، حتى انتهى إلى آخر كلامه ، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به . . رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ، ثم قال : صدق الشيخ وبر ، فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها خلقاً وعادة ؛ فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن مجالس الذكر رياض الجنة^(١) ، ولولا ما حُمِلناه من أمر الناس . . ما غلبتمونا على هذه المجالس ؛ لمعرفتنا بفضلها ، قال : ثم افتتر الحجاج

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠) .

فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته ، فلما فرغ . . طفق فقام .
فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حين قام الحجاج ، فقال :
عباد الله المسلمين ؛ ألا تعجبوا أنني رجل شيخ كبير ، وأنني أغزى ، فأكلتُ
فرساً وبغلاً ، وأكلتُ فسطاطاً ، وأنني لي ثلاث مئة درهم من العطاء ، وأن
لي سبع بنات من العيال ! فشكا من حاله حتى رق له الحسن وأصحابه ،
والحسن مكب ، فلما فرغ الرجل من كلامه . . رفع الحسن رأسه فقال :
ما لهم قاتلهم الله ! اتخذوا عباد الله خولاً ، ومال الله دولاً ، وقتلوا الناس
على الدينار والدرهم ، فإذا غزا عدو الله . . غزا في الفساطيط الهيبية ،
وعلى البغال السبابة ، وإذا أغزى أخاه . . أغزاه طاوياً راجلاً ، فما فتر
الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدّه .

فقام رجل من أهل الشام كان جالساً إلى الحسن ، فسعى به إلى
الحجاج ، وحكى له كلامه ، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج ،
فقالوا : أجب الأمير ، فقام الحسن ، وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي
تكلم به ، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسّم ، وقلما رأيتُه
فاغراً فاه يضحك ، إنما كان يتبسّم ، فأقبل حتى قعد في مجلسه ، فعظم
الأمانة ، وقال : إنما تجالسون بالأمانة ؛ كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا
في الدينار والدرهم ، إن الخيانة أشدّ الخيانة أن يجالسنا الرجل ، فنطمئن
إلى ناحيته ، ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار ، إنني أتيت هذا
الرجل ، فقال : أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عدو الله . . غزا

كذا ، وإذا أغزى أخاه . . أغزاه كذا ، لا أباك لك ؛ تحرّضُ علينا الناسَ ؟ ! أما
إنّا على ذلك لا نتهمُ لنصيحتك ، فأقصرُ عليك من لسانك ، قال :
فدفعه الله عني .

وركب الحسنُ حماراً يريدُ المنزلَ ، فينما هو يسيرُ إذ التفتَ فرأى قوماً
يتبعونه ، فوقفَ فقال : هل لكم من حاجةٍ أو تسألون عن شيءٍ ؟ وإلا . .
فارجعوا ، فما يبقى هذا من قلبِ العبدِ ؟ !

فهذه العلاماتِ وأمثالها تتبيّنُ سريرةُ الباطنِ ، ومهما رأيتَ العلماءَ
يتغايرونَ ويتحاسدونَ ، ولا يتوانسونَ ولا يتعاونونَ . . فاعلمْ أنّهم قد اشتروا
الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فهمُ الخاسرونَ ، اللهم ؛ ارحمنا بلطفك يا أرحمَ
الراحمينَ .



بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤيته الخلق وما لا يصح

اعلم : أنَّ الرجلَ قد يبيتُ معَ القومِ في موضعٍ ، فيقومونَ للتهجدِ أو يقومُ بعضهم فيصلُّونَ الليلَ كلَّهُ أو بعضَهُ ، وهو ممَّن يقومُ في بيته ساعةً قريبةً ، فإذا رآهمُ . . انبعثَ نشاطُهُ للموافقةِ ، حتَّى يزيدُ على ما كانَ يعتادهُ أو يصليَ معَ أنَّه كانَ لا يعتادُ الصلاةَ بالليلِ أصلاً .

وكذلكَ قد يقعُ في موضعٍ يصومُ فيه أهلُ الموضعِ ، فينبعثُ له نشاطٌ في الصومِ ، ولولا همُ . . لما انبعثَ هذا النشاطُ .

فهذا ربَّما يُظنُّ أنَّه رياءٌ ، وأنَّ الواجبَ تركُ الموافقةِ .

وليسَ كذلكَ على الإطلاقِ ، بلُّ له تفصيلٌ ؛ لأنَّ كلَّ مؤمنٍ راغبٌ في عبادةِ الله تعالى ، وفي قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ولكنَّ قد تعوقُهُ العوائقُ ، ويمنعُهُ الاشتغالُ ، ويغلبُهُ التمكنُ مِنَ الشهواتِ ، أو تستهويه الغفلةُ ، فربَّما تكونُ مشاهدةُ الغيرِ سببَ زوالِ الغفلةِ ، أو تندفعُ العوائقُ والأشغالُ في بعضِ المواضعِ ، فينبعثُ النشاطُ ، فقد يكونُ الرجلُ في منزلهِ ، فتقطعُهُ الأسبابُ عن التهجُّدِ ؛ مثلَ تمكِّنه مِنَ النومِ على فراشٍ وثيرٍ ، أو تمكِّنه مِنَ التمتعِ بزوجتهِ ، أو المحادثةِ معَ أهلهِ وأقاربهِ ، أو الاشتغالِ بأولادهِ ، أو مطالعةِ حسابٍ له معَ معاملِهِ ، فإذا وقعَ في منزلٍ غريبٍ . . اندفعتُ عنه هذهِ الشواغلُ التي تفتُرُ رغبتهُ عن الخيرِ ، وحصلتْ له أسبابٌ باعثةٌ على الخيرِ ؛

كمشاهدته إِيَّاهُمْ وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا ؛ فإنه ينظرُ إليهم
فينافسُهُمْ ، ويشقُّ عليه أن يسبقوه بطاعة الله تعالى ، فتتحركُ داعيته للدين
لا للرياء .

أو ربَّما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع ، أو بسببِ آخر ، فيغتم زوال
النوم ، وفي منزله ربَّما يغلبه النوم ، وربَّما ينضافُ إليه أنه في منزله على
الدوام ، والنفسُ لا تسمحُ بالتهجدِ دائماً ، وتسمحُ بالتهجدِ وقتاً قليلاً ،
فيكونُ ذلك سببَ هذا النشاطِ مع اندفاعِ سائرِ العوائقِ .

وقد يعسرُ عليه الصومُ في منزله ومعه أطيبُ الأطعمة ، ويشقُّ عليه
الصبرُ عنها ، فإذا أعوزته تلك الأطعمة . . لم يشقَّ عليه ، فتنبعثُ داعيةُ
الدينِ للصومِ ، فإنَّ الشهواتِ الحاضرةَ عوائقُ ودوافعُ تغلبُ باعثَ الدينِ ،
فإذا سلمَ منها . . قويَ الباعثُ .

فهذا وأمثاله من الأسبابِ يُصوِّرُ وقوعه ، ويكونُ السببُ فيه مشاهدة
الناسِ وكونه معهم ، والشيطانُ مع ذلك ربَّما يصدُّ عن العملِ ويقولُ :
لا تعملُ ؛ فإنَّكَ تكونُ مرئياً ؛ إذ كنتَ لا تعملُ في بيتك ، ولا تزُدُ على
صلاتِكَ المعتادةِ .

وقد تكونُ رغبته في الزيادةِ لأجلِ رؤيتهم ، وخوفاً من ذمِّهم ونسبتهم إِيَّاهُ
إلى الكسلِ ، لا سيَّما إذا كانوا يظنونُ به أنه يقومُ الليلَ ، فإنَّ نفسه لا تسمحُ
بأن يسقطَ من أعينهم ، فيريدُ أن يحفظَ منزلته ، وعند ذلك قد يقولُ

الشیطان : صلِّ ؛ فإنَّكَ مخلصٌ ، ولستَ تصلي لأجلهم ، بل لله ، وإنَّما كنتَ لا تصلي كلَّ ليلةٍ لكثرةِ العوائقِ ، وإنَّما داعيتُكَ لزوالِ العوائقِ لا لاطلاعهم .

وهذا أمرٌ مشتبهُ إلا على ذوي البصائر ؛ فإذا عرف أنَّ المحركَ هو الرياءُ . . فلا ينبغي أن يزيده على ما كان يعتاده ولا ركعةً واحدةً ؛ لأنَّه يعصي الله تعالى بطلبِ محمودةِ الناسِ بطاعةِ الله ، وإن كان انبعاثه لدفعِ العوائقِ وتحريكِ الغبطةِ والمنافسةِ بسببِ عبادتهم . . فليوافق .

وعلاوةً ذلك : أن يعرضَ على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه ، بل من وراء حجابٍ وهو في ذلك الموضعِ بعينه . . هل كانت تسخو نفسه بالصلاة وهم لا يرونه ؟ فإن سخط نفسه به . . فليصل ؛ فإنَّ باعته الحقُّ ، وإن كان ذلك يثقلُ على نفسه لو غابَ عن أعينهم . . فليترك ؛ فإنَّ باعته الرياءُ .

وكذلك قد يحضرُ الإنسانُ يومَ الجمعةِ في الجامعِ من نشاطِ الصلاةِ ما لا يحضره كلُّ يومٍ ، ويمكنُ أن يكونَ ذلكَ لحبِّ حمدهم ، ويمكنُ أن يكونَ تحريكُ نشاطه بسببِ نشاطهم وزوالِ غفلتهِ بسببِ إقبالهم على الله تعالى ، وقد يتحركُ بذلك باعثُ الدينِ ويقارنه نزوعٌ في النفسِ إلى حبِّ الحمدِ ، فمهما علم أنَّ الغالبَ على قلبه إرادةُ الدينِ . . فلا ينبغي أن يتركَ العملَ بما يجده من حبِّ الحمدِ ، بل ينبغي أن يردَّ ذلكَ على نفسه بالكراهةِ ، ويستغلَّ بالعبادةِ .

وكذلك قد يبكي جماعة ، فينظر إليهم ، فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الرياء ، ولو سمع ذلك الكلام وحده . . لما كان يبكي ، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب ، وقد لا يحضره البكاء ، فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق ؛ إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يكون ولا تدمع عينه ، فيتباكى تكلفاً ، وذلك محمود .

وعلامة الصدق فيه : أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونها . . هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم . . فإنما خوفه من أن يقال : إنه قاسي القلب ، فينبغي أن يترك التباكي ، قال لقمان لابنه : (لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر) (١) .

وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال ؛ تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف ، وتارة تكون لمشاهدة حزن غيره وقساوة قلبه ، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن ، وذلك محمود ، وقد تقرر به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ؛ ليُعرف بذلك ، فإن تجردت هذه الداعية . . فهي الرياء ، وإن اقترنت بداعية الحزن ؛ فإن أباهها ولم يقبلها وكرهها . . سلم بكاءه وتباكيه ، وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه . . حبط أجره ، وضاع سعيه ، وتعرض لسخط الله تعالى به .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٩٢) .

وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ، ولكن يمدُّه ويزيدُ في رفع الصوت ، فتلك الزيادة رياءً ، وهو محظورٌ ؛ لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء ، فقد يهيجُ من الخوف ما لا يملكُ العبدُ معه نفسه ، ولكن يسبقُ خاطرُ الرياء فيقبلُهُ ، فيدعو إلى زيادة تحزين الصوت ، أو رفع له ، أو حفظ الدمعة على الوجه حتَّى تبصرَ بعد أن استرسلتْ لخشية الله تعالى ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء .

وكذلك قد يسمعُ الذكرَ فتضعفُ قواه من الخوف فيسقطُ ، ثمَّ يستحي أن يُقالَ : إنَّه سقطَ من غير زوالِ عقلٍ وحالةٍ شديدةٍ ، فيزعقُ ويتواجدُ تكلفاً ؛ ليُرى أنَّه سقطَ لكونه مغشياً عليه ، وقد كان ابتداء السقطة عن صدقٍ ، وقد يزولُ عقلُهُ فيسقطُ ، ولكن يفيقُ سريعاً ، فتجزعُ نفسه أن يُقالَ : حالته غيرُ ثابتةٍ ، وإنما هي كبرقٍ خاطفٍ ، فيستديمُ الزعقة والرقصَ ؛ ليُرى دوامُ حاله ، وكذلك قد يفيقُ بعد الضعفِ ، ولكن يزولُ ضعفُهُ سريعاً ، فيجزعُ أن يُقالَ : لم تكن غشيته صحيحةً ، ولو كان لدام ضعفُهُ ، فيستديمُ إظهارَ الضعفِ والأنينِ ، فيتكئ على غيره ؛ ليُرى أنَّه يضعفُ عن القيامِ ، ويتميلُ في المشي ، ويقربُ الخطأ ؛ ليظهرَ أنَّه ضعيفٌ عن سرعة المشي .

فهذه كلها مكاييدُ الشيطانِ ونزغاتُ النفسِ ، فإذا خطرَتْ . . . فعلاجُها : أن يتذكَّرَ أنَّ الناسَ لو عرفوا نفاقه في الباطنِ ، واطلعوا على ضميره . . . لمقتوه ، وأنَّ اللهَ مطلعٌ على ضميره وهو له أشدُّ مقتاً ، كما روي عن ذي

النون أنه قام وزعق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال :
يا شيخ ؛ ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ، فجلس الشيخ^(١) .

وكل ذلك من أعمال المنافقين ، وقد جاء في الخبر : (تعوذوا بالله من
خشوع النفاق)^(٢) ، وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير
خاشع^(٣) .

ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله عز وجل من عذابه وغضبه ، فإن
ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه ، وقد يكون للمراءاة .
فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهي مع تقاربها
متشابهة ، فراقب قلبك في كل ما يخطر لك ، وانظر ما هو ؟ ومن أين هو ؟
فإن كان لله . . فأمضه ، واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من
الرياء الذي هو كدبيب النمل ، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم
لا ؛ لخوفك على الإخلاص فيها ، واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى
حمدهم بعد الشروع بالإخلاص ، فإن ذلك ممّا يكثر جداً ، فإذا خطر
لك . . فتفكر في اطلاع الله تعالى عليك ومقته لك ، وتذكر ما قاله أحد النفر

(١) الرسالة القشيرية (ص ٥٥٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٣) موقوفاً على أبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله
عنهما ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٥٦٨) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله
عنه مرفوعاً ، وفيه زيادة : قالوا : يا رسول الله ؛ وما خشوع النفاق ؟ قال : « خشوع
البدن ونفاق القلب » .

(٣) الرعاية (ص ٣٠٢) .

الثلاثة الذين حاجُّوا أيوبَ عليه السلام ؛ إذ قال : (يا أيوبُ ؛ أما علمتَ أنَّ العبدَ تضلُّ عنه علانيتهُ التي كان يخادعُ بها عن نفسه ، ويُجزى بسريتهِ ١؟) (١) ، وقول بعضهم : (أعودُ بك أن يرى الناسُ أنِّي أخشاك وأنتَ لي ماقتٌ) (٢) ، وكان من دعاء عليِّ بن الحسين رضي الله عنهما :
 (اللهم ؛ إنِّي أعودُ بك أن تحسنَ في لامةِ العيونِ علانيتي ، وتقبحَ لك فيما أخلو سريرتي ، محافظاً على رياءِ الناسِ من نفسي ، ومضيعاً لما أنتَ مطلعٌ عليه مني ، أبدي للناسِ أحسنَ أمري ، وأفضي إليك بأسوأِ عملي ؛ تقرباً إلى الناسِ بحسناتي ، وفراراً منهم إليك بسيئاتي ، فيحلُّ بي مقتك ، ويجبُ عليَّ غضبك ، أعذني من ذلك يا ربَّ العالمين) (٣) .

وقد قال أحدُ الثلاثةِ نفرٍ لأيوبَ عليه السلام : (يا أيوبُ ؛ ألم تعلمَ أنَّ الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلبِ الحاجاتِ إلى الرحمنِ تسودُّ وجوههم ؟) (٤) .

فهذه جملُ آفاتِ الرياءِ ، فليراقِبِ العبدُ قلبه ليقفَ عليها ، ففي الخبر :
 « إنَّ الرياءَ سبعونَ باباً » (٥) ، وقد عرفتَ أنَّ بعضه أغمضُ من بعضٍ ، حتَّى

(١) الرعاية (ص ٣٠٣) ، وذكر روايته عن وهب بن منبه .

(٢) الرعاية (ص ٣٠٣) .

(٣) الرعاية (ص ٣٠٣) .

(٤) الرعاية (ص ٣٠٣) .

(٥) نص الحافظ العراقي على تصحيف كلمة (الربا) إلى (الرياء) في الحديث ، انظر

« الإنحاف » (٣٢٧ / ٨) ، ويحتمل عكس هذا في الحديث الذي رواه ابن عدي في =

إِنَّ بَعْضَهُ مِثْلُ دَيْبِ النَّمْلِ ، وَبَعْضُهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ ، وَكَيْفَ يُدْرِكُ مَا هُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ إِلَّا بِشِدَّةِ التَّفَقُّدِ وَالْمِرَاقِبَةِ ؟ ! وَلَيْتَهُ أُدْرِكَ بَعْدَ بَذْلِ الْمَجْهُودِ ، فَكَيْفَ يُطْمَعُ فِي إِدْرَاكِهِ مِنْ غَيْرِ تَفَقُّدٍ لِلْقَلْبِ ، وَامْتِحَانٍ لِلنَّفْسِ ، وَتَفْتِيشٍ عَنْ خَدَعِهَا ؟ ! ، نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ بِمَنْهُ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ .



= « الكامل » (٣٩١/٦) مرفوعاً : « الربا اثنان وسبعون باباً ، أيسر باب فيها أخفى من ديب الذر على الصفا » ؛ للحديث المتقدم : « للشرك فيكم أخفى من ديب النمل » الذي رواه الضياء في « المختارة » (٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٢/٧) ، ولحديث ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٤٤٤) : « الربا بضع وسبعون باباً ، والشرك مثل ذلك » ، والله أعلم .

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم : أنَّ أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولا يقنع بعلم الله إلا مَنْ لا يخاف إلا الله ، ولا يرجو إلا الله ، فأما مَنْ خاف غيره وارتجأه .. اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله .

فإن كان في هذه الرتبة .. فليلزم قلبه كراهة ذلك مِنْ جهة العقل والإيمان ؛ لما فيه مِنْ خطر التعرض للمقت ، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء ، وتقول : مثل هذا العمل العظيم ، أو الخوف العظيم ، أو البكاء العظيم ، لو عرفه الخلق منك .. لسجدوا لك ، فما في الخلق مَنْ يقدر على مثله ، فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلّك ، وينكرون قدرك ، ويُحرمون الاقتداء بك ؟

ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ، ودوامها أبد الآباد ، وعظم غضب الله ومقته على مَنْ طلب بطاعته ثواباً مِنْ عباده ، ويعلم أن إظهاره لغيره تحبّب إليه وسقوط عند الله ، وإحباط للعمل العظيم ، فيقول : وكيف أبيع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرُونَ لي على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه .

ولا ينبغي أن يئسَ عنه فيقول : إنما يقدرُ على الإخلاصِ الأقوياءُ ، فأما المخلطون . . فليسَ ذلكَ مِنْ شأنِهِمْ ، فيتركُ المجاهدةَ في الإخلاصِ ؛ لأنَّ المخلطَ إلى ذلكَ أحوجُّ مِنَ المتقي ؛ لأنَّ المتقيَ إنْ فسدتْ نوافلهُ . . بقيتْ فرائضُهُ كاملةً تامةً ، والمخلطُ لا تخلو فرائضُهُ عن النقصانِ والحاجةِ إلى الجبرانِ بالنوافلِ ، فإنْ لمْ تسلمْ . . صارَ مأخوذاً بالفرائضِ وهلكَ بهِ ، فالمخلطُ إلى الإخلاصِ أحوجُّ .

وقد روى تميمُ الداريُّ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « يُحَاسِبُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنْ نَقَصَ فَرَضُهُ . . قِيلَ : انظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ . . أَكْمَلَ بِهِ فَرَضَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَوُّعٌ . . أَخَذَ بِطَرْفِهِ فَأَلْقَى فِي النَّارِ » (١) .

فيأتي المخلطُ يومَ القيامةِ وفرضُهُ ناقصٌ ، وعليه ذنوبٌ كثيرةٌ ، فاجتهادهُ في جبرِ الفرائضِ وتكفيرِ السيئاتِ ، ولا يمكنُ ذلكَ إلا بخلوصِ النوافلِ ، وأما المتقي . . فجهدهُ في زيادةِ الدرجاتِ ، فإنْ حبطَ تطوُّعُهُ . . بقيَ مِنْ حسناتهِ ما يترجَّحُ على السيئاتِ ؛ فيدخلُ الجنةَ .

فإذا ؛ ينبغي أن يلزِمَ قلبُهُ خوفَ اطلاعِ غيرِ اللهِ عليه لتصحَّ نوافلهُ ، ثمَّ يلزِمَ قلبُهُ ذلكَ بعدَ الفراغِ ؛ حتَّى لا يتحدثَ بهِ ولا يظهرهُ ، فإذا فعلَ جميعَ ذلكَ . . فينبغي أن يكونَ وجلاً مِنْ عملِهِ ، خائفاً أَنَّهُ ربَّما دخلهُ مِنَ الرياءِ

(١) رواه أبو داود (٨٦٦) ، وابن ماجه (١٤٢٦) .

الخفي ما لم يقف عليه ، فيكون شاكاً في قبوله وردّه ، مجوّزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيّته الخفية ما مقتّه بها ، وردّ عمله بسببها .

ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده ، لا في ابتداء العقد ، بل ينبغي أن يكون متيقناً في الابتداء أنّه مخلص ، ما يريد بعمله إلا الله ؛ حتّى يصحّ عمله ، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان . . كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ، ولكن يكون رجاءه أغلب من خوفه ؛ لأنّه استيقن أنّه دخل بالإخلاص وشك في أنّه هل أفسده برياء ، فيكون رجاء القبول أغلب ، وبذلك تعظم لذّته في المناجاة والطاعات ، فالإخلاص يقين والرياء شك ، وخوفه لأجل ذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه .

والذي يتقرّب إلى الله تعالى بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ، ورجاء الثواب على عمل المتعلّم بعلمه فقط ، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلّم والمنعم عليه ، فإنّ ذلك يحبط الأجر ، فمهما توقّع من المتعلّم مساعدة في شغل وخدمة ، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو تردداً منه في حاجة . . فقد أخذ أجره ؛ فلا ثواب له غيره .

نعم ، إن لم يتوقّع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له

مثل أجره ، ولكن خدمته التلميذ بنفسه فقبل خدمته . . فترجو ألا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ، ولا يستبعده منه لو قطعه ، ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون ذلك ، حتى إن بعضهم وقع في بئر ، فجاء قوم وأدلوها حبلاً ليرفعوه ، فحلف عليهم ألا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن ، أو سمع منه حديثاً ؛ خيفة من أن يحبط أجره .

وقال شقيق البلخي : أهديت لسفيان الثوري ثوباً ، فردّه عليّ ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ لست أنا ممن يسمع الحديث حتى تردّه عليّ ، قال : علمت ذاك ، ولكن أخوك يسمع مني الحديث ، فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر ممّا يلين لغيره^(١) .

وجاء رجل إلى سفيان ببدرية أو بدرتين وكان أبوه صديقاً لسفيان ، وكان سفيان يأتيه كثيراً ، فقال له : يا أبا عبد الله ؛ في نفسك من أبي شيء ؟ فقال : يرحم الله أباك ، كان وكان ، فأثنى عليه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ قد عرفت كيف صار إليّ هذا المال ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك ، قال : فقبل سفيان ذلك ، قال : فلماً خرج . . قال لولده : يا مبارك^(٢) ؛ الحقّة فردّه عليّ ، فرجع ، فقال : أحب أن تأخذ مالك ، فلم يزل به حتى ردّه عليه ، وكأنّه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى ، ففكرة أن

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣ / ٧) .

(٢) مبارك هذا هو مبارك بن سعيد الثوري أخو سفيان ، وليس هو ولده كما أورده المصنف ، بل هو راوي الخبر كما في « الحلية » (٣ / ٧) .

يأخذ ذلك ، قال ولدُهُ : فلمَّا خرج . . لم أملك نفسي أن جئتُ إليه فقلتُ :
 ويلك ؛ أيُّ شيء قلبك هذا ؟ حجارة ؟ عُدَّ أنه ليس لك عيالٌ ، أما
 ترحمُني ؟ أما ترحمُ إخوتك ؟ أما ترحمُ عيالنا ؟ فأكثرْتُ عليه ، فقال : الله
 يا مبارك ، تأكلها أنتَ هنيئاً مريئاً وأسألُ عنها أنا ؟^(١) .

فإذا ؛ يجبُ على العالم أن يلزم قلبه طلبَ الثوابِ مِنَ اللهِ تعالى في
 اهتداءِ الناسِ به فقط ، ويجبُ على المتعلِّم أن يلزم قلبه طلبَ حمدِ اللهِ
 وثوابِهِ ، ونيلَ المنزلةِ عندهُ لا عندَ المعلمِ وعندَ الخلقِ ، وربَّما يظنُّ أنَّهُ أن
 يرأى بطاعتهِ لينالَ عندَ المعلمِ رتبةً فيتعلَّم منه ، وهو خطأ ؛ لأنَّ إرادتهُ
 غيرَ اللهِ بطاعتهِ خسرانٌ في الحالِ ، والعلمُ ربَّما يفيدُ وربَّما لا يفيدُ ، فكيفَ
 يخسرُ في الحالِ عملاً نقداً على توهمِ علمٍ ؟ ! وذلكَ غيرُ جائزٍ ، بل ينبغي أن
 يتعلَّم اللهُ ؛ ويعبدَ اللهُ ، ويخدمَ المعلمَ اللهُ ؛ لا ليكونَ له في قلبِهِ منزلةٌ وإن
 كانَ يريدُ أن يكونَ تعلُّمُهُ طاعةً ؛ فإنَّ العبادَ أمروا ألا يعبدوا إلا اللهَ ،
 ولا يريدوا بطاعتِهِمْ غيرَهُ .

وكذلكَ مَنْ يخدمُ أبويه لا ينبغي أن يخدمَهُما لطلبِ المنزلةِ عندهُما ، إلا
 مِنْ حيثُ إنَّ رضا اللهِ في رضا الوالدينِ ، ولا يجوزُ له أن يُرأى بطاعتهِ لينالَ
 بها منزلةً عندَ الوالدينِ ، فإنَّ ذلكَ معصيةٌ في الحالِ ، وسيكشفُ اللهُ عن
 رِيائِهِ ، وتسقطُ منزلتهُ مِنْ قلبِ الوالدينِ أيضاً .

(١) الخبر - كما أشير - رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣ / ٧) .

وأما الزاهد المعتزل عن الناس . . فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله ؛ فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تيسر عليه العبادات في خلوته ؛ وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه .

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له : سمعان ، دخلت عليه في صومعته ، فقلت : يا سمعان ؛ منذ كم أنت في صومعتك ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : فما طعامك ؟ قال : يا حنفي ؛ وما دعاك إلى هذا ؟ قلت : أحييت أن أعلم ، قال : في كل ليلة حمصة ، قلت : فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال : ترى الدير الذي بحدائك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزيئون صومعتي ، ويطوفون حولها ويعظموني ، فكلما تناقلت نفسي عن العبادة . . ذكرتها عز تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة ، فاحتمل يا حنفي جهد ساعة لعز الأبد ، فوقر في قلبي المعرفة ، فقال : حسبك أو أزيدك ؟ قلت : بلى ، قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت ، فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة ، فقال لي : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير . . اجتمعت علي النصارى ، فقالوا : يا حنفي ؛ ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : من قوته ، قالوا : وما تصنع به ؟ نحن أحق به ، ثم قالوا : ساوم ، قلت :

عشرون ديناراً ، فأعطوني عشرين ديناراً ، فرجعتُ إلى الشيخ ، فقال :
يا حنيفي ؛ ما الذي صنعتَ ؟ قلتُ : بعتهُ منهم ، قال : بكم ؟ قلتُ :
بعشرين ديناراً ، قال : أخطأت ، لو ساومتهم بعشرين ألفَ دينارٍ .
لأعطوك ، هذا عَزٌّ مَنْ لا تعبدهُ ، فانظر كيف يكونُ عَزٌّ مَنْ تعبدهُ ، يا حنيفي
أقبلُ على ربِّكَ ، ودعِ الذهابَ والجيئةَ^(١) .

والمقصودُ : أنَّ استشعارَ النفسِ عَزَّ العظمةِ في القلوبِ يكونُ باعثاً في
الخلوةِ وقد لا يشعرُ العبدُ بهِ ، فينبغي أن يلزمَ نفسهُ الحذرَ مِنْهُ ، وعلامةُ
سلامتهِ : أن يكونَ الخلقُ عندهُ والبهايمُ بمثابةِ واحدةٍ ، فلو تغيَّروا عن
اعتقادهم لهُ . . لم يجزغ ، ولم يضقْ بهِ ذرعاً إلا كراهةً ضعيفةً إن وجدها في
قلبه فيردُّها في الحالِ بعقله وإيمانه ، وأنَّه لو كان في عبادةِ فاطمَةَ الناسِ
كلُّهم عليه . . لم يزدْه ذلكَ خشوعاً ، ولم يدخلْهُ سروراً بسببِ اطلاعِهم
عليه ، فإن دخلَ سروراً يسيراً . فهو دليلُ ضعفِهِ ، ولكن إذا قدرَ على ردِّه
بكراهةِ العقلِ والإيمانِ ، وبادرَ إلى ذلكَ ، ولم يقبلِ السرورَ بالركونِ إليه . .
فيرجى له ألا يخيبَ سعيُّه إلا أن يزيدَ عندَ مشاهدتهم في الخشوعِ
والانقباضِ ؛ كي لا ينسبطوا إليه ، فذلكَ لا بأسَ بهِ ، ولكن فيه غرورٌ ؛ إذ
النفسُ قد تكونُ شهوتها الخفيةُ إظهارَ الخشوعِ ، وتعلُّلُ بطلبِ الانقباضِ ،
فليطالِبها في دعواها قصدَ الانقباضِ بموثقٍ مِنَ اللهِ غليظٍ ، وهو أنَّه لو علمَ أنَّ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٩ / ٨) ، واسم الراهب عنده أبو سمعان .

انقباضَهُمْ عَنْهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِأَنْ يَعْذَوْ سَرِيعاً أَوْ يَأْكُلَ أَوْ يَضْحَكَ كَثِيراً . .
فَتَسْمَحُ نَفْسُهُ بِذَلِكَ ؟ فَإِذَا لَمْ تَسْمَحْ بِهِ وَتَسْمَحَتْ بِالْعِبَادَةِ . . فَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ
مِرَادُهَا الْمَنْزِلَةَ عِنْدَهُمْ .

وَلَا يَنْجُو مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ تَقَرَّرَ فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ أَحَدٌ
سِوَى اللَّهِ ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ مَنْ لَوْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَحْدَهُ . . لَكَانَ يَعْمَلُهُ ،
فَلَا يَلْتَفِتُ قَلْبُهُ إِلَى الْخَلْقِ إِلَّا خَطَرَاتٍ ضَعِيفَةٌ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِ إِزَالَتُهَا ، فَإِذَا كَانَ
كَذَلِكَ . . لَمْ يَتَغَيَّرْ بِمُشَاهَدَةِ الْخَلْقِ ، وَمِنْ عِلَامَةِ الصِّدْقِ فِيهِ : أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ
صَاحِبَانِ ؛ أَحَدُهُمَا غَنِيٌّ وَالْآخَرُ فَقِيرٌ . . فَلَا يَجِدُ عِنْدَ إِقْبَالِ الْغَنِيِّ زِيَادَةَ هِزَّةٍ
فِي نَفْسِهِ لِإِكْرَامِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي الْغَنِيِّ زِيَادَةُ عِلْمٍ أَوْ زِيَادَةُ وَرَعٍ ، فَيَكُونُ مَكْرَماً
لَهُ بِذَلِكَ الْوَصْفِ لَا بِالْغِنَى ، فَمَنْ كَانَ اسْتِرْوَاؤُهُ إِلَى مُشَاهَدَةِ الْأَغْنِيَاءِ
أَكْثَرَ . . فَهُوَ مَرَاءٍ أَوْ طَمَّاعٌ ، وَإِلَّا . . فَالْنَظَرُ إِلَى الْفُقَرَاءِ يَزِيدُ فِي الرِّغْبَةِ إِلَى
الْآخِرَةِ ، وَيَحْبِبُّ إِلَى الْقَلْبِ الْمَسْكَنَةَ ، وَالنَظَرُ إِلَى الْأَغْنِيَاءِ بِخِلَافِهِ ، فَكَيْفَ
يَسْتَرْوَحُ إِلَى الْغَنِيِّ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَرْوَحُ إِلَى الْفَقِيرِ ؟ !

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ لَمْ يُرَ الْأَغْنِيَاءُ فِي مَجْلِسٍ أَذَلَّ مِنْهُمْ فِي مَجْلِسٍ سَفِيانَ
الثَّوْرِيِّ ، كَانَ يَجْلِسُهُمْ وَرَاءَ الصَّفِّ وَيَقْدِّمُ الْفُقَرَاءَ ، حَتَّى كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ أَنَّهُمْ
فُقَرَاءُ فِي مَجْلِسِهِ (١) .

نَعَمْ ، لَكَ زِيَادَةُ إِكْرَامٍ لِلْغَنِيِّ إِذَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ أَوْ كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَقٌّ

(١) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٦ / ٣٦٥) .

وصداقةً سابقةً ، ولكنْ يكونُ بحيثُ لو وُجِدَتْ تلكَ العلاقةُ في فقيرٍ ..
لكنْتَ لا تقدِّمُ الغنيَّ عليه في إكرامٍ وتوقيرٍ ألبتةً ؛ فَإِنَّ الفقيرَ أكرمُ على اللهِ مِنَ
الغنيِّ ، فإِثَارُكَ لَهُ لا يكونُ إِلَّا طمعاً في غناه ورياءً لَهُ .

ثمَّ إِذَا سوَّيْتَ بينهما في المجالسةِ .. فيُخشى عليك أن تظهرَ الحكمةَ
والخشوعَ للغنيِّ أَكثَرَ ممَّا تظهرُهُ للفقيرِ ، وإنَّما ذلكَ لرياءٍ خفيٍّ أو طمعٍ
خفيٍّ ؛ كما قالَ ابنُ السَّمَّاكِ لجاريةٍ لَهُ : ما لي إِذَا أَتَيْتُ بِغَدَادٍ فُتِّحَتْ لِي
الحكمةُ ؟ قالَتْ : الطمعُ يشحذُ لسانَكَ^(١) ، وقد صدقتُ ؛ فَإِنَّ اللسانَ
ينطلقُ عِنْدَ الغنيِّ بما لا ينطلقُ بِهِ عِنْدَ الفقيرِ ، وكذلكَ يحضُرُ مِنَ الخشوعِ
عِنْدَهُ ما لا يحضُرُ عِنْدَ الفقيرِ .

ومكائِدُ النفسِ وخفاياها في هَذَا الفنِّ لا تنحصرُ ، ولا ينجيكُ منها إِلَّا أَنْ
تُخْرِجَ ما سوى اللهِ مِنْ قَلْبِكَ ، وتتجرَّدَ بالشفقةِ على نَفْسِكَ بقيةَ عَمْرِكَ ،
ولا تَرْضَى لها بالنارِ بسببِ شهواتٍ منغصةٍ في أَيامٍ متقاربةٍ منقضيةٍ ، وتكونَ
في الدنيا كَمَلِّكَ مِنْ ملوكِ الدنيا قد أَمَكَّتَهُ الشهواتُ وساعدَتَهُ اللذاتُ ،
ولكنْ في بَدَنِهِ سَقَمٌ ، وهو يخافُ الهلاكَ على نَفْسِهِ في كُلِّ ساعةٍ لو اتسعَ في
الشهواتِ ، وعَلِمَ أَنَّهُ لو احتَمَى وجاهدَ نَفْسَهُ .. عاشَ ودامَ ملكُهُ ، فلمَّا
عرفَ ذلكَ .. جالسَ الأطباءَ ، وحارَفَ الصيادلةَ^(٢) ، وعوَّدَ نَفْسَهُ شربَ

(١) الرعاية (ص ٣٠٦) .

(٢) حارَفَ : مال ونادم .

الأدوية المرّة ، فصبر على بشاعتها ، وهجر جميع اللذات ، وصبر على مفارقتها ، فبدنه كل يوم يزداد نحولاً لقلة أكله ، ولكن سقمه كل يوم يزداد نقصاناً ؛ لشدة احتمائه ، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة . . تفكر في توالي الآلام والأوجاع عليه ، وأداء ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته ، الموجب لشماتة أعدائه به ، ومهما اشتد عليه شرب دواء . . تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه ، في عيش هنيئ ، وبدن صحيح ، وقلب رخي ، وأمر نافذ ، فتخف عليه مهاجرة اللذات ، ومصابرة المكروهات .

فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته ، وهي لذات الدنيا وزهرتها ، فاجترأ منها بالقليل ، واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف ، وترك الموانسة بالخلق ؛ خوفاً من أن يحل عليه غضب الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه ، فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره ، وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد ، ثم علم أن الله كريم رحيم ، لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عوناً ، وبهم رؤوفاً ، وعليهم عطوفاً ، ولو شاء . . لأغناهم عن التعب والنصب ، ولكن أراد أن يبلوهم ، ويعرف صدق إرادتهم ؛ حكمة منه وعدلاً .

ثم إذا تحمّل التعب في بدايته . . أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير ، وحطّ عنه الأعباء ، وسهّل عليه الصبر ، وحبّب إليه الطاعة ، ورزقه فيها من لذة

المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ، ويقويه على إماتة الشهوات ، وولي سياسته وتقويته ، وأمدّه بمعونته ، فإنّ الكريم لا يضيّع سعي الراجي ، ولا يخيب أمل المحبّ ، وهو الذي يقول : « مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا .. تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا »^(١) ، ويقول تعالى : « لَقَدْ طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي ، وَإِنِّي إِلَى لِقَائِهِمْ أَشَدُّ شَوْقًا »^(٢) .

فليظهر العبدُ في البداية جدّه وصدقه وإخلاصه ، فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ، ورأفته ورحمته .



تم كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين

يشلوه كتاب ذم الكبر والعجب

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٣/١٠) من كلام سهل بن عبد الله يحكيه حديثاً قدسياً ، والمقدسي في « الترغيب في الدعاء » (ص ٥٣) من كلام أحمد بن مخلد الخراساني مثله ، وقد ذكره الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

كِتَابُ
ذِمَّةِ الْكِبَرِ وَالْعَجَبِ

وهو الكتاب التاسع من ربيع المملكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذم الكبر والعجب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الخالق الباري المصور ، العزيز الجبار المتكبر ، العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع ، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر في جناب عزه مستكين متواضع ؛ فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع ، الغني الذي ليس له في ملكه شريك ولا منازع ، القادر الذي بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر السن الأنبياء وصفه وثناؤه^(١) ، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه ، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياءه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبريائه ، فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه ، ومن نازعه فيهما . . قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه ، جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه .

والصلاة على محمد الذي أنزل معه النور المتشّـر ضياؤه ، حتّى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحبّاء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفياؤه ، وسلّم تسليماً كثيراً .

(١) حصر هنا : من الحَصَر ، والمراد عجز العبارة عن الإحاطة بكنه الثناء عليه سبحانه .

أما بعد :

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى : الكبرياءُ ردائي ، والعظمة إزاري ؛ فمن نازعني فيهما . . قصمته » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » (٢) . فالكبر والعجب داءان مهلكان ، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان ، وهما عند الله ممقوتان بغضان .

وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب « إحياء علوم الدين » شرح المهلكات . . وجب إيضاح الكبر والعجب ؛ فإنهما من قبائح المرديات ، ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين : شطر في الكبر ، وشرط في العجب .



(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داود (٤٠٩٠) واللفظ له .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣ / ٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

الشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْكِتَابِ فِي الْكِبَرِ

وفيه بيانُ ذمِّ الكبرِ ، وبيانُ ذمِّ الاختيالِ ، وبيانُ فضيلةِ التواضعِ ، وبيانُ حقيقةِ الكبرِ وآفتهِ ، وبيانُ مَنْ يُتَكَبَّرُ عليه ، ودرجاتُ الكبرِ ، وبيانُ ما بهِ التكبرُ ، وبيانُ البواعثِ على التكبرِ ، وبيانُ أخلاقِ المتواضعينَ وما فيه يظهرُ الكبرُ ، وبيانُ علاجِ الكبرِ ، وبيانُ امتحانِ النفسِ في خُلُقِ الكبرِ ، وبيانُ المحمودِ مِنْ خُلُقِ التواضعِ والمذمومِ مِنْهُ .

بيان ذم الكبر

قد ذمَّ اللهُ تعالى الكبرَ في مواضعٍ مِنْ كتابِهِ ، وذمَّ كُلَّ جَبَّارٍ مُتَكَبِّرٍ ، فقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَيَسْأَلْهُمُ مَوْىِ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . وذمُّ الكبر في القرآن كثيرٌ .



وَأَمَّا الْأَخْبَارُ :

فقد قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ ، ولا يدخل النار رجلٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ » (١) .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزارِي ؛ فَمَنْ نازَعَنِي واحداً مِنْهُمَا . أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ ولا أْبالي » (٢) .

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو على المروة فتواقفا ، فمضى ابنُ عمرو وأقام ابنُ عمر يبكي ، فقالوا : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هذا - يعني :

(١) رواه مسلم (١٤٨/٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) .

عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ . أَكْبَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ عَلَى
وَجْهِهِ » (١) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى
يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ ، فَيَصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ » (٢) .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوماً للطير والإنس والجن
والبهائم : اخرجوا ، فخرجوا في مِثْقَالِ ألفٍ مِنَ الْإِنْسِ ، وَمِثْقَالِ ألفٍ مِنَ
الْجِنِّ ، فَرُفِعَ حَتَّى سَمِعَ زَجَلَ الْمَلَائِكَةِ بِالتَّسْبِيحِ فِي السَّمَاوَاتِ ، ثُمَّ خُفِضَ
حَتَّى مَسَّتْ قَدَمَاهُ الْبَحْرَ ، فَسَمِعَ صَوْتاً : لَوْ كَانَ فِي قَلْبِ صَاحِبِكُمْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ
مِنْ كِبَرٍ . لَخَسَفْتُ بِهِ أَبْعَدَ مِمَّا رَفَعْتُهُ (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ عُتُقٌ لَهُ عَيْنَانِ تَبْصِرَانِ ،
وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ ، يَقُولُ : وَكَلْتُ بِثَلَاثَةٍ ؛ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ،
وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَبِالْمَصُورِينَ » (٤) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢١٥ / ٢) .

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٠) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٩٨) بتمامه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٩٩) .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٧٤) ، والعنق هنا : طائفة وجانب من النار ، فهو وصف لنار جهنم

كما ذكره الإمام ابن العربي في « عارضة الأحوذى » (٤٤ / ١٠) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيئ الملكة »^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تحاجت الجنة والنار ؛ فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقأطهم وعجزتهم ؟ فقال الله تعالى للجنة : إنما أنت رحمتي ، أرحم بك من أشياء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي ، أعذب بك من أشياء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها »^(٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بش العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى ، بش العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال ، بش العبد عبد غفل وسها ولها ونسي المقابر والبلى ، بش العبد عبد عتا وبغى ونسي المبتدأ والمُتتهى »^(٣) .

وعن ثابت أنه قال : بلغنا أنه قيل : يا رسول الله ؛ ما أعظم كبر فلان ! فقال : « أليس بعده الموت ؟ »^(٤) .

وقال عبد الله بن عمرو : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤ / ١) ، والخرائطي في « مساوي الأخلاق » (٣٦١ -

٣٦٢) ، وفيه : (خائن) بدل (جبار) .

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦) .

(٣) رواه الترمذي (٢٤٤٨) بتقديم وتأخير وزيادة .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٥) كما أورده المصنف مرسلًا .

نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة.. دعا ابنه وقال : إِنِّي أَمْرُكُمَا بَاثْنَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنِ اثْنَتَيْنِ ؛ أَنْهَاكُمَا عَنِ الشَّرِكِ وَالْكَبِيرِ ، وَأَمْرُكُمَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْآخَرَى.. كَانَتْ أَرْجَحَ مِنْهُمَا ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ كَانَتْ حَلَقَةً فَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهَا.. لَقَصَمَتْهَا ، وَأَمْرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ؛ فَإِنَّهَا صَلَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ «^(١)» .

وقال عيسى عليه السلام : (طوبى لِمَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ كِتَابَهُ ثُمَّ لَمْ يَمُتْ جَبَّاراً) «^(٢)» .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ جَمَاعٍ مَنَاعٍ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضَّعَفَاءُ الْمَغْلَبُونَ » «^(٣)» .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الْآخِرَةِ.. أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا.. الثَّرَاوُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفِيهِقُونَ » ، قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، فَمَا الْمُتَفِيهِقُونَ ؟ قال : « الْمَتَكَبِّرُونَ » «^(٤)» .

- (١) رواه أحمد في « المسند » (١٦٩/٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٦) واللفظ له .
- (٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٠٧) .
- (٣) رواه أحمد في « المسند » (٢١٤/٢) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٠) ، والمغلبون : الذين يُغلبون كثيراً .
- (٤) رواه الترمذي (٢٠١٨) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذُرّاً فِي مِثْلِ صُورِ الرِّجَالِ ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ، ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى سَجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ : بُؤْلَسٌ ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينِ الْخَبَالِ عَصَارَةٌ أَهْلِ النَّارِ » (١) .

وقال أبو هريرة : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورِ الذَّرِّ يَطْوُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى » (٢) .

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا بِلَالُ ؛ إِنَّ أَبَاكَ حَدَّثَنِي عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيَا يُقَالُ لَهُ : هَبْهَبٌ ، حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْكُنَهُ كُلُّ جَبَّارٍ فَإِيَّاكَ يَا بِلَالُ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَسْكُنُهُ » (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ فِي النَّارِ قَصِراً يُجْعَلُ فِيهِ الْمُتَكَبِّرُونَ وَيُطَبَّقُ عَلَيْهِمْ » (٤) .

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٣) ، والأنيار : جمع نار ؛ أي : نار النيران .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٤) .

(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٢٨٥٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٥) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٧٢٤٩) .

(٤) كذا رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٥٧٧) من قول محمد بن المنكدر ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٨٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « إِنَّ =

وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ إني أعوذُ بك من نفخة الكبرياء »^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاثة .. دخل الجنة ؛ الكبر والغلو والدين »^(٢) .



الآثار :

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : (لا تحقرن أحداً من المسلمين ؛ فإن صغير المسلمين عند الله كبير)^(٣) .

وقال وهب : (لما خلق الله تعالى جنة عدن .. نظر إليها فقال : أنت حرامٌ على كل متكبر) .

= المتكبرين يوم القيامة يجعلون في توايت من نار فيقفل عليهم » ، ورواه بنحوه (٧٨٣٨) موقوفاً على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(١) رواه أبو داود (٧٦٤) ، ولفظه : « أعوذ بالله من الشيطان من نفخة ونفته وهمزه » ، قال - عمرو بن مرة ، أحد الرواة - : ونفته الشعر ، ونفخة الكبر ، وهمزه المُوْتَة ، والموتة : الصرع أو الجنون ، وعند الحاكم في « المستدرک » (٢٠٧ / ١) : « ونفخة الكبرياء » .

(٢) رواه الترمذي (١٥٧٢) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٨٧١١) ، وابن ماجه (٢٤١٢) .

(٣) كذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٨١٣) من حديثه رضي الله عنه .

وكان الأحنفُ بنُ قيسٍ يجلسُ مع مصعبِ بنِ الزبيرِ على سريرِهِ ، فجاء يوماً ومصعبٌ ماؤُ رجلِهِ ، فلم يقبضهُما وقعدَ الأحنفُ فزحمهُ بعضَ الزحمةِ ، فرأى أثرَ ذلكَ في وجهِهِ ، فقالَ : عجباً لابنِ آدمَ يتكَبَّرُ وقد خَرَجَ مِنْ مجرى البولِ مرَّتَيْنِ^(١) .

وقالَ الحسنُ : (العجبُ مِنْ ابنِ آدمَ ! يغسلُ الخُرءَ بيدهِ كلَّ يومٍ مرةً أو مرَّتَيْنِ ثمَّ يتكَبَّرُ يعارضُ جَبَّارَ السماواتِ)^(٢) .

وقد قيلَ في ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ : هو سبيلُ الغائطِ والبولِ^(٣) .

وقالَ محمدُ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عَنْهُمْ : (ما دخلَ قلبَ امرئٍ شيءٌ مِنَ الكِبَرِ قطُّ إلا نقصَ مِنْ عقلِهِ بقدرِ ما دخلَ مِنْ ذلكَ ، قلَّ أو كَثُرَ)^(٤) .

وسُئِلَ سلمانُ عنِ السيئةِ التي لا تنفعُ معها حسنةٌ ، فقالَ : الكِبَرُ^(٥) .

وقالَ النعمانُ بنُ بشيرٍ على المنبرِ : (إِنَّ للشيطانِ مصاليَ وفخوخاً ،

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٦) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٩) .

وإنَّ مِنْ مصالي الشيطانِ وفخوخِهِ البطَرُ بأنعمِ اللهِ ، والفخرَ بإعطاءِ اللهِ ،
والكبرَ على عبادِ اللهِ ، واتباعَ الهوى في غيرِ ذاتِ اللهِ (١) ، نسألُ اللهَ تعالى
العفوَ والعافيةَ في الدنيا والآخرةِ بمنه وكرمه .



(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٣) .

بيان ذم الاخشيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجبر الشيا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينظرُ اللهُ إلى رجلٍ يجرُّ إزارَهُ بطراً » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « بينما رجلٌ يتبخترُ في برديه قد أعجبته نفسه .. إذ خسفَ اللهُ به الأرضَ ، فهو يتجلجلُ فيها إلى يومِ القيامةِ » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ جرَّ ثوبَهُ خيلاً .. لا ينظرُ اللهُ إليه يومَ القيامةِ » (٣) .

وقال زيدُ بنُ أسلمَ : دخلتُ على ابنِ عمرَ ، فمرَّ به عبدُ اللهِ بنُ واقدٍ وعليه ثوبٌ جديدٌ ، فسمعتُهُ يقولُ : أيُّ بُيٍّ ؛ ارفعْ إزارَكَ ، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « لا ينظرُ اللهُ إلى مَنْ جرَّ إزارَهُ خيلاً » (٤) .

وروي أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بصقَ يوماً في كفه ، ووضعَ إصبعَهُ عليه وقالَ : « يقولُ اللهُ تعالى : ابنَ آدمَ ؛ أتَعْجِزُنِي وقد خلقتُكَ مِنْ

(١) رواه البخاري (٥٧٨٨) ، ومسلم (٢٠٨٧) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٢) واللفظ له .

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٨٨) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٦٥) ، ومسلم (٢٠٨٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٩) .

مثل هذه؟! حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ.. مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ
وَيْثِدٌ! جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي.. قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ! وَأَنْتَ
أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟!» (١).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطِيطَاءُ، وَخَدَمَتْهُمْ
فَارِسُ وَالرُّومُ.. سَلَّطَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» (٢)، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ:
(هِيَ مِشِيَّةٌ فِيهَا اخْتِيَالٌ).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ..
لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ» (٣).



الآثَارُ :

عَنْ أَبِي بَكْرِ الْهَذَلِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ الْحَسَنِ إِذْ مَرَّ عَلَيْنَا ابْنُ الْأَهْتَمِ
يُرِيدُ الْمَقْصُورَةَ، وَعَلَيْهِ جَبَابٌ خَزٌّ قَدْ نَضَّدَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ عَلَى سَاقِهِ،
وَانْفَرَجَ عَنْهَا قَبَاؤُهُ، وَهُوَ يَمْشِي يَتَبَخَّرُ؛ إِذْ نَظَرَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ نَظْرَةً فَقَالَ: أَفَّ

(١) رواه ابن ماجه (٢٧٠٧)، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٤٥) واللفظ
له، والوَيْثِدُ: شدة الوطء على الأرض، يسمع كالدوي من بعد.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٦١)، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٤٩) مع قول
ابن الأعرابي الآتي.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١١٨/٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٩).

أَفْ ؛ شامخٌ بأنفه ، ثاني عطفه ، مصعّرٌ خذّه ، ينظرُ في عطفه ! أي حُميْقٌ ؛ أينَ تنظرُ في عطفك ؟ في نعمٍ غيرٍ مشكورةٍ ولا مذكورةٍ ، غيرِ المأخوذِ بأمرِ الله فيها ، ولا المؤدّي حقَّ الله منها ؟ والله ؛ أن يمشيَ أحدُهم طبعته أن يتخلّجَ تخلّجَ المجنون ، في كلِّ عضوٍ من أعضائه لله نعمةٌ وللشيطانِ به لعنةٌ ، فسمع ابنُ الأَهمم ، فرجعَ يعتذرُ إليه ، فقال : لا تعتذرُ إليّ ، وتبُّ إلى ربِّك ، أما سمعتَ قولَ الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ ؟! (١).

ومرَّ بالحسنِ شابٌّ عليه بزةٌ له حسنةٌ ، فدعاهُ فقال : (ابنُ آدمَ معجبٌ بشبابه ، معجبٌ بجماله ؛ كأنَّ القبرَ قد وارىٰ بدنك ، وكأنَّكَ قد لاقيتَ عملَكَ ، ويحك ! داوِ قلبَكَ ؛ فإنَّ حاجةَ الله إلى العبادِ صلاحُ قلوبِهِمْ) (٢) .

وروي أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيز حجَّ قبلَ أن يُستخلفَ ، فنظرَ إليه طاووسٌ وهو يختالُ في مشيته فغمزَ جنبه بإصبعه وقال : ليستَ هذهِ مشيةَ مَنْ في بطنه خُرءٌ ، فقالَ عمرُ كالمعتذرِ : يا عمُّ ؛ لقد ضُربَ كلُّ عضوٍ مِنِّي على هذهِ المشيةِ حتَّى تعلَّمتُها (٣) .

ورأى محمدُ بنُ واسعٍ ولدَهُ يختالُ ، فدعاهُ وقال : (أتدري مَنْ أنتَ ؟

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٧) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤١) .

أَمَّا أَمُّكَ . . فاشتريتها بمئتي درهم ، وَأَمَّا أَبُوكَ . . فلا أكثرَ اللهُ في المسلمينَ مثلهُ (١) .

ورأى ابنُ عمرَ رجلاً يجرُّ إزارَهُ فقالَ : (إِنَّ لِلشَّيْطَانِ إِخْوَانًا) ، كرَّرَهَا مرتينِ أو ثلاثاً (٢) .

ويُروى أَنَّ مطرَفَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الشَّخِيرِ رأى المَهْلَبَ وهوَ يتبخَّرُ في جُبَّةٍ خَزٍّ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ هذهِ مشيئةٌ ييغُضُّها اللهُ ورسولُهُ ، فقالَ لَهُ المَهْلَبُ : أَمَّا تعرفُني ؟ فقالَ : بلى أعرُفُكَ ، أَوَّلُكَ نطفةٌ مِدْرَةٌ ، وآخِرُكَ جيفةٌ قَدْرَةٌ ، وَأَنْتَ بَيْنَ ذَلِكَ تحملُ العَدْرَةَ ، فمضى المَهْلَبُ وتركَ مشيئَتَهُ تلكَ (٣) .

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالى : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ أي : يتبخَّرُ (٤) .
وإذ ذكرنا ذمَّ الكبرِ والاختيالِ . . فلنذكرُ فضيلةَ التواضعِ .



(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٤ / ٢) ، وصاحب الوعظ هو مالك بن دينار فيه لا مطرف .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوي الأخلاق » (٥٧٩) .

بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً ، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله »^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من أحدٍ إلا ومعه ملكانٍ وعليه حكمةٌ يمسانِهِ بها^(٢) ، فإن هو رفع نفسه .. جبذاها ، ثم قال : اللهم ؛ ضعه ، وإن وضع نفسه .. قال : اللهم ؛ ارفعه »^(٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، وأنفق مالا جمعه في غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة »^(٤) .

وعن أبي سلمة المديني ، عن أبيه ، عن جدّه قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاءً وكان صائماً ، فأتيناهُ عندَ إفطارِهِ بقَدَحٍ مِنْ لبنٍ ، وجعلنا فيه شيئاً مِنْ عسلٍ ، فلما رفعه وذاقه .. وجد حلاوة العسل :

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨) .

(٢) الحكمة : نحو لجام الدابة ، سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتى يمنعها من الجماع ونحوه ، ومنه اشتقاق الحكمة بالكسر ؛ لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل .
« إتحاف » (٣٥٠ / ٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٦) .

فَقَالَ : « مَا هَذَا ؟ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ جَعَلْنَا فِيهِ شَيْئاً مِنْ عَسَلٍ ، فَوَضَعَهُ وَقَالَ : « أَمَا إِنِّي لَا أَحَرِّمُهُ ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ .. رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ .. وَضَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ اقْتَصَدَ .. أَغْنَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ بَذَرَ .. أَفْقَرَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذَكَرَ اللَّهَ .. أَحَبَّهُ اللَّهُ » (١) .

وَرُوي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَيْتِهِ يَأْكُلُونَ ، فَقَامَ سَائِلٌ عَلَى الْبَابِ وَبِهِ زَمَانَةٌ يُتَكَرَّرُ مِنْهَا ، فَأَذَنَ لَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ .. أَجْلَسَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَخْذِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « اطْعِمْ » ، فَكَانَ رَجُلًا مِنْ قَرِيشٍ اشْمَازَ مِنْهُ وَتَكَرَّرَهُ ، فَمَا مَاتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ حَتَّى كَانَتْ بِهِ زَمَانَةٌ مِثْلُهَا (٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « خَيْرَنِي رَبِّي بَيْنَ أَمْرَيْنِ : أَنْ أَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا ، أَوْ مَلِكًا نَبِيًّا ، فَلَمْ أَدْرِ أَيُّهُمَا اخْتَارُ ، وَكَانَ صَفِيًّا مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَبْرِيلَ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَالَ : تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ ، فَقُلْتُ : عَبْدًا رَسُولًا » (٣) .

وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِنَّمَا أَقْبَلُ صَلَاةَ مَنْ تَوَاضَعَ لِعَظَمَتِي ، وَلَمْ يَتَعَظَّمْ عَلَى خَلْقِي ، وَالزَّمَ قَلْبَهُ خَوْفِي ، وَقَطَعَ نَهَارَهُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٧) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٥) ، وفي (ب) : (بين أمرين : بين أن أكون عبداً رسولاً ...) .

وقال المغيرة : كنّا نهابُ إبراهيمَ النخعيّ هيبةَ الأمير ، وكان يقولُ : إنّ زماناً صرّت فيه فقيه الكوفةِ لزمانٍ سوءٍ^(١) .

وكانَ عطاءُ السّلميّ إذا سمعَ صوتَ الرعدِ . . قامَ وقعدَ ، وأخذَ ببطنيه كأنّه امرأةٌ ماخضُ ، وقالَ : هذا من أجلي يصيبُكم ، لو ماتَ عطاءُ . . لاستراحَ الناسُ^(٢) .

وكانَ بشرُّ الحافي يقولُ : (سلّموا على أبناء الدنيا بتركِ السلامِ عليهم)^(٣) .
ودعا رجلٌ لعبدِ الله بنِ المباركٍ فقالَ : أعطاك الله ما ترجوه ! فقالَ : إنّ الرجاءَ يكونُ بعدَ المعرفةِ ، فأينَ المعرفةُ ؟!

وتفاخرتَ قريشٌ عندَ سلمانَ الفارسيّ رضيَ اللهُ عنه يوماً ، فقالَ سلمانُ : لكنّي خلقتُ منَ نطفةٍ قدرةٍ ، ثمّ أعودُ جيفةً منتنةً ، ثمّ آتي الميزانَ ؛ فإنّ ثقلَ . . فأنا كريمٌ ، وإنّ خفَّ . . فأنا لثيمٌ^(٤) .

وقالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنه : (وجدنا الكرمَ في التقوى ، والغنى في اليقينِ ، والشرفَ في التواضعِ)^(٥) ، نسألُ اللهَ الكريمَ حسنَ التوفيقِ .



- (١) قول النخعي رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٣ / ٤) .
- (٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢١ / ٦ ، ٢٢٥) مفرقاً .
- (٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٦٩) .
- (٤) الخبر عند ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢٣٧ / ١) .
- (٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١٥) عن يحيى بن أبي كثير مرسلأ .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم : أنَّ الكبر ينقسم إلى ظاهر وباطن ، فالباطن هو خُلُق في النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح .

واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأمَّا الأعمال .. فإنها ثمرات لذلك الخُلُق ، وخلق الكبر موجب للأعمال ، ولذلك إذا ظهر على الجوارح .. يُقال : تكبر ، وإذا لم يظهر .. يُقال : في نفسه كبر ، فالأصل هو الخُلُق الذي في النفس ، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه ، فإنَّ الكبر يستدعي متكبراً عليه ، ومتكبراً به ، وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي ، فإنَّ العجب لا يستدعي غير المعجب ، بل لو لم يُخلق الإنسان إلا وحده .. تصوّر أن يكون معجباً ، ولا يتصوّر أن يكون متكبراً ، إلا أن يكون مع غيره ، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبراً .

ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً ، فإنه قد يستعظم نفسه ولكن يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه .

ولا يكفي أن يستحقّر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر .. لم يتكبر ، ولو رأى غيره مثل نفسه .. لم يتكبر ، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره .

فَعِنْدَ هَذِهِ الْإِعْتِقَادَاتِ الثَّلَاثَةِ يَحْصُلُ فِيهِ خُلُقُ الْكِبَرِ ، لَا أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا هِيَ الْكِبَرُ ، بَلْ هَذِهِ الرُّؤْيَا وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ تَنْفُخُ فِيهِ ، فَيَحْصُلُ فِي قَلْبِهِ اعْتِدَادٌ ، وَهَزَّةٌ ، وَفَرْحٌ ، وَرُكُونٌ إِلَى مَا اعْتَقَدَهُ ، وَعِزٌّ فِي نَفْسِهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، فَتِلْكَ الْعِزَّةُ وَالْهَزَّةُ وَالرُّكُونُ إِلَى الْعَقِيدَةِ هُوَ خُلُقُ الْكِبَرِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبَرِيَاءِ »^(١) ، وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (أَخْشَى أَنْ تَنْفُخَ حَتَّى تَبْلُغَ الثَّرِيَا) لِلَّذِي اسْتَأْذَنَهُ أَنْ يَعِظَ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ^(٢) .

فَكَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا رَأَى نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْعَيْنِ ، وَهُوَ الْاسْتِعْظَامُ . . كِبَرٌ وَانْتَفَخَ وَتَعَزَّزَ ، فَالْكِبَرُ عِبَارَةٌ عَنِ الْحَالَةِ الْحَاصِلَةِ فِي النَّفْسِ مِنْ هَذِهِ الْإِعْتِقَادَاتِ ، وَتُسَمَّى أَيْضاً عِزَّةً وَتَعْظُمًا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ ﴾ .

قَالَ عِظْمَةٌ لَمْ يَلْفُوهَا ، فَفَسَّرَ الْكِبَرُ بِتِلْكَ الْعِظْمَةِ^(٣) .

ثُمَّ هَذِهِ الْعِزَّةُ تَقْتَضِي أَعْمَالاً فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ هِيَ ثَمَرَتُهَا ، وَيُسَمَّى

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٧٦٤) وَلَفْظُهُ : « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ نَفْخِهِ وَنَفْثِهِ وَهَمْزِهِ » ، قَالَ - عَمْرُو بْنُ مَرَّةٍ ، أَحَدُ الرُّوَاةِ - : وَنَفْثُهُ الشَّعْرُ ، وَنَفْخُهُ الْكِبَرُ ، وَهَمْزُهُ الْمَوْتَةُ ، وَالْمَوْتَةُ : الصَّرَعُ أَوْ الْجَنُونُ ، وَعِنْدَ الْحَاكِمِ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٢٠٧ / ١) : « وَنَفْخُهُ الْكِبَرِيَاءُ » .

(٢) رَوَاهُ الضَّيَاءُ فِي « الْمُخْتَارَةِ » (١٠٦) ، وَأَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (١٨ / ١) بِنَحْوِهِ .

(٣) وَقَدْ رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي « تَفْسِيرِهِ » (٩٤ / ٢٤ / ١٢) عَنْ مُجَاهِدٍ .

ذلك تكبراً ، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره . . حقر من دونه
 وازدراه ، وأقصاه عن نفسه وأبعده ، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ، ورأى
 أن حقه أن يقوم مائلاً بين يديه إن اشتد كبره ، فإن كان أشد من ذلك . .
 استنكف عن استخداميه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ، ولا لخدمة عتيته ،
 وإن كان دون ذلك . . فيأنف عن مساواته ، وتقدم عليه في مضايق الطرق ،
 وارتفع عليه في المحافل ، وانتظر أن يبدأه بالسلام ، واستبعد تقصيره في
 قضاء حوائجه ، وتعجب منه ، وإن حاج أو ناظر . . أنف أن يرد عليه ، وإن
 وعظ . . استنكف من القبول ، وإن وعظ . . عنف في النصيح ، وإن رد عليه
 شيء من قوله . . غضب ، وإن علم . . لم يرفق بالمتعلمين ، واستذلهم
 وانتهرهم ، وامتن عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى
 الحمير ؛ استجهالاً لهم واستحقاراً .

والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة ، وهي أكثر من أن تحصى ؛ فلا
 حاجة إلى تعدادها ، فإنها مشهورة فهذا هو الكبر ، وآفته عظيمة ، وغائلته
 هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلما يفلك عنه العباد والزهاد
 والعلماء ، فضلاً عن عوام الناس .

وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من
 في قلبه مثقال ذرة من كبر »^(١) ؟ ! وإنما صار حجاباً دون الجنة ؛ لأنه يحول

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ؛ لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ، ولا يقدر على التواضع - وهو رأس أخلاق المتقين - وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على النصيح اللطيف وفيه العز ، ولا يقدر على قبول النصيح وفيه العز ، ولا يسلم من الإزراء بالناس ومن اغتياهم وفيه العز ، ولا معنى للتطويل ؛ فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطرب إليه ؛ ليحفظ به عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه ؛ خوفاً من أن يفوته عزه .

فعلى هذا ؛ لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه ، والأخلاق الذميمة متلازمة ، والبعض منها داع إلى البعض لا محال .

وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له ، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَالْمَلَكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْكِبُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَلَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ أَشَدَّ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً أَشَدُّهُمْ عِتياً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتياً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، قيل في التفسير : (سأرفع فهم القرآن من قلوبهم)^(١) ، وفي بعض التفاسير : (سأحجب قلوبهم عن الملكوت) .

وقال ابن جريج : (سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها)^(٢) .
ولذلك قال عيسى عليه السلام : (إنَّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا ، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر ، ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف . . شجّه ، ومن تطأطأ . . أظله وأكنّه ؟)^(٣) .

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٧٦/٩/٦) عن ابن عينة .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٧٧/٩/٦) .

(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٧٦) .

فهذا مثلٌ ضربهُ للمتكبرين ، وأنَّهُمْ كيفَ يُحرمونَ الحكمةَ .
ولذلكَ ذكرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جحودَ الحقِّ في حدِّ الكبرِ
والكشفِ عن حقيقتهِ وقالَ : « مَنْ سَفِهَ الحقَّ وغمَصَ الناسَ »^(١) .



(١) رواه أحمد في « المسند » (١٣٣/٤) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ،
وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر
الحق وغمط الناس » .

بيان المتكبر عليه ودرجائه وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلم : أنَّ المتكبرَ عليه هو الله تعالى ، أو رسله ، أو سائر الخلق ، وقد خُلِقَ الإنسان ظلوماً جهولاً ؛ فتارةً يتكبرُ على الخلق ، وتارةً يتكبرُ على الخالق .
فإذا ؛ التكبرُ باعتبار المتكبرِ عليه ثلاثة أقسام :

الأوَّلُ : التكبرُ على الله :

وذلك هو أفحشُ أنواعِ الكبرِ ، ولا منارَ له إلا الجهلُ المحضُ والطغيانُ ؛ مثلَ ما كانَ مِنْ نمرودَ ، فإنه كانَ يحدثُ نفسه بأنَّ يقاتلَ ربَّ السماءِ ، وكما يُحكى عن جماعةٍ مِنَ الجهلةِ ، بل ما يُحكى عن كلِّ مَنْ ادَّعى الربوبيةَ ؛ مثلَ فرعونَ وغيره ، فإنه لتكبره قالَ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ، إذ استنكفَ أن يكونَ عبداً لله .

ولذلك قالَ الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا ﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ .

القسم الثاني : التكبر على الرسل :

مِنْ حَيْثُ تَعَزَّزَ النَّفْسُ وَتَرْفَعُهَا عَنِ الانْقِيَادِ لِبَشَرٍ مِثْلِ سَائِرِ النَّاسِ ، وَذَلِكَ تَارَةً يَصْرِفُ عَنِ الْفِكْرِ وَالِاسْتِبْصَارِ ، فَيَبْقَى فِي ظِلْمَةِ الْجَهْلِ بِكِبَرِهِ ، فَيَمْتَنِعُ عَنِ الانْقِيَادِ وَهُوَ ظَانٌّ أَنَّهُ مُحَقِّقٌ فِيهِ ، وَتَارَةً يَمْتَنِعُ مَعَ الْمَعْرِفَةِ ، وَلَكِنْ لَا تَطَاوَعُهُ نَفْسُهُ لِلانْقِيَادِ لِلْحَقِّ وَالتَّوَاضُعِ لِلرَّسْلِ ؛ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ : ﴿ أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ ، وَقَوْلِهِمْ : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ ، وَقَوْلِهِمْ : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ ، وَقَالُوا : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ فِيمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقَرَّنِينَ ﴾ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فَتَكَبَّرَ هُوَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ جَمِيعًا ، قَالَ وَهَبٌ : قَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : آمَنْ وَلَكَ مَلِكُكَ ، قَالَ : حَتَّى أَشَاوَرَ هَامَانَ ، فَشَاوَرَ هَامَانَ ، فَقَالَ هَامَانُ : بَيْنَمَا أَنْتَ رَبٌّ تُعْبَدُ إِذْ صُرْتَ عَبْدًا تُعْبَدُ ! فَاسْتَنَكَفَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَعَنِ اتِّبَاعِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(١) .

(١) كَذَا فِي «الرعاية» (ص ٣٧٩) ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تفسيره» (١٩١٢٠) عَنْ السَّيِّدِ ، وَرَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تاريخ دمشق» (٦٧/٦١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وقالت قريش فيما أخبر الله عز وجل عنهم : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ، قال قتادة : عظيم القربتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي ، طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ قالوا : غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا ، فقال تعالى : ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (١) .

وقال الله تعالى : ﴿لِيَقُولُوا هَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَنُ بَيْنَنَا﴾ أي : استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدمهم .

وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ أشاروا إلى فقراء المسلمين ، وازدروهم بأعينهم لفقريهم ، وتكبروا عن مجالستهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم ؛ إذ لم يروا الذين استردلوهم ، فقالوا : ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ قيل : يعنون : عماراً وبلاًاً وصهياً والمقداد رضي الله عنهم (٣) .

(١) انظر مجمل الروايات عند الطبري في « تفسيره » (١٣ / ٢٥ / ٧٩) وما بعدها ، وسياق المصنف عند صاحب « الرعاية » (ص ٣٨٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٤١٣) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وفيه : (وكان المشركون قالوا له : تدني هؤلاء !؟) ، وابن ماجه (٤١٢٨) ، وفيه : (قالت قريش) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨١) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (١٢ / ٢٣ / ٢٢٠) .

ثم كَانَ مِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ الْكِبْرُ عَنِ الْفِكْرِ وَالْمَعْرِفَةِ فَجَهَلَ كَوْنَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَقَّقًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَرَفَ وَمَنَعَهُ الْكِبْرُ عَنِ الْاعْتِرَافِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَحَدِّثْهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ، وَهَذَا الْكِبْرُ قَرِيبٌ مِنَ التَّكَبُّرِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ دُونَهُ ، وَلَكِنَّهُ تَكَبُّرٌ عَنْ قَبُولِ أَمْرِ اللَّهِ وَالتَّوَاضُّعِ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .



القسم الثالث : التَّكَبُّرُ عَلَى الْعِبَادِ :

وَذَلِكَ بِأَنْ يَسْتَعْظِمَ نَفْسَهُ وَيَسْتَحْقِرَ غَيْرَهُ ؛ فَتَأْبَى نَفْسُهُ عَنِ الْانْقِيَادِ لَهُمْ ، وَتَدْعُوهُ إِلَى التَّرَفُّعِ عَلَيْهِمْ ؛ فَيَزِدُّرِيَّهُمْ وَيَسْتَصْغِرُهُمْ ، وَيَأْنَفُ مِنْ مَسَاوَاتِهِمْ ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ دُونَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي . . فَهُوَ أَيْضًا عَظِيمٌ مِنْ وَجْهَيْنِ :

- أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْكِبْرَ وَالْعِزَّ وَالْعِظَمَةَ وَالْعِلَاءَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالْمَلِكِ الْقَادِرِ ، فَأَمَّا الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ . . فَمِنْ أَيْنَ يَلِيقُ بِهِ الْكِبْرُ ؟ ! فَمَهُمَا تَكَبُّرُ الْعَبْدِ . . فَقَدْ نَازَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي صِفَةٍ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِجَلَالِهِ .

وَمِثَالُهُ : أَنْ يَأْخُذَ الْغُلَامُ قَلَنْسُوءَ الْمَلِكِ ، فَيَضَعُهَا عَلَى رَأْسِهِ ، وَيَجْلِسَ عَلَى سَرِيرِهِ ، فَمَا أَعْظَمَ اسْتِحْقَاقَهُ لِلْمَقْتِ ! وَمَا أَعْظَمَ تَهْدِفُهُ لِلْخِزْيِ وَالنِّكَالِ ! وَمَا أَشَدَّ اسْتِجْرَاءَهُ عَلَى مَوْلَاهُ ! وَمَا أَقْبَحَ مَا تَعَاطَاهُ ! وَإِلَى هَذَا

المعنى الإشارة بقوله تعالى : « العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ؛ فمن نازعني فيهما . . قصمته »^(١) أي : إنه خاصٌ صفتي ، ولا يليقُ إلا بي ، والمنازعُ فيه منازعٌ في صفةٍ من صفاتي ، وإذا كان الكبرُ على عبادِهِ لا يليقُ إلا به . . فمن تكبرَ على عبادِهِ . . فقد جنى عليه ؛ إذ الذي يسترذلُ خواصَّ غلمانِ الملكِ ، ويستخدمُهُم ويترفعُ عليهم ، ويستأثرُ بما حقُّ الملكِ أن يستأثرَ به منهم . . فهو منازعٌ له في بعضِ أمرِهِ ، وإن لم تبلغْ درجتهُ درجةَ مَنْ أرادَ الجلوسَ على سريرِهِ والاستبدادَ بملكِهِ ، فالخلقُ كُلُّهُم عبادُ الله ، وله العظمةُ والكبرياءُ عليهِم ؛ فمن تكبرَ على عبدٍ من عبادِ الله . . فقد نازعَ الله في حقِّهِ .

نعم ؛ الفرقُ بينَ هذهِ المنازعةِ وبينَ منازعةِ نمرودَ وفرعونَ ما هوَ الفرقُ بينَ منازعةِ الملكِ في استصغارِ بعضِ عبيدِهِ واستخدامِهِم ، وبينَ منازعتهِ في أصلِ الملكِ .

- الوجهُ الثاني الذي نعظمُ بهِ رذيلةَ الكبرِ : أنه يدعو إلى مخالفةِ الله تعالى في أوامره ؛ لأنَّ المتكبرَ إذا سمعَ الحقَّ من عبدٍ من عبادِ الله . . استنكفَ عن قبولهِ ، وتشمَّرَ لجحدهِ ، ولذلك ترى المناظرينَ في مسائلِ الدينِ يزعمونَ أنَّهم يتباحثونَ عن أسرارِ الدينِ ، ثمَّ إنَّهم يتجادونَ تجاحدَ المتكبرينَ ، ومهما اتَّضحَ الحقُّ على لسانِ واحدٍ منهم . . أنفَ الآخرُ من قبولهِ ، وتشمَّرَ

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داود (٤٠٩٠) واللفظ له .

لجحدِهِ ، واحتالَ لدفعِهِ بما يقدرُ عليه مِنَ التَّلبِيسِ ، وذلكَ مِنْ أخلاقِ الكافرينَ والمنافقينَ ، إِذْ وصفَهُمُ اللهُ تعالى فقالَ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾ ، فكلُّ مَنْ يناظرُ للغلبةِ والإفحامِ ، لا ليغتنمَ الحقَّ إِذَا ظفَرَ بِهِ . . فقد شاركَهُمْ في هذا الخُلُقِ .

وكذلكَ يحملُ ذلكَ على الأنفةِ مِنْ قبولِ الوعظِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ ، ورُويَ عنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنه أَنَّهُ قرأها فقالَ : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قامَ رجلٌ يأمرُ بالمعروفِ فقتلَ ، فقامَ آخرُ فقالَ : أقتلونَ الذينَ يأمرُونَ بالقسطِ مِنَ الناسِ ؟! فقتلَ المتكبرُ الذي خالفَهُ والذي أمرُهُ كبيراً^(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كفى بالرجلِ إثماً إِذَا قيلَ لَهُ : اتقِ الله . . قالَ : عليكَ نفسَكَ)^(٢) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لرجلٍ : « كلَّ يمينِكَ » ، قالَ : لا أستطيعُ ، فقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « لا استطعتَ ! » ، فما منعهُ إلا الكبرُ ، قالَ : فما رفعها بعدَ ذلكَ ؛ أي : اعتلَّتْ يدهُ^(٣) .

(١) بنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (٤٢٨ / ٢ / ٢) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨٢) ، وروى النسائي في « السنن الكبرى » (١٠٦١٩) من حديثه رضي الله عنه مرفوعاً : « . . . وإن أبغض الكلام إلى الله أن يقول الرجل للرجل : اتق الله ، فيقول : عليك نفسك » .

(٣) رواه مسلم (٢٠٢١) ، وقول : (فما منعه إلا الكبر) زيادة من الراوي لبيان موجب دعائه عليه الصلاة والسلام .

فإذا ؛ تكبره على الخلق عظيم ؛ لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله تعالى ، وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا ، وما حكي من أحواله . . . إلا ليعتبر به ؛ فإنه قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ وهذا الكبر بالنسب ؛ لأنه قال : ﴿ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ، فحملة ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به ، فكان مبدؤه التكبر على آدم والحسد له ، فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى ، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد .

فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عزيمة ، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين ؛ إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال : يا رسول الله ؛ إنني امرؤ قد حُبب إلي من الجمال ما ترى ؛ أفمن الكبر هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « لا ، ولكن الكبر من بطر الحق ، وغمص الناس »^(١) ، وفي حديث آخر : « مَنْ سَفَهَ الْحَقَّ »^(٢) ، وقوله : (غَمَصَ النَّاسَ) أي : ازدراهم واستحققهم ، وهم عباد الله أمثاله ، أو خير منه ، وهذه الآفة الأولى ، و(سَفَهَ الْحَقَّ) : هو رده ، وهي الآفة الثانية .

- (١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٩) ولفظ المرفوع له ، وليس فيه ذكر ثابت رضي الله عنه ، وإنما تبع فيه المصنف صاحب « الرعاية » (ص ٢٨٣) .
- (٢) رواه أحمد في « المسند » (١٣٣/٤) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمص الناس » .

فكلُّ مَنْ رأى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ أَخِيهِ ، واحتقرَ أخاهُ وازدراهُ ، ونظرَ إليه بعينِ الاستصغارِ ، أو ردَّ الحقَّ وهو يعرفُهُ . . فقد تكبَّرَ فيما بينَهُ وبينَ الخلقِ ، ومنَ أنفَ أنْ يخضعَ لله تعالى ويتواضعَ لَهُ بطاعتهِ واتباعِ رُسُلِهِ . . فقد تكبَّرَ فيما بينَهُ وبينَ الله تعالى ورُسُلِهِ .



بيان مآبه التكبر

اعلم : أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال .

ومجامع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي ، فالديني : هو العلم ، والعمل ، والدنيوي : هو النسب ، والجمال ، والقوة ، والمال ، وكثرة الأنصار ، فهذه سبعة أسباب .



الأول : العلم :

وما أسرع الكبر إلى العلماء ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « آفة العلم الخيلاء »^(١) ، فلا يلبث العالم أن يتعزز بعز العلم ، ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ، فيستعظم نفسه ويستحقر الناس ، وينظر إليهم نظرة إلى البهائم ، ويستجملهم ، ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام ؛ فإن بدأ أحدا منهم بالسلام ، أورد عليه بيشير ، أو قام له ، أو أجاب له دعوة . رأى ذلك صنعة عنده ويدأ عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم ، وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه ؛ شكرأ له على صنيعه .

(١) المعروف - كما قال الحافظ العراقي - هو حديث : « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » ، وهو قطعة من حديث رواه البيهقي في « الشعب » (٤٣٢٦) ، وانظر « الإتحاف » (٣٦٤ / ٦) .

بل الغالب أَنَّهُمْ يَبْرُؤُونَهُ فَلَا يَبْرُهُمْ ، وَيُزَوِّرُونَهُ فَلَا يَزُورُهُمْ ، وَيَعُودُونَهُ فَلَا يَعُودُهُمْ ، وَيَسْتَخْدِمُ مَنْ خَالَطَهُ مِنْهُمْ وَيَسْتَخِرُهُ فِي حَوَائِجِهِ ، فَإِنْ قَصَرَ فِيهِ . . . اسْتَنَكَرَهُ ؛ كَأَنَّهُمْ عَيْدُهُ أَوْ أَجْرَاؤُهُ ، وَكَأَنَّ تَعْلِيمَهُ الْعِلْمَ صَنِيعَةً مِنْهُ لَدَيْهِمْ ، وَمَعْرُوفٌ إِلَيْهِمْ ، وَاسْتِحْقَاقٌ حَقٌّ عَلَيْهِمْ ، هَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا .
أَمَّا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ . . . فَتَكَبَّرُهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَرَى نَفْسَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَى وَأَفْضَلَ مِنْهُمْ ، فَيَخَافُ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَرْجُو لَهُمْ .

وهَذَا بِأَنْ يُسَمَّى جَاهِلًا أَوَّلَى مِنْ أَنْ يُسَمَّى عَالِمًا ، بَلِ الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ بِهِ نَفْسَهُ وَرَبَّهُ ، وَخَطَرَ الْخَاتِمَةِ ، وَحُجَّةَ اللَّهِ عَلَى الْعُلَمَاءِ ، وَعَظَمَ خَطَرَ الْعِلْمِ فِيهِ ؛ كَمَا سَيَأْتِي فِي طَرِيقِ مَعَالِجَةِ الْكِبَرِ بِالْعِلْمِ .

وهَذِهِ الْعُلُومُ تَزِيدُ الْعَبْدَ خَوْفًا وَتَوَاضَعًا وَتَخَشُّعًا ، وَتَقْتَضِي أَنْ يَرَى أَنَّ كُلَّ النَّاسِ خَيْرٌ مِنْهُ ؛ لِعَظَمِ حُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ ، وَتَقْصِيرِهِ فِي الْقِيَامِ بِشُكْرِ نِعْمَةِ الْعِلْمِ .

ولهَذَا قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : (مَنْ أَزْدَادَ عُلَمَاءَ . . . أَزْدَادَ وَجَعًا) ^(١) ، وَهُوَ كَمَا قَالَ .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٣ / ٦) عن سفيان الثوري .

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً ؟

فاعلم : أن لذلك سببين :

أحدهما : أن يكون اشتغاله بما يُسمَّى علماً وليس بعلم حقيقي ، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف العبد به نفسه وربّه ، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، فأمّا ما وراء ذلك ؛ كعلم الطبّ ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات ؛ فإذا تجرّد الإنسان لها حتّى امتلأ منها . . امتلأ بها كبراً ونفاقاً ، وهذه بأن تُسمّى صناعات أولى من أن تُسمّى علوماً ، بل العلم هو معرفة العبوديّة والربوبيّة وطريق العبادة ، وهذا يورث التواضع غالباً .

السبب الثاني : أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدُّخْلَة ، رديء النفس ، سيئ الأخلاق ، فإنه لم يشتغل أولاً بتهديب نفسه وتركيب قلبه بأنواع المجاهدات ، ولم يرض نفسه في عبادة ربّه ؛ فبقي خبيث الجوهر ، فإذا خاض في العلم أي علم كان . . صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً ، فلم يطب ثمرة ، ولم يظهر في الخير أثره .



وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال : (العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً ، فتشربه الأشجار بعروقها ، فتحوله على قدر طعومها ، فيزداد المرء

مرارة ، والحلو حلاوة ، وكذلك العلم يحفظه الرجال ، فتحولهُ على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبراً ، والمتواضع تواضعاً ^(١) ، وهذا لأنَّ مَنْ كَانَتْ هِمَّتُهُ الكبر وهو جاهلٌ ، فإذا حفظ العلم . . وجد ما يتكبر به ، فازداد كبراً ، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله ، فإذا ازداد علماً . . علم أنَّ الحجة قد تأكدت عليه ، فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً .

فالعلم من أعظم ما يتكبر به ؛ ولأجل ذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

ووصف أولياءه فقال تعالى : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضي الله عنه : « يكون قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقولون : قد قرأنا القرآن ، فمن أقرأ منا ؟ ومن أعلم منا ؟ ! » ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : « أولئك منكم أيها الأمة ، أولئك هم وقود النار » ^(٢) .

ولذلك قال عمر رضي الله عنه : (لا تكونوا جبابرة العلماء ، فلا يفي علمكم بجهلكم) ^(٣) .

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٨٥) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٠) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٠) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) ، وكذا في « قوت القلوب »

(١٤٠ / ١) ، وانظر « الإتحاف » (٤٢٠ / ١) .

ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص ، فأبى أن يأذن له ، وقال له : (إِنَّهُ الذَّبْحُ) (١) .

واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته .. ذكرهم ، فقال : (إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَتَفَخَّ حَتَّى تَبْلُغَ الثَّرِيَا) (٢) .

وصلّى حذيفة بقوم ، فلما سلم من صلاته .. قال : (لَتَلْتَمِسُنَّ إِمَاماً غَيْرِي أَوْ لَتَصَلُّنَّ وَحْدَاناً ؛ إِنِّي رَأَيْتُ فِي نَفْسِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنِّي) (٣) .

فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم .. فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة !؟

فما أعزّ على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال : إنه عالم ، ثم لا يحركه عز العلم وخيلاؤه !

فإن وجد ذلك .. فهو صديق زمانه ؛ فلا ينبغي أن يفارق ، بل يكون النظر إليه عبادة ، فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله ، ولو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين .. لسعينا إليه ؛ رجاء أن تشملنا بركته ، وتسري إلينا سيرته وسجيته .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٤٩) ، والطبراني في « الكبير » (٤٩ / ٢) .

(٢) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١٨ / ١) بنحوه ، وهو في « الرعاية » (ص ٣٩٢) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١٣٧) ، وبتمامه في « الرعاية » (ص ٣٩٢) .

وهيهات ! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم ؟!

فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول ، قد انقضوا في القرن الأول ومن يليهم ، بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة ، فذلك أيضاً إمّا معدوم وإمّا عزيز ، ولولا بشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه . . نجا »^(١) . . لكان جديراً بنا أن نقتحم - والعياذ بالله تعالى - ورطة اليأس والقنوط ، مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا ، ومن لنا أيضاً بالتمسك بعشر ما كانوا عليه ؟! وليتنا تمسكنا بعشر عشيره ، فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ، وأن يستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله .



الثاني : العمل والعبادة :

وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر ، واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ، ويتدشع الكبر منهم في الدين والدنيا .

أمّا في الدنيا . . فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم ، وتوقييرهم ، والتوسيع لهم في المجالس ، وذكرهم بالورع والتقوى ، وتقديمهم على سائر الناس في

(١) رواه الترمذي (٢٢٦٧) .

الحظوظ ، إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء ، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق .

وأما في الدين . . فهو أن يرى الناس هالكين ، ويرى نفسه ناجياً ، وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم الرجل يقول : هلك الناس . . فهو أهلكهم »^(١) ، فإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدبر بخلق الله ، مغتر بالله ، آمن من مكره ، غير خائف من سطوته .

وكيف لا يخاف ويكفيه شراً احتقاره لغيره ؟ ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم »^(٢) ، وكم من الفرق بينه وبين من يحبّه الله ، ويعظمه لعبادته ، ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجو لنفسه ؟ فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه الله تعالى ؛ فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه ، وهو يتمقت إلى الله بالتزّه والتباعد منهم ؛ كأنه مترفع عن مجالستهم ، فما أجدرهم إذا أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل ! وما أجدره إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال ! كما روي أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقال له : خليع بني إسرائيل ؛ لكثرة فسادِهِ ، مرّ برجل آخر يقال له : عابد بني إسرائيل ، وكان

(١) رواه مسلم (٢٦٢٣) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، ولفظه : « بحسب امرئ من الشر . . . » ، ولفظ المصنف في « الرعاية » (ص ٣٨٧) .

على رأس العابد غمامة تظله لما مرّ الخليع به ، فقال الخليع في نفسه : أنا خليع بني إسرائيل ، وهذا عابد بني إسرائيل ؛ فلو جلستُ إليه لعلَّ الله يرحمني ، فجلس إليه ، فقال العابد : أنا عابد بني إسرائيل ، وهذا خليع بني إسرائيل ، فكيف يجلس إليّ ؟ ! فأنف منه ، وقال له : قم عني ، فأوحى الله تعالى إلى نبيّ ذلك الزمان : مُرهما فليستأنفا العمل ؛ فقد غفرتُ للخليع وأحببتُ عمل العابد ، وفي رواية أخرى : فتحوّلت الغمامة إلى رأس الخليع^(١) .

وهذا يعرفك أنّ الله تعالى إنّما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجاهل العاصي إذا تواضع وذلَّ هيبةً لله ، وخوفاً منه .. فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب .

وكذلك روي أنّ رجلاً من بني إسرائيل أتى عبداً من بني إسرائيل ، فوطىء على رقبته وهو ساجد ، فقال : ارفع^(٢) ، فوالله لا يغفر الله لك ، فأوحى الله إليه : أيّها المتألّي عليّ ؛ بل أنت لا يغفر الله لك^(٣) .

وكذلك قال الحسن : (وحتى إنّ صاحب الصوف أشدُّ كبراً من صاحب

(١) الرعاية (ص ٣٨٨) ، ومختصراً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٦/٢) .

(٢) أي : فقال العابد : ارفع رجلك عن رقبتي . « إتحاف » (٣٧١/٨) .

(٣) الرعاية (ص ٣٨٨) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٥٨/٩) ، وبنحوه رواه أبو داود (٤٩٠١) .

المِطْرَفِ الْخَزْ) (١) أي : إِنَّ صَاحِبَ الْخَزْ يَذُكُّ لَصَاحِبِ الصَّوْفِ وَيُرَى الْفَضْلَ لَهُ ، وَصَاحِبِ الصَّوْفِ يَرَى الْفَضْلَ لِنَفْسِهِ .

وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد ، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ . . استبعد أن يغفر الله له ، ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله ، ولو آذى مسلماً آخر . . لم يستكر ذلك الاستنكار ، وذلك لعظم قدر نفسه عنده ، وهو جهل ، وجمع بين الكبر والعجب والاغترار بالله .

وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدثوا ويقولون : سترون ما يجري عليه ، فإذا أصيب بنكبة . . زعم أن ذلك من كراماته ، وأن الله ما أراد بذلك إلا شفاء غليله والانتقام له ، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم ، فمنهم من ضربهم ، ومنهم من قتلهم ، ثم إن الله تعالى أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة .

ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله تعالى من أنبيائه ، وأنه قد انتقم له بما لم ينتقم لأنبيائه به ، ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه ، فهذه عقيدة المغترين .

وأما الأكياس من العباد . . فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٩٢) .

تهبُّ رِيحٌ أَوْ تَقْعُ صَاعِقَةٌ : (ما يَصِيبُ النَّاسَ ما يَصِيْبُهُمْ إِلَّا بِسَبَبِي ، وَلَوْ مَاتَ عَطَاءٌ . . لِتَخَلَّصُوا)^(١) ، وَمَا قَالَهُ الْآخَرُ بَعْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ عَرَافَاتٍ : (كُنْتُ أَرْجُو الرَّحْمَةَ لِجَمِيعِهِمْ لَوْلَا كَوْنِي فِيهِمْ)^(٢) .

فَانْظُرْ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ؛ هَذَا يَتَّقِي اللَّهَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَهُوَ وَجِلٌّ عَلَى نَفْسِهِ ، مُزْدِرٍ لِعَمَلِهِ وَسَعْيِهِ ، وَذَلِكَ رَبِّمَا يَضْمُرُ مِنَ الرِّيَاءِ وَالْكَبْرِ وَالْحَسَدِ وَالْغِلِّ مَا هُوَ ضُحْكَةٌ لِلشَّيْطَانِ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ يَمُرُّ عَلَى اللَّهِ بِعَمَلِهِ .

وَمَنْ اعْتَقَدَ جَزْمًا أَنَّهُ فَوْقَ أَحَدٍ مِنَ عِبَادِ اللَّهِ . . فَقَدْ أَحْبَطَ بِجَهْلِهِ جَمِيعَ عَمَلِهِ ؛ فَإِنَّ الْجَهْلَ أَفْحَشُ الْمَعَاصِي ، وَأَعْظَمُ شَيْءٍ يَبْعُدُ الْعَبْدَ عَنِ اللَّهِ ، وَحُكْمُهُ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ جَهْلٌ مُحَضَّرٌ ، وَأَمِنْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ ، وَلَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ؛ وَلِذَلِكَ رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا ذَكَرَ بِخَيْرٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ لَكَ ، فَقَالَ : « إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِهِ سُفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ » ، فَسَلَّمَ وَوَقَفَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَسَأَلْتُكَ بِاللَّهِ ؛ حَدَّثْتُكَ نَفْسُكَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنْكَ ؟ » قَالَ : اللَّهُمَّ نَعَمْ^(٣) . فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنُورِ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢١ / ٦ ، ٢٢٥) مفرقا .

(٢) روى البيهقي في « الشعب » (٧٩٠٣) نحوه .

(٣) رواه أبو يعلى في « مسنده » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٢ / ٣) ، وهو ذو

الثدية الذي قتله سيدنا علي رضي الله عنه .

النبوة ما استكنَّ في قلبه سفةً في وجهه ، وهذه آفة لا ينفك عنها أحدٌ من العباد إلا مَنْ عصمه الله .

لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون الكبر مستقراً في قلبه ، يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ، ويفعل فعل مَنْ يرى غيره خيراً من نفسه ، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ، ولكنه قطع أغصانها بالكلية .

الثانية : أن يظهر ذلك على أفعاله ؛ بالترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران ، وإظهار الإنكار على مَنْ يقصر في حقّه ، وأدنى ذلك في العالم أن يصغر خدّة للناس ؛ كأنه معرض عنهم ، وفي العابد أن يُعبس وجهه ، ويقطب جبينه ؛ كأنه متنزّه عن الناس ، مستقدر لهم ، أو غضبان عليهم ، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ، ولا في الوجه حتى يُعبس ، ولا في الخدّ حتى يُصغر ، ولا في الرقبة حتى تُطأطأ ، ولا في الذيل حتى يُضم ، إنما الورع في القلوب ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره^(١) ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم ، وكان أوسعهم خلقاً ، وأكثرهم بشراً وتبشماً وانبساطاً .

ولذلك قال الحارث بن جَزء الزبيدي صاحب رسول الله صلى الله عليه

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، وفيه : (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) .

وسَلَّمَ : (يعجبني من القراء كلُّ طلقٍ مضحك ، فأما الذي تلقاهُ بشرٍ ويلقاك بعوس ، يمنُّ عليك بعمله . . فلا أكثر الله في المسلمين مثله !) (١) .

ولو كان الله تعالى يرضى ذلك . . لما قالَ لنبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم أحوالهم أخفُّ من أحوال من هو في الرتبة الثالثة ، وهو الذي يظهر الكبر على لسانه ، حتَّى يدعوهُ إلى الدعوى والمفاخرة ، والمباهاة وتزكية النفس ، وحكاية الأحوال والمقامات ، والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل .

أما العابد . . فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد : مَنْ هو ؟ وما عمله ؟ ومن أين زهده ؟ فيطوّل اللسان فيهم بالتنقّص ، ثمّ يشني على نفسه ويقول : إني لم أفطر منذُ كذا وكذا ، ولا أناُم بالليل ، وأختم القرآن في كلِّ يوم ، وفلانٌ ينامُ سحراً ، ولا يكثرُ القراءة ، وما يجري مجراه ، وقد يزكّي نفسه ضمناً فيقول : قصدني فلانٌ بسوءٍ فهلك ولدُه ، أو أخذَ ماله ، أو مرضَ ، أو ما يجري مجراه ، ويدّعي الكرامة لنفسه .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٤١) ، وهو عن سعيد بن عبد الرحمن بن عبد الله الزبيدي ، ويبيّن الحافظ الزبيدي هذا الخطأ في « إتحافه » (٣٧٣ / ٨) حيث قال : (هكذا في سائر نسخ الكتاب ، وهو خطأ ، والصواب عبد الله بن الحارث بن جزء ، وهو الذي له صحبة) ، ولكن الرواية لحفيده لا له .

وأما مباهاته.. فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل.. قام وصلى أكثر مما كان يصلي، وإن كانوا يصبرون على الجوع.. فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم، ويظهر لهم قوته وعجزهم، وكذلك يشتد في العبادة؛ خوفاً من أن يقال: غيره أعبد منه، أو أقوى منه في دين الله.

وأما العالم.. فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم، ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً، ومن أنت؟ وما فضلك؟ ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه.

وأما مباهاته.. فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يُغلب، ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل؛ كالمناظرة، والجدل، وتحسين العبارة، وتسجيل الألفاظ، وحفظ العلوم الغريبة؛ ليُغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث الفاظها وأسانيدها؛ حتى يرد على من أخطأ فيها، فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم؛ ليرد عليه، ويسوءه إذا أصاب وأحسن؛ خيفة من أن يرى أنه أعظم منه.

فهذه كلها أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟

فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من

خردلٍ مِنْ كِبَرٍ»^(١) . . كيفَ يستعظمُ نفسه ويتكبرُ على غيره وهو بقولِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ !؟

وإنما العظيمُ مَنْ خلا عن هذا ، وَمَنْ خلا عنه لم يكن فيه تعظمٌ وتكبرٌ ،
والعالمُ هو الذي فهمَ أَنَّ اللهَ تعالى قالَ لَهُ : إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا قَدْرًا ما لم ترَ
لنفسِكَ قَدْرًا ، فَإِنْ رَأَيْتَ لَهَا قَدْرًا . . فلا قَدَرَ لَكَ عِنْدَنَا ، وَمَنْ لم يعلمْ هذا
مِنَ الدينِ . . فاسمُ العالمِ عليه كَذِبٌ ، وَمَنْ علمَهُ . . لزمَهُ ألاَّ يتكبرَ ولا يرى
لنفسِهِ قَدْرًا ، فهذا هو الكِبَرُ بالعلم والعملِ .



الثالثُ : التكبرُ بالحسبِ والنسبِ :

فالذي لَهُ نَسَبٌ شريفٌ يستحقُّ مَنْ ليسَ لَهُ ذلكَ النسبُ وإنْ كانَ أرفعَ مِنْهُ
عملاً وعلماً ، وقد يتكبرُ بعضهم فيرى أَنَّ الناسَ لَهُ مَوَالٍ وعبيدٌ ، ويأنفُ مِنْ
مخالطتهم ومجالستهم .

وثمرتُهُ على اللسانِ التفاخرُ بِهِ ؛ فيقولُ لغيرِهِ : يا نَبْطِي ، ويا هِنْدِي ،
ويا أَرْمَنِي ؛ مَنْ أَنْتَ ؟ وَمَنْ أبوكَ فَأنا فلانُ بنُ فلانٍ ؟ وأَنْتَ لمثلِكَ أَنْ
يكلِّمَنِي أو ينظرَ إِلَيَّ ؟ ومعَ مثلي تتكلَّمُ ؟ وما يجري مجراهُ .

وذلكَ عِرْقٌ دفينٌ في النفسِ لا ينفكُ عنه نسيبٌ وإنْ كانَ صالحاً وعاقلاً ،
إلا أَنَّهُ قد لا يترشَّحُ مِنْهُ ذلكَ عندَ اعتدالِ الأحوالِ ، فَإِنْ غلبَهُ غضبٌ . . أطفأَ

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

ذلك نور بصيرته ، وترشح منه ؛ كما روي عن أبي ذرٍّ أنه قال : قاوتُ رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ له : يا بن السوداء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذرٍّ ؛ طفُّ الصاع طفُّ الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضلٌ » ، فقال أبو ذرٍّ : فاضطجعتُ وقلتُ للرجل : قم فطأ على خدي^(١) .

فانظر كيف نبههُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء ، وأنَّ ذلك خطأ وجهلٌ ، وانظر كيف تابَ وقلعَ من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدمٍ من تكبرٍ عليه ؛ إذ عرف أن العزَّ لا يقمعه إلا الذلُّ .

ومن ذلك ما روي أنَّ رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان ، فمن أنت لا أم لك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « افتخر رجلان عند موسى عليه السلام ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى عدت تسعة ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : قل للذي افتخر : بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم^(٢) » .

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٣) ، ورواه بنحوه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣٤٥٧) وفيه نعته بابن الأمة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « طفُّ الصاع » - كذا بالإضافة - كناية عن قرب البعض من البعض ؛ إذ طفُّ المكيال مقاربة امتلائه ، وانظر « مرقاة المفاتيح » (١٣١/٩) في بيان تمام معناه .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٤) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (١٤٠/٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٧٧١) ، ورواه موقوفاً على معاذ بن جبل رضي الله عنه أحمد في « المسند » (٢٤١/٥) .

وقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم : « لِيَدَعَنَّ قَوْمُ الْفَخْرِ بَابَهُمْ وَقَدْ صَارُوا فَحْمًا فِي جَهَنَّمَ أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدُوفُ بَأَنَافِهَا الْقَذَرُ » (١) .



الرابع : التفاخرُ بالجمال :

وذلك أكثرُ ما يجري بينَ النساءِ ، ويدعو ذلك إلى التَّقْصِصِ والثَلْبِ ، والغيبةِ ، وذكرِ عيوبِ الناسِ .

ومِنْ ذلك : ما رُوِيَ عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : دَخَلَتْ امْرَأَةً عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ بِيَدَي هَكَذَا ؛ أَيُّ : إِنَّهَا قَصِيرَةٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَدْ اغْتَبَيْتَهَا » (٢) .

وهذا منشؤه خفيُّ الكبرِ ؛ لأنها لو كانت أيضاً قصيرةً . . لما ذكَّرتُها بالقصرِ ؛ فكأنَّها أُعْجِبَتْ بِقَامَتِهَا ، واستقصرتِ المرأةُ في جنبِ نفسها ، فقالت ما قالت .



(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٤) ، وبنحوه رواه أبو داود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥) ، وتدوف : تخلط ، حتى تجعله كراتٍ تدخرها .

(٢) رواه أبو داود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٨) واللفظ له .

الخامس : الكبرُ بالمال :

وذلك يجري بين الملوك في خزائهم ، وبين التجار في بضائعهم ، وبين الدهاقين في أراضهم ، وبين المتجملين في لباسهم ، وخیولهم ومراكبهم ، فيستحقر الغنيُّ الفقير ، ويتكبرُ عليه ويقولُ له : أنت مُكِدٌ ومسكينٌ ، وأنا لو أردتُ . . لا شريتُ مثلكَ ، واستخدمتُ مَنْ هوَ فوقكَ ، ومنَ أنتَ ؟ وما معكَ ؟ وأساسُ بيتي يساوي أكثرَ منَ جميعِ مالكَ ، وأنا أنفقُ في اليومِ ما لا تأكلُهُ في السنةِ ، وكلُّ ذلكَ لاستعظامِهِ للغنيِّ واستحقارِهِ للفقيرِ ، وكلُّ ذلكَ جهلٌ منه بآفةِ الغنيِّ وفضيلةِ الفقرِ .

والیه الإشارةُ بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ، حتَّى أجابه فقال : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ۚ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ وكان ذلك تكبراً منه بالمال والولد ، ثم بيّن الله تعالى عاقبة أمره بقوله : ﴿ يَلَيِّنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ .

ومن ذلك : تكبرُ قارون ؛ إذ قال تعالى إخباراً عن تكبرِهِ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ حتَّى قال قومٌ : ﴿ يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .



السادس : الكبرُ بالقوةِ وشدةِ البطشِ ، والتكبرُ به على أهل الضعفِ .



السابع : التكبرُ بالاتباعِ والأنصارِ ، والتلامذة والغلمانِ ، وبالعشيرةِ والأقاربِ والبنينِ :

ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود ، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين .

وبالجملة : فكلُّ ما هوَ نعمةٌ ، وأمكن أن يُعتقدَ كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً . . أمكن أن يتكبرَ به ، حتَّى إنَّ المخنثَ ليتكبرَ على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين ؛ لأنَّه يرى ذلك كمالاً ، فيفتخرُ به وإن لم يكن فعله إلا نكالاً ، وكذلك الفاسقُ قد يفتخرُ بكثرة الشربِ وكثرة الفجورِ بالنسوانِ والغلمانِ ويتكبرُ به ؛ لظنه أن ذلك كمالٌ وإن كان مخطئاً فيه .

فهذه مجامعُ ما يتكبرُ به العبادُ بعضهم على بعضٍ ، فيتكبرُ مَنْ يُدلي بشيءٍ منه على مَنْ لا يُدلي به ، أو على مَنْ يُدلي بما هوَ دونه في اعتقاده ، وربَّما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى ؛ كالعالم الذي يتكبرُ بعلمه على مَنْ هوَ أعلمُ منه ؛ لظنه أنَّه هوَ الأعلَمُ ، ولحسنِ اعتقاده في نفسه ، نسألُ اللهُ العونَ بلطفه ورحمته ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ .



بيان البواعث على الكبر وأسبابه المبهتة له

اعلم : أنَّ الكبر خُلِقَ باطنٌ ، وأمَّا ما يظهرُ مِنَ الأخلاقِ والأفعالِ .. فهي ثمرته ونتيجته ، وينبغي أن تُسمَّى تكبراً ، ويُخصَّصُ اسمُ الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير .

وهذا الباطن له موجبٌ واحدٌ ، وهو العُجبُ الذي يتعلَّقُ بالتكبر كما سيأتي معناه ، فإنه إذا أُعجبَ بنفسه ، وبعلمه وعمله ، أو بشيء من أسبابه .. استعظمَ نفسه وتكبرَ .

وأما التكبرُ الظاهرُ .. فأسبابه ثلاثة : سببٌ في المتكبر ، وسببٌ في المتكبر عليه ، وسببٌ فيما يتعلَّقُ بغيرهما .

أمَّا السببُ الذي في المتكبر .. فهو العُجبُ ، والذي يتعلَّقُ بالتكبر عليه هو الحقدُّ والحسدُّ ، والذي يتعلَّقُ بغيرهما هو الرياءُ ؛ فتصيرُ الأسبابُ بهذا الاعتبارِ أربعةً : العجبُ ، والحقدُّ ، والحسدُّ ، والرياءُ .

أمَّا العُجبُ .. فقد ذكرنا أنه يورثُ الكبرَ الباطنَ ، والكبرُ الباطنُ يثمرُ التكبرَ الظاهرَ في الأعمالِ والأقوالِ والأحوالِ .

وأما الحقدُّ .. فإنه قد يحملُ على التكبرِ من غيرِ عجبٍ ؛ كالذي يتكبرُ على مَنْ يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضبَ عليه بسببٍ سبقَ منه ، فأورثه الغضبُ حقداً ، ورسخَ في قلبه بغضه ؛ فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن

يتواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع ، فكم من ردل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه ، أو بغضه له ، ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته ، وعلى الأنفة من قبول نصحه ، وعلى أن يجتهد في التقدم عليه وإن علم أنه لا يستحق ذلك ، وعلى ألا يستحله وإن ظلمه ، ولا يعتذر إليه وإن جنى عليه ، ولا يسأله عما هو جاهل به .

وأما الحسد . . فإنه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاءً وسبباً يقتضي الغضب والحقد ، ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق ، حتى يمتنع من قبول النصح وتعلم العلم ، فكم من جاهل يشاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل ؛ لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه ؛ حسداً وبغياً عليه ، فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه ، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

وأما الرياء . . فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه ، وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ، ولا يتواضع له في الاستفادة ؛ خيفة من أن يقول الناس : إنه أفضل منه ، فيكون باعته على التكبر عليه الرياء المجرد ، ولو خلا معه بنفسه . . لكان لا يتكبر عليه ، وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد . . فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث ، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنه كاذب

ثمَّ يتكَبَّرُ بهِ على مَنْ لَيْسَ يَتَسَبُّ إلى ذلكِ النسبِ ، ويرفَعُ عليه في المجالسِ ، ويتقدَّمُ عليه في الطرقِ ، ولا يرضى بمساواته في الكرامةِ والتوقيرِ ، وهو عالمٌ باطناً بأنَّه لا يستحقُّ ذلكَ ، ولا كِبَرٌ في باطنه ؛ لمعرفتهِ بأنَّه كاذبٌ في دعوى النسبِ ، ولكنَّ يحملهُ الرياءُ على أفعالِ المتكبرين .

وكأنَّ اسمَ المتكبرِ إنما يُطلقُ في الأكثرِ على مَنْ يفعلُ هذه الأفعالَ عن كِبَرٍ في الباطنِ صادرٍ عن العُجْبِ والنظرِ إلى الغيرِ بعينِ الاستحقاقِ ، وهو إن سُمِّيَ متكبراً فلاجلِ التشبُّهِ بأفعالِ المتكبرين ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ ، واللهُ تعالى أعلمُ .



بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم : أنَّ التكبرَ يظهرُ في شمائلِ الرجلِ ؛ كصَعَرِ في وجهه ، ونظره شَزْراً ، وإطراقه رأسه ، وجلوسه متربّعاً أو متكئاً ، وفي أقواله حتّى في صوته ونغمته ، وصيغته في الإيراد ، ويظهرُ في مشيته وتبخره ، وقيامه وجلوسه ، وفي حركاته وسكناته ، وفي تعاطيه لأفعاله ، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله .

فمِنَ المتكبرينَ مَنْ يجمعُ ذلكَ كلّهُ ، ومنهُمَ مَنْ يتكبرُ في بعضٍ ويتواضعُ في بعضٍ .



فمنها : التكبرُ بأنَّ يحبَّ قيامَ الناسِ له أو بينَ يديه ، وقد قالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهه : (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظَرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . . فليَنْظُرْ إِلَى رَجُلٍ قَاعِدٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ قَوْمٌ قِيَامٌ) .

وقالَ أنسٌ : لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ . . لَمْ يَقُومُوا لَهُ ؛ لَمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهَتِهِ لذلِكَ^(١) .



(١) رواه الترمذي (٢٧٥٤) .

ومنها : ألا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه ، قال أبو الدرداء : (لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشى خلفه)^(١) .

وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده ؛ إذ كان لا يتميّر عنهم في صورة ظاهرة .

ومشى قوم خلف الحسن البصري ، فمنعهم وقال : (ما يُبقي هذا من قلب العبد ؟) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب ، فيأمرهم بالتقدم ، ويمشي في غمارهم^(٢) ؛ إمّا لتعليم غيره ، أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب ، كما خلع الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخلع^(٣) ؛ لأحد هذين المعنيين .

ومنها : ألا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين ، وهو ضدّ التواضع ، روي أن سفيان الثوري قدم الرملة ، فبعث إليه إبراهيم بن أدهم : أن تعال فحدثنا ، فجاءهم سفيان ، فقيل له : يا أبا

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩٤) .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٥) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق ، أو نزع الخميصة ولبس الأنجانية) . « إتحاف » (٣٧٨ / ٨ - ٣٧٩) . قلت : أما الأول .. فرواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) ، وأما الثاني .. فرواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٦٢ / ٥٥٦) .

إسحاق ؛ تبعث إليه بمثل هذا ؟! فقال : أردت أن أنظر كيف تواضعه^(١) .



ومنها : أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه ، والتواضع خلافة ، قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد ، فمس فخذي فخذة ، فنحيت نفسي عنه ، فأخذ بشيبي فجرتني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ، وإنني لا أعرف رجلاً منكم شرّاً مني !؟

وقال أنس : كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت^(٢) .



ومنها : أن يتوقى مجالسة المرضى والمعلولين ، ويتحاشى عنهم ، وهو من الكبير ؛ دخل رجل عليه جذري قد تقشّر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم بجنبه^(٣) .

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يجلس عن طعامه مجذوماً

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٧/٦) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٧٢) معلقاً ، ورواه ابن ماجه (٤١٧٧) موصولاً ، ولفظه هنا رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢٢) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٠٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨١) .

ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته^(١) .



ومنها : ألا يتعاطى بيده شغلاً في بيته ، والتواضعُ خلافُهُ ؛ روي أن عمرَ بن عبد العزيز أتاه ليلةً ضيفٌ وكان يكتب ، فكاد السراجُ يطفأ ، فقال الضيفُ : أقومُ إلى المصباحِ فأصلحه ؟ فقال : ليس من كرمِ الرجل أن يستخدمَ ضيفه ، قال : أفأنبه الغلامَ ؟ قال : هي أولُ نومةٍ نامها ، فقام وأخذ البطَّةَ وملاً المصباحَ زيتاً^(٢) ، فقال الضيفُ : قمتَ أنتَ بنفسِكَ يا أمير المؤمنين ؟ ! فقال : ذهبتُ وأنا عمرُ ، ورجعتُ وأنا عمرُ ، ما نقصَ مني شيءٌ ، وخيرُ الناسِ مَنْ كانَ عندَ الله متواضعاً^(٣) .



ومنها : ألا يأخذ متاعه ويحملة إلى بيته ، وهو خلافُ عادةِ المتواضعين ، كان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يفعلُ ذلكَ^(٤) ، وقال عليٌّ كرمَ الله وجهه :

[من الرجز]

لا يَنْقُصُ الْكَامِلَ مِنْ كَمَالِهِ ما جَزَّ مِنْ نَفْعٍ إِلَى عِيَالِهِ^(٥)

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦١١) .

(٢) البطَّة : إناء كالقارورة .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٩١٩٤) .

(٤) روى ذلك أبو يعلى في « مسنده » (٦١٦٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥٩٠) .

(٥) وسياق الخبر في « القوت » (٢٣٣/٢) : (وعلي رضي الله عنه كان يحمل التمر =

وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أميرٌ يحملُ سطلاً له من خشبٍ إلى الحمام^(١).

وقال ثابت بن أبي مالك : رأيتُ أبا هريرةً أقبلَ من السوقِ يحملُ حزمةَ حطبٍ وهو يومئذٍ خليفةٌ لمروانَ ، فقال : أوسعِ الطريقَ للأميرِ يا بنَ أبي مالك^(٢).

وعن الأصمغ بن نباتة قال : (كأنني أنظرُ إلى عمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه معلقاً لحماً في يده اليسرى ، وفي يده اليمنى الدرّةُ يدورُ في الأسواقِ حتّى دخلَ رحلتهُ)^(٣).

وقال بعضهم : رأيتُ علياً رضي الله عنه اشترى لحماً بدرهمٍ فحملةً في ملحفتهِ ، فقلتُ له : أحملُ عنك يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : لا ؛ أبو العيالِ أحقُّ أن يحملَ^(٤).

= والملح في ثوبه ويده ويقول...) وذكر البيت ، وانظر « ديوان سيدنا علي » (ص ٢١٢) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٣١) عن محمد بن أبي محمد بن كناسة ، وانظر « الأغاني » (٤٨٥١ / ١٣) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٤ / ١) ، ونبّه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣٨٠ / ٨) إلى أن ابن أبي مالك هو ثعلبة ، وليس ثابتاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٠٢) ، وفيه : (تمرّاً) بدل (لحماً) .

ومنها : اللباس ؛ إذ يظهرُ به التكبرُ والتواضعُ ، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « البذازةُ مِنَ الإيمانِ »^(١) .

قالَ هارونُ : سألتُ معنًا عنِ البذازةِ فقالَ : هو الدونُ مِنَ اللباسِ^(٢) .

وقالَ زيدُ بنُ وهبٍ : (رأيتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ خرجَ إلى السوقِ ويديه الدرةُ وعليه إزارٌ فيه أربعَ عشرةَ رقعةً بعضها مِنْ آدم)^(٣) .

وعُوتِبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في إزارٍ مرقوعٍ فقالَ : (يقتدي به المؤمنُ ، ويخشعُ له القلبُ)^(٤) .

وقالَ عيسى عليه السلامُ : (جودةُ الثيابِ خبلاءُ القلبِ)^(٥) .

وقالَ طاووسٌ : (إنِّي لأغسلُ ثوبيَّ هذينِ ، فأنكرُ قلبي ما دامَا نقيَّينِ)^(٦) .

ويُروى أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ كانَ قبلَ أنْ يُستخلفَ تُشترى له الحلةُ بألفِ دينارٍ فيقولُ : ما أجودها ! لولا خشونةُ فيها ، فلمَّا استُخلفَ . .

(١) رواه أبو داود (٤١٦١) ، وابن ماجه (٤١١٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢٩) عقب روايته للحديث .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٣٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٣٣) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٥) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٦) .

كَانَ يُشْتَرَى لَهُ الثَّوبُ بِخَمْسَةِ دِرَاهِمٍ فَيَقُولُ : مَا أَجُودُهُ ! لَوْلَا لَيْنُهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَيْنَ لِبَاسُكَ وَمَرْكَبُكَ وَعَطْرُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : إِنَّ لِي نَفْسًا ذَوَاقَةً تَوَاقَةً ، وَإِنَّهَا لَمْ تَذُقْ مِنَ الدُّنْيَا طَبَقَةً إِلَّا تَاقَتْ إِلَى الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهَا ، حَتَّى إِذَا ذَاقَتْ الْخِلَافَةَ وَهِيَ أَرْفَعُ الطَّبَقَاتِ . . تَاقَتْ إِلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١) .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ سُوَيْدٍ : صَلَّى بَنَّا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُمُعَةَ ، ثُمَّ جَلَسَ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ مَرْقُوعٌ الْجَيْبِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ فَلَوْ لَبَسْتَ ، فَنَكَسَ رَأْسَهُ مَلِيًّا ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : إِنَّ أَفْضَلَ الْقَصْدِ عِنْدَ الْجَدَّةِ ، وَإِنَّ أَفْضَلَ الْعَفْوِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ (٢) .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَوَضَعَ ثِيَابًا حَسَنَةً تَوَاضَعًا لِلَّهِ وَابْتِغَاءَ وَجْهِهِ . . كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَدْخُرَ لَهُ مِنْ عِبْقَرِيِّ الْجَنَّةِ » (٣) .

فَإِنْ قُلْتَ : فَقَدْ قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (جُودَةُ الثِّيَابِ خِيَلَاءُ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٣ / ٥ ، ٣٣٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥١) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية »

(٤٤ / ٨) .

القلب»^(١) ، وقد سُئِلَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْجَمَالِ فِي الثِّيَابِ هَلْ هُوَ مِنَ الْكِبَرِ ؟ فَقَالَ : « لا ، ولكنَّ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ »^(٢) ، فكيفَ طريقُ الجمعِ بينهما ؟

فاعلمُ : أنَّ الثوبَ الجيِّدَ ليسَ مِنْ ضروريَّته أَنْ يكونَ مِنَ التَّكَبُّرِ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حَالٍ ، وهو الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو الَّذِي عَرَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَالِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ ؛ إِذْ قَالَ : إِنِّي أَمْرُؤُ حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الْجَمَالِ مَا تَرَى^(٣) ، فَعَرَفَ أَنَّ مِيلَهُ إِلَى النِّظَافَةِ وَجُودَةِ الثِّيَابِ ، لَا لِيَتَكَبَّرَ عَلَى غَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ ضروريَّته أَنْ يكونَ مِنَ الْكِبَرِ ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الْكِبَرِ ؛ كَمَا أَنَّ الرِّضَا بِالثُّوبِ الدُّونِ قَدْ يَكُونُ مِنَ التَّوَاضُّعِ .

وعِلَامَةُ الْمُتَكَبِّرِ : أَنْ يَطْلُبَ التَّجَمُّلَ إِذَا رَأَهُ النَّاسُ ، وَلَا يِيَالِي إِذَا انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ كَيْفَ كَانَ ، وَعِلَامَةُ طَلِبِ الْجَمَالِ : أَنْ يُحِبَّ الْجَمَالَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَوْ فِي خُلُوتِهِ ، وَحَتَّى فِي سُتُورِ دَارِهِ ، فَذَلِكَ لَيْسَ مِنَ التَّكَبُّرِ .

فَإِذَا انْقَسَمَتِ الْأَحْوَالُ .. نَزَلَ قَوْلُ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى بَعْضِ

(١) تقدم قريباً .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٣٣ / ٤) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

(٣) هو الحديث المذكور قبله .

الأحوال ؛ على أن قوله : (هو خيلاء القلب) يعني : قد تورث خيلاء في القلب ، وقول نبينا صلى الله عليه وسلم : « إنه ليس من الكبر » يعني : أن الكبر لا يوجبهُ ، ويجوز ألا يوجبهُ الكبرُ ، ثم يكون هو مورثاً للكبر .

وبالجملة : فالأحوال تختلف في مثل هذا ، والمحبوب الوسط من اللباس ، الذي لا يوجب شهرةً بالجودة ولا بالرداءة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرفٍ ولا مخيلة ، إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »^(١) .

وقال بكر بن عبد الله المزني : (البسوا ثياب الملوك ، وأميتوا قلوبكم بالخشية)^(٢) ، وإنما خاطب بهذا قوماً يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح ، وقد قال عيسى عليه السلام : (ما لكم تأتونني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ؟! البسوا ثياب الملوك ، وألینوا قلوبكم بالخشية)^(٣) .

ومنها^(٤) : أن يتواضع بالاحتمال إذا سُبَّ وأوذى وأخذ حقهُ ، فذلك هو

(١) رواه بتمامه الحاكم في « المستدرک » (١٣٥ / ٤) ، وصدره رواه النسائي (٧٩ / ٥) ، وابن ماجه (٣٦٠٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٣) .

(٤) أي : من أخلاق المتواضعين . « إتحاف » (٢٨٣ / ٨) .

الأصل وقد أوردنا ما نُقِلَ عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد .

وبالجملة : فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيه ينبغي أن يُقتدى ، ومنه ينبغي أن يُتعلَّم .

وقد قال أبو سلمة^(١) : قلت لأبي سعيد الخدري : ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم ؟

فقال : يا بن أخي ؛ كُلْ لله ، واشرب لله ، والبس لله ، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة . . فهو معصية وسرف ، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج في بيته ، كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم البيت ، ويحلب الشاة ، ويخسف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا أعيا ، ويشترى الشيء من السوق ، ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده ، أو يجعله في طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله ، يصافح الغني والفقير ، والصغير والكبير ، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله ؛ من صغير أو كبير ، أسود أو أحمر ، حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه ، لا يستحي من أن يجيب إذا دُعي وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دُعي إليه وإن لم يجد إلا

(١) في النسخ : (ابن أبي سلمة) ، وأبو سلمة هو ابن عبد الرحمن بن عوف كما سيأتي .

حَشَفَ الدَّقْلَ ، لا يرفعُ غداءَ لعشاءٍ ، ولا عشاءَ لغداءٍ ، هيِّنُ المؤنةَ ، لِيُنْ
 الخُلُقِ ، كريمُ الطبيعةِ ، جميلُ المعاشرةِ ، طليقُ الوجهِ ، بَسَّامٌ مِنْ غيرِ
 ضحكٍ ، محزونٌ مِنْ غيرِ عبوسٍ ، شديدٌ مِنْ غيرِ عنفٍ ، متواضعٌ مِنْ غيرِ
 مذلةٍ ، جوادٌ مِنْ غيرِ سَرَافٍ ، رحيمٌ لكلِّ ذي قربى ومسلمٍ ، رقيقُ القلبِ ،
 دائمُ الإطراقِ ، لم يَشْمُ^(١) قطُّ مِنْ شَبَعٍ ، ولم يمدَّ يدهُ إلى طمعٍ .

قال أبو سلمة : فدخلتُ على عائشة رضي الله عنها ، فحدثتُها بما قالَ
 أبو سعيدٍ في زهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ما أخطأ منه
 حرفاً ، ولقد قَصَّرَ ؛ إذ ما أخبركَ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ
 قطُّ شَبَعاً ، ولم يبتَّ إلى أحدٍ شكوى ، وإن كانتِ الفاقةُ لأحبَّ إليه مِنَ اليسارِ
 والغنى ، وإن كانَ ليظلُّ جائعاً يلتوي ليلتهُ حتَّى يصبحَ ، فما يمنعهُ ذلكَ عن
 صيامِ يومِهِ ، ولو شاءَ أن يسألَ ربَّهُ فيؤتِيه بكنوزِ الأرضِ وثمارها ورغدِ عيشها
 مِنْ مشارِقها ومغارِبها . . لفعلَ ، وربُّما بكيتُ رحمةً لَهُ ممَّا أوتي مِنَ الجوعِ ،
 فأمسحُ بطنهُ بيدي ، وأقولُ : نفسي لك الفداءُ ؛ لو تَبَلَّغتُ مِنَ الدنيا بقدرِ
 ما يقوتُك ويمنعُكَ مِنَ الجوعِ ، فيقولُ : « يا عائشةُ ؛ إخواني مِنَ أولي العزمِ
 مِنَ الرسلِ قد صبروا على ما هوَ أشدُّ مِنْ هذا ، فمضوا على حالِهِمْ ، وقدموا
 على ربِّهِمْ ، فأكرمَ مآبَهُمْ ، وأجزَلَ ثوابَهُمْ ، فأجِدُنِي أستحيي إن ترفَّهْتُ في
 معيشتي أن يقصرَ بي دونَهُمْ ، فأصبرُ أياماً يسيرةً أحبُّ إليَّ مِنْ أن ينقصَ حظِّي

(١) في (د، ك) : (لم يتجشأ) بدل (لم يشم) .

غداً في الآخرة ، وما مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ اللّٰهُوَ بِإِخْوَانِي وَأَخْلَائِي « .
قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فَوَاللَّهِ ؛ مَا اسْتَكْمَلَ بَعْدَ ذَلِكَ جُمُعَةً حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ (١) .

فَمَا نُقِلَ مِنْ أَحْوَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْمَعُ جَمْلَةَ أَخْلَاقِ
الْمُتَوَاضِعِينَ ، فَمَنْ طَلَبَ التَّوَاضِعَ . . فليقتدِ بِهِ ، وَمَنْ رَأَى نَفْسَهُ فَوْقَ مَحَلِّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَرْضَ لِنَفْسِهِ بِمَا رَضِيَ هُوَ بِهِ . . فَمَا أَشَدَّ جَهْلُهُ !!
فَلَقَدْ كَانَ أَعْظَمَ خَلْقٍ اللَّهُ مُنْصَباً فِي الدُّنْيَا وَالْدِينِ ، فَلَا عِزَّ وَلَا رَفْعَةَ إِلَّا فِي
الْاِقْتِدَاءِ بِهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ ،
فَلَا نَطْلُبُ الْعِزَّ فِي غَيْرِهِ) لَمَّا عُوتِبَ فِي بَذَاذَةِ هَيْئَتِهِ عِنْدَ دُخُولِهِ الشَّامَ (٢) .

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : (اَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عِبَاداً يُقَالُ لَهُمُ الْإِبْدَالُ ، خَلَفَ مِنْ
الْأَنْبِيَاءِ ، هُمْ أَوْتَادُ الْأَرْضِ ، فَلَمَّا انْقَضَتِ النَّبُوَّةُ . . أَبْدَلَ اللَّهُ مَكَانَهُمْ قَوْمًا مِنْ
أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَمْ يَفْضَلُوا النَّاسَ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ
وَلَا حَسَنِ حَلِيَةٍ ، وَلَكِنْ بِصَدَقِ الْوَرَعِ ، وَحَسَنِ النِّيَّةِ ، وَسَلَامَةِ الصِّدْرِ
لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالنَّصِيحَةِ لَهُمْ ؛ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، بِصَبْرِ حَسَنِ (٣) ،

(١) ساق الخبر بتمامه ومرفوعه الحافظ الشامي في « سبل الهدى والرشاد » (٦٧/٧) عن
أبي الحسن بن الضحاك ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وقال : (في
سنده ميسرة بن عبد ربه) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » (٦١/١) .

(٣) في (ب) : (بغير تعجير) ، وفي (ب ، ك ، م) : (بصير ثخين) بدل (بصير
حسن) .

وتواضع في غير مذلة ، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقاً ، أو ثلاثون رجلاً ، قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه .

واعلم يا بن أخي أنهم لا يلعنون شيئاً ، ولا يؤذونه ، ولا يحقرونه ، ولا يتناولون عليه ، ولا يحسدون أحداً ، ولا يحرصون على الدنيا ، هم أطيب الناس خُبراً ، وألينهم عريكةً ، وأسخاهم نفساً ، علامتهم السخاء ، وسجيتهم البشاشة ، وصفتهم السلامة ، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة ، ولكن دائمون على حالهم الظاهر ، وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ، ولا الخيل المجراة ، قلوبهم تصعدُ ارتياحاً إلى الله ، واشتياقاً إليه ، وقدماً في استباق الخيرات ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

قال الراوي : فقلت : يا أبا الدرداء ؛ ما سمعتُ بصفة أشدَّ عليّ من هذه الصفة ، فكيف لي أن أبلغها ؟ فقال : ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تبغض الدنيا ؛ فإنك إذا أبغضت الدنيا . . أقبلت على حب الآخرة ، وبقدر حبك للآخرة تزهّد في الدنيا ، وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك ، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب . . أفرغ عليه السداد ، واكتنفه بالعصمة ، واعلم يا بن أخي أن ذلك في كتاب الله المنزل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

قال يحيى بن كثير : فنظرنا في ذلك ، فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته^(١) .

اللهم ؛ اجعلنا من محبي المحييين لك يا رب العالمين ؛ فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) الخبر عند الحكيم الترمذي في « نوارد الأصول » (ص ٦٩) بتمامه ، وأما حديث الأبدال . . فقد أورد تخريجه وطرقه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣٨٥ / ٨) .

بيان الطرق في معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم : أنَّ الكبرَ مِنَ المهلكاتِ ، ولا يخلو أحدٌ مِنَ الخلقِ عن شيءٍ منه ، وإزالتهُ فرضٌ عينٍ ، ولا يزولُ بمجردِ التمني ، بل بالمعالجة واستعمالِ الأدويةِ القامعةِ له .

وفي معالجتهِ مقامانِ :

أحدهما : استئصالُ أصلِهِ مِنْ سِنِّهِ ، وقلعُ شجرَتِهِ مِنْ مغرِسِهَا فِي القلبِ .

والثاني : دفعُ العارضِ مِنْهُ بِالأسبابِ الخاصةِ التي بها يتكبرُ الإنسانُ عَلَى غَيْرِهِ .

المقامُ الأولُ : فِي استئصالِ أصلِهِ :

وعلاجهُ : علميٌّ وعمليٌّ ، ولا يتمُّ الشفاءُ إِلَّا بِمجموعِهما .

أما العلميُّ : فهو أن يعرفَ نفسَهُ ، ويعرفَ رَبَّهُ تعالى ، ويكفيه ذلك في إزالةِ الكبرِ ، فَإِنَّهُ مَهْمَا عَرَفَ نَفْسَهُ حَقَّ المَعْرِفَةِ . . علمَ أَنَّهُ أَذَلُّ مِنْ كُلِّ ذليلٍ ، وَأَقَلُّ مِنْ كُلِّ قليلٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا التواضعُ والذَلَّةُ والمهانةُ ، وَإِذَا عَرَفَ رَبَّهُ . . علمَ أَنَّهُ لَا تَلِيقُ العِظَمَةُ والكِبَرِيَاءُ إِلَّا بِاللَّهِ .

أما معرفته ربّه وعظمته ومجده.. فالقول فيه يطول ، وهو منتهى علم المكاشفة .

وأما معرفته نفسه.. فهو أيضاً يطول ، ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة ، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله ، فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته ، وقد قال تعالى : ﴿ قَدْ آتَيْنَا مَا أَكْفَرُوا مِنْ آيٍ شَيْءٍ خَلَقْنا مِنْ تُفْلَةٍ خَلَقْنا فَقَدَرُوا ثُمَّ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ۚ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرْنَاهُ ۚ ﴾ .

فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان ، وإلى آخر أمره ، وإلى وسطه ، فليُنظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية .

أما أول الإنسان.. فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، وقد كان في حيّز العدم دهوراً ، بل لم يكن لعدمه أول ، وأي شيء أحسن وأقل من المحو والعدم ؟! وقد كان كذلك في القدم ، ثم خلقه الله من أذل الأشياء ، ثم من أقدرها ؛ إذ قد خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقية ، ثم من مضغة ، ثم جعله عظماً ، ثم كسا العظم لحماً ، فقد كان هذا بداية وجوده ، حيث صار شيئاً مذكوراً ، فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أحسن الأوصاف والنعوت ؛ إذ لم يُخلق في ابتدائه كاملاً ، بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يحس ولا يتحرك ، ولا ينطق ولا يبطش ، ولا يدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته قبل حياته ، وبضعفه قبل قوته ، وبجهله

قبل علمه ، وبعماءه قبل بصره ، وبصممه قبل سمعه ، وبكمه قبل نطقه ، وبضلالته قبل هداؤه ، وبفقره قبل غناه ، وبعجزه قبل قدرته .

فهذا معنى قوله : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ ﴾ من نطفة خلقكم فقدره ، ومعنى قوله : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ، كذلك خلقه أولاً ، ثم امتنَّ عليه فقال : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ ، وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت .

وكذلك قال : ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ، ومعناه : أنه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً ، تراباً أولاً ، ونطفة ثانياً ، وأسمعه بعدما كان أصم ، وبصره بعدما كان فاقداً للبصر ، وقواه بعد الضعف ، وعلمه بعد الجهل ، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقر لها ، وأغناه بعد الفقر وأشبعه بعد الجوع ، وكساه بعد العري ، وهداه بعد الضلال .

فانظر كيف دبره وصوره ، وإلى السبيل كيف يسره ، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره ، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ .

فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة ، فصار موجوداً بعد العدم ، وحيّاً بعد الموت ،

وناطقاً بعد البكم ، وبصيراً بعد العمى ، وقوياً بعد الضعف ، وعالماً بعد الجهل ، ومهتدياً بعد الضلال ، وقادراً بعد العجز ، وغنياً بعد الفقر ، فكان في ذاته لا شيء ، وأي شيء أحسن من لا شيء ؟! وأي قلة أقل من العدم المحض ؟! ثم صار بالله شيئاً .

وإنما خلقه من التراب الدليل الذي يوطأ بالأقدام ، والنطفة القدرة بعد العدم المحض ؛ ليعرفه خسته ذاته ، فيعرف به نفسه ، وإنما أكمل النعمة عليه ؛ ليعرف بها ربه ، ويعلم بها عظمتة وجلاله ، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جلّ وعلا ، ولذلك امتنّ عليه فقال : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ ۖ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۚ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ وعرفه خسته أولاً فقال : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ يَمَنِ ۚ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ ، ثم ذكر منته عليه فقال : ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّى ۚ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده ابتداءً بالاختراع .

فمن كان هذا بدأه وهذه أحواله.. فمن أين له البطر والكبرياء ، والفخر والخيلاء ، وهو على التحقيق أحسن الأخساء ، وأضعف الضعفاء ؟!

ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته.. شمع بأنفه وتعظم ؛ وذلك لدلالة خسته أوله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

نعم ، لو أكمله وفوض إليه أمره ، وأدام له الوجود باختياره.. لجاز أن يطغى ، وينسى المبتدأ والمنتهى ، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده

الأمراض الهائلة ، والأسقام العظيمة ، والآفات المختلفة ، والطبائع المتضادة ؛ مِنَ المِرَّة ، والبلغم ، والريح ، والدم ، يهدم البعض مِنْ أجزائه البعض ، شاءَ أم أبى ، رضيَ أم سَخِطَ ، فيجوعُ كرهاً ، ويعطشُ كرهاً ، ويمرضُ كرهاً ، ويموتُ كرهاً ، لا يملكُ لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، ولا خيراً ولا شراً ، يريدُ أن يعلمَ الشيءَ فيجهلهُ ، ويريدُ أن يذكرَ الشيءَ فينساهُ ، ويريدُ أن ينسى الشيءَ ويغفلَ عنه فلا يغفلُ عنه ، ويريدُ أن يصرفَ قلبه إلى ما يهيمُه فيجولُ في أودية الوسواسِ والأفكارِ بالاضطرارِ ، فلا يملكُ قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه ، يشتهي الشيءَ وربما يكونُ هلاكه فيه ، ويكرهُ الشيءَ وربما تكونُ حياته فيه ، يستلذُّ الأطعمةَ وهي تهلكه وتُرديه ، ويستبشعُ الأدويةَ وهي تنفعه وتحياه ، ولا يأمنُ في لحظةٍ مِنْ ليله أو نهاره أن يُسلبَ سمعه وبصره ، وتُفلجَ أعضاؤه ، ويُختلسَ عقله ، ويُختطفَ روحه ، ويُسلبَ جميعُ ما يهواه في دنياه ، فهو مضطربٌ ذليلٌ ، إن تركَ . . بقي ، وإن اختطفَ . . فني ، عبدٌ مملوكٌ لا يقدرُ على شيءٍ مِنْ نفسه ، ولا مِنْ غيره ، فأَيُّ شيءٍ أدلُّ منه لو عرفَ نفسه ؟! وأَيُّ يَلِيقُ الكبرُ به لولا جهله ؟!

فهذا أوسطُ أحواله ، فليتأملهُ .

وأما آخرُهُ وموردُهُ . . فهو الموتُ المشارُ إليه بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَانُهُ فَأَقْبَرُهُ ﴾ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿ ومعناه : أَنَّهُ يسلبُ روحه ، وسمعه وبصره ، وعلمه وقدرته ، وحسَّه ، وإدراكه وحركته ، فيعودُ جماداً كما كانَ أوَّلَ مرةٍ ، لا يبقى إلا شكلُ أعضائه وصورته ، لا حسَّ فيه ولا حركةً ، ثُمَّ يُوضعُ في

التراب فيصيرُ جيفةً منتنةً قدرةً ؛ كما كانَ في الأوَّلِ نطفةً مذرَّةً ، ثمَّ تبلى أعضاؤه ، وتفتَّتْ أجزاؤه ، وتنخرُ عظامُه فتصيرُ رميماً ورفاتاً ، ويأكلُ الدودُ أجزاءه ، فيبتدىءُ بحدقتيه فيقلعهما ، وبخدييه فيقطعهُما ، وبسائرِ أجزائه فيصيرُ روثاً في أجوافِ الديدانِ ، ويكونُ جيفةً يهربُ منه الحيوانُ ، ويستقدرُه كلُّ إنسانٍ ويهربُ منه لشدةُ الإنتانِ ، وأحسنُ أحواله أن يعودَ إلى ما كانَ ، فيصيرَ تراباً يُعملُ منه الكيزانُ ، ويعمرُ به البنيانُ ، ويصيرُ مفقوداً بعدما كانَ موجوداً ، وصارَ كأنَّ لم يَغْنَ بالأمسِ حصيداً ؛ كما كانَ في أوَّلِ أمرِه أمداً مديداً .

وليتَّه بقيَ كذلكَ ، فما أحسنُه لو تركَ تراباً ! لا بل يحبُّه بعدَ طولِ البلى ؛ ليقاسيَ شدائدَ البلاءِ ، فيخرجُ مِنْ قبرِه بعدَ جمعِ أجزائه المتفرقةِ ، ويُخرجُ إلى أهوالِ القيامةِ ، فينظرُ إلى قيامةِ قائمةِ ، وسماءٍ ممزقةٍ مشققةٍ ، وأرضٍ مبدلةٍ ، وجبالٍ مسيرةٍ ، ونجومٍ منكدرَةٍ ، وشمسٍ منكسفةٍ ، وأحوالٍ مظلمةٍ ، وملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ وجحيمٍ تزفرُ ، وجنةٍ ينظرُ إليها المجرمُ فيتحسّرُ ، ويرى صحائفَ منشورةً ، فيقالُ له : اقرأ كتابك ، فيقولُ وما هو ؟ فيقالُ : كانَ قد وُكِّلَ بك في حياتك التي كنتَ تفرحُ بها وتكبرُ بنعيمها وتفتخرُ بأسبابها ملكانِ رقيبانِ ، يكتبانِ عليك ما كنتَ تنطقُ به أو تعملُه ؛ مِنْ قليلٍ وكثيرٍ ، وصغيرٍ وكبيرٍ ، ونقيِرٍ وقطميرٍ ، وأكلٍ وشربٍ ، وقيامٍ وقعودٍ ، قد نسيتَ ذلكَ وأحصاهُ اللهُ تعالى عليك ، فهلَمَّ إلى الحسابِ ، واستعدَّ للجوابِ ، أو تساقَ إلى دارِ العذابِ ، فينقطعُ قلبُه فزعاً

مِنْ هَوْلِ هَذَا الْخُطَابِ ، قَبْلَ أَنْ تُنْشَرَ الصَّحِيفَةُ وَيُشَاهَدَ مَا فِيهَا مِنْ مَخَازِيهِ ،
فَإِذَا شَاهَدَهُ . . قَالَ : ﴿ يَوَيْلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
أَخَصَّنَاهَا ﴾ ، فَهَذَا آخِرُ أَمْرِهِ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ .

فَمَا لِمَنْ هَذَا حَالُهُ وَلِلتَّكْبِيرِ ؟ ! بَلْ مَا لَهُ وَلِلْفَرْحِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ فَضْلاً
عَنِ الْبَطْرِ وَالتَّجْبِيرِ ؟ ! فَقَدْ ظَهَرَ لَهُ أَوَّلُ حَالِهِ وَوَسْطُهُ ، وَلَوْ ظَهَرَ آخِرُهُ وَالْعِيَاذُ
بِاللَّهِ تَعَالَى . . رَبِّمَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلْباً أَوْ خَنْزِيراً ؛ لِيَصِيرَ مَعَ الْبَهَائِمِ تَرَاباً ،
وَلَا يَكُونَ إِنْسَاناً يَسْمَعُ خُطَاباً وَيَلْقَى عَذَاباً ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مُسْتَحَقّاً
لِلنَّارِ . . فَالْخَنْزِيرُ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَطْيَبُ وَأَرْفَعُ ؛ إِذْ أَوَّلُهُ التَّرَابُ ، وَآخِرُهُ
التَّرَابُ ، وَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْحِسَابِ وَالْعَذَابِ ، وَالْكَلْبُ وَالْخَنْزِيرُ لَا يَهْرَبُ
مِنْهُ الْخَلْقُ ، وَلَوْ رَأَى أَهْلُ الدُّنْيَا الْعَبْدَ الْمَذْنُوبَ فِي النَّارِ . . لَصَعَقُوا مِنْ وَحْشَةِ
خَلْقَتِهِ وَقَبِحِ صُورَتِهِ ، وَلَوْ وَجَدُوا رِيحَهُ . . لَمَاتُوا مِنْ نَتْنِهِ ، وَلَوْ وَقَعَتْ قَطْرَةٌ
مِنْ شَرَابِهِ الَّذِي يُسْقَى مِنْهُ فِي بَحَارِ الدُّنْيَا . . لَصَارَتْ أَنْتَنَ مِنَ الْجَيْفَةِ ، فَمَنْ
هَذَا حَالُهُ فِي الْعَاقِبَةِ - إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ مَوْلَاهُ وَهُوَ عَلَى شَكٍّ مِنَ الْعَفْوِ - كَيْفَ
يَفْرَحُ وَيَبْطُرُ ، وَكَيْفَ يَتَكَبَّرُ وَيَتَجَبَّرُ ؟ ! وَكَيْفَ يَرَى نَفْسَهُ شَيْئاً حَتَّى يَعْتَقِدَ لَهُ
فَضْلاً ؟ ! وَأَيُّ عَبْدٍ لَمْ يَذْنِبْ ذَنْباً اسْتَحَقَّ بِهِ الْعُقُوبَةَ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ الْكَرِيمُ
بِفَضْلِهِ ، وَيَجْبِرَ الْكَسَرَ بِمَنْنِهِ ؟ ! وَالرَّجَاءُ مِنْهُ ذَلِكَ ؛ لِكَرَمِهِ وَحَسَنِ الظَّنِّ بِهِ ،
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

أَرَأَيْتَ مَنْ جَنَى عَلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ فَاسْتَحَقَّ بِجُنَايَتِهِ ضَرْبَ أَلْفِ سَوْطٍ ،
فُجِسَ فِي السِّجْنِ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَنْ يُخْرَجَ إِلَى الْعَرْضِ ، وَتُقَامَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ عَلَى

ملاً مِنْ الخلقِ ، وليسَ يدري أيعفى عنه أم لا . . كيف يكونُ ذلُّه في السجنِ ؟ أفتريُّ أنَّه يتكبرُ على مَنْ في السجنِ ؟ وما مِنْ عبدٍ مذنِبٍ إلا والدنيا سجنُهُ ، وقد استحقَّ العقوبةَ مِنْ اللهِ تعالى ، ولا يدري كيفَ يكونُ آخرُ أمرِهِ ؟ فيكفيه ذلكَ حزناً ، وخوفاً وإشفاقاً ، ومهانةً وذللاً .

فهذا هو العلاجُ العلميُّ القامعُ لأصلِ الكبرِ .

وأما العلاجُ العمليُّ : فهو التواضعُ بالفعلِ لله ولسائرِ الخلقِ ؛ بالمواظبةِ على أخلاقِ المتواضعينَ ، كما وصفناه وحكيناه مِنْ أحوالِ الصالحينَ ، وَمِنْ أحوالِ رسولِ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم ، حتَّى إنَّه كانَ يأكلُ على الأرضِ ويقولُ : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكَلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ » (١) .

وقيلَ لسلمانَ : لِمَ لا تلبسُ ثوباً جديداً ؟ فقالَ : إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فإذا أعتقتُ يوماً . . لبستُ جديداً (٢) ، أشارَ بِهِ إلى العتقِ في الآخرةِ ، ولا يتمُّ التواضعُ بعدَ المعرفةِ إلا بالعملِ .

ولذلكَ أُمِرَ العربُ الذينَ تكبرُوا على اللهِ ورسولهِ بالإيمانِ وبالصلاةِ جميعاً ، وقيلَ : الصلاةُ عمادُ الدينِ (٣) ، وفي الصلاةِ أسرارٌ لأجلِها كانتِ

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٣) من زيادات نعيم بن حماد ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٤١٥ / ١٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٨) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٥٥٠) .

عماداً ، ومن جملتها : ما فيها من التواضع بالمثل قائماً ، وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الانحناء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينگس رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا أحرر إلا قائماً^(١) ، فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك ، فلما كان السجود عندهم هو منتهى المذلة والضعة . . أمروا به ؛ لينكسر بذلك خيلاؤهم ، ويزول كبرهم ، ويستقر التواضع في قلوبهم ، وبه أمر سائر الخلق ؛ فإن الركوع والسجود والمثل قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع .

فكذلك من عرف نفسه . . فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه ، حتى يصير التواضع له خلقاً ، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً ؛ وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح ، وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت ، والقلب من عالم الملكوت .



المقام الثاني : فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة :

وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل ، فأما

(١) رواه النسائي (٢٠٥/٢) .

ما عداه ممّا يفنى بالموت . . فكمالٌ وهميٌّ ، فمن هذا يعسرُ على العالمِ ألاّ يتكبرَ ، ولكنّا نذكرُ طريقَ العلاجِ مِنَ العلمِ والعملِ في جميعِ الأسبابِ السبعة .



الأولُ : النسبُ :

فمن يعتريه الكبرُ من جهة النسب . . فليداوِ قلبه بمعرفةِ أمرين :
أحدهما : أن هذا جهلٌ من حيث إنّه تعزّزُ بكمالٍ غيره ؛ ولذلك قيل^(١) :

لئن فخرتَ بأبائِ ذوي شرفٍ لقد صدقتَ ولكنِ بشَرٍ ما ولدوا
فالمتكبرُ بالنسبِ إن كان خسيساً في صفاتِ ذاته . . فمن أين يجبرُ خسته بكمالٍ غيره ؟ بل لو كان الذي يتسبُّ إليه حياً . . لكان له أن يقولَ : الفضلُ لي ، ومن أنت ؟ وإنما أنت دودةٌ خلقتَ من بولي ، أفترى أن الدودةَ التي خلقتَ من بولِ الإنسانِ أشرفُ من الدودةِ التي من بولِ فرسٍ ؟ هيهات ! فهما متساويتان ، والشرفُ للإنسانِ لا للدودةِ .

الثاني : هو أن يعرفَ نسبه الحقيقيَّ ، فيعرفَ أباهُ وجدّه ، فإنَّ أباهُ القريبَ نطفةٌ قدرةٌ ، وجدّه البعيدُ ترابٌ ذليلٌ ، وقد عرفه الله تعالى نسبه

(١) البيت لابن الرومي في «ديوانه» (٨٠٨/٢) .

فَقَالَ : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ، فَمَنْ أَصْلُهُ مِنَ التَّرَابِ الْمُهِينِ الَّذِي يُدَاسُّ بِالْأَقْدَامِ ، ثُمَّ خُمِّرَ طِينُهُ حَتَّى صَارَ حَمَآ مَسْنُونًا . . كَيْفَ يَتَكَبَّرُ وَأَخْسُ الْأَشْيَاءِ مَا إِلَيْهِ انْتِسَابُهُ ؛ إِذْ يُقَالُ : يَا أَذَلَّ مِنَ التَّرَابِ ، وَيَا أَنْتَنَ مِنَ الْحَمَاءِ ، وَيَا أَقْدَرَ مِنَ الْمُضْغَةِ ؟ !

فَإِنْ كَانَ كَوْنُهُ مِنْ أَبِيهِ أَقْرَبَ مِنْ كَوْنِهِ مِنَ التَّرَابِ . . فنقولُ : افتخرْ بِالْقَرِيبِ دُونَ الْبَعِيدِ ، فَالْنُطْفَةُ وَالْمُضْغَةُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَبِ ، فليحقرْ نَفْسَهُ بِذَلِكَ ، ثُمَّ إِنْ كَانَ ذَلِكَ يَوْجِبُ رَفْعَةً لِّقَرْبِهِ . . فَلأَبُ الْأَعْلَى مِنَ التَّرَابِ ؛ فَمِنْ أَيْنَ رَفَعْتُهُ ؟ ! وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ رَفْعَةٌ . . فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتِ الرِّفْعَةُ لَوْلَاهُ ؟ ! .

فَإِذَا ؛ أَصْلُهُ مِنَ التَّرَابِ ، وَفَصْلُهُ مِنَ النُّطْفَةِ ، فَلَا أَصْلَ لَهُ وَلَا فَصْلَ ، وَهَذَا غَايَةُ خَسَّةِ النَّسَبِ ، فَلْأَصْلُ يُوطَأُ بِالْأَقْدَامِ ، وَالْفَصْلُ تُغْسَلُ مِنْهُ الْأَبْدَانُ ، فَهَذَا هُوَ النَّسَبُ الْحَقِيقِيُّ لِلْإِنْسَانِ ، وَمَنْ عَرَفَهُ . . لَمْ يَتَكَبَّرْ بِالنَّسَبِ ، وَيَكُونُ مِثَالُهُ بَعْدَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَانْكَشَافِ الْغَطَاءِ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ أَصْلِهِ كَرَجُلٍ لَمْ يَزَلْ عِنْدَ نَفْسِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَقَدْ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ وَالِدَاهُ ، فَلَمْ تَزَلْ فِيهِ نَخْوَةُ الشَّرَفِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَخْبَرَهُ عَدُوٌّ لَا يَشْكُ فِي قَوْلِهِمْ أَنَّهُ ابْنُ هَنْدِيٍّ حَجَّامٍ يَتَعَاطَى الْقَاذُورَاتِ ، وَكَشَفُوا لَهُ وَجْهَ التَّلْبِيسِ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَكٌّ فِي صَدْقِهِمْ ، أَفَتَرَى أَنَّ ذَلِكَ يُبْقِي شَيْئًا مِنْ كِبَرِهِ ؟ لَا بَلْ يَصِيرُ

عند نفسه أحقر الناس وأذلهم ، فهو من استشعار الخزي لخسسته في شغل عن أن يتكبر على غيره .

فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله ، وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب ؛ إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب ، أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها . لكان يعلم به خسة نفسه ؛ لمماسه أعضاء أبيه للتراب والدم ، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي ينتزعه منها هو في نفسه ؟!



السبب الثاني : التكبر بالجمال :

ودواؤه : أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم ، ومهما نظر إلى باطنه . رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بجماله ؛ فإنه وكل به الأقدار في جميع أجزائه ، الرجيع في أمعائه ، والبول في مثانته ، والمخاط في أنفه ، والبزاق في فيه ، والوسخ في أذنيه ، والدم في عروقه ، والصدید تحت بشرته ، والصنان تحت إبطيه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفتين ، ويردد إلى الخلاء كل يوم مرة أو مرتين ؛ ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه . لاستقذره ، فضلاً عن أن يمسه أو يشمه ، كل ذلك ليعرف قذارته وذلة ، هذا في حال توسطه .

وفي أول أمره خلق من الأقدار الشنيعة الصور ؛ من النطفة ودم الحيض ،

وأُخرجَ مِنْ مجرى الأقدارِ ؛ إذْ خرجَ مِنَ الصُّلبِ ثمَّ مِنَ الذَّكَرِ مجرى البولِ ، ثمَّ مِنَ الرحمِ مُفيضِ دمِ الحيضِ ، ثمَّ خرجَ مِنْ مجرى القدرِ .

قالَ أنسٌ رحمه اللهُ : كَانَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنه يخطبُنا ، فيَقْدُرُ إلينا أنفسنا ويقولُ : (خرجَ أحدُكُمْ مِنْ مجرى البولِ مرتينِ)^(١) .

وكذلكَ قالَ طاووسٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : ما هَذِهِ مشيئةٌ مَنْ في بطنِهِ خِرَةٌ ؛ إذْ رآهُ يتبخترُ ، وكانَ ذلكَ قَبْلَ خلافتِهِ^(٢) .

هَذَا أولُهُ ووسطُهُ ، ولو تركَ نفسَهُ في حَيَاتِهِ يوماً لَمْ يتعهدْها بالتنظيفِ والغسلِ .. لثارتَ مِنْهُ الأنتانُ والأقدارُ ، وصارَ أقدرَ وأتَنَ مِنَ الدوابِّ المهملَةِ التي لا تتعهدُ نفسها قطُّ .

فإذا نظَرَ أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ أقدارٍ ، وأسكنَ في أقدارٍ ، وسيموتُ فيصيرُ جيفةً أقدرَ مِنْ سائرِ الأقدارِ .. لَمْ يفتخرْ بجماله الذي هو كخضراءِ الدمنِ ، وكلونِ الأزهارِ في البوادي ، بينما هو كذلكَ إذْ صارَ هشيمًا تذروه الرياحُ ، كيفَ ولو كانَ جماله باقياً وعن هذه القبائحِ خالياً .. لكانَ يجبُ ألا يتكبرَ بِهِ على القبيحِ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ قُبْحُ القبيحِ إِلَيْهِ فينفيهِ ، ولا كانَ جمالُ الجميلِ إِلَيْهِ حتَّى يُحمدَ عَلَيْهِ ، كيفَ ولا بقاءَ لَهُ ؟! بل هو في كُلِّ حالةٍ يُتصوَّرُ أنْ يزولَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤١) .

بمرضٍ ، أو جذريٍّ ، أو قرحةٍ ، أو سببٍ من الأسبابِ ، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسبابِ .

فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها .



السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيد^(١) :

ويمنعهُ من ذلك أن يعلم ما سُلِّطَ عليه من العلل والأمراضِ ، وأنه لو توجَّع عرقٌ واحدٌ في بدنه.. لصارَ أعجزَ من كلِّ عاجزٍ ، وأذلَّ من كلِّ ذليلٍ ، وأنه لو سلبهُ الذبابُ شيئاً.. لم يستنقذه منه ، وأنَّ بقَّةً لو دخلتْ أنفه ، أو نملةٌ دخلتْ أذنه.. لقتلته ، وأنَّ شوكةً لو دخلتْ رجله.. لأعجزته ، وأنَّ حمىً يومٍ تحللُ من قوته ما لا ينجرُّ في مدةٍ ، فمن لا يطيقُ شوكةً ، ولا يقاومُ بقَّةً ، ولا يقدرُ على أن يدفعَ عن نفسه ذبابةً.. فلا ينبغي أن يفتخرَ بقوته .

ثم إنَّ أقوى إنسانٍ لا يكونُ أقوى من حمارٍ أو بقرةٍ أو فيلٍ أو جملٍ ، وأيُّ افتخارٍ في صفةٍ تسبقك البهائمُ فيها ؟!



(١) الأيد : القوة ، قال سبحانه : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَأْتِيكُ﴾ .

السبب الرابع والخامس : الغنى وكثرة المال :

وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار ، والتكبر بولاية السلاطين ، والتمكن من جهتهم ، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان ، لا كالجمال والقوة والعلم ، وهذا أقبح أنواع التكبر ، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ، ولو مات فرسه وانهدمت داره . . لعاد ذليلاً ، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه . . بنى أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر ، فإن تغير عليه . . كان أذل الخلق ، وكل متكبر بامر خارج عن ذاته . . فهو ظاهر الجهل .

كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل . . لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل ؟! فأف لشرف يسبقك به اليهود ، وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً .

فهذه أسباب ليست في ذاته ، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده ، وهو في الآخرة وبال ونكال ، فالتفاخر به غاية الجهل ، وكل ما ليس إليك فليس لك ، وشيء من هذه الأمور ليس إليك ، بل إلى واهبه ؛ إن أبقاه . . بقي لك ، وإن استرجعه . . زال عنك ، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء ، فمن عرف ذلك . . لا بد وأن يزول كبره .

ومثاله : أن يفتخر الغافل بقوته ، وجماله ، وماله ، وحرّيته ، واستقلاله ، وسعة منازل ، وكثرة خيوله وعلمانه ؛ إذ شهد عليه شاهدان

عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان ، وأن أبويه كانا مملوكين له ،
 فعلم ذلك وحكم به الحاكم ، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يده ،
 وهو يخشى مع ذلك أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله ، وتقصيره في
 طلب مالِكِه ليعرف أن له مالكا ، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في
 منزل ، قد أهدقت به الحيات والعقارب والهوام ، وهو في كل حال على
 وجل من كل واحدة منها ، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ، ولا يعرف
 طريقاً إلى الخلاص ألبتة ، أفترى أن من هذا حاله هل يفتخر بقدرته وثروته
 وقوته وكماله ، أم يذل في نفسه ويخضع ؟

وهذا حال كل عاقل بصير ، فإنه يرى نفسه كذلك ، فإنه لا يملك رقبته
 وبدنه وماله وأعضائه ، وهو مع ذلك بين آفات ، وشهوات وأمراض وأسقام
 هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك ، فمن هذا حاله لا يتكبر بقدرته
 وقوته ؛ إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة .

فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة ، وهو أهون من علاج
 التكبر بالعلم والعمل ؛ فإنهما كمالان في النفس ، جديران بأن يفرح بهما ،
 ولكن في التكبر بهما أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره .



السبب السادس : الكبر بالعلم :

وهو أعظم الآفات ، وأغلب الأدوية ، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة

شديدة وجهد جهيد ؛ وذلك لأنَّ قدر العلم عظيم عند الله ، عظيم عند الناس ، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما ، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل .

ولذلك قال كعبُ الأحرار : (إنَّ للعلم طغياناً كطغيانِ المال)^(١) .

ولذلك قال عمرُ رضي الله عنه : (العالمُ إذا زلَّ . . زلَّ بزُلَّتِهِ عالمٌ)^(٢) ، فيعجزُ العالمُ عن ألاَّ يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل ؛ لكثرة ما نطق الشرعُ بفضائل العلم .

ولنْ يقدرَ العالمُ على دفعِ الكبرِ إلا بمعرفةِ أمرين :

أحدهما : أنْ يعلمَ أنَّ حجةَ الله على أهلِ العلمِ آكدُ ، وأنهْ يحتملُ من الجاهلِ ما لا يحتملُ عشرُهُ من العالمِ ، وأنَّ مَنْ عصى الله تعالى عن معرفةِ وعلمِ . . فجنايتهُ أفحشُ ؛ إذ لم يقضِ حقَّ نعمةِ الله عليه في العلمِ .

ولذلك قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « يُؤْتَى بالعالمِ يومَ القيامةِ فيُلْقَى في النارِ ، فتندلقُ أقتابُهُ ، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرحى ، فيطيفُ بهِ أهلُ النارِ فيقولونَ : ما لك ؟ فيقولُ : كنتُ أمرُ

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٤٠٦) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٥ / ٤) عن وهب بن منبه .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٤٠٦) قاله لتعيم الداري رضي الله عنهما ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٧٤) من قول سيدنا عيسى عليه السلام .

بالخير ولا آتية ، وأنهى عن الشر وآتية ^(١) .

وقد مثل الله سبحانه وتعالى مَنْ يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب ، فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أراد به علماء اليهود ، وقال في بلعم بن باعوراء : ﴿ وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْتَهُ ءَايَاتِنَا فَأَنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : (أوتي بلعم كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض) ^(٢) أي : سكن حبه إليها ، فمثله بالكلب ، ﴿ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ أي : سواء آتيت الحكمة أو لم أوتيه فلا يدع شهوته .

ويكفي العالم هذا الخطر ، فأئى عالم لم يتبع شهوته ؟ وأئى عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه ؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل . . فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره ؛ كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك ، وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه ، فإنه إذا أخذ وقهر . . اشتهى أن يكون قد كان فقيراً ، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه .

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقصاب : الأمعاء .

(٢) الرعاية (ص ٤٠٨) ، وانظر مجمل الأقوال عند الطبري في « تفسيره » (١٥٤/٩/٦) .

فهذا الخطرُ يمنعُ من التكبرِ ؛ لأنه إن كانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . . فالخزيرُ
أفضلُ منه ، فكيفَ يتكبرُ مَنْ هذا حاله ؟

فلا ينبغي أن يكونَ العالمُ عندَ نفسه أكبرَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ
يقولُ : (يا لَيْتَنِي لَمْ تَلِدْنِي أُمِّي)^(١) .

ويأخذُ الآخَرُ تَبَنَةً مِنَ الْأَرْضِ ويقولُ : (يا لَيْتَنِي كُنْتُ هَذِهِ التَّبَنَةُ)^(٢) .

ويقولُ الآخَرُ : (يا لَيْتَنِي كُنْتُ طَيْرًا أَوْ كَلًّا)^(٣) .

ويقولُ الآخَرُ : (لَيْتَنِي لَمْ أَكُ شَيْئًا مَذْكُورًا)^(٤) .

كُلُّ ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ خَطَرِ الْعَاقِبَةِ ، فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ أَسْوَأَ حَالًا مِنَ
الطَّيْرِ وَمِنَ التُّرَابِ .

ومهما أَطَالَ فِكْرُهُ فِي الْخَطَرِ الَّذِي هُوَ بِصَدْدِهِ . . زَالَ بِالْكَلِيَّةِ كِبَرُهُ ،
وَرَأَى نَفْسَهُ كَأَنَّهُ شَرُّ الْخَلْقِ .

ومثالهُ مثَالُ عَبْدٍ أَمَرَهُ سَيِّدُهُ بِأُمُورٍ فَشَرَعَ فِيهَا ، فَتَرَكَ بَعْضَهَا وَأَدْخَلَ

(١) روى ذلك عن سيدنا عمر رضي الله عنه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) ، وابن

أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١٣ / ٤٤) .

(٢) هو الخبر المروي عن سيدنا عمر رضي الله عنه المذكور آنفاً .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٧٣) ، وهناد في « الزهد » (٤٤٩) ،

والبيهقي في « الشعب » (٧٦٨) عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٢٨) عن عبد العزيز بن مروان .

النقصان في بعضها ، وشك في بعضها أنه هل أذاها كما يرتضيه مولاة أم لا ؟ فأخبره مخبراً أن مولاة مرسل إليه رسولاً يخرجهُ مِنْ كُلِّ ما هوَ فيه عرياناً ذليلاً ، ويلقيه على بابهِ في الشمسِ والحرِّ زماناً طويلاً ، حتَّى إذا ضاقَ عليه الأمرُ ، وبلغَ به الجهدُ . أمرَ برفعِ حسابِهِ وفتشَ عن جميعِ أعمالِهِ قليلها وكثيرها ، ثمَّ أمرَ به إلى سجنٍ ضيقٍ وعذابٍ دائمٍ لا يُروِّحُ عنه ساعةً ، وقد علمَ أنَّ سيِّدَهُ قد فعلَ بطوائفَ مِنْ عبيدِهِ مثلَ ذلكَ وعفا عن بعضهم ، وهو لا يدري أنَّه مِنْ أيِّ الفريقينِ يكونُ ، فإذا تفكَّرَ في ذلكَ . . انكسرتَ نفسُهُ وذلكَ ، وبطلَ عزُّهُ وكبرُّهُ ، وظهرَ حزنُهُ وخوفُهُ ، ولمَ يتكَبَّرْ على أحدٍ مِنَ الخلقِ ، بل تواضعَ رجاءً أن يكونَ هوَ مِنْ شفعاثِهِ عندَ نزولِ العذابِ بِهِ ، فكذلكَ العالمُ إذا تفكَّرَ فيما ضيَّعَهُ مِنْ أوامرِ رَبِّهِ بجنایاتٍ على جوارحِهِ ، وبذنوبٍ في باطنِهِ مِنَ الرياءِ ، والحسدِ والحقدِ والعُجبِ ، والنفاقِ ، وغيرِهِ ، وعلمَ ما هوَ بصددِهِ مِنَ الخطرِ العظيمِ . . فارقه كبرُهُ لا محالةً .

الأمرُ الثاني : أنَّ العالمَ يعرفُ أنَّ الكبرَ لا يليقُ إلا باللهِ عزَّ وجلَّ وحدهُ ، وأنَّه إذا تكَبَّرَ . . صارَ ممقوتاً عندَ اللهِ تعالى بغيضاً ، وقد أحبَّ اللهُ مِنْهُ أن يتواضعَ ، وقالَ لَهُ : إِنَّ لَكَ عِنْدِي قدراً ما لَمْ تَرَ لِنَفْسِكَ قدراً ، فَإِنْ رَأَيْتَ لِنَفْسِكَ قدراً . . فلا قدرَ لَكَ عِنْدِي ، فلا بدَّ وأنَّ يكلِّفَ نَفْسَهُ ما يحِبُّهُ مولاةُ ، وهذا يزيلُ التكَبُّرَ عَنْ قَلْبِهِ وَإِنْ كَانَ يَسْتَيْقِنُ أَنَّه لا ذَنْبَ لَهُ مثلاً إِنْ تُصَوِّرَ ذلكَ ، وبهذا زالَ التكَبُّرُ عَنِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ؛ إِذْ عَلِمُوا أَنَّ مَنْ نازَعَ اللهُ تعالى في رداءِ الكبرياءِ . . قصمَهُ ، وقد أمرَهُمُ اللهُ بأنَّ يستصغروا

أنفسَهُمْ حتَّى يعظُمَ عندَ اللهِ محلُّهُم ، فهذا أيضاً ممَّا يبعثُهُ على التواضع لا محالة .



فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق الظاهر الفسق والمبتدع ؟ وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالمٌ عابدٌ ؟ وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ؟ وكيف يعنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر ؟

فاعلم : أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة ، بل لو نظر إلى كافر . . لم يمكنه أن يتكبر عليه ؛ إذ يتصور أن يسلم الكافر فيُختم له بالإيمان ، ويضل هذا العالم ويُختم له بالكفر .

والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك ، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحققه وازدراه لكفره ، وقد رزقه الله الإسلام ، وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده !

فالعواقب مطوية عن العباد ، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة ، وجميع الفضائل في الدنيا تُراد للعاقبة .



فإذا ؛ حق العبد ألا يتكبر على أحد ، بل إن نظر إلى جاهل . . قال :

هذا عصي الله بجهل وأنا عصيته بعلم ، فهو أعذر مني ، وإن نظر إلى عالم . . قال : هذا قد علم ما لم أعلم ، فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنًا . . قال : إنه أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى صغير . . قال : إنني عصيت الله قبله ، فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال : ما يدريني لعله يُختم له بالإسلام ، ويُختم لي بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إليّ ؛ كما لم يكن ابتداؤها إليّ .

فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله تعالى ، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له ، ولعمري ؛ هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ، ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهم إلى نفسه ، مشغول القلب بخوفه لعاقبته ، لا أن يشتغل بخوف غيره ، فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه ، فإذا حُبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تُضرب رقابهم . . لم يتفرغوا للتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر ؛ إذ شغل كل واحد منهم هم نفسه عن الالتفات إلى هم غيره ، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره .



فإن قلت : فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضيهما ، ثم مع ذلك أتواضع لهما ، والجمع بينهما متناقض ؟
فاعلم : أن هذا أمرٌ مشتبه يلتبس على أكثر الخلق ؛ إذ يمتزج غضبك لله

في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع ، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه . . أزعجه من عنده ، وتنزّه منه بكبر باطن في نفسه ، وهو ظان أنه قد غضب الله ؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم^(١) ، وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شراً ، والحذر منه ممكن ، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير ؛ فإن الغضبان أيضاً يتكبر على من غضب عليه ، والمتكبر يغضب ، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه ، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون .



والذي يخلصك عن هذا : أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور : أحدها : التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ؛ ليصغر عند ذلك قدرك في عينك .

والثاني : أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لا لك ، فترى ذلك منه ؛ حتى لا تعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب . . لم تتكبر .

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٨٨) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٢٦) .

والثالث : ملاحظة إيهام عاقبتك وعاقبتِه ؛ وأنه ربّما يُختمُ لك بالسوء ويُختمُ له بالحسنى ، حتّى يشغلك الخوفُ عن التكبرِ عليه .



فإن قلت : فكيف أغضبُ مع هذه الأحوال ؟

فأقول : تغضبُ لمولاك وسيّدك ؛ إذ أمرَكَ أن تغضبَ له لا لنفسِكَ ، وأنتَ في غضبك لا ترى نفسَكَ ناجياً وصاحبَكَ هالِكاً ، بل يكونُ خوفُكَ على نفسِكَ بما علمَ اللهُ مِنْ خفايا ذنوبِكَ أكثرَ مِنْ خوفِكَ عليه مع الجهلِ بالخاتمةِ ، وأعرَّفَكَ ذلكَ بمثالٍ ؛ لتعلمَ أنه ليسَ مِنْ ضرورةِ الغضبِ لله أن تتكبرَ على المغضوبِ عليه وترى قدرَكَ فوقَ قدرِه ، فأقولُ :

إذا كانَ للملكِ غلامٌ وولدٌ هو قرّةُ عينِه ، وقد وَكَلَ الغلامَ بالولدِ ليراقبهُ ، وأمرُهُ أن يضربهُ مهما أساءَ أدبُهُ واشتغلَ بما لا يليقُ به ويغضبَ عليه ، فإن كانَ الغلامُ مطيعاً محبّاً لمولاهُ . . فلا يجدُ بداً مِنْ أن يغضبَ مهما رأى ولدهُ قد أساءَ الأدبَ وإنّما يغضبُ عليه لمولاهُ ؛ لأنَّهُ أمرُهُ به ، ولأنَّهُ يريدُ التقربَ بامثالِ أمرِه إليه ، ولأنَّهُ جرى مِنْ ولدهِ ما يكرهُ مولاهُ ؛ فيضربُ ولدهُ ويغضبُ عليه مِنْ غيرِ تكبرٍ عليه ، بل هو متواضعٌ له ، يرى قدرَهُ عندَ مولاهُ فوقَ قدرِ نفسِه ؛ لأنَّ الولدَ أعزُّ لا محالةً مِنَ الغلامِ .



فإذا ؛ ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع ، فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق ، وتظن أنه ربما كان قدرهما عند الله أعظم في الآخرة ؛ لما سبق لهما من الحسنى في الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل ، وأنت غافل عنه ، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك ؛ إذ جرى ما يكرهه ، مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة .

فهكذا يكون بغض العلماء الأكياس ، فينضم إليه الخوف والتواضع ، وأما المغرور . فإنه يتكبر ، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور .

فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله تعالى أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبة بحكم الأمر .



السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة :

وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد ، وسيله : أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد ، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان ؛ لما عرفه من فضيلة العلم ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد

كفضلي على أدنى رجلٍ من أصحابي»^(١) ، إلى غير ذلك ممّا وردَ في فضل العلم .

فإن قال العابدُ : ذلك لعالمٍ عاملٍ بعلمِهِ ، وهذا عالمٌ فاجرٌ . . فيقالُ لَهُ : أما علمتَ أن الحسناتِ يذهبن السيئاتِ ، وكما أن العلمَ يمكنُ أن يكونَ حجةً على العالمِ فكذلك يمكنُ أن يكونَ وسيلةً لَهُ وكفارةً لذنوبِهِ ، وكلُّ واحدٍ منهما ممكنٌ ، وقد وردتِ الأخبارُ بما يشهدُ لذلك ، وإذا كانَ هذا أمراً غائباً عنه . . لم يجزْ لَهُ أن يحتقرَ عالماً ، بل يجبُ عليه أن يتواضعَ لَهُ .



فإن قلتَ : فإنَّ صَحَّ هذا . . فينبغي أن يكونَ للعالمِ أن يرى نفسه فوق العابدِ ؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدنى رجلٍ من أصحابي » .

فاعلم : أن ذلكَ كانَ ممكناً لو علمَ العالمُ عاقبةَ أمرِهِ ، وخاتمةَ الأمرِ مشكوكٌ فيها ، فيحتملُ أن يموتَ بحيثُ يكونُ حالُهُ عندَ اللهِ أشدَّ مِنْ حالِ الجاهلِ الفاسقِ ؛ لذنْبِ واحدٍ كانَ يحسبُهُ هيناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ ، وقد مَقَّتُهُ بِهِ ، وإذا كانَ هذا ممكناً . . كانَ على نفسه خائفاً .



فإذا ؛ كانَ كلُّ واحدٍ مِنَ العالمِ والعابدِ خائفاً على نفسه ، وقد كُلفَ أمرَ

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

نفسه لا أمر غيره ، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف ، وفي حق غيره الرجاء ، وذلك يمنعه من الكبر بكل حال ، فهذا حال العابد مع العالم .

فأما مع غير العالم . . فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين ، فينبغي ألا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنباً ، وأكثر منه عبادة ، وأشد منه حباً لله تعالى ، وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك . . فلا ينبغي أن تتكبر عليه ، ولا يمكن أن تقول : هو أكثر مني ذنباً ؛ لأن عدد ذنوبك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة .

نعم ، يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد ؛ كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا ، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه ؛ إذ ذنوب القلوب من الكبر ، والحسد ، والرياء ، والغل ، واعتقاد الباطل ، والوسوسة في صفات الله تعالى ، وتخيل الخطأ في ذلك . . كل ذلك شديد عند الله ، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتاً ، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب ؛ من حب الله ، وإخلاص ، وخوف ، وتعظيم ما أنت خال عنه ، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فيكشف الغطاء يوم القيامة ، فتراه فوق نفسك بدرجات ، فهذا ممكن ، والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنت مشفقاً على نفسك ، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك ، بل فيما هو مخوف في حقك ؛

فإنه لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ، وعذابٌ غيرك لا يخففُ شيئاً من عذابك .
 فإذا تفكرت في هذا الخطرِ . . كان عندك شغلٌ شاغلٌ عن التكبرِ ، وعن
 أن ترى نفسك فوقَ غيرك ، وقد قال وهبُ بنُ منبهٍ : (ما تمَّ عقلُ عبدٍ حتَّى
 يكونَ فيه عشرُ خصالٍ ، فعَدَّ تسعةً حتَّى بلغَ العاشرةَ ، فقال : العاشرةُ
 وما العاشرةُ ؟ بها سادَ مجدهُ وعلا ذكرُهُ ؛ أن يرى الناسَ كلَّهُم خيراً منه ،
 وإنما الناسُ عندهُ فرقتانِ ؛ فرقةٌ هيَ أفضلُ منه وأرفعُ ، وفرقةٌ هيَ شرُّ منه
 وأدنى ، فهو يتواضعُ للفرقتينِ جميعاً بقلبه ، فإن رأى مَنْ هوَ خيرٌ منه . .
 سرَّه ذلكَ ، وتمنَّى أن يلحقَ به ، وإن رأى مَنْ هوَ شرُّ منه . . قال : لعلَّ هذا
 ينجو وأهلكُ أنا ، فلا تراهُ إلا خائفاً مِنَ العاقبةِ ، ويقولُ : لعلَّ برَّ هذا باطنٌ
 فذلكَ خيرٌ له ، ولا أدري ، ولعلَّ فيه خُلُقاً كريماً بينهُ وبينَ الله فيرحمه اللهُ
 ويتوبَ عليه ويختمَ له بأحسنِ الأعمالِ ، وبرِّي ظاهراً فذلكَ شرُّ لي ، فلا
 يأمنُ فيما أظهره مِنَ الطاعةِ أن يكونَ دَخَلَهَا الآفاتُ فأحبطَتْها ، ثمَّ قال :
 فحيثُ ذِ كملَ عقلُهُ ، وسادَ أهلَ زمانِهِ (١) ، فهذا كلامُهُ .

وبالجملة : فمَنْ جُوِّزَ أن يكونَ عندَ الله شقيّاً وقد سبقَ القضاءُ الأزليُّ
 بشقوتهِ . . فما له سبيلٌ أن يتكَبَّرَ بحالٍ مِنَ الأحوالِ .

نعم ، إذا غلبَ عليه الخوفُ . . رأى كلَّ أحدٍ خيراً من نفسه ، وذلك هوَ

(١) أوردته المحاسبي في « الرعاية » (ص ٤٢١) ، ورواه عنه ابن أبي الدنيا في « مداراة
 الناس » (٣٧) في ذكر الخصال المتبقية .

الفضيلة ؛ كما روي أن عبداً أوى إلى جبل ، فقيل له في النوم : ائت فلاناً الإسكاف فسله أن يدعو لك ، فاتاه فسأله عن عمله ، فأخبره أنه يصومُ النهار ويكتسبُ فيتصدقُ ببعضه ، ويطعمُ عياله بعضه ، فرجع وهو يقول : إن هذا لحسنٌ ، ولكن ليس هذا كالتفرُّغ لطاعة الله تعالى ، فأتى في النوم ثانياً فقيل له : ائت فلاناً الإسكاف فقل له : ما هذا الصغار الذي بوجهك ، فاتاه فسأله ، فقال له : ما رأيتُ أحداً من الناس إلا وقع لي أنه سينجو وأهلك أنا ، فقال العابدُ : بهذه^(١) .

والذي يدلُّ على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى : ﴿ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ أي : يُؤْتُونَ الطاعات وهم على وجلٍ عظيمٍ من قبولها .
وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ .
وقال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ .

وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدُّسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادة على الدؤوب بالإشفاق ، فقال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ وقال : ﴿ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ .

فمتى زال الإشفاق والحدُّ ممَّا سبق به القضاء في الأزل ، وينكشف عند خاتمة الأجل . . غلب الأمنُ من مكر الله ، وذلك يوجبُ الكبر ، وهو سببُ

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٤٢٢) .

الهلاك ، فالكبر دليل الأمن ، والأمن مُهلك ، والتواضع دليلُ الخوف ، وهو مسعدٌ .

فإذا ؛ ما يفسدُ العابدُ بإضمارِ الكبر ، واحتقارِ الخلقِ ، والنظرِ إليهم بعينِ الاستصغارِ . . أكثرُ ممَّا يصلحُه بظاهرِ الأعمالِ .



فهذه معارفُ بها يُزالُ داءُ الكبرِ عن القلبِ لا غيرُ ، إلا أنَّ النفسَ بعدَ هذه المعرفةِ قد تضرُّمُ التواضعَ وتدَّعي البراءةَ مِنَ الكبرِ وهي كاذبةٌ ، فإذا وقعتِ الواقعةُ . . عادتْ إلى طبيعتها ، ونسيَتْ وعدَّها ، فعنْ هذا ؛ لا ينبغي أنْ يكتفيَ في المداواةِ بمجردِ المعرفةِ ، بلْ ينبغي أنْ تُكَمَّلَ بالعملِ ، وتُجَرَّبَ بأفعالِ المتواضعينَ في مواقعِ هيجانِ الكبرِ مِنَ النفسِ .

وبيانهُ : أنْ يمتحنَ النفسَ بخمسِ امتحاناتٍ هي أدلةٌ على استخراجِ ما في الباطنِ وإنْ كانتِ الامتحاناتُ كثيرةً .

الامتحانُ الأولُ : أنْ يناظرَ في مسألةٍ معَ واحدٍ مِنْ أقرانهِ ، فإنْ ظهرَ شيءٌ مِنَ الحقِّ على لسانِ صاحبهِ ، فثقلَ عليه قبولُهُ ، والانقيادُ لَهُ ، والاعترافُ بِهِ ، والشكرُ لَهُ على تنبيهِهِ وتعريفِهِ وإخراجِهِ الحقَّ . . فذلك يدلُّ على أنَّ فيه كبراً دفيناً ، فليتنَّقِ اللهَ فيه ، وليشتغلْ بعلاجهِ .

أمَّا مِنْ حيثُ العلمُ . . فبأنْ يذكرَ نفسهُ حسَّةً نفسهِ ، وخطرَ عاقبتهِ ، وأنَّ الكبرَ لا يليقُ إلا باللهِ تعالى .

وأما العمل .. فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق ، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقرُّ على نفسه بالعجز ، ويشكره على الاستفادة ، ويقول : ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه ، فجزاك الله خيراً كما نبهتني له ، فالحكمة ضالة المؤمن ؛ فإذا وجدها .. ينبغي أن يشكر من دله عليها ، فإذا واظب على ذلك مرّات متوالية .. صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله .

ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم .. ففيه كبرٌ ، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ، ويثقل عليه في الملاء .. فليس فيه كبرٌ ، وإنما فيه رياءٌ ، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته ، وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء ، وإن ثقل عليه في الخلوة والملاء جميعاً .. ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني ، فليعالج كلا الداءين ؛ فإنَّهُما جميعاً مهلكان .



الامتحان الثاني : أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ، ويمشي خلفهم ، ويجلس في الصدور تحتهم ، فإن ثقل ذلك عليه .. فهو متكبرٌ ، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله ، فبذلك يزايله الكبر .

وهلها للشيطان مكيدة ، وهو أن يجلس في صف النعال ، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأردال ، فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ؛ فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين ؛ إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل ، فيكون قد تكبر ، وتكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بجنبهم ، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن .



الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه . . فهو كبر ؛ فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق ، والثواب عليها جليل ، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن ، فليشتغل بإزالتها بالمواظبة عليه ، مع تذكير جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر .



الامتحان الرابع : أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك . . فهو كبر أو رياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق . . فهو كبر ، وإن كان لا يثقل عليه إلا عند مشاهدة الناس . . فهو رياء .

وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك ، وقد أهمل

الناسُ طَبَّ القلوبِ ، واشتغلوا بطبِّ الأجسادِ ، معَ أَنَّ الأجسادَ قَدْ كُتِبَ عليها الموتُ لا محالةَ ، والقلوبُ لا تُدرِكُ السعادةَ إلا بسلامتها ؛ إذ قال تعالى : ﴿لَا مَنَ أَمَّا اللَّهُ يَقَلِّبُ سَلِيمٍ﴾ .

ويروى عن عبد الله بن سلام أَنَّهُ حملَ حزمةَ حطبٍ ، فقيلَ لَهُ : يا أبا يوسفَ ؛ قَدْ كَانَ في غلمانِكَ وبنيكَ ما يكفونَكَ ، قالَ : أجلُ ، ولكنْ أردتُ أَن أجربَ نفسي هل تنكرُ ذلكَ ^(١) .

فلم يقنعَ منها بما أعطتهُ مِنَ العزمِ على تركِ الأنفةِ حتَّى جربَهَا أَهْيَ صادقةٌ أم كاذبةٌ .

وفي الخبرِ : « مَنْ حملَ الفاكهةَ أو الشيءَ . . . فقد برىءَ مِنَ الكبيرِ » ^(٢) .



الامتحانُ الخامسُ : أَن يلبسَ ثياباً بذلةً ؛ فَإِنَّ نفورَ النفسِ عن ذلكَ في الملأِ رياءً ، وفي الخلوةِ كِبَرٌ .

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنه لَهُ مِسْحٌ يلبسُهُ بالليلِ ^(٣) .

(١) رواه الحاكم في « المستدرک » (٤١٦ / ٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣٣ / ٢٩) ، ولفظه عند صاحب « الرعاية » (ص ٤١٣) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٨٥٣) ، وفيه : « من حمل بضاعته » بدل « من حمل الفاكهة أو الشيء » ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢٠٢ / ١) بلفظ : « من حمل سلعته . . . » .

(٣) المِسْحُ : كساء من صوف أسود . « إتحاف » (٤٠٥ / ٨) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ اعتقل البعير ولبس الصوف .. فقد برىء من الكبر » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ بِالْأَرْضِ وَأَلْبَسُ الصُوفَ وَأَعْقِلُ الْبَعِيرَ ، وَالْعَقُّ أَصَابِعِي ، وَأَجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي .. فَلَيْسَ مِنِّي » (٢) .

وروي أن أبا موسى الأشعري قيل له : إِنَّ أَقْوَاماً يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ بِسَبَبِ ثِيَابِهِمْ ، فَلَبَسَ عِبَاءَةً فَصَلَّى فِيهَا بِالنَّاسِ .

وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر ، فما يختص بالملأ .. فهو الرياء ، وما يكون في الخلوة .. فهو الكبر ، فليعرف ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ لَا يَتَّقِيهِ ، وَمَنْ لَا يَدْرِكُ الْمَرَضَ لَا يَدَاوِيهِ .



- (١) كذا في « الرعاية » (ص ٤١٢) ، وفيه : « مَنْ اعتقل العنز ... » ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/٦٥٠) من حديث جحدم وكانت له صحبة : « مَنْ حَلَبَ شَاتَهُ ، وَرَقَعَ قَمِيصَهُ ، وَخَصَفَ نَعْلَهُ ، وَوَاكَلَ خَادِمَهُ ، وَحَمَلَ مِنْ سَوْقِهِ .. فَقَدْ بَرِيَءَ مِنَ الْكِبَرِ » .
- (٢) كذا في « الرعاية » (ص ٤١٢) ، وهذا الحديث مشتمل على عدة أحاديث تقدم بعض منها ، وانظر « الإنحاف » (٨/٤٠٥-٤٠٦) .

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلم : أن هذا الخلق كسائر الأخلاق ، له طرفان وواسطة ، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يُسمَّى تكبراً ، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يُسمَّى تخاسساً ومذلة^(١) ، والوسط يُسمَّى تواضعاً .

والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس ؛ فإن كلا طرفي قصد الأمور ذميم ، وأحبُّ الأمور إلى الله تعالى أوساطها .

فمن يتقدم على أمثاله . . فهو متكبرٌ ، ومن يتأخر عنهم . . فهو متواضعٌ ، أي : وضع شيئاً من قدره الذي يستحقُّه ، والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ، ثمَّ تقدَّم وسوى له نعله وغدا إلى باب الدار خلفه . . فقد تخاسس وتذلَّل ، وهذا أيضاً غير محمود ، بل المحمود عند الله تعالى العدل ، وهو أن يعطي كلَّ ذي حقِّ حقه ، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله ، ولمن تقرب منه درجته ، فأما تواضعه للسوقي . . فبالقيام ، والبشر في الكلام ، والرفق في السؤال ، وإجابة دعوته ، والسعي في حاجته ، وأمثال ذلك ، وألاً يرى نفسه خيراً منه ، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره ؛ فلا يحقرُّه ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره وخاتمة .

(١) قوله : تخاسساً : هو تفاعل من الخسة ، وهذا هو التفريط ، والتكبر هو الإفراط .

« إتحاف » (٤٠٦ / ٨) .

فإذا ؛ سبيله في اكتساب التواضع : أن يتواضع للأقران ولمن دونهم ، حتى يخفّ عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ؛ ليزول به الكبر عنه .
فإن خفّ عليه ذلك . . فقد حصل له خلُق التواضع ، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك . . فهو متكلف لا متواضع ، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية .

فإن خفّ ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحبّ التملّق والتخاسر . . فقد خرج إلى طرف النقصان ، فليرفع نفسه ؛ إذ ليس للمؤمن أن يذلّ نفسه ، إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم ، وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق ، والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملّق أهون من الميل إلى طرف الزيادة وهو الكبر ؛ كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل ، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان ، وأحدهما أفحش ، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التبصّص والتذلّل مذمومان^(١) ، وأحدهما أقبح من الآخر ، والمحمود المطلق هو العدل ، ووضع الأمور مواضعها كما يجب ، وعلى ما يجب ، على ما يعرف ذلك بالشرع والعادة ، ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع .



(١) التبصص : التملّق .

الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ فِي الْعَجَبِ

وفيه بيانُ ذمِّ العَجَبِ وآفتهِ ، وبيانُ حقيقةِ العَجَبِ والإدلالِ وحدهما ،
وبيانُ علاجِ العَجَبِ على الجملةِ ، وبيانُ أقسامِ ما بهِ العَجَبُ ، وتفصيلُ
علاجِهِ .

بيان ذمِّ العَجَبِ وآفتهِ

اعلمُ : أنَّ العَجَبَ مذمومٌ في كتابِ اللهِ تعالى وسنةِ رسولهِ صَلَّى اللهُ عليه
وسلَّم .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُزَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ
شَيْئًا ﴾ ، ذكرَ ذلكَ في معرضِ الإنكارِ .

وقالَ تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ
يَحْتَسِبُوا ﴾ ، فردَّ على الكفارِ في إعجابِهِم بحصونِهِم وشوكتِهِم .

وقالَ تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ، وهذا أيضاً يرجعُ إلى
العَجَبِ بالعملِ ، وقد يعجبُ الإنسانُ بعملٍ هوَ مخطئٌ فيه ؛ كما يعجبُ
بعملٍ هوَ فيه مصيبٌ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه »^(١) .

وقال لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه . . فعليك نفسك »^(٢) .

وقال ابن مسعود : (الهلاك في اثنتين : القنوط ، والعجب)^(٣) ، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير ، والقانط لا يسعى ولا يطلب ، والمعجب يعتقد أنه قد سعد ، وقد ظفر بمراده ؛ فلا يسعى ، فالموجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب ، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ، ومستحيلة في اعتقاد القانط ، فمن هنا جمع بينهما .

وقد قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ، قال ابن جريج : معناه : إذا عملت خيراً . . فلا تقل : عملت ، وقال زيد بن أسلم : لا تبرؤوها ؛ أي : لا تعتقدوا أنها بارّة ، وهو معنى العجب^(٤) .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣ / ٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٣٦) ، والسياق عنده .

(٤) كذا في « الرعاية » (ص ٣٣٧) ، وقول زيد رواه الطبري في « تفسيره » (٨٧ / ٢٧ / ١٣) .

ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه ، فأكب عليه حتى أصيبت كفه^(١) ، فكأنه أعجبه فعله العظيم ؛ إذ فداه بروحه حتى جرح ، فتفرس فيه ذلك عمر ، فقال : ما زال يُعرف في طلحة بأو منذ أصيبت إصبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) .

والبأو هو العجب في اللغة ، إلا أنه لم يُنقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلماً ، ولما كان وقت الشورى . . قال له ابن عباس رضي الله عنه : أين أنت من طلحة ، قال : ذلك رجل فيه نخوة^(٣) .

فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم . . فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم؟!

وقال مطرف : (لأن أيت نائماً وأصبح نادماً . . أحب إلي من أن أيت قائماً وأصبح معجباً)^(٤) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لو لم تذبوا . . لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك ؛ العجب العجب »^(٥) ، فجعل العجب أكبر من الذنوب .

(١) رواه البخاري (٣٧٢٤) ، وقد شئت يده بهذا رضي الله عنه .

(٢) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣٤٤ / ١٠) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣٨ / ٤٤) بنحوه .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٠ / ٢) .

(٥) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٣٦) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٥٩٤) .

وكانَ بشرُ بنُ منصورٍ مِنَ الذينَ إذا رُؤوا . . ذُكِرَ اللهُ تعالى والدارُ الآخرةُ ؛ لمواظبتهِ على العبادةِ ، فأطالَ الصلاةَ يوماً ورجلٌ خلفه ينظرُ إليه ، ففطنَ له بشرٌ ، فلمَّا انصرفَ مِنَ الصلاةِ . . قالَ له : لا يعجبَنَّكَ ما رأيتَ مِنِّي ؛ فإنَّ إبليسَ لعنه اللهُ قد عبدَ اللهُ تعالى معَ الملائكةِ مدَّةَ طويلةٍ ، ثمَّ صارَ إلى ما صارَ إليه^(١) .

وقيلَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : متى يكونُ الرجلُ مسيئاً ؟ قالتُ : إذا ظنَّ أنَّه محسنٌ^(٢) .

وقد قالَ تعالى : ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ ، والمنُّ نتيجةُ استعظامِ الصدقةِ ، واستعظامُ العملِ هوَ العجبُ ، فظهرَ بهذا أنَّ العجبَ مذمومٌ جداً .



(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤١ / ٦) .

(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٣٧) .

بيان آفة العجب

اعلم : أن آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر ؛ لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه ، فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى ، هذا مع العباد .

وأما مع الله تعالى . . فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدتها ؛ لظنه أنه مستغن عن تفقدتها ، فينساها ، وما يتذكرها منها فيستصغرها ولا يستعظمها ؛ فلا يجتهد في تداركها وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له ، وأما العبادات والأعمال . . فإنه يستعظمها ، ويتبجح بها ويمن على الله تعالى بفعلها ، وينسى نعمة الله تعالى عليه بالتوفيق والتمكين منها ، ثم إذا أعجب بها . . عمي عن آفاتها ، ومن لم يتفقد آفات الأعمال . . كان أكثر سعيه ضائعاً ؛ فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب . . قلما تنفع ، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب .

والمعجب يغتر بنفسه وبربه عز وجل ، ويأمن مكر الله تعالى وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان ، وأن له عند الله منة وحقاً بأعماله التي هي نعمة من نعمه ، وعطيته من عطايه ، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها ، وإن أعجب برأيه وعقله وعلمه . . منع ذلك من الاستفادة ، ومن الاستشارة والسؤال ؛ فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من

سؤال مَنْ هو أعلمُ منه ، وربّما يعجبُ بالرأي الخطأ الذي خطرَ له ، فيفرحُ بكونه من خواطره ، ولا يفرحُ بخاطر غيره ، فيصرُّ عليه ، ولا يسمعُ نصحَ ناصح ، ولا وعظَ واعظ ، بل ينظرُ إلى غيره بعين الاستجهاًل ، ويصرُّ على خطئه ، فإن كان رأيه في أمر دنيويٍّ . . فيخفقُ فيه ، وإن كان في أمر دينيٍّ لا سيما فيما يتعلّق بأصول العقائد . . فيهلكُ به ، ولو اتهمَ نفسه ، ولم يثقْ برأيه ، واستضاءَ بنور القرآن ، واستعانَ بعلماء الدين ، وواظبَ على مدارس العلم ، وتابعَ سؤال أهل البصيرة . . لكان ذلك يوصله إلى الحق .

فهذا وأمثاله من آفات العُجب ؛ فلذلك كان من المهلكات ، ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى ، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه ، نسالُ الله تعالى العظيمَ حسنَ التوفيق لطاعته .



بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم : أنَّ العجبَ إنما يكونُ بوصفٍ هو كمالٌ لا محالةً ، وللعالمِ
بكمالِ نفسه في علمٍ وعملٍ ومالٍ وغيره حالتان :
إحدهما : أن يكونَ خائفاً على زواله ، مشفقاً على تكذُّره أو سلبه من
أصله ؛ فهذا ليسَ بمعجبٍ .

والأخرى : ألاَّ يكونَ خائفاً من زواله ، لكن يكونَ فرحاً به من حيثُ إنَّه
نعمةٌ من الله تعالى عليه ، لا من حيثُ إضافته إلى نفسه ، وهذا أيضاً ليسَ
بمعجبٍ .

وله حالةٌ ثالثةٌ : هي العجبُ ، وهي أن يكونَ غيرَ خائفٍ عليه ، بل يكونُ
فرحاً به مطمئناً إليه ، ويكونُ فرحُهُ به من حيثُ إنَّه كمالٌ ونعمةٌ ورفعةٌ
وخيرٌ ، لا من حيثُ إنَّه عطيةٌ من الله تعالى ونعمةٌ منه ، فيكونُ فرحُهُ به من
حيثُ إنَّه صفةٌ ، ومنسوبٌ إليه بأنَّه له ، لا من حيثُ إنَّه منسوبٌ إلى الله
تعالى بأنَّه منه ، فمهما غلبَ على قلبه أنَّه نعمةٌ من الله ، مهما شاءَ سلبها
عنه . . زالَ العجبُ بذلكَ عن نفسه .

فإذاً ؛ العجبُ : هو استعظامُ النعمةِ والركونُ إليها مع نسيانِ إضافتها إلى
المنعم .

فإن انضافَ إلى ذلكَ أن غلبَ على نفسه أنَّهُ له عندَ الله عزَّ وجلَّ حقاً ،
وأنَّهُ منه بمكانٍ ، حتَّى توقَّعَ بعمله كرامةً في الدنيا ، واستبعدَ أن يجريَ عليه

مكروه استبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق . . سُمِّيَ هذا
إدلالاً بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله عز وجل دالة .
وكذلك قد يُعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويمنُّ عليه فيكون معجباً ، فإن
استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات ، أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه . .
كان مُدلاً عليه .

قال قتادة في قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْكَرُ ﴾ أي : لا تدلّ بعملك ^(١) .
وفي الخبر : (إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ، ولأن تضحك وأنت
معترف بذنبك . . خيرٌ من أن تبكي وأنت مُدِلٌ بعملك) ^(٢) .
والإدلال وراء العجب ، فلا مُدِلٌ إلا وهو معجب ، ورب معجب
لا يدل ؛ إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة ، دون توقُّع جزاء
عليه ، والإدلال لا يتم إلا مع توقُّع جزاء ، فإن توقُّع إجابة دعوته واستنكر
ردّها بباطنه وتعجب منه . . كان مُدلاً بعمله ؛ فإنه لا يتعجب من ردّ دعاء
الفاسق ، ويتعجب من ردّ دعاء نفسه لذلك ، فهذا هو العجب والإدلال ،
وهو من مقدّمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم .



(١) الرعاية (ص ٣٤٦) .

(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٤٦) عن أيوب وداود عليهما السلام ، ورواه
أبو نعيم في « الحلية » (٥٦ / ٧) عن سفيان عن راهب متعبد .

بيان علاج العجب على الجملة

اعلم : أنَّ علاجَ كلِّ علةٍ هوَ مقابلةُ سببها بضدِّه ، وعلةُ العجبِ الجهلُ المحضُ ، فعلاجهُ المعرفةُ المضادةُ لذلكَ الجهلِ فقط .

فلنفرضِ العجبَ بفعلٍ داخِلٍ تحتَ اختيارِ العبدِ ؛ كالعبادةِ والصدقةِ والغزوِ وسياسةِ الخلقِ وإصلاحِهِمْ ؛ فإنَّ العجبَ بهذا أغلبُ مِنَ العجبِ بالجمالِ والقوَّةِ والنسبِ وما لا يدخُلُ تحتَ اختيارِهِ ولا يراهُ مِنْ نَفْسِهِ ، فنقولُ : الورعُ والتقوى والعبادةُ والعملُ الذي بهِ يعجبُ إنَّما يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّه فيه ، فهوَ محلَّةٌ ومجرأه ، أو مِنْ حيثُ إنَّه منه وبسببِهِ ، وبقدرته وقوَّته .

فإنَّ كانَ يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّه فيه وهوَ محلَّةٌ ومجرأه ، يجري فيه وعليه مِنْ جهةٍ غيرِهِ .. فهذا جهلٌ ؛ لأنَّ المحلَّ مسخَّرٌ ومجرى لا مدخلَ له في الإيجادِ والتحصيلِ ، فكيفَ يعجبُ بما ليسَ إليه ؟ !

وإنَّ كانَ يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ هوَ منه وإليه ، وباختيارِهِ حصلَ ، وبقدرته وقوَّته تمَّ .. فينبغي أنْ يتأمَّلَ في قدرته وإرادته وأعضائه وسائرِ الأسبابِ التي بها يتمُّ عملهُ أنَّها مِنْ أينَ كانتَ له ؟ فإنَّ كانَ جميعُ ذلكَ نعمةً مِنَ اللهِ سبحانه عليه مِنْ غيرِ حقٍّ سبقَ له ، وَمِنْ غيرِ وسيلةٍ يدلي بها .. فينبغي أنْ يكونَ إعجابهُ بجلودِ اللهِ تعالى وكرمِهِ وفضلهِ ؛ إذْ أفاضَ عليه ما لا يستحقُّه ، وآثره

به على غيره من غير سابقة ووسيلة ، فمهما برز الملك لغلمانِه ، ونظرَ إليهم ، فخلعَ من جملتهم على واحدٍ منهم ، لا لصفةٍ فيه ولا لوسيلةٍ ، ولا لجمالٍ ولا لخدمةٍ . . فينبغي أن يتعجبَ المنعمُ عليه من فضلِ الملكِ وحكمِه وإثارِه من غيرِ استحقاقٍ ؛ فإعجابه بنفسِه من أين ؟ وما سببُه ؟ ولا ينبغي أن يعجبَ هو بنفسِه .

نعم ، يجوزُ أن يعجبَ العبدُ فيقولُ : الملكُ حكمٌ عدلٌ لا يظلمُ ، ولا يقدّمُ ولا يؤخّرُ إلا لسببٍ ، فلولا أنّه تفتّنَ في صفةٍ من الصفاتِ المحمودَةِ الباطنةِ ما اقتضى الإيثارَ بالخلعةِ . . لما آثرني بها ، فيقالُ : وتلكَ الصفةُ هي أيضاً من خلعةِ الملكِ وعطيتهِ التي خصّك بها من غيرِكَ من غيرِ وسيلةٍ أو هي عطيةٌ غيره ؟ فإن كانت من عطيةِ الملكِ أيضاً . . لم يكن لك أن تعجبَ بها ، بل كان كما لو أعطاك فرساً فلم تعجبَ به ، فأعطاك غلاماً فصرتَ تعجبُ به وتقولُ : إنّما أعطاني غلاماً لأنّي صاحبُ فرسٍ ، وأمّا غيري . . فلا فرسَ له ، فيقالُ : وهو الذي أعطاك الفرسَ ، فلا فرقَ بين أن يعطيكَ الفرسَ والغلامَ معاً أو يعطيكَ أحدهما بعدَ الآخرِ ، فإذا كان الكلُّ منه . . فينبغي أن يعجبَكَ جودُهُ وفضلُهُ ، لا نفسك .

وأما إن كانت تلكَ الصفةُ من غيره . . فلا يبعدُ أن تعجبَ بتلكَ الصفةِ ، وهذا يُتصوّرُ في حقِّ الملوكِ ، ولا يُتصوّرُ في حقِّ الجبارِ القاهرِ ملكِ الملوكِ ، المتفرّدِ باختراعِ الجميعِ المنفردِ بإيجادِ الموصوفِ والصفةِ سبحانه وتعالى ؛ فإنّك إن أعجبتَ بعبادتكَ وقلتَ : وقّني للعبادةِ لحبيّ له . .

فَيُقَالُ : وَمَنْ خَلَقَ الْحَبَّ فِي قَلْبِكَ ؟ فَسَقُولُ : هُوَ ، فَيُقَالُ : فَالْحَبُّ
وَالْعِبَادَةُ كِلَاهُمَا نِعْمَتَانِ مِنْ عِنْدِهِ ابْتَدَأَكَ بِهِمَا مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مِنْ جَهْتِكَ ؛
إِذْ لَا وَسِيلَةَ لَكَ وَلَا عِلَاقَةَ ، فَيَكُونُ الْإِعْجَابُ بِجُودِهِ ؛ إِذْ أَنْعَمَ بِوُجُودِكَ
وَبِوُجُودِ صِفَاتِكَ ، وَبِوُجُودِ أَعْمَالِكَ وَأَسْبَابِ أَعْمَالِكَ .

فَإِذَا ؛ لَا مَعْنَى لِعَجَبِ الْعَابِدِ بِعِبَادَتِهِ ، وَعَجَبِ الْعَالِمِ بِعِلْمِهِ ، وَعَجَبِ
الْجَمِيلِ بِجَمَالِهِ ، وَعَجَبِ الْغَنِيِّ بِغِنَاهُ ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى ،
وَإِنَّمَا هُوَ مُحَلٌّ لِفَيْضَانِ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَجُودِهِ ، وَالْمَحَلُّ أَيْضاً مِنْ جُودِهِ
وَفَضْلِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَجْهَلَ أَعْمَالِي ، فَإِنِّي أَنَا عَمَلْتُهَا ، فَإِنِّي أَنْتَظَرُ
عَلَيْهَا ثَوَاباً ، وَلَوْلَا أَنَّهَا عَمَلِي . . لَمَا أَنْتَظَرْتُ الثَّوَابَ ، فَإِنْ كَانَتْ الْأَعْمَالُ
مَخْلُوقَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِرَاعِ . . فَمِنْ أَيْنَ لِي الثَّوَابُ ؟ وَإِنْ كَانَتْ
الْأَعْمَالُ مِنِّي وَبِقُدْرَتِي . . فَكَيْفَ لَا أَعْجَبُ بِهَا ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ جَوَابَكَ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : هُوَ صَرِيحُ الْحَقِّ ، وَالْآخَرُ :
فِيهِ مَسَامَحَةٌ .

أَمَّا صَرِيحُ الْحَقِّ . . فَهُوَ أَنَّكَ وَقُدْرَتُكَ وَإِرَادَتُكَ وَحَرَكَتُكَ جَمِيعٌ ذَلِكَ مِنْ
خَلْقِ اللَّهِ وَإِخْتِرَاعِهِ ، فَمَا عَمِلْتَ إِذْ عَمِلْتَ ، وَمَا صَلَّيْتَ إِذْ صَلَّيْتَ ،
وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ، فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي انْكَشَفَ لِأَرْبَابِ

القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين ، بل خلقك ، وخلق أعضائك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم ، وخلق لك الإرادة ، ولو أردت أن تنفي شيئاً من هذا عن نفسك . . لم تقدر عليه ، ثم خلق الحركات في أعضائك مستبداً باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع ، إلا أنه خلقه على ترتيب ، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة ، وفي القلب إرادة ، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علماً بالمراد ، ولم يخلق علماً ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم ، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيّل إليك أنك أوجدت عملك ، وقد غلطت ، وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سبحانه سيأتي تقريره في كتاب الشكر ؛ فإنه أليق به ، فارجع إليه .

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما ، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك ، فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك وبوجود علمك وإرادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك ، وكل ذلك من الله تعالى لا منك ، فإن كان العمل بالقدرة . . فالقدرة مفتاحه ، وهذا المفتاح بيد الله عز وجل ، ومهما لم يعطك المفتاح . . فلا يمكنك العمل ، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ، ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم ، وهي بيد الله عز وجل لا محالة ، أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفاتيحها بيد خازن ، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة . . لم يمكنك أن تنظر إلى دينارٍ مما فيها ، ولو

أعطاك المفتاح . . لأخذته من قرب ، بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط ، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح ، وسلطك عليها ، ومكنك منها ، فمددت يدك وأخذتها . . أكان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها ؟ فلا شك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن ؛ لأن المونة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة ، وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح .

فكذلك مهما خلقت القدرة ، وسلطت الإرادة الجازمة ، وحركت الدواعي والبواعث ، وصرف عنك الموانع والصوارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ، ولا باعث إلا وكل بك . . فالعمل هين عليك ، وتحريك البواعث ، وصرف العوائق ، وتهيئة الأسباب كل ذلك من الله تعالى ، ليس شيء منها إليك ، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إثارة إياك على الفساق من عباده ؛ إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك ، وسلط ألدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ، ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك ، حتى تيسر لك الخير ، وتيسر لهم الشر ، فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ، ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي ، بل أترك ، وقدّمك واصطفاك بفضله ، وأبعد العاصي وأشقاه بعدله ، فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك !!

والعجبُ ممَّنْ يتعجَّبُ إذا رزقَهُ اللهُ عقلاً وأفقرَهُ ممَّنْ أفاضَ اللهُ عليه المالَ مِنْ غيرِ علمٍ ، فيقولُ : كيفَ منعني قوتَ يومي وأنا العاقلُ الفاضلُ ، وأفاضَ عليَّ هذا نعيمَ الدنيا وهو الغافلُ الجاهلُ ؟ ! حتَّى يكادُ يرى هذا ظلماً ، ولا يدري المغرورُ أنَّه لو جمعَ له بينَ العقلِ والمالِ جميعاً . . لكانَ ذلكَ بالظلمِ أشبهَ في ظاهرِ الحالِ ؛ إذ يقولُ الجاهلُ الفقيرُ : يا ربِّ ؛ لمَ جمعتَ له بينَ العقلِ والغنى وحرمتني منهما ؟ فهلاًَّ جمعتَهُما لي ، أو هلاًَّ رزقتني أحدهُما .

وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له : ما بال عقلاء فقراء ؟
فقال : إنَّ عقلَ الرجل محسوبٌ عليه مِنْ رزقه .

والعجبُ أَنَّ العاقلَ الفقيرَ ربَّما يرى الجاهلَ الغنيَّ أحسنَ حالاً مِنْ
نفسِهِ ، ولو قيلَ لَهُ : هلْ تؤثرُ جهلُهُ وغناهُ عوضاً عَنْ عقلِكَ وفقركَ . . لا تمتنعَ
عنه ، فإذا ذلِكَ يدلُّ على أَنَّ نعمةَ اللَّهِ عليه أكثرُ ؛ فلمَ يتعجَّب مِنْ ذلِكَ ؟
والمرأةُ الحسناءُ الفقيرةُ ترى الحلَّى والجواهرَ على الذميمةِ القبيحةِ ،

فتعجب وتقول : كيف يُحرّم مثلُ هذا الجمالِ مِنَ الزينةِ ويُخصّصُ بهِ مثلُ ذلكَ القبحِ ؟! ولا تدري المغرورةُ أنّ الجمالَ محسوبٌ عليها مِنْ رزقِها ، وأنّها لو خيّرتَ بينَ الجمالِ وبينَ القبحِ معَ الغنى . . لآثرتَ الجمالَ ، فإذا نعمةُ اللهِ عليها أكثرُ .

وقولُ الحكيمِ العاقلِ الفقيرِ بقلبه : يا ربُّ ؛ لمَ حرمتني الدنيا وأعطيتَ الجهّالَ ؛ كقولِ مَنْ أعطاهُ الملكُ فرساً فيقولُ : أيّها الملكُ ؛ لمَ لا تعطيني الغلامَ وأنا صاحبُ فرسٍ ؟ فيقولُ لهُ : كنتَ لا تتعجبُ مِنْ هذا لو لمَ أعطِكَ الفرسَ ، فهَبْ أنّي ما أعطيتكَ فرساً . . أصارتَ نعمتي عليك وسيلةً لكَ وحجّةً تطلبُ بها نعمةً أخرى ؟!

فهذه أوهامٌ لا تخلو الجهّالُ عنها ، ومنشأُ جميعِ ذلكَ الجهلُ ، ويُزَالُ ذلكَ بالعلمِ المحقّقِ بأنّ العبدَ وعملهُ وأوصافهُ كلُّ ذلكَ مِنْ عندِ اللهِ تعالى نعمةٌ ابتدأه بها قبلَ الاستحقاقِ ، وهذا ينفي العجبَ والإدلالَ ، ويورثُ الخضوعَ والشكرَ والخوفَ مِنْ زوالِ النعمةِ ، وَمَنْ عرفَ هذا . . لمَ يُتصوّرُ أنْ يعجبَ بعلمِهِ وعملهِ ؛ إذْ يعلمُ أنّ ذلكَ مِنْ اللهِ تعالى .

ولذلكَ قالَ داوودُ عليه السلامُ : يا ربُّ ؛ ما تأتي ليلاً إلا وإنسانٌ مِنْ آلِ داوودَ قائمٌ ، ولا يأتي يومٌ إلا وإنسانٌ مِنْ آلِ داوودَ صائمٌ ، وفي روايةٍ : ما تمرُّ ساعةٌ مِنْ ليلٍ أو نهارٍ إلا وعابدٌ مِنْ آلِ داوودَ يعبدُكَ ؛ إمّا يصلي ، وإمّا يصومُ ، وإمّا يذكرُكَ ، فأوحى اللهُ تعالى إليه : يا داوودُ ؛ وَمِنْ أينَ لَهُمْ

ذلك ؟ إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِي ، وَلَوْلَا عَوْنِي إِثَّاكَ . . ما قويت ، وسأكلُكَ إلى نفسِكَ ، قَالَ ابنُ عباسٍ : إِنَّمَا أَصَابَ دَاوُودَ مَا أَصَابَ مِنَ الذَّنْبِ ؛ لِعَجْبِهِ بِعَمَلِهِ ؛ إِذْ أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى آلِ دَاوُودَ مَدْلًا بِهِ ، حَتَّى وَكَلَ إِلَى نَفْسِهِ فَأَذْنَبَ ذَنْبًا أَوْرَثَهُ الْحُزْنَ وَالنَّدَمَ ^(١) .

وَقَالَ دَاوُودُ : يَا رَبِّ ؛ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَسْأَلُونَكَ بِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، فَقَالَ : إِنِّي ابْتَلَيْتُهُمْ فَصَبَرُوا ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ، وَأَنَا إِنِ ابْتَلَيْتَنِي . . صَبَرْتُ ، فَأَدَلَّ بِالْعَمَلِ قَبْلَ وَقْتِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : أَمَا إِنِّي لَمْ أَخْبِرْهُمْ بِأَيِّ شَيْءٍ ابْتَلَيْتُهُمْ ، وَلَا فِي أَيِّ شَهْرٍ ، وَلَا فِي أَيِّ يَوْمٍ ، وَأَنَا مُخْبِرُكَ أَنِّي ابْتَلَيْتُكَ فِي سَنَتِكَ هَذِهِ وَشَهْرِكَ هَذَا ، ابْتَلَيْتُكَ غَدًا بِامْرَأَةٍ ، فَاحْذَرْ نَفْسَكَ ، فَوَقَعَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ ^(٢) .

وَكَذَلِكَ لَمَّا اتَّكَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ عَلَى قُوَّتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَنَسُوا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَقَالُوا : لَا تُغْلِبُ الْيَوْمَ مِنْ قَلَّةٍ ^(٣) . . وَكُلُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ .

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤١) ، وقد رواه الحاكم في « المستدرک » (٢/٤٣٣) .

(٢) رواه ابن أبي شبيب في « المصنف » (٣٢٥٥٥ ، ٣٢٥٥٦) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٦/١٠/١٢٨) عن السدي .

وروى ابنُ عيينة أنَّ أيوبَ عليه السلام قال : إلهي ؛ إِنَّكَ ابْتَلَيْتَنِي بِهَذَا الْبَلَاءِ ، وما وردَ عليَّ أمرٌ قطُّ إلا آثرتُ هَوَاكَ على هَوَايَ ، فَنُودِي مِنْ غَمَامَةٍ بِعَشْرَةِ آلَافِ صَوْتٍ يَا أَيُّوبُ ؛ أَنَّنِي لَكَ ذَلِكَ ؟ أَيُّ : مِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : فَأَخَذَ رِمَاداً فَوَضَعَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ : مِنْكَ يَا رَبُّ ، فَرَجَعَ عَنْ نَسْيَانِهِ إِضَافَةَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى^(١) .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خيرُ الناسِ : « ما منكم من أحدٍ ينجيهِ عملُهُ » ، قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ »^(٢) .

ولقد كان أصحابُهُ مِنْ بعده يتمنون أن يكونوا تراباً وتبناً وطيراً ، مع صفاء أعمالِهِمْ وقلوبِهِمْ ، فكيف يكونُ لذي بصيرةٍ أن يعجبَ بعملِهِ أو يُدِلَّ به ولا يخافَ على نفسه ؟!

فإذا ؛ هذا هو العلاجُ القامعُ لمادةِ العجبِ مِنَ القلبِ ، ومهما غلبَ ذلكَ على القلبِ . . شغلُهُ خوفُ سلبِ هذهِ النعمةِ عن الإعجابِ بها ، بل هو ينظرُ إلى الكفارِ والفساقِ وقد سلبوا نعمةَ الإيمانِ والطاعةِ بغيرِ ذنبٍ أذنبوه

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٦/٧) .

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

مِنْ قَبْلُ ، فَيَخَافُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ : إِنَّ مَنْ لَا يِيَالِي أَنْ يَحْرَمَ مِنْ غَيْرِ جَنَائِيَةِ ،
وَيُعْطَى مِنْ غَيْرِ وَسِيلَةٍ . . لَا يِيَالِي أَنْ يَعُودَ وَيَسْتَرْجِعَ مَا وَهَبَ ، فَكَمْ مِنْ
مُؤْمِنٍ قَدْ ارْتَدَّ ، وَمَطِيعٍ قَدْ فَسَقَ وَخُتِمَ لَهُ بِالسَّوَاءِ ، وَهَذَا لَا يَبْقَى مَعَهُ عَجَبٌ
بِحَالٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .



بيان أقسام ما به العجب ، وتفصيل علاجه

اعلم : أن العجب بالأسباب التي بها يُكَبَّرُ كما ذكرناه ، وقد يعجب بما لا يُكَبَّرُ به ؛ كعجبه بالرأي الخطأ الذي تزين له بجهله .

فما به العجب ثمانية أقسام :

الأول : أن يعجب بيده في جماله ، وهيئته ، وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وحسن صوته ، وبالجملة : تفصيل خلقته ، فيلفت إلى جمال نفسه ، وينسى أنه نعمة من الله تعالى ، وهو بعرضه الزوال في كل حال .

وعلاجه : ما ذكرناه في الكبر بالجمال ، وهو التفكر في أقدار باطنه ، وفي أول أمره وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب ، وأنتنت في القبور بحيث استقدرتها الطباع .



الثاني : القوة والبطش ؛ كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةً ﴾ .

وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها ، فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام ، فنقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر

هذه ضعیف المنقار حتى صارت في عنقه^(١) .

وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته ؛ كما روي عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفنَّ الليلة على مئة امرأة ولم يقل : إن شاء الله تعالى ، فحرم ما أراد من الولد^(٢) .

وكذلك قول داود عليه السلام : (إن ابتليتني .. صبرت) إعجاباً بالقوة^(٣) ، فلما ابتلي بالمرأة .. لم يصبر .

ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب ، وإلقاء النفس في التهلكة ، والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء .

وعلاجه : ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حُمن يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أعجب بها . ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلبها عليه .

~ ~ ~

الثالث : العجب بالعقل والكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وثمرته : الاستبداد بالرأي ، وترك المشورة ، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم ؛

(١) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٥١٩/٥) ، وانظر « الحاوي للفتاوي » للسيوطي (٢٤١/٢) .

(٢) رواه البخاري (٥٢٤٢) ، ومسلم (١٦٥٤) ، وذكر المنة عند البخاري .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٦) .

إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل ، واستحقاراً لهم وإهانة .

وعلاجه : أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويُجنُّ بحيث يضحك منه ، فلا يأمن أن يُسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره ، وليستصغر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه ، وأن ما جهله ممّا عرفه الناس أكثر ممّا علمه ؛ فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ؟ ! وأن يتهم عقله ، وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم ، فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري ، فإن القاصر في العقل قط لا يعلم قصور عقله ؛ فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ، ومن أعدائه لا من أصدقائه ؛ فإن من يداهته يثني عليه فيزيده عجباً ، وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ، ولا يفتن لجهل نفسه فيزداد به عجباً .



الرابع : العجب بالنسب الشريف ؛ كعجب الهاشمية^(١) ، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بسبب شرف نسبه ونجاة آبائه ، وأنه مغفور له ، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد .

وعلاجه : أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعاليهم وأخلاقهم ، وظن أنه ملحق بهم . . فقد جهل ، وإن اقتدى بآبائه . . فما كان من أخلاقهم

(١) هم بنو هاشم ، فيشمل العلويين والطالبيين والجعفرين . « إتحاف » (٤١٨ / ٨) .

العجبُ ، بلِ الخوفُ ، والإِزراءُ على النفسِ ، واستعظامُ الخلقِ ، ومذمةُ النفسِ ، ولقد شَرُّفُوا بالطاعةِ والعلمِ والخصالِ الحميدةِ ، لا بالنسبِ ، فليشرفْ بما شرفوا به ، وقد ساواهم في النسبِ وشاركهم في القبائلِ مَنْ لَمْ يؤمنْ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فكانوا عندَ اللهِ شَرًّا مِنَ الكلابِ ، وأخسَّ مِنَ الخنازيرِ ، ولذلك قالَ تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ أي : لا تفاوتَ في أنسابِكُمْ لاجتماعِكُمْ في أصلٍ واحدٍ ، ثم ذكرَ فائدةَ النسبِ فقالَ : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ ، ثم بينَ أنَّ الشرفَ بالتقوى لا بالنسبِ فقالَ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَظَنُّكُمْ ﴾ .

ولمَّا قيلَ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : مَنْ أكرمُ الناسِ ؟ مَنْ أكيسُ الناسِ ؟ لم يقلْ : مَنْ ينتمي إلى نسبي ، ولكن قالَ : « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا » (١) .

وإنما أنزلت هذه الآية حينَ أذنَ بلالٌ يومَ الفتحِ على الكعبةِ ، فقالَ الحارثُ بنُ هشامٍ وسهيلُ بنُ عمرو وخالدُ بنُ أسيدٍ : هذا العبدُ الأسودُ يؤذِنُ ؟ ! فقالَ تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَظَنُّكُمْ ﴾ (٢) .

وقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ »

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٣ / ١) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٦٣) ، وهو عند ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٦٢٠) عن ابن أبي مليكة بنحوه .

- أي : كبرها - كلُّكُمْ بنو آدم ، وآدمُ مِنْ ترابٍ «^(١) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا معشر قريش ؛ لا تأتي الناسُ بالأعمالِ يومَ القيامةِ وتأتونَ بالدنيا تحملونها على رقابكم ، تقولون : يا محمدُ يا محمدُ ، فأقولُ هكذا «^(٢) ؛ أي : أعرضُ عنكم ، فيئنَ أنَّهُمْ إنْ مالوا إلى الدنيا . لم ينفعهمُ نسبُ قريش .

ولمَّا نزلَ قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ . . ناداهُمُ بطناً بعدَ بطنٍ حتَّى قالَ : « يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ؛ يا صفيةُ بنتَ عبدِ المطلبِ عمَّةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؛ اعملا لأنفسكما ؛ فإنِّي لا أغني عنكما مِنْ الله شيئاً «^(٣) .

فمَنْ عرفَ هذهَ الأمورَ ، وعلمَ أنَّ شرفه بقدرِ تقواه ، وقد كانَ مِنْ عادةِ آبائه التواضعَ . . اقتدى بِهِمْ في التقوى والتواضعِ ، وإلا . . كانَ طاعناً في نسبِ نفسه بلسانِ حالِهِ مهما انتمى إليهم ولم يشبههمُ في التواضعِ والتقوى والخوفِ والإشفاقِ .

فإن قلتَ : فقد قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعدَ قوله لفاطمةَ وصفيةَ : « إنِّي لا أغني عنكما مِنْ الله شيئاً ، إلا أنَّ لكما رحماً سأبُلُّها

(١) رواه أبو داود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥) .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٥) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١٥٧٩) .

(٣) رواه البخاري (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٦) .

بِبَلَالِهَا»^(١) ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَتَرْجُو سُلَيْمٌ شَفَاعَتِي وَلَا يَرْجُوها بنو عبدِ المطلبِ !؟ »^(٢) ، فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سَيَخْصُرُ قَرَابَتَهُ بِالشَّفَاعَةِ .

فَاعْلَمْ : أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ فَهوَ مُنْتَظَرٌ شَفَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالنَّسِيبُ أَيْضاً جَدِيرٌ بِأَنْ يَرْجُوها ، لَكِنْ بِشَرَطٍ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَغْضَبُ عَلَيْهِ . . فَلَا يَأْذُنُ لِأَحَدٍ فِي أَنْ يَشْفَعَ لَهُ ؛ لِأَنَّ الذُّنُوبَ مَنْقَسِمَةً إِلَى مَا يَوْجِبُ الْمَقْتَّ فَلَا يُوْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ فِيهِ ، وَإِلَى مَا يُعْفَى عَنْهُ بِسَبَبِ الشَّفَاعَةِ ؛ كَالذُّنُوبِ عِنْدَ مُلُوكِ الدُّنْيَا ، فَإِنْ كُلُّ ذِي مَكَانَةٍ عِنْدَ الْمَلِكِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الشَّفَاعَةِ فِيمَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ غَضَبُ الْمَلِكِ ، فَمِنْ الذُّنُوبِ مَا لَا تُنْجِي مِنْهُ الشَّفَاعَةُ ، وَعَنْهُ الْعِبَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى ﴾ ، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ .

(١) تَمَّةُ الْحَدِيثِ السَّابِقِ مِنْ رِوَايَةِ مُسْلِمٍ (٢٠٤) وَلَفْظُهُ : « غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأْبَلُهَا بِبَلَالِهَا » ، قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي « شَرْحِهِ لِمُسْلِمٍ » (٨٠ / ٣) : (وَالْبَلَالُ : الْمَاءُ ، وَمَعْنَى الْحَدِيثِ : سَأَصْلُهَا ، شَبَّهَتْ قَطِيعَةَ الرَّحِمِ بِالْحَرَارَةِ ، وَوَصَلَهَا بِإِطْفَاءِ الْحَرَارَةِ بِبُرُودَةٍ ، وَمِنْهُ : « بَلُُّوا أَرْحَامَكُمْ » ؛ أَيِ : صَلُّوْهَا) .

(٢) رَوَاهُ اللَّالِكَاثِيُّ فِي « اعْتِقَادِ أَهْلِ السَّنَةِ » (٢٠٨١) ، وَفِي (ك) : (سَلِّمُ) بَدَلِ (سَلِيمِ) ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ » (١٧٥٦) ، وَالْخَطِيبُ فِي « تَارِيخِ بَغْدَادٍ » (٤١٣ / ٢) ، وَفِي (م) : (سَهْمِ) .

وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يُشْفَعُ فيه وإلى ما لا يُشْفَعُ فيه . . . وجب الخوف والإشفاق لا محالة ، ولو كان كل ذنب يُقبل فيه الشفاعة . . . لما أمر قريشاً بالطاعة ، ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات ؛ لتكمل لذتها في الدنيا ، ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذتها في الآخرة ، فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اعتماداً على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتماداً على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل ؛ لأن سعي الطبيب وهمة وحذقه ينفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها ، فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرد الطب ، بل للطب أثر على الجملة ، ولكن في الأمراض الخفيفة ، وعند غلبة اعتدال المزاج .
فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعاً ، وذلك لا يزيل الخوف والحذر .

وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة ، مع كمال تقواهم ، وحسن أعمالهم ، وصفاء قلوبهم ، وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة خاصة ، وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ، ولم يتكلموا عليه ، ولم يفارق الخشوع والخوف قلوبهم ؟! فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم ؟!

الخامسُ : العجبُ بنسبِ السلاطينِ الظلمةِ وأعوانِهِمْ ، دونَ نسبِ الدينِ والعلمِ ، وهذا غايةُ الجهلِ .

وعلاجهُ : أنْ يتفكَّرَ في مخازيهِمْ ، وما جرى لَهُمْ مِنَ الظلمِ على عبادِ اللهِ ، والفسادِ في دينِ اللهِ ؛ فَإِنَّهُمْ ممقوتونَ عندَ اللهِ تعالى .

ولو نظرَ إلى صورِهِمْ في النارِ وأنتانِهِمْ وأقذارِهِمْ . . لاستنكفَ عَنْهُمْ ، ولتبرأَ مِنْ الانتسابِ إِلَيْهِمْ ، ولأنكرَ على مَنْ نسبَهُ إِلَيْهِمْ ؛ استحقاراً لَهُمْ واستقذاراً .

ولو انكشفَ لَهُ ذُلُّهُمْ في القيامةِ ، وقد تعلَّقَ الخصماءُ بِهِمْ ، والملائكةُ آخذونَ بنواصِيهِمْ ، يجرونَهُمْ على وجوهِهِمْ إلى جهنَّمَ في مظالمِ العبادِ . .

لتبرأَ إلى اللهِ مِنْهُمْ ، ولكانَ انتسابُهُ إلى الكلبِ والخنزيرِ أحبَّ إليه مِنْ الانتسابِ إِلَيْهِمْ ، فحقُّ أولادِ الظلمةِ إنْ عصَمَهُمُ اللهُ تعالى مِنْ ظلمِهِمْ أنْ

يشكروا اللهَ تعالى على سلامةِ دينِهِمْ ، ويستغفروا لآبائِهِمْ إنْ كانوا مسلمينَ ، فأما العجبُ بنسبِهِمْ . . فجهلٌ محضٌ .



السادسُ : العجبُ بكثرةِ العددِ مِنَ الأولادِ والخدمِ والغلمانِ والعشيرةِ والأقاربِ والأنصارِ والأتباعِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالى إخباراً عَنِ الكفارِ : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا ﴾ ، وكما قالَ المؤمنونَ يومَ حنينٍ : (لا نُغْلِبُ اليومَ مِنْ قِلَّةٍ)^(١) .

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣)، ورواه الطبري في « تفسيره » (٦/١٠/١٢٨) عن السدي .

وعلاجه : ما ذكرناه في الكبر ، وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وأن كلهم عبيد عجزه ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

ثم كيف يعجب بهم وإنهم سيفترقون عنه إذا مات ، فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده ، لا يرافقه ولد ، ولا أهل ، ولا قريب ولا حميم ولا عشير ، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ، ولا يغنون عنه شيئاً وهو في أحوج أوقاته إليهم ، وكذلك يهربون منه يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ وَالْحَاجَّةِ إِلَيْهِمْ ﴾ وصحبه وبنيه . . . الآية ، فأني خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك ؟! وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى ؟! فكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك ضررك ونفعك ، وموتك وحياتك ؟!



السابع : العجب بالمال ؛ كما قال الله تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أخشيت أن يعدو إليك فقره ؟! »^(١) ، وذلك للعجب بالغنى .

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٢٠٧) .

وعلاجهُ : أن يتفكَّرَ في آفاتِ المالِ ، وكثرةِ حقوقِهِ ، وعظمِ غوائلِهِ ،
وينظرَ إلى فضيلةِ الفقراءِ ، وسبقِهِم إلى الجنةِ في القيامةِ ، وإلى أن المالَ
غادٍ ورائحٌ ، ولا أصلَ لَهُ ، وإلى أن في اليهودِ مَنْ يزيدُ عليه في المالِ ،
وإلى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « بينما رجلٌ يتبخترُ في حُلَّةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ
نَفْسُهُ . . إِذْ أَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (١) ،
أشارَ بِهِ إلى عقوبةِ إعجابهِ بمالهِ ونفسِهِ .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عَنْهُ : كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
فدخلَ المسجدَ فقالَ لي : « يا أبا ذرٍّ ؛ ارفعْ رأسَكَ » ، فرفعتُ رأسي ، فإذا
رجلٌ عليه ثيابٌ جيادٌ ، ثُمَّ قالَ : « ارفعْ رأسَكَ » ، فرفعتُ رأسي ، فإذا
رجلٌ عليه خُلُقَانٌ ، فقالَ لي : يا أبا ذرٍّ ؛ هَذَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قُرَابِ
الأَرْضِ مِثْلِ هَذَا » (٢) .

وجميعُ ما ذكرناه في كتابِ الزهدِ ، وكتابِ ذمِّ الدنيا ، وكتابِ ذمِّ
المالِ . . يبيِّنُ حقارةَ الأغنياءِ وشرفَ الفقراءِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، فكيفَ يُتَصَوَّرُ
مِنَ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْجَبَ بِثَرَوْتِهِ ؟ بَلْ لَا يَخْلُو الْمُؤْمِنُ عَنِ الْخَوْفِ مِنْ تَقْصِيرِهِ
فِي الْقِيَامِ بِحَقُوقِ الْمَالِ ، فِي أَخْذِهِ مِنْ حِلِّهِ ، وَوَضْعِهِ فِي حَقِّهِ ، وَمَنْ
لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ . . فمَصِيرُهُ إِلَى الْخِزْيِ وَالْبَوَارِ ، فكيفَ يَعْجَبُ بِمَالِهِ !؟



(١) رواه البخاري (٥٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٨٨) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٧٠) ، ورواه بالفاظ مقاربة أحمد في « المسند » (١٥٧/٥) .

الثامن : العجب بالرأي الخطأ ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة^(١) ، وبذلك هلكت الأمم السالفة ؛ إذ افرقت فرقا ، فكل معجب برأيه ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وجميع أهل البدع والضلال إنما أصرّوا عليها لعجبهم بأرائهم ، والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا .

وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره ؛ لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ، ولو عرفه . . لتركه ، ولا يُعالج الداء الذي لا يُعرف ، والجهل داء لا يُعرف ، فتعسر مداواته جدا ، إلا أن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ، ويزيله عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله ؛ فإنه لا يُصغي إلى العارف ويتهمه ، فقد سلط الله تعالى عليه بليّة تهلكه ، وهو يظنها نعمة ، فكيف يمكن علاجه ؟

وكيف يطلب الهرب ممّا هو سبب سعادته في اعتقاده ؟

(١) تقدم ، ولفظه : « إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه . . فعليك بخاصة نفسك » .

وإنما علاجه على الجملة : أن يكون متهماً لرأيه أبداً ، لا يغترُّ به إلا أن يشهد له قاطعٌ من كتاب ، أو سنة ، أو دليلٍ عقليٍّ صحيحٍ جامعٍ لشروط الأدلة ، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة ، وعقلٍ ثاقبٍ ، وجدٍّ وتشميرٍ في الطلب ، وممارسة للكتاب والسنة ، ومجالسة لأهل العلم طولَ العمر ، ومدارسٍ للعلوم ، ومع ذلك فلا يؤمنُ عليه الغلطُ في بعض الأمور .

والصوابُ لمن لم يتفرَّغ لاستغراقِ عمره في العلم : ألا يخوضَ في المذاهب ، ولا يصغيَ إليها ولا يسمعها ، ولكن يعتقدُ أن الله تعالى واحدٌ لا شريكَ له ، وأنه ليسَ كمثله شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ ، وأنَّ رسوله صادقٌ فيما أخبرَ به ، ويتبعُ سنةَ السلفِ ، ويؤمنُ بجملة ما جاء به الكتابُ والسنة من غيرِ بحثٍ وتنقيحٍ وسؤالٍ عن تفصيلٍ ، بل يقولُ : آمناً وصدقنا ، ويشتغلُ بالتقوى ، واجتنابِ المعاصي ، وأداءِ الطاعاتِ ، والشفقةِ على المسلمين ، وسائرِ الأعمالِ ، فإن خاضَ في المذاهبِ والبدعِ والتعصبِ في العقائدِ . . هلكَ من حيث لا يشعرُ ، هذا حقٌّ كلٌّ من عزمَ على أن يشتغلَ في عمره بشيءٍ غيرِ العلم .

فأما الذي عزمَ على التجردِ للعلم . . فأولُ مهمٍّ له معرفةُ الدليلِ وشروطه ، وذلك ممَّا يطولُ الأمرُ فيه ، والوصولُ إلى اليقينِ والمعرفةِ في أكثرِ المطالبِ شديداً ، لا يقدرُ عليه إلا الأقوياءُ المؤيدون بنورِ الله تعالى ،

وهو عزيزُ الوجودِ جداً ، فنسألُ اللهَ تعالى العَصمةَ مِنَ الضلالِ ، ونعوذُ بِهِ مِنَ
الاغترارِ بِخيالاتِ الجهالِ .



تم كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين

وصلى الله على سيدنا محمد النبي العربي المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم

يتلوه كتاب ذم الغرور

كِتَابُ
ذِمَّةِ الْغُرُورِ

وهو الكتاب العاشر من ربيع المسلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذم الغرور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات
والشرور ، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات
الغرور .

والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور ، وعلى آله وأصحابه
الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على ممر
الدهور ، ومكر الساعات والشهور .

أما بعد :

فمفتاح السعادة التيقظ والفتنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة ، فلا
نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح
الصدر بنور البصيرة ، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعي إليهما
سوى عمى القلب بظلمة الجهالة ، فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم
﴿ كَمَشْكُورٍ فِيهَا مَصْبَاحُ الْمَصْبَاحِ فِي زُجَاجَةِ الزُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى
نُورٍ ﴾ ، والمغتربون قلوبهم ﴿ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ

فَوْقَهُ سَحَابٌ ظَلَمَتْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أُخْرِجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْ نَهْأً وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ .

فالأكياسُ هم الذين أراد الله أن يهديهم ، فشرح صدورهم للإسلام والهدى ، والمغترُّون هم الذين أراد الله أن يضلَّهم ، فجعل صدرهم ضيقاً حرجاً كأنما يصعدُ في السماء ، والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً ، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً ، وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

وإذا عُرف أنَّ الغرورَ هو أُمُّ الشقاوات ، ومنبعُ المهلكات . . فلا بدَّ من شرح مداخله ومجاريه ، وتفصيل ما يكثر وقوعُ الغرور فيه ؛ ليحذره المريدُ بعد معرفته فيتقيه ، فالموفقُ من العبادِ مَنْ عرف مداخل الآفاتِ والفسادِ فأخذ منها حذرَهُ ، وبنى على الحزمِ والبصيرةِ أمرَهُ .

ونحنُ نشرحُ أجناسَ مجاري الغرورِ ، وأصنافَ المغترِّينَ مِنَ العصاةِ والعلماءِ والصالحينَ ، الذين اغترُّوا بمبادي الأمورِ الجميلةِ ظواهرها ، القبيحةِ سرائرها ، ونشيرُ إلى وجهِ اغترارِهِمْ بها وغفلتِهِمْ عنها ؛ فإنَّ ذلكَ وإنَّ كَانَ أَكْثَرَ مِمَّا يُحْصَى ، وَلَكِنْ يُمْكِنُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَمْثَلِهِ تَغْنِي عَنْ الْإِسْتِقْصَا .

وَفَرَّقُ الْمَغْتَرِّينَ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ يَجْمَعُهُمْ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ :

الصنفُ الأولُ : مِنَ الْعُلَمَاءِ ، الصنفُ الثاني : مِنَ الْعِبَادِ ، الصنفُ

الثالث : مِنَ المتصوّفة ، الصنف الرابع : مِنَ أرباب الأموال .

والمغتترُّ مِنْ كُلِّ صنفٍ فرقٌ كثيرةٌ ، وجهاتُ غرورِهِمْ مختلفةٌ ؛ فمنهُم مَن رأى المنكرَ معروفاً ؛ كالذي يتَّخذُ المساجدَ ويزخرفُها مِنْ المالِ الحرامِ ، ومنهُم مَن لم يميّزْ بينَ ما يسعى فيه لِنَفْسِهِ وبينَ ما يسعى فيه لِهَلِ تَعَالَى ؛ كالواعظِ الذي غرضُهُ القبولُ والجاهُ ، ومنهُم مَن يتركُ الأهمَّ ويشغلُ بغيرِهِ ، ومنهُم مَن يتركُ الفرضَ ويشغلُ بالنافلةِ ، ومنهُم مَن يتركُ اللُّبَّابَ ويشغلُ بالقشرِ ؛ كالذي يكونُ همُّهُ في الصلاةِ مقصوراً على تصحيحِ مخارجِ الحروفِ ، إلى غيرِ ذلك مِنْ مداخلٍ لا تتضحُ إلا بتفصيلِ الفرقِ وضربِ الأمثلةِ .

ولنبداً أولاً بذكرِ غرورِ العلماءِ ، ولكنْ بعدَ بيانِ ذمِّ الغرورِ ، وبيانِ حقيقتهِ وحدِّهِ .



بيان ذم الغرور وحقائقه وأمثلة

اعلم : أن قوله عز وجل : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ... ﴾ الآية . . كافٍ في ذم الغرور .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين ؟ ! »^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »^(٢) .

وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل . . فهو دليل على ذم الغرور ؛ لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ؛ إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « اليقين » (٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١١ / ١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً عليه ، قال الحافظ العراقي : (ولم أجده مرفوعاً) . « إتحاف » (٤٢٨ / ٨) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وفيهما : « العاجز » بدل « الأحمق » ، وورد لفظ (الأحمق) عند ابن سلام في « غريب الحديث » (١٣٤ / ٣) ، دان نفسه : جعلها متقادة مطيعة لربها تعالى ، وتمنى على الله : فهو مع تقصيره في طاعة الله واتباع الشهوات . . لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنى على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار . انظر « الإتحاف » (٤٤ / ٧) .

ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهل ، إلا أن كل جهل ليس بغرور ، بل يستدعي الغرور مغروراً فيه مخصوصاً ، ومغروراً به وهو الذي يغره ، فمهما كان المجهول المعتقد شيئاً يوافق الهوى ، وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً . . سمي الجهل الحاصل به غروراً .

فالغرور : هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان ؛ فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة . . فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه ، فأكثر الناس إذا مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدّها غروران ؛ غرور الكفار ، وغرور العصاة والفساق ، فلنورد أمثلة لحقيقة الغرور :

المثال الأول : غرور الكفار :

فمنهم من غرتهم الحياة الدنيا ، ومنهم من غره بالله الغرور .

أمّا الذين غرتهم الحياة الدنيا . . فهم الذين قالوا : النقد خير من النسيئة ، والدنيا نقد والآخرة نسيئة ، فإذا هي خير ، فلا بد من إثارها ، وقالوا : اليقين خير من الشك ، ولذات الدنيا يقين ، ولذات الآخرة شك ؛ فلا نترك اليقين بالشك .

وهذه أقيسة فاسدة ؛ تشبه قياس إبليس حيث قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ، وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْقُقُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

وعلاج هذا الغرور : إما بتصديق الإيمان ، وإما بالبرهان .

أما التصديق بمجرّد الإيمان . . فهو أن يصدّق الله تعالى في قوله : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ ، وفي قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعُ الْغُرُورِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ .

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار ، فقلّدوه وصدّقوه وآمنوا به ، ولم يطالبوه بالبرهان^(١) ، ومنهم من قال : نشدتك الله ؛ أبعثك الله رسولا ؟ فكان يقول : « نعم »^(٢) ، فيصدّق ، وهذا إيمان العامة ، وهو مخرج من الغرور ، ويُنزّل هذا منزلة تصديق الصبي والدّه في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب ، مع أنّه لا يدري وجه كونه خيرا .

(١) كإيمان كثير من الأنصار ، وقد روى أحمد في « المسند » (٣/ ٣٢٢) من حديث جابر رضي الله عنه يحكي خبرهم : (فيخرج الرجل متافيا من به ، ويقرنه القرآن ، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . . .) .

(٢) وكان ذلك في قصة إيمان ضمّام بن ثعلبة رضي الله عنه ، وهي عند البخاري (٦٣) .

وأما المعرفة بالبيان والبرهان .. فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمته في قلبه الشيطان ، فإن كل مغرور فلغوره سبب ، وذلك السبب هو دليل ، وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ، ويورث السكون إليه وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظميه بألفاظ العلماء ، فالقياس الذي نظمته الشيطان فيه أصلاً : أحدهما : أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة ، وهذا صحيح ، والآخر : قوله : إن النقد خير من النسيئة ، وهذا محل التلبس ؛ فليس الأمر كذلك ، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود .. فهو خير ، وإن كان أقل منه .. فالنسيئة خير ، فإن هذا الكافر المغرور يبدل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول : النقد خير من النسيئة فلا أتركه ، وإذا حذره الطيب الفواكه ولذائذ الأطعمة .. ترك ذلك في الحال ؛ خوفاً من ألم المرض في المستقبل ، فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة ، والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقداً لأجل الراحة والربح نسيئة ، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال .. فانسب لذّة الدنيا من حيث مدتها إلى مدّة الآخرة ؛ فإن أقصى عمر الإنسان مئة سنة ، وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة ، فكأنه قد ترك واحداً ليأخذ ألف ألف ، بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حد ، وإن نظر من حيث النوع .. رأى لذات الدنيا مكذّرة مشوبة بأنواع المنغصات ، ولذات الآخرة صافية غير مكذّرة .

فإذا ؛ قد غلط في قوله : النقد خير من النسيئة ، وهذا غرور منشؤه

قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص ، فغفل المغرور عن خصوص معناه ، فإنَّ مَنْ قَالَ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ . . أراد به خيراً مِنْ نسيئةٍ هي مثله وإن لم يصرِّح به .

وعند هذا يفرعُ الشيطانُ إلى القياسِ الآخرِ ، وهو قوله : اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ ، والآخرةُ شكٌّ ، وهذا القياسُ أكثرُ فساداً مِنَ الأولِ ؛ لأنَّ كلاً أصله باطلٌ ؛ إذ اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ إذا كان مثله ، وإلا . . فالتاجرُ في تبعه على يقينٍ وفي ربحه على شكٍّ ، والمتفقهُ في اجتهاده على يقينٍ وفي إدراكه رتبة العلمِ على شكٍّ ، والصيَّادُ في تردُّده في المقتنصِ على يقينٍ وفي الظفرِ بالصيدِ على شكٍّ ، وكذا الحزمُ دأبُ العقلاءِ بالاتفاقِ ، وكلُّ ذلك تركٌ لليقينِ بالشكِّ ، ولكنَّ التاجرَ يقولُ : إن لم أتجر . . بقيتُ جائعاً وعظُمَ ضرري ، وإن أتجرتُ . . كانَ تعبِي قليلاً وربحي كثيراً ، وكذلك المريضُ يشربُ الدواءَ البشعَ الكريهَ وهو مِنَ الشفاءِ على شكٍّ وَمِنْ مرارةِ الدواءِ على يقينٍ ، ولكنَّ يقولُ : ضررُ مرارةِ الدواءِ قريبٌ بالإضافةِ إلى ما أخافه مِنَ المرضِ والموتِ ؛ فكذلك مَنْ شكَّ في الآخرةِ فواجبٌ عليه بحكمِ الحزمِ أن يقولَ : الصبرُ أياماً قلائلَ وهو منتهى العمرِ قريبٌ بالإضافةِ إلى ما يُقالُ مِنَ أمرِ الآخرةِ ، فإنَّ كانَ ما قيلَ فيه كذباً . . فما يفوتني إلا التَّعَمُّ أيامَ حياتي ، وقد كنتُ في العدمِ مِنَ الأزلِ إلى الآنَ لا أَتَنَعَّمُ ، فأحسِبُ أنني بقيتُ في العدمِ ، وإنَّ كانَ ما قيلَ صدقاً . . فأبقى في النارِ أبداً الآبادِ ، وهذا لا يُطاقُ .

ولذلك قال عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ لبعضِ الملحدين : (إِنْ كَانَ مَا قَلْتُهُ حَقًّا .. فَقَدْ تَخَلَّصْتَ وَتَخَلَّصْنَا ، وَإِنْ كَانَ مَا قَلْنَاهُ حَقًّا .. فَقَدْ تَخَلَّصْنَا وَهَلَكْتَ)^(١) ، وما قالَ هذا عن شكِّ منه في الآخرة ، ولكنَّ كَلَّمَ الملحِدَ على قدرِ عقلِهِ ، وبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَيْقِنًا .. فَهُوَ مَغْرُورٌ .

وأما الأصلُ الثاني مِنْ كَلَامِهِ وَهُوَ أَنَّ الآخرةَ شكٌّ .. فَهُوَ أَيْضًا خَطَأٌ ، بَلْ ذَلِكَ يَقِينٌ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَيَقِينُهُ مَدْرَكَانِ :

أحدهُما : الإِيْمَانُ وَالتَّصَدِيقُ ؛ تَقْلِيدًا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ، وَذَلِكَ أَيْضًا يَزِيلُ الْغُرُورَ ، وَهُوَ مَدْرَكُ يَقِينِ الْعَوَامِّ وَأَكْثَرِ الْخَوَاصِّ ، وَمِثَالُهُمْ مِثَالُ مَرِيضٍ لَا يُعْرِفُ دَوَاءَ عِلَّتِهِ ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْأَطْبَاءُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَةِ مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ عَلَى أَنَّ دَوَاءَهُ النَّبْتُ الْفُلَانِيُّ ؛ فَإِنَّهُ تَطْمِئِنُّ نَفْسُ الْمَرِيضِ إِلَى تَصَدِيقِهِمْ ، وَلَا يَطَالِبُهُمْ بِتَصْحِيحِ ذَلِكَ بِالْبَرَاهِينِ الطَّبِيعَةِ ، بَلْ يَثِقُ بِقَوْلِهِمْ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَلَوْ بَقِيَ سَوَادِيٌّ أَوْ مَعْتَوَةٌ يَكْذِبُهُمْ فِي ذَلِكَ وَهُوَ يَعْلَمُ بِالتَّوَاتُرِ وَقَرَائِنِ الْأَحْوَالِ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُ عِدَدًا ، وَأَغْزَرُ مِنْهُ فَضْلًا ، وَأَعْلَمُ بِالطَّبِّ مِنْهُ ، بَلْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالطَّبِّ .. فَيَعْلَمُ كَذِبَهُ بِقَوْلِهِمْ ، وَلَا يَعْتَقِدُ كَذِبَهُمْ بِقَوْلِهِ ، وَلَا يَفْتَرُ فِي عَمَلِهِ بِسَبَبِهِ^(٢) ، وَلَوْ اعْتَمَدَ قَوْلَهُ وَتَرَكَ قَوْلَ الْأَطْبَاءِ .. كَانَ مَعْتَوًاهَا مَغْرُورًا .

فكَذَلِكَ مَنْ نَظَرَ إِلَى الْمُقَرَّرِينَ بِالْآخِرَةِ وَالْمُخْبِرِينَ عَنْهَا ، وَالْقَائِلِينَ بِأَنَّ

(١) أوردته الشريف في « نهج البلاغة » . « إتحاف » (٤٣٢ / ٨) وسيأتي .

(٢) وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٤٣٢ / ٨) : (ولا يفتر في عمله) .

التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها . . وجدهم خير خلق الله ،
وأعلامهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل ، وهم الأنبياء والأولياء
والحكماء والعلماء ، واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد
من البطالين غلبت عليهم الشهوة ، ومالت نفوسهم إلى التمتع ، فعظم
عليهم ترك الشهوات ، وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار ،
فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء ، فكما أن قول الصبي وقول السوادي
لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء . . فكذلك قول هذا الغبي
الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء .

وهذا القدر من الإيمان كافٍ لجملة الخلق ، وهو يقين جازم يستحث
على العمل لا محالة ، والغرور يزول به .

وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة . . فهو الوحي والإلهام ، والوحي
للأنبياء ، والإلهام للأولياء ، ولا تظن أن معرفة النبي لأمر الآخرة ولأمر
الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسمع منه ؛ كما أن معرفتك تقليد للنبي
صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك كمعرفته ، وإنما يختلف المقلد
فقط ، هيهات ! فإن التقليد ليس بمعرفة ، بل هو اعتقاد صحيح ، والأنبياء
عارفون ، ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها ،
فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ،
فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد ، وذلك بأن يكشف لهم عن
حقيقة الروح ، وأنه من أمر الله تعالى ، وليس المراد بكونه من أمر الله

الأمر الذي يقابل النهي ؛ لأن ذلك الأمر كلام ، والروح ليس بكلام ،
وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله تعالى
فقط ، لأن ذلك عام في جميع المخلوقات ، بل العالم عالمان : عالم
الأمر ، وعالم الخلق ، والله الخلق والأمر ، فالأجسام ذوات الكمية
والمقادير من عالم الخلق ؛ إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان ،
وكل موجود منزلة عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر ، وشرح ذلك
سرُّ الروح ، ولا رخصة في ذكره ؛ لاستضرار أكثر الخلق بسماعه ؛ كسرُّ
القدر الذي منع من إفشائه ، فمن عرف سرَّ الروح . . فقد عرف نفسه ،
وإذا عرف نفسه . . فقد عرف ربه ، وإذا عرف نفسه وربه . . عرف أنه أمر
رباني بطبعه وفطرته ، وأنه في العالم الجسماني غريب ، وأن هبوطه إليه
لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته ، بل بأمر عارض غريب من ذاته ، وذلك
العارض الغريب ورد على آدم عليه السلام وعبر عنه بالمعصية ، وهي التي
حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته ؛ فإنها في جوار الرب
تعالى ، وأنه أمر رباني ، وحينئذ إلى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي إلا
أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته ، فينسى عند
ذلك نفسه وربه ، ومهما فعل ذلك . . فقد ظلم نفسه ؛ إذ قيل له : ﴿ وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) أي :

(١) أي : تركوا معرفة الله تعالى ولم يذكروه ، فجعلهم ناسين لأنفسهم فلم يعرفوها ، ففيه
أن نسيان النفس من ثمرات نسيان الرب ، كما أن نسيان النفس يورث نسيان الرب ، =

الخارجون عن مقتضى طبيعهم ومظنة استحقاقهم ، يُقال : فسقت الرطبة عن كمامها ؛ إذا خرجت عن معدنها الفطري .

وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون ، وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون ، فإنها تضر بهم كما تضر رياح الورد بالجعل ، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش ، وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يُسمى معرفة وولاية ، ويُسمى صاحبه ولياً وعارفاً ، وهي مبادي مقامات الأنبياء ، وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء .

ولنرجع إلى الغرض المطلوب ؛ فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يُدفع إما بيقين تقليدي ، وإما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن ، والمؤمنون بالسُّتِهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى ، وهجروا الأعمال الصالحة ، ولا بسوا الشهوات والمعاصي . . فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور ؛ لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة .

نعم ، أمرهم أخف ؛ لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد ، فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم أيضاً من المغرورين ، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ، ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ، ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ

= والمطلوب : معرفتهما جميعاً ، فتضمحل النفس ويبقى الرب . « إتحاف » (٨ / ٤٣٤) .

وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿١﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ» (١) ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ، فوَعْدُ الْمَغْفِرَةِ فِي جَمِيعِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مُنَوِّطٌ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ جَمِيعًا ، لَا بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ ، فَهَؤُلَاءِ أَيْضًا مَغْرُورُونَ ؛ أَعْنِي : الْمُطْمَئِنِّينَ إِلَى الدُّنْيَا ، الْفَرَحِينَ بِهَا ، الْمَتَرَفِينَ بِنَعِيمِهَا ، الْمُحِثِّينَ لَهَا ، الْكَارِهِينَ لِلْمَوْتِ خِيفَةَ فَوَاتِ لِدَاتِ الدُّنْيَا ، دُونَ الْكَارِهِينَ لَهُ خِيفَةَ لَمَّا بَعْدَهُ .

فهذا مثالُ الغرورِ بالدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا .

ولندكرُ للغرورِ باللهِ تَعَالَى مثالينِ مِنْ غُرُورِ الْكَافِرِينَ وَالْعَاصِينَ :

فَأَمَّا غُرُورُ الْكُفَّارِ بِاللَّهِ . فَمِثَالُهُ : قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَبِالْأَسْتِثْمِ : إِنَّهُ إِنْ كَانَ اللَّهُ مِنْ مَعَادٍ . . فنحنُ أَحَقُّ بِهِ مِنْ غَيْرِنَا ، وَنَحْنُ أَوْفَرُ حِظًّا فِيهِ وَأَسْعَدُ حَالًا ؛ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنْ قَوْلِ الرَّجُلَيْنِ الْمُتَحَاوِرِينَ ؛ إِذْ قَالَ : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَّتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ، وَجَمَلُهُ أَمْرُهُمَا كَمَا نُقِلَ فِي التَّفْسِيرِ : أَنَّ الْكَافِرَ مِنْهُمَا بَنَى قَصْرًا بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَاشْتَرَى بِسِتَانَاً بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَخَدَمًا بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى أَلْفِ دِينَارٍ ، وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَعْظُمُ الْمُؤْمِنُ وَيَقُولُ : اشْتَرَيْتَ قَصْرًا يَخْرُبُ وَيَفْنَى ،

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧) ، ومسلم (٩) .

ألا اشتريت قصراً في الجنة لا يفنى ، واشتريت بستاناً يخرب ويفنى ، ألا اشتريت بستاناً في الجنة لا يفنى ، وخدماء لا يفنون ولا يموتون ، وزوجة من الحور العين لا تموت ، وفي كل ذلك يردُّ عليه الكافر ويقول : ما هناك شيء ، وما قيل من ذلك . . فهو أكاذيب ، وإن كان . . فليكوننَّ لي في الآخرة خيراً من هذا^(١) .

وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول : ﴿لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ ، فقال الله تعالى ردّاً عليه : ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ، وزوي عن خباب بن الأرت أنه قال : كان لي على العاص بن وائل دين ، فجئت أتقاضاه ، فلم يقضني ، فقلت : إني أخذه في الآخرة ، فقال لي : إذا صرت إلى الآخرة . . فإن لي هناك مالا وولداً فأقضيك منه ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾^(٢) .

وقال الله تعالى : ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْنَاهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ .

وهذا كله من الغرور بالله ، وسببه قياس من أقيسه إبليس ، وذلك لأنهم ينظرون مرة إلى نعم الله تعالى عليهم في الدنيا ، فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم ، فيقيسون عليه عذاب

(١) انظر « تفسير البغوي » (١٦١ / ٣) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٩١) ، ومسلم (٢٧٩٥) .

الآخرة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ بَصُلُونَهَا فَنِشْءُ الْمَصِيرِ ﴾ ، ومرةً ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر ؛ فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون : ﴿ أَهْتَوْلَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ، ويقولون : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ .

وترتيب القياس الذي نظمهُ الشيطان في قلوبهم أنهم يقولون : قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا ، وكلُّ محسنٍ فهو محبٌّ ، وكلُّ محبٍّ فإنه يحسنُ في المستقبل أيضاً ؛ كما قال الشاعر^(١) :

لَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ فِيْمَا مَضَى كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيْمَا بَقِيَ
وإنما يقيسُ المستقبلَ على الماضي بواسطة الكرامةِ والحبِّ ؛ إذ يقولُ :
لولا أنني كريمٌ عندَ الله تعالى ومحبوبٌ . . لما أحسنَ إليَّ ، والتلبسُ تحتَ ظنِّه أنَّ كلَّ محسنٍ محبٌّ ، لا بل تحتَ ظنِّه أنَّ إنعامه عليه في الدنيا إحسانٌ ، فقد اغترَّ بالله تعالى ؛ إذ ظنَّ أنه كريمٌ عندهُ بدليل لا يدلُّ على الكرامةِ ، بل عندَ ذوي البصائرِ يدلُّ على الهوانِ .

ومثاله أن يكونَ للرجلِ عبدانِ صغيرانِ ييغضُ أحدهُما ويحبُّ الآخرَ ، فالذي يحبهُ يمنعهُ مِنَ اللعبِ ويلزمهُ المكتبَ ، ويحبسهُ فيه ليعلمهُ الأدبَ ، ويمنعهُ مِنَ الفواكهِ وملاذِّ الأطعمةِ التي تضرُّه ، ويسقيه الأدويةَ التي تنفعُه ،

(١) البيت مما نسب إلى سيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٨٢) ، ولشهاب الدين التلعفري في « ديوانه » (ص ٥٨٨) ، ولمنصور بن إسماعيل الفقيه . انظر « زهر الآداب » (٢/ ٨٢٧) .

والذي ييغضه يهمله ليعيش كيف يريد ، فيلعب ، ولا يدخل المكتب ،
ويأكل كل ما يشتهي ، فيظن هذا الصبي المهمل أنه عند سيده محبوب
كريم ؛ لأنه مكنه من شهواته ولذاته ، وساعده على جميع أغراضه ، فلم
يمنعه ولم يحجز عليه ، وذلك محض الغرور ، وهكذا نعيم الدنيا
ولذاتها ؛ فإنها مهلكات ومبعدات من الله ، وإن الله يحمي عبده الدنيا وهو
يحبّه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه ، هكذا ورد
في الخبر عن سيد البشر (١) .

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا . . حزنوا وقالوا : ذنب
عجلت عقوبته ، ورأوا ذلك أماره المقت والإهمال ، وإذا أقبل عليهم
الفقر . . قالوا : مرحباً بشعار الصالحين (٢) .

والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا . . ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت
عنه . . ظن أنه هوان ؛ كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا
أَبْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ
رَبِّي أَهَنَنِ ﴾ كلاً : أي : ليس كما قال ، إنما هو ابتلاء ، نعوذ بالله من شر
البلاء ، ونسأل الله الثبوت ، فبين أن ذلك غرور ، قال الحسن : كذبهما

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٦) .

(٢) كما روى أبو نعيم في « الحلية » (٥ / ٦) عن كعب قال : (إن الرب تعالى قال لموسى
عليه السلام : يا موسى ؛ إذا رأيت الغنى مقبلاً . . فقل : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا
رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين) .

جميعاً بقوله : ﴿ كَلَّا ﴾ يقول : ليس هذا بكرامتي ، ولا هذا بهواني ، ولكنَّ الكريمَ مَنْ أكرمتُه بطاعتي ، غنياً كانَ أو فقيراً ، والمهانُ مَنْ أهنتُه بمعصيتي ، غنياً كانَ أو فقيراً^(١) .

وهذا الغرورُ علاجُهُ : معرفةُ دلائلِ الكرامةِ والهوانِ ، إمّا بالبصيرةِ وإمّا بالتقليدِ .

أما البصيرةُ . . فبأنَّ يعرفَ وجهَ كونِ الالتفاتِ إلى شهواتِ الدنيا مبعداً عنِ الله ، ووجهَ كونِ التباعدِ عنها مقرباً إلى الله ، ويُدرِكُ ذلكَ بالإلهامِ في منازلِ العارفينَ والأولياءِ ، وشرحُهُ مِنْ جملةِ علومِ المكاشفةِ ، ولا يليقُ بعلمِ المعاملةِ .

وأما معرفتهُ بطريقِ التقليدِ والتصديقِ . . فهو أنْ يؤمنَ بكتابِ الله تعالى ، ويصدقَ رسولهُ ، وقد قالَ تعالى : ﴿ اَيَحْسَبُونَ اَنَّمَا نُنْذِرُهُمْ بِهِءٍ مِنْ مَّالٍ وَبَيِّنٍ ﴿١﴾ سَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿ فَتَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ اَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا اَوْتُوا اخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَاِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ .

وفي تفسيرِ قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : أَنَّهُمْ كُلُّمَا

(١) بنحوه رواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن ، كما في « الدر المنثور »
(٥٠٩ / ٨) .

أحدثوا ذنباً.. أحدثنا لهم نعمة^(١) ؛ ليزيد غرورهم .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَمَلَّيْ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ ، إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ، فمن آمن به.. تخلص من هذا الغرور ؛ فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه سبحانه.. لا يأمن مكره ، ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميراً فقال تعالى : ﴿ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ... ﴾ الآية .

وقد حذر الله تعالى مكره واستدراجهُ فقال تعالى : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۖ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُودًا ﴾ .

فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد ، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرأ منه وكيداً مع

(١) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٤٥١) .

أَنَّ السَّيِّدَ لَمْ يَحْذَرُهُ مَكْرَ نَفْسِهِ .. فَبَأْنَ يَجِبَ ذَلِكَ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ تَحْذِيرِهِ اسْتِدْرَاجَهُ أَوَّلَى .

فَإِذَا ؛ مَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى .. فَهُوَ مَغْتَرٌّ ، وَمِنْشَأُ هَذَا الْغُرُورِ أَنَّهُ اسْتَدَلَّ بِنِعْمِ الدُّنْيَا عَلَى أَنَّهُ كَرِيمٌ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَنْعَمِ ، وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ دَلِيلَ الْهَوَانِ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْإِحْتِمَالَ لَا يُوَافِقُ الْهَوَى ، فَالشَّيْطَانُ بِوَاسِطَةِ الْهَوَى يَمِيلُ بِالْقَلْبِ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ ، وَهُوَ التَّصَدِيقُ بِدَلَالَتِهِ عَلَى الْكَرَامَةِ ، وَهَذَا هُوَ حَدُّ الْغُرُورِ .



المثال الثاني : غرور العصاة مِنَ الْمُؤْمِنِينَ :

بِقَوْلِهِمْ : إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ ، وَإِنَّا نَرْجُو عَفْوَهُ ، وَاتَّكَلُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَاهْمَلُوهُمُ الْأَعْمَالَ ، وَتَحْسِينُ ذَلِكَ بِتَسْمِيَةِ تَمْنِيَّتِهِمْ وَاغْتِرَارِهِمْ رَجَاءً ، وَظَنُّهُمْ أَنَّ الرِّجَاءَ مَقَامٌ مَحْمُودٌ فِي الدِّينِ ، وَأَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، وَرَحْمَتُهُ شَامِلَةٌ وَكَرَمُهُ عَمِيمٌ ، وَأَيْنَ مَعَاصِي الْعِبَادِ فِي بَحَارِ رَحْمَتِهِ ؟ وَإِنَّا مُوَحِّدُونَ وَمُؤْمِنُونَ ؛ فَنَرْجُوهُ بِوَسِيلَةِ الْإِيمَانِ ، وَرَبَّمَا كَانَ مُسْتَدُّ رَجَائِهِمْ التَّمَسُّكُ بِصَلَاحِ الْأَبَاءِ وَعُلُوِّ رَتَبَتِهِمْ ؛ كَاغْتِرَارِ الْعُلُوِّيَّةِ بِنَسَبِهِمْ وَمَخَالَفَتِهِمْ سِيرَةَ آبَائِهِمْ فِي الْخَوْفِ وَالتَّقْوَى وَالْوَرَعِ ، وَظَنُّهُمْ أَنَّهُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ آبَائِهِمْ ؛ إِذْ آبَاؤُهُمْ مَعَ غَايَةِ الْوَرَعِ وَالتَّقْوَى كَانُوا خَائِفِينَ ، وَهُمْ مَعَ غَايَةِ الْفُجُورِ وَالْفُسُوقِ آمِنُونَ ، وَذَلِكَ نَهَايَةُ الْاِغْتِرَارِ بِاللَّهِ تَعَالَى .

فقياسُ الشيطانِ للعلويةِ أنَّ مَنْ أَحَبَّ إنساناً أَحَبَّ أولادهُ ، وأنَّ اللهَ تعالى قد أَحَبَّ آباءَكُمْ فيحُبُّكُمْ ، فلا تحتاجونَ إلى الطاعةِ ، وينسى الغرورُ أنَّ نوحاً صلواتُ الله عليه أرادَ أَنْ يستصحبَ ولدهُ معه في السفينةِ ، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ ، فقالَ تعالى : ﴿ يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ، وأنَّ إبراهيمَ عليه السلامُ استغفرَ لأبيه فلم ينفعه ، وأنَّ نبيَّنا صلى الله عليه وسلم استأذنَ ربَّهُ في أَنْ يزورَ قبرَ أمِّه ويستغفرَ لها ، فأذنَ له في الزيارة ولم يؤذنْ له في الاستغفارِ ، فجلسَ يبكي على قبرِ أمِّه لرفقتهِ لها بسببِ القرابةِ ، حتى أبكى مَنْ حوله^(١) .

فهذا أيضاً اغترارٌ باللهِ تعالى ، وهذا لأنَّ اللهَ تعالى يحبُّ المطيعَ ويبغضُ العاصيَ ، فكما أنَّه لا يبغضُ الأبَ المطيعَ ببغضِهِ للولدِ العاصي . . فكذلك لا يحبُّ الولدَ العاصيَ بحبهِ للأبِ المطيعِ ، ولو كانَ الحبُّ يسري مِنَ الأبِ إلى الولدِ . . لأوشكَ أَنْ يسريَ البغضُ أيضاً ، بل الحقُّ أَنْ لا تزرَ وازرةٌ وزرَ أخرى^(٢) .

ومَنْ ظَنَّ أنَّه ينجو بتقوى أبيه كَمَنْ ظَنَّ أنَّه يشبعُ بأكْلِ أبيه ، ويروى بشربِ أبيه ، ويصيرُ عالماً بعلمِ أبيه ، ويصلُ إلى الكعبةِ ويراهُ بمشيِ أبيه ،

(١) رواه مسلم (٩٧٦) .

(٢) وله سبحانه وتعالى أَنْ يتفضلَ على الفرعِ إكراماً لأصله ؛ لأمرٍ خفية لا ينبغي أَنْ يعول الإنسان على توقعها ، بل يتمسك بالأسباب المنجيات التي أوما الحق له فيأخذ بها ، وإن كانت هذه أيضاً فضلاً من الله ورحمة ، وإلى هذا أشار عز شأنه وعلا : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ، وقال جل من قائل : ﴿ الْحَقَّائِبُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ شَيْءٌ ﴾ .

فالتقوى فرض عين ؛ فلا يجزي والد فيه عن ولده شيئاً ، وكذا العكس ،
وعند الله جزاء التقوى ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، إلا على سبيل
الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله تعالى عليه ، فيأذن له في الشفاعة ؛ كما
سبق في كتاب الكبير والعجب .



فإن قلت : فأين الغلط في قول العصاة والفجار : إن الله كريم ، وإننا
نرجو مغفرته ورحمته ، وقد قال : « أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي
خيراً »^(١) ، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب .

فاعلم : أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود
الباطن ، ولولا حسن ظاهره .. لما انخدعت به القلوب ، ولكن النبي
صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال : « الكيس من دان نفسه ، وعمل
لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله »^(٢) ،
وهذا هو التمني على الله تعالى ، غير الشيطان اسمه فسماه رجاء ، حتى
خدع به الجهال ، وقد شرح الله تعالى الرجاء فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ ﴾ ؛ يعني : أن
الرجاء بهم أليق ، وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على
الأعمال ، قال الله تعالى : ﴿ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقال عز وجل :

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٣) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْبُرُوقِ أَنْ يَتُرَفَّعَ فِيكُمْ الْغَمَامُ﴾ ، أفترى أن من استوجر على إصلاح أوانٍ وشُرِّطَ له أجره عليها ، وكان الشارطُ كريماً يفي بالوعدِ مهما وعدَ ولا يخلفُ ، بل يزيدُ ، فجاءَ الأجيرُ وكسرَ الأواني وأفسدَ جميعها ، ثم جلسَ ينتظرُ الأجرَ ، ويزعمُ أن المستاجرَ كريمٌ لا يخلفُ الوعدَ ، أفيراهُ العقلاءُ في انتظارِهِ متمنياً مغروراً أو راجياً ؟ وهذا للجهلِ بالفرقِ بينَ الرجاءِ وبينَ الغرّةِ .



قيلَ للحسين : قومُ يقولون : نرجو اللهَ ويضيِّعونَ العملَ ، فقالَ : هيهاتَ ، هيهاتَ ! تلكَ أمانيتُهُم يترجحونَ فيها ، من رجا شيئاً . . طلبه ، ومن خاف شيئاً . . هربَ منه^(١) .

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ : لقد سجدتُ البارحةَ حتَّى سقطتُ ثيَّتي ، فقالَ له رجلٌ : إنَّا لنرجو اللهَ ، فقالَ مسلمٌ : هيهاتَ ، هيهاتَ ! من رجا شيئاً . . طلبه ، ومن خاف شيئاً . . هربَ منه^(٢) .

وكما أنَّ الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعدُ لم ينكحْ ، أو نكحَ ولم يجامعْ ، أو جامعَ ولم ينزلْ . . فهو معتوهٌ ؛ فكذلكَ من رجا رحمةَ اللهِ وهو لم يؤمنْ ، أو آمنَ ولم يعملْ صالحاً ، أو عملَ ولم يتركِ المعاصي . . فهو

(١) أورده المحاسبي في «الرعاية» (ص ٤٣٥) .

(٢) أورده المحاسبي في «الرعاية» (ص ٤٣٥) ، ورواه ابن المبارك في «الزهد»

مغرورٌ ، وكما أنه إذا نكحَ ووطىءَ وأنزلَ . . بقيَ متردداً في حصولِ الولدِ ، يخافُ ويرجو فضلَ الله في خلقِ الولدِ ودفعِ الآفاتِ عن الرحمِ وعن الأمِّ إلى أن يتمَّ . . فهو كيِّسٌ ؛ فكَذلك إذا آمنَ وعملَ الصالحاتِ وتركَ السيئاتِ ، وبقيَ متردداً بينَ الخوفِ والرجاءِ ، يخافُ ألاَّ يُقبلَ منه ، وألاَّ يدومَ عليه إلى الموتِ ، وأنَّ يُختمَ له بالسوءِ ، ويرجو من فضلِ الله تعالى أن يثبتهُ بالقولِ الثابتِ ، ويحفظَ دينَهُ من صواعقِ سكراتِ الموتِ حتَّى يموتَ على التوحيدِ ، ويحرسَ قلبَهُ عن الميلِ إلى الشهواتِ بقيَّةِ عمرِهِ حتَّى لا يميلَ إلى المعاصي . . فهو كيِّسٌ ، ومنَ عدا هؤلاءِ فهُمُ المغرورونَ باللهِ ، وسوف يعلمونَ حينَ يرونَ العذابَ من أضلُّ سبيلاً ، ولتعلمنَّ نبأَهُ بعدَ حينٍ ، وعندَ ذلك يقولونَ ما أخبرَ اللهُ تعالى عنهم : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أي : علمنا أنه كما لا يُولدُ ولدٌ إلا بوقاعٍ ونكاحٍ ، ولا ينبتُ زرعٌ إلا بحرارةٍ وبثٍّ بذرٍ . . فكَذلك لا يحصلُ في الآخرةِ ثوابٌ وأجرٌ إلا بعملٍ صالحٍ ، فارجعنا نعملْ صالحاً ، فقد علمنا الآنَ صدقَكَ في قولِكَ : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ، و﴿ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ألم يسمعكمُ سنَّةَ الله في عبادِهِ ، وأنه تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبتُ ، وأنَّ كلَّ نفسٍ بما كسبتُ رهينةٌ ؟ فما الذي غرَّكم باللهِ بعدَ أن سمعتمُ وعقلتمُ ؟ ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فَأَعْرِفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ .

فإن قلت : فأين مَظَنَّةُ الرجاءِ وموضعهُ المحمودُ ؟

فاعلم : أنه محمودٌ في موضعين :

أحدهما : في حقِّ العاصي المنهمك إذا خطرَتْ لَهُ التوبةُ ، فقال لَهُ الشيطانُ : وأنتَ تُقبلُ توبتَكَ ؟ فيقنطُهِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تعالى ، فيجبُ عندَ هذا أن يقمعَ القنوطَ بالرجاءِ ، ويتذكرُ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً ، وَأَنَّ اللَّهَ كريمٌ يقبلُ التوبةَ عن عبادِهِ ، وَأَنَّ التوبةَ طاعةٌ تكفِّرُ الذُّنُوبَ ، قَالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَأَنْيَبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ، أمرُهُم بالإنابةِ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ ، فإذا توقَّعَ المغفرةَ مع التوبةِ . . فهو راجٍ ، وإن توقَّعَ المغفرةَ مع الإصرارِ . . فهو مغرورٌ ؛ كما أَنَّ مَنْ ضاقَ عليه وقتُ الجمعةِ وهو في السوقِ ، فخطرَ لَهُ أن يسعى إلى الجمعةِ ، فقال لَهُ الشيطانُ : إنكَ لا تدركُ الجمعةَ ، فأقمْ على موضعِكَ ، فكذَّبَ الشيطانُ وقامَ يعدو وهو يرجو أن يدركَ الجمعةَ . . فهو راجٍ ، وإن استمرَّ على التجارةِ ، وأخذَ يرجو تأخيرَ الإمامِ الصلاةَ لأجلِهِ إلى وسطِ الوقتِ ، أو لأجلِ غيرِهِ ، أو لسببٍ مِنَ الأسبابِ التي لا يعرفُها . . فهو مغرورٌ .

والثاني : أن تفتَرَ نفسُهُ عن فضائلِ الأعمالِ ، وتقتصرَ على الفرائضِ ، فيرجيَ نفسَهُ نعيمَ اللَّهِ تعالى ، وما وعدَ بِهِ الصالحينَ ، حتَّى ينبعثَ مِنَ الرجاءِ نشاطُ العبادةِ ، فيقبلَ على الفضائلِ ، ويتذكرَ قولَهُ تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ ﴾ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ .



فالرجاء الأول يقمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير ، فكل توقع حث على توبة وعلى تشمير في العبادة . . فهو رجاء ، وكل توقع أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة . . فهو غرّة ؛ كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشغل بالعمل ، فيقول له الشيطان : ما لك وإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم ، غفور رحيم ، فيفتّر بذلك عن التوبة والعبادة . . فهو غرّة ، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف ، فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ، ويقول لها : إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وإنه مع أنه كريم خلّد الكفار في النار أبداً الآباد مع أنه لم يضره كفرهم ، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها ، فمن هذه سته في عباده وقد خوفني عقابه . . فكيف لا أخافه ، وكيف أغترّ به ؟

والخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل ، فما لا يبعث على العمل . . فهو تمنّ وغرور ، ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم

السعي للآخرة ، وذلك غرورٌ ، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة^(١) ، وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما أتوا وقلوبهم وجله أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله تعالى ، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ، ويكون على أنفسهم في الخلوات ، وأما الآن . . . فترى الخلق آمنين مسرورين ، مطمئنين غير خائفين ، مع إكبابهم على المعاصي ، وانهمالكهم في الدنيا ، وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون لعفوه ومغفرته ؛ كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من كرم الله تعالى وفضله ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون ، فإن كان هذا الأمر يُدرك بالمنى ويُنال بالهوينى . فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟! وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معقل بن يسار : « يأتي على الناس زمان يُخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان ، يكون أمرهم كله طمعاً لا خوف معه ، إن أحسن أحدهم . . »

(١) تقدم ، وهو حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، وفيه : « وإعجاب كل ذي رأي برأيه » الذي رواه أبو داود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

قَالَ : يُتَقَبَّلُ مِنِّي ، وَإِنْ أَسَاءَ .. قَالَ : يُغْفَرُ لِي ^(١) ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَضَعُونَ الطَّمَعَ مَوْضِعَ الْخَوْفِ ؛ لَجَهْلِهِمْ بِتَخَويفَاتِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ .

وَبِمِثْلِهِ أَخْبَرَ عَنِ النَّصَارَى إِذْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ وَرثُوا الْكِتَابَ ؛ أَيِ : هُمْ عُلَمَاءُ وَيَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ؛ أَيِ : شَهَوَاتِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴾ ، ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ .

وَالْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ تَحذِيرٌ وَتَخْوِيفٌ ، لَا يَتَفَكَّرُ فِيهِ مَتَفَكِّرٌ إِلَّا وَيَطُولُ حَزْنُهُ وَيَعْظُمُ خَوْفُهُ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِمَا فِيهِ ، وَتَرَى النَّاسَ الْآنَ يَهْذُونَهُ هَذَا ، يَخْرُجُونَ الْحُرُوفَ مِنْ مَخَارِجِهَا ، وَيَتَنَازَلُونَ عَلَى رَفْعِهَا وَخَفْضِهَا وَنَصْبِهَا ؛ كَأَنَّهُمْ يَقْرَءُونَ شِعْرًا مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ، لَا يَهْتَمُّهُمُ الْإِلْتِفَاتُ إِلَى مَعَانِيهِ ، وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهِ فَهَلْ فِي الْعَالَمِ غُرُورٌ يَزِيدُ عَلَى هَذَا ؟ !

فَهَذِهِ أَمْثَلَةُ الْغُرُورِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَبَيَانُ الْفَرْقِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْغُرُورِ .
وَيَقْرُبُ مِنْهُ غُرُورُ طَوَائِفَ لَهُمْ طَاعَاتٌ وَمَعَاصٍ ، إِلَّا أَنَّ مَعَاصِيَهُمْ أَكْثَرُ وَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ الْمَغْفِرَةَ ، وَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ تَتَرَجَّحُ كِفَّةُ حَسَنَاتِهِمْ مَعَ أَنَّ مَا فِي كِفَّةِ السَّيِّئَاتِ أَكْثَرُ ! وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ . فَتَرَى الْوَاحِدَ يَتَصَدَّقُ بِدِرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَيَكُونُ مَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَالشُّبُهَاتِ أَوْضَعْفَهُ ،

(١) رَوَاهُ الْحَارِثُ بْنُ أَسَامَةَ فِي « مُسْنَدِهِ » (٧٦٨) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٥٩ / ٦) .

ولعل ما تصدَّق به هو من مال المسلمين ، وهو يتكلُّ عليه ويظنُّ أنَّ أكل ألف درهم حرام يقاومُهُ التصدُّق بعشرة من الحلال أو الحرام ، وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كِفَّة ميزان وفي الكِفَّة الأخرى ألفاً ، وأراد أن تشيل الكِفَّة الثقيلة بالكِفَّة الخفيفة ! وذلك غاية الجهل .

نعم ، ومنهم من يظنُّ أنَّ طاعته أكثر من معاصيه ؛ لأنَّه لا يحاسب نفسه ولا يتفكَّر معاصيه ، وإذا عمل طاعة .. حفظها واعتدَّ بها ؛ كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله في اليوم مئة مرة ثمَّ يغتاب المسلمين ، ويمزق أعراضهم ، ويتكلَّم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ، ويكون نظره إلى عدد سبحته أنَّه استغفر الله مئة مرة ، وغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه . . . لكان مثل تسيحجه مئة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبها الكرام الكاتبون ، وقد أوعده الله تعالى بالعقاب على كل كلمة فقال جلَّ جلاله : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، فهو أبداً يتأمل في فضائل التسيحات والتهليلات ، ولا يلتفت إلى ما ورد في عقوبة المغتابين والكذابين ، والنمامين والمنافقين بذكر ما لا يضمرونه ، إلى غير ذلك من آفات اللسان ، وذلك محض الغرور .

ولعمري ؛ لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجره النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسيحجه . . . لكان عند ذلك يكفُّ لسانه حتَّى عن جملة من مهماته ، وما نطق به في فتراته كان يعدُّه ويحسبه ويوازنه بتسيحاته ؛ حتَّى لا يفضل عليه أجره نسجه ، فيا عجباً لمن يحاسب نفسه

ويحتاطُ خوفاً على قيراطِ يفوتهُ في الأجرةِ على النسخِ ، ولا يحتاطُ خوفاً من فوتِ الفردوسِ الأعلى ونعيمِها ! ما هذه إلا مصيبةٌ عظيمةٌ لمن تفكَّرَ فيها ، فقد دُفِعنا إلى أمرٍ إن شككنا فيه . . كنا من الكفرةِ الجاحدين وإن صدَّقنا به . . كنا من الحمقى المغرورين ، فما هذه أعمالٌ من يصدقُ بما جاء به القرآن ، وإننا نبرأ إلى الله تعالى أن نكون من أهل الكفرانِ ، فسبحان من صدَّنا عن التَّبَيُّه والتَّبَيُّن مع هذا البيانِ ! وما أجدر من يقدرُ على تسليطِ مثل هذه الغفلةِ والغرورِ على القلوبِ أن يخشى ويُنقِى ، ولا يُغترَّ به اتكالاً على أباطيلِ المنى ، وتعاليلِ الشيطانِ والهوى ، والله أعلمُ .



بيان أصناف المغترين ، وأقسام فرق كل صنف

وهم أربعة أصناف :

الصنف الأول : أهل العلم

والمغترّون منهم فرق :

ففرقة منهم أحكموا العلوم الشرعيّة والعقليّة ، وتعمّقوا فيها ، واشتغلوا بها ، وأهملوا تفقّد الجوارح ، وحفظها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، واغترّوا بعلمهم ، وظنّوا أنّهم عند الله بمكان ، وأنّهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم ، بل يقبل في الخلق شفاعتهم ، وأنّه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله .

وهم مغرورون ؛ فإنّهم لو نظروا بعين البصيرة .. علموا أنّ العلم علمان :

علمٌ معاملية ، وعلمٌ مكاشفة ؛ وهو العلم بالله وصفاته ، المسمّى بالعادة علم المعرفة .

فأمّا العلم بالمعاملة ؛ كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة ، وكيفية علاجها والفرار منها .. فهي علوم لا تُراد إلا للعمل ، ولولا الحاجة إلى العمل .. لم يكن لهذه العلوم قيمة ؛ فكلّ علم يُراد للعمل فلا قيمة له دون العمل .

فمثال هذا : كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة ، لا يعرفها إلا حذاق الأطباء .

فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق ، فعلمه الدواء ، وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ، ومعادنها التي منها تجلب ، وعلمه كيفية دق كل واحد منها ، وكيفية الخلط والمجن ، فتعلم ذلك منه ، وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ، ورجع إلى بيته وهو يكررها ويقرأها ويعلمها المرضى ، ولم يشتغل بشربها واستعمالها ، أفترى أن ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً ؟

هيهات هيهات ! لو كتب منه ألف نسخة ، وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرّره كل ليلة ألف مرة . لم يغني ذلك من مرضه شيئاً ، إلا أن يزن الذهب ، ويشتري الدواء ، ويخلطه كما تعلم ، ويشربه ويصبر على مرارته ، ويكون شربه في وقته ، وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه ، فإذا فعل جميع ذلك . . فهو على خطر من شفائه ، فكيف إذا لم يشربه أصلاً ؟ ! فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه . . فقد ظهر غروره .

وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها ، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها ، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها ، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها ، فهو مغرور ، إذ قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ، ولم يقل : قد أفلح من تعلم كيفية تركيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس .

وعند هذا يقول له الشيطان : لا يغرّنك هذا المثال ؛ فإنّ العلم بالدواء لا يزيل المرض ، وإنّما مطلبك القرب من الله تعالى وثوابه ، والعلم يجلب الثواب ، ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضائل العلم .
فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً . وافق ذلك مراده وهواه ، فاطمأن إليه وأهمّل العمل .

وإن كان كيساً . فيقول للشيطان : أتذكّرني فضائل العلم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَثَلَمُوا كَمْثِلِ الْكَلْبِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ ؟

فأي خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار ؟!
وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ازداد علماً ولم يزد هدى . لم يزد من الله إلا بُعداً »^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « يلقي العالم في النار فتندلق أقتابُهُ ، فيدورُ بها في النار كما يدورُ الحمارُ في الرحى »^(٢) .
وكقوله صلى الله عليه وسلم : « شرُّ الناسِ العلماءُ السوءُ »^(٣) .

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٨٧) ، قال الحافظ العراقي : (والمشهور أن هذا الحديث من قول الحسن البصري) . « إتحاف » (٣٥١ / ١) .
(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقتاب : الأعماء .
(٣) روى بنحوه الدارمي في « سننه » (٣٨٢) .

وقول أبي الدرداء : (ويلٌ للذي لا يعلمُ مرّةً ولو شاءَ اللهُ . . لعَلَّمَهُ ،
وويلٌ للذي يعلمُ ولا يعملُ سبعَ مراتٍ)^(١) أي : إنّ العلمَ حجّةٌ عليه ؛ إذ
يُقالُ له : ماذا عملتَ فيما علمتَ ؟ وكيف قضيتَ شكرَ الله ؟

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لم
ينفعهُ اللهُ بعلمِهِ »^(٢) .

فهذا وأمثاله ممّا أوردناه في كتابِ العلمِ في بابِ علامةِ علماءِ الآخرةِ
أكثرُ من أن يُحصى ، إلا أنّ هذا لا يُوافقُ هوى العالمِ الفاجرِ ، وما وردَ في
فضلِ العلمِ يوافقُهُ ، فيميلُ الشيطانُ قلبُهُ إلى ما يهواه ، وذلكَ عينُ الغرورِ ؛
فإنَّهُ إنْ نظرَ بالبصيرةِ . . فمثالُهُ ما ذكرناه ، وإنْ نظرَ بعينِ الإيمانِ ، فالذي
أخبرَهُ بفضيلةِ العلمِ هو الذي أخبرَهُ بذمِّ العلماءِ السوءِ ، وأنَّ حالَهُم عندَ اللهِ
أشدُّ من حالِ الجهّالِ ، فبعدَ ذلكَ اعتقادهُ أنّه على خيرٍ مع تأكّدِ حجةِ اللهِ عليه
غايةُ الغرورِ .

وأما الذي يدّعي علومَ المكاشفةِ ؛ كالعلمِ باللهِ وصفاتهِ وأسمائهِ ، وهو
معَ ذلكَ يهملُ العملَ ، ويضيعُ أمرَ اللهِ تعالى وحدودَهُ . . فغرورهُ أشدُّ .
ومثالهُ : مثالُ مَنْ أرادَ خدمةَ مَلِكٍ ، فعرفَ الملكَ ، وعرفَ أخلاقَهُ
وأوصافَهُ ، ولونهُ وشكلُهُ ، وطولُهُ وعرضُهُ ، وعادتهُ ومجلسُهُ ، ولمْ يتعرّفْ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١١ / ١) .

(٢) رواه الطبراني في « الصغير » (١٨٢ / ١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب »
(١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

ما يحبه ويكرهه ، وما يغضب من أجله وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به ، وعاطل عن جميع ما يحبه ؛ من زِيٍّ وهيئة وكلام ، وحركة وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطّخاً بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلاً عن جميع ما يحبه ، متوسلاً إليه بمعرفته له ولنسبه واسمه ، وبلده وشكله وصورته ، وعادته في سياسة غلمانِه ومعاملة رعيته ، فهذا مغرورٌ جداً ؛ إذ لو ترك جميع ما عرفه ، واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يحبه ويكرهه . . لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به .

بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله تعالى إلا الأسامي دون المعاني ؛ إذ لو عرف الله حق معرفته . . لخشيته واتقاه ، فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه ، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : (خفي كما تخاف السبع الضاري)^(١) .

نعم ، من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه ولم يعرف سطوته قد لا يخافه ، وكأنه ما عرف الأسد ، فمن عرف الله تعالى . . عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلاف مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآب . . لم يؤثر ذلك فيه أثراً ، ولم

(١) قوت القلوب (٢٤١ / ١) .

تأخذه عليه رقة ، ولا اعتراه جزع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

وفاتحة الزبور : (رأس الحكمة خشية الله) (١) .

وقال ابن مسعود : (كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً) (٢) .

واستفتي الحسن عن مسألة ، فأجاب عنها ، ف قيل له : إن فقهاءنا لا يقولون ذلك ، فقال للسائل : وهل رأيت فقيهاً قط ؟ إنما الفقيه القائم ليله ، الصائم نهاره ، الزاهد في الدنيا (٣) .

وقال مرة : (الفقيه يداري ولا يماري ، ينشر حكمة الله ، فإن قبلت منه . . حمد الله ، وإن ردت عليه . . حمد الله) (٤) .

فإذا ؛ الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيّه ، وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه ، وهو العالم ، ومن يرد الله به خيراً . . يفقهه في الدين ، فإذا لم يكن بهذه الصفة . . فهو من المغرورين .



(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٣) عن خالد الربيعي .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٦) .

(٣) قوت القلوب (١٥٣ / ١) ، وهو بلفظه هنا عند المحاسبي في « الرعاية » (ص ٤٤٧) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠) ومعه القول قبله .

وفرقه أخرى أحكموا العلم والعمل ، فواظبوا على الطاعات الظاهرة ، وتركوا المعاصي ، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله ؛ من الكبر والحسد والرياء ، وطلب الرئاسة والعلاء ، وإرادة السوء للأقران والشركاء ، وطلب الشهرة في البلاد والعباد ، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم ، فهو مكب عليها ، غير محترز منها .

ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « أدنى الرياء شرك »^(١) ، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر »^(٢) ، وإلى قوله صلى الله عليه وسلم : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »^(٣) ، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : « حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » ، إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة .

فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »^(٤) ، فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب ، والقلب هو الأصل ؛ إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٦ / ٢٠) ، وبنحوه رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) .

(٢) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

(٣) رواه أبو داود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٤) .

ومثال هؤلاء كبير الحش^(١) ؛ ظاهرها جص وباطنها نتن ، أو كقبور الموتى ؛ ظاهرها مزين وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم باطنه ؛ وُضِعَ السراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل قصد ضيافة الملك ، فدعاه إلى داره ، فجصص باب داره ، وترك المزابل في صدر داره ! ولا يخفى أن ذلك غرور .

بل أقرب مثال إليه رجل زرع زرعاً ، فنبت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله ، فأخذ يجرؤ رؤوسه وأطرافه ، فلا تزال تقوى أصوله وتنبت ؛ لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب ، فمن لا يطهر القلب منها . لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة .

بل هو كمرريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره ، والدواء ليقطع مادته من باطنه ، ففنع بالطلاء وترك الدواء ، وبقي يتناول ما يزيد في المادة ، فلا يزال يطلي الظاهر والجرب دائم به ، يتفجر من المادة التي في الباطن .



وفرقة أخرى علموا هذه الأخلاق الباطنة ، وعلموا أنها مذمومة من جهة

(١) الحش - بضم الحاء المهملة ويفتح - : مكان قضاء الحاجة هنا ، وفي الأصل يطلق على البستان ، وبثره يحفر في الدار ضيق الرأس ، يتعهد بالتفريغ كلما امتلأ .

الشرع ، إلا أَنَّهُمْ لعَجِبِهِمْ بأنْفُسِهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَنْفُكُونَ عنها ، وَأَنَّهُمْ أَرْفَعُ
عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَتْلِيَهُمْ بِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُتْلَى بِهِ الْعَوَامُّ دُونَ مَنْ بَلَغَ مَبْلَغُهُمْ فِي
الْعِلْمِ ، فَأَمَّا هُوَ . فَأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَتْلِيَهُ ، ثُمَّ إِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِ مَخَايِلُ الْكِبَرِ^(١)
وَالرَّئَاسَةِ وَطَلَبَ الْعُلُوَّ وَالشَّرَفَ . . قَالَ : مَا هَذَا كِبَرٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ طَلَبُ عِزِّ الدِّينِ ،
وَإِظْهَارُ شَرَفِ الْعِلْمِ ، وَنَصْرَةُ دِينِ اللَّهِ ، وَإِرْغَامُ أَنْفِ الْمُخَالِفِينَ مِنَ الْمُبْتَدِعِينَ ،
فَإِنِّي لَوْ لَبَسْتُ الدُّونَ مِنَ الثِّيَابِ ، وَجَلَسْتُ فِي الدُّونِ مِنَ الْمَجَالِسِ . . لَشِمْتُ بِي
أَعْدَاءُ الدِّينِ وَفَرَحُوا بِذَلِكَ ، وَكَانَ ذَلِكَ ذَلًّا عَلَى الْإِسْلَامِ !

وَنَسِيَ الْمَغْرُورُ أَنَّ عَدُوَّهُ الَّذِي حَذَّرَهُ مِنْهُ مَوْلَاهُ هُوَ الشَّيْطَانُ ، وَأَنَّهُ يَفْرَحُ بِمَا
يَفْعَلُهُ وَيَسْخَرُ مِنْهُ ، وَيَنْسَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَاذَا نَصَرَ الدِّينَ ،
وَبِمَاذَا أَرْغَمَ الْكَافِرِينَ ، وَيَنْسَى مَا رُوِيَ عَنِ الصَّحَابَةِ مِنَ التَّوَاضُعِ وَالتَّبَذُّلِ ،
وَالْقَنَاعَةِ بِالْفَقْرِ وَالْمَسْكِنَةِ ، حَتَّى عُوتِبَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَذَاذَةِ زِيَّهِ عِنْدَ
قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ ، فَقَالَ : (إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ ؛ فَلَا نَطْلُبُ الْعِزَّ فِي
غَيْرِهِ)^(٢) .

ثُمَّ هَذَا الْمَغْرُورُ يَطْلُبُ عِزَّ الدِّينِ بِالثِّيَابِ الرَّقِيقَةِ مِنَ الْقَصَبِ وَالدَّيْبَقِيِّ
وَالْإِبْرِسِمِ الْمُحَرَّمِ وَالْخِيُولِ وَالْمَرَاقِبِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَطْلُبُ بِهِ عِزَّ الْعِلْمِ
وَشَرَفَ الدِّينِ .

(١) فِي (ب) : (فَأَمَّا هُمْ . . فَأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَتْلِيَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ ثُمَّ إِذَا ظَهَرَ عَلَى
أَحَدِهِمْ مَخَايِلُ الْكِبَرِ . .) .

(٢) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (١ / ٦١) .

وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه ، أو فيمن ردَّ عليه شيئاً من كلامه . . لم يظنَّ بنفسه أن ذلك حسدٌ ، ولكن قال : إنما هذا غضبٌ للحقِّ ، وردُّ على المبطل في عدوانه وظلمه ، ولم يظنَّ بنفسه الحسد ، حتَّى يعتقد أنَّه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منعه غيره من رئاسة وزوجم فيها . . هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله ؟ أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع ، بل ربَّما يفرح به فيكون غضبه لنفسه ، وحسده لأقرانه من خبث باطنه ؟

وهكذا يراي بأعماله وعلومه ، وإذا خطر له خاطر الرياء . . قال : هيهات ! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداءً بالخلق بي ؛ ليهتدوا إلى دين الله تعالى ، ويتخلَّصوا من عقاب الله تعالى ، ولا يتأمل المغرور أنَّه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به ، فلو كان غرضه صلاح الخلق . . لفرح بصلاحهم على يد مَنْ كان ؛ كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم ؛ فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر .

وربَّما يُذكر له هذا ، فلا يخلِّيه الشيطان أيضاً ، ويقول : إنما ذلك لأنَّهم إذا اهتدوا بي . . كان الأجر لي والثواب لي ، وإنما فرحي بثواب الله ، لا بقبول الخلق قولي ، هذا ما يظنه بنفسه ، والله مُطلعٌ من ضميره على أنَّه لو أخبره نبيٌّ بأنَّ ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار ، وحُبس مع ذلك في سجن ، وقيد بالسلاسل . . لاحتال في هدم السجن وحلَّ

السلاسل ؛ حتّى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رئاسته ، من تدريس أو وعظ أو غيره .

وكذلك يدخل على السلطان ويتودّد إليه ، ويشني عليه ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلطين الظلمة حرام . . قال له الشيطان : هيهات ! إنّما ذلك عند الطمع في مالهم ، فأما أنت . . فغرضك أن تشفع للمسلمين ، وتدفع الضرر عنهم ، وتدفع شرّ أعدائك عن نفسك ، والله يعلم من باطنه أنّه لو ظهر لبعض أقرانه قبول ذلك السلطان ، فصار يشفعه في كلّ مسلم ، حتّى دفع الضرر عن جميع المسلمين . . ثقل ذلك عليه ، ولو قدر على أن يبتّح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه . . لفعل .

وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم ، فإذا خطر له أنّه حرام . . قال له الشيطان : هذا مال لا مالك له ، وهو لمصالح المسلمين ، وأنت إمام المسلمين وعالمهم ، وبك قوام الدين ، أفلا يحلّ لك أن تأخذ منه بقدر حاجتك ، فيغترّ بهذا التلبس في ثلاثة أمور :

أحدها : في أنّه مال لا مالك له ؛ فإنّه يعرف أنّه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد ، والذين أخذ منهم أحياء قيام ، وأولادهم وورثتهم أحياء ، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم ، ومن غصب مئة دينار من عشرة أنفس وخلطها بمال نفسه . . فلا خلاف في أنّه مال حرام ، ولا يقال : هو مال لا مالك له ، ويجب أن يقسمه بين العشرة ويردّ إلى كلّ واحد عشره

وإن كان مأل كل واحد قد اختلط بالآخر .

الثاني : في قوله : إنه من مصالح المسلمين ، وبك قوام الدين ، ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ، ورغبوا في طلب الدنيا ، والإقبال على الرئاسة ، والإعراض عن الآخرة بسببه . . أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله ، فهو على التحقيق دجال الدين ، وقوام مذهب الشياطين ، لا إمام الدين ؛ إذ الإمام هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله تعالى ؛ كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف ، والدجال هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا ، فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته ، وهو يزعم أنه قوام الدين ، ومثله كما قال عيسى عليه السلام : (العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي ، فلا هي تشرب الماء ، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع)^(١) .

وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر ، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير .

وفرقة أخرى أحكموا العلوم ، وطهروا الجوارح ، وزينوها بالطاعات ، واجتنبوا ظاهر المعاصي ، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب ؛ من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم في التبري

(١) قوت القلوب (١/١٤١) .

منها ، وقلعوا من القلوب منابتها الجليّة القويّة ، ولكنّهم بعد مغرورون ؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكاييد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دقّ وغمض مدرّكته ، فلم يفطنوا لها وأهملوها .

وإنّما مثاله مثال من يريد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه ، وفتش عن كلّ حشيش رآه فقلعه ، إلا أنّه لم يفتش عمّا لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض ، وظنّ أنّ الكلّ قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف ، فانبسطت تحت التراب ، فأهمّلها وهو يظنّ أنّه قد قلّعها وطهرها ، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت ، وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري ، فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ، ويذهل عن المراقبة للخفايا ، والتفقد للدقائق ، فتراه يسهر ليلة ويتعب نهاره في جمع العلوم وترتيبها ، وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها ، وهو يرى أنّ باعته الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته ، ولعلّ باعته الخفيّ هو طلب الذكر ، وانتشار الصيت في الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له في المهمّات ، وإثاره في الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة ، والتلذّد بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتمتع بتحريك الرؤوس إلى كلامه ، والبكاء عليه ، والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين ، والسرور بالتخصّص بهذه الخاصيّة من بين سائر الأقران والأشكال ، للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد ، والتمكّن به من إطلاق

لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا ، لا عن تفجع بمصيبة الدين ، ولكن عن إدلال بالتمييز ، واعتداد بالتخصيص .

ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة ، وعز واثقياد ، وتوقير وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب ، واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله . . فعساه يتشوش عليه قلبه ، وتختلط عليه أوراذه ووظائفه .

وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه ، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره ، وينبو قلبه عمّن عرف حد فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله .

وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع ، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده ، وأكثر ثناء عليه وأشد إصغاء إليه ، وأحرص على خدمته ، ولعلهم يستفيدون منه ، ويرغبون في العمل ، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه ، وقيامه بحق علمه ، فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ، ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه .

وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إثارة الخمول والعزلة وإخفاء العلم . . لم يرغب فيه ؛ لفقده في العزلة ، ولاختفاء لذة القبول وعز

الرئاسة ، ولعلّ مثل هذا هو المرادُ بقول الشيطان : مَنْ زَعَمَ مِنْ بني آدَمَ أَنَّهُ بعلمِهِ امتنعَ مِنِّي . . فبجهله وقعَ في حبائلي ^(١) .

وعساه يصنّفُ ويجتهدُ فيه ^(٢) ، ظانّاً أَنَّهُ يجمعُ علمَ الله لِيُتَفَعَّ بِهِ ، وإنّما يريدُ به استطارَةَ اسمِهِ بحسنِ التصنيفِ ، فلو ادّعى مُدّع تصنيفُهُ ، ومحا عنه اسمُهُ ، ونسبَهُ إلى نفسه . . ثَقُلَ ذلكَ عليه ، معَ علمِهِ بأنَّ ثوابَ الاستفادةِ مِنَ التصنيفِ إنّما يرجعُ إلى المصنّفِ ، واللهُ عالمٌ بأنَّهُ هو المصنّفُ لا مَنْ ادّعاهُ .

ولعلَّهُ في تصنيفِهِ لا يخلو مِنَ الثناءِ على نفسه ، إمّا صريحاً بالدعوى الطويلةِ العريضةِ ، وإمّا ضمناً بالطعنِ في غيره ؛ لِيَسْتَبِينَ مِنْ طَعْنِهِ فِي غَيْرِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِمَّنْ طَعَنَ فِيهِ وَأَعْظَمُ مِنْهُ علماً ، ولقد كَانَ في غُنْيَةٍ عَنِ الطعنِ فِيهِ ، ولعلَّهُ يحكي مِنَ الكلامِ المزيفِ ما يزيّدُ تزييفَهُ فيعزّوهُ إلى قائلِهِ ، وما يستحسنُهُ لعلَّهُ لا يعزّوهُ إليه ؛ لِيُظَنَّ أَنَّهُ مِنْ كلامِهِ ، فينقلُهُ بعينه كالسارقِ لَهُ ، أو يغيّرُهُ أدنى تغييرٍ ؛ كالذي يسرقُ قميصاً مِنْ غَيْرِهِ فيتخذُهُ قَبَاءً حتّى لا يُعرفَ أَنَّهُ مسروقٌ ، ولعلَّهُ يجتهدُ في تزيينِ ألفاظِهِ ، وتسجييعِهِ وتحسينِ نظْمِهِ ؛ كي لا ينسبَ إلى الركاكَةِ ، ويرى أَنَّ غرضَهُ ترويحُ الحكمةِ وتحسينُها وتزيينُها ؛ ليكونَ أَقْرَبَ إلى نفعِ الناسِ ، وعساه غافلٌ عما رُويَ أَنَّ بعضَ الحكماءِ وضعَ ثلاثَ مئةِ مصحفٍ في الحكمةِ ، فأوحى اللهُ تعالى إلى

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٧/٩) عن أبي عبد الله الساجي .

(٢) أي : في تصنيفِهِ . « إتحاف » (٤٥٣/٨) .

نبي زمانه : قل له : قد ملأت الأرض نفاقاً ، وإنني لا أقبل من نفاقك شيئاً^(١) .

ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا . . ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه ، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه . . نظر كل واحد منهم إلى كثرة من يتبعه ، وأنه أكثر تبعاً أم غيره ، فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه ، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة . . تغايروا وتحاسدوا .

ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره . . ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه ، فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ، ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ، ولا يحرص على الشناء عليه كما كان يشي ، مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل التحير منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه ؛ لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة ، وسلامته منها في تلك الفئة ، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه .

ولعل واحداً منهم إذا تحركت فيه مبادي الحسد . . لم يقدر على إظهاره ، فيتعلل بالطعن في دينه وفي ورعه ؛ ليحمل غضبه على ذلك ، ويقول : إنما غضبت لدين الله لا لِنَفْسِي ، ومهما ذكرت عيوبه بين يديه . . ربما فرح به ، وإن أثنى عليه . . ربما ساءه وكرهه ، وربما قطب وجهه إذا

(١) قوت القلوب (٢ / ٢٣٣) .

ذَكَرْتُ عَيْبُهُ^(١) ، يَظْهَرُ أَنَّهُ كَارَةُ لَغَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ وَسِرُّ قَلْبِهِ رَاضٍ بِهِ وَمَرِيدُ
لَهُ ، وَاللَّهُ مُطَّلَعٌ عَلَيْهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ .

فهذا وأمثاله من خفايا العيوب لا يفتنُّ له إلا الأكياسُ ، ولا يتنزَّه منه
إلا الأقوياءُ ، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقلَّ الدرجات أن
يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ويسوءه ذلك ويكرهه ، ويحرص على
إصلاحه ، فإذا أراد الله بعبد خيراً . . بصَّره بعيوب نفسه ، ومن سرَّته حسنته
وساءته سيئته . . فهو مرجوُّ الحال ، وأمره أقرب من المغرور المزكي
لنفسه ، الممتنُّ على الله بعمله وعلمه ، الظانُّ أنه من خيار خلقه ، فنعوذ
بالله من الغفلة والاعترار ، ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال .

هذا غرورُ الذين حصَّلوا العلومَ المهمَّةَ ، ولكن قصَّروا في العملِ
بالعلم .



ولنذكر الآن غرورَ الذين قنعوا من العلوم بما لم يهتمُّهم ، وتركوا المهمَّ
وهم به مغترُّون ؛ إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم ، وإما لاقتصارهم
عليه .

فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات ،
وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعاش ،

(١) أي : عيوب المحسود .

وخصّصوا اسمَ الفقه بها ، وسمّوه الفقه وعلمَ المذهب ، وربّما ضيعوا مع ذلك الأعمالَ الظاهرةَ والباطنة ؛ فلم يتفقّدوا الجوارح ، ولم يحرسوا اللسانَ عن الغيبة ، ولا البطنَ عن الحرام ، ولا الرجلَ عن المشي إلى السلاطين ، وكذا سائرُ الجوارح ، ولم يحرسوا قلوبَهُم عن الكبرِ والحسدِ والرياءِ وسائرِ المهلكاتِ ، فهؤلاءُ مغرورونَ من وجهين : أحدهما من حيثُ العملُ ، والآخرُ من حيثُ العلمُ .

أمّا العملُ . . فقد ذكرنا وجهَ الغرورِ فيه ، وأنّ مثالَهُم مثالُ المريضِ إذا تعلّمَ نسخةَ الدواءِ ، واشتغلَ بتكراره وحفظه وتعليمه ، لا بلّ مثالَهُم مثالُ مَنْ به علّةُ البواسيرِ والبرسامِ وهو مشرفٌ على الهلاكِ ، ومحتاجٌ إلى تعلّمِ الدواءِ واستعماله ، فاشتغلَ بتعلّمِ دواءِ الاستحاضةِ ، وتكرارِ ذلك ليلاً ونهاراً ، مع علمه بأنّه رجلٌ لا يحيضُ ولا يُستحاضُ ، ولكن يقولُ : ربّما تقعُ علّةُ الاستحاضةِ لامرأةٍ وتساألني عنه ، وذلك غايةُ الغرورِ ، فكذلك المتفقهُ المسكينُ قد تسلّطَ عليه حبُّ الدنيا ، واتباعُ الهوى والشهواتِ والحسدِ والكبرِ والرياءِ وسائرِ المهلكاتِ الباطنة ، وربّما يختطفهُ الموتُ قبلَ التوبةِ والتلافي ، فيلقى اللهَ وهو عليه غضبانٌ ، فتركَ ذلك كلّهُ واشتغلَ بعلمِ السّلمِ والإجارةِ ، والظهارِ واللعانِ ، والجراحاتِ والدياتِ ، والدعاوى والبيّناتِ ، وبكتابِ الحيضِ ، ولا يحتاجُ إلى شيءٍ من ذلك قطُّ في عمره لنفسه ، وإذا احتاجَ غيرُهُ . . كانَ في المفتينَ كثرةً ، فيشتغلُ بذلك ويحرصُ عليه ؛ لما فيه منَ الجاهِ والمالِ والرئاسةِ ، وقد دهاهُ الشيطانُ وما يشعرُ ؛ إذ

يظنُّ المسكينُ المغرورُ بنفسِهِ أَنَّهُ مشغولٌ بفرضِ دينِهِ ، وليسَ يدري أَنَّ الاشتغالَ بفرضِ الكفايةِ قبلَ الفراغِ مِنْ فرضِ العینِ معصيةٌ ، هذا لو كانت نيتهُ صحيحةً كما قالَ ، وكانَ قد قصدَ بالفقهِ وجهَ اللهِ تعالى ، فإنه وإن قصدَ وجهَ اللهِ . . فهوَ باشتغاله بِهِ معرضٌ عن فروضِ عينِهِ في جوارحه وقلبه ، فهذا غرورهُ مِنْ حيثُ العملُ .

وأما غرورهُ مِنْ حيثُ العلمُ . . فحيثُ اقتصرَ على علمِ الفتاوى ، وظنَّ أَنَّهُ علمُ الدينِ ، وتركَ علمَ كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وربما طعنَ على المحدثينَ ، وقالَ : إِنَّهُمْ نَقَلُوا أخبارَ ، وَحَمَلُوا أسفارَ لا يفقهونَ ما فيها ، وتركَ أيضاً علمَ تهذيبِ الأخلاقِ ، وتركَ الفقهَ عنِ اللهِ تعالى بإدراكِ جلالِهِ وعظمتِهِ ، وهوَ العلمُ الذي يورثُ الخوفَ والهيبةَ والخشوعَ ، ويحملُ على التقوى ، فتراهُ آمناً مِنَ اللهِ ، مغترّاً بِهِ ، متكلاً على أَنَّهُ لا بدَّ وأن يرحمَهُ ، فإنه قوامُ دينِهِ ، وإنَّهُ لو لم يشغلْ بالفتاوى . . لتعطلَ الحلالُ والحرامُ ، فقد تركَ العلومَ التي هي أهمُّ وهوَ غافلٌ مغرورٌ ، وسببُ غرورهِ ما سمعَ في الشرعِ مِنْ تعظيمِ الفقهِ ، ولم يدِرْ أَنَّ ذلكَ الفقهَ هوَ الفقهُ عنِ اللهِ ، ومعرفةُ صفاتهِ المَخُوفَةِ والمرجوةِ ؛ ليستشعرَ القلبُ الخوفَ ويلازِمَ التقوى ؛ إذ قالَ تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ، والذي يحصلُ بِهِ الإنذارُ غيرُ هذا العلمِ ؛ فإنَّ مقصودَ هذا العلمِ حفظُ الأموالِ بشروطِ المعاملاتِ ، وحفظُ الأبدانِ بالأموالِ وبدفعِ القتلِ والجراحاتِ ، والمالُ في

طريق الله آله ، والبدن مركب ، وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق ، وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة ، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى ، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات . . . كان محجوباً عن الله ، فمثاله في الاختصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك في أنه لو لم يكن . . . لتعطّل الحج ، ولكن مقتصر عليه ليس من الحج في شيء ، وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم .

ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافات ، ولم يهتد إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق ؛ لأجل الغلبة والمباهاة ؛ فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب ، والتفقد لعيوب الأقران ، والتلقف لأنواع التسيبات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس ، طبعهم الإيذاء ، وهمهم السفه ، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة ؛ كعلم القلب ، وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى ، بمحو الصفات المذمومة ، وتبديلها بالمحمودة . . . فإنهم يستحقرونه ، ويسمونه التزويق وكلام الوعّاظ ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العريضة التي تجري بين المتصارعين في الجدل ، وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى ، لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً ، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف .

وأما أدلة الأحكام.. فيشتمل عليها علم المذهب ، وهو كتابُ الله وسنةُ رسوله صلى الله عليه وسلم وفهمُ معانيهما ، وأما حيلُ الجدل ؛ من الكسر والقلبِ وفسادِ الوضعِ والتركيبِ والتعديّة.. فإنما أبدعت لإظهارِ الغلبةِ والإفحامِ ، وإقامةِ سوقِ الجدلِ بها ، فغرورُ هؤلاء أشدُّ كثيراً وأقبحُ من غرورِ مَنْ قبلَهُمْ .



وفرقةٌ أخرى اشتغلوا بعلمِ الكلامِ والمجادلةِ في الأهواءِ ، والردُّ على المخالفين ، وتتبعُ مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفةِ المقالاتِ المختلفةِ ، واشتغلوا بتعلُّمِ الطرقِ في مناظرةِ أولئك وإفحامِهِمْ ، وافترقوا في ذلك فرقا كثيرةً ، واعتقدوا أنه لا يكونُ لعبِدِ عملٌ إلا بإيمانٍ ، ولا يصحُّ إيمانٌ إلا بتعلُّمِ جدليهِمْ وما قد سَمَوْهُ أدلةَ عقائديهِمْ ، وظنُّوا أنه لا أحدَ أعرفُ باللهِ وبصفاتهِ مِنْهُمْ ، وأنه لا إيمانَ لِمَنْ لم يعتقدْ مذهبَهُمْ ولم يتعلَّمْ علمَهُمْ ، ودعت كلُّ فرقةٍ مِنْهُمْ إلى نفسها .

ثمَّ هم فرقتانِ : ضالَّةٌ ومحقَّةٌ ، فالضالَّةُ هي التي تدعو إلى غيرِ السنةِ ، والمحقَّةُ هي التي تدعو إلى السنةِ ، والغرورُ شاملٌ لجميعِهِمْ :

أما الضالَّةُ.. فلغفلتِها عن ضلالتِها ، وظنَّها بنفسِها النجاةَ ، وهم فرقٌ كثيرةٌ يكفُرُ بعضهم بعضاً ، وإنما أُتيَتْ من حيثٍ إنها لم تتهمْ رأيها ، ولم تُحكَمْ أولاً شروطَ الأدلةِ ومنهجها ، فرأتِ الشبهةَ دليلاً ، والدليلَ شبهةً .

وأما الفرقةُ المحقَّةُ.. فإنما اغترارُها من حيثٍ إنها ظنَّت بالجدلِ أنه أهمُّ

الأمر ، وأفضل القربات في دين الله ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ولم يبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحريير دليل . . فليس بمؤمن ، أو ليس بكامل الإيمان ولا مقرب عند الله ، فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل ، والبحث عن المقالات وهذيانا المبتدعة ومناقضاتهم ، وأهملت أنفسها وقلوبها ، حتى عميت عليها ذنوبها وخطاياها الظاهرة والباطنة ، وهي تظن أن اشتغالها بالجدل أولى وأقرب عند الله تعالى وأفضل ، ولكنها لا لتذاذها بالغلبة والإفحام ولذة الرئاسة وعز الانتماء إلى الذب عن دين الله . . عميت بصيرتها ، فلم تلتفت إلى القرن الأول ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والأهواء ، فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات ، وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة ، وتوسموا مخايل قبول ، فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالتة ، وإذا رأوا مصراً على ضلالة . . هجروه وأعرضوا عنه ، وأبغضوه في الله ، ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر ، بل قالوا : إن الحق هو الدعوة إلى السنة ، ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة ؛ إذ روى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » (١) .

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (٤٨) .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون ، فغضب عليهم حتى كأنه فقيء في وجهه حب الرمان حمرة من الغضب ، فقال : « ألهذا بُعثتم أم بهذا أُمِرتُمْ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟! انظروا إلى ما أُمِرتُمْ به فاعملوا ، وما نُهيْتُمْ عنه فانتهاوا » (١) .

فقد زجرهم عن ذلك ، وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال .

ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بُعث إلى كافة أهل الملل ، فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ، ولم يزد في المجادلة عليه ؛ لأن ذلك يشوش القلوب ، ويستخرج منها الإشكالات والشبه ، ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم ، وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة ، وأن يعلم أصحابه كيفية الجدال والإلزام ، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا ، وقالوا : لو نجا أهل الأرض وهلكنا . . لم تنفعنا نجاتهم ، ولو نجونا وهلكوا . . لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل ، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم ، فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا ؟ ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته

(١) رواه ابن ماجه (٨٥) .

بجداله ، بل يزيدُ التعصبُ والخصومةُ تشدُّداً في بدعته ، فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ، ومجاهدتها لترك الدنيا للآخرة أولى ، هذا لو كنتُ لم أنه عن الجدل والخصومة ، فكيف وقد نهيتُ عنه ؟ ! فكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ؟ فالأولى أن أتفقد نفسي ، وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه ؛ لأتزرَّه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه .



وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ والتذكير ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب ؛ من الخوف ، والرجاء ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والزهد ، واليقين ، والإخلاص ، والصدق ، ونظائرها ، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها . فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات ، وهم منفكون عنها عند الله تعالى ، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين .

وغرور هؤلاء أشد الغرور ؛ لأنهم يُعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ، ويظنون أنهم ما تبخروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله ، وما قدرُوا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزّهون ، ولولا أنه مقربٌ عند الله . . لما عرف معنى القرب والبعد ، وعلم السلوك إلى الله ، وكيفية قطع المنازل في طريق الله ، فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ، ويرى

أَنَّهُ مِنَ الرَّاجِينَ وَهُوَ مِنَ الْمَغْتَرِّينَ الْمُضِيِّينَ ، ويرى أَنَّهُ مِنَ الرَّاغِبِينَ
 بِقَضَاءِ اللَّهِ وَهُوَ مِنَ السَّاطِطِينَ ، ويرى أَنَّهُ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ مِنَ
 الْمُتَكَلِّينَ عَلَى الْعِزِّ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ وَالْأَسْبَابِ ، ويرى أَنَّهُ مِنَ الْمُخْلِصِينَ وَهُوَ
 مِنَ الْمَرَاتِينِ ، بل يَصِفُ الْإِخْلَاصَ فَيَتْرُكُ الْإِخْلَاصَ فِي الْوَصْفِ ، وَيَصِفُ
 الرِّيَاءَ وَيَذْكُرُهُ وَهُوَ يَرَانِي بِذِكْرِهِ ؛ لِيَعْتَقِدَ فِيهِ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ مُخْلِصٌ . . لما اهْتَدَى
 إِلَى دَقَائِقِ الرِّيَاءِ ، وَيَصِفُ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا لَشِدَّةِ حَرَصِهِ عَلَى الدُّنْيَا وَقُوَّةِ
 رَغْبَتِهِ فِيهَا ، فَهُوَ يَظْهَرُ الدَّعَاءَ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مِنْهُ فَارٌّ ، وَيَخُوفُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ
 مِنْهُ آمِنٌ ، وَيَذْكُرُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ لَهُ نَاسٍ ، وَيَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مِنْهُ مُتَبَاعِدٌ ،
 وَيَحْتَثُّ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَهُوَ غَيْرُ مُخْلِصٍ ، وَيَذُمُّ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةَ وَهُوَ بِهَا
 مُتَصِفٌ ، وَيَصْرِفُ النَّاسَ عَنِ الْخَلْقِ وَهُوَ عَلَى الْخَلْقِ أَشَدُّهُمْ حَرَصًا ، لَوْ
 مُنِعَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَجْلِسِهِ الَّذِي يَدْعُو فِيهِ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ . . لَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ
 بِمَا رَحُبَتْ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ غَرَضَهُ إِصْلَاحُ الْخَلْقِ ، وَلَوْ ظَهَرَ مِنْ أَقْرَانِهِ مَنْ أَقْبَلَ
 الْخَلْقَ عَلَيْهِ ، وَصَلَحُوا عَلَى يَدَيْهِ . . لَمَاتَ غَمًّا وَحَسَدًا ، وَلَوْ أَثْنَى أَحَدٌ مِنَ
 الْمُرْتَدِّينَ إِلَيْهِ عَلَى بَعْضِ أَقْرَانِهِ . . لَكَانَ أَبْغَضَ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ !

فَهُؤُلَاءِ أَعْظَمُ النَّاسِ غِرَّةً ، وَأَبْعَدُهُمْ عَنِ التَّيْبَةِ وَالرَّجُوعِ إِلَى السَّدَادِ ؛ لِأَنَّ
 الْمَرْغَبَ فِي الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَالْمَنْفَرَّ عَنِ الْمَذْمُومَةِ هُوَ الْعِلْمُ بِغَوَائِلِهَا
 وَفَوَائِدِهَا ، وَهَذَا قَدْ عُلِمَ ذَلِكَ وَلَمْ يَنْفَعُهُ ، وَشَغَلَهُ حُبُّ دَعْوَةِ الْخَلْقِ عَنِ
 الْعَمَلِ بِهِ ، فَبَعْدَ ذَلِكَ بِمَاذَا يُعَالَجُ ؟ ! وَكَيْفَ سَبِيلُ تَخْوِيفِهِ وَإِنَّمَا الْمَخُوفُ
 مَا يَتْلُوهُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ فَيَخَافُونَ وَهُوَ لَيْسَ بِخَائِفٍ ؟ !

نعم ، إن ظنَّ بنفسه أنه موصوفٌ بهذه الصفاتِ المحمودَةِ يمكنُ أن يُدلَّ على طريقِ الامتحانِ والتجربةِ ، وذلكَ أنه إن كانَ يدَّعي مثلاً حبَّ الله^(١) . . فما الذي تركه من محابِّ الدنيا لأجلِهِ ؟ وإن كانَ يدَّعي الخوفَ . . فما الذي امتنعَ منه بالخوفِ ، وإن كانَ يدَّعي الزهدَ . . فما الذي تركه مع القدرةِ عليه لوجهِ الله تعالى ؟ وإن كانَ يدَّعي الأنسَ بالله . . فمتى طابَتْ له الخلوةُ ؟ ومتى استوحشَ من مشاهدةِ الخلقِ ؟ لا بل يرى قلبه يمتلئ بالحلاوةِ إذا أحْدقَ به المريدونَ ، وتراه يستوحشُ إذا خلا بالله تعالى ، فهل رأيتَ محباً أنساً يستوحشُ من محبوبه ، ويستروحُ منه إلى غيره ؟ !

فالأكياسُ يمتحنونَ أنفسهم في هذه الصفاتِ ، ويطالبونها بالحقيقةِ ، ولا يقنعونَ منها بالتزويقِ ، بل بموثقٍ من الله غليظٍ ، والمغترُّونَ يحسنونَ بأنفسِهِم الظنونَ ، فإذا كُشفَ الغطاءُ عنهم في الآخرةِ . . يفتضحونَ ، بل يُطرحونَ في النارِ فتندلقُ أقتابُهُم ، فيدورُ بها أحدُهُم كما يدورُ الحمارُ بالرحى ، كما وردَ به الخبرُ^(٢) ؛ لأنَّهُم يأمرُونَ بالخيرِ ولا يأتونه ، وينهونَ عن الشرِّ ويأتونه .

وإنما وقعَ الغرورُ لهؤلاءِ من حيثُ إنَّهُم يصادفونَ في قلوبِهِم شيئاً ضعيفاً من أصولِ هذه المعاني ، وهو حبُّ الله ، والخوفُ منه ، والرضا بفعليه ،

(١) كذا في (ب) ، وفي بقية النسخ : (وهو أنه يدَّعي مثلاً حب الله عز وجل) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقتاب : الأعماء .

ثُمَّ قَدَرُوا مَعَ ذَلِكَ عَلَى وَصْفِ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ
مَا قَدَرُوا عَلَى وَصْفِ ذَلِكَ ، وَمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ عِلْمَهُ ، وَمَا نَفَعَ النَّاسُ بِكَلَامِهِمْ
فِيهَا إِلَّا لَاتِصَافِهِمْ بِهَا ، وَذَهَبَ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْقَبُولَ لِلْكَلامِ ، وَالْكَلامَ لِلْمَعْرِفَةِ
وَجَرَيَانِ اللِّسَانِ ، وَالْمَعْرِفَةَ لِلتَّعَلُّمِ ، وَأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ غَيْرُ الْإِتِّصَافِ بِالصِّفَةِ ،
فَلَمْ يَفَارِقْ أَحَادَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْإِتِّصَافِ بِصِفَةِ الْحُبِّ وَالْخَوْفِ ، بَلْ فِي
الْقُدْرَةِ عَلَى الْوَصْفِ ، بَلْ رَبَّمَا زَادَ أَمْنُهُ وَقَلَّ خَوْفُهُ ، وَظَهَرَ إِلَى الْخَلْقِ مِيلُهُ ،
وَضَعُفَ فِي قَلْبِهِ حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى .

وَإِنَّمَا مِثَالُهُ مِثَالُ مَرِيضٍ يَصِفُ الْمَرَضَ ، وَيَصِفُ دَوَاءَهُ بِفَصَاحَتِهِ ،
وَيَصِفُ الصِّحَّةَ وَالشِّفَاءَ ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَرَضِيِّ لَا يَقْدِرُ عَلَى وَصْفِ الصِّحَّةِ
وَالشِّفَاءِ وَأَسْبَابِهِ وَدَرَجَاتِهِ وَأَصْنَافِهِ ؛ فَهُوَ لَا يَفَارِقُهُمْ فِي صِفَةِ الْمَرَضِ
وَالْإِتِّصَافِ بِهِ ، وَإِنَّمَا يَفَارِقُهُمْ فِي الْوَصْفِ وَالْعِلْمِ بِالطَّبِّ ، فَظَنُّهُ عِنْدَ عِلْمِهِ
بِحَقِيقَةِ الصِّحَّةِ أَنَّهُ صَحِيحٌ . . غَايَةُ الْجَهْلِ ، فَكَذَلِكَ الْعِلْمُ بِالْخَوْفِ وَالْحُبِّ
وَالْتَّوَكُّلِ وَالزَّهْدِ وَسَائِرِ هَذِهِ الصِّفَاتِ . . غَيْرُ الْإِتِّصَافِ بِحَقَائِقِهَا ، وَمَنْ
التَّبَسَّ عَلَيْهِ وَصَفُ الْحَقَائِقِ بِالْإِتِّصَافِ بِالْحَقَائِقِ . . فَهُوَ مَغْرُورٌ ، فَهَذِهِ حَالَةُ
الْوَعَّاطِ الَّذِينَ لَا عَيْبَ فِي كَلَامِهِمْ ، بَلْ مِنْهَاجُ وَعْظِهِمْ مِنْهَاجُ وَعْظِ الْقُرْآنِ
وَالْأَخْبَارِ ، وَوَعْظِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَأَمْثَالِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .



وَفَرَقَةُ أُخْرَى مِنْهُمْ عَدَلُوا عَنِ الْمَنْهَاجِ الْوَاجِبِ فِي الْوَعْظِ ، وَهُمْ وَعَّاطُ

أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله عز وجل على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والسطح ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ؛ طلباً للإغراب .

وطائفة شغفوا بطيَّارات النكت^(١) ، وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همَّتِهم في الإسجاع ، والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر في مجالسهم الزعقات والتواجد ، ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس ضلُّوا وأضلُّوا عن سواء السبيل ، فإنَّ الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم ، وصحَّحوا كلامهم ووعظهم ، وأمَّا هؤلاء . . فإنَّهم يصدون عن سبيل الله ويجرُّون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء ، فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي ، ورغبة في الدنيا ، لا سيما إذا كان الواعظ متزيّناً بالثياب والخيل والمراكب ، فإنه يشهد من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا ، فما يفسده هذا المغرور أكثر ممَّا يصلحه ، بل لا يصلح أصلاً ، ويضلُّ خلقاً كثيراً ، فلا يخفى وجه كونه مغروراً .



وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا ، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ، ويؤدُّونها من غير إحاطة بمعانيها ، فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم في المحاريب ، وبعضهم في

(١) وهي المسائل الدقيقة التي تتعب الخواطر في استنباطها من مكانها . «إتحاف» (٨/ ٤٦٠).

الأسواق مع الجلوس ، وكلّ منهم يظنُّ أنّه إذا تميّزَ بهذا القدرِ عن السوقِ والجنديّة ؛ إذ حفظَ كلامَ الزهّادِ وأهلِ الدينِ دونهم . . فقد أفلحَ ونالَ الغرضَ ، وصارَ مغفوراً له ، وأمنَ من عقابِ الله من غيرِ أن يحفظَ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظنُّ أنّ حفظه لكلامِ الزهّادِ أهلِ الدينِ يكفيهِ ، وغرورٌ هؤلاءِ أظهرُ من غرورِ مَنْ قبلَهُم .



وفرقةٌ أخرى استغرقوا أوقاتهم في علمِ الحديث ؛ أعني في سماعهِ ، وجمعِ الرواياتِ الكثيرةِ منه ، وطلبِ الأسانيدِ الغريبةِ العاليةِ ، فهمةٌ أحدهم أن يدورَ في البلادِ ويرى الشيوخَ ليقولَ : أنا أروي عن فلانٍ وفلانٍ ، ولقد لقيتُ فلاناً وفلاناً ، ومعِي من الأسانيدِ ما ليسَ معَ غيري .

وغرورُهُم من وجوه :

منها : أنّهم كحملةِ أسفارٍ ؛ فإنَّهُم لا يصرفونَ العنايةَ إلى فهمِ معاني السنةِ ، فعلمُهُم قاصرٌ ، وليسَ معهم إلا النقلُ ، ويظنونَ أنّ ذلكَ يكفيهِم .

ومنها : أنّهم إذا لم يفهموا معانيها . . لا يعملونَ بها ، وقد يفهمونَ بعضها أيضاً ولا يعملونَ به .

ومنها : أنّهم يتركونَ العلمَ الذي هو فرضٌ عِنهِم - وهو معرفةُ معالجةِ القلبِ - ويشغلونَ بتكثيرِ الأسانيدِ وطلبِ العاليِ منها ، ولا حاجةَ بهم إلى شيءٍ من ذلكَ .

ومنها - وهو الذي أكبَّ عليه أهل الزمان - : أَنَّهُمْ أَيْضاً لَا يَقُومُونَ بِشَرَطِ السَّمَاعِ ، فَإِنَّ السَّمَاعَ بِمَجْرَدِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَائِدَةٌ ، وَلَكِنَّهُ مُهِمٌّ فِي نَفْسِهِ لِلْوُصُولِ إِلَى إِبْطَاتِ الْحَدِيثِ ؛ إِذِ التَّفْهَمُ بَعْدَ الْإِثْبَاتِ ، وَالْعَمَلُ بَعْدَ التَّفْهَمِ ، فَالْأَوَّلُ السَّمَاعُ ، ثُمَّ التَّفْهَمُ ، ثُمَّ الْحِفْظُ ، ثُمَّ الْعَمَلُ ، ثُمَّ النُّشْرُ ، وَهَؤُلَاءِ اقْتَصَرُوا مِنَ الْجُمْلَةِ عَلَى السَّمَاعِ ، ثُمَّ تَرَكُوا حَقِيقَةَ السَّمَاعِ ، فَتَرَى الصَّبِيَّ يَحْضُرُ فِي مَجْلِسِ الشَّيْخِ وَالْحَدِيثُ يُقْرَأُ ، وَالشَّيْخُ يَنَامُ وَالصَّبِيُّ يَلْعَبُ ، ثُمَّ يُكْتَبُ اسْمُ الصَّبِيِّ فِي السَّمَاعِ^(١) ، فَإِذَا كَبِرَ . . تَصَدَّى لِيُسَمَعَ مِنْهُ ، وَالْبَالِغُ الَّذِي يَحْضُرُ رَبِّمَا يَغْفُلُ وَلَا يَسْمَعُ ، وَلَا يَصْغِي وَلَا يَضْبُطُ ، وَرَبِّمَا يَشْتَغُلُ بِحَدِيثٍ أَوْ نَسِخٍ ، وَالشَّيْخُ الَّذِي يُقْرَأُ عَلَيْهِ لَوْ صُحِّفَ وَغُيِّرَ مَا يُقْرَأُ عَلَيْهِ . . لَمْ يَشْعُرْ بِهِ وَلَمْ يَعْرِفْهُ^(٢) ، وَكُلُّ ذَلِكَ جَهْلٌ وَغُرُورٌ ؛ إِذِ الْأَصْلُ فِي الْحَدِيثِ أَنْ تَسْمَعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَحْفَظَهُ كَمَا سَمِعْتَهُ ، وَتُرْوِيَهُ كَمَا حَفَظْتَهُ ، فَتَكُونَ الرَّوَايَةُ عَنِ الْحِفْظِ ، وَالْحِفْظُ عَنِ السَّمَاعِ ، فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ سَمَاعِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . سَمِعْتَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ أَوْ التَّابِعِينَ ، وَصَارَ سَمَاعُكَ عَنِ الرَّاويِ كَسَمَاعٍ مَنْ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ أَنْ تَصْغِيَ لِتَسْمَعَ فَتَحْفَظَ وَتُرْوِيَ كَمَا حَفَظْتَ ، وَتَحْفَظَ كَمَا سَمِعْتَ ؛ بِحَيْثُ لَا تَغَيِّرُ مِنْهُ حَرْفاً ، وَلَوْ غَيَّرَ غَيْرُكَ مِنْهُ حَرْفاً وَأَخْطَأَ . . عَلِمْتَ خَطَأَهُ .

(١) أي : يكتبه المستملي أو كاتب السماع في الطباقي .

(٢) إما لثقل في سمعه ، أو لكثرة ازدحام ، أو لأمْر آخر شغله . « إتحاف » (٤٦١ / ٨) .

ولحفظك طريقان :

أحدهما : أن تحفظ بالقلب ، وتستديمه بالذكر والتكرار ؛ كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الأحوال .

والثاني : أن تكتب كما تسمع ، وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك ، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك . . ربما يغيره ، فإذا لم تحفظه . . لم تشعر بتغييره ، فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك ، فيكون كتابك مذكراً لما سمعته ، وتأمين فيه من التغيير والتحريف .

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ ، وجوزت أن يكون ما فيه مغيراً ، أو يفارق حرف منه النسخة التي سمعتها . . لم يجز لك أن تقول : سمعت هذا الكتاب ؛ فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه ، بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة .

فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها . . فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ؟! وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان : إنا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه . . فهو كذب صريح .

وأقل شروط السماع : أن يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ

يشعرُ معه بالتغيير ، ولو جازَ أن يُكتبَ سماعُ الصبيِّ والغافلِ والنائمِ والذي ينسخُ . . لجازَ أن يُكتبَ سماعُ الصبيِّ في المهدِ وسماعُ المجنونِ ، ثمَّ إذا بلغَ الصبيُّ وأفاقَ المجنونُ . . سمعَ عليه ، ولا خلافَ في عدمِ جوازِهِ ، ولو جازَ ذلكَ . . لجازَ أن يُكتبَ سماعُ الجنينِ في البطنِ ، فإنَّ كانَ لا يُكتبُ سماعُ الصبيِّ في المهدِ لأنَّه لا يفهمُ ولا يحفظُ . . فالصبيُّ الذي يلعبُ والغافلُ والمشغولُ بالنسخِ عن السماعِ ليسَ يفهمُ ولا يحفظُ ، فإنَّ استجرأَ جاهلٌ فقالَ : يُكتبُ سماعُ الصبيِّ في المهدِ . . فليُكتبَ سماعُ الجنينِ في البطنِ ، فإنَّ فرَّقَ بينهما بأنَّ الجنينَ لا يسمعُ الصوتَ وهذا يسمعُ الصوتَ . . فماذا ينفعُ هذا وهو إنما ينقلُ الحديثَ دونَ الصوتِ ؟!

فليقتصرْ إذ صارَ شيخاً على أن يقولَ : سمعتُ بعدَ بلوغي أني في صباي حضرتُ مجلساً يُروى فيه حديثٌ كانَ يقرعُ سمعي صوتهُ ، ولا أدري ما هو ، ولا خلافَ في أنَّ الروايةَ كذلكَ لا تصحُّ ، وما زادَ عليه فهو كذبٌ صريحٌ ، ولو جازَ إثباتُ سماعِ التركيِّ الذي لا يفهمُ العربيةَ ؛ لأنَّه سمعَ صوتاً غفلاً . . لجازَ إثباتُ سماعِ صبيٍّ في المهدِ ، وذلكَ غايةُ الجهلِ ، ومنَ أينَ يُؤخذُ هذا ؟ وهلَ للسمعِ مستندٌ إلا قولُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « نَضَرَ اللهُ امرأَ سمعَ مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها »^(١) ، وكيفَ يؤدِّي كما سمعَ مَنْ لا يدري ما سمعهُ ؟!

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٢٣٠) .

فهذا أفحش أنواع الغرور ، وقد بُلي بهذا أهل الزمان ، ولو احتاط أهل الزمان . . لم يجدوا شيوفاً إلا الذي سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة ، إلا أن للمحدثين في ذلك جاهاً وقبولاً ، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك ، فيقل مَنْ يجتمع لذلك في حلقهم ، فينقص جاههم ، وتقل أيضاً أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط ، بل ربّما عدموا ذلك وافتضحوا ، فاصطلحوا على أنه ليس يُشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدري ما يجري .

وصحة السماع لا تُعرف من قول المحدثين ؛ لأنه ليس من علمهم ، بل من علم علماء أصول الفقه ، وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه^(١) .

فهذا غرور هؤلاء ، ولو سمعوا على الشرط . . لكانوا أيضاً مغرورين في اقتصارهم على النقل ، وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد ، وإعراضهم عن مهمات الدين ، ومعرفة معاني الأخبار ، بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ربّما يكفي الحديث الواحد عمراً ؛ كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع ، فكان أول حديث روي قوله عليه الصلاة والسلام : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »^(٢) ، فقام

(١) إلا أن المحدثين شاركوهم في الكلام على هذه المسألة استطراداً ؛ لشدة احتياجهم إلى معرفتها . « إتحاف » (٨ / ٤٦٥) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) .

وقال : يكفيني هذا حتّى أفرغ منه ، ثمّ أسمع غيره^(١) .

فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور .



وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم النحو واللغة ، والشعر وغريب اللغة ، واغترّوا به ، وزعموا أنّهم قد غفّر لهم ، وأنّهم من علماء الأمة ؛ إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو ، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو ، وفي صناعة الشعر ، وفي غرائب اللغة .

ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلّم الخطّ وتصحيح الحروف وتحسينها ، ويزعم أنّ العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة ، فلا بدّ من تعلّمها وتصحيحها ، ولو عقل . . لعلم أنّه يكفيهِ أن يتعلّم أصل الخطّ ؛ بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان ، والباقي زيادة على الكفاية ، وكذلك الأديب لو عقل . . لعرف أنّ لغة العرب كلغة الترك ، والمضيّع عمره في لغة العرب كالمضيّع عمره في لغة الترك والهند ، وإنّما فارقتهما لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفي من اللغة علم الغريبين في الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلّق بالحديث والكتاب ، فأما التعمّق فيه إلى درجات

(١) وهو شيخ شيخ المصنف ، أبو القاسم الكركاني رحمه الله تعالى ، وسيأتي ذكره ، وخبره رواه ابن الصلاح في « طبقات الشافعية » (٣٩٩/١) .

لا تتناهى . . فهو فضولٌ مستغنى عنه ، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة المعاني الشرعية والعمل بها . . فهذا أيضاً مغرورٌ .

بل مثاله مثالٌ مَنْ ضَيَّعَ عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه ، وهو غرورٌ ؛ إذ المقصودُ مِنَ الحروفِ المعاني ، وإنما الحروفُ ظروفٌ وأدواتٌ ، وَمِنْ احتاجَ إلى أن يشربَ السكنجيينَ ليزولَ ما به مِنَ الصفراءِ ، فضيَّعَ أوقاته في تحسينِ القدحِ الذي يشربُ فيه السكنجيينَ . . فهو مِنَ الجهَّالِ المغرورينَ ؛ فكذلكَ غرورُ أهلِ النحوِ واللغةِ والأدبِ والقراءاتِ والتدقيقِ في مخارجِ الحروفِ مهما تعمَّقوا فيها ، وتجرَّدوا لها وعرَّجوا عليها أكثرَ ممَّا يُحتاجُ إليه في تعلُّمِ العلومِ التي هي فرضُ عينٍ ، فاللُّبُّ الأقصى هو العملُ ، والذي فوقه هو معرفة العملِ ، وهو كالقشرِ للعملِ ، وكاللُّبِّ بالإضافة إلى ما فوقه ، وما فوقه هو سماعُ الألفاظِ وحفظُها بطريقِ الروايةِ ، وهو قشرٌ بالإضافة إلى المعرفة ، ولُبٌّ بالإضافة إلى ما فوقه ، وما فوقه هو العلمُ باللغة والنحوِ ، وفوقَ ذلكَ وهو القشرُ الأعلى العلمُ بمخارجِ الحروفِ ، والقانونُ بهذه الدرجاتِ كلُّهم مغترُّونَ ، إلا مَنْ اتخذَ هذه الدرجاتِ منازلَ ، فلم يعرِّجْ عليها إلا بقدرِ حاجتهِ ، فتجاوزَ إلى ما وراءَهُ حتَّى وصلَ إلى لبابِ العملِ ، وطالبَ بحقيقةِ العملِ قلبه وجوارحه ، وزجَّجَ عمره في حملِ النفسِ عليه ، وتصحيحِ الأعمالِ وتصفيتهَا عن الشوائبِ والآفاتِ ، فهذا هو المقصودُ المخدومُ مِنْ جملةِ علومِ الشرعِ ، وسائرُ العلومِ خدَمٌ لَهُ ووسائلٌ إليه وقشورٌ لَهُ ومنازلٌ بالإضافةِ

إليه ، وكلُّ مَنْ لَمْ يَلِغِ المقصدَ . . فقد خابَ ، سواءً كانَ في المنزلِ القريبِ
أو في المنزلِ البعيدِ .

وهذه العلومُ لَمَّا كانتَ متعلّقةً بعلومِ الشرعِ . . اغترَّ بها أربابُها ، فأَمَّا
علمُ الطبِّ والحسابِ والصناعاتِ وما يُعلمُ أَنَّهُ ليسَ مِنْ علومِ الشرعِ . . فلا
يعتقدُ أصحابُها أَنَّهُم يَنالونَ المغفرةَ بها مِنْ حيثُ إِنَّها علومٌ ؛ فكانَ الغرورُ بها
أقلَّ مِنْ الغرورِ بعلومِ الشرعِ ؛ لأنَّ العلومَ الشرعيَّةَ مشتركةٌ في أَنَّها
محمودةٌ ؛ كما يشاركُ القشرُ اللَّبَّ في كونهِ محموداً ، ولكنَّ المحمودَ منه
لعينه هوَ المنتهى ، والثاني محمودٌ للوصولِ بهِ إلى المقصودِ الأقصى ، فَمَنْ
اتخذَ القشرَ مقصوداً وعرَّجَ عليه . . فقد اغترَّ بهِ .



وفرقَةُ أُخرى عَظُمَ غرورُهُم في فنِّ الفقهِ ، فظنُّوا أَنَّ حكمَ العبدِ بينَهُ
وبينَ اللهِ تعالى يتبعُ حكمَهُ في مجلسِ القضاءِ ، فوضعوا الحيلَ في دفعِ
الحقوقِ ، وأسأؤوا تأويلَ الألفاظِ المبهمةِ ، واغترُّوا بالظواهرِ وأخطؤوا
فيها ، وهذا مِنْ قبيلِ الخطأِ في الفتوى والغرورِ فيهِ ، والخطأُ في الفتاوى
مِمَّا يكثرُ ، ولكنْ هذا نوعٌ عمَّ الكافةَ إلا الأكياسَ منهم ، فنشيرُ إلى أمثلةٍ
لَهُ :

فَمِنْ ذَلِكَ : فتواهُمُ بأنَّ المرأةَ مهما أبرأتِ الزوجَ مِنَ الصداقِ . . برىءَ
الزوجُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالى ، وذلكَ خطأً ، بل الزوجُ قد يسيءُ إلى الزوجةِ

بحيث يضيّق عليها الأمور بسوء الخلق ، فتُضطرُّ إلى طلب الخلاص ، فتبرئ الزوج لتخلّص منه ، فهو إبراء لا عن طيبة نفس ، وقد قال تعالى : ﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا ﴾ وطيبة النفس غير طيبة القلب ، فالقلب قد يريد ما لا تطيب به النفس ؛ فالإنسان يريد الحجامَة بقلبه ، ولكن تكرهها نفسه ، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله ، حتّى إذا رُدّدت بين ضررين . . اختارت أهونهما ، فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن .

نعم ، القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر ، وأنها لم تُكره بسبب ظاهر ، والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ، ولكن مهما تصدّى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء . . لم يكن هذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيل الإبراء .

وكذلك : لا يحلُّ أن يؤخذ مال الإنسان إلا بطيبة نفس منه ، فلو طلب من إنسان مالا على ملا من الناس ، فاستحيا من الناس ألا يعطيه ، وكان يودُّ أن يكون سؤاله في خلوة حتّى لا يعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس ، وخاف ألم تسليم المال ، وردّد نفسه بينهما ، فاختر أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه . . فلا فرق بين هذا وبين المصادرة ؛ إذ معنى المصادرة إيلاّم البدن بالسوط ، حتّى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال ، فيختار أهون الألمين ، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ، ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله ، فإن الباطن

عند الله ظاهرٌ ، وإنَّما حاكمُ الدنيا هوَ الذي يحكمُ بالملكِ بظاهرِ قوله :
وهبتُ ؛ لأنَّه لا يمكنُهُ الوقوفُ على ما في القلبِ .

وكذلك : مَنْ يُعطى اتقاءً لشرِّ لسانِهِ ، أو لشرِّ سعايَتِهِ ؛ فهو حرامٌ عليه .

وكذلك كلُّ مالٍ يُؤخذُ على هذا الوجهِ فهو حرامٌ ، ألا ترى إلى ما جاء
في قصةِ داودَ عليه السلامُ حيثُ قالَ بعدَ أنْ غُفِرَ لَهُ : يا ربُّ ؛ كيفَ لي
بخصمي فأمرَ بالاستحلالِ منه وكانَ خصمُهُ ميتاً ، فأمرَ بندايِهِ في صخرةِ بيتِ
المقدسِ ، فنادى يا أوريا ؛ فأجابهُ : لبيكَ يا نبيَّ الله ، أخرجتني مِنَ الجنةِ
فماذا تريدُ ؟ قالَ : إنِّي أسأتُ إليك في أمرٍ فهبهُ لي ، قالَ : قد فعلتُ ذلكَ
يا نبيَّ الله ، فانصرفَ وقد ركنَ إلى ذلكَ ، فقالَ لَهُ جبريلُ عليه السلامُ : هلْ
ذكرتَ لَهُ ما فعلتَ : قالَ : لا ، قالَ : فارجعْ إليه فيبِّئْ لَهُ ، فرجعَ فناداهُ ،
فقالَ لَهُ : لبيكَ يا نبيَّ الله ، فقالَ : إنِّي أذنبتُ إليك ذنباً ، فقالَ : ألمْ أهبهُ
لكَ ؟ قالَ أولاً تسألني ما ذلكَ الذنبُ ؟ قالَ : ما هو يا نبيَّ الله ؟ قالَ : كذا
وكذا ، وذكرَ شأنَ المرأةِ ، فانقطعَ الجوابُ ، فقالَ : يا أوريا ؛ ألا
تجيئني ؟ قالَ : يا نبيَّ الله ؛ ما هكذا يفعلُ الأنبياءُ ، حتَّى أقفَ معَكَ بينَ
يدي الله تعالى ، فاستقبلَ داودُ البكاءَ والصراخَ مِنَ الرأسِ حتَّى وعدهُ الله أنْ
يستوهبهُ منه في القيامةِ^(١) .

(١) الخبر بنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (١٢ / ٢٣ / ١٧٩) ، وفيه : فأوحى الله إليه :
إذا كان ذلك . . دعوتُ أهريا ، فاستوهبك منه ، فيهبك لي ، فأثيبه بذلك الجنة .

فهذا يَنْبَهُكَ أَنَّ الهبةَ مِنْ غيرِ طيبةِ قلبٍ لا تفيدُ ، وَأَنَّ طيبةَ القلبِ لا تحصلُ إلا بالمعرفةِ ، فكذلك طيبةُ القلبِ لا تكونُ في الإبراءِ والهبةِ وغيرِهِ ، إلا إذا خُلِّيَ الإنسانُ واختيارُهُ حتَّى تنبعثَ الدواعي مِنْ ذاتِ نفسِهِ ، لا أَنْ تُضطرَّ دواعيهِ إلى الحركةِ بالحيلِ والإلزامِ .

وَمِنْ ذَلِكَ : هبةُ الرجلِ مالَ الزكاةِ في آخرِ الحولِ مِنْ زوجتهِ وَاَتَّهَابُهُ مَالَهَا ؛ لِإسقاطِ الزكاةِ ، فالفقيهُ يقولُ : سقطتِ الزكاةُ ، فَإِنْ أَرَادَ بِهِ أَنَّ مطالبَةَ السلطانِ والساعي قَدْ سقطتْ عَنْهُ . فَقَدْ صدَقَ ، فَإِنْ مَطْمَحَ نَظَرِهِمْ إِلَى ظاهِرِ الْمُلْكِ وَقَدْ زَالَ ، وَإِنْ ظَنَّ أَنَّهْ يَسْلُمُ فِي الْقِيَامَةِ وَيَكُونُ كَمَنْ لَمْ يَمْلِكِ الْمَالَ ، أَوْ كَمَنْ بَاعَ لِحَاجَتِهِ إِلَى الْبَيْعِ لَا عَلَى هَذَا الْقَصْدِ . . فَمَا أَعْظَمَ جَهْلُهُ بِفَقْهِ الدِّينِ وَسِرِّ الزَّكَاةِ ، فَإِنَّ سِرَّ الزَّكَاةِ تَطْهِيرُ الْقَلْبِ عَنْ رَذِيلَةِ الْبَخْلِ ، فَإِنَّ الْبَخْلَ مَهْلِكٌ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ثَلَاثُ مَهْلِكَاتٍ شَحَّ مُطَاعٌ ، وَهُوَ مَتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ »^(١) ، وَإِنَّمَا صَارَ شَحُّهُ مُطَاعاً بِمَا فَعَلَهُ ، وَقَبْلَهُ لَمْ يَكُنْ مُطَاعاً ، فَقَدْ تَمَّ هَلَاكُهُ بِمَا يَظُنُّ أَنَّ فِيهِ خِلَاصَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ مُطْلِعٌ عَلَى قَلْبِهِ وَحَبِّهِ لِلْمَالِ وَحَرَصِهِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ بَلَغَ مِنْ حَرَصِهِ عَلَى الْمَالِ أَنْ اسْتَنْبَطَ الْحَيْلَ حَتَّى يَسُدَّ عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَ الْخِلَاصِ مِنَ الْبَخْلِ بِالْجَهْلِ وَالْغُرُورِ .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣ / ٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

وَمِنْ ذَلِكَ : إِبَاحَةُ اللَّهِ مَالَ الْمَصَالِحِ لِلْفَقِيهِ وَغَيْرِهِ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ ،
وَالْفَقَهَاءُ الْمَغْرُورُونَ لَا يَمَيِّزُونَ بَيْنَ الْأَمَانِيِّ وَالْفُضُولِ وَالشَّهَوَاتِ وَبَيْنَ
الْحَاجَاتِ ، بَلْ كُلُّ مَا لَا تَتِمُّ رِعَوْنَتُهُمْ إِلَّا بِهِ يَرُونَهُ حَاجَةً ، وَهُوَ مُحَضُّ
الْغُرُورِ ، بَلِ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِحَاجَةِ الْعِبَادِ إِلَيْهَا فِي الْعِبَادَةِ ، وَسُلُوكِ طَرِيقِ اللَّهِ
تَعَالَى ، فَكُلُّ مَا تَنَاولَهُ الْعَبْدُ لِلِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ فَهُوَ حَاجَتُهُ ،
وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ فَضُولُهُ وَشَهْوَتُهُ ، وَلَوْ ذَهَبْنَا نَصِفُ غُرُورَ الْفَقَهَاءِ فِي أَمْثَالِ
هَذَا . . لَمَلَأْنَا فِيهِ مَجْلَدَاتٍ ، وَالْغَرَضُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَمْثَلِهِ تَعَرُّفُ الْأَجْنَاسِ
دُونَ الْاِسْتِعَابِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَطُولُ .



الصنف الثاني : أرباب العبادة والعمل

والمغرورون منهم فرق كثيرة : فمنهم مَنْ غروره في الصلاة ، ومنهم مَنْ غروره في تلاوة القرآن ، ومنهم في الحج ، ومنهم في الغزو ، ومنهم في الزهد .

وكذلك كل مشغول بمنهج مِنْ مناهج العمل فليس خالياً عن غرورٍ إلا الأكياس وقليل ما هم .



فمنهم فرقة أهملوا الفرائض ، واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما تعمقوا في الفضائل ، حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ؛ كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء ، فيبالغ فيه ، ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال . . . قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ، وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام . . . لكان أشبه بسيرة الصحابة ؛ إذ توضحاً عمر رضي الله عنه بماء في جرّة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة^(١) ، وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام .

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرى » (٣٢ / ١) ، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣) إذ قال : (باب وضوء الرجل مع امرأته وفضل وضوء المرأة ، وتوضاً عمر بالحميم من بيت نصرانية) .

ثم في هؤلاء مَنْ يخرجُ إلى الإسرافِ في صبِّ الماءِ ، وذلكَ منهْيٌ عنه ،
وقد يطولُ الأمرُ حتَّى يضيّعَ الصلاةَ ويخرجَها عن وقتِها ، وإنْ لم يخرجَها
أيضاً عن وقتِها . فهو مغرورٌ ؛ لما فاتهُ من فضيلةِ أوّلِ الوقتِ ، وإنْ لم
يفتَهُ . فهو مغرورٌ لإسرافِهِ في الماءِ ، وإنْ لم يسرفَ . فهو مغرورٌ لتضييعِهِ
العمرَ الذي هو أعزُّ الأشياءِ فيما له مندوحةٌ عنه ، إلا أن الشيطانَ يصدُّ الخلقَ
عن الله تعالى بطريقِ شتّى ، ولا يقدرُ على صدِّ العبادِ إلا بما يخيّلُ إليهم أنه
عبادةٌ ، فيبعدُهم عن الله بمثلِ ذلك .



وفرقةٌ أخرى غلبتُ عليها الوسوسةُ في نيّةِ الصلاةِ ، فلا يدعُ الشيطانُ
حتّى يعتقدَ نيّةً صحيحةً ، بل يشوّشُ عليه حتّى تفوته الجماعةُ وتخرجَ الصلاةُ
عن الوقتِ ، وإنْ تمَّ تكبيرُهُ فيكونُ في قلبِهِ بعدُ تردّدٌ في صحةِ نيّتهِ ، وقد
يوسوسونَ في التكبيرِ حتّى يغيّروا صيغةَ التكبيرِ لشدةِ الاحتياطِ فيه ، يفعلونَ
ذلكَ في أوّلِ الصلاةِ ، ثمَّ يغفلونَ في جميعِ الصلاةِ ، ولا يحضرونَ قلوبُهُم
ويغترّونَ بذلكَ ، ويظنّونَ أنّهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيحِ النيةِ في أوّلِ
الصلاةِ ، وتميّزوا عن العامةِ بهذا الجهدِ والاحتياطِ . . فهم على خيرٍ عندَ
ربّهم !



وفرقةٌ أخرى تغلبُ عليها الوسوسةُ في إخراجِ حروفِ الفاتحةِ وسائرِ

الأذكار من مخرجها ، فلا يزال أحدهم يحتاط في التشديدات ، والفرق بين الضاد والطاء ، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته ، لا يهتمه غيره ، ولا يتفكر فيما سواه ، ذاهلاً عن معنى القرآن والاتعاظ به ، وصرف الفهم إلى أسرارِهِ .

وهذا من أقبح أنواع الغرور ؛ فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام .

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان ، وأمر أن يؤدّيها على وجهها ، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأقّق في مخارج الحروف ، ويكرّرها ويعيدها مرّة بعد أخرى ، وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ، ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحرأه بأن تُقام عليه السياسة ، ويُردّ إلى دار المجانين ، ويُحكم عليه بفقد العقل .



وفرقة أخرى اغترّوا بقراءة القرآن ، فيهدّونه هذا ، وربّما يختمونه في اليوم والليّلة مرّة ، وربّما يزيد أحدهم على ذلك ، ولسان أحدهم يجري به ، وقلبه يتردّد في أودية الأمانيّ ؛ إذ لا يتفكّر في معاني القرآن لينزجر بزواجه ، ويتعظّ بمواعظه ، ويقف عند أوامره ونواهيه ، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه ، إلى غير ذلك ممّا ذكرناه في كتاب آداب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة ، فهو مغرور يظنّ أنّ المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه .

ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاؤه ومالكه كتاباً ، وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ، ولكن اقتصر على حفظه ، فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاؤه ، إلا أنه مكرّر للكتاب بنغمته وصوته كل يوم مئة مرة ، فهو مستحق للعقوبة ، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه . . فهو مغرور .

نعم ، تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى ، بل لحفظه ، وحفظه يُراد لمعناه ، ومعناه يُراد للعمل به والانتفاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طيب ، فهو يقرؤه ويلتذ به ، ويغتر باستلذاذه ، ويظن أن ذلك لذّة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه ، وإنما هي لذّة بحسن صوته ونغمته ، ولو ردّد ألحانه بشعر أو كلام آخر . . لالتذ به ذلك الالتذاذ ، فهو مغرور إذا لم يتفقّد قلبه ليعرف أن لذّة بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته .



وفرقّة أخرى منهم اغترّوا بالصوم ، وربّما صاموا الدهر ، أو صاموا الأيام الشريفة ، وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة ، وخواطرهم عن الرياء ، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار ، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار ، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير ، فيهمل الفرائض ويطلب النفل ، ثم لا يقوم بحقه ، وذلك غاية الغرور .



وفرقه أخرى اغتروا بالحج ، فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم ، وقضاء الديون ، واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ، ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ، ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم^(١) ، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام ، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفق على الرفقاء في الطريق ، وهو يطلب به السمعة والرياء ، فيعصي الله تعالى في كسب الحرام أولاً ، وفي إنفاقه بالرياء ثانياً ، فلا هو أخذه من حله ، ولا هو وضعه في حقه ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميمة الصفات ، لم يقدم تطهيره على حضوره ، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه ، فهو مغرور .



وفرقه أخرى أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه ، فإذا أمرهم بالخير . . عتف ، وطلب الرئاسة والعزة ، وإذا باشر منكراً فرد عليه . . غضب وقال : أنا المحتسب ، فكيف ينكر عليّ ؟! وقد يجمع الناس إلى مسجده ، ومن تأخر عنه . . أغلظ القول عليه ، وإنما غرضه الرياء

(١) ولا يرجعون عن الطريق ، والمراد بالظلمة أمراء البلاد الذين يمرون عليهم ، وفي معنائهم الأعراب الصادقون عن الطريق إلا بدفع شيء من المال على كل إنسان ، فحكمه حكم المكس . « إتحاف » (٤٧٥ / ٨) .

والرئاسة ، ولو قام بتعهد المسجد غيره . . لحرد عليه ، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ، ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته . . قامت عليه القيامة ، وقال : لم آخذ حقِّي ، وزوحتُ على مرتبتي ، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير ، وإنما غرضه أن يُقال : إنه إمام المسجد ، فلو تقدّم غيره وإن كان أروع وأعلم منه . . ثقل عليه .



وفرقة أخرى جاوروا بمكة أو المدينة واغترّوا بذلك ، ولم يراقبوا قلوبهم ، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم ، فقلوبهم معلقة ببلادهم ، ملتفتة إلى قول الناس : إن فلاناً مجاور بمكة ! وتراه يتحدث ويقول : قد جاورت بمكة كذا وكذا سنة ، وإذا سمع أن ذلك قبيح . . ترك صريح التحدي وأحب أن يعرفه الناس بذلك .

ثم إنه قد يجاور ويمد عين الطمع إلى أوساخ أموال الناس ، فإذا جمع من ذلك شيئاً . . شح به وأمسكه ، ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير ، فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع ، وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ، ولكن حب المحمدة ، وأن يُقال : إنه من المجاورين . . ألزمه المجاورة مع التضمُّخ بهذه الرذائل ، فهو أيضاً مغرور .

وما من عمل من الأعمال أو عبادة من العبادات إلا وفيها آفات ، فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها . . فهو مغرور ، ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب « إحياء علوم الدين » ؛ فيعرف مداخل الغرور في الصلاة

مِنْ كِتَابِ الصَّلَاةِ ، وَفِي الْحَجِّ مِنْ كِتَابِ الْحَجِّ ، وَالزَّكَاةِ وَالتَّلَاوَةِ وَسَائِرِ الْقُرْبَاتِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي رَتَبْنَاهَا فِيهَا ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ الْآنَ الْإِشَارَةُ إِلَى مُجَامِعِ مَا سَبَقَ فِي الْكُتُبِ .



وَفَرَقَةُ أُخْرَى زَهَدَتْ فِي الْمَالِ ، وَقَنَعَتْ مِنَ اللِّبَاسِ وَالطَّعَامِ بِالْدُونِ ، وَمِنَ الْمَسْكَنِ بِالمَسَاجِدِ ، وَظَنَّتْ أَنَّهَا أَدْرَكَتْ رَتَبَةَ الزَّهَادِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَاغِبٌ فِي الرِّئَاسَةِ وَالْجَاهِ ؛ إِمَّا بِالْعِلْمِ أَوْ بِالوَعظِ أَوْ بِمَجَرَّدِ الزَّهْدِ ، فَقَدْ تَرَكَ أَهْوَنَ الْأُمُورِ ، وَبَاءَ بِأَعْظَمِ الْمَهْلَكِينَ ؛ فَإِنَّ الْجَاهَ أَطْمٌ مِنَ الْمَالِ ، وَلَوْ تَرَكَ الْجَاهَ وَأَخَذَ الْمَالَ . . كَانَ إِلَى السَّلَامَةِ أَقْرَبَ .

فَهَذَا مَغْرُورٌ ؛ إِذْ ظَنَّ أَنَّهُ مِنَ الزَّهَادِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَى الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَدْرِكْ أَنَّ مَتْنَهِيَ لِدَّائِهَا الرِّئَاسَةُ ، وَأَنَّ الرَّاغِبَ فِيهَا لَا بَدَأَ وَأَنْ يَكُونَ مُنَافِقًا ، وَحَسُودًا ، وَمُتَكَبِّرًا ، وَمُرَائِيًا ، وَمُتَّصِفًا بِجَمِيعِ خَبَائِثِ الْأَخْلَاقِ .

نَعَمْ ، وَقَدْ يَتْرَكَ الرِّئَاسَةَ ، وَيُؤَثِّرُ الْخُلُوعَ وَالْعِزْلَةَ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَغْرُورٌ ؛ إِذْ يَتَطَاوَلُ بِذَلِكَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ ، وَيَخْشَنُ مَعَهُمُ الْكَلَامَ ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الاسْتِحْقَارِ ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَرْجُو لَهُمْ ، وَيَعْجَبُ بِعَمَلِهِ ، وَيَتَّصِفُ بِجَمَلَةٍ مِنْ خَبَائِثِ الْقُلُوبِ وَهُوَ لَا يَدْرِي ، وَرَبَّمَا يُعْطَى الْمَالُ فَلَا يَأْخُذُهُ ، خِيفَةً مِنْ أَنْ يُقَالَ : بَطُلَ زَهْدُهُ ، وَلَوْ قِيلَ لَهُ : إِنَّهُ حَلَالٌ فَخْذُهُ فِي الظَّاهِرِ وَرَدُّهُ فِي الْخَفِيَةِ . . لَمْ تَسْمَعْ بِهِ نَفْسُهُ ؛ خَوْفًا مِنْ ذَمِّ النَّاسِ ، فَهُوَ

راغبٌ في حمدِ الناسِ ، وهو من ألدِّ أبوابِ الدنيا ، ويرى نفسه أنه زاهدٌ في الدنيا ، وهو مغرورٌ ، ومع ذلك فربما لا يخلو عن توقيرِ الأغنياءِ وتقديمهم على الفقراءِ ، والميلِ إلى المريدين له والمثنيين عليه ، والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد ، وكل ذلك خدعةٌ وغرورٌ من الشيطان ، نعوذ بالله منه .

وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح ، حتى ربما يصلي في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة ، ويختم القرآن ، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقدته وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات ، فلا يدري أن ذلك مهلكٌ ، وإن علم ذلك . . فلا يظن بنفسه ذلك ، وإن ظن بنفسه ذلك . . توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر ، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب ، وإن توهم ذلك فيظن أن العبادات الظاهرة ترجح بها كفة حسنته ، وهيهات ! وذرة من ذي تقوى ، وخلق واحد من أخلاق الأكياس . . أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح .

ثم لا يخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوُّث باطنه عن الرياء وحبِّ الشناء ، فإذا قيل له : أنت من أوتاد الأرض ، وأولياء الله وأحبابه . . فرح المغرور بذلك ، وصدق به ، وزاده ذلك غروراً ، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله تعالى ، ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه .



وفرقه أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ، ترى أحدهم يفرحُ بصلاة الضحى وصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجدُ للفريضة لذة ، ولا يشتدُّ حرصُهُ على المبادرة بها في أوّل الوقت ، وينسى قولهُ صلى الله عليه وسلّم فيما يرويه عن ربّه : « ما تقربَ المتقربونَ إليّ بمثل أداءِ ما افترضتُ عليهم »^(١) .

وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الغرور ، بل قد يتعين على الإنسان
فرضان : أحدهما يفوت ، والآخر لا يفوت ، أو فضلان أحدهما يضيق
وقته ، والآخر يتسع وقته ، فإن لم يحفظ الترتيب فيه . . كان مغروراً .

ونظائر ذلك أكثر من أن تُحصى ؛ فإنَّ المعصية ظاهرةٌ والطاعة ظاهرةٌ ،
ولنَّما الغامضُ تقديمُ بعضِ الطاعاتِ على بعضٍ ؛ كتقديمِ الفرائضِ كُلِّها على
النوافلِ ، وتقديمِ فروضِ الأعيانِ على فروضِ الكفاياتِ ، وتقديمِ فرضِ
كفايةٍ لا قائمٍ بهِ على ما قامَ بهِ غيرهُ ، وتقديمِ الأهمِّ من فروضِ الأعيانِ على
ما دونهُ ، وتقديمِ ما يفوتُ على ما لا يفوتُ ، وهذا كما يجبُ أنْ يقدِّمَ
حاجةَ الوالدةِ على حاجةِ الوالدِ ؛ إذ سئلَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم
فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَبْرَأُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « أُمُّكَ » ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ :
« أُمُّكَ » ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « أُمُّكَ » ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ :

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) بلفظ : « ... وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه » .

« أباك » ، قال : ثمَّ مَنْ ؟ قال : « أدناكَ فأدناكَ »^(١) ، فينبغي أن يبدأ في الصلّة بالأقرب ؛ فإن استويا.. فبالأحوج ، فإن استويا.. فبالأتقى والأورع .

وكذلك مَنْ لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحجّ فرّما يحجّ وهو مغرورٌ ، بل ينبغي أن يقدّم حقّهما على الحجّ ، وهذا من تقديم فرضٍ أهمّ على فرضٍ هو دونه .

وكذلك إذا كان على العبد ميعادٌ ودخل وقت الجمعة.. فالجمعة نفوتٌ ، والاشتغال بالوفاء بالوعدِ معصيةٌ وإن كان هو طاعةً في نفسه .

وكذلك قد تصيبُ ثوبه النجاسةُ ، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك ، فالنجاسة محذورةٌ ، وإيذاؤهما محذورٌ ، والحذر من الإيذاء أهمُّ من الحذر من النجاسة^(٢) .

وأمثله تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصرُ ، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك.. فهو مغرورٌ ، وهذا غرورٌ في غاية الغموض ؛ لأنّ المغرور فيه في طاعةٍ ، إلا أنّه لا يفتن لصيرورة الطاعة معصيةً ، حيث ترك بها طاعةً واجبةً هي أهمُّ منها .

(١) رواه الترمذي (١٨٩٧) ، والحاكم في « المستدرک » (١٥٠ / ٤) .

(٢) لأن زوال الأذى عن قلوبهم عسرٌ ، بخلاف إزالة النجاسة من الثوب . « إتحاف » (٤٧٨ / ٨) .

وَمِنْ جَمَلَتِهِ : الاشتغال بالمذهب والخلاف مِنَ الفقه فِي حَقِّ مَنْ بَقِيَ
عَلَيْهِ شُغْلٌ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْجَوَارِحِ
وَالْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقَلْبِ ؛ لِأَنَّ مَقْصُودَ الْفَقْهِ مَعْرِفَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ فِي
جَوَارِحِهِمْ ، فَمَعْرِفَةُ مَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ فِي قَلْبِهِ أَوْلَى بِهِ ، إِلَّا أَنَّ حُبَّ الرِّئَاسَةِ
وَالْجَاهِ ، وَلَذَّةَ الْمَبَاهَاةِ وَقَهْرَ الْأَقْرَانِ وَالتَّقَدُّمَ عَلَيْهِمْ يَعْمي عَلَيْهِ ، حَتَّى يَغْتَرَّ بِهِ
مَعَ نَفْسِهِ ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ مُشْغُولٌ بِمَهْمٍّ دِينِهِ .



الصف الثالث : المتصوفة

وما أغلب الغرور عليهم ! والمغترّون منهم فرقٌ كثيرة :

ففرقةٌ منهم - وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله - اغترّوا بالزّي والمنطق والهيئة ، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيّهم وهيئتهم ، وفي الفاظهم وفي آدابهم ، ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص ، والطهارة والصلاة ، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس ، وإدخاله في الجيب كالمتفكّر ، وفي تنفس الصعداء ، وفي خفض الصوت في الحديث ، إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات .

فلما تكلفوا هذه الأمور ، وتشبّهوا بهم فيها . . ظنوا أنّهم أيضاً صوفية ، ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أوائل منازل التصوّف ، ولو فرغوا من جميعها . . لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية .

كيف ولم يحوموا قط حولها ، ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها ؟ !

بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ، ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبّة ، ويتحاسدون على النقيير والقطمير ، ويمزق بعضهم أعراض بعضٍ مهما خالفه في شيء من غرضه !

وهؤلاء غرورهم ظاهرٌ ، ومثالهم مثالُ امرأةٍ عجوزٍ ، سمعتُ أنَّ الشجعانَ والأبطالَ مِنَ المقاتلين ثَبَّتْ أسماؤُهم في الديوانِ ، ويُقَطَّعُ لكلِّ واحدٍ منهم قِطْرٌ مِنْ أَقْطَارِ المملِكةِ^(١) .

فَتَأْتِ نَفْسُهَا إِلَى أَنْ تُقَطَّعَ لَهَا مَمْلَكَةٌ ، فَلَبَسَتْ دِرْعاً ، وَوَضَعَتْ عَلَى رَأْسِهَا مِغْفِراً ، وَتَعَلَّمَتْ مِنْ رَجَزِ الْأَبْطَالِ أَيْبَاتاً ، وَتَعَوَّدَتْ إِيْرَادَ تِلْكَ الْأَيْبَاتِ بِنِغْمَاتِهِمْ حَتَّى تَسْرَتْ عَلَيْهَا ، وَتَعَلَّمَتْ كَيْفِيَّةَ تَبْخِيرِهِمْ فِي الْمِيدَانِ ، وَكَيْفَ تَحْرِيكُهُمُ الْأَيْدِي ، وَتَلَقَّفَتْ جَمِيعَ شِمَائِلِهِمْ فِي الزِّيِّ وَالْمَنْطِقِ وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ .

ثُمَّ تَوَجَّهَتْ إِلَى الْمَعْسَكِ لِثَبَّتَ اسْمُهَا فِي دِيْوَانِ الشَّجْعَانِ ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى الْمَعْسَكِ . . أَنْفَذَتْ إِلَى دِيْوَانِ الْعَرَضِ ، وَأَمَرَ بِأَنْ تُجَرَّدَ عَنِ الْمِغْفَرِ وَالْدِرْعِ وَيُنْظَرَ مَا تَحْتَهُ ، وَتُمْتَحَنَ بِالْمُبَارَزَةِ مَعَ بَعْضِ الشَّجْعَانِ ؛ لِيُعْرَفَ قَدْرُ عَنَائِهَا فِي الشَّجَاعَةِ ، فَلَمَّا جُرِّدَتْ عَنِ الْمِغْفَرِ وَالْدِرْعِ . . فَإِذَا هِيَ عَجُوزَةٌ ضَعِيفَةٌ زَمَنَةً ، لَا تَطِيقُ حَمْلَ الدِّرْعِ وَالْمِغْفَرِ .

فَقِيلَ لَهَا : أَجِئْتِ لِلْإِسْتِهْزَاءِ بِالْمَلِكِ وَلِلْإِسْتِخْفَافِ بِأَهْلِ حَضْرَتِهِ وَالتَّلْبِيسِ عَلَيْهِمْ ؟! خَذُوهَا فَالْقُوهَا قَدَّامَ الْفِيلِ لِيُشْخِنَهَا^(٢) ، فَأُلْقِيَتْ إِلَى الْفِيلِ .

(١) أي : يكتب له إقطاعات في البلاد تحت شجاعته . « إتحاف » (٤٧٩ / ٨) .

(٢) أي : يهلكها وطئاً بأقدامه . « إتحاف » (٤٧٩ / ٨) .

وهكذا يكون حال المدّعين للتصوّف في القيامة إذا كُشِفَ عنهم الغطاء ،
وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزيِّ والمرقع ، بل إلى سرِّ
القلب .

وفرة أخرى : زادت على هؤلاء في الغرور ، إذ شقَّ عليها الاقتداء بهم
في بذاعة الثياب والرضا بالدون ، وأرادت أن تتظاهر بالتصوّف ولم تجد بُدّاً
من التزيّن بزيّهم ، فتركوا الخزّ والإبريسم وطلبوا المرقّعات النفيسة والقوط
الرفيعة والسجادات المصبوغة ، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الخزّ
والإبريسم .

وظنَّ أحدهم مع ذلك أنه متصوّف بمجرد لون الثوب وكونه مرقّعاً ،
ونسي أنهم إنّما لوّنوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كلّ ساعة ؛ لإزالة
الوسخ ، وإنّما لبسوا المرقّعات إذ كانت ثيابهم مخرّقة ، فكانوا يرقّعونها
ولا يلبسون الجديد ، فأما تقطيع القوط الرفيعة قطعة قطعة وخياطة
المرقّعات منها . . فمن أين يشبه ما اعتاده أولئك ؟!

فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ؛ فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب
ولذيذ الأطعمة ، ويطلبون رغد العيش ، ويأكلون أموال السلاطين ،
ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة ، وهم مع ذلك يظنون
بأنفسهم الخير ، وشرُّ هؤلاء ممّا يتعدّى إلى الخلق ، إذ يهلك من يقتدي
بهم ، ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوّف كافة ، ويظنُّ أن

جميعهم كانوا من جنسه ، فيطوّل اللسان في الصادقين منهم ، وكلّ ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم .



وفرقة أخرى ادّعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاورة المقامات والأحوال ، والملازمة في عين الشهود ، والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ ، إلا أنه تلقّف من ألفاظ الطامّات كلمات فهو يردّها ، ويظنّ أنّ ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسّرين والمحدّثين وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلاً عن العوام ، حتّى إنّ الفلاح ليركّ فلاحته ، والحاك يتركّ حياكته ويلازمهم أياماً معدودة ، ويتلقّف منهم تلك الكلمات المزيفة ، فيردّها كأنّه يتكلّم عن الوحي ، ويخبر عن سرّ الأسرار ، ويستحقّر بذلك جميع العبّاد والعلماء .

فيقول في العبّاد : إنهم أجراء متعبون .

ويقول في العلماء : إنهم بالحديث عن الله محبوبون .

ويدّعي لنفسه أنّه الواصل إلى الحق ، وأنّه من المقرّبين ، وهو عند الله من الفجّار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، لم يحكم قطّ علماً ، ولم يهذب خلقاً ، ولم يرتّب عملاً ، ولم يراقب قلباً ، سوى اتباع الهوى ، وتلقّف الهديان وحفظه .



وفرقة أخرى وقعت في الإباحة ، فطوّوا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسوّوا بين الحلال والحرام .

فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي ، فلم أتعب نفسي ؟

وبعضهم يقول : قد كُلفَ الناسُ تطهير القلب عن الشهوات وعن حب الدنيا ، وذلك محال ؛ فقد كُلفوا ما لا يمكن ، وإنما يغترُّ به مَنْ لم يجرب ، وأما نحن . . فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال ، ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يُكَلَّفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما ، بل إنما كُلفوا قلع مادّتهما ، بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع .

وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله ، وواصله إلى معرفة الله عز وجل ، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب .

ويزعمون أنهم قد ترقّوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لا تصدّهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها .

ويرفعون درجة أنفسهم عن درجة الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ إذ كانت تصدّهم عن طريق الله خطيئة واحدة ، حتّى كانوا يكون عليها ، وينوحون سنين متوالية .

وأصناف غرور أهل الإباحة من المشبهين بالصوفية لا تُحصى ، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس خدعهم الشيطان بها ؛ لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم ، صالح للاقتداء به ، وإحصاء أصنافهم يطول .



وفرقه أخرى جاوزت حدَّ هؤلاء ، وأحسنَت الأعمال^(١) ، وطلبتِ الحلال ، واشتغلت بتفقد القلب ، وصارت تدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات ، وشروطها وعلاماتها وآفاتها .

فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ، ويزعم أنه واله بالله ، ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر ، فيدعي حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يخلو من مقارفة ما يكره الله تعالى ، وعن إثارة هوى نفسه على أمر الله ، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ، ولو خلا . لما تركه حياء من الله تعالى ، وليس يدري أن كل ذلك يناقض الحب .

وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل ، فيخوض البوادي من غير زاد ؛ ليصحح دعوى التوكل ، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تُنقل عن السلف والصحابة ، وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل

(١) في (ق) : (واجتنبت الأعمال) بدل (وأحسنَت الأعمال) .

المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به .

وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم ، وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب ؛ فلا يمكن إعادتها .



وفرقة أخرى ضيقت على نفسها في أمر القوت ، حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملت تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة .

ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك ، وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي ، فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه . فهو مغرور .



وفرقة أخرى منهم ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة ، فتصدوا لخدمة الصوفية ، فجمعوا قوماً وتكلفوا بخدمتهم ، واتخذوا ذلك شبكة للرئاسة وجمع المال ، وإنما غرضهم التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع ،

و غرضُهُمُ الارتفاقُ وهمُ يظهرونَ أَنَّ غرضَهُمُ الإرفاقُ ، و غرضُهُمُ الاستتباعُ
وهمُ يظهرونَ أَنَّ غرضَهُمُ الخدمةُ والتبعيةُ .

ثم إنَّهُمُ يجمعونَ مِنَ الحرامِ والشبهاتِ وينفقونَ عليهِمُ لتكثرَ أتباعُهُمُ ،
وينتشرَ بالخدمةِ اسمُهُمُ .

وبعضُهُمُ يأخذُ أموالَ السلاطينِ وينفقُ عليهِمُ .

وبعضُهُمُ يأخذُها لينفقَ في طريقِ الحجِّ على الصوفيةِ ويزعمُ أَنَّ غرضَهُ البرُّ
والإرفاقُ ، وباعثُ جميعِهِمُ الرياءُ والسمعةُ ، وآيةُ ذلكَ إهمالُهُمُ لجميعِ
أوامرِ الله تعالى عليهِمُ ظاهراً وباطناً ، ورضاهُمُ بأخذِ الحرامِ والإنفاقِ منه .

ومثالُ مَنْ ينفقُ الحرامَ في طريقِ الحجِّ لإرادةِ الخيرِ كَمَنْ يعمرُ مساجدَ الله
فيطئُها بالعدرةِ ، ويزعمُ أَنَّ قصدهُ العمارةُ !



وفرقةٌ أخرى مِنْهُمُ اشتغلوا بالمجاهدةِ ، وتهذيبِ الأخلاقِ ، وتطهيرِ
النفسِ مِنْ عيوبِها ، وصاروا يتعمَّقونَ فيها ، فاتخذوا البحثَ عَنْ عيوبِ النفسِ
ومعرفةِ خدعِها علماً وحرقةً ؛ فهمُ في جميعِ أحوالِهِمُ مشغولونَ بالفحصِ عَنْ
عيوبِ النفسِ ، وباستنباطِ دقيقِ الكلامِ في آفاتِها ، فيقولونَ : هذا في النفسِ
عيبٌ ، والغفلةُ عَنْ كونهِ عيباً عيبٌ ، والالتفاتُ إِلَى كونهِ عيباً عيبٌ ، ويشغفونَ
فيه بكلماتِ سلسلةٍ تضيعُ الأوقاتُ في تلفيقِها ، وَمَنْ جعلَ طولَ عمرِهِ في
التفتيشِ عَنْ العيوبِ وتحريرِ علمِ علاجِها . . كَانَ كَمَنْ اشتغلَ بالتفتيشِ عَنْ
عوائقِ الحجِّ وآفاتِهِ وَلَمْ يسلكِ طريقَ الحجِّ ، فذلكَ لا يغنيه .



وفرقة أخرى جاوزوا هذه الرتبة ، وابتدؤوا سلوك الطريق ، وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشمّموا من مبادي المعرفة رائحة . . تعجّبوا منها ، وفرحوا بها ، وأعجبتهُم غرائبها ، فتقيّدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكير فيها ، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم ، وانسدّادها على غيرهم .

وكل ذلك غرور ؛ لأنّ عجائب طريق الله ليس لها نهاية ، فلو وقف السالك مع كلّ أعجوبة وتقيّد بها . . قصرت خطاه ، وحُرم الوصول إلى المقصد ، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً ، فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها ، فوقف ينظر إليها ويتعجّب حتّى فاتته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك .



وفرقة أخرى جاوزوا هؤلاء ، ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ، ولا إلى ما تيسّر لهم من العطايا الجزيلة ، ولم يرجعوا على الفرح بها والالتفات إليها ، جادّين في السير حتّى قاربوا ، فوصلوا إلى حدّ القربة إلى الله تعالى ، فظنّوا أنّهم قد وصلوا إلى الله ، فوقفوا وغلطوا ؛ فإنّ الله تعالى سبعين حجاباً من نور ، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظنّ أنّه قد وصل .

وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام ؛ إذ قال الله تعالى إخباراً عنه : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ ، وليس المعنيّ به هذه الأجسام المضيئة ، فإنّه كان يراها في الصّغر ويعلم أنّها ليست آلهة ، وهي كثيرة وليست

واحدة ، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بالله .

فمثل إبراهيم عليه السلام لا يغتره الكوكب الذي لا يغتر السوادية ، ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله تعالى ، وهي على طريق السالكين ، ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهي حجب من النور ، بعضها أعظم من بعض ، وأصغر النيرات الكوكب ، فاستعير له لفظه ، وأعظمها الشمس ، وبينهما رتبة القمر .

فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما أرى ملكوت السماوات حيث قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يصل إلى نور بعد نور ، ويتخيل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أمراً ، فيترقى إليه ويقول : قد وصلت ، فيكشف له ما وراءه ، حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده ، فقال : هذا أكبر ، فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خالٍ عن الهوي في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال .. قال : لا أحب الآفلين ؛ إنني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض^(١) .

وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب ، وقد يغتر بالحجاب الأول ، وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه ؛ فإنه أيضاً أمر رباني ، وهو نور من أنوار الله تعالى ؛ أعني : سر القلب الذي

(١) مشكاة الأنوار (ص ٥٥) .

تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به ،
ويتجلى فيه صورة الكل .

وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً ؛ إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه ، وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له ، فإذا تجلى نوره ، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه . . ربّما التفت صاحب القلب إلى القلب ، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه ، فرّبما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول : أنا الحق ، فإن لم يتضح له ما وراء ذلك . . اغترّ به ، ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغترّ بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ، ولم يصل بعد إلى القمر فضلاً عن الشمس ؛ فهو مغرور .

وهذا محلّ الالتباس ؛ إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يترأى في المرآة بالمرآة ، فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج ؛ كما قيل^(١) :

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدَحٌ وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرُ

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح عليه السلام ، فرأوا إشراق نور الله قد تلاً فيهِ ، فغلطوا فيه ؛ كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء فيظن

(١) البيتان للصاحب بن عباد في « ديوانه » (ص ١٧٦) .

أَنَّ الكوكبَ في المرآةِ أو في الماءِ ، فيمدُّ يدهُ إليه ليأخذهُ وهو مغرورٌ .
 وأنواعُ الغرورِ في طريقِ السلوكِ إلى اللهِ تعالى لا تُحصى في مجلداتٍ ،
 ولا تُستقصى إلا بعدَ شرحِ جميعِ علومِ المكَاشفةِ ، وذلكَ ممَّا لا رخصةَ في
 ذكره .

ولعلَّ القدرَ الذي ذكرناه أيضاً كانَ الأولى بنا تركه ؛ إذ السالكُ لهذا
 الطريقِ لا يحتاجُ إلى أن يسمعهُ من غيره ، والذي لم يسلكه لا ينتفعُ
 بسماعه ، بل ربَّما يستضرُّ به ؛ إذ يورثه ذلكَ دهشةً من حيثُ يسمعُ ما لا
 يفهمُ .

ولكن فيه فائدةٌ ؛ وهو إخراجُه من الغرورِ الذي هو فيه ؛ إذ ربَّما يصدِّقُ
 بأنَّ الأمرَ أعظمُ ممَّا يظنُّه ، وممَّا يتخيَّلهُ بذهنه المختصرِ وخياله القاصرِ
 وجدله المزخرفِ ، ويصدِّقُ أيضاً بما يُحكى من المكَاشفاتِ التي أخبرَ عنها
 أولياءُ الله ، ومن عَظَم غروره ربَّما أَصرَّ مكذباً بما يسمعهُ الآن كما يكذبُ بما
 سمعهُ من قبل !



الصف الرابع : أرباب الأموال

والمغتترون منهم فرق :

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ، ويكتبون أساميهم عليها بالآجر^(١) ؛ ليتخلد ذكرهم ، ويبقى بعد الموت أثرهم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك .

وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها ، وتعرضوا لسخطه في إنفاقها ، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها .

فإذا قد عصوا الله بكسبها . . كان الواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله تعالى ، وردّها إلى ملائكتها ؛ إمّا بأعيانها أو برّد بدلها عند العجز .

فإن عجزوا عن الملاك . . كان الواجب ردّها إلى الورثة ، فإن لم يبق للمظلوم وارث . . فالواجب صرفها إلى أهم المصالح .

(١) وتارة على الرخام حفرأ ، مع ذكر تاريخ عمارتها ، وتارة يكتبون ما صرف عليها من الأموال . « إتحاف » (٤٨٥ / ٨) .

وربما يكون الأهمُّ التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك ؛ خيفة من ألا يظهر ذلك للناس ، فيبنون الأبنية بالآجر وحرصهم من بنائها الرياء وجلبُ الثناء ، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها ، لا لبقاء الخير .

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ولو كُلفَ واحدٌ منهم أن ينفق ديناراً ولا يكتبَ اسمه على الموضع الذي أنفق عليه . . لشقَّ ذلك عليه ولمَ تسمح به نفسه .
والله مُطلعٌ عليه ، كتبَ اسمه أو لمَ يكتب ، فلو لا أنه يريدُ به وجهَ الناس لا وجهَ الله . . لما افتقر إلى ذلك .



وفرقة أخرى ربّما اكتسبت المال من الحلال ، وأنفقت على المساجد ، وهي أيضاً مغرورة من وجهين :

أحدهما : الرياء وطلبُ الثناء ؛ فإنه ربّما يكونُ في جواره أو في بلده فقراءٌ وصرفُ المالِ إليهم أهمُّ وأفضلُ وأولى من الصرفِ إلى بناءِ المساجد وزينتها ، وإنما يخفُّ عليهم الصرفُ إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس .

والثاني : أنه يُصرفُ إلى زخرفةِ المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهيٌّ عنها^(١) ، وشاغلة قلوب المصلين ، ومختطفة أبصارهم ، والمقصود من

(١) فقد روى البخاري معلقاً (كتاب الصلاة/ باب بيان المسجد) ، قبل (٤٤٦) : (وأمر =

الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين ، ويحبط ثوابهم بذلك .

ووبال ذلك كله يرجع إليه ، وهو مع ذلك يغتر به ، ويرى أنه من الخيرات ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو بذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع لله تعالى وممثل لأمره ، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخره من المسجد .

وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا ، فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ، ويشغلون بطلبه ، ووبال ذلك كله في رقبته ؛ إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى .

قال مالك بن دينار : أتى رجلان مسجداً ، فدخل أحدهما ، ووقف الآخر على الباب .

فقال له صاحبه : ألا تدخل ؟

قال : مثلي يدخل بيت الله وقد عصيته !! فكتب على المكان عند الله صديقاً^(١) .

= عمر ببناء المسجد وقال : أكره الناس ، وإياك أن تحمّر أو تصفر فتفتن الناس) ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٥٣٩ / ١) : (هو طرف من قصة في ذكر تجديد المسجد النبوي) ، وروى ابن ماجه (٧٤١) من حديث الفاروق رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم » .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٨) .

فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد ، وهو أن يرى تلويث المسجد بنفسه
جناية على المسجد ، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا
منة على الله تعالى .

وقال الحواريون للمسيح عليه السلام :

انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه !

فقال : أمّتي أمّتي ؛ بحق أقول لكم : لا يترك الله من هذا المسجد
حجراً قائماً على حجرٍ إلا أهلكه بذنوب أهله .

إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ، ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً ،
وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة ، بها يعمر الله الأرض ،
وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك^(١) .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا زخرفتُم
مساجدكم وحليّتُم مصاحفكم . . فالدمارُ عليكم »^(٢) .

وقال الحسن : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبنّي مسجد
المدينة . . أتاه جبريل عليه السلام فقال له : ابنه سبعة أذرع طولاً في

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٤٨٨) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٧) ، وابن أبي داود في « المصاحف » (٤٧٥) ،
عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً عليه ، ورفع من حديثه الحكيم الترمذي في
« نوادر الأصول » (ص ٣٣٤) .

السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه^(١) .

فغرورٌ هذا من حيث إنه رأى المنكرَ معروفاً واتَّكَلَ عليه .



وفرقه أخرى ينفقون الأموال في الصدقاتِ على الفقراءِ والمساكينِ ،
ويطلبون به المحافلَ الجامعةَ ، ومن الفقراءِ مَنْ عادتهُ الشكرُ والإفشاءُ
للمعروفِ ، ويكرهون التصدُّقَ في السِّرِّ ، ويرون إخفاءَ الفقيرِ لما يأخذه
منهمُ جنايةً عليهم وكفراناً .

وربَّما يحرصون على إنفاقِ المالِ في الحجِّ ، فيحجُّون مرَّةً بعدَ أخرى ،
وربَّما تركوا جيرانهمُ جِيعاً .

ولذلك قال ابنُ مسعودٍ : (في آخرِ الزمانِ يكثرُ الحاجُّ بلا سببٍ ؛ يهونُ
عليهمُ السفرُ ، ويُيسرُ لهمُ في الرزقِ ، ويرجعون محرومينَ مسلوبينَ ،
يهوي بأحدهمُ بغيره بينَ القفارِ والرمالِ وجارُهُ مأسوراً إلى جنبهِ
لا يواسيه) .

وروى أبو نصرٍ التَّمَّارُ : أنَّ رجلاً جاء يودِّعُ بشرَ بنَ الحارثِ وقالَ :

قد عزمْتُ على الحجِّ ، فتأمرُني بشيءٍ ؟

فقالَ له : كم أعددتَ للنفقةِ ؟

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هكذا ، وفي « قصر الأمل » [٢٨٦] لابن أبي الدنيا :

« ابنوه كعريش موسى » ، وليس فيه مجيء جبريل) .

فَقَالَ أَلْفِي دَرَهْمٍ ، فَقَالَ بَشْرٌ :

فَأَيُّ شَيْءٍ تَبْتَغِي بِحُجَّتِكَ تَزْهَدًا أَوْ اشْتِيَاقًا إِلَى الْبَيْتِ ، أَوْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ؟

قَالَ : ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، قَالَ : فَإِنْ أَصَبْتَ مَرْضَاةَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْتَ فِي مَنْزِلِكَ ، وَتَنْفَقُ أَلْفِي دَرَهْمٍ ، وَتَكُونُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَتَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ :

اذهَبْ فَأَعْطِهَا عَشْرَةَ أَنْفُسٍ ؛ مَدْيُونٌ يَقْضِي دِينَهُ ، وَفَقِيرٌ يَرُمُّ شَعْنَهُ ، وَمُعِيلٌ يَحْيِي عِيَالَهُ ، وَمَرْبِيٌّ يَتِيمٌ يَفْرَحُهُ ، وَإِنْ قَوِيَ قَلْبُكَ أَنْ تَعْطِيَهَا وَاحِدًا . فافْعَلْ ؛ فَإِنَّ إِدْخَالَكَ السُّرُورَ عَلَى قَلْبِ الْمُسْلِمِ وَإِغَاثَةَ اللُّهْفَانِ وَكُشْفَ الضُّرِّ ، وَإِعَانَةَ الضَّعِيفِ . . أَفْضَلُ مِنْ مِئَةِ حُجَّةٍ بَعْدَ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ ، قُمْ فَأَخْرِجْهَا كَمَا أَمْرُنَاكَ ، وَإِلَّا . . فَقُلْ لَنَا مَا فِي قَلْبِكَ ، فَقَالَ :

يَا أَبَا نَصْرٍ ^(١) ؛ سَفَرِي أَقْوَى فِي قَلْبِي ، فَتَبَسَّمَ بَشْرٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ :

الْمَالُ إِذَا جُمِعَ مِنْ وَسَخِ التَّجَارَاتِ وَالشَّبَهَاتِ . . اقْتَضَتْ النَّفْسُ أَنْ تَقْضِيَ بِهِ وَطَرًا ، فَأَظْهَرَتْ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ ، وَقَدْ آلَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ الْأَ يَقْبَلُ إِلَّا عَمَلَ الْمُتَّقِينَ ^(٢) .



(١) هي كنية بشر . « إتحاف » (٤٨٧ / ٨) ، وليس الخطاب لأبي نصر التمار .

(٢) قوت القلوب (٩٢ / ١) .

وفرقه أخرى من أرباب الأموال يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ؛ كصيام النهار ، وقيام الليل ، وختم القرآن .

وهم مغرورون ؛ لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها . ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين ؟!

ولذلك قيل لبشر : إن فلاناً غني كثير الصوم والصلاة .

فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره .

إنما حال هذا إطعام الطعام للجوع ، والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء^(١) .



وفرقه أخرى غلبهم البخل ، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط . ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه ، ويطلبون

(١) قوت القلوب (٩٣ / ١) .

مِنَ الْفُقَرَاءِ مَنْ يَخْدُمُهُمْ وَيَتَرَدَّدُ فِي حَاجَاتِهِمْ ، أَوْ مَنْ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِلِاسْتِسْخَارِ فِي خِدْمَةٍ ، أَوْ مَنْ لَهُمْ فِيهِ عَلَى الْجُمْلَةِ غَرَضٌ ، أَوْ يَسْلُمُونَ ذَلِكَ إِلَى مَنْ يَعِينُهُ وَاحِدٌ مِنَ الْأَكَابِرِ مِمَّنْ يَسْتَظْهَرُ بِحَشْمِهِ ؛ لِيَنَالَ بِذَلِكَ عِنْدَهُ مَنَزَلَةً ، فَيَقُومَ بِحَاجَاتِهِ .

وَكُلُّ ذَلِكَ مَفْسَدَاتٌ لِلنِّيَّةِ ، وَمَحَبَطَاتٌ لِلْعَمَلِ ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ مُطِيعٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُوَ فَاجِرٌ ؛ إِذْ طَلَبَ بَعَادَةَ اللَّهِ عَوْضاً مِنْ غَيْرِهِ .
فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ غُرُورِ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ أَيْضاً لَا يُحْصَى ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا الْقَدْرَ ؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَجْنَاسِ الْغُرُورِ .



وَفَرَقَةٌ أُخْرَى مِنْ عَوَامِّ الْخَلْقِ وَأَرْبَابِ الْأَمْوَالِ أَوْ الْفُقَرَاءِ اغْتَرُّوا بِحُضُورِ مَجَالِسِ الذِّكْرِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلِكَ يَغْنِيهِمْ وَيَكْفِيهِمْ ، وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ عَادَةً ، وَيُظَنُّونَ أَنَّ لَهُمْ عَلَى مَجَرَّدِ سَمَاعِ الْوَعِظِ دُونَ الْعَمَلِ وَدُونَ الْإِتْعَازِ أَجْراً ، وَهُمْ مَغْرُورُونَ ؛ لِأَنَّ فَضْلَ مَجْلِسِ الذِّكْرِ لِكُونِهِ مَرْغُوباً فِي الْخَيْرِ ، فَإِنْ لَمْ يَهَيِّجِ الرِّغْبَةَ . . فَلَإِخْرَ فِيهِ .

وَالرِّغْبَةُ مَحْمُودَةٌ ؛ لِأَنَّهَا تَبْعُثُ عَلَى الْعَمَلِ ، فَإِنْ ضَعُفَتْ عَنِ الْحَمَلِ عَلَى الْعَمَلِ ، فَلَإِخْرَ فِيهَا .

وَمَا يُرَادُ لَغَيْرِهِ فَإِذَا قَصَرَ عَنِ الْأَدَاءِ إِلَى ذَلِكَ الْغَيْرِ . . فَلَإِخْرَ لَهُ .

وَرَبَّمَا يَغْتَرُّ بِمَا يَسْمَعُهُ مِنَ الْوَاعِظِ مِنْ فَضْلِ حُضُورِ الْمَجْلِسِ ، وَفَضْلِ

البكاء ، وربّما تدخله رقة كرقّة النساء فيبكي ، وربّما يسمعُ كلاماً مخوّفاً فلا يزيدُ على أن يصفقَ بيديه ويقولَ : يا سلامٌ ؛ سلّمٌ^(١) ، أو نعوذُ باللهِ ، أو سبحانَ اللهِ ، ويظنُّ أنّه قد أتى بالخيرِ كلّهِ ، وهو مغرورٌ .

وإنّما مثاله مثالُ المريضِ الذي يحضرُ مجالسَ الأطباءِ فيسمعُ ما يجري ، أو الجائعِ الذي يحضرُ عندَ مَنْ يصفُ له الأطعمةَ اللذيذةَ الشهيةَ ثمَّ ينصرفُ ، وذلكَ لا يُغني عنه من مرضِهِ وجوعِهِ شيئاً .

فكذلكَ سماعُ وصفِ الطاعاتِ دونَ العملِ بها لا يغني من الله شيئاً .

فكلُّ وعظٍ لم يغيّرْ منك صفةً تغييراً يغيّرُ أفعالكَ حتّى تقبلَ على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرضَ عن الدنيا . فذلكَ الوعظُ زيادةُ حجةٍ عليك ، فإذا رأيتَهُ وسيلةً لك . . كنتَ مغرورا .



فإن قلتَ : فما ذكرته من مداخلِ الغرورِ أمرٌ لا يتخلّصُ منه أحدٌ ، ولا يمكنُ الاحترازُ عنه ، وهذا يوجبُ اليأسَ ؛ إذ لا يقوى أحدٌ من البشرِ على الحذرِ من خفايا هذه الآفاتِ .

فأقولُ : الإنسانُ إذا فترتْ همّتهُ في شيءٍ . . أظهرَ اليأسَ منه ، واستعظمَ الأمرَ ، واستوعَرَ الطريقَ ، وإذا صحَّ منه الهوى . . اهتدى إلى الحيلِ ،

(١) في (أ) : (يا سلام ؛ سلّم سلّم) ، وفي (ج) : (يارب ؛ سلّم سلّم) .

واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض .
حتى إنَّ الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلَّق في جوِّ السماء مع بُعده
منه . . استنزله .

وإذا أراد أن يُخرج الحوت من أعماق البحار . . استخرجه .
وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال . . استخرجه .
وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري . .
اقتنصها .

وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات . . استسخرها ،
وإذا أراد أن يأخذ الأفاعي والحيات ويبعث بها . . أخذها ، واستخرج
الترياق من أجوافها .

وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت . . اتخذه .
وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها . . استخرج بدقيق
الهندسة ذلك وهو مستقرٌّ على الأرض .

وكلُّ ذلك باستنباط الحيل ، وإعداد الآلات ، فسخر الفرس للركوب ،
والكلب للصيد ، وسخر البازي لاقتناص الطيور ، وهياً الشبكة لاصطياد
السماك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي .

وكلُّ ذلك لأنَّ همَّه أمرُ دنياه ، وذلك معينٌ له على دنياه .

فلو أهمته أمر آخرته.. فليس عليه إلا شغل واحد ؛ وهو تقويم قلبه^(١) ، فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال : هذا محال ، ومن الذي يقدر عليه ؟

وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد ، بل هو كما يقال : (لو صح منك الهوى أرشدت للحيل) .

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان ، فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته ، وقويت همته ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها .



فإن قلت : فقد قربت الأمر فيه بعد أن أكثر في ذكر مداخل الغرور ، فبم ينجو العبد من الغرور ؟

فاعلم : أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالعقل ، والعلم ، والمعرفة ، فهذه ثلاثة أمور لا بد منها .

أما العقل : فأعني به الفطرة الغريزية ، والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء ، فالفطنة والكيس فطرة ، والحمق والبلادة فطرة ، والبليد لا يقدر على التحفظ من الغرور .

(١) فقط ، وهو تسويته وتعديله وتنظيفه عن الخواطر الرديئة ؛ حتى يكون مهبطاً لأنوار الله تعالى . « إتحاف » (٤٨٩ / ٨) .

فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة ، وهذا إن لم يُفطر عليه الإنسان . . فاكسابه غير ممكن .

نعم ، إذا حصل أصله . . أمكن تقويته بالممارسة ، فأساس السعادات كلها العقل والكياسة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً ، إنَّ الرجلين ليستوي عملُهُما وبرُّهُما وصومُهُما وصلاتُهُما ، ولكنَّهُما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنبٍ أُحَدٍ ، وما قسم الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين » (١) .

وعن أبي الدرداء أنه قيل : يا رسول الله ؛ أرأيت الرجل يصومُ النهار ، ويقومُ الليل ، ويحجُّ ، ويعتمرُ ، ويتصدَّقُ ، ويغزو في سبيلِ الله ، ويعودُ المريضَ ، ويشيعُ الجنائزَ ، ويعينُ الضعيفَ ، ولا يعلمُ منزلته عندَ الله يومَ القيامةِ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّما يُجزى على قدر عقله » (٢) .

(١) الحديث عند الحكيم الترمذي في « نواذر الأصول » (ص ٢٤١) بروايتين ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦١/١) .

(٢) رواه الحارث في « مسنده » (٨٢٧) ، وهو من أحاديث داوود بن المحبر ، ورواه عن ابن عمر رضي الله عنهما البيهقي في « الشعب » (٤٣١٥) .

وقال أنس رضي الله عنه : أثنى على رجلٍ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيراً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف عقله ؟ »

قالوا : يا رسول الله ؛ نقول من عبادته وفضله وخلقه .

فقال : « كيف عقله ؟ فإن الأحق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر ، وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم »^(١) .

وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن رجلٍ شدة عبادة . . سأل عن عقله ، فإذا قالوا : حسن . . قال : « أرجوه » ، وإن قالوا غير ذلك . . قال : « لن يبلغ » .

قال : وذكر له شدة عبادة رجلٍ ، فقال : « كيف عقله ؟ »

قالوا : ليس بشيء ، قال : « لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون »^(٢) .

فالذكاء وصحة غريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة ، فإن فاتت ببلادة وحمافة . . فلا تدارك لها .

الثاني المعرفة : وأعني بالمعرفة : أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة .

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .

(٢) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٩٦٥) ، وابن عدي في « الكامل »

(٣٨٤ / ٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣٢٤) .

فيعرف نفسه بالعبودية والذل ، وبكونه غريباً في هذا العالم ، وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعاً هو معرفة الله تعالى ، والنظر إلى وجهه الكريم فقط .

فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه .

فليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة ، وفي كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب التفكير ، وكتاب الشكر ؛ إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ، وإلى وصف جلال الله .

ويحصل به التنبيه على الجملة ، وكمال المعرفة وراءه ؛ فإن هذا من علوم المكاشفة ، ولم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة .

وأما معرفة الدنيا والآخرة . . فيستعين عليها بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ؛ ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة .

فإذا عرف نفسه وربه ، وعرف الدنيا والآخرة . . ثار من قلبه بمعرفة الله حبُّ الله .

وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها .

وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها .

فيصير أهمُّ أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة .

وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه . . صحَّت نيته في الأمور كلها .

فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة . . كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، وصحّت نيّته ، واندفع عنه كلُّ غرور منشؤه تجاذب الأغراض ، والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال ؛ فإن ذلك هو المفسد للنّيّة .

وما دامت الدنيا أحبّ إليه من الآخرة ، وهوى نفسه أحبّ إليه من رضا الله تعالى . . فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حبُّ الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله . . فيحتاج إلى المعنى الثالث ، وهو العلم : أعني : العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقربُه من الله وما يبعده عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله ، وجميع ذلك قد أودعناه كتب « إحياء علوم الدين » .

فيعرف من ربع العبادات شروطها فیراعیها ، وآفاتِها فيتقيها .
ومن ربع العادات أسرار المعاش وما هو مضطرٌّ إليه فيأخذُه بأدب الشرع ، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه .

ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله ؛ فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق ، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه .

ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بدَّ وأن تُوضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها .

فإذا أحاط بجميع ذلك.. أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور .

وأصل ذلك كله : أن يغلب حبُّ الله على القلب ، ويسقط حبُّ الدنيا منه ؛ حتَّى تقوى به الإرادة ، وتصحَّ به النيَّة ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها .



فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك.. فما الذي يُخافُ عليه ؟

فأقول : يُخافُ عليه أن يخدعه الشيطان ، ويدعوه إلى نصيح الخلق ونشر العلم ، ودعوة الناس إلى ما عرفه من دين الله .

فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه ، وراقب القلب حتَّى صفاه من جميع الكدورات ، واستوى على الصراط المستقيم ، وصغرت الدنيا في عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق له إلا همٌّ واحدٌ ؛ وهو الله تعالى ، والتلذُّذُ بذكره ومناجاته ، والشوق إلى لقائه ، وقد عجز الشيطان عن إغوائه .

إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه ، فيأتيه من جهة الدين ، ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله ، والشفقة على دينهم بالنصح لهم ، والدعاء إلى الله .

فينظرُ العبدُ برحمتهِ إلى العبيدِ ، فيراهمُ حيارى في أمرهم ، سكارى في دينهم ، صمّاً عمياً ، قد استولى عليهم المرضُ وهم لا يشعرون ، وفقدوا الطبيبَ ، وأشرفوا على العطبِ ، فغلبَ على قلبه الرحمةُ لهم ، وقد كانَ عنده حقيقةُ المعرفةِ بما يهديهم ويبينُ لهم ضلالهم ، ويرشدُهم إلى سعادتهم ، وهو يقدرُ على ذكرها من غيرِ تعبٍ ومؤنةٍ ولزومِ غرامةٍ .

فكانَ مثلهُ كمثلِ رجلٍ كانَ بهِ داءٌ عظيمٌ لا يُطاقُ ألمُه ، وقد كانَ لذلكِ يسهرُ ليلهُ ويقلقُ نهاره ، لا يأكلُ ولا يشربُ ، ولا يتحركُ ولا يتصرفُ ؛ لشدةِ ضربانِ الألمِ ، فوجدَ له دواءً عفواً صفواً من غيرِ ثمنٍ ولا تعبٍ ولا مرارةٍ في تناوله ، فاستعمله ، فبرىء وصحَّ ، وطابَ نومه بالليلِ بعدَ طولِ سهره ، وهدأ بالنهارِ بعدَ شدةِ القلقِ ، وطابَ عيشه بعدَ نهايةِ الكربِ ، وأصابَ لذةَ العافيةِ بعدَ طولِ السقامِ .

ثمَّ نظرَ إلى عددٍ كثيرٍ منَ المسلمينَ وإذا بهم تلكَ العلةُ بعينها ، وقد طالَ سهرهمُ ، واشتدَّ قلقهمُ ، وارتفعَ إلى السماءِ أنينهمُ ، فتذكَّرَ أنَّ دواءهمُ هو الذي يعرفه ، وأنه يقدرُ على شفائهمُ بأسهلِ ما يكونُ ، وفي أوحى زمانٍ^(١) يقدرُ ، فأخذتهُ الرحمةُ والرقةُ ، ولم يجدْ فسحةً منَ نفسه في التراخي عن الاشتغالِ بعلاجهمُ .

فكذلكَ العبدُ المخلصُ بعدَ أنِ اهتدى إلى الطريقِ ، وشفي منَ أمراضِ

(١) أوحى - هنا - : أسرع .

القلوب.. شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم ، وأعضل دأؤهم ، وقرب هلاكهم وشقاؤهم ، وسهل عليه دواؤهم .

فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم ، وحرّضه الشيطان على ذلك ؛ رجاء أن يجد مجالاً للفتنة .

فلما اشتغل بذلك.. وجد الشيطان مجالاً للفتنة ، فدعاه إلى الرئاسة دعاء خفياً أخفى من ديب النمل لا يشعر به المريد ، فلم يزل ذلك الديب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزيّن للخلق ، بتحسين الألفاظ والنفحات والحركات ، والتصنع في الزي والهيئة .

فأقبل الناس إليه يعظمونه ويجلونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك ؛ إذ رأوه شافياً لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع ، فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم ، فأثروه بأبدانهم وأموالهم ، وصاروا له خولاً كالخدم والعبيد ، فخدموه وقدموه في المحافل ، وحكّموه على الملوك والسلاطين .

فعند ذلك انتشر الطبع ، وارتاحت النفس ، وذاقت لذة يا لها من لذة ! وأصاب من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها ، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة ، وامتدت إلى قلبه يده ، فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة .

وأماره انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فردّ عليه بين

يدي الخلق . . غضب ، فإذا أنكرَ على نفسه ما وجدَهُ مِنَ الغضبِ . . بادرَ الشيطانُ فخيَّلَ إليه أَنَّ ذلكَ غضبُ اللهِ ؛ لأنَّهُ إذا لمَ يحسُنِ اعتقادُ المرِدينَ فيه . . انقطعوا عن طريقِ اللهِ ، فوقعَ في الغرورِ .

فربَّما أخرجَهُ ذلكَ إلى الوقِعةِ فيمَن رَدَّ عليه ، فوقعَ في الغيبةِ المحظورةِ بعدَ تركِهِ الحلالَ المتسعَ ، ووقعَ في الكبرِ الذي هو تمرُّدٌ عن قبولِ الحقِّ والشكرِ عليه بعدَ أن كانَ يحذرُ من طوارقِ الخطراتِ .

وكذلكَ إذا سبقَهُ الضحكُ ، أو فترَ عن بعضِ الأورادِ . . جزعتَ نفسُهُ أن يطلعوا عليه فيسقطَ قبولُهُ فأتبعَ ذلكَ بالاستغفارِ وتنقِصِ الصعداءِ .

وربَّما زادَ في الأعمالِ والأورادِ لأجلِهِم ، والشيطانُ يخيِّلُ إليه : إِنَّكَ إِنَّمَا تفعلُ ذلكَ كي لا يفتَرِ رأيُهُم عن طريقِ اللهِ ، فيتركوا الطريقَ بتركِهِ .

وإنَّما ذلكَ خدعةٌ وغرورٌ ، بل هو جزعٌ مِنَ النفسِ خيفةً فوتِ الرئاسةِ ، ولذلكَ لا تجزعُ نفسُهُ من اطلاعِ الناسِ على مثلِ ذلكَ من أقرانِهِ .

بل ربَّما يحبُّ ذلكَ ويستبشرُ به ، ولو ظهرَ من أقرانِهِ مَنْ مالتِ القلوبُ إلى قبولِهِ وزادَ أثرُ كلامِهِ في القبولِ على كلامِهِ . . شقَّ ذلكَ عليه ، ولولا أَنَّ النفسَ قد استبشرتْ واستلذتِ الرئاسةَ . . لكانَ يغتمُّ ذلكَ .

إذ مثاله أن يرى الرجلُ جماعةً من إخوانِهِ قد وقعوا في بئرٍ وتغطَّى رأسُ البئرِ بحجرٍ كبيرٍ ، فعجزوا عن الرُّقيِّ مِنَ البئرِ بسببِهِ ، فرقَّ قلبُهُ لإخوانِهِ ، فجاءَ ليرفعَ الحجرَ عن رأسِ البئرِ ، فشقَّ عليه ، فجاءَ مَنْ أعانَهُ على ذلكَ

حَتَّى تَسِرَّ عَلَيْهِ ، أَوْ كَفَاهُ ذَلِكَ وَنَحَّاهُ بِنَفْسِهِ ، فَيَعْظُمُ بِذَلِكَ فَرْحُهُ لَا مُحَالَةَ ؛
إِذْ غَرَضُهُ خَلَاصُ إِخْوَانِهِ مِنَ الْبُئْرِ .

فَإِنْ كَانَ غَرَضُ النَّاصِحِ خَلَاصَ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ النَّارِ ، فَإِذَا ظَهَرَ مَنْ
أَعَانَهُ أَوْ كَفَاهُ ذَلِكَ . . لَمْ يَثْقُلْ عَلَيْهِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ اهْتَدَوْا جَمِيعُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ أَكَانَ
يَنْبَغِي أَنْ يَثْقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ غَرَضُهُ هِدَايَتُهُمْ ؟ فَإِذَا اهْتَدَوْا بغيرِهِ . . فَلِمَ
يَثْقُلُ عَلَيْهِ ؟

ومهما وجدَ ذلكَ في نفسه . . دعاهُ الشَّيْطَانُ إِلَى جَمِيعِ كِبَائِرِ الْقُلُوبِ ،
وفواحشِ الْجَوَارِحِ ، وَأَهْلَكَهُ ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ زَيْغِ الْقُلُوبِ بَعْدَ الْهُدَى ، وَمِنْ
اعوجاجِ النَّفْسِ بَعْدَ الْإِسْتِوَاءِ .



فَإِنْ قُلْتَ : فَمَتَى يَصِحُّ لَهُ أَنْ يَشْتَغَلَ بِنَصَحِ النَّاسِ ؟

فَأَقُولُ : إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ قَصْدٌ سِوَى هِدَايَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَكَانَ يُوَدُّ لَوْ وَجَدَ
مَنْ يَعِينُهُ أَوْ لَوْ اهْتَدَوْا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَانْقَطَعَ بِالْكَلْبِيَّةِ طَمَعُهُ عَنْ ثَنَائِهِمْ وَعَنْ
أَمْوَالِهِمْ ، فَاسْتَوَى عِنْدَهُ حَمْدُهُمْ وَذَمُّهُمْ ، فَلَمْ يَبَالِ بِذَمِّهِمْ إِذَا كَانَ اللَّهُ
يَحْمَدُهُ ، وَلَمْ يَفْرَحْ بِحَمْدِهِمْ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ
كَمَا يَنْظُرُ إِلَى السَّادَاتِ وَإِلَى الْبَهَائِمِ .

أَمَّا إِلَى السَّادَاتِ . . فَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ لَا يَتَكَبَّرُ عَلَيْهِمْ ، وَيَرَى كُلَّهُمْ خَيْرًا
مِنْهُ ؛ لَجَهْلِهِ بِالْخَاتِمَةِ .

وأما إلى البهائم.. فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزل في قلوبهم؛ فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم؛ فلا يتزين لها ولا يتصنع، بل راعي الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه، فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالي بها.. لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم؟

نعم، ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم، فيكون كالشمع الذي يضيء لغيره ويحترق في نفسه.



فإن قلت: فلو ترك الوعاطُ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة.. لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب!

فأقول: قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»^(١).

ولو لم يحب الناس الدنيا.. لهلك العالم، وبطلت المعاش، وهلك القلوب والأبدان جميعاً، إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك، وأن ذكر كونه مهلكاً لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين، لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح، وذكر ما في حب الدنيا

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٩) عن الحسن مرسلًا.

مِنَ الْخَطَرِ ، وَلَمْ يَتْرِكْ ذِكْرَهُ خَوْفًا مِنْ أَنْ تُتْرِكَ ؛ ثَقَّةً بِالشَّهَوَاتِ الْمُهْلِكَةِ الَّتِي سَلَّطَهَا اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ لِيُسَوِّقَهُمْ بِهَا إِلَى جَهَنَّمَ ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

فكَذَلِكَ لَا تَرَالُ أَلْسِنَةُ الْوَعَّازِ مُطْلَقَةً لِحَبِّ الرِّئَاسَةِ ، وَلَا يَدْعُونَهَا بِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْوَعَّازَ لِحَبِّ الرِّئَاسَةِ حَرَامٌ ؛ كَمَا لَمْ يَدْعِ الْخَلْقُ الشَّرْبَ وَالزَّانَا وَالسَّرِقَةَ وَالرِّبَا وَالظُّلْمَ وَسَائِرَ الْمَعَاصِي بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ .

فَانظُرْ لِنَفْسِكَ ، وَكُنْ فَارِغَ الْقَلْبِ مِنْ حَدِيثِ النَّاسِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْلَحُ خَلْقًا كَثِيرًا بِإِفْسَادِ شَخْصٍ وَاحِدٍ وَأَشْخَاصٍ .

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ . . لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ .

وَإِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خُلَاقَ لَهُمْ .

فَإِنَّمَا يُخْشَى أَنْ يَنْسَدَّ طَرِيقُ الْإِتِّعَازِ ، فَأَمَّا أَنْ تَخْرُسَ أَلْسِنَةُ الْوَعَّازِ وَوَرَاءَهُمْ بَاعِثُ الرِّئَاسَةِ وَحُبُّ الدُّنْيَا . . فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا .



فَإِنْ قُلْتَ : فَإِنْ عَلِمَ الْمُرِيدُ هَذِهِ الْمَكِيدَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَاشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ وَتَرَكَ النَّصِيحَ ، أَوْ نَصَحَ وَرَاعَى شَرْطَ الصَّدَقِ وَالْإِخْلَاصِ فِيهِ . . فَمَا الَّذِي يُخَافُ عَلَيْهِ ؟ وَمَا الَّذِي بَقِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَخْطَارِ وَحِبَائِلِ الْإِغْتِرَارِ ؟

فاعلم : أنه بقي عليه أعظمه ، وهو أن الشيطان يقول له : قد أعجزتني ، وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك ، وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء ، وما قدرت عليك ، فما أصبرك ! وما أعظم عند الله قدرك ومحلك ! إذ قواك على قهري ، ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري .

فيصغي إليه ويصدقّه ، ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور ، وهو المهلك الأكبر .

فالعجب أعظم من كل ذنب ، ولذلك قال الشيطان : (يا بن آدم ؛ إذا ظننت أنك بعلمك تخلّصت مني . . فبجهلك قد وقعت في حبالتي)^(١) .



فإن قلت : فلز لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه ، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل : فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم . . علم أنه لم يقو عليه بنفسه ، بل بالله تعالى ، فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب ؟

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٧/٩) عن أبي عبد الله الساجي .

فأقول : يُخَافُ عَلَيْهِ الْغُرُورُ بِفَضْلِ اللَّهِ ، وَالثِّقَةُ بِكَرَمِهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِهِ ، حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ يَبْقَى عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَلَا يَخَافُ مِنَ الْفِتْرَةِ وَالْإِنْقِلَابِ فَيَكُونُ حَالُهُ الْإِتِّكَالَ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ فَقَطْ ، دُونَ أَنْ يَقَارِنَهُ الْخَوْفُ مِنْ مَكْرِهِ ، وَمَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ . . فَهُوَ خَاسِرٌ جَدًّا .

بَلْ سَبِيلُهُ أَنْ يَكُونَ مُشَاهِدًا لَجَمَلَةِ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، ثُمَّ خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ قَدْ شَدَّتْ عَنْهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ قَلْبِهِ ؛ مِنْ حُبِّ دُنْيَا ، وَرِيَاءٍ ، وَسُوءِ خُلُقٍ ، وَالتَّفَاتٍ إِلَى عِزِّ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ .

وَيَكُونُ خَائِفًا أَنْ يُسَلَبَ حَالُهُ فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ ، غَيْرَ آمِنٍ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ ، وَلَا غَافِلٍ عَنْ خَطَرِ الْخَاتِمَةِ ، وَهَذَا خَطَرٌ لَا مَحِيصَ عَنْهُ وَخَوْفٌ لَا نَجَاةَ مِنْهُ إِلَّا بَعْدَ مَجَاوِزَةِ الصِّرَاطِ .

وَلِذَلِكَ لَمَّا ظَهَرَ الشَّيْطَانُ لِبَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ فِي وَقْتِ النَّزْعِ وَكَانَ قَدْ بَقِيَ لَهُ نَفْسٌ ، فَقَالَ لَهُ : أَفَلَتَ مِنِّي يَا فَلَانُ ، فَقَالَ : لَا ، بَعْدُ .

وَلِذَلِكَ قِيلَ : (النَّاسُ كُلُّهُمْ هَلَكُوا إِلَّا الْعَالَمُونَ ، وَالْعَالَمُونَ كُلُّهُمْ هَلَكُوا إِلَّا الْعَامِلُونَ ، وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ هَلَكُوا إِلَّا الْمَخْلُصُونَ ، وَالْمَخْلُصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ)^(١) .



(١) قوت القلوب (١/١٥٨) ، واقتضاء العلم العمل (٢٢) بنحوه .

فإذا ؛ المغرور هالكٌ ، والمخلصُ الفارُّ مِنَ الغرورِ على خطرٍ ؛ فلذلك
لا يفارقُ الخوفُ والحذرُ قلوبَ أولياءِ الله أبداً ، فنسألُ اللهَ سبحانه وتعالى
العونَ والتوفيقَ وحسنَ الخاتمةِ ؛ فإنَّ الأمورَ بخواتيمِها ، والسلامُ .



تم كتاب ذم الغرور

وهو آخر ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين

بحمد الله وحسن توفيقه

والصلاة على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

يتلوه ربع المنجيات

وهو الربع الرابع من كتاب إحياء علوم الدين

مُحْتَوَى الْكِتَابِ

رُبْعُ الْمُهْلِكَاتِ / الْقِسْمُ الثَّانِي

٧	كتاب ذم الدنيا
١٢	بيان ذم الدنيا
١٢	- الأخبار الواردة في ذم الدنيا
٤٦	بيان المواعظ في ذم الدنيا وصفتها
٥٦	بيان صفة الدنيا بالأمثلة
٥٦	- تشبيه الدنيا بالظلم الزائل
٥٧	- تشبيه الدنيا بخيالات المنام وأضغاث الأحلام
٥٩	- تشبيه الدنيا بعجوز متزينة
٦٠	- تشبيه الدنيا بمنزل قصير في سفر طويل
٧٣	بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد
٧٣	- ما لك إليه ميل في الدنيا على ثلاثة أقسام
٧٩	- أي نعيم في الدنيا مهما صغر فهو سبب لنقصان حظ العبد في الآخرة ..
٨١	- تحريجة: ما الذي هو الله تعالى؟
٨٣	- طرف من أخبار أويس القرني
٨٩	- مثال في بيان ما صورته لحظ النفس وهو الله تعالى
	بيان ماهية الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى
٩٠	أنستهم أنفسهم وخالفهم ومصدرهم وموردتهم

- كل ما على الأرض يجمعه ثلاثة أقسام ٩٠
- أكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن ٩٢
- الناس في الصناعات ثلاث طوائف ٩٨
- لو زهد الناس في الدنيا لبطلت المعاش ١٠٠
- الفرقة الناجية ١٠٨

كتاب ذم المال والبخل

- ١١١
- أعظم فتن الدنيا أنه لا غنى عنها ١١٤
- بيان ذم المال وكراهة حبه ١١٦
- الآيات والأحاديث في ذم المال وكراهة حبه ١١٦
- بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم ١٢٤
- تسمية المال خيراً في القرآن الكريم ١٢٤
- وجه الجمع بين مدح المال وذمه ١٢٤
- الوسائل التي تنال بها السعادة في الدنيا ١٢٥
- معنى دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ... ١٢٧
- بيان تفصيل آفات المال وفوائده ١٢٩
- ذكر الله تعالى هو أصل العبادات ومحُّها ١٣٤
- بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس ... ١٣٦
- الأحاديث الواردة في ذم الحرص والطمع ومدح القناعة ١٣٦
- خبر القنبرة والصياد ١٤٤

- بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة ١٤٧
- بيان فضيلة السخاء ١٥٥
- الأحاديث الواردة في فضل السخاء ١٥٥
- حكايات الأسخياء ١٦٨
- بيان ذم البخل ١٨٥
- الآيات والأحاديث في ذم البخل ١٨٥
- حكايات البخلاء ١٩٧
- بيان الإيثار وفضله ٢٠٠
- ليس بعد الإيثار درجة في السخاء ٢٠٠
- بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما ٢٠٦
- تحريجة: فما حدُّ البخل وكل إنسان يرى نفسه كريماً؟ ٢٠٦
- الحكمة من خلق المال ٢٠٨
- الجود وسط بين الإقتار والسرف، وبين القبض والبسط ٢٠٨
- تحريجة: فما الذي يجب بذله؟ ٢٠٨
- من صور البخل عند الأكياس ٢١٠
- أداء واجب الشرع والمروءة صفة رافعة للبخل غير مثبتة للجود والسخاء .. ٢١٠
- طالب الثناء يتّاع وليس بجواد ٢١١
- بيان علاج البخل ٢١٣
- حب المال لذاته مرض عسرُ العلاج ٢١٤
- المعالجة بالأضداد ٢١٤

- ٢١٥ لا بأس بالتكلف في البدايات
- ٢١٦ التداوي ببعض الخبائث للضرورة
- ٢١٨ علاج الصوفية للمريد البخيل
- ٢١٨ بين المصيبة والفقر
- ٢٢٠ بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله
- ٢٢٣ بيان ذم الغنى ومدح الفقر
- ٢٢٦ تنزه أغنياء الصحابة عن أن يريدوا المال للتكاثر والشرف والزينة
- ٢٣٠ حال أغنياء الصحابة مع أموالهم
- ٢٣١ أحوال طالب الغنى المحتج بأغنياء الصحابة
- ٢٤٠ شربة من الدنيا
- ٢٤٢ ذكر الله تعالى أفضل من الإنفاق
- ٢٤٤ الإقرار بالتقصير خير من التماس المعاذير
- ٢٤٨ حال آل بيت النبوة ونصيبهم من الدنيا
- ٢٤٩ هذه الدنيا فاحذروها

كتاب ذم الجاه والرياء

- ٢٥٥
- ٢٥٧ شدة خفاء الرياء
- ٢٦٠ الشطر الأول: في حب الجاه والشهرة
- ٢٦٠ بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت
- ٢٦٠ الأخبار في ذم الصيت والشهرة

- ٢٦٥ بيان فضيلة الخمول
- تحريجة: فكيف عظمت شهرة الأنبياء والراشدين والأئمة وفاتهم
- ٢٦٩ فضيلة الخمول؟
- ٢٧٠ بيان ذم حب الجاه
- ٢٧٢ بيان معنى الجاه وحقيقته
- ٢٧٣ حدُّ الجاه
- بيان سبب كون الجاه محموداً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد
- ٢٧٥ المجاهدة
- لملك القلوب ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه
- ٢٧٥ تحريجة: لِمَ يحب الإنسان من المال والجاه ما يقطع هو بعدم انتفاعه به؟
- ٢٧٨ بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له
- ٢٨٦ كمال العلم لله وحده
- تقسيم المعلومات إلى متغيرات وأزليات
- ٢٨٧ الكمال الحقيقي في العلم بالله وبصفاته وأفعاله
- ٢٨٨ لا سعادة إلا في معرفة الله وما يعين على هذه المعرفة
- ٢٨٨ لا مطمع للعبد في تحصيل القدرة الحقيقية
- ٢٨٩ ابتعاد العبد عن التغير والتأثر بالعوارض هو كمال الحرية
- ٢٩٠ الباقيات الصالحات العلم والحرية
- ٢٩١ بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم
- ٢٩٣

- تحريجة: طلب المنزلة في القلوب لتحقيق الأمر مباح على الإطلاق
أو له حد مخصوص؟ ٢٩٤
- بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس له وميل الطباع إليه
وبغضها للذم ونفرتها منه ٢٩٧
- إبطال هذه اللذائذ ٢٩٩
- بيان علاج حب الجاه ٣٠١
- عنتُ محبِّ الجاه في شغله بالخلق ٣٠١
- ما بينى على قلوب الخلق كالذي بينى على أمواج البحر ٣٠٣
- تفصيل القول في أفعال الملامية ٣٠٤
- أرباب الأحوال قد يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه ٣٠٤
- العزلة خير دواء إن تحقق شرطها ٣٠٥
- بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم ٣٠٧
- إن كنت فاضلاً فالمدح لا يزيدك فضلاً ٣٠٨
- طلبك للمنزلة عند الناس يسقط منزلتك عند ربِّ الناس ٣٠٩
- بيان علاج كراهة الذم ٣١٢
- الذام لا يخلو من ثلاثة أحوال ٣١٢
- بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم ٣١٦
- من لم يطلع على آفات النفوس أكثر عباداته تعب ضائع ٣١٧
- الشرط الثاني: في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرياء ٣٢٢
- بيان ذم الرياء ٣٢٢

- بيان حقيقة الرياء وما يراءى به ٣٣٦
- حد الرياء ٣٣٦
- تحريجة: الرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟ ٣٤٤
- تصوّر الرياء من غير حرمة ٣٤٥
- تزئنه صلى الله عليه وسلم للخلق عبادة ٣٤٦
- الرياء سجود وركوع لغير الله تعالى ٣٤٨
- بيان درجات الرياء ٣٥٠
- أركان الرياء ٣٥٠
- لا حجة للمرائي بفعله لأجل صون الناس عن غيبته ٣٥٦
- ليس للعبد أن يدفع عنه ذم الخلق بالمرءاة بالطاعة ٣٥٧
- بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من ديب النمل ٣٦٢
- لا يروج يوم القيامة غير الخالص ٣٦٥
- تحريجة: هل كل سرور بالطاعة مذموم أو فيه تفصيل؟ ٣٦٦
- بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبطه ٣٦٨
- بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه ٣٧٨
- بيان مضرّة الرياء ٣٨١
- أغلق الباب عند الطاعة كما تغلقه عند المعصية ٣٨٤
- دفع الخاطر الأول خير معين على دفع الرياء ٣٨٥
- تحريجة: إن أبى الرياء ولكنه غير خال عن ميل إليه فهل يؤاخذ؟ ٣٨٨
- مراتب المتخلصين عن الرياء في دفع خواطر الرياء ٣٩٠

- ٣٩١ - مثال جامع يوضح هذه الرتب الأربعة
- ٣٩٢ - تحريجة: الحذر من الشيطان أ يكون بالترصد له أم بالتوكل على الله أم بالغفلة عنه؟
- ٣٩٣ - قد تكون وسوسة الشيطان في صفات الله وتحسين البدع والضلال ...
- ٣٩٥ - الحذر من الشيطان لا ينافي الاشتغال بحب الله تعالى
- ٣٩٩ - بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات
- ٤٠٦ - بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له
- ٤١٢ - متى يكون الحياء ضعفاً
- ٤١٣ - تحريجة: فهل له أن يحبه الناس لصلاحه؟
- ٤١٥ - بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات
- ٤١٨ - تحريجة: فما القول فيمن ترك العمل مخافة الشهرة؟
- ٤٢١ - الخلافة والإمارة من أفضل العبادات
- ٤٢٧ - تحريجة: لو حكمنا بهذا التدقيق تعطلت العلوم وعمّ الجهل
- ٤٢٩ - لا تشغل قلبك بأمر الناس واشتغل بشأن نفسك
- ٤٣٠ - إلى ما آل إليه أمر الوعظ
- ٤٣٢ - تحريجة: أليس الأولى أن يقرّ على وعظه ونطالبه بالمجاهدة؟
- ٤٣٣ - آفة الرياء في العبادات ضعيفة بخلاف الولايات
- ٤٣٦ - تحريجة: فما علامة الصادق من الوعّاظ والعلماء؟
- ٤٤٠ - بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

- ٤٤٢ - إن علم جزمًا أن داعي الزيادة هو الرياء لم يزد على ما اعتاده
- ٤٤٣ - التفريق بين البكاء لله تعالى والبكاء رياءً
- ٤٤٥ - تعوذوا بالله من خشوع النفاق
- ٤٤٨ - بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه
- ٤٥٠ - من انتظر ثناء من الخلق ومحمدة فقد أخذ أجره
- ٤٥٥ - من تقرّر في نفسه أن ليس في الوجود سوى الله جاوزه الرياء

كتاب ذمّ الكبر والعجب

- ٤٥٩
- ٤٦٣ الشطر الأول: في الكبر
- ٤٦٣ بيان ذم الكبر
- ٤٦٥ - الكبر قرين الشرك بالله
- ٤٦٨ - حسب المتكبرين من الوبال أن يُسقوا من طين الخبال
- ٤٧٠ - الكبر من فخوخ الشيطان
- ٤٧٢ بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب
- ٤٧٥ - المتكبرون إخوان الشيطان
- ٤٧٦ بيان فضيلة التواضع
- ٤٧٦ - التواضع لله يثمر الرّفعة
- ٤٧٨ - ذو الشأن المتواضع من صفوة الله
- ٤٨١ - التواضع أفضل العبادة
- ٤٨٧ - الموحد لا يثبت نفسه فكيف يضعها؟!

- ٤٨٩ بيان حقيقة الكبر وآفاته
- ٤٩٠ - أركانُ خُلق الكبر ثلاثة
- ٤٩٠ - التكبرُ أعمال تصدر عن خُلق الكبر، وله صور شتى
- ٤٩٢ - صاحبُ الكبر مضطّرٌّ إلى كلِّ خُلق ذميم ليحفظ عزّه
- ٤٩٥ بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه
- ٥٠٣ بيان ما به التكبر
- ٥٠٣ - ما أسرع الكبر إلى العلماء
- ٥٠٧ - العالم المتواضع يندُر وجوده على بسيط الأرض
- ٥١٣ - درجات العلماء والعباد في آفة الكبر
- ٥١٧ - العزُّ لا يقمعه إلا الذلُّ
- ٥٢١ بيان البواعث على الكبر وأسبابه المهيجة له
- ٥٢٤ بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر
- ٥٢٧ - ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر
- ٥٢٩ - بين الخشونة واللين
- ٥٣٢ - المحبوبُ من اللباس الوسطُ
- ٥٣٨ بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع
- ٥٥٧ - للعالمِ قدرٌ عند الله ما لم يرَ لنفسه قدرًا، وإلا فلا
- ٥٦٣ - العلم حجة على العالم، أو وسيلة له
- ٥٧٢ بيان غاية الرياضة في خلق التواضع
- ٥٧٢ - التواضع للذنوب تخاسس مذموم، والمحمود المطلق هو العدل

- الشرط الثاني : في العجب ٥٧٤
- بيان ذم العجب وآفته ٥٧٤
- مَنْ ظن أنه محسن فهو مسيء ٥٧٧
- بيان آفة العجب ٥٧٨
- بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما ٥٨٠
- بيان علاج العجب على الجملة ٥٨٢
- أنت وأوصافك وعملك من خلق الله ، فلا تعجب بما ليس إليك ٥٨٤
- العقل مع الفقر عدلٌ ٥٨٧
- بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه ٥٩٢
- لا تترك الحمية لحذاقة الطبيب ٥٩٨

٦٠٥ كتاب ذم الغرور

- أرباب البصائر قلوبهم كمشكاة والمغترّون قلوبهم كظلمات ٦٠٧
- بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثله ٦١٠
- حنين الإنسان إلى جوار ربّه طبعيّ ذاتيّ إلا أن يصرفه عارض غريب .. ٦١٧
- إقبال الدنيا أمانة المقت عند أرباب البصائر ٦٢٢
- أطراد النعم مع زيادة الذنوب استدراج ٦٢٣
- توقع المغفرة مع التوبة رجاء ، ومع الإصرار غرور ٦٣٠
- بيان أصناف المغترّين وأقسام فرق كل صنف ٦٣٦
- الصنف الأول : أهل العلم ٦٣٦

- ٦٣٨ - من علم فلم يعمل كان كالكلب أو الحمار
- ٦٥٢ - من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال
- ٦٥٤ - الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية
- ٦٦٣ - الاشتغال بالطامات والشطح طلب للإغراب
- ٦٧٦ - الصنف الثاني : أرباب العبادة والعمل
- ٦٧٧ - تحقيق حروف الفاتحة مع الذهول عن المعنى من أقبح أنواع الغرور
- ٦٨٤ - ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الغرور
- ٦٨٧ - الصنف الثالث : المتصوفة
- ٦٩٩ - الصنف الرابع : أرباب الأموال
- ٧٠٧ - تحريجة : لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات ؟
- ٧٠٩ - تحريجة : فبم ينجو العبد من الغرور ؟
- ٧١٤ - تحريجة : إن فعل العبد ما ينجو به من الغرور فما الذي يخاف عليه ؟
- ٧١٨ - تحريجة : متى يصح أن يشتغل بنصح الناس ؟
- - تحريجة : لو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا
- ٧١٩ - عن الوعاظ وخربت القلوب ؟
- - تحريجة : ما الذي بقي بين يدي المريد من الأخطار وحبائل الاغترار
- ٧٢٠ - بعد علمه بمكيده الشيطان وإصلاح نفسه ؟
- ٧٢١ - تحريجة : ما الذي يُخاف على المريد بعد نفي العجب ؟
- ٧٢٥ - محتوى الكتاب